الجمهوريـــــــــــــة الجزائريـــــــــــة الديمقراطيـــــــــــة الشعبيـــــــــــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي





جامعة وهران 1 –أحمد بن بلة–

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

قسم التاريخ وعلم الآثار

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر موسومة بـ:

الأمير عبد القادر وإسهاماته في النهضة العربية بالجزائر وبلاد الشام بين النظري والتطبيقي 1832م-1860م

إعداد الطالبة: حرشوش كريمة

بإشراف: د. حمدادو بن عمر

أ.د/ دادة محمد	جامعة وهران 1 –أحمد بن بلة–	رئيسا
د/ حمدادو بن عمر	جامعة وهران 1 –أحمد بن بلة–	مشرفا ومقررا
د/ بن جبور محمد	جامعة وهران 1 –أحمد بن بلة–	مناقشا
أ.د/ بن داهة عدة	جامعة معسكر	مناقشا
أ.د/ مكحلي محمد	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
أ.د/ أوعامري مصطفى	جامعة تلمسان	مناقشا

السنة الجامعية: 1438هـ-1439هـ/ 2017م-2018م


بسم الله الرحمن الرحيم

قبس

إنني لم أتقدم لتولي مسؤولية الحكومة بمحض الطموح، أو الرغبة في السلطة والجاه، أو حبا في ثروات الحياة الدنيا، ولكن -والله وحده يعلم أسرار القلوب- لأحارب في سبيل الله ولأحقن الدماء بين المسلمين، ولأحمي أملاكهم ولأمجد البلاد، كما تقضي ذلك الغيرة على الدين والوطنية، ومنذ تحملنا المسؤولية ونحن بالمرصاد ليلا ونهارا متنقلين في طول البلاد وعرضها، في السهل والجبل، مرة نقود المعارك وأخرى ننظم شؤون الدولة.

الأمير عبد القادر الجزائري

الإهــداء

أهدي ثمرة جهدي لكل من كانوا خير معين لي في إعداد هذا البحث:

إلى روح الفقيدة بقبق زهرة الله يرحمها في جنان النعيم.

إلى أمي الحنون الغالية بارك الله في عمرها ومدّ لها فيه...

إلى والدي الكريم الذي كان لي خير سند في إتمام هذا العمل، حفظه الله وبارك في عمره ومد له فيه...

إلى زوجي الكريم الذي بذل الكثير من وقته في مساعدتي على إنجاز هذا البحث وصبره حتى رأى هذا العمل النور...

إلى جميع إخوتي وأخواتي وأقاربي...

إلى كل زملائي وزميلاتي بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بجامعة إبن خلدون بتيارت، وأخص بالذكر الأساتذة الذين زودوني ببعض الوثائق الضرورية لهذا البحث: الأستاذ حسنة، الأستاذ الزاهي، الأستاذ خنيوي الأستاذ بوخالفة، الأستاذ مداح، الأستاذ بوخاري.

إلى كل من ساهم في إعداد هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة.

حرشوش كريمة.

شكـــــر وامتنــــان

أتقدم بخالص الشكر والإمتنان إلى سيدي الفاضل الأستاذ الدكتور حام منور الذي لم ولن تسعه عبارات الشكر والثناء مهما كانت، والذي كان سندا لي طيلة مشواري الدراسي فيما بعد التدرج إلى غاية إنجازي لهذا البحث وإخراجه إلى النور، فله مني خالص الشكر الجزيل على ما أفادني به من ملاحظات قيمة أعانتني كثيرا في بحثي.

كما أتقدم بالشكر العميم إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور حمدادو بن عمر الذي كان نعم المعين في إعداد هذا البحث، فله مني جزيل الشكر و الإمتنان على ما أفادني به من ملاحظات قيمة ونصائح سديدة.

وهذا العمل مدين أيضا بالشكر والإمتنان للأستاذة الدكتورة بلهواري فاطمة على توجيهاتها ونصائحها القيمة التي زادتني ثقة لمواصلة البحث.

والشكر موصول أيضا إلى كل أساتذة جامعة وهران قسم التاريخ وعلم الآثار.

كما لا أنسى أن أقدم شكري الجزيل إلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة من أجل الحصول على مخطوطات الموضوع وأخص بالذكر:

عميد كلية العلوم الإسلامية بجامعة السلطان محمد الفاتح بإسطنبول الأستاذ الدكتور أحمد طوران أرسلان والأستاذ قاسم أمين نائب العميد والأستاذ سعدي خير الدين.

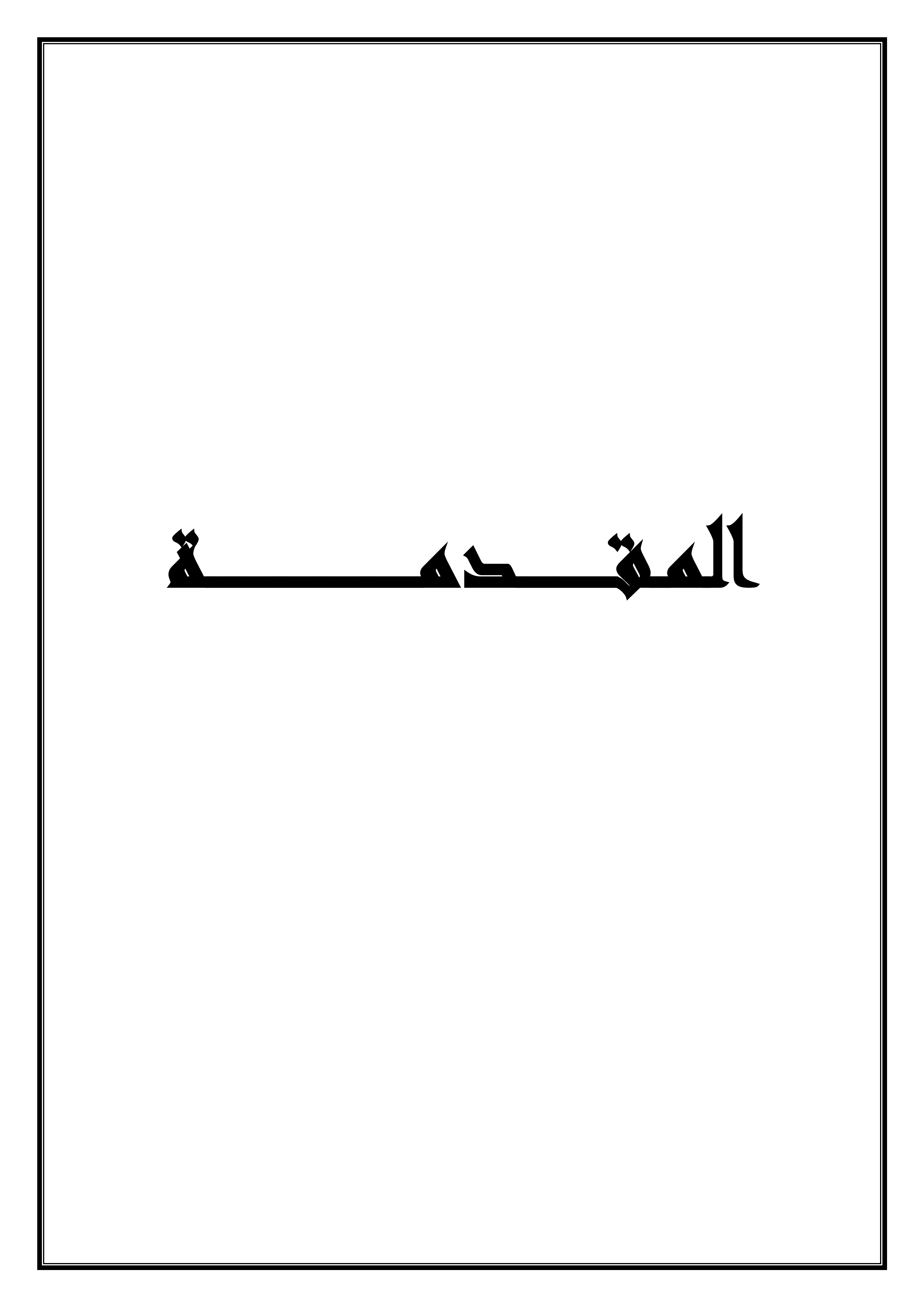
عمال دور المحفوظات بدائرة الأرشيف العثماني وعمال مكتبة السلطان محمد الفاتح الوقفية.

كما أشكر كل من ساهم في إعداد هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

حرشوش كريمة.

قائمة الإختصرات

المختصرات باللّغة العربية	المختصرات باللّغة الأجنبية
د.ط: دون طبعة د.ت: دون تاريخ ق.م: قبل الميلاد م: ميلادي هـ: هجري ص: صفحة صص: من صفحة إلى صفحة ج: جزء ط: طبعة تح: تحقيق تق: تقديم تع: تعليق خ.ع: الخزانة العامة م.ت.م: المجلة التاريخية المغربية د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع	R.A : Revue Africaine Ed : Edition P : Pages PP : De la page à la page S.D : Sans date S.H.D : Service historique de la défense F : Foullion P.U.F : Presse universitaires de France O.P.U : Office de publicatio universitaire E.D : Edition didier H : La série R.H : Revue historique R.S.P : Revue de sciences politique Ibid : Ibidem T : Tome N : Numéro HAT : Hatt-i Humayun (خط همايوني) IHR : Irade Hariciye (الإرادة الخارجية) I.MMS : Irade Meclis-i Mahsus (إرادة المجلس الخاص). D.L.E : Dentu Libraire Éditeur



المقـــدمـــــة

مقدمة:

إن وجود "الأمير عبد القادر" على مسرح الأحداث السياسية في الجزائر جاء نتيجة ظروف وأبعاد واختيارات، فقد كان شابا يافعا في عمر الأربعة والعشرين سنة، وسرعان ما وجد نفسه أمام خيار البقاء على الحياد أو مواجهة الآلة الإستعمارية ومشروع الهيمنة الأجنبية، ونزولا عند رغبة الشعب أختير ليكون قائدا للجهاد، وتحوّل إلى أمير للدولة الجزائرية الحديثة التي قام بتأسيسها، فلم يكن لها نسيج إجتماعي منسجم، وليس لها مقر حكومي ولا جيش محلي ووطني، ولا مال ولا تقاليد وروابط رسمية مع بقية المجتمع الجزائري، فبعد استسلام الداي حسين في 5جويلية 1830م، إعتقد الفرنسيون آنذاك بأنّ الروابط الرسمية التي كانت للدولة العثمانية مع الجزائر أصبحت من صلاحيات الدولة الفرنسية، غير أن الشيخ "محي الدين" وابنه "الأمير عبد القادر" رفضا ذلك وطالبا من الشعب الجزائري الدفاع عن حريته وكرامته ووطنه، مستحدثين بذلك القطيعة مع الدولة العثمانية التي عجزت عن مواجهة الغزو الفرنسي، فحدثت المبايعة بدون حضور ممثل عن الدولة العثمانية أو المغربية، وكانت الإنطلاقة الحقيقية لميلاد الدولة الجزائرية المستقلة الحديثة بكيانها ومؤسساتها العسكرية، وهذا ما سعى إلى تحقيقه "الأمير عبد القادر" منذ حصوله على البيعة الخاصة في 27 نوفمبر 1832م التي كانت كخطوة أولية لتنظيم الدولة والنهوض بمؤسساتها وتطويرها، هذا ما يؤكد مقدار تعلقه بروح التجديد الذي بقي متأججاً في نفسه حتى بعد إطلاق سراحه، وإقامته بالمشرق.

لقد كان هدفه من ذلك تغيير المجتمع تغييراً جذرياً، ونقله من التخلف إلى النهضة، ومن الهيمنة عليه إلى الحرية، إنطلاقاً من قناعته الشخصية ووطنيته، وموقفه من الإستعمار ومكانة التصوف في حياته، ومدى تأثره بمعالم فكره السياسي وربطه بتصوره للدولة والإصلاح، وحنينه إلى الأقطار الإسلامية.

ومن الأفكار التي سيطرت على سيرته أيضا فكرتا الوطنية والقومية، وبعث الروح المعادية للسلطة الأجنبية التي احتلت البلاد وحاولت القضاء على شرف شعبه، فقد اتفقت معظم روايات القادة الفرنسيين الذين عرفوه عن كثب، أنّه كان يعمل على بعث قومية عربية، وهم يقصدون بذلك جهوده في جمع كلمة الجزائريين لمواجهة العدو المشترك، أمثال: "المارشال فاليه، والمارشال بيجو، والجنرال دوماس، والجنرال لامورسيير وغيرهم"، ولذلك عملوا من أجل تعطيل هذا المشروع في مهده، فنجاحه يشكل خطرا على الوجود الفرنسي بالجزائر.

من هذا المنطلق سنحاول أن نميط اللّثام عن شخصية الأمير في مرحلتي جهاده الأصغر والأكبر، أي كمجاهد للإستعمار الأوربي الحديث في الجزائر، ومعلم ومربي في مجال التصوف الإسلامي وناشر لفكرة الإصلاح الإجتماعي والسياسي في المشرق، وسنلقي الضوء في هذه الدراسة على مشروعه النهضوي في الجزائر من خلال تأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة (1832م-1847م)، نظريا وتطبيقيا، ومشروعه السياسي والإجتماعي في بلاد الشام ومسؤولياته القومية والدينية ومواقفه من الفتنة الطائفية فيها (1856م-1860م).

إن أهمية موضوع الدراسة قيد الإنجاز يطرح عدة قضايا مهمة ومتعددة، نبدؤها بقول الفيلسوف الكبير والكاتب الأسكتلندي "كارليل توماس Carlyle Thomas" في كتابه الأبطال حيث يقول: "... هناك شعوب تصرخ مستغيثة بأعلى صوتها: أين البطل؟ أين الزعيم؟ إنّه ليس هناك، لم تبعث العناية الإلهية به بعد، وينهار المجتمع لأن البطل لم يظهر حين نودي عليه...؟!". من خلال هذه المقولة نرى أن مفهوم البطل في التاريخ الذي أخذ به كارليل يخرج عظماء الرجال ويقدّسهم، وفي نظرنا "الأمير عبد القادر" واحد من هؤلاء، فاستجابة للعلاقات الإنسانية وجوابا عن التناقضات الإجتماعية والإقتصادية فالرجل البطل يأتي ليغيّر مجريات التاريخ، والأزمات الحادة هي التي تستدعي ظهوره، وتتطلبه حاجة إجتماعية ويصبح كآداة اقتضتها الحتمية التاريخية لإزالة تلك التناقضات وتجاوز المشاكل فيصبح دوره حيويا ورئيسا في حياة الشعوب وفي صنع الأحداث.

كما أن كل قراءة تاريخية متأنية، لا تستبعد ظهور هذا البطل في وقت تأزمت فيه الأوضاع في الجزائر منذ مستهل القرن التاسع عشر، ضف إلى ذلك فدراستنا لشخصية "الأمير عبد القادر" وثقافته تنصب في الحوار الدائر حول مشاكل "النظرية والتطبيق"، أو مايسمى "الأصالة والمعاصرة" أو "العراقة والحداثة"، وحول قضايا إجتماعية كقضية "المرأة"، "المحبة"، "التربية والتعليم"، فالأمير عبد القادر يسعى سعي آبائه ونظرائه حسبما تقتضي الظروف والتقاليد السائدة، يطلب الأمن والعلم، والعمل والجهاد، والعمران والبناء، ويفيد من الرحلات لاسيما المشرقية منها فوائد دينية ودنيوية، ويقتبس منها ما يناسب من العادات، فقد دفعته مواريثه الإجتماعية وخصائصه الذاتية وبيئته التي عاش في وسطها، ليحمل أعباء النيابة عن الآخرين ليقف وقفة رجل واحد أمام تلك الأزمات الطارئة موقف الصدارة والمواجهة.

لو أردنا أن نتساءل حول الجوانب التي يتفرد بها عن نظرائه من رجال النهضة العربية الإسلامية الحديثة لقلنا: إنّ إمتيازه عن غيره من رموز الطليعة العربية ممن تفتّحوا على الغرب وتلقّنوا حضارته، يكمن في كونه تحاكك مع هذا الغرب في ظروف لم تكن توفّر له ما وفرته لأولئك الطلائع من عوامل التكيّف وأسباب التقبّل والتفاعل الإيجابي، فالأمير تواصل مع الغرب في ظروف حرب غير متكافئة –إختلال موازين القوى– وباشرهم جانحا إلى السلم بعد طول تحامل وتماسك، وأسّس أوّل دولة عربية جزائرية حديثة ومقاومة، وهو صاحب أول مشروع إستقلالي عربي، إلا أنه حتى اللحظة لم يقم أحد بكتابة تاريخه من وجهة نظر الفكر القومي العربي الإسلامي الحديث بالتحليل والتفصيل، فقد تحول إلى نص يستقرؤه أعداؤه ويكتشفون ما لم يتهيأ لهم أن يكتشفوه فيه على الساحة، فهم لأوّل مرة يقفون أمام نموذج لعزّة تنتمي إلى حضارة آفلة لا تزال تحتوي على جذوة حيّة للإشتعال، وهي روح العقيدة التي مكّنته من الفوز والإنتصار.

إنّ بحثنا يندرج ضمن هذا المسعى، فهو محاولة رصد وبحث في ثنايا تراث شخصية ملحمية إرتبط إسمها دائما بإسم تأسيس دولة كبيرة هي الجزائر، كما هو محاولة لإبراز وجهة نظر هذه الشخصية الجزائرية حول موضوع المشروع النهضوي الأميري في الجزائر وفي بلاد الشام، وتبيان إضافاتها وإسهاماتها الفكرية لإثراء الثقافة الإنسانية.

بالرغم من أن شخصية مثل شخصية الأمير عبد القادر الجزائري لا يمكن أن تختصرها الدراسات والتعريفات والكتابة عنه ربما تعد مجازفة، إلا أننا إخترناه دون سواه ليكون موضوع بحثنا، لأنه يمثل في نظرنا إستثناءا تاريخيا قلّ نظيره في العالم الإسلامي، حتى أن نصوصه ومواقفه تمثل أيضا تميّزا فريدا من حيث التفاصيل والتمثيل معا.

وعليه إخترنا موضوع الأمير عبد القادر في هذه الدراسة لعدة اعتبارات منها:

– أولا: أن هذه الشخصية فريدة من نوعها، خاصة إذا نظرنا إلى نزعته الأخلاقية الإنسانية، التي عدنا ننساها أو نتناساها في زحمة الحياة المدنية العصرية.

– ثانيا: تشجيع أستاذي المشرف لي من أجل دراسة هذا الموضوع لأنه كان من ضمن مشاريعه، وأرشدني إلى كيفية التعامل مع النصوص التاريخية، خاصة المخطوط، من منطلق المعرفة والخبرة، لا من منطلق إملاء الرأي والتشبث.

– ثالثا: إن دراسة هذا الموضوع كوحدة مستقلة من قبل الباحثين والمؤرخين حسبما اطلعنا عليه توفر مادة خصبة للبحث. فعند قراءتنا لسيرة الأمير عبد القادر، ومساره الحربي الجهادي وبنائه لمؤسسات الدولة الجزائرية الحديثة، وحتى في منفاه بالمشرق، وبعد مراجعتنا لبعض المؤلفات التي تترجم في مجملها حياة الأمير مهتمين بأعماله المرتبطة بالحرب والدّبلوماسية والسّياسة، لاحظنا أنه لايمكن فصل جانب على آخر أثناء دراستنا لسيرة الأمير، فهو بفكره النهضوي التجديدي جمع بين كل الجوانب السياسية والإقتصادية والثقافية والدينية والعسكرية وحتى الروحية، وغيرها من الجوانب الأخرى، فسيرته هي عبارة عن كل مركب يجمع كل هذه الجوانب ببعضها، وجب علينا دراستها والإلمام بها في بحث واحد.

– رابعا: لا نكاد نجد في الكتب التي تؤرخ للنهضة العربية ذكر لهذه الشخصية الفذة، إلا وهو مرتبط بمقاومة الإستعمار الفرنسي، أو بوقوفه ضد الفتنة الطائفية 1860م، وتبيان علاقته المناهضة للإستعمار الفرنسي أو بزياراته المتعددة إلى الأستانة، ومصر وباريس...إلخ، غير أنّه كانت له آراء خاصة في قضايا العقل والأخلاق واللغة والتصوف والوحدة الإسلامية، ما يجعله يندرج في عداد رجال النهضة المبكرين، بتميّزه على أنه رجل سياسة وفكر في آن واحد، ينظر ويطبق في آن واحد، وكان داعية من دعاة وحدة الأمة في الأهداف والمنطلقات، وهذا كان من بين أهم الأسباب التي دفعتنا للبحث حول هذا الموضوع، سنثبت ذلك في مواقف عديدة خلال هذه الدراسة.

– خامسا: إتجاهنا لدراسة إسهام الأمير في النهضة العربية بدوافع معرفية ذاتية، فمن خلال قراءتنا لما كتبه الأمير بنفسه وما كتب عنه، ظهر لنا البعد الإنساني الإسلامي في مشروعه، ولمسنا في شخصيته مبادئ وقناعات هي من مقوّماته الشخصية الجزائرية، وهي إحدى مقوّمات الإنسان العالمي المتفتّح على كل الثّقافات والحضارات والدّيانات، هذا على أن هناك دوافع موضوعية أخرى نذكر منها:

1- الوقوف على بعض الأحكام التعميمية ومحاولة تصحيحها والتي يمكن أن نقول أنها مجحفة في حق "الأمير عبد القادر" الذي راح ضحية بعض المؤرخين الذين اختصروا حياته بدمشق، وأعابوا امتلاكه لبعض البيوت في بلاد الشام.

2- محاولة تدعيم المسار الذي دعت إليه وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بضرورة الإهتمام بعلماء الجزائر ومفكريها وإثراء الدراسات حول الحوار بين الحضارات والثقافات.

أما أهداف هذا البحث فيمكن تلخيصها كما يلي:

1- التعريف ببعد مهم من أبعاد شخصيّة "الأمير عبد القادر" من خلال مواقفه وكتاباته.

2- التعرّف على مدى إسهامات "الأمير عبد القادر" في إثراء الفكر البشري والتأكيد على أنّ للجزائر شخصيّات علمية نهضوية من الطراز الإنساني العالي.

3- إبراز الدور الكبير الذي لعبه "الأمير عبد القادر" لإنجاز مشروعه النهضوي في كل من الجزائر وبلاد الشام حسب منظوره، فالنهضة عنده هي تلازم بين الجانبين النظري والتطبيقي، والتي يؤمن بها كنظرية إصلاحية مستقبلية إبداعية جديدة ينتفع بها المجتمع، الأمر الذي لم نجده عند العديد من المصلحين، وكل ذلك كان تحديا للإستعمار الفرنسي، نظرا لعدم تفاعل الشعب الجزائري وإدراكه لنواياه الحقيقية.

4- محاولة شرح تاريخنا الوطني من خلال فهم مشروع الدولة الجزائرية الحديثة فهما موضوعيا، وإعطاء الشعب الجزائري والأمير عبد القادر بعدهما الحقيقي في المقاومة الشعبية الوطنية، وفق أسس حضارية وقواعد واقعية في المشروع النهضوي الحداثي الأميري، والمتمثل في الدولة الجزائرية الحديثة بكل مقوّماتها وأسسها، هذا بالإضافة إلى دوره ومسيرته النضالية والبطولية في بلاد الشام.

5- كما يتحدد الهدف من هذه الدراسة في المساهمة لإعادة قراءة تراث الأمير عبد القادر قراءة نقدية، تحدد ملامح عصره وترسم صورته في ذاكرة الأجيال العربية خاصة الجزائرية، بعيدا عن الإعتبارات الظرفية والمواقف السياسية، وذلك لكون تجربة الأمير وما تحمله من دلالات حضارية ومضامين إنسانية، كفيلة بتجديد التواصل مع موروثنا التاريخي وإستعادة الوعي بذاتنا والثقة بأنفسنا.

لقد اقتصرت كتابة تاريخ الجزائر في الفترة الأميرية في الغالب على كتابات أجنبية ومغاربية، وكانت تفتقد في كثير من الأحيان للموضوعية في الطرح، ولذلك سنحاول إعادة كتابة تاريخ هذه الفترة المهمة إنطلاقا من الرغبة الملحة في الوقوف على بعض الحقائق التاريخية وتصحيح بعضها، وهي محاولة لتزويد مكتبتنا بدراسة موضوعية يستفيد منها طلبتنا، لتكون لهم بمثابة حافز للبحث في التاريخ الحديث.

أمّا عن أسباب تحديد هذا الموضوع بالفترة الممتدة مابين 1832م- 1847م فلأنّها المرحلة التي تجسّدت فيها معالم الفكر السياسي للأمير عبد القادر، والتي تجلت في بنائه للدولة الجزائرية الحديثة، التي أدخل عليها هيكل وتنظيمات مختلفة، ومؤسّسات بقيت قائمة إلى حين وقفه للقتال سنة 1847م.

أما عن الفترة الممتدة من 1847م- 1860م، وفيها مرحلتين: المرحلة الأولى من 1847م إلى غاية 1852م، وهي تمثل نهاية المشروع النهضوي الأميري في الجزائر، وإجهاض الدولة الجزائرية الحديثة من قبل قوات الإحتلال الفرنسي، التي عمل الأمير عبد القادر من أجل بنائها والذي كان مصيره الإعتقال التعسفي في سجون فرنسا. أما المرحلة الثانية من 1852م إلى 1860م، فهي تمثل فترة ظروف الأمير ما بعد الحرية، خاصة فيما يتعلق بوجوده في المشرق والدور الذي لعبه في إفشال المخطّطات الإستعمارية المتمثلة في محاولة احتلالها لبلاد الشام، والذي تصدى لها من خلال عمله الإنساني عندما قام بإخماد الفتنة الطائفية لعام 1860م التي كادت أن تقضي على المسيحيين والخلافة العثمانية،مظهرا بذلك مسؤوليّاته السّياسية والإجتماعية اتجاه الشّوام والتي تعتبر من أهم المشاريع التي خاضها الأمير منذ وجوده في أرض الشام.

في هذا البحث حاولنا إختبار صحة الفرضيات الآتية:

الفرضية الأولى: إستطاع الأمير عبد القادر أن يؤسّس نظريّا وعمليّا أسس الدولة الجزائرية الحديثة.

الفرضية الثانية: بقيت روح التجديد والإصلاح متأجّجة في نفس الأمير عبد القادر حتى بعد إطلاق سراحه وإقامته في المشرق.

الفرضية الثالثة: قامت السّلطات الفرنسية بحبس الأمير عبد القادر ورفاقه حبسا تعسفيا، ولم تراعي فيه بنود الثورة الفرنسية.

الفرضية الرابعة: مشروع الأمير عبد القادر يشكل أرضية معرفية علمية تأسيسة، تساعد على الخروج من نفق مشكلة الهوية المغلقة الذي تعيشه البشرية في وقتنا الحالي.

وبما أنّ طبيعة الموضوع تتحكم إلى حد بعيد في نوع المنهج المتبّع فإننا استخدمنا المنهج التاريخي، حينما تعرضنا للإلمام بالعصر الذي عاش فيه "الأمير عبد القادر" وحياته، قصد معرفة الأطر المكانية والزمانية التي أثرت بالإيجاب على فكره، والذي جعله يتميز به عن غيره من رواد النهضة العربية.

إلى جانب المنهج التاريخي التحليلي الذي يعتمد على الطريقة المنهجية في تحليل النصوص التاريخية، وذلك أثناء تحليلنا للإشكاليات المطروحة سابقا والخروج منها بفوائد لإثراء الدراسة التاريخية.

إضافة إلى المنهج التاريخي النّقدي الذي لا يغفل التدقيق والتحقيق، وذلك في عمل منهجي يراد به وصف الوقائع وتفسيرها بغية الإنطلاق من العام إلى الخاص، ومن أجل الإجابة على الإشكاليات لإثبات الفرضيات

أو نفيها بالإعتماد على خطة بحث، ويتم ذلك أثناء دراسة الوثائق الأرشيفية والمخطوطات التي اعتمدنا عليها في الدراسة قيد الإنجاز.

إذن فمحاولة منّا الإرتقاء بالموضوع إلى المستوى المطلوب، كان لابد من تسليط الضوء حول إسهام "الأمير عبد القادر" في النهضة العربية وتأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة، والذي نعتبره أعظم إنجاز أنجزه العقل السياسي العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر، إذ استطاع أن يؤسّس دولة تضاهي في مؤسساتها وأجهزتها وقوانينها الدول الغربية المعاصرة لها في الحداثة، وقطع بذلك المفاهيم التقليدية التي كانت تؤسّس عليها الدول العربية، إضافة إلى مساهمته في المشروع القومي والديني في بلاد الشام، وسعيه في إطفاء نار الفتنة الطائفية بدمشق 1860م.

وعليه يمكننا صياغة الإشكال الخاص لهذه الدراسة كالآتي:

- هل كان للأمير عبد القادر إسهامات نهضوية؟ وإذا كانت فعلا هل تجسّدت في الجزائر فقط أم أيضا في بلاد الشام؟

ولتسهيل مجال الدراسة كان لابد من تفكيك هذا الإشكال الخاص إلى تساؤلات فرعية كالآتي:

- ما هي الأسس التي أقامها من أجل مواجهة الصراع الحضاري والمشروع الإستعماري الفرنسي لما يطرحه الواقع الإجتماعي والثقافي والسياسي والإقتصادي؟

- كيف تمكن هذا القائد من وضع الأسس الأولى لبناء دولة جزائرية حديثة؟ وما هي السّمات التي طبعتها والإصلاحات التي أدخلتها على هياكلها وتنظيماتها المختلفة؟

- هل كان الأمير عبد القادر حقّا ذلك البطل الذي اقتضته الأوضاع المتأزّمة والظروف الصعبة التي كانت تعيشها الجزائر؟ وكيف استطاع أن يحصد كل تلك الإنتصارات مدة سبعة عشر سنة بالجزائر؟

- ما هي الدوافع التي جعلت الأمير عبد القادر ورفاقه يوقفون القتال سنة 1847م؟ وكيف كان مصيرهم؟

- ما مدى تقدير العالم لهذه الشخصية الفذّة؟

إن مسار هذه الدراسة في سيل الإجابة على الإشكال العام، والتساؤلات الفرعية المطروحة، مع محاولة إثبات صحة أو دحض الفرضيات المشار إليها سابقا، فرض علينا ضبط الموضوع ضمن حلقات متسلسلة مترابطة ومتكاملة، إستوجبت إتباع خطة بحث اشتملت على مقدمة عامة للموضوع فيها نطرح إشكالية الموضوع وأهميته، إضافة إلى مدخل تاريخي وأربعة فصول وخاتمة، تتضمن أهم النتائج المتوصّل إليها من البحث ،وملاحق تكون متصلة عضويا بالبحث.

فالمدخل التاريخي تحدثنا فيه بإيجاز عن الأوضاع العامة في الجزائر وفي بلاد الشام مع أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وذلك من أجل التعرف على الأوضاع الداخلية للبلدين، وتحليل انعكاسات إنهيار

الحكم العثماني ومدى تأثيره على الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية للبلدين، مما جعلهما في دائرة الصراع والتنافس الدولي الأوروبي، كل هذا كي نستخلص ما إذا كان هناك ترابط أو امتداد وتشابه مؤسّساتي بين الفترتين الأميرية والعثمانية في الجزائر، وما قام بإنجازه في بلاد الشام.

أما الفصل الأول فتطرقنا فيه إلى الإحتلال الفرنسي للجزائر في ظل موجة الإستعمار الحديث، وشرعية الدفاع الوطني من فترة 1830م إلى غاية 1832م، لمعرفة الأسباب الظاهرة والخفية لمشروع الإحتلال الفرنسي للجزائر وأصدائها الدولية ومدى نجاحها، مع ظهور مبدأ الإعتماد على النفس وشرعية الدفاع الوطني الذي وضعه الجزائريون بقيادة الشيخ "محي الدين"للدفاع على حرية الوطن، والمتمثلة في التقاليد الجهادية بالغرب الجزائري من أجل مواجهة الغزو الفرنسي، ليدشّنوا بعد ذلك طريق الكفاح القومي العربي الإسلامي للعرب والمسلمين، ونظرا لاختلاف موازين القوى، واتساع رقعة المؤامرة كان لابد من أن يحتل الغزاة الجزائر، غير أن المقاومة الشعبية الجزائرية بقيت مستمرة خاصة مع بروز شخصية الأمير عبد القادر كمقاوم للإحتلال الفرنسي، ثم كمؤسس للدولة الجزائرية الحديثة.

أما الفصل الثاني سنسلط الضوء من خلاله على دراسة جوانب من شخصية الأمير عبد القادر وإرسائه الركائز القاعدية لمشروع بناء الدولة الجزائرية، مركزين في ذلك على الظروف التي أحاطت بشخصيته سواء البيئية منها، أو العامة التي هيّأته لقيادة الشعب والدولة الجزائرية فيما بعد، كما تطرقنا إلى مولده ونسبه مرورا برحلاته التي قام بها في بلاد المشرق والتي زادته ثقافة وخبرة، خاصة مشروع محمد علي والي مصر الذي أثّر في نفسيته كثيرا وزاده حزما ورغبة في بناء مؤسّسات الدولة الجزائرية الحديثة، كما تضمّن الفصل أهم المعارك التي قادها وخاضها مع حلفائه ضد قوات الإحتلال الفرنسي، مع ذكر نتائج المعارك والتضحيات الجزائرية التي بذلت في سبيل تحرير الوطن، والذي حوّله من مقاومة إلى نضال سياسي ثم إلى نضال حضاري مع تطوير جيشه، كما أبرزنا في هذا الفصل أهم المبادئ والأسس التي اعتمد عليها في تأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة والذي يتمثل في البيعة وشرعيتها القانونية والدينية ومساندها الحضارية، والإلتزام برأي الجماعة وروح الدين الإسلامي، فملامح الأمير الأساسية إسلامية بقوانينها وتشريعاتها، كما بيّنا الأهداف المرجوة لتأسيسه للدولة والمتمثلة في الدفاع عن الدين والوطن.

أما عن الفصل الثالث الذي انصب الإهتمام فيه إلى دراسة المشروع النهضوي الأميري بالجزائر بين النظري والتطبيقي في الفترة الممتدة ما بين 1832م إلى غاية 1847م حيث انصب فيه الإهتمام فيه إلى دراسة الإشكالية العامة المطروحة، كما تحدثنا فيه عن مساهمة الأمير في إحياء الدولة الجزائرية وبعث نهضتها من جديد، على أساس الشريعة الإسلامية بقوانينها وتشريعاتها، فدولة الأمير يمكننا تسميتها بالدولة الدينية التي ترتكز على مبدأين هامين هما القرآن والسنة، ثم عدنا نتحدث عن بناء مؤسسات الدولة الجزائرية حسب المنظور الأميري والمتمثلة في التنظيم العسكري والإداري والإقتصادي والقضائي والثقافي، إلى جانب دراستنا للجانب الصوفي الذي لم نفصل فيه لأننا تركناه لذوي الاختصاص والذي ميزه عن غيره من رواد النهضة العربية، بالتلازم مع قيمه الأخلاقية والإنسانية والتي جعلت منه بطلا عالميا تتحدث عنه أقلام المؤرخين والكتاب والشعراء العرب والأجانب، كما تطرقنا أيضا إلى ذكر

المجهودات الحربية والتعبئة المالية للمقاومة الشعبية الوطنية من أجل إفشال الخطط والمشاريع الإستعمارية الفرنسية التي تمكنت من إجهاض الدولة الجزائرية الحديثة، وإنهاء المشروع الأميري النهضوي بالجزائر سنة 1847م.

وتختم الدراسة بالفصل الرابع الذي انصب الإهتمام فيه إلى دراسة الإشكالية العامة المطروحة في الدراسة قيد الإنجاز هو الآخر والمعنْونة بـ:"المشروع السياسي والإجتماعي للأمير عبد القادر في بلاد الشام ودوره في إخماد الفتنة الطائفية 1852م-1860م، بحيث حاولنا أن نتطرق إلى تحليل ودراسة الظروف والدوافع القاهرة التي أدّت إلى الإعتقال التعسفي للأمير ورفاقه في "طولون" ثم في "بو"، وماتضمّنته هذه المرحلة من معاناة نفسية ومادية، ثم نقله إلى "أمبواز" بإعتباره الموضع الأخير للإعتقال، وتحدثنا عن مجيئ نابليون الثالث وإعتلائه العرش في فرنسا وإعلانه لإطلاق سراحهم سنة 1852م، لننتقل ونتحدث عن نفيه "ببروسة" ومنها إلى "دمشق"، والتي هي محور دراستنا حيث كان له مكانة مشرفة بين الأوساط الشامية، فقد ساهم في تبلور الفكر القومي العربي في بلاد الشام، إضافة إلى مواصلته لنشر تعاليم الشريعة الإسلامية عندما اهتم بالبحث والتدريس، وشرح النصوص الرئيسية مثل صحيح البخاري وغيره. كما أبرزنا دوره في إنقاذ المسيحيين في أحداث دمشق 1860م، وموقفه من هذه الفتنة ومحاولة إخمادها وبهذا يكون قد لعب دورا كبيرا في دمشق، بإحداثه التقارب بين الحضارات والأديان والشعوب في هذه الفترة، لنصل في الأخير ونتحدث عن إنتاج الأمير عبد القادر العلمي والأدبي وموقف الدارسين منه.

وأختتم الموضوع في الأخير بخاتمة عامة، إشتملت على ما توصل إليه البحث من نتائج، أجملها في أن المشروع النهضوي الأميري سواء في الجزائر أو في بلاد الشام كان متكامل المعالم، كون أنه كان مدركا لمقتضيات الصراع مع العصر، وعارفا بالتطورات التي تميز بها عصره، ولاحظ ما كان يقوم به "محمد علي" في مصر من تحديث وإصلاح، كما لمس اختلاف أسلوب الحياة بين المسلمين والأوربيين أثناء أسره بفرنسا ومدى تفوق الجيش الفرنسي عسكريا، إضافة إلى معارفهم التقنية ومهاراتهم الحربية وخططهم العسكرية، فلاحظ ما قد ينجم عن تقدمهم العسكري من مخاطر من جراء ضعف المسلمين وقوة الأوربيين، بيد أن قواته فرضت وجودها واستطاعت مقاومة جنرالاتها مدة خمسة عشر سنة تجوب الأرض الجزائرية شرقا وغربا، وكان أمله منصبّا حول توحيد الشعب الجزائري وتجنيده ضد قوات الإحتلال.

فالأمير في بداية عصره كان مقياسا للنهضة العربية، فهو مجموعة من التنظيمات التي تشتمل عليها كل أمة وكل دولة، فرؤيته الحدودية تجاوزت الإقليمية كونه استطاع أن يبلور أفكاره في مجموعة القواعد والنظريات التي سيكون لها استمرار وتواصل، وقد تتمظهر في تنظيمه لدولته وعصرنتها في جميع الميادين الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والسياسية والدينية.

ولا نبالغ إذا قلنا أنّ "الأمير عبد القادر" أثناء إقامته بالمشرق قد اتخذ موقف الحيطة والتفطن والحذر، إذ بادر في إطفاء نار الفتنة في بلاد الشام عام 1860م، وحال دون تنفيذ المخطط الأوربي لتقسيم الدولة العثمانية في تلك الفترة، فمصلحة المسلمين هي التي تحكمت في موقفه هذا، وجعلته يستغل مكانته للتوسط لكل مضطهد

فقد أسّس بمواقفه هذه في المشرق العربي لسياسة بديلة عن مواجهة الإستعمار بالقوة، أساسها القبول بالوضع وعدم الدخول في منازلة تنتهي حتما لصالح الأوربيين، وعمل في نفس الوقت على تغيير المعطيات لتكون مستقبلا لصالح المسلمين، وذلك بتربية خلقية قومية وتعامل نزيه. لا يضحي بكرامة الفرد ولا بمصلحة الجماعة، ويأخذ بعين الإعتبار ما يتطلبه تطور المجتمع وتقتضيه مصلحة الأمة.

كما جاءت الخاتمة كعرض تحليلي لمكانة الأمير في سيرورة التاريخ الجزائري خاصة والعرب عامة، إنطلاقا من القيم التي عاشها ورجوعا إلى الإنجازات التي ساهم فيها، والمآثر التي خلّدها كبطل مجاهد، وزعيم وطني، ورمز قومي.

ولإنجاز هذا الموضوع إنكبّ اهتمامنا بداية وبطريقة منهجية في البحث عن مادة الموضوع بدءا بمطالعة البيبليوغرافيا، التي تناولت التاريخ العام للجزائر والتاريخ الحديث والمعاصر خاصة، ومجموعة من المؤلفات التي تتحدث عن حياة الأمير عبد القادر في بلاد الشام، ثم كخطوة ثانية شرعنا في تخصيص الدراسة ضمن ما حصلنا عليه من مصادر ومراجع خاصة بالموضوع، وعليه فإننا استخلصنا مجموعة منها سنحاول أن نذكر البعض على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر:

أولا – المصادر: إعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من المصادر التي تخدم الموضوع ويمكن ترتيبها من حيث الأهمية كما يلي:

الوثائق الرسمية المنشورة:

مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، جمع وتعريب: فليب وفريد الخازن، صاحبي جريدة الأرز، وقد صدرت بثلاث أجزاء، وهي مأخوذة من الكتاب الأزرق الإنجليزي، (هذا الكتاب ضخم العدد وبالغ الأهمية عن حوادث الستين وما قبلها من قليل)، وفي المحررات أوراق رسمية مستقاة من بعض الكتب والنشرات العربية والإنجليزية، أو من ضباط البرلمان الفرنسي، وقد طبع بمطبعة الصبر.

الوثائق الأرشيفية العثمانية الخاصة بتاريخ الجزائر عامة والأمير عبد القادر خاصة، والتي عثرنا عليها بدور المحفوظات للأرشيف العثماني باستنبول، ولصعوبة ترجمتها كان لزاما علينا أن نلجأ إلى كتاب خاص بالجزائر في الوثائق العثمانية"Osmanli Belgelerinde Cezayir"، وهو مطبوع في أنقرة سنة 2010م، ويعتبر من المصادر الهامة أيضا لما يحتويه من وثائق هامة، تتحدث عن استمرار الحكم العثماني بالجزائر حتى سنة 1830م، كما يتحدث عن العلاقات العسكرية والإدارية والإجتماعية بين الدولة العثمانية والجزائر، فضلا عن سياسة الدولة العثمانية تجاه الجزائر إبان الإحتلال الفرنسي للجزائر، وما يهمنا في هذا الكتاب هو المحور الرابع والأخير منه، والذي يحمل عنوان: البطل القومي للجزائر الأمير عبد القادر، وهي في حدّ ذاتها عبارة عن وثائق عثمانية تتعلق بطلب الأمير المساعدات من الدولة العثمانية وانتقاله إليها وإسكانه في بروسة، وتغطية نفقاته من قبل الحكومة التركية.

الوثائق المخطوطة:

اعتمدنا على بعض الوثائق المخطوطة التي قمنا بنسخها من وثائق الخزانة الملكية والخزانة الحسنية بالرباط أو من المكتبة العامة بالعاصمة، وتناولت هذه الوثائق الفترة المعنية بالدراسة، والتي تغطي الفترة التاريخية المتعلقة سواء بالعلاقات الجزائرية المغربية وبالتحديد العلاقات المغربية بالأمير عبد القادر الجزائري أو عن شخصية الأمير في حد ذاته.

ومن أهم ما اعتمدنا عليه "مخطوط المشرفي محمد بن المصطفى الغريسي"، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية مخطوط. خ.ع، الرباط، رقم:1463. حققه إدريس بوهليلة، تحت عنوان الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، هذا المخطوط يقع في 159 ورقة، كل ورقة تحتوي على 23 سطرا مكتوب بالخط المغربي وتم تبيضه في عام 1310هـ، وهذا المؤلف عبارة عن شرح لقصيدة شعرية طويلة في مديح الدولة العلوية ومفاخرها، قام بنظمها الشاعر الغالي ابن المكي بن أحمد بن سليمان الفاسي الأندلسي الغرناطي الذي مات عام 1302هـ، وقبل الإشادة بالدولة العلوية بدأ مديحه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الثناء على الخلفاء الراشدين، والإشارة إلى الدولة الإسلامية التي تعاقبت على حكم المسلمين، إلى أن وصل إلى ولاية المولى الحسن بن محمدبن عبد الرحمن عام 1290هـ، وهو السلطان الذي عاصره الشاعر، ولقد أشار في قصيدته لبعض الحوادث التي وقعت خلال ولاية هذا السلطان، وإن كان هذا المخطوط لا يخلوا من الأخطاء التاريخية والإنحياز للحاكم والتحامل على الأمير عبد القادر ومقاومته.

إضافة إلى مخطوط عبد الرحمان بن محمد ابن زيدان الحسني السجلماسي، في مؤلفه: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، أو عبير الآس من روض تاريخ مكناس أو حسن الإقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس،كتب هذا المخطوط بخط مغربي ملون،يحتوي على مجموعة من 427 ورقة، وكل ورقة مكتوبة من 22 سطراً، يتحدث هذا المخطوط على مدينة مكناس وما فيها من منشآت وجوامع، وعن حكامها العلويين، كما أورد فهارس بعض العلماء والمشاهير، وغيرها من الأحداث التاريخية التي تخص بلاد المغرب، كما صدر هذا المخطوط في خمسة أجزاء مطبوعة بالرباط، وقد أفادنا كثيرا خاصة فيما يتعلق بالأحداث التاريخية التي تخص الأمير عبد القادر، والمقاومة الشعبية ضد القوات الفرنسية.

كما اعتمدنا على مجموعة من المخطوطات بمكتبة الحامة بالجزائر،فقد عثرنا على مخطوطات خاصة بالأمير عبد القادر في خزانة باسمه، وتعود لأخيه الحسني محمد السعيد بن محي الدين، والمعنون بـ: نبذة حياة الأمير عبد القادر وأسرته، يحتوي على 18 ورقة مكتوب بخط يده، أما عن نوع الخط فمغربي، أما عن اسم الناسخ: محمد بن عبد الرحمان بن المرسلي، وهو يتحدث عن حياة الأمير عبد القادر والتي أفادتنا كثيرا في موضوعنا.

كما اعتمدنا على الأرشيف التونسي للتعرف على موقف الحكومة التونسية من المقاومة الشعبية ومن الأمير عبد القادر الذي طلب منهم المساعدة عن طريق وكيلها بجبل طارق زكي كرطوزو.

هذا بالإضافة إلى مخطوطات أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه والتي تخدم الموضوع.

المصادر والمراجع باللغة العربية:

لقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر المطبوعة الجزائرية والمغربية والمشرقية ، يمكن ترتيبها على النحو التالي:

مؤلف تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر لصاحبه الجزائري "محمد بن عبد القادر"، هذا الكتاب تضمن أمورا كثيرة عن حياة الأمير عبد القادر السياسية والنضالية، والعلمية والأدبية والدينية، فالكتاب عبارة عن سيرة مفصلة تفصيلا في تأريخ حياة هذا الرجل، كتبه له إبنه الأكبر الأمير محمد باشا، وكان قد رافقه منذ إعلان الجهاد في الجزائر 1830م إلى غاية وفاته 1883م، وسجّل فيه حياة والده اليومية وسرد فيه رسائله وكل أخباره، كما قسّم كتابه إلى قسمين: تناول في القسم الأول "سيرته السيفية" أي منذ إعلان جهاده عام 1830م إلى يوم إنهائه القتال بشروط للفرنسيين عام 1847م، أما القسم الثاني فقد تناول فيه: سيرته العلمية، أي منذ نفيه من الجزائر عام 1847م إلى تاريخ وفاته 1883م، وهذا الكتاب يعتبر مصدرا رئيسيّا من المصادر التاريخية على الرغم من أنه يحتوي على بعض المبالغات والعاطفة، إضافة إلى افتقاره للمنهج العلمي الصحيح في تمحيص بعض الرّوايات وتحقيقها، وقد أفادنا كثيرا في تقصّي بعض الحقائق عن حياة الأمير عبد القادر في الجزائر وفي المنفى وفي بلاد الشام.

وهناك مؤلف آخر لا يقل أهمية عن التحفة، وهو كتاب لـ: تشرشل شارل هنري المعنون بـ"حياة الأمير عبد القادر"، ترجمه وعلّق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، يتناول هذا الكتاب حياة الأمير عبد القادر منذ ولادته في القيطنة عام1807م إلى حين عودته من الحجاز بعد تأديته لفريضة الحج، ثم إلى دمشق عام 1864م.

هذا الكتاب يتحدث عن الحوادث السياسية والعسكرية التي قام بها الأمير إضافة إلى مواقفه الإنسانية الكثيرة، فهو يمجد من خلال كتاباته بطولاته الحربية ومواقفه الإنسانية، وينتهي كتابه بذكره لحواث الفتنة الطائفية بدمشق 1860م، والتي استخلصنا منها الحقائق التاريخية بالتحليل والنقد ومقارنة المعلومات ببعضها وبكل موضوعية، لأن هذه الدراسة من شأنها أن تلقي الأضواء على المشروع النهضوي الأميري ومن كل الجوانب، لذلك فقد ساعدنا كثيرا في التحليل.

كما اعتمدنا أيضا على كتاب الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، والذي يتحدث عن تاريخ مدينة وهران ومن بناها، وعن أوليائها والدول التي دخلت إليها وعن مخزن المدينة والغزو الإسباني لها، كما أرّخ لنظام الحكم العثماني بالجزائر، ورصد عواصم الغرب الجزائري، ثم تحدث عن الإحتلال الفرنسي للجزائر، كما تحدث عن مقاومة الأمير عبد القادر الجهادية، واستفدنا كثيرا من هذا الجزء في دراستنا، بالرغم من أن المؤلف اتبع المنهج السردي في كتاباته.

"الكولونيل اسكوت " مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841م، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، في مذكراته مصدر هام غير متخصص ذو طابع سردي لكنه يحتوي على مادة يمكننا الإعتماد عليها وفق أطر تحليلية.

ومن المصادر المهمة أيضا كتاب السياسة العثمانية اتجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر لأرجمنت كوران، وهو يعتبر من المؤلفات الهامة لأنه اعتمد على الأرشيف العثماني، هذا ما جعلنا نعتمد عليه كثيرا خاصة فيما يخص فترة الوجود العثماني بالجزائر والإحتلال الفرنسي لها، ولكن ما يؤاخذ عليه أنه لم يتوسع في هذا البحث، ولم يستخدم وثائق كثيرة، كما تحيز للنظام العثماني وحمّل فرنسا كامل المسؤولية في احتلالها للجزائر.

إضافة إلى كتاب أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية 1846م-1861م لطربين، هذا الكتاب مقسم إلى قسمين: القسم الأول منه يتحدث عن أزمة الحكم في جبل لبنان حتى حوادث الستين، أما القسم الثاني منه والذي يهمنا في دراستنا هذه فيتحدث عن حوادث الستين، والتي تمثل ذروة أزمة الحكم في لبنان، كما يتحدث عن المفاوضات الدولية في بيروت والإستانة، بالرغم من أن بعض المؤلفات المشرقية تميل إلى طوائف معينة إلا أننا إعتمدنا عليه بعد التمحيص والتحليل والنقد.

بالإضافة إلى مؤلف عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، 1516م-1798م، هو الآخر مصدر مهم، فقد قسم عمله إلى أربعة أقسام، وما يهمنا في بحثنا هو القسم الرابع الذي يتحدث عن بلاد الشام ومصر في فترة انحطاط الدولة العثمانية، كونه يعتبر كمدخل لفهم مجريات وحوادث الستين، وقد اعتمدنا عليه كثيرا لأنه كان موضوعيا في طرحه.

مؤلف ابن عبده نعمان، حسر اللّثام عن نكبات الشّام، وهو من أهم المصادر التي تتحدث عن الفتنة الطائفية ببلاد الشام قبل وبعد الستين، وفيه مجمل أخبار الحرب الأهلية المعروفة بحوادث سنة 1860م، مع تمهيد في وصف البلاد الجغرافي والسّياسي، وقد أفادنا كثيرا في بحثنا خاصة فيما يتعلق بالفصل الرابع، وعن مذابح الستين ودور الأمير عبد القادر في ذلك.

إضافة إلى مخطوط إسكندر بن يعقوب أبكريوس، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تحقيق إبراهيم عبد الكريم السمك، فيه تسعة فصول وكل الفصول تخدمنا ،خاصة الفصل الثامن الذي يتحدث عن حادثة دمشق الشام، وما أجراه الأمير عبد القادر في حق النصارى من مزيد العناية والإهتمام، وهذا المخطوط مهم جدا خاصة فيما يتعلق بحوادث بلاد الشام والفتنة الطائفية، وأيضا ركّز على موقف الأمير ودوره في إخماد نار الفتنة، هذا بالإضافة إلى شواهد عيان درزية ومارونية مأخوذة من كتاب تاريخ بلاد الشام لسهيل زكار، مما سهل علينا عملية التحليل.

وكتاب عادل الصلح، سطور من الرسالة الذي هو الآخر لا يقل أهمية عنهم.

المصادر و المراجع بالأجنبية:

اعتمدنا في كتابة هذه الأطروحة على بعض المصادر الفرنسية نذكر منها:

كتاب "شارل أندري جوليان، "Histoire de l’Algérie contemporaine"، والذي اعتمدنا عليه في التحليل، فهو يقدم لنا معلومات مهمة حول تاريخ الجزائر في الفترة ما بين "1832–1847م"، إلا أنه ركز على الجانب العسكري أكثر من الجوانب الأخرى بالرغم من أهميته، كما أنه ذاتي في طرحه، بالرغم من ذلك فهو يعتبر مرجعاً علمياً أكاديمياً ومنهجياً وهو من الكتب العامة، إلا أنه يعكس نظرة ذاتية تفتقد للموضوعية ذو نظرة إستعمارية فرنسية.

إضافة إلى "بول آزان": "L’emir Abdelkader 1808-1883"، هو من مؤرخي الإستعمار الفرنسي في الجزائر، تعكس كتاباته نظرة المدرسة الإستعمارية الفرنسية، أهم كتاباته تدور حول الأمير عبد القادر، وله كتاب خصصه للحديث عن شخصية الأمير عبد القادر وخاصة فيما يتعلق بحياته السياسية والعسكرية، وهو يحتوي على مادة تاريخية تحتاج إلى تحقيق هذه الوقائع لأنها غير موضوعية، تعكس نظرته الذاتية.

إضافة إلى مؤلف: "بيلمار"، " Abdelkader sa vie politique et militaire"، يعتبر من المصادر الهامة التي اهتمت بمشروع الأمير عبد القادر السياسي والعسكري، ويعتبر مادة علمية وموضوعية هامة أثرت البحث في تقصي بعض الوقائع التاريخية إلا أنه يبقى يعكس النظرة الإستعمارية في دراسته للتاريخ الجزائري، وعدم الدقة في إصدار الحكم على الأحداث التاريخية، كونه اعتمد على المنهج الوصفي في كتاباته دون تحقيق وتمحيص، فيما تعلق بالأحداث التاريخية على عهد الأمير عبد القادر.

"دو مونت روند "، "Histoire de la conquête de l’Algérie de 1830-1847" وهو مصدر يحتوي على جزأين، يذكر فيه المؤرخ الوقائع بصفة تحليلية مفصّلة إلا أنه يعكس النظرة الإستعمارية في معالجتها للتاريخ الجزائري.

وكتاب "نابليون Napoléon" "Discours et message de louis Napoléon Bonaparte"، ومن خلاله تعرفنا على الزيارة التي قام بها نابليون للأمير عبد القادر في قصر أمبواز وعن الرسالة التي كتبها بقلم الرصاص، معلنا فيها إطلاق صراحه مع عائلته.

كما اعتمدنا على بعض المجلات العلمية أهمها مجلتي التاريخ والثقافة في عدديهما الخاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، إضافة إلى المعاجم والموسوعات والتقارير التي أفادتنا كثيرا في معرفة الأماكن والشخصيات المهمة والأعلام.

إلى جانب هذه المصادر والمراجع هناك كتب أخرى تضاهيها أهمية، إلا أننا لا يسعنا ذكرها هنا جميعا، وسيتم إظهارها في قائمة البيبليوغرافيا.

ومن دون أدنى شك، فإن محاولة البحث في مثل هذه المواضيع لا يخلوا من الصعوبات، خصوصا وأن مثل هذه المواضيع ترتكز أساسا على المادة الأرشيفية، لذلك واجهتنا صعوبة نقص المادة التي تخدم الدراسة قيد الإنجاز، لاسيما المادة الأرشيفية، لذلك فقد اعتمدنا على بعض المخطوطات والتي في مجملها محققة ومنشورة وهي قليلة، لذلك كان لابد لنا من الإعتماد على المصادر المطبوعة.

- صعوبة قراءة المخطوطات لكتابتها بخط اليد القديم، وهذا ما إستدعى اللجوء إلى الوالد حفظه الله ورعاه.
- صعوبة الترجمة الدقيقة من اللغة الفرنسية إلى العربية، أو من الإنجليزية إلى العربية، وهذا ما إستدعى اللجوء إلى الوالدة حفظها الله، وإلى مترجمين معتمدين.
- من بين العقبات أيضا عدم الإستقرار النهائي على عنوان الأطروحة، حيث كانت عناوين كثيرة، فمن الأمير عبد القادر والنهضة العربية كما أرادها وعاشها، إلى المشروع النهضوي الأميري، إلى إسهامات الأمير عبد القادر في النهضة العربية.

رغم جهودنا الكبيرة في الحفاظ على توازن الفصول، إلا أننا لم نستطع تحقيق ذلك مع الفصل الأول.

- كما جاءت صعوبة هذا البحث فيما يتعلق بأحداث بلاد الشام، خاصة سوريا ولبنان، وما يعيشانه من حروب (إنعدام الإستقرار الأمني)، مما صعب قضية السفر إليهما، وذلك من أجل الإطلاع على المادة العلمية في مراكزها العلمية ومكتبتها العامة، وإن أي بحث تاريخي لبلد ما يشترط على صاحب البحث زيارته، وقد تذللت هذه الصعاب عندما ساعدني بعض الإخوة اللبنانيين والسوريين عبر التواصل الإجتماعي، ووفروا لي ما أحتاجه من مصادر ومراجع الخاصة بتاريخ بلاد الشام، وحوادث الستين.

كما لا ننسى إرشادات وتوجيهات الأستاذ المشرف، والتي شكلت لنا قوة دافعة من أجل إنجاز هذا البحث بهذا الشكل وعلى هذه الصفة.

ونرجو من الله تعالى أن يوفقنا ويجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

مدخل تاريخي:

الأوضاع العامة في الجزائر وفي بلاد الشام أواخر القرن 18م، ومطلع القرن 19م.

أ. الأوضاع العامة في الجزائر.

ب. الأوضاع العامة في بلاد الشام.

أ. الأوضاع العامة في الجزائر أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر:

أ.1. الأوضاع السياسية والإجتماعية بالجزائر:

تميّزت الحياة السياسية في الجزائر منذ مطلع القرن السادس عشر بعدم الإستقرار، وتوالي عدّة أنماط من الحكم على السّلطة، ويرجع هذا إلى طبيعة الوجود التركي في الجزائر، فسياسة الأتراك اتجاه البلدان التي دخلت تحت حكمهم كانت تتصف بعدم التّدخل في الحياة الخاصة لهذه البلدان الخاضعة، ممّا يجعل الحكم العثماني ظاهريّا أكثر منه حقيقيّا، أمّا في المناطق النائية فكان مجال تدخل السلطة المركزية يتضاءل نسبيّا.[1]

هذا إضافة إلى حكّام الجزائر فقد كانوا بعيدين عن فكرة التمرّد من إرادة السلطان العثماني، الذي كانوا يعتبرونه المرجع السياسي والروحي الذي يبارك أعمالهم، ويرفع من مكانتهم في نظر السكان المحليين، لكن التّحول الذي حدث في طبيعة العلاقات العثمانية الأوربية مع نهاية القرن السادس عشر، واختلال موازين القوى لصالح الأوربيين كان وراء ازدياد الضعف العثماني، ولاسيما إثر معاهدتي "كارلوفيتز Karlowitz"[2] في 1699م مع النمسا والبندقية وبولونيا، ومعاهدة إستانبول 1670م مع روسيا والتي بموجبها تخلّى فيها العثمانيون على بعض أقاليمهم،[3] وقد نتج عن هذا التطور ضعف الروابط بين نيابة الجزائر والسلطة العثمانية.

ويتضح لنا مدى استقلالية الكيان الجزائري عن الدولة العثمانية من خلال إلغاء منصب الباشا الذي فرضه السلاطين على الدايات سنة 1711م، خاصة عندما منع الداي "علي شاوش"، "إبراهيم باشا" مبعوث الباب العالي من دخول الجزائر بحجّة تسبّبه في إثاره القلاقل، وتجسدت هذه الإستقلالية في نجاح "علي شاوش" الحصول على لقب الباشا من السلطان بفضل الهدايا وسياسة الأمر الواقع، وبفعل هذه الأحداث والتغيرات إضافة إلى انحصار مظاهر التبعية في تبادل الهدايا وتوجيه الرسائل إلى السلطان العثماني، شهدت الحكومة العثمانية بالجزائر أربعة أشكال من الأنظمة السياسية انفرد كل واحد منها بمواصفات بسبب الوضع الدولي للأيالة الجزائرية.[4]

شكّلت الجزائر منذ إلتحاقها بالدولة العثمانية "1519م" جبهة بحرية متقدمة في الصراع العثماني الإسباني في غرب المتوسط، فتمركز حكامها البايلربايات"1519م-1587م" في الجهاد البحري، الذي أكسبهم شرعية في نظر

1- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي، مطابع ألف ياء، الأديب، د.ط، دمشق، د.ت، ص54.

2- معاهدة كارلوفيجي أومعاهدة كارلوفيتز تم توقيعها في 26 جانفي 1699م في سريمسكي كارلوفجي -وهي مدينة بالعصر الحديث بصربيا- وهي معاهدة تمت بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا والبندقية، بمقتضاها تنازلت الدولة العثمانية عن بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا لدولة النمسا ومدينة أزاق لروسيا.

3-حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2008، ص128.

4- المرجع نفسه، صص129،130.

الأعيان وشيوخ القبائل والمرابطين، وهذا ما سمح للولاة العثمانيين بالحصول على ولاء السكان،[1] وكان خير الدين بربروسة أوّل حاكم حمل لقب البيلرباي منذ عام1519م،[2] أوباي البايات أو بخير الدين بك،[3] وقد استقر أميرا بالجزائر من قبل السلطان الأعظم "سليم خان" - بعد أن قبل منه الهدايا بكل تواضع واحترام، كما أعلن تبعيته رسميا للسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين،وما واكب ذلك من تقارب في الرؤى والمواقف السياسية - حيث عرفت هذه المرحلة عند المؤرخين بمرحلة عهد باي البايات، إبتدأت بحكم خير الدين الذي عين قائدا عاما للأسطول العثماني حاما لقب قبطان داريا وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية،[4] وانتهت بمغادرة "علج علي" الجزائر، وقد تميّزت هذه المرحلة بقوة الحكام الذين استطاعوا إعادة النّظام والأمن للبلاد وبسط السّيطرة على عدّة مناطق واسعة، وامتدّ نفوذها وسيطرتها على كل الجهات،[5] كما شهدت هذه المرحلة تأسيس أوّل نواة للجيش الجزائري و البحرية الجزائرية،[6] وقد كان معظم ولاة هذا العهد من طائفة رياس البحر الذين يمينهم السلطان العثماني وكانوا يمارسون سلطتهم على باشوات طرابلس وتونس، لكن هذا الإشراف لم يدم طويلا فقد ألغى العثمانيون هذا النظام سنة 1587م خوفا من أن يفكر هؤلاء الولاة في الإنفصال، فأصبحت الجزائر ولاية عادية ويعين على رأسها باشا تعينه الأستانة كل ثلاث سنوات.[7]

كان تعيين الباشا لمدة ثلاثة سنوات جعله يشعر أنه ليس بحاجة إلى ولاء الشعب،[8] فقد انصرف همّهم إلى جمع أكبر قسط من الأموال في انتظار مدّة الولاية، وبذلك إنتقلت السلطة من أيديهم إلى ضباط الجيش الذين بدأ نفوذهم يتعاظم تدريجيا مع بداية 1659م، فأصبح حكام الجزائر العثمانية يعيّنون من بينهم ضابطا برتبة "آغا" كحاكم فعلي على الولايات، غير أن هذه المرحلة لم تدم طويلا، لأن الآغا لم يكن مستقرا في منصبه أكثر من شهرين، نتيجة للتنافس الشديد بين الضباط، فكانت الجزائر خلال 1519م-1671م أيالة عثمانية تتلقى المساعدة المالية والعسكرية من الخلافة، وقد اهتم الحكام في هذه المرحلة بتوحيد الجزائر سياسيا، وذلك بالقضاء على الإمارات المستقلة وإخضاعها

1- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للإبداع الشعري، د.ط، الكويت، 2000، ص105.

2- عبد الجليل التميمي، أوّل رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأوّل سنة 1519م، م.ت.م، العدد 8، زغوان، تونس، 1976، ص116.

3- يقول أبو عبد الله محمد الصغير اليفرني في كتابه: نزهة الحادي في أخبار أهل القرن الحادي، أن معنى الباي بلغة الأتراك قايد القياد. ينظر:

- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح وتق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013، ص248.

4- للمزيد من التفاصيل ينظر: - مجهول، غزوات عروج وخير الدّين، تح ونشر: عبد القادر نور الدين، مطبعة رودوسي قدور، د.ط، الجزائر، 1934، ص44.

- خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، تر وتع: محمد دراج، الأصالة للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2013، ص13.

- عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1989.

5- صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائرمن عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين 814ق م-1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، د.ط، عنابة، الجزائر، 2002، ص89.

6- أرزقي شويتام، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي في الفترة العثمانية 1519م-1830م، دار الكتاب العربي، د.ط، الجزائر، 2010، ص41.

7- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، د.م.ج، ط2، الجزائر، 2009، ص34.

- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510م-1541م، تر: جمال حمادنة، د.م.ج ، الجزائر، 1991، صص20،21.

8- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، د.ط، الجزائر، 1964، ص137.

لسلطة مركزية، مقرها مدينة الجزائر، كما وجّهوا جهودهم لتحرير موانئ البلاد من السيطرة الإسبانية، وفرض سيطرة الأسطول على الحوض الغربي للبحر المتوسط.

ومع بداية سنة 1671م دخلت الجزائر مرحلة جديدة تميزت بتولي طائفة رياس البحر السلطة، وهم ضباط البحر الذين نصّبوا نظاما جديدا يتمثل في تعيين حاكم للبلاد يلقب بالداي، وقد كانت سلطته مطلقة وإن كانت نظريا مقيّدة بالديوان، فهو الذي يبث في مسائل الحرب والصلح، وهو الذي يختار وزراءه بنفسه.[1]

وكان مقر الداي موجودا في البداية بالجنينة ثم تحول إلى القصبة،[2] وبينما إلتزم الدايات في البداية بتعميق الأمر مع الدولة العثمانية، فإن المتأخرين منهم قد تخلّو عن هذه السياسة، ولم يبق للسلطان غير السيادة الإسمية، وأصبحت لهم السلطة المطلقة في تسيير شؤون الأيالة.[3]

فالداي هو الذي يرتئي إعلان الحرب، ويتولى عقد الإتفاقيات الدولية، واستقبال البعثات الدبلوماسية، غير أنّ هذا الوضع لم يكن يعني إنقطاع أي تعاطف أو تعاون مع الدولة العثمانية، ففي حال الحرب كانت الجيوش الجزائرية تشترك مع الجيوش العثمانية في العمليات الحربية، وقد اتضح ذلك من خلال إشتراك الأسطول الجزائري مع الأسطول العثماني في موقعة نافرين 1827م، وما يميز هذه المرحلة، هو تمكّن الأسطول الجزائري خلال هذا العصر من تصفية الوجود الإسباني نهائيا في كل من وهران والمرسى الكبير وذلك عام 1792م، وبعد عدة مصادمات عسكرية إبتدأت منذ عام 1708م على يد "مصطفى أبو الشلاغم" باي الأيالة الوهرانية وصهره "أوزن حسن".[4]

وقد تم هذا التحرير خلال فترة شهدت إستقرارا داخليا نسبيا إمتد حتى سنة 1805م، لتليها فترة عرفت عدة إظطرابات وثورات بسبب إثقال السكان بالأتاوات والضرائب، مما دفع بالناس إلى التمرّد والعصيان، والذي كثيرا ما وجّهه الدايات بالقوة وسفك الدماء،[5] ومع أوائل القرن التاسع عشر ميلادي، تجسّد هذا المخطط في شكل ثورات

1- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص72.

2- عمار عمورة، الموجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2002، ص104.

3- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق، ص105.

4- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائرالمحمية، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1981، ص203.

5- صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص105.

داخلية منها: الثورة الدرقاوية التي قادها " إبن الأحرش" في الشرق الجزائري 1804م،[1] وثورة ابن الشريف الدرقاوي في غرب البلاد عام 1805م، وقد أسهمت هذه الثورات في الإسراع بنهاية الحكم العثماني في الجزائر بشكل كبير.[2]

هذا وقد وضع الأتراك ديوانين، ديوان خاص وهو المجلس التنفيذي يترأسه الداي الذي ينتخب من طرف الاتراك مدى الحياة، ويتمتع بحكم مطلق ويساعده في مهامه موظفين سامين بمثابة وزراء،[3] ثم تأتي مرتبة الكتاب وهم أربعة يرأسهم الباشكاتب، ويتولون مهام إدارية متنوعة، إضافة إلى ديوان عام، وهو المجلس التشريعي يتكون من الموظفين السامين وكلهم من الأتراك، وكانت الجزائر مقسمة إداريا إلى أربعة مقاطعات:[4]

- ✓ مدينة الجزائر وضواحيها المسماة بدار السلطان لأنها تابعة مباشرة للداي يقيم فيها وأعضاء حكومته.
- ✓ بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة وهي أكبرهم وأهمهم.
- ✓ بايلك الغرب وكانت عاصمتها في البداية مازونة ثم معسكر وعند جلاء القوات الإسبانية عام 1792م أصبحت عاصمته وهران.
- ✓ بايلك التيطري وعاصمته المدية وهي أصغرهم.

وعلى رأس كل واحدة منها حاكم برتبة باي، وينقسم البايلك إلى أوطان يشرف عليها قواد، ويتكون الوطن من قبائل يحكم كل واحدة منها شيخ من الأهالي، ويخضعون كلهم لسلطة الداي، ويساعد الباي مجموعة من الموظفين السامين.

1- للمزيد من التفاصيل حول ثورة بن الأحرش ينظر: -ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، م.و.ك، د.ط، الجزائر،1988، صص167-200.

2- يذكر أبو عباس الناصري في مؤلفه الإستقصا، أن سبب التمرد ودوافع الثورات إنما نتيجة ما نال الفقراء والمساكين وسائر الرعية من تعسف الترك وجورهم وإنتهائهم في ذلك إلى القتل والطرد من الوطن ينظر: - أبو عباس الناصري السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية، تح: جعفر الناصري، محمد الناصري، القسم الثاني، ج8، دار الكتاب، د.ط، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص110.

3- هؤلاء الوزراء هم مساعدوه المقربون إختارهم بنفسه من الأتراك:

-الخزناجي أو الخزندار: وهو مسؤول المالية، يساعده أربعة كتاب يسمى رئيسهم باش دفتر.

-الآغا: وهو رئيس الجيوش البحرية.

-وكيل الخرج: وهو قائد البحرية.

-البيت مالجي: وهو الضابط الذي يشرف على الشرطة العامة.

-شيخ الإسلام: وهو المفتي الحنفي وكان يعين من إسطنبول، وهو مكلف بالعدل والشؤون الدينية.

-المقطاعجي أو المكتابجي: وهو كاتب الدولة، له درجة شيخ الإسلام، ومن شروطه أن يكون فقيها وعالما، وقد يعين المكتابجي من طرف الأهالي. (يذكر حمدان خوجة أن والده كان يشغل هذا المنصب). ينظر: -محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1972، ص20.

4- صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص115.

- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، المصدر السابق، ص249.

كانت توجد بالجزائر مناطق تتمتع بنوع من الإستقلال الذاتي مثل: "بلاد القبائل والمناطق الصحراوية" تخضع لرؤساء القبائل من الجزائرين، وتراقبها ثكنات عسكرية، ولا تخضع مباشرة لسلطة الداي ولكنها تدفع له أتاوة.[1]

كما كان الحكم العثماني في سيطرته على الأرياف الشاسعة، يعتمد على قبائل المخزن المتكونة من جماعات مختلفة من أصولها وأنسابها، ولكنها مشتركة في المهام التي تقوم بها، لكونها مرتبطة بخدمة الجهاز الإداري خارج المدن، وهذا ما أكسبها طابعا ريفيا، ومهام إدارية، وواجبات عسكرية محدودة،[2] كما تحضى بامتيازات متنوعة، منها الإعفاء الضرائبي،[3] وبالمقامل تساعد الدولة في تحصيل الضرائب، والحفاظ على الأمن.

فالمجتمع الجزائري كان متكونا من الأتراك، وهم من الطبقة الحاكمة، وتضم في صفوفها الموظفين السامين من السياسيين والإداريين والجنود وهم من سكان المدن إضافة إلى الكراغلة المنحدرين من أب تركي،[4] والسكان الأصليين الجزائريين والحضر المتكونة من العائلات المقيمة في المدن ومن مهاجري الأندلس الذين أجبروا على مغادرة إسبانيا، وقد تكاثر عددهم وألّفوا فئة مستقلة كانت ذات فعالية إجتماعية وإقتصادية، ومن أهم العناصر التي كانت تشكل منها طبقة الحضر الجالية الأندلسية وجماعة الأشراف،[5] ويمثل الحضر أكبر مجموعة سكانية من حيث العدد قدّرهم "هايدو Haedo " بحوالي 12500 نسمة ما يقارب خمس السكان،[6] وهناك طبقة أخرى لباقي سكان المدن وهم طبقة البرانية،[7] والمتكونة من العناصر التي هاجرت إلى المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة وتلمسان نتيجة إنتشار ظاهرة النزوح الريفي بحثا عن العمل وهم ينتسبون إلى موطنهم الأصلي.

1- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص105.

2- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق، ص111.

3- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتق: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، د.ط، الجزائر، 2006، ص83.

4- الكراغلة: أو قول أوغلي وهم جماعة المولّدين من آباء أتراك وأمهات جزائريات، وقد كانوا مؤهلين للعب دور فاعل في جهاز الإدارة المحلية (البايليك)، وذلك لصلة القرابة التي كانت تربطهم بالأقلية التركية وللروابط التي كانت تشدّهم إلى مجموع الجزائريين، لكن ترفعهم عن باقي السكان وعجزهم عن الإندماج في الطائفة التركية ومحاولتهم منافستها والوقوف في وجهها، للحصول على مناصب ونيل الإمتيازات التي كانوا يطمحون إليها، تسبب لهم في عداء العناصر التركية، فتصدت لهم فرق الجيش الإنكشاري في مدينة الجزائر سنة 1626م وتم طرد العديصد منهم إلى الريف وإلى المدن الداخلية. للمزيد ينظر:- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق، صص108،109.

5- ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1984، ص97.

6- Haedo (D), Topographie et histoire générale d'Alger, traduit, de l'espagnol par Yacono Xavier, peut-on évaluer la population de l'Algérie en 1830, R.A, O.P.U, n°95, 1954, pp366-371.

7- البرانية تعني الشخص الغريب.

هناك فئة أخرى وهي فئة الدخلاء،[1] وتضم اليهود الذين سيطروا على التجارة في الجزائر وهم يشكلون العنصر الأهم بين الدخلاء،[2] والأسرى المسيحيين والمسيحيون الأحرار، هذا إضافة إلى سكان الأرياف الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من المجتمع حيث قدرت نسبتهم ب90% و95% من مجموع السكان، بينما سكان المدن فقدر بـ5% فقط،[3] وتوزع سكان الريف بين المناطق الجبلية والسهلية والصحراوية وكان يكتنفهم الإهمال من حيث التنمية والجانب الصحي، وقد قسّم سكان الريف حسب المكانة الاجتماعية وعلاقاتهم بالسلطة الحاكمة، فهناك قسم من القبائل التي كانت تتعامل مع العثمانيين وهم الأحلاف، أمّا القسم الأخير فكانت قبائله مستقلة تماما عن الحكام العثمانيين.[4]

إضافة إلى التركيبة الإجتماعية نجد أن الجزائر قد عرفت في منتصف القرن التاسع عشر العديد من الكوارث الطبيعية والإجتماعية التي أثّرت كثيرا على الوضع العام للمجتمع الجزائري، وتتمثل هذه الكوارث في الجفاف والقحط اللّذين كانا يصيبان آلاف الهكتارات من الأراضي الصالحة للزراعة، وكانت ترافقهما جحافل من الجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس، إضافة إلى انتشار الكثير من الأمراض المختلفة خاصة خلال العهد العثماني،[5] كما ضرب مدينة الجزائر زلزال عنيف هدّم منازل كثيرة وتوفي خلق كبير سنة 1716م.[6]

أمّا عن السلطة القضائية التي لها دور كبير هي الأخرى في الحياة الإجتماعية بحكم ارتباطها الوثيق والمباشر بتأثير القضاء على المجتمع وعليه، فقد كان للقاضي دور مهم في المجتمع خلال العهد العثماني، ويبدوا جليا من خلال وثائق

1- سموا دخلاء لتمييزهم عن مجموع سكان البلاد لأسباب دينية وحضارية.

2- كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام مدينة الجزائر، المصدر السابق، ص17.

3- حصل إختلاف في إحصاء عدد السكان، فحسب حمدان خوجة في كتاب المرآة يشير إلى تعدادهم ب10 ملايين نسمة، بينما يذهب وليام شالر إلى تعدادهم ب3 ملايين نسمة، ويجاريه الرأي شارل روبير أجرون وقاليسو.ينظر: - حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تق وتعريب: محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1982، ص162.

- وليام شالر، مذكرات وليام شالر 1816-1824، تعريب وتق: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1982، ص26.

- محمد الطيبي، الجزائر عشية الغزو الإحتلالي دراسة في الذهنيات والبنيات والمآلات، إبن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص105.

- Haedo (D), Topographie et histoire générale d'Alger, op-cit, P277.

- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1979، ص41.

4- المرجع نفسه، ص49.

5- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث، ج 2، المرجع السابق، صص123-136.

- صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح وتق: رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، د.ط، ص51.

- Lacoste (Y), Et autres, L'Algérie passé et présent, paris, Ed sociales, 1960, p360.

6- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص107.

المحاكم الشرعية أنّ دائرة مهامه إتسعت بشكل ملحوظ، فهو قاض الأحوال الشخصية والمشرف على الأوقاف وعلى البيع والشراء، فبالمحكمة يتم تسجيل عقود البيع والشراء والقروض، ويتم إضفاء الشرعية على تلك المعاملات.[1]

كما كان الداي في الجزائر مصدر السلطة السياسية والقضائية وفي إمكانه تفويض هذه السلطة إلى البايات والقضاة، لكن إن كانت الأحكام التي يصدرها القضاة لا تحظى بموافقة الداي في الجزائر العاصمة أو موافقة الباي بمقاطعته فإنه يكون بإمكان القائد السياسي أن يسحب هذا التفويض من القاضي والباي،[2] وكانت السلطة القضائية بالجزائر في الفترة التركية مكونة من محكمتين يشرف عليها قاضيان ومفتيان على المذهب المالكي وعلى المذهب الحنفي، لأن الجزائريين كانوا على المذهب المالكي أما الأتراك فعلى المذهب الحنفي، وهذه السلطة تنظر في القضايا الإجرامية والمدنية والتأديبية والحكومية، ورئيس سلطتها القضائية يعيّن من القضاة الأحناف لأن الباب العالي حنفي المذهب، فهي تنظر أيضا في الخلافات التي تقع بين رئيس الدولة وأي شخص آخر، وهذه المحاكم مستقلّة عن السلطان وحكمها لا رجعة فيه،[3] أما القضايا الخاصة بالجيش الإنكشاري فكانت لها محاكم رأسية لأن العسكريين لا يحاكمون أبدا بواسطة قوانين مدنية ولا أمام عامّة الشعب،[4] ونشير هنا إلى أجهزة القضاء قد تركزت في المدن ومناطق تواجد الأتراك أما الأرياف فكانت السلطة القضائية تسند للشيوخ والمرابطين وأهل الحل والعقد فيها.

أما بالنسبة للمسائل الجنائية مثل " القتل، السرقة، الخيانة،...إلخ"، كانت من إختصاص الداي والباي، وفي المسائل البسيطة فإن الداي يفوّض للقيادة الشيوخ أوالباي لكي يعاقبوا المخالفين، أما القضايا الخطيرة فإن الداي والباي هما اللّذان يصدران الحكم فيها.[5]

إذن إن الأتراك كانت لهم إمتيازات مقارنة بالأهالي حيث كانوا يعاقبون سرّا في دار آغا الإنكشارية حتى لا تهان كرامتهم، أما بقية السكان فكانت الأحكام قاسية ومجحفة بالنسبة لهم وعند إدانتهم والحكم عليهم بالإعدام، وكانت

1- عائشة غطاس، سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة إنسانيات، عدد3، وهران، 1997، صص71-79.

2- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية وإلى غاية، 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997، ص70.

3- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص72.

- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، المرجع السابق، ص72.

- عبد القادر نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى إنتهاء العهد التركي، دار الحضارة، د.ط، الجزائر، 2006، ص91.

4- أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تح وتق: المهدي البوعبدلي، د.ط، قسنطينة، الجزائر، 1973، ص247.

5- محمود إحسان الهنداوي، الحوليات الجزائرية، العربي للإعلان والنشر والطباعة والتوزيع، د.ط، دمشق، 1977، صص65-67.

جثثهم تعلق أو تحرق حتى يكونوا عبرة لغيرهم من السكان، وبما أن القاضي ومساعديه لم يكونوا يتلقون رواتب حكومية فقد كانت الرشوة متفشية والرسوم مرتفعة.[1]

أ.2. الأوضاع الإقتصادية بالجزائر:

لقد تميّز النشاط الإقتصادي بالجزائر خلال العهد العثماني بالضعف بسبب عدم اهتمام الدولة العثمانية بهذا المجال وتركيزها على الجانب العسكري، إذ أنها لم تهتم بتنويع وتحديث النشاطات الإقتصادية "كالفلاحة والصناعة والتجارة"، فبالنسبة للزراعة مثلا فلم تتطور أساليبها منذ آلاف السنين سواء أكانت زراعية بعلية أو مروية،[2] لذلك بقي النشاط الفلاحي التقليدي هو عصب الحركة الإقتصادية في أواخر الفترة العثمانية والذي كان ممارسا من قبل أغلب الجزائريين،[3] وكان الفلاح الجزائري يستخدم أدوات بسيطة من أجل الحرث كالمحراث مثلا والمنجل الذي يعود إلى عهود غابرة، إضافة إلى ذلك فإن الماشية كانت تربّى بطريقة تقليدية،[4] أمّا النظام الإرواء الزراعي فكان يعتمد على مياه الأمطار لعدم توفر الخزانات والقنوات الإروائية، فضلا على أن معظم الأنهار موسمية الجريان ولذلك دأبت القبائل على حرث جزء من أراضيها بينما تترك الباقي بورا وفقا لطريقة المناوبة، وهي طريقة لا تضمن إلا مردودا محدودا.[5]

وكان سكان الريف وهم الأغلبية الساحقة يشتغلون بالفلاحة وتربية المواشي والبقر والدواجن والإبل وبعض الأعمال اليدوية، وكانت الأراضي الفلاحية أنذاك شديدة الخصوبة وكانت ذات مردودية عالية وتدر منتوجات كثيرة ومتنوعة من خضر وفواكه، وبما أن الحبوب كانت المادة الأساسية للإستهلاك المحلي والتصدير للخارج فإنها تزرع بكثرة في بايلك الغرب.[6]

1- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، المرجع السابق، ص72.

2- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، صفحات من النضال المشترك ضد الإحتلال، منشورات الحضارة، ط1، الجزائر، 2013، ص108.

3- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، المرجع السابق، ص70.

- لقد كانت أخصب الأراضي ملكا لأفراد الطائفة التركية، وجماعة الكراغلة، والحضر الموسورين، فحمدان خوجة كتب عن نفسه قائلا في هذا الصدد: "...إنني أحد الملاكين في المتيجة، وأزرع سنويا في هذا السهل ولحسابي الخاص حوالي 160 حمولة جمل من القمح، وحوالي 100 أو 220 من الشعير..."، وعبّر صالح العنتري عن وضعية الفلاحة أواخر العهد العثماني فقال: "...لا تجد في ذلك الزمان ولا في الذي قبله وبعده من يهتم بأمر الزراعة أبدا، ومن أجل بخس قيمته كانت أمور الحراثة زمن الترك ضعيفة، لم تتعلق بها أعراض الناس...". ينظر: - حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص40.

-صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص35.

4- Lucette (V), Le Maghreb avant la prise d'Alger, Flammarion, paris, 1969, p44.

-وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، المصدر السابق، ص142.

5- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ش.و.ن.ت، ط2، الجزائر، 1982، ص24.

6- لقد كانت المساحة المخصصة لزراعة الحبوب لبايلك الغرب حوالي 3500 جابدة والتي تساوي من 8إلى 10 هكتارات، تنتشر في عدة جهات من البايلك كسهل غريس ومستغانم وتلمسان، وكانت الأشجار المثمرة منتشرة في الحقول المحيطة بالمدن كوهران وتلمسان ومعسكر ومستغانم، وهي تتغذى من المياه المتوفرة في المنطقة. ينظر: - ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني، المرجع السابق، ص58.=

هذا بالإضافة إلى المنتوجات الزراعية الصناعية من قطن وتين وزيت، ولكن السياسة الجبائية التركية المرتفعة قلّصت نوعا ما من النشاط الفلاحي، خاصة عندما نقصت المغانم البحرية في السنوات الأخيرة من العهد التركي بالجزائر بسبب فقدانها السيطرة على البحر المتوسط، وأهم مورد مخصص للتصدير هي الحبوب والقمح والشعير،[1] أما الأراضي التي كانت تنتج هذه الخيرات فكانت مقسمة إلى أراضي العرش وهي: ملك للقبيلة، وهي في العادة أكبر القطع الأرضية، ورؤوس الأعراش هم أكبر الملاك،[2] وأراضي الملك التابعة للإقطاعية البرجوازية، وأراضي فردية للأسر.

ولم تكن الصناعة متطورة بالمفهوم الحالي، فقد ارتكزت على الصناعات اليدوية مثل: "صناعة النسيج والأحذية، والدباغة والخشب والبروج، ومواد البناء والسفن، والسلاح والبارود، والمواد الغذائية" لكنها تقليدية بعيدة، كما وصلت إليه الصناعة في أوربا،[3] هذا بالإضافة إلى صيد السمك، وكانت جل النشاطات متمركزة في المدن الكبرى كالجزائر، المدية، وهران، تلمسان، قسنطينة وعنابة...إلخ.

فمثلا في مدينة قسنطينة كان يوجد بها ثلاثة وثلاثون مصنعا لدباغة الجلود، ومائة وستة وسبعون معملا للأحذية، وفي تلمسان خمس مائة مصنعا للنسيج، وفي تلمسان خمس مائة مصنعا للنسيج والخشب والجلد والحديد،[4] أمّا مدينة معسكر فقد اشتهرت بصناعة البرانس والأقمشة الكتيمة والتي كانت تستعمل في كافة الأيالة وكانت في بعض الأحيان تصدّر إلى مصر وتركيا، وكان البرنوس الجيد يباع بمائة فرنك،[5] وكانت الصناعة المحلية منظمة تنظيما دقيقا بحيث كان الحرفيون منخرطون في نقابات حسب التخصص، فنجد شارع الدباغين والنجارين والحدادين ...إلخ.

كما كان في المدن بعض المخابز والطواحين، كالطاحونة المائية بمنطقة ريغة مقامة قرب منابع المياه التي تفيدها،[6] وكانت هذه الصناعات التقليدية موجهة خصوصا لتلبية حاجيات سكان المدن الأساسية، ولا ننسى الدور الإيجابي الذي لعبته الهجرة الأندلسية بالجزائر في تحريك النمو الإقتصادي، فقد جلبوا معهم العديد من الحرف المتطورة في ذلك الوقت سواء في الميدان العمراني أو الفلاحي أوالصناعي.[7]

=- أندري برينار وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، د.ت، ص187.

-Venture(P), Alger au XVIII émie siècle, Editeur Boushama, Tunis, S.D, p54.

1- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص106.

2- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، ص108.

3- صالح عباد، المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر 1870-1900، د، م، ج، د.ط، الجزائر، 1984، ص337.

4- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص106.

5- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص97.

6- بوغوفالة وذان، التاريخ الإقتصادي والإجتماعي لمدينتي المدية ومليانة في العهد العثماني، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2009، ص204.

7- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص106.

- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، المرجع السابق، ص38.

أما عن المبادلات التجارية بين سكان الأرياف والمدن فكانت تنظم داخل أسواق أسبوعية يتم فيها تبادل السلع بالنقود أو المقايضة.

حصر "ناصر الدين سعيدوني" الجوانب المختلفة من النشاطات الإقتصادية[1] في محورين أساسين حسب نوعية الحياة في كل من المدينة والريف.

فالمحور الأول المتعلق بالنشاط الإقتصادي تناول سكان المدينة اعتمادا على أوضاعهم الإقتصادية وامتيازاتهم ومكاسبهم المادية، على أنهم طوائف ذات إنتماء مهني وإداري وعرفي، فمن حيث المهنة كان ينظر إليهم على أنهم مجموعة طوائف متمايزة على رأس كل طائفة أمين، يسهر على شؤونها ويكون واسطة بينها وبين الحكام، كما أن نفس العامل الإقتصادي جعل الدولة تنظر إلى سكان المدن على أنهم جماعات من الموظفين والأجراء، والعمال والبحارة، والجند والحرفيين الصناع، وحتى تصنيف سكان المدن حسب الإنتماء العرقي كان الهدف منه حماية الإمتيازات الإقتصادية، والمكاسب المادية للطوائف المحفوظة، فلو لم يكن هذا الدافع الإقتصادي لما حافظ الأتراك والكراغلة والأندلسيين أو البلدية أو البرانية أو البخلاء على تمايزهم العرقي طيلة العهد العثماني.[2]

أما المحور الثاني فيصنف سكان الأرياف إنطلاقا من نوعية نشاطهم الإقتصادي، إلى سكان سهول يزاولون زراعة الحبوب، وفلاحي جبال يشتغلون في البساتين، وأجراء يخدمون في الفحوص، بالإضافة إلى رعاة السهوب ورحل الصحراء. كما نجد لسكان الأرياف ترتيبا آخر، إمّا رعية خاضعة لمختلف المطالب المخزنية، وإمّا عشائر متعاونة تحظى بإمتيازات محددة مقابل تقديم خدمات معينة، بينما ما بقي من سكان الريف وهم المنتقلون أو المتحالفون الممتنعون عن حكم البايلك، فكانت تأخذ منهم اللّزمة، تطلب منهم المعونة مقابل تقديم الخلع والهدايا والترضيات لشيوخهم وزعمائهم ورجال الدين منهم.[3]

أما عن المبادلات التجارية بين سكان الأرياف والمدن فكانت تنظم داخل أسواق أسبوعية، فيها تبادل السلع بالنقود أو المقايضة وبعضها كان سنوي،[4] ولتسهيل المواصلات الداخلية والخارجية ربطت المدن بالطرق المعبدة، واعتنوا بالموانئ لتصدير منتوجاتهم الصناعية والفلاحية، ومن الصادرات الجزائرية نحو الدول الأجنبية الأوربية نذكر: القمح، الشعير، المواشي، العسل، العنب، التمور، الصوف، الشموع، وحسب وليم سبنسر فإن الجزائر كانت تصدر إلى أوربا

1- لمعرفة المزيد من النشاطات الإقتصادية ينظر: - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، ط2، الجزائر، 2008، صص349،350.

2- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص50.

- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، صص350،351.

3-ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المرجع السابق، صص50-51.

4- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، المرجع السابق، ص38.

وإلى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر "الزرابي، الخرق اليدوي المطروز، خرق لف الرقبة من الحرير، التمور وزيت النعام...إلخ"، أمّا عن الواردات فكانت تستورد القهوة، السكر، الشاي، الورق، القطن المغزول والخام، الأقمشة الدمشقية وأمتعة الذهب والفضة...إلخ.[1]

تتم هذه العمليات تحت رقابة الدولة ومقابل دفع حقوق الجمارك، وكان دخل الخزينة العامة للدولة من طرف ضرائب الزكاة والعشور والغرامة والفوائد، ورسوم الحكومة المفروضة على أراضي البايلك وجزية اليهود، ورسوم الجمارك والأسواق والشركات التي تؤول إلى بيت المال في حال انعدام ورثة شرعيين، وغنائم القرصنة والأموال التي تدفعها أوربا لإتقاء هجومات القرصنة، وهدايا الدول الأجنبية.[2]

وكان العنصر اليهودي خلال عهد الدايات يستعملون للتعامل في كثير من الأعمال التجارية للدولة وللقيام بالمفاوضات مع التجار الأوربيين، وهو ما يتطلب معرفة باللّغات والمعاملات التجارية للبحر المتوسط، والتي كانت تفوق إمكانيات حكام الجزائر، إضافة إلى أن اليهود إستولوا على مقاليد التجارة الخارجية والداخلية بمرافقة الداي، وهكذا فإن اليهود قد ارتبطوا بالعثمانيين من أجل مصالحهم وجمعوا في تلك الظروف أموالا طائلة.[3]

أ.3. الأوضاع الدينية والثقافية بالجزائر:

كانت الثقافة في الجزائر وربما في كل أنحاء المغرب العربي أفضل منها في القرن التاسع عشر ميلادي من الثقافة في المشرق، ويعود ذلك إلى أن الثقافة العربية الإسلامية لم تواجه ضغط التتريك الذي واجهته في المشرق، فالأتراك الإنكشاريون لم يهتموا لا بالعربية ولا بالإسلام، فتركوهما بشأنهما، حيث كانت بيد رجال الدين في الزوايا،[4] وقد خصص أبو القاسم سعد الله، موسوعة من موسوعاته التاريخية مكونة من تسعة أجزاء بعنوان: -تاريخ الجزائر الثقافي، وهي من أهم المراجع عن الوضع الثقافي بالجزائر في القرون الخوالي، إذن فالوضع الثقافي هو المؤشر الذي يمكن أن نقيس به الحياة الفكرية في أي مجتمع من المجتمعات، ومن خلال ذلك فقد نستطيع الحكم على مستوى وعي الفرد بأحداث عصره.

يذكر "ناصر الدين سعيدوني"، أن الثقافة في الجزائر أواخر العهد العثماني قامت على المهام المنوطة بجماعة الفقهاء في المدن، وعلى النشاط الذي كان يعرف به شيوخ الزوايا بالريف، ففقهاء المدن كانوا يؤطرون الحياة الثقافية

1- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص107.

- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، المرجع السابق، صص144،145.

2- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص107.

3- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، المصدر السابق، ص84.

- Emerit(M), La situation économique de la régence d'Alger en 1830, in imploration historique, n' mars-avril, 1952, p169.

4- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، صص110،111.

بما يقومون به من تلقين للعبادات وإشتغال بالتعليم، وتول لبعض الوظائف الدينية والقضائية، والمهام المرتبطة معها، وقد توارثتها العديد من الأسر الحضارية بمدن الجزائر وتلمسان والعاصمة،[1] أما شيوخ الزوايا بالريف، فقد إتسع نشاطهم ليشمل إلى جانب التربية والتوجيه والتعليم والإرشاد، القيام بمهمة النزاعات بين الأفراد والقبائل وتقديمهم يد المساعدة للفقراء والمحتاجين، ونظرا لحاجة السكان لخدماتهم، إنتشرت الزوايا الثقافية والروحية في جهات عديدة، من البلاد الجزائرية،[2] وانتشر التعليم بفضل حفظة القرآن ورجال الدين في المساجد والزوايا والمؤسسات التعليمية الأخرى، وبفضل أموال الأوقاف والزوايا في الأرياف، بحيث كان معظم الجزائريين يحسنون القراءة والكتابة.[3]

وكانت المواد التي تدرس في المرحلة الأولى للصغار القراءة والكتابة والقرآن، ولما ينتقلون إلى المعاهد يدرسون العلوم الدينية واللّغة العربية، والمنطق والحساب، وعلم الفلك وعلم الجداول، لتحديد مواقيت الصلاة، والطب والرسم لزخرفة المخطوطات، وعندما يصل الطلبة إلى مستوى معين يمكنهم الرحيل بمفردهم إلى القاهرة أو المشرق العربي لمواصلة دراساتهم.[4]

إن أغلب من ترك تراثا ثقافيا في هذه الفترة هم رجال الحواضر والرحالة، وعلى رأس الرحالة الجزائريين في القرن الثامن عشر ميلادي نذكر "الحسين الورثلاني" التي تعد رحلته "نزهة الأنظار" شاهداً على وجود الحوار الثقافي بين علماء الجزائر والمشرق العربي، إضافة إلى إنتاج "أبي راس الناصري المعسكري" سواءاً كان شعرا أو تدوينا، كما خلّف القرن الثامن عشر ميلادي وبداية القرن التاسع عشر ميلادي إنتاجا أدبيا غزيرا ذو طابع سياسي تاريخي، لأنه كان وليد الظروف، والمناسبات أمثال: الشاعر العاصمي "بن عبد الله محمد" الملقب بإبن قوجيل المتوفي قبيل فتح وهران الأولى.

مهما بلغ الإنتاج الثقافي خلال القرن الثامن عشر ميلادي وبداية القرن التاسع عشر ميلادي من حيث الكم، ورغم تعدد مراكزه ومحاولة رجاله فك الحصار المضروب عليهم سياسيا وجغرافيا عن طريق الرحلات شرقا وغربا، إنه لم يرقى إلى درجة النضج الفكري، لأن الثقافة لم تكن مبدعة بقدر ما كانت ظرفية وجهوية –إقليمية نقلية أكثر منها عقلية– إضافة إلى تأثرها بالإضطربات وانعدام الأمن وانشغال الحكام عن شؤون الثقافة، وهكذا أصبح النشاط الثقافي يقوم على جهود العلماء الذين لم ينقطعوا عن التدريس ولم يتوقفوا عن التأليف أمثال الناصري، إلى أن أتى الغزو الفرنسي ليتراجع المستوى الثقافي بشكل رهيب، فقد فقدت مدينة الجزائر مكانتها الثقافية المتميزة وتعطّلت مدارسها وتشتت شيوخها بفعل السياسة الإستعمارية الفرنسية المعادية للثقافة العربية، والمنافية لقيم الحضارة الإسلامية، فاضطرّ كثير من

1- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص131.

2- المرجع نفسه، صص131-132.

3- صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص128.

4- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص109.

ذوي المعرفة إلى مغادرتها أمثال: "حمدان خوجة، قدور بن محمد بن رويلة أحمد الشريف الزهار، محمد العنابي" الذي نفي من الجزائر لوقوفه أمام الإستعمار مثله مثل المفتي المالكي "مصطفى بن الكبابطي" وغيرهم من العلماء والفقهاء.[1]

ب. الأوضاع العامة ببلاد الشام أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر:

قليلة هي الأبحاث والدراسات باللّغة العربية التي تعني بالتاريخ الإجتماعي والإقتصادي لبلاد الشام أثناء الحقبة العثمانية، من أجل فهم الأحداث السياسية وتطوراتها في الشام، ينبغي أن نعرّج أولاً على تاريخها الإجتماعي والإقتصادي[2] لفهم التاريخ السياسي.

فمعظم المؤرخين العرب ركّزوا اهتماماتهم على الجانب السياسي لتاريخ المنطقة، غير أنّ الدكتور "رافق عبد الكريم" أكّد في أبحاثه مدى أهمية دراسة التاريخ الإجتماعي والإقتصادي لبلاد الشام من أجل فهم الأحداث السياسية وتطوراتها في البلاد، وقد تجلى هذا في الكثير من مؤلفاته ودراساته، وفي هذه الدراسة حاولنا اختصار الأوضاع العامة لبلاد الشام، وذلك حسبما توفر لدينا من مادّة علمية، وركزنا على الجانب السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي، وباختصار من أجل معرفة الأوضاع في بلاد الشام خاصة خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر.

ب.1. الجانب السياسي والإداري لبلاد الشام:

سوريا العثمانية أو سوريا في العهد العثماني تشير إلى سوريا تحت الدولة العثمانية، وقد دامت هذه الفترة قرابة أربعة قرون، منذ أن سحق السلطان "سليم الأوّل" جيش المماليك في معركة مرج دابق،[3] شمال حلب

1- صالح فركوس، الباي محمد الكبير وبحث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، العدد71، سنة12، سبتمبر –أكتوبر، 1982، الجزائر،ص21.
- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص132،133.

2- عبد الرؤوف سنو، الأحوال الإقتصادية والإجتماعية في الشام، الحياة، عدد 15264، 25 ديسمبر 2004. ص1.

3- مرج دابق: هي إسم معركة قامت في 8 أوت 1516م بين العثمانيين والمماليك قرب حلب في سوريا، قاد العثمانيين السلطان "سليم الأوّل"، وقاد المماليك "قانصوه الغوري" الجركسي الجنس –من سلاطين المماليك البرجية أومماليك الحصن– وقد تمزّق جيش المماليك بسبب الخيانة، وبهذا فشلت بينهم وبين الدولة العثمانية، كما فشلت محاولات الغوري في عقد الصلح مع السلطان العثماني فاحتكما إلى السلاح، والتقى الفريقان بالقرب من حلب في 24 أوت 1516م، والتي كان من نتائجها دخول دمشق مع السلطان سليم الأوّل وبسهولة، وبدأ التجهيز لغزو مصر، والقضاء على الدولة المملوكية بعد أن حكم سيطرته على الشام. للمزيد من المعلومات حول المعركة ينظر: - أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516م-1916م، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2002، ص27.
- أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، الزهراء للإعلام العربي، قسم النشر، ط1، مصر، 1995، صص165-172.
- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد، عبد الكريم رافق، مراجعة وتحرير: جبرائيل جبور، ج2، د.ط، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص306.

يوم 24 أوت 1516م، ومنها ملك مدن البلاد سلما أو على رأسها دمشق، 26 سبتمبر1516م، وحتى انسحاب العثمانيين منها في أعقاب الثورة العربية الكبرى والحرب العالمية الأولى في أكتوبر 1918م.

فالعثمانيون كانوا ينظرون إلى أنفسهم كورثة للخلافة الإسلامية، وذلك بعد أن نجحوا في ضمّ الأراضي العربية ومكّة المكرّمة،[1] إلى إمبراطوريتهم في القرن السادس عشر، واتخذ السلطان العثماني لنفسه دور حامي العالم الإسلامي بأكمله، وبذلك علت مكانة الدولة العثمانية في العالم الإسلامي، وبدأت بعد ضمّ الشام[2] ومصر، في بسط نفوذها على بقية بلدان العالم العربي وظلّ تحت سيادتها حتى الحرب العالمية الأولى.[3]

أبقى العثمانيون الدوائر الإدارية في بداية عهدهم في سوريا على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك،[4] وحتى مع تتالي تعقيد التقسيم الإداري ظلّت الآيالات والولايات تشمل مناطق جغرافية هي اليوم بمعظمها تتبع مختلف أقطار بلاد الشام، أي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، إضافة إلى قسم ضمّته تركيا إلى دفعتين، لذلك فإن الحديث عن سوريا العثمانية يشمل في عديد من المفاصل جميع دول الشام حسب التقسيم الحالي.

قسّم المماليك بلاد الشام إلى ست وحدات إدارية عرفت بإسم "نيابات" وهي: نيابة الشام، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة صفد، ونيابة الكرك، وعندما فتح السلطان "سليم الأوّل" بلاد الشام سنة 1516م،

1- حمل السلطان "سليم الأوّل" لقب "خادم الحرمين"، أي أنّه تكفّل بحماية المدينتين المقدّستين " مكّة والمدينة المنورة" كما كسبت فكرة الخلافة عند العثمانيين مغزى جديدا تجلى في تأمين طرق الحج، وحماية الأماكن المقدسة، والدفاع عن الإسلام والمسلمين. ينظر:

- أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص30.

2- بلاد الشام: تقع الشام في الطرف الغربي من قارة آسيا على شطوط البحر المتوسط وهي بين 30°-34° و 30°-37° من الطول الشرقي، و 30°-31° و 30°-43° من العرض الشمالي، يحدها من الشمال بلاد الأناضول، ومن الشرق البادية وبلاد الجزيرة، ومن الجنوب القطر المصري وبلاد العرب، ومن الغرب البحر المتوسط، وموقعها من أجمل مواقع الأرض وأكثرها أهمية، فهي الصلة الطبيعية بين الشرق والغرب.

وقد قسّم القدماء بلاد الشام إلى قسمين: الأوّل سورية وهو القسم الشمالي، آخره عند بدء بلاد الأناضول وأوّله من ناحية الجنوب جبل الشيخ، وأمّا القسم الثاني فهو فلسطين و موقعه ما بين جبل الشيخ في الشمال، وحدود البلاد المصرية في الجنوب، وهو القسم الذي استوطنه الإسرائيليون وملكوا معظمه، وظلّت هذه البلاد تعرف بإسم سورية وفلسطين حتى ملكها "الرّوم" وأطلقوا على القسمين إسم سورية، ثم فتحها العرب في بدء نهضتهم وأطلقوا عليها إسم "الشام" واختلفوا في سبب تسميتها بهذا الإسم، ولم تزل البلاد تعرف بالإسم الروماني عند الإفرنج والإسم العربي عند العرب.

وبلاد الشام لا تزيد عن 50 ألف ميل مربع من مساحتها، ويمتاز أهلها بكثرة أديانهم وتضمّ العديد من الطوائف، ويذكر محمد بن طولون أنّ البلاد الشامية تشمل كل من سوريا الحالية، ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن وقسما من بلاد تركيا. للمزيد من التفاصيل حول إشتقاق قسم الشام وموقعها ينظر:

- ابن عبده نعمان، حسر اللثام عن نكبات الشام، طبع في مصر، ط1، 1895، صص4،5.

- محمد بن طولون الصالحي الدمشقي، أعلام الورى بمن ولّي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، ط2، دمشق، 1984، ص9.

وينظر: - أبي البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، د.ط، بيروت، لبنان، 1980، صص9-13.

- شهاب الدين الحموي البغدادي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، ج3، د.ط، لبنان، 1979، صص312,311.

3- أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص28.

4- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان، المرجع السابق ص307.

أبقى على التقسيمات الإدارية فيها على ما كانت عليه في عهد المماليك، وعين "جان بردي الغزالي" نائباً على دمشق،[1] حيث أصبح النائب الفعلي للسلطان في سوريا،[2] أمّا سائر الدوائر الإدارية فقد أسندت إلى حكام من الترك، وعلى إثر حركة التمرّد التي قام بها الغزالي شرع السلطان "سليمان القانوني" في وضع نظام جديد لإدارة بلاد الشام قامت على الأسس التالية:

- ✓ تعيين نواب عثمانيين جدد للنيابات السورية بدلا من النواب المماليك.
- ✓ قرار تقسيم إداري جديد لبلاد الشام روعى فيه العنصران التاليان:

– التقسيم التقليدي لبلاد الشام والذي استقر منذ عهد المماليك مع إقرار العصبيات البدوية والتركمانية والدرزية في مناطقها.

– التقسيم الإداري العام للإمبراطورية العثمانية والذي قسمت الإمبراطورية بموجبه إلى قسمين رئيسيين هما الروملى ومقره مناستر أو صوفية والأناضول ومقره أنقرة ثم كوتاهية.

وبموجب هذا النظام الجديد قسمت بلاد الشام إلى ثلاث وحدات إدارية عرفت باسم (ولايات) هي:

- ✓ ولاية دمشق وشملت عشرة ألوية (سناجق).
- ✓ ولاية حلب وشملت تسعة ألوية.
- ✓ ولايه طرابلس وشملت خمسة ألوية.

وفي عهد السلطان مراد الثالث 1574م-1595م، قسمت الإمبراطورية إلى إيالات أو باشويات، وتألّفت كل إيالة من سناجق، وعين على كل إيالة وزير أو باشا.

وبناءا على هذا التقسيم الإداري قسمت بلاد الشام إلى الباشويات أو الإيالات التالية:

باشوية حلب، وباشوية الشام أو دمشق، باشوية طرابلس، وبقي هذا التقسيم الإداري قائماً حتى سنة 1660م، حين أحدثت إيالة صيدا لمراقبة العصبيات الإقطاعية المسلحة في جبل لبنان، بعد ثورة الأمير فخر الدين المعنى الثاني (1632م-1633م)، وتم تشكيل إيالة صيدا بسلخ أجزاء من إيالتي طرابلس ودمشق واتخذت مدينة صيدا مقرّاً لها.

وفي بداية القرن الثامن عشر كانت التقسيمات الإدارية في بلاد الشام على النحو التالي:

1- عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864م-1914م، تق: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1969، ص69.

2- وصف فيليب حتي الغزالي نائب دمشق بالخائن الذي تواطأ مع زميله نائب حلب على الغدر بمليكه الغوري قائد المماليك في معركة مرج دابق، ليصبح النائب الفعلي للسلطان في سوريا. ينظر: – فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان، المرجع السابق ص307.

– ويضيف أحمد زكريا الشلق أنّ السلطان العثماني عين الغزالي واليا على دمشق مكافأة على انشقاقه على السلطان المملوكي وانضمامه إلى الجيش العثماني، فضلا عن الإستفادة بخبرته، وإن كان الغزالي ما لبث أن تمرّد على السلطان سليمان القانوني، وزحف على مناطق جديدة ومنها حلب، لإخضاعها لولايته، لكن حملة عثمانية عاجلته بالقضاء عليه، وأنهت نفوذ المماليك كلية من بلاد الشام. ينظر: – أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص72.

- ✓ إيالة حلب ومركزها حلب.
- ✓ إيالة الشام ومركزها دمشق.
- ✓ إيالة طرابلس ومركزها طرابلس.

وبقيت بلاد الشام في ظل التقسيمات الإدارية السابقة –وكان قد أعيد تشكيل إيالة صيدا ونقل مركزها إلى عكا– حتى الفتح المصري لها.[1]

سادت فترة من الهدوء في بلاد الشام بشكل عام لأكثر من نصف قرن، حيث كان جميع الولاة الذين تداولوا السلطة من كبار الشخصيات والوزراء العثمانيين الأكفاء، الأمر الذي مكّنهم من ممارسة الحكم على النحو الذي تحقق فيه عامل الإستقرار، وقد ترافق هذا النموذج مع وجود سلاطين أكّفاء أمثال "سليم الأوّل" وابنه "سليمان القانوني"، هذا ما أكّده سهيل زكار في كتابه تاريخ بلاد الشام.[2]

غير أنّ بوادر الضعف وأحداث الشغب بدأت تظهر مع وفاة السلطان "سليمان القانوني"، واعتلاء عرش السلطة من قبل سلاطين غير مؤهلين، الذين كان همّهم إبتزاز مال الرّعية، وانشغالهم في الملذّات،[3] والذي نتج عنه فساد في المؤسسات وانحطاط في مستوى الجيش، وافتعال أعمال العنف والتمرّد في صفوف العساكر والأمراء المحليين، بلغت ذروتها في بلاد الشام عند النصف الأوّل من القرن التاسع عشر.

ويضيف سهيل الخالدي أن الأوضاع السياسية في الشام خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر تردّت تردّيا سريعاً وعنيفا، فلا المسلمون ولا النصارى كانوا على وفاق مع الدولة العثمانية، فقد هُمّشوا جميعا باعتبارهم عرباً، فحتى ذلك التاريخ لم يصل أي عربي من الشام أو غيره إلى مرتبة سياسية أو عسكرية ذات شأن، فلا وزراء ولا قادة في استانبول تعود أصولهم إلى العرب بل أن كثيرا من حكامهم المحليين لم يكونوا من ذوي أصول عربية، فدمشق حاضرة الشام التي حكمتها عائلة العظم القادمة من حماة كانت من أصول تركية.

لقد رأى عرب الشام –الذين أسّسوا أوّل المدن في التاريخ وأقدم حضارات البشر– أنفسهم يدفعون قسرا إلى البداوة...إنّهم على هامش هذه الدولة التي لا يعرفونها ولا تعرفهم إلاّ حين تريد جباية المال أو سوق الرجال

1– عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية، المرجع السابق، صص61-63.

– فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان، المرجع السابق صص 307–309.

2– للمزيد من التفاصيل ينظر: – تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام 1860م ومقدماتها في سوريا ولبنان، دراسة وتح: سهيل زكار، التكوين للدراسات والترجمة والنشر، د.ط، دمشق، 2006، ص56.

3–المصدر نفسه، ص56.

إلى حروب في بلاد ليس بينهم وبينها عداوة...، لقد ترك الناس لزعاماتهم العشائرية التي تزيدهم فقراً وتخلفاً وجهالةً...، فلجأ الناس إلى شقّ عصا الطاعة على الدولة العثمانية فاضطرب الأمن.[1]

لم يطرأ في هذه المرحلة أي تغيير جوهري في نظم البلاد أو الطريقة التي كانت تدار بها، ولعل مردّ ذلك إلى أنّ ثمّة هامشا من الحرية في الإدارة، جعلت الوالي يتمتع ببعض الصلاحيات لإدارة الولاية، فكان الحكم أقرب إلى اللامركزية وأميل إلى البساطة والمحافظة، أمّا ما له صلة بالأنشطة الحضارية فيبدوا أن الجهود كانت منصبّة للإهتمام بالجيش، لإعتقاد السلاطين أنّه العنصر الأساسي في مواجهة الأخطار المحتملة.

ب.2. الجانب الإجتماعي والإقتصادي لبلاد الشام:

تعدّ بلاد الشام من البلاد الفريدة في تنويع سكانها عقديا ودينيا وعرفيا، فعلى أرض بلاد الشام تعيش الكثير من الطوائف الدينية:

- ✓ المسلمون السنّة باختلاف عروقهم، (عرب، أكراد، شركس أو تركمان).
- ✓ النصارى باختلاف طوائفهم (موارنة، يعاقبة أو نسطوريين، أرثوذوكس، كاثوليك، بروتستانت).
- ✓ الدروز، الشيعة، العلويون، الإسماعليون، اليزيديون، البهائيون.
- ✓ الآشوريون.
- ✓ اليهود.

1- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، صص113،114.

- لقد ساهمت قوافل الحج في تطوير البلاد، كونها كانت تجتمع في دمشق لتنطلق للحجاز، وأغلب قوافل التجارة البرية تتجه نحو الخليج العربي والعراق مرورا من حلب، وهذا الوضع بقي سائداً خلال عهد آل العظم في القرن الثامن عشر الذين ثبّتوا النفوذ العثماني في بلاد الشام، وقويت شوكتهم وكان "إسماعيل باشا" العظم أوّل من برز من رجال هذه الأسرة ليتولى ولاية دمشق عام 1725م-1733م. لكن بدأ عهد الفوضى والحروب الأهلية بين الولاة، إضافة إلى إرهاق الشعب بالضرائب وانعدام الأمن، دخلت البلاد عام 1831م في حكم "محمد علي" والي مصر، وكان حكمه إصلاحيا من نواحي الإدارة والإقتصاد والتعليم، إلاّ أنّ سياسة التجنيد الإجباري التي انتهجها، إضافة إلى إنتهاجه أسلوباً إداريا يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات، وعلى تغيير موازين القوى الإجتماعية والإقتصادية، الأمر الذي جعل أهالي سوريا من المسلمين يتخوفون من إدارته، ويتحولون بعواطفهم إلى السلطان العثماني، مما أدّى إلى قيام ثورات شعبية متتالية ضدّه بين عامي 1833م-1837م، وهذا ما ساعد مناصري السلطان العثماني والمتعاونين مع إنجلترا في بلاد الشام على إثارة الفتن ضدّ حكم "إبراهيم باشا"، فكان ذلك تمهيداً لتعاون بعض الطوائف فيما بعد مع الدول الأوربية مباشرة، دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية وسيادتها، وهذا ما سمح للإنجليز بالإتصال بطائفة الدروز وتشجيعها على الثورة ضدّ "محمد علي"، بينما ساندت فرنسا الطائفة المارونية وشجّعتها على الوقوف ضدّ من يمس بمصالحها، وهذا ما هيأ الظروف لحدوث إضطرابات بعد انسحاب الإدارة المصرية من الشام عام1841م. وفعلا بدأت الأوضاع في مجمل بلاد الشام تنذر بانفجار خطير قد يكون بداية صراع طائفي دموي وتدخّل دولي أوربي عسكري. ينظر: - أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية، المرجع السابق، صص73-75.
- محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي 1514م-1914م، دار الجيل للطباعة، د.ط، القاهرة، د.ت، ص222.
- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص81.

أمّا الطوائف والشعوب التي عرفتها بلاد الشام فكانت ما يلي: " العرب، الأكراد، الشركس، التركمان، الموارنة، اليهود، الأرمن نسبة لأرمينيا".[1]

تلك هي صورة الوضع السكاني في بلاد الشام سواءا من الناحية الدينية أو العرقية أو السلالية،[2] فأهل الشام يمتازون عن بقية أهل الأرض بكثرة أديانهم، فليس في المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم كل هذه الطوائف والشعوب مما ذكرناه، وفيها من الأديان مما لا يوجد في سواها من البلدان ولعل ذلك كان أكثر أسباب إنحطاطها فيما بعد، بسبب نشوب الحروب الأهلية فيها، وأمّا الطوائف الحالية فأشهرها المسلمون وهم أنواع ثلاثة أشهرهم السنيين، ويليهم الشيعة، ويعرفون في بلاد الشام باسم "المتاولة"[3] وتسمى الدنادشة[4] أو بني دندش ويقيمون في عكار وما يجاور الهرمر وحمص.

أمّا السّنيين فيتمركزون بالدّرجة الأولى في مدينة طرابلس، ومن بعدها صيدا وبيروت وفي سهل البقاع حيث يوجد عرب "بني خالد"، وغالبيتهم من السّنة المسلمين، ومازالوا على حال أجدادهم من البداوة وحب الغزو والتنقل وهم كثر وفي كل ناحية، بالأخص في أطراف البلاد الشرقية ونواحي الحولة على حدود فلسطين من ناحية الشمال، إذ لا وجود لهم في جبل حوران موطن الدروز، ولا في كسروان موطن الموارنة.[5]

أمّا الشيعة فمقر تواجدهم هو الجنوب اللبناني من جزين حتى جنوب جبل عامل،[6] وهذا الإقليم يأتي بالدرجة الأولى كمنطقة شيعيّة. وفي غير هذا الإقليم يعيشون في منطقة البقاع وبقية القرى والمدن اللبنانية.[7]

أمّا المسيحيون فهم فرق عديدة من الروم الأرثوذوكس والروم الكاثوليك وغيرها من الطوائف الأخرى، وأهم الأماكن التي يسكنوها في جبل لبنان وفي بعض مدنه مثل دير القمر وزحلة وغيرها، وإقليم كسروان التي يسكنها

1- اسكندر بن يعقوب أبكاريوس، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تح: عبد الكريم إبراهيم السمك، رياض الريس للكتاب والنشر، د.ط، بريطانيا، 1987، ص52.

2- لمعرفة عشائر الشام ينظر: - أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، قدم له أحمد غسان سبانو، ط2، دار الفكر، دمشق، 1983.

3-ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص5.

4- يقال أن الدنادشة أصل جدها من اليمن ونزل حوران منذ ثلاثة قرون ثم هاجروا حوران وسكنوا برج الدنادشة فوق تل كلخ مقرهم الحالي، وكان زعيمهم أنذاك يسمى "الشيخ إسماعيل" ولقّبه التركمان جيرانه باسم دندشلي لأنه كان يزين خيله بعذبات مرسلة تسمى دنادش. للمزيد ينظر:

- محمد علي باشا، الرحلة الشامية، سلسلة التواريخ والرحلات 3، دار الرائد العربي، بيروت، د.ط، 1981، ص6.

5- اسكندر بن يعقوب أبكاريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، ص54.

- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص6،7.

6- جبل عامل: إسم لمقاطعة من الأرض جنوبي الشام، ويسمى جبل الجليل ويعرف بالبشارتين، ولا تزال القطعة الجنوبية منه تعرف ببلاد البشارة، ويطلق على ما كان من بين النهرين (الليطاني والزهراني) "بلاد الشقيف". وعلى ما وراءهما من جهة الشمال، ويحده جنوبا نهر القرن الجاري قرب ترشيحا (طير شيحا) من بلاد عكا، وشرقا أرض الخيط والأردن والحولة، وقسم من جبل لبنان، وشمال نهر الأولي، وغربا البحر المتوسط، وتدخل في هذا الحد صيدا وجزين وقسم من قرى عكا. ينظر: - محمد تقي الفقيه، جبل عامل في التاريخ، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1986، ص15.

7- اسكندر بن يعقوب أبكاريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، ص54.

الموارنة،[1] والمعروفة بحدودها وطبيعة أرضها وعلو جبالها وانتمائهم الماروني لهذا الإقليم يوافق ارتباطهم بالعقيدة النصرانية، كما يكثر النصارى في مدينة بيروت، وهم الفريق الأكبر من أهلها وعددهم ليس بقليل في كل المدن البحرية مثل طرابلس وصيدا وصور ويافا، والداخلية مثل دمشق وحلب وأنطاكيا وغيرها، وقلّ ما يخلو مكان في سوريا من بعض طوائف المسيحيين.[2]

وفيما يخص طائفة الدروز[3] فمنطقتهم الشوف والمتن وإلى الجنوب من هذين الإقليمين، لكن الشوف هي المنطقة الأولى لهم، وفي غير هذا الإقليم يعيش الدروز والنصارى بقرى مختلطة إذ نادرا ما تخلو منهم مدينة أو ولاية في الشام.

أمّا عن الإسرائيليون فأكثرهم موجود في الأراضي المقدّسة مثل القدس الشريف ونواحيها، وهم يزيدون عددا يوما بعد يوم لكثرة الذين يهاجرون إلى هذه البلاد، لاعتقادهم أنّ هذه البلاد ستعود إليهم بعد حين، وقد ساعدهم في ذلك أكابرهم في شراء الأراضي وتعمير القرى والمدن، وقد صارت القدس ونواحي جبل الكرمل والناصرة من أملاكهم، وصاروا

1- تنتمي الطائفة المارونية إلى "مار مارون" وهو ناسك عاش في جبال سوريا الشمالية في أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس، ولما مات نقلت رفاته إلى شواطئ نهر العاصي على مقربة من مدينة أفاميا، ثم شيّدت هنالك كنيسة حملت إسمه ونالت شهرة حتى أطلق إسمه على النصارى المجاورين لها الذين كانوا يتلقون التعاليم الدينية عن رهبانها، ومن ذلك العهد عرفوا بإسم الموارنة، وكوّن هؤلاء طائفة تكاثرت في وادي العاصي. للمزيد ينظر:

– أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية (1842م-1861م) دراسة في التاريخ السياسي والإجتماعي، مطبوعات جامعة دمشق، ط1، 1966، ص13.

– ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص62،63.

2- اسكندر بن يعقوب أبكاريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، ص54.

– ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص7.

3- يطلق على الدروز هذا الإسم لأنهم من أتباع رجل من أهل الديانة الباطنية –القائلة بأن آيات القرآن معنى غير الظاهر، وأن روح النبوة إنتقل من آدم إلى غيره من الأولياء حتى صار إلى الخلفاء الفاطميين– فارسي الأصل إسمه "نشتكين" الدرزي، كان أوّل من دعا الناس إلى الإعتقاد بألوهية الحاكم بأمر الله، وكان يعبده الدروز عبادة سرّية، وكان طاغية ومستبداً وسافكاً للدماء، وهو السادس بين الخفاء الفاطميين، ومن مواليد القاهرة سنة 375هـ، وهو أوّل واحد منهم ولد في مصر وبويع بالخلافة بعد والده العزيز سنة 386هـ، وهو في الثانية عشر من عمره، وكان محتالا ولكنه قتل بأمر من أخته على يد "ابن دواس"، وله قصة طويلة تحدث عنها صاحب حسر اللثام. كما يضيف أن الحاكم هو الذي أرسل "نشتكين" الدرزي إلى بلاد الشام، ليبشر به إلاهاً، فجاء هذا الرجل إلى واد التيم، في أطراف لبنان من ناحية الجنوب، ولقي هناك قبيلة العرب، كان أجدادهم حسبه يميلون إلى الديانات الباطنية ويتظاهرون بالإسلام على كرهٍ منهم فقبلوا دعوته، التي تأمر بعبادة الحاكم بأمر الله، وعدم الإقرار بصحة القرآن وغير ذلك من الأمور، وأطلق على هذه الطائفة إسم الدروز، لأنهم اتبعوا التعاليم الدرزية ولكنهم لم يقدروا الخلاص من هذا الإسم، مع أنّهم صاروا في آخر الأمر يكرهون الدرزي، ويحتقرونه وسموا أنفسهم بالعقّال أو الموحدين، وبعد وفاة الحاكم صارت الدروز طائفة سرية، وتحصنوا في جبال الشام وظلوا على الإستقلال، وهم إلى اليوم يعرفون بالميل إلى الإستقلال وحب الحرب، والتعاضد على كل عدو معائد. للمزيد من التفاصيل ينظر: – المصدر نفسه، صص 51-61.

– اسكندر بن يعقوب أبكاريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، ص90.

هم أصحاب النفوذ فيها وأكثرهم غرباء نزحوا إلى بلاد الشام، إضافة إلى طائفة السمرة التي تعدّ أغرب الطوائف في الأرض وهي في جملة اليهود ولعلها أصغر طوائف الأرض.[1]

أمّا النصيرية والإسماعيلية فيمتازون بديانتهم الباطنية وعوائدهم المستهجنة، ومعظمهم موجود في الجبال الواقعة بين حماة واللاّذقية، وفي عكا طائفة أخرى إسمها طائفة البابيين ليس لها وجود غير مدينة عكا من بلاد الشام، هذا بالإضافة إلى طوائف أخرى لا يسعنا ذكرها لكثرتها.[2]

تلك هي صورة الوضع السكاني في بلاد الشام سواءا من الناحية الدينية أم من الناحية العرقية والسلالية ويذكر وجيه كوثراني مضيفا أنه على الرّغم من عدم دقة هذه الإحصاءات، فهي وفقا لصفتها التقديرية العامة تقدم لوحة فنية من التعدد الطائفي والأقوامي في بلاد الشام، ونسب أعداد الطوائف بشيء من وضوح الأهمية العددية لكل طائفة وهي تبرز حسبه أهمية سوريا للمصالح الفرنسية.[3]

خاصة وأن الكثير من الأقليات الدينية عمدت إلى التقوقع على نفسها بعيداً عن الحكم، إضافة إلى استمرار كل طائفة دينية أو مذهبية العيش بمعزل عن الأخرى، خاصة أنّ عوامل إستمرار الطائفية ونموها تعدّدت، هذا ما زاد التباعد بين كل طائفة وأخرى.

ولما انتقلت المفاهيم الطائفية إلى الصراع الطبقي في ظل الإقطاع خاصّة في لبنان بدأت الدول الأجنبية تتدخل في شؤونها الداخلية، معتمدة على الطائفة سبيلا إلى تحقيق مآرب معينة،[4] هذا ما تفطّن له الأمير عبد القادر الجزائري عند إستقراره في المشرق.

أمّا من الناحية الإقتصادية فقد تميّزت في القرن التاسع عشر حسب بعض الباحثين بهشاشة وضعف الطبقة البرجوازية الناشئة، وهي التي تضم أصحاب الصناعات والمشاغل والتجار والوكلاء والمتعهدين ،كما تشكلت أيضا طبقات وسطى من أصحاب الأعمال الحرة كالأطباء والمحامين والموظفين والمعلمين والشرائح الوسطى الريفية، وقد رافق هذا التشكل المذكور بداية تكون طبقة عاملة بالمعنى الحديث للكلمة.[5]

1- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص8.

2- المصدر نفسه، ص9.

3-للمزيد من التفاصيل حول التنوع السكاني في بلاد الشام، من حيث انتمائهم إلى عدة مذاهب وديانات وعقائد. ينظر:

- وجيه كوثراني، بلاد الشام في مطلع القرن العشرين السكان والإقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني، قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط3، الدوحة، قطر، 2013، صص43-45.

- ينظر الملحق رقم: 01، والملحق رقم: 02.

4- اسكندر بن يعقوب أبكاريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، صص52،53.

5- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، صص114،115.

ويضيف أنّ النظام الضرائبي المعمول به منذ عشرات القرون في الشام ظلّ عائقاً أساسياً في ظهور طبقات إقتصادية جديدة قسّم المجتمع إلى قسمين: الفلاحون والطبقة الحاكمة.[1]

قبل هذه الفترة يذكر بعض المؤرخين والكتاب أنّ الصناعات الشامية كانت من أرقى الصناعات في المشرق العربي، فنذكر على سبيل المثال: "ابن جبير" تحدث عن أسواق حلب قائلا: "...أسواقها بديعة تخرج من سماط صنعة وتدخل في سماط صنعة أخرى..."، أمّا الأستاذ "بيير بزانتي Pierre Bazantay" أشار في بحثه الذي أعدّه عن التعليم في لواء اسكندرون عام 1935م باللّغة الفرنسية والذي طبع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت، أنّه درس عدّة صناعات فوجدها مازالت تحتفظ بطابعها الشامي القديم وذلك لعراقته وجودته.[2]

فالصناعة من الأمور الضرورية للهيأة الإجتماعية وعليها تتوقف حياة الأمم وعلو الهمم، وهي السبب في تعليم الشعوب حب الإستقلال بالأعمال وحب شرف النفس والإعتماد عليها يعتبر العامل في تنبيه الفرد أن يكون في الأمّة جسماً عاملاً، هذا ما قاله "خليل العظم"[3] عن الصناعة وأهميتها في حياة الفرد والمجتمع.

كانت حاضرة الشام دمشق مع مطلع القرن التاسع عشر تعرف بإقتصاد الحرف والمهن، وكانت تنظّم هؤلاء الحرفيين في شبه نقابات كانت قائمة منذ زمن قديم، وازدادت أهمية وتنظيماً فيما بعد لارتباطها بحركة التجارة من إستيراد وتصدير، وصار لكل أصحاب الحرف رئيس يسمى "شيخ الكار"[4] ولم يكن شرطا أن يكون من متقني الحرفة ومزاوليها بل يكون من سلالة الرّسول عليه السلام كونها تحظى بمكانة في المجتمع.[5]

1- يقصد بالفلاحين هم الذين يعيشون في إيطار جماعا، والبدو والرحل، وعلى كاهل هؤلاء تقع مهمة تمويل الدولة عبر نظام ضرائبي شديد القسوة يطال الأرض ومنتوجاتها والحيوانات، أمّا الطبقة الحاكمة فهي التي تحتكر وظائف التنظيم السياسي للمجتمع وإدارته وتبتزه. ينظر:

- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، ص115.

2- ينظر: - محمد سعيد القاسي وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، حققه وقدم له: ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، ج1، دمشق، 1988، ص26.

3- وجيه دمشقي ينتمي إلى أسرة عريقة، عرف بالورع والتقوى والأمانة، وتحلى بمكارم الأخلاق، كان محبّاً للعلم والعلماء يأنس بمجالسهم، ويحب معاشرة ومخالطة النابهين منهم، تزوج بنت سعيد القاسمي، ونشأت بينه وبين آل القاسمي صلات النسابة والمودة، ولد عام 1870م، واشتغل بالزراعة والتجارة، ثم عين قبل الحرب العالمية الأولى رئيسا لمحاسبة بلدية دمشق، ثم كلّف خلال الحرب برئاسة محاسبة دائرة المحروقات، وكانت من أهم الأعمال، ثم ترك أعمال الدولة مع نهاية الحرب وتفرغ للزراعة، إلى أن وفاه أجله أواخر عام 1926م. للمزيد ينظر: - المصدر نفسه، ص209.

4- مصطلح قديم كان يطلق في دمشق القديمة وحلب القديمة على عميد أصحاب مهنة أو حرفة واحدة، ويكون خبيرهم وكبيرهم، وهو الذي يمثلهم أمام المهن الأخرى، وأمام الدولة وأمام شيخ مشايخ الكار.

5- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، ص116.

كما أنّ الصناعة في دمشق كانت خلال هذا القرن أفضل منها في سائر مدن الشام، يذكر الأمير علي الحسني[1] في كتابه: "تاريخ سوريا الإقتصادي" المطبوع بدمشق سنة 1924م مايلي: "...وقال السائح شوبرت الذي زار الشام سنة 1850م، أنّ سكانها يفوقون غيرهم بالمهارة الصناعية وحب الترتيب والذوق، وبأنّ عدد صناع الأقمشة الأطلس وغيره يزيد على 400 عامل، وبأنّه لا يوجد أثر للفاقة والإحتياج..."[2].

حتى مسألة الزراعة فقد اعتبرت من المسائل الأساسية في بلاد الشام فهي مترابطة مع الجانب الإقتصادي الإجتماعي، كونها تتعامل مع الموارد البشرية ومدى تحسين حياة الفلاح في الوقت نفسه، فهي تتعامل مع الموارد المادية من أجل تطويرها وتحسين أساليب إستخدامها، كما أنّها تسعى للحصول على أعلى مردود ممكن بعوامل الإنتاج المتاحة، وكذلك التغلّب على المناخية الحادة التي يتعرض لها الإنتاج الزراعي، بالإضافة إلى المخاطر الكبرى التي تنشأ عن ضعف المرونة والتحكّم بكمية الإنتاج، إضافة إلى التحكّم في الطلب على الإنتاج بهدف تصريفه سواء على صعيد السوق المحلية أم على صعيد تصديره إلى الأسواق الخارجية.

تذكر "رانيا الدروبي"[3] في هذا الصدد "...أنّه لا يجوز ترك المسألة الزراعية للمصادفة أو للقرارات الفردية، وإنّما يجب تدخّل الدول بغض النظر عن أسلوب هذا التدخل وعن طبيعة النظام الإقتصادي القائم..."، غير أنّه في مطلع القرن التاسع عشر ومع ظهور تسهيل الأراضي والقوانين العقارية، أخذت هذه الطبقة الحاكمة تسرق الأرض من الفلاحين وتقضي على الملكيات الصغيرة لهم، وتسجل هذه الأراضي باسم أفراد من هذه الطبقة الحاكمة من موظفين ورؤساء عشائر وكبار التجار لتتركز الملكية قانونيا بيد هذه الفئة القليلة التي حوّلت الفلاحين إلى أجراء في أرضهم ويقع عليهم وحدهم عبء الضرائب لتمويل الدولة التي كانت تدعم أولئك الذين امتلكوها مقابل ضمان ولائهم لها.

ومع أنّ كل الأراضي كانت قبل ظهور التنظيمات العقارية تعتبر ملكا للسلطان أي أنّها ملكية للدولة ويطلق عليها أرض المشاع، إلاّ أنّه مع ظهور الملكيات الخاصة عبر التسجيلات العقارية ظلّ السلطان هو المالك الأكبر للأرض ببلاد الشام، حيث كانت ملكيّة السلطان عبد الحميد في سوريا السياسية وحدها تزيد عن خمسة عشر مليون دونم ألف قرية فلاحية.[4]

1- وهو من أحد أفراد الأمير عبد القادر الجزائري، تخرج من جامعة كمبردج البريطانية.

2- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، صص116،117.

3- رانية الدروبي، المسألة الزراعية في سورية بين عامي 1970-1995، واقعها وآثار تطورها، مجلة جامعة دمشق، المجلد16، العدد الأول، كلية الإقتصاد، جامعة دمشق، 2000، ص208.

4- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، صص115،116.

ب.2. الجانب الثقافي في بلاد الشام:

عرفت بلاد الشام تغييرات سياسية وإقتصادية وإجتماعية مهمّة منذ حملة بونابرت في نهاية القرن الثامن عشر والإنفتاح على الغرب، مما نتج عنه نهضة فكرية علمية، إجتماعية وأدبية، خاصّة مع منتصف القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

يذكر "أحمد إيبش" أنّ مسألة ربط تخلّف الأمّة العربية عن ركب التطور الحضاري بحكم العثمانيين لها أمر يجعل قدراً من المبالغة، بحكم أنّ تاريخ العرب أثناء الحكم العثماني مليء بالشواهد الحيّة أنّ الكيان القومي العربي ومؤسساته الدينية المغرقة في الأصولية آنذاك، كانت رافضة كل الرفض أي إحتكاك بالغرب، وتعتبر كل ما يتأتّى منه من قيم وأخلاق وعلوم ومعارف أمراً مجلوباً مقيتاً، كما تصنفه في خانة "البدع المفروضة".[1]

كما يؤكّد ذات المرجع أنّه إذا كان أبناء ذلك العصر، لم يتمكّنوا ضمن مجتمعاتهم الداخلية المستقلّة عن تأثير العثمانيين من تجاوز المشاحنات والتحامل والسلبية ما بين المذاهب والأقوام، والافرازات الإقليمية والعشائرية، فمن يتخيّل أنّهم بإيديولوجياتهم التيوقراطية المحافظة –الإعتقاد الديني الذي يقوم على أساس العنصرية– كانوا مهيئين لمسألة الإنفتاح والتمازج الحضاري مع كيان غريب كأوربا.[2]

غير أنّ فرض العزلة التي فرضتها الدولة العثمانية على الوطن العربي وحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الأوربية الناهضة، بدعوى خوفها على الأقطار العربية من أطماع الدول الأوربية الإستعمارية، جعلتها تتخلّف بمئات السنين عن البلدان الأوربية الناهضة، بالرّغم من بقائها لمدّة قرابة ثلاثة قرون عن الأطماع الأوربية تحت الحكم العثماني.

ضف إلى ذلك لم تهتم الدولة العثمانية بالتعليم والصحة والتنمية الزراعية والرعاية الإجتماعية، فقد تركتها للأفراد والهيئات تقوم بالصرف عليها بإعتبارها خارجة عن مسؤولياتها التي حدّدتها الأنظمة الموضوعة.

فمثلا يذكر "فيليب حتي" عن الجانب الثقافي لبلاد الشام في العهد العثماني فيقول: "... أصابه الجمود فسمّاه بعصر الجمود والعقم، ويرجع ذلك إلى الحكم الإعتباطي، والضرائب الفادحة والتدهور الإقتصادي والإجتماعي التي خلّفته الدولة العثمانية في البلاد، ممّا كان حاجزاً أمام الإبتكار الشخصي والإنتاج الخلاق في الفن والأدب

1- تاريخ الشام في مطلع العهد العثماني 1520م-1544م، إستنادا إلى مخطوطات نادرة في مكتبة الدولة Staatsbibiothek في برلين وإعادة جمع الصفحات الضائعة من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون الصالحي الدمشقي، دراسة وتح: أحمد إيبش، مكتبة مؤمن قريش، ط1، دمشق، 2010، ص47.

2- المصدر نفسه، ص47.

والعلم..."،[1] ويستثنى من ذلك عدداً من العلماء الذين نبغوا في العاصمة أمثال: " المؤرخ أحمد بن سنان القرماني الدمشقي" المتوفى عام 1610م الذي كان موظفا في حكومة دمشق، وكذلك "نجم الدين الغزي" المتوفى عام 1651م المحدث والأستاذ في دمشق، و"محمد القرني التلمساني" المتوفي عام 1632م صاحب المؤلّف الضخم الذي يعتبر المصدر الرئيسي لتاريخ الأندلس الأدبي، من مواد كان قد أحضرها معه من مراكش، ومن أعلام دمشق الجديرين بالذكر "عبد الغني النابلسي" المتوفي عام 1731م وهو شاعر وأديب وعالم صوفي وغيرهم...[2]

كما كان المسجد حتى القرن التاسع عشر يشكّل حلقة التعليم الأولى والوحيدة في الدولة ويتم بها تلقين الكتابة والقراءة، ومبادئ الرياضيات والفقه والأصول والحديث والمنطق والفلك، إلى غير ذلك من بحر العلوم، وذلك في المدارس والمساجد وفي دورهم الخاصة كل صباح ومساء، وتظل البلدة خاصة بأهل العلم على الدوام خصوصا تحت قبة النّسر في الجامع الأموي، وفي التكية السالِيمية على المرج الأخضر عقب صلاة العصر من كل يوم، وبعد صلاة الجمعة من أيام الجمع حسب شروط الواقفين رحمهم الله، وكان مختلف طبقات العامة عند أداء الصلاة يصغون إلى الأحكام الدينية، وكانت خزانة الأوقاف تدر على العلماء والمدرسين من الرواتب ما يكفيهم مؤونة السعي وراء المعاش، كما أنّ طالب العلم في المعهد العثماني كان يعفى من الخدمة العسكرية،[3] وكذا الأمر بالنسبة للمسيحيين في الكنائس، وفي المدن الكبرى كانت بها مدارس البعثات التبشيرية والراهبات.

يذكر عبد العزيز عوض، أن التعليم قبل عصر التنظيمات كان تعليما دينيا حرا، يبدأ في المنزل على يد مربّ أو شيخ، ويتعلم التلميذ فيه ترتيل أجزاء من القرآن الكريم، أما مبادئ الحساب فكان يتعلمها من قباني القرية، كما كان تعلّم القراءة والكتابة هو الحد الأقصى للتعليم في القرى، أما في المدن فكان التلاميذ يتلقّون العلم في المساجد، وكانت مادّة التدريس الأساسية هي حفظ القرآن وتلاوته، ولم تكن الحكومة تنفق على المدرسين أو على أبنية المدارس، بل كانت المدارس تدين بوجودها إلى تبرعات المحسنين الذين أنشأوها وحبسوا عليها الأوقاف الكافية، كما كانت مرتبات شيوخ المدارس قليلة، ولم يكن هنالك نظام للتفتيش على أسلوب الفقهاء في التعليم أو مراقبته، وإنما كانت المراقبة مقصورة على الناحية المالية.[4]

كما يضيف أنه في عصر التنظيمات، شهدت ولاية سوريا تطورا فكريّا وثقافيّا سريعا نسبيّا إذا ما قرناه بتطور الثقافة والتعليم في العهد العثماني الأوّل، وقد مهّدت الإدارة المصرية (1831م-1840م) لهذا التطور، وأصبح للدولة

1- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان، المرجع السابق، صص320،321.

2- المرجع نفسه، صص321،322.

3- عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تح: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتاب والنشر، د.ط، لندن، 1987، ص107.

4- عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية، المرجع السابق، ص252.

سياسة تعليمية ذات أهداف فَسَنَّتْ الأنظمة اللاّزمة التي استهدفت تنظيم إدارة التعليم في الولايات، حيث قسمت أنماط التعليم في عصر التنظيمات إلى أنواع ثلاث هي: " الكتاتيب، المدارس الحكومية، المدارس الخاصة".[1]

ويضيف سهيل الخالدي أنّه لم تكن في بلاد الشام مدارس عصرية سواء في دمشق أو حلب أو حتى في القدس حتى النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، ويضيف أنّ الزوايا والتكايا التي كانت في زمن مضى تقوم بالتعليم انحرفت نحو الدروشة والدجل الرخيص، وبذلك تراجعت اللّغة العربية والعلوم الدينية إذ لم يبق في بلاد الشام سوى بعض المساجد الكبرى في المدن الرئيسية وبعض الكنائس خاصة في لبنان، وبهذا فتحت مجالا للسيطرة الاستعمارية على العقل العربي وتوجيهه حسبه نحوى خدمهة الفكرة الإستعمارية عبر الاقتناع باللجوء إلى الدول والأفكار الأوربية للتّخلص من الحكم العثماني.[2]

ويذكر إيبش "...أنّه عندما تضعف الدولة العثمانية وتتلاشى نحو الإنهيار بعد أربعة قرون، ويتحدى الإستعمار الغربي هذه المجتمعات تحديا حضاريا خطيرا بمحاولته خرقها والنفوذ إلى داخلها، فإنها عند ذلك ستخرج من سلبيتها وتفتق القوى الجياشية الكامنة فيها، التي ستكوّن مسييلة نهضة عربية جديدة.[3]

في أوائل القرن التاسع عشر جاءت لبنان فئتان من المبشرين لم تلبث أن أخذت على عاتقها إنشاء المدارس في البلاد، والفئتان هما البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبعثات التبشيرية الإنجيلييه البروتستانية،[4] والمهم هنا هو معرفة ميزة الإنفتاح الذي عرف عن اللبناني ورغبته في أخذ الحكمة والمعرفة من أي جهة جاءت بدت واضحة في إقباله عن التعلم، إضافة إلى أنّ الفئات المختلفة التي تتكون منها لبنان أخذت نفسها بإنشاء المدارس اللبنانية رغبة منها في الحفاظ على ذاتيتها وشخصيتها، ومن هنا كان هذا الإقبال على فتح المدارس الخاصة بأبناء البلاد سواء كان الذين قاموا على تأسيسها أفراداً أم جمعيات أم مؤسسات دينية.[5]

1- عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية، المرجع السابق، صص252،253.

2- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، ص117.

3- تاريخ الشام في مطلع العهد العثماني 1520م-1544م، إستنادا إلى مخطوطات نادرة، ص34.

4- كانت الأولى فرنسية الأصل أما الثانية فكانت في غالبها أمريكية، وإن كان ثمة مشاركة محدودة للمؤسسات التبشيرية البريطانية، وتعددت المدارس في لبنان في ذلك الوقت وانتهى الأمر بإنشاء مدرستين ثانويتين في عبية، وغزير لليسوعين، ثم توجهت كل من هاتين الفئتين جهودها في التعليم بإنشاء الكلية السورية الإنجيلية عام 1866م، وهي الجامعة الأمريكية في بيروت اليوم، وكلية القديس يوسف عام 1975م، وهي جامعة القديس يوسف اليوم. للمزيد ينظر:
- نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2002، ص129.

5- نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، المرجع السابق، ص129.

ويضيف "أحمد زكريا الشلق" أنّ البعثات التبشيرية ومدارسها وخريجوها لعبوا دوراً واضحاً في حركة الإحياء الثقافي العربي فيما بعد، والذي وفّر مناخاً لليقظة العربية وإحياء اللّغة العربية وتراثها، وأقامت جسراً لإتصال التراث العربي بالثقافة الأوربية الحديثة.

لقد صار التعليم باللّغة العربية مع منتصف القرن التاسع عشر في المدارس البروتستانتيه والكاثوليكية خاصة بعد أن أسّس المبشرون البروتستانت أوّل مطبعة لهم في بيروت عام 1834م، وتبعهم الكاثوليك بأخرى عام 1853م، وعندما أسّس البروتستانت الكلية السورية في بيروت عام 1866م، أسّس الكاثوليك جامعة سان جوزيف عام 1875م،[1] هذا إضافة إلى الجمعيات الأدبية والعلمية التي لعبت هي الأخرى دوراً هاماً في نشر الثقافة العربية، وصارت تجمعاتها ملاذاً للمهتمين بشؤون الثقافة والفكر وكانت نشأتها على يد نفر من المثقفين العرب والمسيحيين.[2]

إن سكان بلاد الشام خلال الحكم المصري بل والثورة عليه اكتسبوا كثيرا من الثقة بالنفس وانتشرت بينهم بذور التحرر والقومية، وتبين لهم ضعف الدولة العثمانية لا بالنسبة لدول أوربا فقط، ولكن بالنسبة لمحمد علي نفسه حيث ظهرت لهم أهمية انفصالهم عن العثمانيين لتسع سنوات، كما أن الحروب الطائفية التي حدثت في لبنان خلال الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر جعلت عددا من المفكرين يدركون، بعد أن مزقت هذه الحروب البلاد خطورة هذه الظاهرة، ودعوا إلى رابطة عربية تجمع بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم، واستوحوا التاريخ المشترك والمنجزات الحضارية العربية المشتركة التي ساهم فيها الناطقون بالضاد من جميع المذاهب، لجمع أبناء الأمّة وراء هدف واحد يؤكّد الهوية القومية للعرب كخطوة أولى في سبيل وحدتهم وتحررهم ورقيهم، وككل الأمم التي تلتمس وحدتها القومية وتحاول في الوقت نفسه التخلص من الأجانب، بدأت الدعوة من خلال الأدب العربي، إلى كشف ماضي الأمّة ومنجزاتها والإشادة بعظمة لغتها التي تتحدث لغة الحكماء الغرباء.[3]

نستخلص مما سبق عرضه عن مميزات النظام العثماني بالجزائر قبيل الفترة الأميرية، محاولة منا ربط نظام الحكم العثماني بنظام الحكم في فترة الأمير عبد القادر، إضافة إلى النظر للمميزات الأوضاع بالشام قبل وصول الأمير إليها

1-أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية، المرجع السابق، صص263،264.

- إن أول طابعة إستخدمت الحروف العربية ظهرت في حلب عام 1702م، وذلك بفضل البطريك "أثناسيوس دباس"، الذي تنقل ما بين المذهبين الأرثوذوكسي والكاثوليكي، أما الآلة الطابعة نفسها فالراجح أنها استقدمت من "ولاخيا" –منطقة في جنوب رومانيا– لكن الفضل في إعداد أمات الحروف يعود إلى "عبد الله زاخر" –من رجالات النهضة العربية ، وأوّل من قام بإنشاء مطبعة تطبع باللّغة العربية عام 1733م– الذي ارتحل إلى الشوير في القرى اللبناني، وأنشأ سنة 1733م مطبعة جديدة، وكانت الأناجيل من الكتب الأولى التي طبعت باللّغة العربية وذلك سنة 1707م في مطبعة حلب. للمزيد ينظر:

- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان، المرجع السابق، ص324.

2- لمعرفة المزيد من التفاصيل عن نشاط الجمعيات ودورها في نشر الثقافة العربية. ينظر:

- أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية، المرجع السابق، ص265.

3- المرجع نفسه، صص264،265.

لمعرفة دوره وإسهاماته التي قام بها في المشرق، والتي جعلته شخصية متميّزة في الوسط الشامي ونلخص ذلك في النقاط التالية:

– أنّ حكم الدولة العثمانية كان صطحيا، أي أنّه كان قليل التأثير على المجتمعات العربية، فهي لم تشكل حكومة بالمعنى الذي يفهم جيدا لهذا اللّفظ، فقد كان الحاكم يستعين في تصريف الأمور بطائفة من الأعوان والوزراء دون أن تكون له سلطة نافذة على مستوى الحكم، وسيادة على مختلف الوحدات الإدارية للأيالات التي كانت تحت نفوذها.

فبالرّغم من أنّ الحكم العثماني ساعد على تقوية وتأكيد الحياة الدينية للعالم العربي من خلال تمسّكه بأحكام الشريعة الإسلامية باعتبارها أساساً للحكم، إلّا أنّ أسلوب الحياة العثماني لم يتغلغل في المجتمعات العربية التي احتفظت بثقافاتها المحلية وتقاليدها.

– فرض الحكم العثماني على العالم العربي ومنها المجتمع الجزائري والشامي العزلة، وعدم احتكاكهم بالتطور الحضاري للدوّل الأوربية التي قطعت أشواطاً من التقدم الحضاري منذ عصر النهضة، وقد نتج عن هذه العزلة هوة حضارية واسعة لازالت أثارها ممتدة إلى يومنا هذا، لكن صحيحا أنّ العثمانيين استطاعوا حماية العالم العربي من تسلل النفوذ الغربي إليه حتى أواخر القرن الثامن عشر، وهذا ما جعلهم يمعنون في زيادة الحذر، فأحاطوا العالم العربي بسياج من العزلة حال بينه وبين الاتصال بالعالم الخارجي.

–لقد كان أسلوب الحكم العثماني مركزيا، فقد حكم العثمانيون العالم العربي بما فيهم الجزائر وبلاد الشام، حكما غير مباشر عن طريق الفرمانات والقرارات التي يصدرها السلاطين، ويتولى تنفيذها كبار رجالهم الذين يأتون رأسا من إستانبول.

– أمّا فيما يخص التنظيم الإداري خاصة بالجزائر وفي بلاد الشام، الذي حال دون قيام وحدة إجتماعية، بل إنّ ما تأكّد لدى هؤلاء الأفراد هو عنصر الإنتماء إلى قبيلة في الجزائر مثلا أو إلى طائفة معينة في بلاد الشام، وأنّ معنى وجوده ينحصر في حدودها، هذا أدى فيما بعد إلى نشوب حرب أهلية في بلاد الشام، وكثرة الفتن بين الطوائف والتنافس على الزعامات والتمرّدات الكثيرة في الجزائر خاصة في الفترة الأميرية.

– غياب الأمن والإستقرار وانتشار الفقر بسبب السياسة الإقتصادية التي طبقها النظام الحاكم، والتي أدّت فيما بعد إلى تجاوزات عسكرية وإدارية خطيرة، فالوظائف الإقتصادية والإجتماعية وما يتعلق بالإنتاج والخدمات، فقد كان خارجاً عن مسؤولية الدولة العثمانية، هذا ما يؤكّده المؤرخون إذ يذهبون إلى القول أنّه كان ثمة قصور لدى العثمانيين في فهم طبيعة مهمّة الدولة ووظيفتها الإجتماعية، وأنّ من واجباتها السعي لسعادة ورفاهية المحكومين، وهذا ما أدّى

إلى إنتشار الرشوة والفساد والمحسوبية من أجل شراء وظائف الدولة، وانتشار الفوضى السياسية، والتدهور الإقتصادي للمجتمعات العربية، خاصة خلال القرن الثامن عشر.

– وأخيراً يلاحظ أنّ نظام الحكم الذي أقامه العثمانيون للعالم العربي، والتي منها الجزائر وبلاد الشام، أوشك على الإنهيار حين إختلال موازين القوى، وفي ظل التغيرات التي برزت على الساحة الدولية أنذاك مما أخرجها دولة عاجزة عن المواجهة وإنشاء دولة قوية وحديثة مواكبة للعصر، تجعلها قادرة على النهوض بأعباء التنظيم الدفاعي العصري وبالتالي آن أوانها لتفسح المجال لبروز قوى جديدة تتحمّل المسؤوليات، وتكون بحق جديرة بها وبممارستها لها، وتحقيق مآربها دفاعاً عن الوطن والشريعة الإسلامية.

الفصل الأول:

الإحتلال الفرنسي للجزائر في ظل موجة الإستعمار الحديث وشرعية الدفاع الوطني.

أ. علاقات الجزائر الخارجية ومكانتها الدولية مع مطلع القرن التاسع عشر.

ب. الغزو الفرنسي للجزائر وردود الفعل حوله 1830م.

ج. المواقف الدولية من الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م.

د. المقاومة الشعبية كبداية لمشروع الدولة الجزائرية والنهضة الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر.

شكلت الجزائر منذ إلتحاقها بالدولة العثمانية سنة 1518م جبهة بحرية متقدمة، في الصراع العثماني الإسباني غرب المتوسط، فتركّز إهتمام حكامها البايلربايات (1518م- 1588م) على الجهاد البحري الذي أكسبهم شرعية في نظر الأعيان وشيوخ القبائل والمرابطين، مما سمح للولاة العثمانيين بالحصول على ولاء السكان.

وبعد معركة "ليبانت Lépante"1571م بسواحل اليونان، حين تحالف الأسطول الجزائري مع الأسطول العثماني، ضدّ التحالفات الأوربية الصليبية وإسترجاع تونس 1574م، ما جعل الجزائر العثمانية تتحول إلى مجرد ولاية تخوم يحكمها الباشوات (1588م- 1659م)، بحيث لا تتجاوز مدة حكم كل باشا ثلاث سنوات، وهذا ما أدّى إلى إنتشار الإضطرابات وعدم الإستقرار في الأوضاع الداخلية للبلاد، ونتج عنه تحول منصب الباشا إلى وظيف شرفي، والسلطة الفعلية أصبحت في أيدي قادة فرق الجند من الآغوات (1659م- 1671م)، إلى أن عاد النفوذ والسلطة إلى رجال البحرية (الرياس) الدايات (1671م- 1830م).

تحولت الجزائر تحت هذا الحكم إلى قوة محلية مؤثرة في غرب المتوسط، وتبلور كيانها في معزل عن الدولة العثمانية، وأصبح لحكامها من الدايات بعد أن إكتسبوا لقب باشا سنة 1717م، سلطة مطلقة في تسيير شؤون أيالة الجزائر، ولم تعد تربطهم بالدولة العثمانية سوى إعتبارات التعاون والمصلحة، وواجب الولاء الشرعي للخلافة العثمانية بإعتبارهم الممثلين الشرعيين للمسلمين.

دخلت الجزائر العثمانية مع نهاية القرن الثامن عشر، مرحلة تأزم وإنسداد وفوضى، مما أدّى إلى أزمة داخلية ومواجهة غير متكافئة مع الدول الاوربية، خاصة بعد الإنتهاء من الحروب النابوليونية، وظهور الإئتلاف الأوربي في مؤتمر فيينا 1815م، مما ادّت هذه التطورات إلى تعرض الجزائر إلى الغزو الفرنسي الذي وضع نهاية لحكم الدايات الباشوات سنة 1830م، وتحويل الجزائر من الإنتماء العثماني في إطار رابطة العقيدة الإسلامية والمصلحة المشتركة، إلى فترة إحتلال فرنسي دستوره التوسع العسكري والإستيطان بالإخضاع بالقوة، وهذا ما يتطلب منا في هذا الفصل التعرض للقضية الجزائرية، في إطار إهتمامات السياسية الداخلية الفرنسية وإحتلالها وردود الفعل حولها، والتي كان الأمير عبد القادر أحد وجوهها، مع والده الشيخ محي الدين.

ولهذا كان لزاما علينا قبل التطرق للإحتلال الفرنسي للجزائر، أن نقف أمام العوامل التي تتصل بالظروف والدوافع التي أدّت لإحتلال الجزائر عام 1830م، والتي تتعلق بظروف فرنسا الداخلية، وعلاقاتها الدولية، وبالتنافس الدولي على البحر المتوسط، والبحث في صفحات العلاقات بين الدول الكبرى المتصلة بهذه المنطقة الحيوية

-البحر المتوسط- والظروف التي كانت تحيط بهذه الدول، وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا، وروسيا، والنمسا، وهولندا، وإسبانيا، والدولة العثمانية، بالإضافة إلى البابوية التي كانت تزج بنفسها في كل نزاع بين الدول المسيحية، والدول الإسلامية من أجل فهم الدافع الحقيقي وراء الحملة الفرنسية على الجزائر، ثم البحث في ردود الفعل حولها.

أ. علاقات الجزائر الخارجية ومكانتها الدولية مع مطلع القرن التاسع عشر:

لقد إختل ميزان القوى بين العالم الاسلامي والعالم الاوربي، وأصبحت الدولة العثمانية حامية المسلمين في حالة ضعف وتقهقر وسميت بالرجل المريض، فقد فقدت على إثرها معظم مناطق نفوذها في اوربا، بالإضافة إلى تحطم أسطولها البحري في معركة نافارين 1827م، إثر المعركة البحرية التي دارت بينها وبين الحلف الثلاثي الفرنسي الروسي الإنجليزي، من أجل قضية اليونان، والتي كانت أراضيها تحت سيطرة العثمانيين.[1]

وبهذه الهزيمة فقد العالم الإسلامي مفاتيح البحار وسيطرته على التجارة الدولية، ما كان ضمن المخططات التوسعية للدول الاوروبية، من أجل فتح أسواق جديدة خارج أوربا لتسويق منتجاتها، والبحث عن المواد الخامة لتطوير إقتصادها خاصة بعد ظهور الثورة الصناعية في أوربا الغربية، التي كان لها الأثر السلبي على الزراعة والإنتاج الفلاحي، وبالتالي تقلص مردودها، في حين زاد الطلب على المعادن، لذلك تسابقت الدول الاوربية المصنعة للإستفادة من خيرات الدول الإفريقية والآسيوية الطبيعية والبشرية،[2] خاصة إنجلترا وفرنسا.

هذا بالإضافة إلى النوايا الإستعمارية التي كان يكنها الاوربيون للجزائر، والتي تجسدت في مؤتمر فيينا 1815م، ومؤتمر إيكس لاشابيل 1818م، وبروتوكولات لندن 1820م، التي كانت تأكّد على مبدأ الحفاظ على مصالح الدول العظمى الأوربية (إنجلترا، النمسا، بروسيا، روسيا، فرنسا)،[3] وهكذا توحّدت صفوف الدول الأوربية المتحالفة، مما جعل الجزائر في مواجهة مفتوحة مع غالبية الدول الأوربية التي لها مصالح بالبحر المتوسط،[4] وهذا ما دفع تلك الدول في مقدمتها فرنسا وإنجلترا إلى الأخذ بفكرة المواجهة مع الجزائر، بهدف القضاء

1- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص111.

2- يحي بوعزيز، الإستعمار الأوربي في إفريقيا وآسيا والجزائر والمحيطات، د.م.ج، الجزائر، 1988، ص10.

3- للمزيد من التفاصيل ينظر: - ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص14.

4- يذكر وليام شالر في مذكرته قائلا: "...الدول الأوربية التي تقوم بإستعمار الجزائر، ستجد أبواب إفريقية كلها مفتوحة أمامها، ولاسيما إفريقيا الغربية التي يزعم أنّها تنطوي على ثروة زراعية لا حدّ لها..." ينظر: - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا بالجزائر، 1816-1824، تعر وتع وتق: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص16.

على نشاطها البحري، وإطلاق الأسرى الاوربيين، وتحريم إسترقاق المسيحيين، والحفاظ على حرية التجارة، وإلغاء ما كان يطالب به دايات الجزائر.[1]

يذكر "وليام سبنسر" أنّ علاقات الجزائر الخارجية تندرج ضمن ثلاثة أصناف عريضة: تلك التي مع دول المغرب المجاورة، العلاقات الجزائرية مع الدول الاوربية، العلاقات الجزائريه مع الدولة العثمانيه، ويضيف أن في الحالتين الأولى والثانية كان الهدف الجزائري الأساسي واحداً، يتمثل في تفادي تشكيل أي تجمع أو تحالف قوي بدرجة يؤدي إلى القضاء على الأيالة أو تهديد أمنها الداخلي.[2]

أ.1. علاقات الجزائر مع الدول الأوربية:

إستطاعت الجزائر في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر، ونهاية القرن الثامن عشر، من إكتساب هيبة دولية، نتيجة لتفوقها الحربي في البحر المتوسط، وهذا ما دعا معظم الدول الاوربية إلى إقامة علاقات دبلوماسية معها، وإلى إكتساب مودتها، بحيث كانت الجزائر الدولة الوحيدة التي إلتزمت الدول البحرية (الولايات المتحدة، إنجلترا، فرنسا، الدانمارك، هولندا، نابولي، سردينيا)، بدفع إتاوات سنوية لها مقابل حماية سفنها من سائر عمليات القرصنة، أثناء مرورها في البحر المتوسط.

أمّا إسبانيا فقد ظلت الدولة البحرية الوحيدة التي لا يوجد بينها وبين الجزائر معاهدة سلام، بسبب إستمرار الإحتلال الإسباني لميناء وهران، وككل مرة تتعرض إسبانيا للهزيمة، وترجع إلى ديارها دون تحقيق هدفها المتمثل في إحتلال الجزائر،[3] وجراء ذلك قررت إستعمال الأسلوب الدبلوماسي في تعاملها مع الجزائر،[4] وعقدت معاهدة الصلح مع الجزائر سنة 1785م، وبهذا عاد الهدوء والإستقرار في حوض المتوسط.

وبعد جلاء الإسبان عن وهران عام 1792م، والتخلص منهم نهائياً، أعلنت وهران و بشكل رسمي بايلكا للغرب.[5] لقد كانت إستراتيجية الجزائر تجاه أوربا، هي منع أي تجمع للمناهضين الأوربيين الأقوياء لدرجة كافية فيتلاقون على الجزائر، ويطيحون بها وقد إتبعت هذه الإستراتيجية بمختلف الأشكال:

1- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص111.
2- وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تع وتق: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص162.
3- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، ط2، دار هومة للنشر، الجزائر، 2008، صص170،171.
4- يحي بوعزيز، المرسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1748-1780)، د.م.ج، الجزائر، صص38-44.
5- تأسس بايلك الغرب سنة 1763م، وتولى حكمه اثنان من البايات أحدهما بمازونة، والآخر بمدينة تلمسان، وفي عام 1706م، تم توحيد القسمين، فأصبح يعين باياً واحداً، وجعلت قاعدة حكمه قلعة بني راشد، ثم مدينة معسكر، ثم مدينة وهران بين (1686-1732)م، وهي فترة حكم مصطفى أبو الشلاغم، وبعد الإحتلال الإسباني لوهران، إنتقل مقر البايلك من وهران إلى مدينة مستغانم لمدة خمس سنوات ما بين (1732- 1737)م، ليصبح=

- ✓ المطالبات المنتظمة للجزية.
- ✓ المعامله المتميزة في التدابير المتعلقة بإطلاق سراح الأسرى حسب الجنسية التابعين لها.
- ✓ إختيار أهداف القرصان.
- ✓ إتفاقيات السلم الرسمية.[1]

لقد كانت الجزائر مشتركة في بعض الإتفاقيات الخاصة بإلتزامات الباب العالي، وهذا ما تؤكده المراسلات بين مختلف الدايات وفرنسا، كمثال لإنتساب الجزائر للسلطة العثمانية.

فقد بدأت العلاقات الجزائرية الاوربية تأخذ طابع المواجهة، مع إستمرار الجزائر في ممارسة النشاط الحربي وإلتزامها بتوجهات السياسة العثمانية، ودخولها طرفا في النزاع الفرنسي الإنجليزي بسبب إحتلال نابليون بونابرت لمصر عام 1799م، ووضعه مخططاً إستعمارياً يستهدف فرض النفوذ الفرنسي على أقطار شمال إفريقيا إنطلاقا من الجزائر، والذي يعتبر تقرير العقيد "بوتان Boutin "[2] سنة 1808م، إحدى حلقاته الأولى.[3]

ففي الميدان النظري فإن الدول القوية مثلا فرنسا وإنجلترا، وربما هولندا، كانت تمثل التهديدات الفردية لسيادة الجزائر أكثر من دويلات مدن وإمارات حوض البحر المتوسط،[4] غير أن إنجلترا كانت السباقة في هذه السياسة المعادية للجزائر التي دعا إلى الإلتزام بها "كاستلريغ Castlereagh"، وعمل على تنفيذها اللورد "إكسموث Lord exmoth"، ليضع حداً لإستعباد المسيحيين، وقرصنة ولاية الجزائر يوم 28 جويلية 1816م،[5]

=مرة أخرى بمعسكر، إلى أن تم تحرير وهران من أيدي الإسبان عام 1992م، على يد محمد بن عثمان الكبير. ينظر: - خروبي فتيحة، بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني وتطوره في ما بين (1563 1792)م، مجلة المرآة للدراسات المغاربية، العدد الأوّل، جانفي 2014، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، ص207.

1- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، المصدر السابق، ص167.

2- ولد فانسان إيف بوتان في 01 جانفي 1772م، في المنزل العائلي الكائن في بلدة لورو بوترو على مسافة 15كلم عن مدينة نانت، وهو الطفل الرابع لأبويه، السيد إيف بوتان، والسيدة "بيرين غيليت"، كان أبوه من الملاك الميسورين، وكان يحظى بتقدير الجميع، ويتمتع بسمعة طيبة في قريته، وبما أنه من مناصري الإصلاحات السياسية، فقد إلتحق بصفوف الثورة الفرنسية، ثم أصبح أوّل رئيس بلدية، زاول إيف بوتان دراساته في الهندسة، وقطع مساراً باهراً كضابط، وأنّه بعد إنهائه مهمتة التجسسية في الجزائر، أستقبل من طرف نابليون بونابرت سنة 1809م، فأتى عليه و قلده نياشين الشرف.

- للمزيد من التفاصيل حول إيف بوتان، وعن مهمته الإستخباراتية والتجسسية التي أنجزها بمدينة الجزائر سنة 1808م، ينظر:- عفرون محرز، آل روتشيلد وآلل بكري وتاليران، الملفات السياسية السرية في تاريخ الشعوب، تر:مسعود الحاج مسعود، دار هومة للنشر، الجزائر، 2013، صص158-176.

3-ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص122.

- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص112.

4- وليم سبنسر، المصدر السابق، ص169.

5- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، المرجع السابق، ص238.

- وليم سبنسر، المصدر السابق، ص173.

أتى على رأس قوة بحرية تتكون من خمسة وعشرين قطعة، من بينها ست قطع حربية من ترتيب نظامي،[1] وخمسمائة وستون مدفعاً، وهي مؤلفة من سفن إنجليزية وهولندية، فألحقت أضراراً كبيرة ببنايات الجزائر، ودمّرت السفن الجزائرية التي كانت راسية بميناء الجزائر.

وفي اليوم التالي من المعركة التي أسفرت عن العديد من القتلى والجرحى للطرفين، قبل عمر باشا إمضاء شروط الصلح التي أملاها عليه "اللورد أكسموث" وعليه أطلق سراح أكثر من 1200 أسيراً أوربيا.[2]

لكن الإنجليز أعادوا الهجوم مرة ثانية، بعد النجاح الذي حققه الأسطول الإنجليزي الهولندي، بحيث شنت حملة أخرى على الجزائر بقيادة الأميرال "نيل Neal" في 24 جويلية 1824م، بحجة الإنتقام من حكومة الداي التي سمحت بإنتهاك القنصلية الإنجليزية، التي لجأ إليها بعض الرعايا الجزائريين المهددين بالعقاب، لكنهم وجدوا مقاومة كبيرة من طرف الجزائريين، مما أرغم الإنجليز على الإنسحاب من ميدان المعركة، وعليه فشلت الحملة في مهمتها ولم تحقق ما كانت تطمح إليه.[3]

ربطت الجزائر علاقات سياسية خارجية مع دول أوربية وغير أوربية، كالولايات المتحدة الأمريكية، وعززت روابطها بالدول الإفريقية المجاورة، كما إستطاعت في القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلاديين، من إحتلال مكانة مرموقة في حوض البحر المتوسط، وألزمت الدول الأوربية البحرية بدفع إتاوات للحكومة الجزائرية، لقاء حماية

1- وليام شالر، المصدر السابق، ص150.
- للمزيد من التفاصيل عن حملة اللورد "إكسموث Ex Mouthe" على الجزائر 1816م، ينظر:
- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، المرجع السابق، صص243- 260.
- محمد دراج، الجزائر في المصادر العثمانية ،دراسة للمصادر ونصوص نموذجية مترجمة من التركية إلى العربية،ط1 ،دار الوراق للدراسات والنشر، الجزائر،2017،صص 173-175.
- Chabau (A), Attaque des batteries algériennes par Lord Ex Mouth en 1816, in R.A, T19, 1875, pp194-202.
2- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، المرجع السابق، ص240.
- مصحوبة برسالة من عمر باشا إلى السلطان بتاريخ 19 شوال 1231هـ/ 12 سبتمبر 1816م، وفيه شرح مفصل عن الأحداث الدامية التي وقعت بينهم وبين الجيش الإنجليزي، بقيادة الجنرال "إكسموث Ex Mouthe". ينظر: - الوثيقة رقم 07.
- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، المرجع السابق، صص252-255.
- ولمعرفة نص المعاهدة العربي التي عقدت بين عمر باشا واللورد "إكسموث Ex Mouth" ينظر: - المرجع نفسه، ص250.
- هناك مصادر أخرى تقول أكثر من 1621-1627 أسير، أمثال: - وليم سبنسر، المصدر السابق، ص173.
- وناصر الدين سعيدوني يذكر 1642 أسير. ينظر: - ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص123.
- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، المرجع السابق، ص240.
3- محمد العربي الزبيري، مقاومة الجزائر للتكتل الأوربي قبل الإحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، عدد 12، 1973، الجزائر، صص129،130.
- تابلت علي، العلاقات الجزائرية البريطانية (1540- 1830)، الجزائر، جريدة الشعب، عدد 85833، أفريل، 1991، ص14.
- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص123.

أساطيلها التجارية في البحر المتوسط من أخطار القرصنة، واستمرت السيادة البحرية للجزائر في حوض البحر المتوسط الغربي حتى بداية القرن التاسع عشر ميلادي، حيث أخذت في الضعف والإنحسار نتيجة قيام الثورة الصناعية في أوربا، وهو ما مكنها من إمتلاك أساطيل وأسلحة متطورة تفوقت على الأسطول الجزائري وسلاحه، أو تحت تأثير تحطم معظم وحداته في المعارك الحربية التي خاضها إلى جانب الأسطول العثماني.

إضافة إلى أن هذه العلاقات الخارجية، تحكمت إلى حد كبير في مقدرات الجزائر، بل كانت سببا مباشرا في النهاية المأساوية لحكم الدايات، والدخول في مواجهة مع الفرنسيين، والتي أسفرت فيما بعد عن إحتلالهم لمدينة الجزائر في 5 جويلية 1830م، كما سوف يتضح لنا ذلك فيما بعد، عند عرض الأحداث التي ارتبطت بتنفيذ المشروع الإستعماري الفرنسي بالجزائر.

أ.2. علاقات الجزائر مع الدول الإسلامية:

- طبيعة العلاقات الجزائرية العثمانية:

لقد عرفت الحروب البحرية التي وقعت بين الدولة العثمانية وإسبانيا والبرتغال -الجهاد البحري- التي أدّت بهذه القوى الأوربية بملاحقة مسلمي الأندلس، واحتلت السواحل الشمالية لإفريقيا، وأقامت عليها حصوناً ومراكز عسكرية، مما أدّى بالأهالي إلى الإستنجاد بالدولة العثمانية باعتبارها قوة كبيرة في تلك الفترة، ومن هنا بدأ التدخل الرسمي للدولة العثمانية في شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة، لتكون أولى بداية العلاقات الجزائرية العثمانية، وعليه حضيت في شقها العسكري باهتمام كبير من الطرفين، وذلك لأن حماية الجزائر كان يدخل ضمن أولويات السياسة الخارجية للدولة العثمانية في غرب العالم الإسلامي.[1]

وعلى إثر ذلك انضوت الجزائر تحت لواء الخلافة العثمانية بداية من القرن السادس عشر، وباستمرار هذا النظام تعيّنت حدودها إلى حدّ ما وكذا مجال سيادتها،[2] كما فصّلنا ذلك سابقا.

تمكنت الجزائر بقواتها البحرية من احتلال مكانة في حوض البحر المتوسط، وعليه استطاعت ربط علاقات سياسية وتجارية مع عدد كبير من الدول الأجنبية، كما استطاع أسطولها البحري أن يضمن أمن الدولة الجزائرية خاصة والدولة

1- محمد دراج، الجزائر في المصادر العثمانية، المرجع السابق، ص211.
- أرزقي شويتام، التنافس الدولي في البحر المتوسط خلال القرن 18م و19م وموقف الجزائر منه، حولية المؤرخ، العدد 3-4، الجزائر، 2005، صص161-164.
2- فريدة قاسي، الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832م 1847م، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2012، ص23.

العثمانية عامة، مما فسح لها المجال لتشكيل أيالة مترامية الأطراف، وبذلك مثّل الجهاد البحري أهم ركائز النشاط الإقتصادي لأيالة الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.[1]

لقد سبق وأن تطرقنا في المدخل التاريخي عن طبيعه العلاقات الجزائرية العثمانية، والتي تجلت في:

- ✓ أن دخول العثمانيين إلى الجزائر كان إستجابة لإستنجاد سكانها بهم.
- ✓ كان الحكم في الجزائر حكما غير مباشر، تتحدد فيه نفوذ الدولة العثمانية بالموافقة على تعيين الوالي بعد إنتخابه من طرف الديوان العسكري بالجزائر.
- ✓ الحصول على العائدات المالية المفروضة على الخزينة الجزائرية وتقديم الدولة العثمانية على غيرها من الدول الأخرى إنطلاقا من إقرار الحكومة الجزائرية بولائها للخليفة العثماني.

هذا بالإضافة إلى تمتعها بمجموعة من الصلاحيات وحرية التصرف، كانفرادها بحق عقد المعاهدات والإتفاقيات الدولية على اختلاف أنواعها مع الدول المعادية للسلطان، إضافة إلى استقبال بعثات دبلوماسية.

وهكذا يمكننا أن نقول أن الجزائر إنفردت بوضع سياسي وإداري خاص في ظل الحكم العثماني، وهو تمتعها بالسيادة الوطنية والإستقلال الذاتي في ظل الولاء الروحي للدولة العثمانية كما استطاعت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر من احتلال مكانة مرموقة في حوض البحر المتوسط، ألزمت الدول الأوربية البحرية بدفع إتاوات للحكومة الجزائرية لقاء حماية أساطيلها التجارية في البحر المتوسط من أخطار القرصنة.

– علاقة الجزائر مع جاراتها:

لقد كانت تربط الجزائر والمغرب علاقات الجوار والدين، وكانت هي الضوابط المتحكمة فيها، حيث انتهجت الجزائر خلالها سياسة واضحة لمقاومة الغزو الصليبي، والارتباط بعلاقات يطبعها الدين والوحدة والمصير المشترك.

فقد عرفت العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب مراحل متعدّدة، وأشكال مختلفة كانت تتراوح بين السلم تارة والحرب أحيانا كثيرة، وكان النزاع يطغى عليها في أغلب الظروف رغبة من كل واحدة منه الحصول على كيان سياسي، على حساب الدول الأخرى هذا ما خلّف أطماعا سياسية واقتصادية.

1- أرزقي شويتام، دراسات ووثائق، المرجع السابق، ص55.

لقد تميّزت العلاقات الجزائرية المغربية منذ البداية بالتنافس الشديد،[1] وكان السبب الرئيسي في ذلك هو التحرش المغربي على تلمسان.[2] ولعل ما جعل العلاقات بين العثمانيين والأشراف السعديين في المغرب تتميز بالنزاع والعداء وتتسم بالعنف والقوة، هو ذلك الصراع من أجل الإستحواذ على تلمسان الذي بدأ منذ الوهلة الأولى من تأسيس إيالة الجزائر، إذ كان يرتكز على مراقبة تلمسان والمنطقة المحيطة بها،[3] والتي تعتبر عاصمة الزيانيين سابقا ومركزاً حضارياً هاماً، ومنطقة عبور تجارية بين أوربا وبلاد السودان، ووجهة ثقافية دينية مهمة في المغارب وكانت دوما مطمعا لحكام المغرب منذ عهد المرينيين والأسر التي حكمت بعدها، فكان في اعتقادهم أنها جزء من المغرب الأقصى لذلك تكررت محاولات السعديين لاحتلالها.[4]

وبهذا ظلّت العلاقات المغربية الجزائرية تتراوح بين الحرب واللّيونة تارة وبين التوتر وحالة من الترقب تارة أخرى.

كما استمرت محاولات المغرب لغزو بلاد الجزائر، فتركوا مدينة تلمسان عن يسارهم، وتوجّهوا بأنظارهم إلى ناحية الجنوب الجزائري مستغلين في ذلك تعاون قبائل بني عامر وأولاد حرير وبن حشم في الحرب ضدّ العثمانيين، وفي الوقت التي اكتملت فيه جموع الجيش سار إلى أن بلغ نهر شلف، وبتمركزه على الضفة المواجهة للنهر فاجأهم الجيش العثماني ليلاً بإطلاق نيران المدافع ومهاجمة المغاربة، فانهزموا وانكسرت شوكتهم، بعدها انسحب ما تبقى من الجند إلى المغرب.[5]

ظلّت هذه السياسة المعتمدة من قبل الأسرة السعدية حتى سقوطها وظهور الأسرة العلوية بدورها هي الأخرى سلكت النهج نفسه مع الجزائر، فحاولت الإتفاق مع باي تونس للقيام بحملة مشتركة على الجزائر لكنه انهزم، بعدها دخل المغرب الأقصى في فترة عزلة إستمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر ميلادي.[6]

1- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص77.

2- تلمسان: تعتبر قاعدة المغرب الأوسط ووحدته وهي مدينة عظيمة. ينظر: - أبو راس الناصري الجليلي الراشدي المعسكري الجزائري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، قسم المخطوطات، الرياض، رقم: 3960، صص116،117.

- أبو راس الناصري الجزائري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تح: بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، د.ط، 2011، ص131.

3- وليم سبنسر، المصدر السابق، ص165.

4- المصدر نفسه، ص154.

5- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، تع: محمد تزمالي والبشير بن سلامة، دار التونسية، د.ط، تونس، صص 287-290.

6- وليام سبنسر، المرجع السابق، ص167.

وبهذا عرفت العلاقات الجزائرية المغربية جوا مشحونا من المنافسة الشديدة، التي كان الهدف منها في أغلب الأحيان حب الزعامة لكلا الطرفين، فالمغرب كانت مصلحته منافسه الجزائر من أجل أن تكون سيدة المغرب العربي على حساب الجزائر، وكان لهذه الأخيرة بدورها أطماعا اتجاه المغرب.

كما لعبت أيضا تونس والمغرب دوراً سياسياً وعسكرياً في إضعاف القدرات الدفاعية للجزائر، من خلال الحروب بين تونس والمغرب والجزائر، أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م بعد انفصال الآيالات عن بعضها،[1] فكما تحالف المغرب مع الإسبان لضرب مدينة الجزائر، لم تنسى تونس العداء التقليدي لدايات الجزائر، وكانت نتيجة كل ذلك وقوعهم تحت سيطرة الإحتلال الفرنسي، وكان احتلال الجزائر سنة 1830م تمهيداً لاحتلال تونس والمغرب.

كما يضيف أن بلدان المغرب العربي فشلت في تكوين تكتل سياسي موحّد بالرّغم من محاولات سلاطين آل عثمان في تحقيق هذا الحلم، لأن العلاقات السياسية بين مختلف بلدان المغرب العربي تميزت بالتوتر والعداء فيما بينها.

ب. الغزو الفرنسي للجزائر وردود الفعل حوله 1830م:

ب.1. الإستعدادات الدبلوماسية والعسكرية الفرنسية لغزو الجزائر 1830م:

ب.1.1. مشاريع الحملة الفرنسية على الجزائر:

عند مقارنة العلاقات بين الجزائر والدول الأجنبية نجد أن علاقات فرنسا بالجزائر كانت على العموم طيبة، فمنذ القرن السادس عشر كانت فرنسا تتمتع في الجزائر بإمتيازات[2] تجارية خاصة، فكان لها مؤسسات تجارية في كل من " عنابة، القالة، رأس بونة، والقل"،[3] وكانت فرنسا أولى الدول الأوربية التي حصلت على إمتيازات تجارية بالجزائر

1- حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر المرجع السابق، ص40.

2- الإمتيازات: هي الحقوق والضمانات التي منحها السلاطين العثمانيين للدول الأجنبية على أراضي الدول العثمانية في فترات مختلفة، أو تلك التي حصل عليها الأجانب، نتيجة لضغوطاتهم السياسية والإقتصادية على الدولة العثمانية، في عهود ضعفها. ينظر: - سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط3، الرياض، 2000، ص36.

3- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الإحتلال، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص13.

- كانت هذه المؤسسات المذكورة تدفع ضرائب سنوية متفق عليها إلى الباشا من جهة وإلى باي قسنطينة الذي تقع هذه المؤسسات في إقليمه من جهة أخرى، وكانت فرنسا مقابل ذلك، تتمتع بصيد المرجان، وتصدير الحبوب إلى أوربا. للمزيد ينظر:

- Nettement (A), Histoire de la conquête d'Alger écrite sur des documents Inédits et authentiques, librairie jacques le coffre, Paris, 1856, pp 96-102.

بعد دخولها تحت الحكم العثماني، وقد مهّد ذلك لقيام علاقات ديبلوماسية حيث تأسست أوّل قنصلية فرنسية في الجزائر عام 1580م.

كما كان حرص فرنسا على إقامة علاقات دبلوماسية مع الجزائر ينبع من رغبتها العميقة في إستغلال خيرات البلاد، وإحتكار صيد المرجان الذي كان الساحل الجزائري مصدرا هاماً له.

من هنا نفهم أنّ حركة الإستعمار الحديث كانت له عدة أسباب ودوافع خاصة بعد قيام الثورة الصناعية بغرب أوربا، فلم تجد هذه الدول الصناعية ومنها فرنسا حلا إلاّ التوسع لكسب أسواق جديدة خارج أوربا، فتنافست على ذلك لأنّه مع قيام الثورة الصناعية وإزدهارها كانت لها تأثيرات سلبية على الزراعة والإنتاج الفلاحي، فتقلص مردودها في حين زاد الطلب على المعادن، مما دفع بالدول الأوربية المصنعة للتسابق من أجل الإستفادة من خيرات الدول الإفريقية والآسيوية الطبيعية والبشرية.[1]

ومن هنا نجحت فرنسا بفضل علاقاتها الودية مع الدولة العثمانية في تأسيس أوّل شركة فرنسية لإستثمار المرجان "شركة لانش Thomas lunche" في سواحل الجزائر الشرقية بين القاله وعنابة والقل،[2] على عهد البايلرباي "حسن بن خير الدين باشا" عام 1561م، شريطة عدم تسليح مراكز الإستثمار أو تحصينها من طرف الشركة.

إلاّ أنّ فرنسا "على عهد شارل التاسع" إستغلت هزيمة الأسطول العثماني في معركة "ليبانت" 1571م وضعف مركز السلطان إثر ذلك فانتزعت منه الموافقة على إقامة محارس عسكرية في المنطقة الممتدة بين القالة وعنابة في ساحل الجزائر الشرقي، وأشهرها حصن فرنسا بالقالة "Le Bastion de France" والذي تحول إلى قاعدة عسكرية منذ مطلع القرن السابع عشر ميلادي بنصب المدافع أمامه، وكان ذلك سبباً في توتر العلاقات بين البلدين.[3]

غير أنّ العلاقة تطورت في عهد الثورة الفرنسية سنة 1789م حين تعرضت فرنسا مع بدايتها إلى حصار سياسي وإقتصادي، ضربته حولها الحكومات الملكية الرجعية في أوربا، مما أدّى إلى إحداث أزمة إقتصادية حادّة

1- يحي بوعزيز، الإستعمار الأوربي في إفريقيا وآسيا، المرجع السابق، ص10.

2- تحصل في سنة 1561م تاجر من مرسيليا يدعى "توماس لانش Thomas lunche" الكرسيكي الأصل، و"كارلين ديديه Carlin Didier" على فرمان من السلطان سليم الثاني يعطي للإثنين إمتلاك الحق الكامل لصيد المرجان على طول ساحل شمال إفريقيا من القالة والقل وعنابة، ورأس روكس ومصب واد سيبوس، وكذلك الحق في إقامة القلاع وحصون المدفعية، والتأسيسات الضرورية للحماية والمحافظة على هذا التنازل، للمزيد ينظر:

- وليم سبنسر، المصدر السابق، ص 202.

- كوران آرجمنت، السياسة العثمانية اتجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر، تر: عبد الجليل التميمي، الشركة التونسية لفنون الرسم، د.ط، تونس، 1970، ص30.

3- إن منطقة الشرق الجزائري غنية بالثروات البحرية والموارد الزراعية مثل الحبوب وغيرها، فقد لعب الشرق الجزائري دوراً هاماً في علاقة الجزائر بتونس بدرجة أولى، وموانئ المشرق العربي والإسلامي.

تجلّت في إشراف الخزينة على الإفلاس وتهديد البلاد بمجاعة كبيرة، وكمخرج من هذه الأزمة عمدت فرنسا من أجل إعادة النظر في علاقاتها مع الدولة العثمانية بشكل عام، ومع داي الجزائر بشكل خاص، وعليه إعترفت الجزائر بالجمهورية الفرنسية الجديدة في وقت كانت فيه تحت حصار أوربي محكم.[1]

كما تكونت بين البلدين علاقات ودية بإستثناء فترة الحملة الفرنسية على مصر (1798م/ 1802م)، حين طلب السلطان العثماني من الجزائر إعلان الحرب على فرنسا، فهذه الحملة تعتبر منعطفا خطيرا في تاريخ العلاقات بين فرنسا والجزائر، خاصة وأنّ المشاريع العدوانية النابوليونية تجاه الجزائر لم تتجاوز التهديد بالكلام، فقد كان يرسل مبعوثيه ويجمع المعلومات الضرورية لأي إنزال مستقبلي ممكن.[2]

لقد كان نابليون يحلم بجعل البحر المتوسط بحيرة فرنسية، لذلك كان يخطط لحملة كبيرة ضدّ دول المغرب العربي وإقامة معسكرات عسكرية فرنسية هناك، وإضافة المنطقة إلى أجزاء إمبراطورية في البحر المتوسط، ولتحقيق ذلك طلب من الفرنسيين الذين كانوا أسرى في الجزائر أو الذين عاشوا فيها، أن يجمعوا معلومات عنها وعن سكانها وتحصيناتها، فأوصى قنصل فرنسا سابقا في الجزائر إسمه السيد "جون بون سان أندري Jean bon Saint-André"[3] في 1799م، بإعداد مشروع لاحتلال الجزائر جاء فيه أن عملية الإحتلال لن تدوم سوى ثمانية أيام، وذلك باستعمال المباغتة وضرب العدو بسرعة في الصميم،[4] ومع عام 1802م وفي الإطار نفسه، أعد كومسير العلاقات التجارية الفرنسية "تيدينا Thedinat" في صافونا مشروعاً لاحتلال البلاد، تضمن إنزال العساكر الفرنسية في مدينة تنس ثم الزحف عبر سهول ومرتفعات مليانة على مدينة الجزائر.[5]

لكن نابليون إنشغل بمناطق أخرى وتخلى عن المشروع، وبعد توقيعه معاهدة سلام مع روسيا "معاهدة تلست 1807م"، عاد إلى مشروع الحملة ضدّ الجزائر، حيث أمر في سنة 1808م وزير البحرية السيد "دوكري Decres" في تقرير يقول فيه: "...فكّروا في حملة ضدّ الجزائر سواء من ناحية البحر أو ناحية البر..."، فتمّ إعداد خطة عسكرية دقيقة من أجل الإحتلال، وجمع خططه العسكرية التي وضعها تحت تصرف أحد ضباطه الأكفاء،

1- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص13.

2- محمد أمين، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبعة أنفو برانت، د.ط، فاس، 2011، ص 128.

3- راهب وتاجر ومثقف، أحد نشطاء الثورة الفرنسية 1789، عين عضوا في لجنة الخلاص العام سنة 1794، وفي 1796عين من طرف حكومة الثورة الفرنسية قنصلا عاما بالجزائر.

4- Berjaud (L), Boutin Agent secret de Napoléon 1er et précurseur de l'Algérie Française, Frédéric Chambriand, 1950, P88.

5- Rousc (CH), France et Afrique du nord avant 1830. Les persécuteurs de la conquête, Paillard, Paris, 1932, pp411-423.

لذا تمّ توجيه المهندس العسكري الضابط "بوتان Boutin"، للنزول في سيدي فرج لضبط خريطة مفصلة عن أحسن موقع تنطلق منه قوات الإحتلال،[1] وطلب منه تحقيقاً ميدانياً والخروج بخطة و بأقل التكاليف.

لقد قام كل من نابليون بونابرت والكولونيل "بوتان Boutin "، بدور خطير للغاية في إعداد الحملة العسكرية على الجزائر، وعملية الإنزال العسكري، وكذا ضبط أهداف وخطة حرب الإحتلال الإستعماري، ولم يكن نابليون الإستراتيجي العسكري الفذ يرسم خطة أو يتخذ قرارا من هذا القبيل، إلاّ بالإعتماد على الإستخبارات العسكرية المسبقة، وكل المعلومات التي يفيده بها جواسيسه، ليتمكن من تحليل الوضع وتقدير قدرات الخصم ومعطيات الميدان، والظرف السياسي القائم آنئذ، كما أنّه أعدَّ ملفا ضخما ضمَّن فيه كل الدراسات الميدانية والتحاليل السياسية، والوسائل والإمكانيات المادية والعسكرية الضرورية لإنجاح الخطة الإستعمارية. ذلك الملف الذي تم إستغلاله بعد سنوات من إعداده أي في سنة 1827م.

تتضمن الخطط الهدّامة عدة جوانب تطبيقية منها القيام بمهام الإستخبار والتجسس وتدبير العمليات التخريبية بشتى أشكالها، وتتمثل مهمة الكولونيل "بوتان Boutin " في جمع أكبر كمية ممكنة من المعلومات العسكرية والسياسية، والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وعن جغرافية البلد بهدف الإعداد لهجوم عسكري مباغت، تمهيدا لحرب الإحتلال ثم السيطرة الإستعمارية الشاملة،[2] وفي ظرف ثمانية وستون يوما تمكن "بوتان Boutin " من جمع معلومات كافية عن البلاد.

كما سعت فرنسا في إستعداداتها الدبلوماسية العسكرية للغزو لدى الخلافة العثمانية، بعدم تدخلها في قضية تأديب داي الجزائر الذي أهان حسب زعمهم قنصلها، كما ضمنت سكوت ورضا الإمبراطورية الروسية القيصرية، والإمبراطورية النمساوية بعدم تدخلهما في عملية إنتقام فرنسا لشرفها، وهذه العملية قد أسعدت الإمبراطوريتين، لأنّها تضعف الخلافة العثمانية –العدو التقليدي للبلدين– بالإضافة إلى مباركة البابا للحملة، وتوفير المساعدات اللوجستية للبحرية الفرنسية في طريقها إلى الجزائر، إلى جانب قبول إسبانيا ومساندتها للحملة، واعتبرتها إنتقاما لها من طردها من وهران أثناء تحرير المرابطين من الإحتلال الإسباني الثاني، كما أجرت مفاوضات مع "محمد علي باشا" والي مصر لمساندتها في الحملة مقابل إغراءات توسعية.

1- Berjaud (L), op-cit, p90.

2- محرز عفرون، آل روتشيلد وآلل بكري وتاليران، المرجع السابق، صص 158،159.

إن القادة الفرنسيين كانوا منذ زمن طويل يخططون لإحتلال الجزائر، خاصة بعدما فقدت فرنسا إمبراطوريتها الإستعمارية في الفترة النابوليونية، فكان ذلك ينبيء بظهور حركة إستعمارية توسعية جديدة تبدأ من احتلال الجزائر لاستغلال خيراتها، وتعميرها بسكان أجانب.

في تقرير قدمه تاليران إلى المجمع العلمي الفرنسي، يقترح على حكومته إحتلال الجزائر، وجعلها مستعمرة نموذجية من أجل إنشاء إمبراطورية فرنسية فيما وراء البحر المتوسط، وسار على نهجه العديد من قادة الجيش الذين إقترحوا إرسال مزارعين فرنسيين للجزائر، قصد إستعمارها والإستفادة من مواردها الطبيعية والبشرية،[1] كما شجع الضعف الذي أصاب الجزائر، إستخدام أهميتها التجارية لصالح إقتصاد فرنسا، حيث كانت تعتمد على تراكم الأموال من خلال العمليات التجارية، التي تتداولها عبر العالم إلى مرحلة الرأسمالية التي تتطلب إستثمار رؤوس الأموال، والبحث عن مواد أولية وأسواق لتصريف فائض الإنتاج الصناعي كما سبقت الإشارة، ونظرا للعلاقات التجارية التي كانت بين الدولتين، زادت الأطماع الفرنسية بالجزائر أكثر من بقية الدول الأوربية الأخرى بغية استغلال خيراتها وثرواتها الطبيعية، كما عملت على إيجاد كل السبل للإنفراد بالجزائر وتعويض ما فقدته من مستعمرات.[2]

تعتبر أهمية الجزائر الطبيعية والإقتصادية، من أهم أسباب أطماع الدول الإستعمارية الأوربية،[3] خاصة فرنسا وإنجلترا اللتان كانتا على علم بضعف الدولة العثمانية وممثليها بالجزائر، ولهذا كانت هاتين الدولتين تنتظران الوقت المناسب لإحتلال الجزائر، وهناك عدة أسباب سعت فرنسا لتحقيقها لاحتلال البلاد وفق أسس وغايات دينية، تعكس النزعة الصليبية وامتداد النزاع المسيحي الإسلامي في البحر المتوسط.

ومن الأسباب التي عجلت لتحقيق الإحتلال هو تحطيم الأسطول البحري العثماني في معركه نافارين 1827م،[4] إلى جانب ارتفاع ديون فرنسا بسبب الأزمة الإقتصادية إلى إثنان وعشرين مليون فرنك قديم، ورغبت بتعويض ذلك باحتلالها الجزائر لتجعلها موطنا لفائض سكانها، وموردا لليد العاملة الرخيصة وسوقا لمنتوجاتها الصناعية، وكانت من أهدافها السياسية للإحتلال: كسب الرأي العام الفرنسي وأصوات المعارضة في البرلمان الفرنسي، إضافة إلى محاربة الإسلام ونشر المسيحية وتنصير الشعب الجزائري،[5] والقضاء على هويته وكرامته وعزته وعروبته.

1- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص518.
2- عبد الله شريط، محمد بن مبارك الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، ط1، قسنطينة، 1965، ص159.
3- سيد أحمد سليمان، سياسة فرنسا في توطين الأوربيين في الجزائر، 1830-1887، بحث لشهادة الدراسات المعمقة، جامعة وهران، جوان، 1976، ص4.
4- يحي الجيلالي، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوربا على العالم، ج4، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د.س، ص465.
5- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، المرجع السابق، صص 519،520.

ب.2.1. الحملة الفرنسية على الجزائر وتأكيد الغزو 1830م:

مهّدت حكومة "شارل العاشر" لغزو الجزائر بإحداث قطيعة في العلاقات الفرنسية الجزائرية، معتمدة على مناورات القنصل الفرنسي بالجزائر "بيار دوفال Pierre Deval" في معالجة قضية الديون الجزائرية على فرنسا، والتي ظلّت معلقة بسبب مماطلة فرنسا في تسديد ما يتوجب عليها من مبالغ، وتدّخل الموردين اليهود -بكري وبوشناق- في هذه الصفقة، ومحاولتهم الحصول على مكاسب ولو بتعميق الخلاف بين الداي والحكومة الفرنسية، فوقع الداي "حسين باشا"[1] في الفخ الذي نصب له، فتسرع برفع مروحة كانت بيده في وجه القنصل "بيار دوفال Pierre Deval" حين حاول هذا الأخير إثارته، في حفل إستقبال بمناسبة عيد الفطر 29 أبريل 1827م،[2] بجواب متغطرس إعتبره الداي إهانة شخصية له.[3]

1- الداي حسين: ولد بمدينة أزمير التركية سنة 1773م، زاول دراسته العسكرية كجندي بسيط في إسطنبول ليمارس بعد ذلك تجارة التبغ، ثم تجند في صفوف مليشيا الجزائر كجندي في الحامية العثمانية، ونظرا لتدينه الشديد أصبح مقربا لدى الداي عمر باشا الذي عيّنه أمينا للأيالة وأعطاه إدارة كل أملاك الدولة باعتباره خوجة الخيل، ثم أصبح بعدها عضوا في الديوان ، ثم ولي الحكم في الجزائر بتوصية من عمر باشا في فبراير 1818م، بعد ذلك تمت مبايعته من طرف الوزراء والأعيان والأشراف واستحسنه بذلك الناس، ليتم بعدها مراسلة الباب العالي رسميا وكان الرد بالقبول من طرف السلطان العثماني محمود الثاني الذي أرسل فرمان التعيين وبذلك باشر مهامه رسميا في الجزائر، وبعد استسلامه للفرنسيين في سنة 1830م إختار المنفى في ليفورنة الإيطالية التي سار إليها مع مجموعة من حاشيته وأمواله، فمكث هناك ثلاثة سنوات، وانتقل بعدها إلى الإسكندرية التي استقر فيها من 1833م إلى غاية 1838م تاريخ وفاته .ينظر: - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص88.

- منح الداي حسين رتبة مير ميران على الجزائر في 11 أفريل 1818م تقديرا لخدماته. ينظر:

- Osmanli Arsivi, HAT, 29.

- ينظر الملحق رقم: 03.

2- يذكر "نيتمون Nettement " أن الحادث وقع يوم 30 أفريل 1827م، ينظر:

- Nettement (A), op-cit, p142.

3- يذكر صاحب المرآة، أنه جرت العادة أن تقوم قناصل الدول الأوربية المعتمدين لدى الجزائر، بزيارة إكرامية إلى الداي بمناسبة اليوم الأوّل من البيرم (عيد الفطر)، وكان القنصل الإنجليزي والقنصل الفرنسي يتنافسان الصدارة في هذه المناسبات، ولذلك ولتجنب كل مناقشة قرر الداي أن يستقبل الواحد عشية الإحتفال والآخر في يوم العيد نفسه، وعلى هذا الأساس جاء "بيار دوفال Pierre Deval" عشية الإحتفال، بحضور أعضاء الديوان، وبعد الإحتفال سأله الداي عن سبب عدم إجابة حكومته عن برقياته العديدة الخاصة بمطالب بكري، وكان جواب القنصل وقحاً لرئيس أيالة، وأمام ديوانه، وهذا ما مسّ كرامته إلى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب، وضربه بالمروحة ضربة واحدة، وعلى إثر ذلك فإن القنصل "بيار دوفال Pierre Deval" قد أفاد من هذه الظروف، لتغطية سلوكه وإسدال الستار على عباراته الوقحة، عرض ضربة المروحة بكيفية غير مواتية للداي. ينظر:

- حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، صص142،143.

- أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار (نقيب أشراف الجزائر) 1754م-1830م، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1974، ص164.

وهنا إعتبرت حكومة "شارل العاشر" تصرف الداي "حسين باشا" إهانة للشرف الفرنسي، فسارعت بفرض الحصار على السواحل الجزائرية واحتلتها في 5 جويلية 1830م.[1]

إن القول بأن الدافع لهذه الحملة هو الإهانة التي لحقت في 29 أبريل 1827م بقنصل فرنسا بالجزائر هو قول لا يمس جوهر الحقيقة، فليس من المعقول كما يذكر زعيم النمسا "مترنيخ Metternich" أن تحرك فرنسا مثل هذا الجيش الجرار –أربعون ألف جندي– وأن تصرف من خزانتها هذه المبالغ الطائلة –150 مليون فرنك– من أجل ضربة مروحة كما يقال.[2]

بدون سابق إنذار، وكأن حكومة "شارل العاشر" كانت تبحث عن النقطة التي تفيض الكأس، سارعت بإرسال عشرة سفن حربية بقيادة الضابط "كوليت Collet"، القائد العام للقوات البحرية الملكية بهدف الحصول على اعتذار علني، وتم ذلك في 16 جوان 1827م،[3] كما قام الضابط بإرسال بعثة مكونة من بعض موظفي القنصلية الفرنسية، وقنصل سردينيا الكونت "داتيلي دولاتور Dattili de la tour"، وحمل شروطا للداي من أجل ردِّ الإعتبار وحل الأزمة ومن بين هذه الشروط:

- ✓ مبادرة الداي بإرسال وفد رسمي إلى باخرة "كوليCollet" لتقديم إعتذار رسمي بإسم الداي عما حصل للقنصل.
- ✓ إستقبال السفن الفرنسية بالميناء في مكان مكشوف، ويتم إطلاق مائة طلقة مدفع تحية لها.
- ✓ رفع العلم الفرنسي على قصر الداي، وعلى أبراج حصون المدينة.
- ✓ إعطاء مهلة أربعة وعشرون ساعة لتحقيق هذه الرغبات، وإلا تبدأ إعتداءات فرنسا ضدّ الجزائر.[4]

لكن الداي سارع بإرسال مبعوثه من أجل تخريب وهدم المؤسسات التجارية بما فيها الباستيون، التي كان يستغلها الفرنسيون، وكان ردّ "كوليت Collet" إعلان الحرب على الجزائر وضرب حصار على سواحلها عام

1– ناصر الدين سعيدوني، الحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية، ضمن كتاب ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، د.ط، بيروت، 2000، صص371-373.

– شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، مج1، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1973، ص167.

– وليم سبنسر، المصدر السابق، ص219.

2– Julien (Ch- A), Histoire de l'Algérie contemporaine. La conquête et les Débuts de la colonisation (1827- 1871), presses universitaires de France, Paris, 1964, p38.

3– مسعود مجاهد، تاريخ الجزائر، ج1، مكتبة الإسكندرينا، د.ط، د.س، ص108.

4– Plantet (E), Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579-1833, Tome II, Elibron classique séries, 2007, pp563,564.

1827م، مستغلا غياب غالبية قطع أسطول الجزائر الحربي في مهمة بشرق المتوسط لمساندة الأسطول العثماني في مواجهة التحالف الأوربي، في معركة نافارين بتاريخ 20 أكتوبر 1827م.

مهدت فرنسا لعملية الغزو بحصار عسكري بحري على المياه الجزائرية طيلة الفترة الممتدة بين 1827م-1830م، بحجة تأديب الداي الجزائري الذي أهان سمعة فرنسا، وقد كانت الحكومة الفرنسية ترمي من وراء هذا الحصار إلى ما يلي:

- ✓ التريث في تنفيذ الإحتلال، بعد حدوث الخلاف بين أعضاء الحكومة الفرنسية بين مؤيد ومعارض للغزو المباشر.[1]
- ✓ ترقب نتيجة المشروع الذي عرضته فرنسا على "محمد علي" والي مصر في عام 1829م، للقيام بإحتلال الجزائر لصالحها، وقد مني هذا المشروع بالفشل بسبب معارضة السلطان العثماني وبريطانيا له، خوفا من تعاظم قوة "محمد علي"، وبسبب تخوف حاكم مصر من إثارة الرأي العام الإسلامي ضدّه.[2]
- ✓ التعرف على موقف الدول الأوربية من احتمال إنفراد فرنسا بغزو الجزائر، وتهيئة الظروف الملائمة على الصعيدين الأوربي والداخلي.
- ✓ إستنزاف القوة العسكرية الجزائرية، وإنهاك الإقتصاد الجزائري من خلال سياسة الضغط والتهديد.

بعد الحصار الفرنسي على الجزائر منذ 15جوان1827م، وبعد اجتماع مجلس الوزراء الفرنسي في 30 جانفي 1830م، تقرر القيام بحملة على الجزائر، فأصدر على إثرها الملك "شارل العاشر" مرسوما ملكيا بتعيين الجنرال "دوبورمون De Bourmont" قائدا للحملة والقائد "دوبري Duperré" قائدا للأسطول الفرنسي،[3] كما أمر بالإستعدادات والتجهيزات الحربية تحضيرا للحملة،[4] فكوّنوا جيشا فرنسيا مكوّنا من مقاتلين ومهندسين

1- احميدة عميراوي، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2004، ص9.

2- للمزيد من التفاصيل حول مشروع حملة محمد علي على الجزائر ينظر:

- القومدان جورج داون، مشروع حملة محمد علي على الجزائر 1829م-1830م من خلال وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، تر: عثمان مصطفى عثمان، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010.

3- للإشارة فإن الأسطول الفرنسي شهد تطورا كبيرا خلال القرن 18، حيث أصبحت فرنسا ثاني دولة بحرية في العالم بعد إنجلترا، كما كان للفرنسيين السبق في إدخال التحسينات التقنية على السفن باستخدام الطاقة البخارية في نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م، كما تمكن الفرنسيون كذلك من استحداث تقنيات زادت من تطور سفنها خاصة فيما يتعلق بشكل و أبعاد السفن و هيأتها الخارجية.

- دوبري 1775م-1846م: بعد أن خدم الإمبراطورية الأولى، بإخلاص إنظم إلى قوات الملكية وعين قائدا للأسطول الفرنسي الموجه لإحتلال الجزائر عام 1830م. ينظر: - أديب حرب، التاريخ الإداري والعسكري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847م، ج1، دار الرائد للكتاب، ط2، الجزائر، 2004، ص42.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، معهد البحوث والدراسات العربية، د.ط، مصر، 1970، ص29.

وضباط...إلخ، واتجهوا نحو الجزائر، وفي 13 جوان 1830م كان الأسطول الفرنسي قرب المدينة[1] يجهز للنزول في سيدي فرج،[2] لكنه واجه عدة مشاكل عند الإنزال جراء رداءة الطقس وجهل القوات الفرنسية للميدان الذي تشغله، بينما دفاعات "الداي حسين" لم تستغل هذه الظروف لمهاجمة قوات الإحتلال الفرنسي بل بقيت قواته متمركزة في تحصيناتها تنتظر هجوم العدو.[3]

لقد حصل "إبراهيم آغا"[4] قائد قوات الداي على المخطط الفرنسي وأخبر بالمكان الذي ستنزل فيه وعدد قواتها، إلا أن الداي لم يتخذ أي تدابير لصد العدو،[5] أما باي قسنطينة فيذكر في مذكراته أنّه حين قدم إلى الجزائر لم يكن مستعدّا لمحاربة الفرنسيين، وجاء معه حوالي 400 فارس فقط،[6] أما باي التيطري فإنّه لم يحضر إلاّ بعد مرور عدة أيام من نزول الجيش الفرنسي ولم يأت سوى بـ 1000 فارس فقط، وفي17 جوان إتّجه "الآغا إبراهيم" بقواته نحو القوات الفرنسية ليعسكر باسطاوالي،[7] وفي يوم 18 جوان إلتحقت بالمعسكر قوات باي قسنطينة وباي وهران، إلاّ أنّه خلال هذه الفترة تراجعت بعض القبائل عن القتال مع "الآغا إبراهيم" لقلة الذخيرة والمؤن،[8] غير أنه قرّر المواجهة ضدّ القوات الفرنسية، ولتحقيق هذه الخطة قسّم جيشه إلى قسمين:

- ✓ قسم وضعه تحت قيادته ويضم الجنود الإنكشاريين والكلوغليين ومقاتلي باي التيطري، وكانت مهمة هذه القوات مهاجمة الجهة اليسرى للجيش الفرنسي.

1- احميدة عميراوي، جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر، مجلة سيرتا، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد 12، السنة 1999، ص5.

2- كان الأسطول الفرنسي قد انطلق من السواحل الفرنسية في 25 ماي، ليتوقف هذا الأسطول في 31 ماي بميناء بالما بجزر الباليار، حيث استقبل من طرف الحاكم الإسباني لجزر الماركيز "دولارومانا – Dela Romana " بحفاوة كبيرة، و سمح لقائد الأسطول الفرنسي بإقامة مستشفى عسكري هناك، وهو ما يبين الدعم الكبير الذي منحته إسبانيا للحملة الفرنسية على الجزائر، فهذه الحملة كانت ستميل الكفة لصالح إسبانيا في صراعها مع الدولة العثمانية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، كما شكلت هذه الحملة فرصة للإسبان لممارسة تعصبهم المسيحي ضد مسلمي شمال إفريقيا.

3- Esquer (G), Les commencement d'un Empire, La prise d'Alger, 1830, Larose, paris, 1929, p285.

- Rousset (C), La conquête d'Alger, Imprimeurs-Editeurs E. Plon et Cie, paris, 1880, p119.

4- يقول عنه حمدان خوجة أنه كان قائدا ممتازا، ولكنه لم يكن يعرف الشيء الكثير عن التكتيك العسكري. ينظر:

- حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص150.

5- للمزيد من التفاصيل حول التحضير للحملة ينظر. – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق ،صص13-46.

- خوجة حمدان، المرآة ، المصدر السابق، صص149-171.

6- محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1973، ص11.

7- حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص 158.

8-Esquer (G), Les commencement d'un Empire, op-cit, p302.

- Julien(Ch-A), Histoire de l'Algérie contemporaine, op-cit, p52.

✓ القسم الثاني من الجيش فوضعه تحت قيادة باي قسنطينة وكلفه بمهاجمة الجهة اليمنى للجيش الفرنسي.[1]

أما المعركة فقد جرت بسهل اسطاوالي على مسافة سير ساعة على سيدي فرج،[2] ففي19 جوان 1830 تقدمت قوات "الآغا إبراهيم" نحو المراكز الأمامية للقوات الفرنسية،[3] وبدأ الصراع بين الطرفين وحدث خلالها بعض الفوضى في الصفوف الفرنسية، حيث يذكر الجنرال "برتيزان Berthezéne" أنّ قنابل مدفعية الداي أجبرت الجيش الفرنسي على التراجع،[4] إلاّ أنّ هذه الفوضى في الصفوف الفرنسية سرعان ما انتهت حيث نظم القائد "كلوي" صفوف فرقته، وتلى ذلك هجوم معاكس من طرفهم دفعت قوات "الآغا إبراهيم" إلى التراجع، إلاّ أنّه تمكن من إعادة الهجوم.[5]

بينما كانت قوات الباي "أحمد" تهاجم قوات "داميمون Damrémont" التي كانت بالتلة المطلة على وادي"بريدجا"ودارت بين الطرفين معركة، إلاّ أنّ الجهة التي تتحكم في موازين القوى كانت جهة الأغا، الذي اضطرّ إلى التراجع بعد أن دعمت القوات الفرنسية صفوفها، بضم القوات الإحتياطية، وتقدم نحو قوات الآغا فتراجع هذا الأخير.

بدأت مسيرة الجيش الفرنسي بالتقدم نحو معسكر اسطاوالي بالرغم من تجمع قوات الداي، ومحاولتهم لتدارك الوضع إلاّ أنّهم أجبروا على التفرّق والتشتت داخل حقول المنطقة[6] وسيطرت على المعسكر، بينما بدأت فرقة الهندسة الفرنسية في فتح طرق الإتصال لربط معسكر اسطاوالي بمعسكر "سيدي فرج"،[7] وعند هزيمة قوات الداي بالمعركة هرب "الآغا إبراهيم" من الميدان وترك خلفه الجيش والخيام والفرق الموسيقية والأعلام،[8] وعندما رأى "داميمون Damrémont" أن الأوضاع تسير نحو النصر أمر قواته بتنظيم صفوفها.

1- حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق، ص 151.

- Mouilleseaux (L), Histoire de l'Algérie, Imprimerie Oberthur, paris, 1962, p231.

2- وهذه المنطقة التي تحيط بهذا السهل عبارة عن هضبة ترتفع بضعة مئات من الأقدام فوق سطح البحر، وهي أرض مقفرة ، فيها أشجار النخيل الصغيرة وأشجار الصبار وبها شعاب كثيرة تغطي مجاريها الرملية وأشجار صغيرة. ينظر: فون مالتسان هانريش، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر ، 1976، ص 123.

3- Mouilleseaux (L), Histoire de l'Algérie, op-cit, p311.

4- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص 38.

5- Julien(CH.A), Histoire de l'Algérie contemporaine, op-cit, p.53.

6- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق ، ص 40.

7-Julien(CH.A), Histoire de l'Algérie contemporaine, op-cit, p.53.

8-Mouilleseaux (L), Histoire de l'Algérie, op-cit, p232.

شكلت معركة اسطاوالي مرحلة مهمة من التاريخ الجزائري بما كان لها من نتائج بعيدة المدى، فمن نتائج المعركة تشتت قوات الداي والسيطرة الفرنسية على 270 خيمة كان من بينها خيمة "الآغا إبراهيم"، أما الخسائر في عدد الجيش الفرنسي كلّفته المعركة حوالي57 قتيلا و473 جريح، أما ما فقده الداي حسب الإحصائيات الفرنسية فإنه كان عشرة أضعاف ما فقده الفرنسيون،[1] أما المساجين فلم يكن أي مسجون لدى الطرفين، فالفرنسيون كانوا يقتلون كل من يقع بين أيديهم سواءا كان أسيرا أو مصابا،[2] كما أدّى هذا الإنتصار بالنسبة للقوات الفرنسية إلى الرفع من معنوياتها، وأصبح سقوط مدينة الجزائر لا يكلفهم كثيرا بعد هزيمة قوات الداي، هذه المعركة كانت لها إنعكاسات وخيمة على الداي وأتباعه، فروح الهزيمة ظهرت نتائجها في أوساط حاشيته، حيث أصبح الجيش بدون قائد بعد التوغل الفرنسي بمنطقة "سيدي يخلف" واختفاء "الآغا إبراهيم" وتعيين "بومرزاق" باي التيطري مكانه، فعملية تغيير القيادات في تلك الظروف كانت لها نتائج سلبية، وزادت من تأزم الوضع الداخلي في الجزائر بعد السيطرة الفرنسية على حصن "مولاي حسن"، ونظرا للأوضاع التي ترتبت من جراء الهجوم الفرنسي وانتصاره بمعركة اسطاوالي وهزيمة قوات "الداي حسين"، أعلن هذا الأخير خضوعه للمطالب الفرنسية بتوقيعه معاهدة الإستسلام مع قائد الحملة الفرنسية "دو بورمون Bourmont" في 05 جويلية 1830م،[3] وبذلك كانت معركة اسطاوالي بالنسبة للفرنسيين فرصة لإثبات وجودهم في الجزائر.[4]

لقد جاء في معاهدة الإستسلام ما يلي: " إتفاق بين الكونت "دو بورمون Bourmont" القائد العام للجيش الفرنسي وسموّه داي الجزائر".

- ✓ تسلّم القصبة و كل الحصون التابعة للجزائر وكذا ميناء هذه المدينة للقوات الفرنسية هذا الصباح على الساعة العاشرة بتوقيت فرنسا.
- ✓ يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي لسموّ داي الجزائر بأن يترك له حريته وكذلك كل ثرواته الشخصية.
- ✓ يستطيع الداي أن ينسحب مع عائلته وثرواته الشخصية إلى أي مكان يختار الإستقرار فيه، وما دام مقيما في الجزائر فإنه يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنسي، وستقوم فرقة من الحرس بضمان أمنه وأمن عائلته.

1- جاء في تقارير 22 جوان و5 جويلية الرسمية خسائر معركة اسطاوالي بحوالي 57 قتيلا و473 جريحا، بمعدل 20 رجلا قتيلا يوميا، " تقرير الجنرال "دي بورمون Bourmont"، يوم 1 سيتمبر و22 جوان و5 جويلية 1830. ينظر: - أندري برنيان وآخرون، المرجع السابق، صص230،231.

2-Rousset (C), La conquête d'Alger, op-cit, p140.

3-Ibid, p141.

4- Esquer (G), Les commencement d'un Empire, op-cit, p312.

- ✓ يؤمن القائد العام لجميع أفراد الميليشيا نفس الإمتيازات ونفس الحماية.
- ✓ تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، ولن ينال من حرية السكان من جميع الطبقات ولا من ديانتهم وممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم.
- ✓ إن القائد العام يتعهد بشرفه على احترام ذلك.
- ✓ إن تبادل هذا الإتفاق سيتم قبل الساعة العاشرة من هذا الصباح، وستدخل القوات الفرنسية بعدها إلى القصبة، ثم على التوالي إلى كل حصون المدينة والبحرية.[1]

وللحد من توسعاتهم أعلن الشعب الجزائري المقاومة دفاعا عن أرضه وممتلكاته ضد الإحتلال الفرنسي، والتي برزت مع ظهور"الأمير عبد القادر"، وفي غضون أيام تحولت الحملة إلى إحتلال، وتحول تأديب الداي حسين باشا إلى تأديب شعب وأرض.[2]

ج. المواقف الدولية من الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م:

ج.1. الموقف الغربي من الغزو الفرنسي للجزائر:

بذلت فرنسا جهوداً دعائية عالمية لتبرر عملها العدواني على الجزائر بأنّه لصالح أوربا وأمنها الملاحي والمسيحية جمعاء، ونتيجة إلى الدبلوماسية التي اتبعتها قبل غزوها للجزائر، فإنّ الموقف الدولي الأوربي تباين بين مؤيّد ومعارض ومتحفّظ، وفي عمومه كان مؤيّدا للغزو والإحتلال، بدافع من المصالح الإستعمارية المتبادلة فيما بينها.

- **الموقف الانجليزي:**

كانت بريطانيا من أشدّ الدّول معارضة للإنفراد الفرنسي باحتلال الجزائر، ويمكن تفسير الإهتمام البريطاني بهذه المنطقة بتحول إنجلترا إلى دولة ذات مصالح هامّة في البحر المتوسط، فقد كانت في عداء تقليدي ضد فرنسا منذ الفترة التي ورثت فيها بريطانيا معظم التوسعات التي اقترنت بالكشوف الجغرافية، حيث كانت ضدّ مشروع الحملة بالوجه الخصوص لكي لا تتمكن فرنسا من تكوين إمبراطورية تنافسها بها، لدرجة أنّها ساهمت في إجهاض حملة "محمد علي".[3]

1- جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1987، صص349،350.

- Plantet (E), Correspondances des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), Ed intégrale, T2, annoté et inédit, paris, 1889, pp569,570.

2- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، المرجع السابق، ص18.

3- محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية 1791م-1830م، مطبعة دحلب، د.ط، الجزائر، د.ت، ص127.

- Nettement (A), op-cit, p263.=

لقد كانت الحكومة الإنجليزية تعلم أن النفوذ الفرنسي سيزداد في البحر المتوسط في حالة احتلال "محمد علي باشا" –الواقع تحت نفوذ الفرنسيين– للجزائر، وما من شك أن تفوّق إنجلترا البحري واحتلالها مضيق جبل طارق ومالطا وكورفو،[1] سيعرّض للخطر بازدياد النفوذ الفرنسي في البحر المتوسط، –كانت رغبة هاته الدولة في تأمين طريق للهند تأثير في ذلك– ومن الطبيعي أن ترفض إنجلترا ذلك.[2]

لقد مارست إنجلترا بعض الضغوط على فرنسا إذ وقفت بجانب الباب العالي تناصره دبلوماسيا، وكان موقفها ضعيفا حيال القضية الجزائرية من أجل استردادها، وكان هدفها هو الحد من التوسع الفرنسي وكسب ثقة الباب العالي.

ومن جهتها حاولت الحكومة الفرنسية إيجاد ظرف دولي مناسب للترحيب بمشروع الحملة من أجل تغطية مخاوف بعض الدول الأوربية، فوجّهت إعلانا عن طريق "بولينياك Polignac" في 4 فبراير 1830م للدول الأوربية، أنّ الملك "شارل العاشر" إتخذ قرارات بإبطال عبودية المسيحيين بدول المغرب، والقضاء على القرصنة على امتداد الساحل الإفريقي، وإعادة حرية الملاحة وإزدهار التجارة بحوض البحر المتوسط، والتخلي عن الإتاوات التي تقدمها الدول الأوروبية إلى حكومة الداي بالجزائر.[3]

لكن إنجلترا لم تجد حجّة تدعم بها إعتراضها سوى أن طلبت من الحكومة الفرنسية بياناً رسمياً عن الهدف الحقيقي من الحملة، خوفا من التوسع الفرنسي في بلدان أخرى كسردينيا مثلاً، وبذلك أمر الملك "شارل العاشر" بالرد على التخوفات الإنجليزية وقد جاء ما نصه: "...إن الملك ينتقم لشرفه بما يتناسب وكرامة شعبه، غير مدفوع في ذلك بأي طموح شخصي، وإذا سقطت نيابة الجزائر في يده، فإنه سيتفاهم مع حلفائه الأوربيين بشأن مستقبلها، وذلك بإقامة حكومة فيها تكون أكثر تحضراً وأكثر تفهماً وإنسجاماً مع المسيحية والمسيحيين، ولكنه –أي الملك– لا يأخذ نفسه بأي تعهد آخر يتنافى وكرامة وفوائد فرنسا...".[4]

زادت مخاوف إنجلترا ولم تكتفي بوعود فرنسا قولاً، فلذلك قام وزير خارجيتها بعد hحتلال فرنسا للجزائر عام 1830م المدعو "اللورد أبيردين Lord Aberdeen" بإرسال تعليمات لسفيره بباريس يذكّره بحق الدولة

–= للمزيد حول رفض إنجلترا المعاهدة بين فرنسا ومحمد علي والي مصر، ينظر: –كوران آرجمنت، السياسة العثمانية، المصدر السابق، ص50.

1– مدينة يونانية تقع في شمال غرب بلاد اليونان.

2– كوران آرجمنت، السياسة العثمانية، المصدر السابق، ص50.

3– محمد زروال، العلاقات الجزائرية، المرجع السابق، ص128.

4– Esquer (G) ; Les commencement d’un Empire, op-cit, pp151,152.

– محمد زروال، العلاقات الجزائرية، المرجع السابق، ص128.

العثمانية في أوجاق الجزائر، ويطلب ضمانات رسمية من البرنس "دي بولينياك Polignac" بخصوص عدم إستقرار فرنسا بالجزائر.[1]

وبعد المشاداة بين رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها وبين السفير الإنجليزي، فقد استطاع رئيس وزراء فرنسا أن ينجح في عدم إعطاء ضمانات خطية لوزير خارجية بريطانيا "اللورد أبيردين Lord Aberdeen".

لم تستمر الحكومة البريطانية في موقفها المعادي لفرنسا بخصوص القضية الجزائرية، بل عدلت عن سياستها فأيّدتها ظاهرياً بعد أن اعترفت "بلويس فيليب" ملكاً على العرش الفرنسي، وهذا بعد أن أحسّت أنّها بقيت معزولة، لذلك فضّلت الإنضمام إلى فرنسا خاصة بعد أن تبيّن لها أن الدولة العثمانية عاجزة عن الدفاع على الجزائر وغير قادرة على استرجاعها.

- **الموقف الإسباني:**

بالرّغم من شعور إسبانيا بالغيرة من نجاح المشروع الفرنسي، إلاّ أنها رحبت بالإحتلال واعتبرته انتقاما غير مباشر لها من الدولة الجزائرية التي حطّمت العديد من حملاتها الإستعمارية السابقة.

فقد تجلى التأييد في مساندتها القوات الفرنسية في حملتها على الجزائر، وذلك من خلال السماح للأسطول الفرنسي باستخدام ميناء جزر البليار من أجل إرساء سفنهم الحربية، كما قامت بتأجيرهم سفنا تجارية لاستخدامها في عمليات الغزو، كما جندت الإسبان خدمة للمصالح الفرنسية بالجزائر، إضافة إلى أنها أمّنت لهم مستشفيات عسكرية بـ "ماهون Mahon"، لمعالجة الجرحى من الجنود الفرنسيين الذين قد أصيبوا بجروح في معاركهم ضد المقاومة الجزائرية.[2]

- **الموقف الروسي:**

أيّدت روسيا القيصرية فرنسا في احتلالها للجزائر، طمعاً في تأييد فرنسا لها لتحقيق مطامعها في المضائق العثمانية (البوسفور، الدردنيل).

عندما طلب سفير بريطانيا من القيصر "الإسكندر الأول" أن يعارض المشروع الفرنسي، أجابه هذا بأن روسيا ليس لها أي إعتراض على الحملة، وربما خير مثال على تأكيد إنحياز روسيا التام للحكومة الفرنسية

1- Marchand (E), L'Europe et la conquête d'Alger d'après des documents originaux tirés des archives de L'Etat libraires académique Perrin, paris, 1913, p184.

2- يحي بوعزيز، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 1962، ص104.

- Nettement (A), op-cit, pp 289,290.

في مشروعها الإستعماري في الجزائر، هو ما صرّح به القيصر الروسي للسفير الفرنسي "لافيروني Laveronne"، في شهر جويلية 1821م مايلي: "... ما عليها –أي فرنسا– إلا أن تفتح البركان من مضيق جبل طارق إلى الدردنيل، وأن تختار ما يلائمها، وتستطيع أن تعتمد في هذا المجال ليس فقط على تأييد روسيا، بل وعلى إعانتها الجديدة و الفعالة..."،[1] لذلك كانت روسيا هي الدولة الوحيدة التي كان موقفها مشجعا أكثر لاحتلال فرنسا للجزائر.

- **الموقف البروسي والنمساوي:**

لم تبدي بروسيا معارضتها للغزو الفرنسي للجزائر، لأن فيه إبعاداً للجيوش الفرنسية عن أوروبا التي تطمح بروسيا إلى تزعمها سياسيا، كما كانت تطمح إلى تحويل إنتباه فرنسا عن منطقتي "الراين وبلجيكا"، لذلك وافق ملكها "فريدريك الثالث" على مشروع الحملة.

أما عن الموقف النمساوي، ففي البداية أظهرت الحكومة النمساوية نوعاً من المعارضة لفكرة الاحتلال، وذلك إبقاءاً للوضع الدولي على ماهو عليه، وخوفاً من انبعاث الروح العسكرية الفرنسية من جديد، فهي من بين الدول التي كشفت النقاب عن فحوى تلك المفاوضات التي جرت بين الحكومة الفرنسية و"محمد علي باشا" وأعلنت معارضتها، حتى أن مستشارها "مترنيخ Metternich" أعلن على إثر الاحتلال ما يأتي: "...ليس حادث المروحة هو الذي تنفق من أجله مائة مليون، ويضحي فيه بأربعين ألف رجل، إلا أنّها سرعان ما غيرت رأيها وأعلنت مباركتها للحملة لما قررت الحكومة الفرنسية القيام بذلك.[2]

هذا بالإضافة إلى مواقف دولية أخرى تتراوح بين مؤيّد ومعارض من احتلال فرنسا للجزائر.

بعد استعراض الموقف الدولي من الإحتلال اتّضح أنّ معظم الدول الأوروبية قابلت العملية بالاستحسان والتشجيع أو الصمت.

ج.2. موقف الدول الإسلامية من الغزو الفرنسي للجزائر:

- **موقف بلدان المغرب:**

كان الموقف الذي اتخذته دول المغرب من احتلال فرنسا للجزائر موقفا سلبيا، باستثناء الموقف الليبي، فقد التزمت نيابة طرابلس الغرب بسلوك سياسية تضامن وتأييد للجزائر في موقفها الدفاعي إزاء العدوان الفرنسي، فبحزن

1– محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية، المرجع السابق، ص127.

2– عميراوي احميدة، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص25.

عميق إستقبل الرأي العام في ليبيا نبأ احتلال مدينة الجزائر، غير أن حكام هذه الأيالة كانوا لا يستطيعون تقديم أي عون مادي للجزائر، بسبب ضعف أجهزة نيابتهم الدفاعية، إضافة إلى مشكل إمتثال حاكم طرابلس "يوسف القرمانلي" بالشروط الفرنسية إثر توقيعه لاتفاقية 11 أوت 1830م، والتي من أحد بنودها:

- إلتزام نيابة طرابلس عدم تطوير قواتها البحرية، خوفاً من أن تكون في يوم من الأيام عنصر فعالية وتأييد للمقاومة الجزائرية ضد قواتهم الإحتلالية.[1]

أما عن الموقف التونسي، فقد أيّد الباي "حسين" فكرة الإحتلال الفرنسي للجزائر، وهنّأ قائد الحملة بالإنتصار. ففي بداية عام 1828م إلتزم باتخاذ موقف الحياد الميال للحكومة الفرنسية في حربها على الجزائر، وسارع بإرسال وفد تونسي عنه إلى الجزائر لتقديم تهاني النصر إلى الجنرال "دو بورمون Bourmont" في 5 جويلية 1830م، وذلك رغماً عن موجة الإحتجاجات الشعبية، وسبب ضلوع حكام تونس مع الفرنسيين يعود إلى خوفهم من زوال عرشهم، غير مفكرين في المصير المحتوم الذي ينتظرهم، حتى أن الحكومة الفرنسية لم تقف عند هذا الحد، فقد وجّهت تعليمات لقنصلها العام في تونس تنصح بمحاولة الدخول في مفاوضات مع الباي "حسين"، لعقد تحالف فرنسي تونسي ذي صبغة دفاعية عن الممتلكات الفرنسية في البحر المتوسط، وفعلا نجحت في ذلك، وأوقفت أي تدخل مباشر وغير مباشر من جانب تونس في قضية الجزائر.[2]

أما عن الموقف المغربي، لم يبدي سلطان المغرب الأقصى "مولاي عبد الرحمن" أي تضامن مع الجزائر، ففي 7 ماي 1830م ضمن حياده لنائب قنصل فرنسا بطنجة، فقد إكتفى بالتزام الصمت والحياد نظرا لعجزه عن التدخل العسكري أولا، ولفتور العلاقات بينه و بين حكام الجزائر ثانيا.[3]

أما عن موقف الشعب المغربي، فقد تكافل مع الشعب الجزائري في هذه المحنة -الغزو الفرنسي للجزائر- واستنكروا ذلك، فيذكر نائب القنصل الفرنسي بطنجة في تقرير له حول هذا التضامن الأخوي قائلا: "...المغرب

1- محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية، المرجع السابق، ص141.

- ناصر الدين سعيدوني، ثلاث وثائق تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الإحتلال، مجلة التاريخ، العدد 07، الجزائر، 1979، ص59.

2- محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية، المرجع السابق، ص136.

3- المرجع نفسه، ص140.

كله متجه بأنظاره نحو الهجوم على الجزائر..."، ويضيف: "...الضربة التي ستنزل بها فرنسا هي التي ستدفع المغاربة إما إلى موقف الإحترام أو الإزدراء نحو القناصل وكذلك بالسكان النصارى...".[1]

لقد تعاطف المغاربة مع إخوانهم الجزائريين وقرّروا مساندتهم، وفتحوا منازلهم للآجئين الجزائريين، يذكر "محمد المنوني" في هذا الصدد أن وقع الإحتلال كان له صدى عند الطبقه الواعية التي دعت إلى توحيد الصفوف والجهاد، فمثلا ذكر من بين هؤلاء "محمد بن عبد القادر الكردودي" المتوفي 1851م –صاحب كتاب "كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة"– إذ يبين الأسباب التي أدت إلى هزيمة الجزائريين والمغاربة على حد سواء، وأن الطرفين أغفلا عنصر الجهاد وآلاته المتمثلة في تنظيم صفوف الجيش وإستعداده عدّة وعتاداً، من أجل مواجهة ما أسماه "بالعدو الكافر"،[2] وهذا ما جاء في مقدمته:

"...أما بعد فإني لما رأيت أسباب الجهاد وآلاته قد أغفلت، وليله أعتم بعد ما كان مقمرا، ونهاره أظلم بعد أن كان نيرا، وغصنه ذوي بعد أن كان مورقا، وحسنه انطفأ بعد أن كان مشرقا، ولرأيت العدو الكافر دمّره الله وأهلكه، وظفر أيدي المسلمين لجميع ما ملكه، وقد استولى على مملكة الجزائر، وقهر كل ذي سلطة فيها مملك أو ثائر الحروب على هيئة مخصوصة...".[3]

حتى المساجد كان لها موقف معاد للغزو الفرنسي للجزائر، فقد كان الأئمة يجمعون الهبات والتبرّعات لمساندة المقاومة الجزائرية لأنهم أدركوا أن الخطر يهدد بلدهم.

لقد كان موقف الشعب المغربي الرافض للغزو الفرنسي للجزائر موقفا مشرفا يعبّر عن صور التلاحم والأخوة بين الشعبين، كونهم لبّوا نداء الجهاد وساندوهم في محنتهم، وأناروا بمواقفهم التضامنية ذلك التاريخ المظلم لحكامهم وقادتهم.[4]

1- أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930م-1940م، ج1، مطبعة النجاح الجديد، ط1، الدار البيضاء، 1992، صص15،16.

2- محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، مطبعة الأمنية، د.ط، الرباط، 1973، ص13.

- أبو بكر القادري، مذكراتي، المرجع السابق، صص15،16.

- محمد أمين، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص203.

3- أبو بكر القادري، مذكراتي، المرجع السابق، صص15،16.

4- عز الدين بن سيفي، موقف المغرب من الإحتلال الفرنسي للجزائر، 1830م-1832م، مجلة عصور الجديدة، عدد 24-25، جامعة وهران، 2016، ص185.

- **موقف الدولة العثمانية من الحملة الفرنسية على الجزائر:**

في أوائل شهر أوت من سنة 1827م قدّم مترجم سفير فرنسا في استنبول الكونت "قييو منيو Guilleminot" للباب العالي، وقدّم لرئيس الكتاب مذكرة كتبها السفير، أبان فيها وجوب تدخل الدولة العثمانية لتأديب والي الجزائر الذي أظهر عداءاً للفرنسيين منذ مدة، وقال: "...حيث أن الداي قد زاد من تعدياته السابقة

بتحقيره قنصل فرنسا في الجزائر، فإن جناب إمبراطور فرنسا اضطر لطلب ترضية علنية مهدّدا بإعلان الحرب في حالة رفض طلبه..."[1]

وقد تذرع السفير بإعلان حكومته الحرب على الجزائر، بناءاً على ما ورد في البند الحادي عشر من المعاهدة المبرمة بين الدولتين الفرنسية و العثمانية في 4 ربيع الأول 1153هـ الموافق 30 ماي 1740م،[2] وفي ختام مذكّرته صرّح بمحاصرة السفن الحربية الفرنسية مدينة الجزائر.

لقد كانت الدولة العليّة منهمكة في إخماد حرب اليونان، لذلك قرّرت في اجتماع رأسه الصدر الأعظم وضمّ وزير الحربية "خسرو باشا"[3] ألاّ يتدخّل في القضية الجزائرية.[4]

رأى وزير البحرية أنّه من المناسب أن يفهم أساس المسألة، فكتب رسالة إلى المفتي "خليل أفندي" بشأن الخطاب الذي وصله من أمين ترسانة الجزائر، فلم يتوان "خليل أفندي" في إرسال هذه الرسالة إلى وزير البحرية يرجوه أن يشرح الموقف بأكثر دقة للباب العالي.

وبعد أن قرأ الصدر الأعظم الرسالة التي وجهها له وزير البحرية وجد كلا من والي الجزائر وفرنسا مخطئاً، وقرر أن يلوذ بالصمت حتى يفتح السفير الفرنسي الموضوع.[5]

1- كوران آرجمنت، السياسة العثمانية، المصدر السابق، ص39.

2- جاء في هذه المعاهدة: عندما يرسي قراصنة الجزائر في موانئ الفرنسيين فعلى هؤلاء أن يراعوهم، ويقدموا لهم البارود والرصاص والأشرعة وسائر الآلات، وعلى الجزائريين ألاّ يغيروا على أسرى وأموال التجار الفرنسيين عندما يلاقوهم، وقد منعوا من القيام بذلك عدة مرات في زمن عظمة جدنا المرحوم، ولكنهم لم يكّفوا عن ذلك ومازالوا على العدوان... وواعدين ملك فرنسا بتأييد شكاياته أو التعبير عن ارتياحه فيما يتعلق بالأمر. ينظر:
- المصدر نفسه، صص39،40.

3-خدم خسرو باشا الدولة العثمانية، وتعيّن وزيرا للبحرية في أفريل من سنة 1827م، وفي سنة 1839م عيّن صدرا أعظما، ولما كان ضد التنظيمات لم يبق كثير في هذا المنصب، وتوفي سنة 1855م،بعد تجاوز سن التسعين من عمره. ينظر: - المصدر نفسه، ص41.

4- محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية، المرجع السابق، صص152،153.

5- المرجع نفسه، ص153.

طلب الكونت "قييو ميتو Guilleminot" في أوائل نوفمبر مقابلة سرية من رئيس الكتاب، وفي المقابلة تمت في الباب العالي يوم 1 ديسمبر 1829م، قدم السفير الترجمة التركية لمذكرة أعدت من قبل إلى رئيس الكتاب "برتيف أفندي Pertev Effend".[1]

وكانت المذكرة تسلم بحق الباب العالي في تأديب أوجاق الجزائر، وكان يقترح الكونت "قييو ميتو Guilleminot" أن يؤول ذلك إلى والي مصر "محمد علي باشا"، بحيث أن حملة قوتها عدّة آلاف شخص يسمح بها فرمان من حضرة السلطان وتحمل خط حضرته الشريفة، ستحقق إجراء الخطة المقترحة في وقت قليل، وأن فرنسا ستبدأ الحركة ضد الجزائر من البحر و البر إذا رفض الباب العالي هذه الخطة.

كان من الواضح أن الباب العالي لا يريد تبني هذا المشروع الفرنسي، لأنه لم ينفّذ سوى بواسطة والي مصر الذي يرغب –الباب العالي– في تقييد قوته لا زيادتها كما لاحظ السفير، ولكن خشية الباب العالي من اتخاذ فرنسا قراراً رسميا بمهاجمة ولاية الجزائر وتدميرها وإحلال نظام جديد فيها، ومن تحالف "محمد علي" معها خدمة لمصالحه دفعته إلى اقتراح "طاهر باشا"[2] بوصفه حلاً وسطاً،[3] فوافق الكونت "قييو متو Guilleminot" على هذا الإقتراح شريطة موافقة حكومته عليه.

كان الباب العالي يدرك أهمية الأمر وجديته، فأقرّ بعد دراسة المذكرة الإنجليزية[4] أن يرسل إنذار إلى "محمد علي باشا" عن طريق "طاهر باشا"، وينذره بسحب يده من القضية الجزائرية، وأن يعطي جوابا تحريريا إلى سفير إنجلترا عن قرارات الدولة العثمانية، مع وجوب إبلاغ مترجم السفارة الفرنسية مقدما بإقلاع "طاهر باشا" إلى الجزائر.[5]

1–كان برتيف أفندي الباشا فيما بعد، رئيس الكتاب منذ سنة 1827م، وعاقب تخليه عن هذا الفصل أرسل إلى مصر موظفا، وصار ناظرا للخزينة عند عودته، وفي أوائل سنة 1836م أصبح يدعى بناظر الأملاك، ثم عزل في أواخر 1837م، ومات بعد ذلك بقليل في منفاه بأدرنة. ينظر:
– كوران آرجمنت ، السياسة العثمانية، المصدر السابق، ص46.

2–كان طاهر باشا بحارا ماهرا قاد الأسطول العثماني في معركة نافارين، وشارك في الحرب الروسية عام 1828م–1829م، وخلال المدة ما بين 1832م– 1836م، عين وزيرا للبحرية ثم واليا على طرابلس الغرب سنة 1836م، وفي عام 1841م تعين وزيرا للبحرية من جديد وتوفي سنة 1847م. ينظر: – محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية، المرجع السابق، ص155.

3– القوميندان جورج داون، مشروع حملة محمد علي، المصدر السابق، ص59.

4–بعد وصول رئيس الكتاب إلى إستنبول بيوم، أحضر مترجم السفارة الإنجليزية مذكرة من السفير إلى الباب العالي، وفي القسم الأول من المذكرة كان السفير يخبر عن خلاصة الرسالة التي وجهها السفير الإنجليزي بباريس لحكومته، حيث كشف عن المعاهدة بين الحكومة الفرنسية و "محمد علي باشا" بشأن إرسال عساكر للجزائر من قبل والي مصر. للمزيد ينظر: – كوران آرجمنت، السياسة العثمانية، المصدر السابق، ص50.

5– المصدر نفسه، ص51.

في 16 أفريل 1830م كانت البارجة البحرية قد أقلعت من إستنبول في طريقها إلى الجزائر، وعلى متنها المبعوث العثماني السيد "طاهر باشا" يرافقه كاتبه الخاص ومترجمه، وكان محملا برسالة من السفير الفرنسي في إستنبول إلى قائد الحصار الفرنسي بالجزائر، وكان مزوداً بأمر مكتوب يوضح فيها مهمته، ويحمل خط يد السلطان نفسه، وقد اشتملت على بنود خمسة.[1]

وبعد أيام قليلة من سفر "طاهر باشا" إلى الجزائر، وصل رد من والي مصر إلى حكومة الباب العالي يؤكد فيها عدم تواطئه مع فرنسا، وأنه لم يوقّع أيّة معاهدة معهم بهدف الهجوم على الجزائر.

لقد اعتبرت الدولة العثمانية عدم تدخل والي مصر في القضية الجزائرية نجاحاً سياسياً لها.[2]

في 16 مارس 1830م أعلم مترجم السفارة الفرنسية بإستنبول حكومة الباب العالي، أن فرنسا أقرّت العزم على إرسال جيش إلى الجزائر، إلاّ أنّها مع ذلك تأمل في أن يتوصل "طاهر باشا" إلى حل سلمي بينها وبين "الداي حسين"، لكن قائد الحصار الفرنسي منعه من دخول مدينة الجزائر، واضطره للذهاب إلى طولون للإقامة فيها، وأنه عندما اقترب من مرفإ المدينة شاهد أسطولا فرنسيا محمّلا بالعساكر والذخيرة الحربية متّجها إلى الجزائر.

ولكنه عندما كتب المبعوث العثماني إلى "بولينياك P" رئيس الحكومة الفرنسية بشأن التفاوض كانت الحملة الفرنسية قد نزلت أرض الجزائر، كما وصل رئيس الكتاب العثماني من مترجم السفارة الفرنسية بإستنبول بمذكرة مؤرخة في 6 أوت 1830م تفيد بأن الجيش الفرنسي قد احتل مدينة الجزائر، وحكم بذلك على وساطة الدولة العثمانية بالفشل.

1- البنود الخمسة هي كالآتي:

- عندما يصل "طاهر باشا" إلى المياه الإقليمية الجزائرية فإنه يبادر بالتباحث مع قائد الحصار الفرنسي لتسوية المشكلة القائمة بين الجزائر وفرنسا.

- إذا رفض قائد الحصار أن يتفاوض معه فعليه أن يطلب من الحكومة الفرنسية ممثلا عنها، يتمتع بكامل الصلاحيات ليبدأ معه مداولات رسمية، ثم يدخل بعد ذلك إلى مدينة الجزائر.

- يشرح "طاهر باشا" للعلماء والأعيان العواقب الوخيمة التي تنتج من الحرب على فرنسا، وعليه أن يقنع هؤلاء بأن السلطان طلب بحل النزاع بالطرق السلمية.

- إذا كانت المطالب الفرنسية مجحفة، فليكن ذلك موضوع مفاوضات بينه وبين الموظف الذي ترسله الحكومة الفرنسية.

- على "الطاهر باشا" أن يبذل كل ما في وسعه للوصول إلى حل الخلاف الذي نشب بين فرنسا والجزائر، وإذا فشلت مساعيه كلها فعليه أن يوجه رسالة إلى السلطان. ينظر: - محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية، المرجع السابق، ص158.

2- كوران آرجمنت، السياسة العثمانية، المصدر السابق، ص56.

د. المقاومة الشعبية كبداية لمشروع الدولة الجزائرية والنهضة الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر:

عندما احتلت فرنسا الجزائر كانت تريد من وراء ذلك الإستيلاء على البلاد كلها، وذلك عن طريق توسيع نفوذها إلى جميع المدن الساحلية ومدّ مراقبتها العسكرية إلى جبال الأطلس.

وإثر سقوط الحكم المركزي بالعاصمة واستسلام الداي حسين في 5 جويلية 1830م حدث اضطراب في جميع الولايات التابعة له، فبعدما تمكّن الغزاة من بسط نفوذهم على مدينة الجزائر أصبحوا يفكرون في التوسع على حساب المناطق المحاذية للبلاد.[1]

فبدؤوا بإحتلال المدن الساحلية حيث تمكنوا من احتلال المرسى الكبير في 11 ديسمبر 1830م وحصن "سانت ڤريڤوري" في 14 ديسمبر من دون أية مقاومة، ثم قاموا باحتلال معظم الحصون المحيطة بالمدينة، واستغلوا في 14 جانفي 1831م فرصة مغادرة قبائل المخزن لأسوار وهران نحو تلمسان، ليحتلوا المدينة من دون أيّة ردّة فعل لصد قواته،[2] وبهذا أعلن "الباي حسن"[3] استسلامه للقائد الفرنسي وطلب منه الرحيل إلى الإسكندرية، ومن نتائج الإحتلال الفرنسي للمنطقة هو هجرة معظم سكان مدينة وهران نحو تلمسان وضواحيها.[4]

بعد انتهاء المفهوم السيادي للحكم العثماني بالجزائر، مع توقيع "الداي حسين" لمعاهدة الإستسلام مع قائد الحملة الفرنسية الجنرال "دوبورمون De Bourmont"، أصبحت الجزائر تعيش الفوضى والإضطراب بعد الفراغ السياسي الذي عقب تخليه عن الجزائر وتسليمها للسلطات الفرنسية، مقابل السماح له بالذهاب إلى بلاد المشرق مع بعض أتباعه وحاشيته، وكان من نتائج الفوضى التي عمّت البلاد إتاحة الفرصة للقوات الفرنسية للتوسع،[5] فكثر

---

1 –Esquer (G), Les commencement d'un Empire, op-cit, p312.

– أرجع العربي المشرفي في كتابه طرس الأخبار مسؤولية الإحتلال الفرنسي للجزائر وظهور قواتها على شواطئ الجزائر العاصمة إلى سوء تقدير باي الجزائر للأمور، وعدم حنكته السياسية في تدبير مسألة القرض مع فرنسا. للمزيد ينظر: – العربي المشرفي، طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار وفي عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار، دراسة وتح: يوسف أخليص، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الأداب ابن المسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب، 1999، 2000.

2–Lapène (M), Tableau historique de la Province d'Oran 1791-1851, éd, Lamort, Metz, 1842, p30.

3– الباي حسن: ولد في حوالي سنة 1850م، أصله من الأناضول، عمل كجندي في صفوف الحامية العثمانية بتلمسان وبعد أن أنهى خدمته العسكرية مارس التجارة، حيث كان له دكان لبيع التبغ في جوار المسجد الكبير في مدينة وهران، ونظرا لفطنته أثار إعجاب الباي بوكابوس الذي أوصى له بالحكم من بعده، فأصبح بايا لبايلك الغرب الجزائري في 1827م، وبعد الإحتلال الفرنسي لمدينة وهران، رحل إلى الإسكندرية التي انتقل منها إلى مكة التي توفي بها ينظر:

– Ibid, p26.

4– عبد الرحمن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، د.م.ج، ط7، الجزائر، 1994، ص18.

5– محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص146.

القتل والسلب والنهب واللاّ أمن، فتهيأت الظروف للسلطات المغربية والتونسية لتحقيق أهدافها التوسعية على حساب الجزائر، إلاّ أن التدخلان كان لهما دور سلبي في مقاومة الإحتلال، وفرض على سكان المنطقة الإعتماد على أنفسهم بعد انهيار الحكم العثماني باستسلام ممثليه بالمنطقة، وتخاذل السلطان المغربي وطمع الباي التونسي،[1] وانحصار سلطة الأتراك العثمانيين على قلاع تلمسان ومستغانم وضواحيهما، الأمر الذي جعل أعيان منطقة الغرب الجزائري يلحّون على الشيخ "محي الدين" قبول بيعتهم، وبعد إلحاحهم المستمر قبل القيام بأمر الجهاد لا الإمارة،[2] فرضي القوم بذلك، وهنا ظهر إقدام هذا الشيخ في ظروف ميّزها إنعدام التنظيم والتدريب لدى قوات المقاومة حيث كان الإنقسام والتنافس على الزعامة بين القبائل شديدا، وبالرغم من ذلك استطاع الشيخ "محي الدين" من تنظيم صفوف المقاومة الشعبية بالإعتماد على ما توفره المنطقة من إمكانيات مادية وبشرية دون الإعتماد على دعم خارجي وهنا يظهر جليا مبدأ الإعتماد على النفس لدى الجزائريين، بعد الخذلان الذي لاقوه من قبل العثمانيين والمغاربة والتونسيين.

لقد خاض الشيخ "محي الدين" على رأس قوات المقاومة معارك طاحنة ضد العدو الفرنسي، أهمها معركتي خنق النطاح الأولى 3 ماي 1832م والثانية 4-6 ماي 1832م، ومعركة برج رأس العين وغيرها،[3] فقد قام بمواجهة الجنرال "بوايبهBoyer" في 19 سبتمبر 1831م، وقبل هذه المعركة أفاد هذا الأخير قائد مقاطعة وهران العسكري[4] رؤساءهم بأن قواته بحاجة إلى المؤن والعتاد لتحافظ على توازنها، من أجل مواصلة القتال ضد المقاومة الشعبية التي يترأسها "الشيخ محي الدين"، الذي رضي بمسؤولية القيادة العسكرية تاركا أمر حكم البلاد إلى الإنتخاب

1- للمزيد من التفاصيل حول التوسع المغربي والأطماع التونسية في الجزائر. ينظر:- المهدي البوعبدلي، موقف ملك المغرب من الجزائر إثر الإحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، عدد 28 نوفمبر ديسمبر، 1975، قسنطينة، الجزائر، ص21.
- إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، د.م.ج، الجزائر، 1982، ص221.
- Cour (A), L'occupation Marocaine de Tlemcen Septembre 1830, Janvier 1836, R.A, T52,1908, pp34-36.
- Péllissier (R), Annales Algérienne, T1, Librairie Militaire, Paris, 1854, pp156-157.
- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط2، الجزائر، 1996، ص35.
- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص29.
- عبد الجليل التميمي، مغامرة الحماية التونسية، المرجع السابق، صص12- 19.
2- العربي المشرفي، طرس الأخبار، م.خ.ح، رقم: 6533، المصدر السابق، صص81،82.
- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري ، الدار العربية للكتاب، د.ط، تونس، 1983، ص44،45.
3- محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، ج2، الإسكندرية، 1903، ص147.
4- الجنرال "بوايبه Boyer" عمل في مصر ثم خدم تحت علم الجمهورية والإمبراطورية الفرنسية واشترك في أهم معاركها وحارب على ضفاف نهر النيل وفي صحاري سوريا بين صفوف جيش نابليون الأول، ذهب إلى إسبانيا سنة 1810م لينظم إلى القوات الفرنسية، عين على ولاية وهران في18 أوت 1831م. ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص28.
- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، صص60،61.

الشرعي، نظرا لكبر سنه وثقل أعباء هذه المسؤولية والتي تحتاج للمزيد من التضحية وطول النفس،لذا قام أثناء مواجهاته للعدو بالإعتماد على مقاتلين من المتطوعين للمقاومة الوطنية.

ومع أواخر شهر أفريل 1832م هاجم سرية إستطلاعية فرنسية قوامها 100 ضابط وجندي في منطقة وهران التي سبب لها عدة خسائر مادية ومعنوية، ثم انطلقت قواته بقيادته وتمركزت في سيدي يعقوب، وفي أوائل ماي 1832م بدأت قواته تتخذ الإحتياطات اللاّزمة لمواجهة قوات الجنرال " بواييه Boyer"، التي برز فيها إبنه "عبد القادر" وأظهر شجاعة كبيرة في المقاومة[1] والتي راح ضحيتها العديد من القتلى والجرحى الفرنسيين.[2]

كما وقعت معركتان بين الجيش الفرنسي وقوات المقاومة الوطنية بمدينة وهران، فقد تزامنت المعركة الأولى مع مشاورة الشيخ "محي الدين" حول مبايعته العامة بالإمارة، والتي خصها بالجهاد ومقاومة الغزاة الفرنسيين في خنق النطاح الأولى، وبعد هذا الإجتماع جهز قواته التي كان على رأسها "السيد عبد القادر بن زيان"[3] الذي بعثه لاستكشاف مواقع العدو ومراكزهم ومراقبة تحركاتهم في"خنق النطاح، فأسرع بالخبر إلى الشيخ "محي الدين" مع ابنه "عبد القادر" الذي انطلق مع قوات المقاومة الوطنية من القيطنة وخيم بوادي سيق فرتب جيشه واتجه بهم نحو ساحة وهران، وخيم بالقرب من تمركز القوات الفرنسية، وفي صبيحة اليوم التالي هاجموا الحامية المتمركزة في خنق النطاح، فدارت بينهما معركة طاحنة كثر فيها عدد القتلى من الفريقين، وبقيت قوات المقاومة ثابتة في مركزها واستمروا في القتال، إلى أن انتصروا على القوات الفرنسية.[4]

بعد المعركة الأولى اتجهوا إلى منطقة عين الكرمة، على مسافة قريبة من وهران، وأثناء هذه الفترة،[5] أسرع "الجنرال بواييه Boyer" إلى طلب النجدة ليحصل على المدد والمعونة، ولما علم الشيخ بذلك هيأ قواته،[6] ورتبها للاستعداد فتمركزت مساء 3-4 ماي 1832م في ضواحي قلعة "سانت فيليب"، فضيقوا عليه الحصار،[7] وعند فجر اليوم التالي غادرت القوات التي كانت متمركزة في عين الكرمة المنطقة واتجهت نحو المعسكر الفرنسي، فقسمت

1- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، ص45.
2- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص29.
3- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص148.
- بن عودة المازاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، تح: يحي بوعزيز، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر،2007، ص95.
4- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح ، المرجع السابق، ص105.
5- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص151.
6- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص29.
7- إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية، المرجع السابق، ص17.

القوات إلى خمس فرق، واحدة منها تمركزت وراء القلعة لتنفيذ عملية كمين عند محاولة الفرقة الفرنسية اجتياز المكان، وتقدمت فرقتان من القوات الوطنية لاختراق صفوف القوات الفرنسية بغية شل هجوماتها والقضاء عليها، وبقيت فرقتان لصد أي هجوم فرنسي محتمل،[1] فنشبت المعركة بين الفريقين، وتمكنت القوات الوطنية من هزيمة الجيش الفرنسي وأرغمت الجنرال "بواييه Boyer" على الإنسحاب والتحصّن بأسوار مدينة وهران بعد مقتل العديد من جنوده، بينما فقدت القوات الوطنية بقيادة الشيخ "محي الدين" بعض رجاله، ومن بينهم أحد أقاربه السيد "أحمد ابن السيد محمد السعيد".[2]

بعد الهزيمة التي منيت بها القوات الفرنسية بقيادة "الجنرال بواييه Boyer"، بفقدان عدة جنود بعث الجنرال إلى الحاكم العام بالجزائر ليمده بالمزيد من الجند والذخيرة، نظرا لتشبث الشيخ "محي الدين" والقوات الوطنية بفكرة المقاومة، والحد من توسعات الجيش الفرنسي، والعمل على إبقاء قواته محاصرة في أسوار مدينة وهران، وبعد المعارك المتتالية والحصار الذي فرضته القوات الوطنية على العدو بمدينة وهران، قرر الجنرال التمركز في منطقة برج رأس العين، في الجهة الغربية من وهران، قصد التوسع بالمنطقة، ولما سمع الشيخ والد "عبد القادر" بتحركات القوات الفرنسية أخذ يتأهب للمعركة ثم خرج بعدها من القيطنة،[3] على رأس قواته إلى واد سيق فواصلت القوات الوطنية سيرها حتى وهران، ونشبت معركة بين الطرفين بمنطقة برج رأس العين كان "لعبد القادر" دورا فيها يعمل على شد الهمم لمواصلة الجهاد والثبات في المعركة،وواصل القتال حتى الليل حيث بقيت القوات الوطنية بمراكزها، بينما انسحبت القوات الفرنسية ليلا،[4] فدخلوا المدينة يجرون وراءهم أذيال الهزيمة في 4 ماي 1832م، وتمت محاصرة المدينة شهرا كاملا.[5]

ومن هنا نجد أن المقاومة الشعبية لم تتوقف عند هذا الحد، بل كانت هناك مشاداة طويلة بين العدو الفرنسي والقوات الشعبية الوطنية، غير أن للشعب الجزائري رأي فيها ألا وهو المقاومة بالإعتماد على النفس وإيجاد شخص يقوم بقيادة المقاومة باسم الوطن والشعب من أجل الحد من تسلط العدو، والمتمثل في شخص "الأمير عبد القادر ابن الشيخ محي الدين"، الذي انصهرت فيه وحدة الحركة والهدف وارتفعت فيه نفسه، وقويت فيه العزائم والهمم أثناء

1- محمد بن الأمير عبد القادر ، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص151.

-أديب حرب ، ج1، المرجع السابق ، ص82.

2- إسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية، المرجع السابق، ص18.

3- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص152.

4- المصدر نفسه، ص152،153.

5- يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص105.

- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص30.

محاولاته مع والده "محي الدين" من أجل تحرير الوطن ومحاربة أعداء الدين، فقد وجد نفسه بعد أن بايعه شعبه للإمارة والتي سنفصل فيها لاحقا أنّه يواجه أكبر مؤامرة على الجهاد، كونه آمن إيمانا عميقا بضرورة الإتحاد المطلق بين مواطنيه لكي يحق لهم إستقلالهم المشترك، فقد قرّر أن يجابه بسيفه كل من يحاول مقاومة سلطته، وهذا ما حاول طيلة سبعة عشر سنة ترسيخه في أذهان شعبه، الذي تأثّر من الفراغ الذي أحدثه إنهيار السلطة السياسية العثمانية، وتبلور ذلك من خلال مواكبتهم لسير المقاومة المسلحة منذ 1830م، أي بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر إلى غاية وقف القتال عام 1847م.[1]

فالأمير عبد القادر أدرك أنّ سرّ انهيار الجزائر العثمانية يعود إلى فساد النظم السياسية والإدارية، وإلى فساد العلاقات الإجتماعية خاصّة بين الحاكم والمحكوم، وأدرك أن النجاح في الإنتصار على العدو لا يكون إلاّ بإزالة هذا الفساد وبالعمل على تغيير العلاقات القديمة.

لقد ظلّ ينظر إلى أتراك الجزائر على أنّهم مصدر ما أصاب الجزائر من إحتلال بسبب ضعفهم السياسي والعسكري، ويرجع ذلك إلى الصراع على الحكم والتنافس اللاّشريف من أجل كسب الأموال والثروات بشتى الطرق[2] حسب ما ذكره صالح فركوس، ويضيف أن هذه الطريقة في كسب الأموال طغت على السياسة التركية التي كان يسلكها الحكام الأتراك بأيالة الجزائر، ضف إلى ذلك فإن سلوك العثمانيين نحو الجزائريين جعلهم يشعرون بأنهم ليسوا من جنس واحد، أي أنّها علاقة حاكم ومحكوم، العربي المحكوم (الرعية)، التركي العثماني الحاكم أو (السيد)،[3] بالرغم من أن لسلطتهم، ومنذ عهد الباشوات لم تعرف الإستقرار.

يذكر أديب حرب أن سياسة العثمانيين في الجزائر إتسمت بالإتكالية، إذ قبلت بداي ممثل للسلطان في العاصمة وحامية تركية صغيرة لحراسته، ورد الإعتداءات عن القصبة مكان إقامته، ولم تؤثر الإدارة التركية في تغيير عقلية السكان وطريقة حياتهم، كما كانت نظمها بعيدة عن واقع البلاد، فالحكم كان ضعيفاً جداً خاصة في البقاع البعيدة عن العاصمة.[4]

ولعل هذا ما يفسر عدم إعتراف الأمير بسلطة الأتراك، إضافة إلى الفساد السياسي في الحكم، فلو عدنا إلى فترة الباشوات (1587م-1659م) فنجد أن عهدها تميز بالاضطرابات والفوضى، ثم تلا هذا العهد فترة

1- جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، د.ط، الجزائر، د.ت، ص102.
2- صالح فركوس، الحاج أحمد باي قسنطينة 1826م-1850م، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1993، صص12،13.
3- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1830م-1900م، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1992، ص183.
4- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص34.

الآغوات (1659م-1671م)، الذي اتصف بالدكتاتورية والإنفراد باتخاذ القرارات، فكثرت فيه المنازعات وعمت المشاكل معظم مناطق البلاد، واستبدل بنظام الدايات (1671م-1830م)، حيث كان كل الدايات غرباء عن الجزائر فتسلطوا على مختلف إدارات الدولة ونهبوا أموال الشعب، وامتلكوا الأراضي والقرى، وأعطوا البايات حرية التصرف في جمع الضرائب بوسائلهم الخاصة.[1]

وبذلك إنتشرت الفوضى والرشوة والفساد فعانى منهم الشعب الجزائري معناة كبيرة، مما جعل الأمير عبد القادر يتذمر من بقائهم على رأس سدّة الحكم، ويبدي معارضة شديدة لحكمهم، لذلك اختار أن يرسي قواعد دولته على أكبر قاعدة حضارية هي قاعدة الشورى، إذ بويع كأمير للدولة الجزائرية في بيعتين الأولى في 27 نوفمبر 1832م، والثانية في فيفري 1833م، ومن المؤكّد أنه كان ملزماً بمبادئ وقواعد الحكم في السياسة الشرعية، كما عمل جاهداً من أجل أن يجعل الأمّة الجزائرية أمّة واحدة تعمل بتعاليم الإسلام ومن أجل تحرير الوطن.

ومن هنا يتضح أن مهمة الأمير الأساسية كانت إقامة دولة يستطيع بها مواجهة فرنسا، بعد أن اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين، واتخذ معسكر مركزا لحكمه ودعا القبائل لإعلان الطاعة، وقد حدّد الأهداف من المقاومة وإقامة الدولة وحصرها فيما يلي:

- ✓ السعي لتحقيق وحدة الجزائريين في صفّ قوي.
- ✓ إذكاء الشعور الوطني لدى قبائل القطر الجزائري وقد جاء تحقيق هذين الهدفين في إطار تصوّره لإقليم الدّولة وتحقيق الولاء والسيادة لها، وكان عمله جهاداً في إطار:
- ✓ الدفاع عن الجزائريين والوطن الجزائري بالوقوف في وجه المشروع الإستيطاني الفرنسي.
- ✓ إعطاء البعد الوطني لدولته في إطار تجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الوحدة الوطنية، وإعطاء مفهوم عصري لها على أساس الجمع بين الدّين والوطنية، وهو ما عبر عنه جوليان بما يمكن ترجمته في قوله: "لقد كان الأمير يعمل من أجل قومية عربية مستقلة إسلامية في إطار الحضارة الأوربية".
- ✓ توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.
- ✓ دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة، وبعبد القادر أميرا عليها.
- ✓ الدفاع عن الحريات الإنسانية.

1- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، صص35،36.

- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للإحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830م-1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، د.ط، عنابة، الجزائر، 2012، ص33.

- ✓ تدعيم الروح الوطنية الشعبية عن طريق الأخوة والحفاظ على النفس.
- ✓ نشر الأمن وتأديب الخونة وبالتالي تجميع القوى الوطنية.

وقد رسم لتحقيق هذه الأهداف تنظيما شاملا نابعا عن روحه التقدمية وحبه للنظام حيث آمن إيمانا عميقا بتطوير وطنه وكان يعرف مدى الهوة التي كانت تفصله عن التقدم الحضاري الذي كان العدو يتمتع به.[1]

1- فريدة قاسي، الدولة في فكر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص99.

الفصل الثاني:

جوانب من شخصية الأمير عبد القادر وإرسائه الركائز القاعدية لمشروع بناء الدولة الجزائرية.

أ. نسب الأمير عبد القادر الشريف.

ب. نشأته وبدايات تعليمه وخصاله الخلقية والوطنية.

ج. رحلة الأمير عبد القادر مع والده إلى الحج وأثرها على شخصيته.

د. خبرات الأمير عبد القادر وتصوراته لمجال السيادة.

هـ. إستراتيجية ومعارك الأمير عبد القادر "نماذج".

و. أسس الدولة الجزائرية الحديثة حسب المنظور الأميري.

قبل المضي في البحث عن مشروع الأميري عبد القادر النهضوي، كان لابد لنا من الوقوف برهة للتعريف أولا بنسبه الشريف الذي كان عاملا مهما في نشأته وفي تكوين شخصيته وثقافته، والتي أهلته ليتقمص منصب الإمارة والسلطة بعد ذلك في الجزائر، فقد أخذ لقب أمير المؤمنين وسلطان العرب، بفضل نسبه العريق، و ظهر في فترة تحول حاسمة في تاريخ المسلمين، فترة الإنقضاء على الخلافة الإسلامية والإجهاز عليها، ولهذا عمل جاهدا من أجل تصنيع الأحداث وتشكيلها، فقد كان في حياته فاعلا ومنفعلا، مؤثرا ومتأثرا، وعبر هذا التفاعل الدائم والمستمر ظهر شخص "عبد القادر" ليحقق أهدافه ويدافع عن قضية الإسلام والمسلمين، وليرفع رايتهم اتجاه حملة صليبية عرفها التاريخ، وكان منطلقه "قاعدة الايمان بالله"، وبما أنزله على رسوله عليه السلام ،واقتدائه بالشريعة الإسلامية،وإيمانه هذا زاده في رحلته الشاقة التي تخللتها مجموعة من الصعوبات والأزمات التي يعجز عن حمل أعبائها همم الرجال، وتقتصر عنها عزائم الأبطال، زد على ذلك فإن محيطه الأسري والتعليمي والطبيعي الذين أحيط بهم منذ نشأته، ساعدوه منذ صباه المبكر على تشكيل منظومة القيم التي سوف يتمسك بها، ويدعوا إليها ويدافع عنها طوال حياته.

أ. نسب الأمير عبد القادر الشريف:

في بيان النسب نقول عنه أنه السيد النبيل، الناسك العالم، الزاهد المتورع الحاج عبد القادر بن محي الدين. بن مصطفى. بن محمد. بن المختار. بن عبد القادر. بن أحمد المختار. بن عبد القادر. بن أحمد المشهور بابن خدة [وهي مرضعته].[1] بن محمد. بن عبد القوي. بن علي. بن أحمد. بن عبد القوي. بن خالد. بن يوسف. بن أحمد. بن بشار. بن محمد. بن مسعود. بن طاووس. بن يعقوب. بن عبد القوي. بن أحمد. بن محمد. بن ادريس الأصغر. بن ادريس الأكبر. بن عبد الله المحض. بن الحسن المثنى. بن الحسن السبط. بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم وعظم،[2] وقد ذكر نسب الأمير عبد القادر الشريف في العديد من المؤلفات بدءا بمذكراته،[3] إضافة إلى مؤلف بن التهامي والذي حققه الدكتور يحي بوعزيز،[4] ومؤلف عبد الرحمان بن عبد الله التوجيني.[5] كما ورد نسبه أيضا في "سلسلة الأصول" لحشلاف[6] ولكن هناك اختلاف بين المؤلفين في ذكرهم للسلاسل في بعض الأسماء.

كما قد نظمت لهذا النسب الشريف الحسيب النسيب المتحل من الفضائل، أشعار عديدة، يذكر منها بن الأمير محمد في كتابه تحفة الزائر عن شعر العلامة السيد محمود أفندي الحمزاوي مفتي دمشق الشام بقوله:[7]

يا جندا الوعد والانجاز يصحبه حاكما علاكم بأن أحلف يعقبه

1- أبو محمد عبد القادر بن أحمد، المعروف بابن خدة وهي مرضعته، تبحر في العلوم كالنحو والتوحيد والحساب والفرائض والفقه، أخذ العلم عن شيوخ أجلاء منهم محمد بن يوسف السنوسي832هـ-895هـ/ 1428م-1490م المشهور بصاحب "الصغرى والكبرى" في التوحيد، المدفون بتلمسان وفيها أخذ عنه وأقام في قسنطينة، وصار شيخ العلماء فيها، وكانت تأليفه المتداولة في تلك الجهات لاسيما حاشيته في التوحيد. ينظر:

- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، صص100،101. [في تهميش الكتاب]

2- أورد الأمير محمد هذا النسب في هذه الشجرة في كتابه معتمدا على مجموعة من المصادر المهمة والمخطوطة كما ذكر: "... الحق ذلك بذكر عمود نسبه الشريف، وحسبه العالي المنيف كما تلقاه الخلف عن السلف ودونه الحفاظ في كتب النسب والشرف ... " وبدأ بذكر أسماء هؤلاء العلماء الذين تحدثوا عن نسب والده الشريف. ينظر: محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص297-307.

3- الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تح: محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة، ط7، الجزائر، 2010، ص46.

4- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تح وتق وتع: يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص47.

5- أبي زيد عبد الرحمان بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، ط1، المسيلة، الجزائر، 2005، ص14.

6- عبد الله بن محمد بن الشارف بن علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929، صص 109، 110.

7- وفي تمام القصيدة يذكر السيد محمود أفندي نسب وشجرة الأمير عبد القادر الطاهر والتي تعود إلي رسول الله عليه السلام، كما أوردها هؤلاء العلماء، ينظر: - محمد بن الأمير عبد القادر، ج1، المصدر السابق، صص297-299.

حيا فأحيا ظنونا غير نائيـــــة لولاه كانت قضت مما تراقبـــه

وافى البشير به والفكر في قلـق والقلب في حرق هم يقلبـــــه

والجفن في أرق والعين في غرق والصبر في فرق كرب يداعيـــه

لقد كانت أسرة الأمير عبد القادر تعتز بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف ففي القرن الثامن هاجر ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام، إلى المغرب هاربا من بطش العباسيين،[1] وأنشأ دولة الأدارسة[2] وعاصمتها فاس عام 172هـ وهو عام وصوله إلى المغرب وكان يحمل سيف جده الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي صار فيها بعد ملهم الشعراء والأدباء وظاهرة أدبية سموها [أدب السيف] فقد نظمت بشأنه أبيات شعرية عديدة[3] مثل: الشعر الذي تغنى به أبو محمد عبد الغفار قائلا:

ذكرت ولم أكن للذكر ناس عجائب سيف إدريس بفاس

لم يكن بالمنار شراء ولكـن ليرفع عن جمالها كل بـــاس

وقال أبو محمد الواحد الزيتوني قائلا:[4]

من يحسد الناس في فاس يقول لهم بسيف إدريس غم الناس في فاس

تعسا لقائله بل سيف شــــرف علاكا قد علا إدريس في النـــاس

لقد كان العامل الأهم في مناصرة ومساندة وحب أهل فاس للإمام ادريس أنه كان من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد دام حكم الأدارسة حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس، انتقل أحد أجداده "عبد القوي" الأول في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي بعد سقوطها عام 1492م واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف.[5]

1- محمد علي صلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.س، ص351.

2- أقيمت دولة الأدارسة في المغرب على يد إدريس الأكبر عام [172هـ/788م] وسقطت في عهد اخر ملوكهم "محمد المستعلي" بن إدريس بن علي عام [459هـ/1066م].

3- بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، دار المعرفة، الجزائر، 2008، صص13،14.

4- أبو الحسن علي الجزنائي [ق9هـ]، تاريخ مدينة فاس المسمى بجنا زهرة الاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، مخطوطات الأزهر، رقم:323260، ص14.

5- محمد علي صلابي، كفاح الشعب الجزائري، المرجع السابق، ص351.

وتذكر بعض المراجع ان عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خدة وهي مرضعته كان حاكما لمناطق غريس، عالما مهيبا فقيها تولى الرئاسة بعد موت من خلفهم من أجداده الأدارسة وألف كتبا كثيرة، وتوفي رحمه الله في القرن العاشر للهجرة، وأما جده مصطفى فقد أسس الزاوية القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني،[1] بعد أن زار مدينة بغداد عام 1791م، واشتهرت أسرته بالورع، وكانت قدوة للناس في الجهاد والعلم، وتوفي جده مصطفى بعين "غزالة"[2] 1797م، عند عودته من الحج.[3]

أما عن والد الأمير عبد القادر الشيخ محي الدين، فهو محي الدين بن مصطفى بن المختار الحسين الراشدي الغريسي، درس على يد أبيه مصطفى وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، واشتهر والده بسداد الرأي وغزارة العلم وقاوم ظلم بايات الغرب الجزائري منذ عهد "علي قارة" الذي حكم من عام 1812م إلى 1817م وآخرهم حسن بن موسى الذي حكم من 1827م إلى 1830م.

مما لا شك فيه أن الأمير عبد القادر نفسه افتخر بهذا النسب النبوي الشريف وظهر فخره هذا في العديد من القصائد الفخرية والحماسية التي نظمها في حياته ومطلعها:[4]

أبونـــا رسول الله، خير الـورى طـرا — فمن في الورى يبغي يطاولنا قـــدرا

ولانــــا فدادينــــا وفرض محتمـــا — على كل ذي لب به يأمن الغـــدرا

وحسبي بهذا الفخر من كل منصب — وعن رتبة تسمو وبيضاء أو صفراء

وفي كتابه المواقف راح يمدح في أهل البيت عامة قائلا: "تأمل هذه العناية الكبرى، والمنقبة العظمى، والمنزلة الزلفى، لأهل البيت النبوي، ولفظة أهل تعمهم من أولهم وأخر مولود منهم، حصر تعالى إرادته فيهم بأنها لإذهاب الرجس عنهم، وتطهيرهم منه، وهو الذنب، تطهيرا كاملا مؤكدا بالمصدر، وذلك بأن يكون كل ما يصدر منهم من المعاصي والمخالفات مغفورة لهم بل المغفرة متقدمة لأباءهم معصومون من المخالفات ولا أنه تعالى أباح لهم ما حرم

1- صالح عبد القادر الجيلاني، 470هـ-562هـ/1078م-1167م ولد في جيلان بجبال كركوك شمال العراق استوطن بغداد واعتكف على الدراسة والتعلم والتضلع في الفقه الحنبلي، وألف عدد من الكتب في الأصول والفروع والأدعية، وفي التوسل إلى الله، مال إلى حياة الزهد والتصوف وألف طريقته الصوفية القادرية بعد أن كثرت ألقابه، وانتشرت بسرعة في بلدان المغرب العربي، ينظر: - يحي بوعزيز، الطريقة القادرية والأمير عبد القادر، مجلة مسالك، عدد 33، تصدر عن مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1998، ص21.

- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، ط5، دارالعلم للملايين، بيروت، 1980، ص71.

2- تقع عين غزالة قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا.

3- محمد علي صلابي، كفاح الشعب الجزائري، المرجع السابق، ص352.

4- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري 1807م-1883م، شرح وتق: العربي دحو، منشورات تالة، ط3، الجزائر، 2007، ص45.

على غيرهم من الامة، كلا وحاشا، بل بمعنى أن ذنوبهم تقع مغفورة لهم عناية إلهية،[1] وقد استدل بأية قرانيه حسب قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾.[2] يرى الأمير أن هذه العناية العظمى بأهل البيت النبوي الشريف لم تحصل لهم غلا لقربهم من رسول الله عليه السلام.[3]

لذلك نجد الأمير يجاهد في سبيل الوصول إلى هذا النسب الإرادي الحقيقي ليصبح من أهل البيت الإلهي.

ب. نشأته وبدايات تعليمه وخصاله الخلقية والوطنية:

ب.1. مولده ونشأته التعليمية:

هو عبد القادر ناصر الدين، الإبن الرابع للشيخ محي الدين، بن مصطفى[4] وابن السيدة الزهراء[5] ولد يوم الجمعة 23 رجب 1222هـ/ ماي 1807م،[6] أما في مذكراته الشخصية فيذكر مولده أنه كان في "أحد أو إثنين وعشرين

1- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، إعتنى به الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، ج2، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص64.

2- سورة الأحزاب، الأية 33.

3- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، المصدر السابق، ص65.

4- مصطفى بن المختار الغريسي: هو جد الأمير عبد القادر، أخذ القادرية عن الشيخ عبد القادر المشرفي حين زار بغداد، في طريق الحج، تبرع بماله الخاص لتوسيع ضريح عبد القادر الجيلاني، فأصبح يعرف بزيادة الشيخ مصطفى المغربي عند عودته من الحج، أسس زاوية بوادي الحمام [1206هـ/1791م]، فوظف في زاويته أجل العلماء أمثال شيخه عبد القادر المشرفي، توفي سنة [1212هـ/1798م] عند عودته من حجته الرابعة ببرقة، ودفن بعين غزالة قرب درنة. ينظر:

-يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط1، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1996، صص245،244.

5- السيدة الزهراء: من عائلة أولاد سيدي عمر بن دوخة سبق لها الزواج قبل الشيخ محي الدين، حيث أنجبت ولدا ومات، وأنجبت من محي الدين عبد القادر وخديجة، ينظر:

- Delpech (A), Histoire de hadj Abdelkader, passons cousin hasen ben Ali talib, tradection partielle, in R.A, T20, 1876, p419.

- Azan (P), Les débuts D'Abdelkader, in: bulletin de la société de géographie d'Oran, T XII, 1921, p198.

6- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر ، ج1، المصدر السابق، ص7.

- أحمد كمال الجزائري، المفاخر في معارف الأمير الجزائري والسادة الأولياء الأكابر، راجعه وقدم له فضيلة الإمام محمد زكي إبراهيم، ط1، مطبعة العمرانية الأوفست، الجيزة، 1997، ص19.

- بينما نجد اختلافا في مولد الأمير عبد القادر في بعض المؤلفات نذكر على سبيل المثال، شارل هنري تشرشل يذكر أن ميلاده كان في [ماي 1807]، ينظر:

- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر وتع: أبو القاسم سعد الله ، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2011، ص16.

ويجعلها ناصر الدين سعيدوني في [15 رجب 1222هـ/ سبتمبر 1807م]، ينظر:

- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص155.

ويجعلها إسماعيل العربي 1223هـ/1808م راجع كتابه، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص38. وأيضا: للشيخ العلامة علي بن عبد السلام التسولي في كتابه رسالة في أجوبة على أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري، تح وتع: محمد البنعيادي، تق: محمد أبياض، ط1، مطبعة ووراقة بلال، فاس، المغرب،2014، ص96.

ومائتين وألف من قرننا هذا"،[1] ولد بالقيطنة[2] على ضفة وادي الحمام. في منطقة أغريس[3] التي تقع في إقليم وهران في الجزائر،[4] أو كما ذكرها في مذكراتها أنها تقع في الجهة الغربية على مرحلة من أم معسكر [معسكر][5].

نشأ الأمير في رعاية والده "محي الدين" الذي كان شيخا للطريقة القادرية، يذكر تشرشل أن "عبد القادر" كان موضعا خاصا لحب والده، حتى عندما كان في الرضاع، وكان والده يأخذه في حضنه، وكان الطفل يتطور بسرعة فائقة فملكياته العقلية كانت تدل على نبوغه العقلي غير عادي، فكان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره[6] وأصبح

1- الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص50.

2- قرية على بعد 18 كم من مدينة معسكر، مقر أسرة الأمير عبد القادر، اختطها جده مصطفى بن المختار سنة 1206هـ/ وعرفت أنذاك إشعاعا دينيا وثقافيا معتبرا بفضل زاويتها القادرية الشهيرة [زاوية القيطنة]، وقد هدمها بيجو في سبتمبر1841م، وهي اليوم بلدية تابعة لدائرة بوحنيفية ولاية معسكر ينظر:

- المصدر نفسه، ص48.

3- يعتبر غريس من بين أهم وأوسع السهول الزراعية الخصبة في الجزائر وشمال افريقيا، وتقع شمال جبال سعيدة وجنوب مدينة معسكر، وترتفع 500 متر سطح البحر، وسهل غريس من سهول الوطن الراشدي، سمي كذلك لأنه كان مغروسا بأنواع الأشجار ذوات الثمار، وسكانه هم بنو زروال، وبنو توجين، ومغراوة والوطن الراشدي عاصمتهم معسكر، غرب الجزائر، يحده شرقا جبل المناور، وغربا جبل كرطوس، وجنوبا جبل البنيان، وشمالا جبل القلعة.

لما كان الفتح الإسلامي ودخل المسلمون إفريقيا عمدت الكاهنة لإحراق الأشجار وهدم الديار ليقف تيار العرب عن التوغل في البلاد لما بها من الخراب والفساد. يقول الغريسي في هذا الصدد: "ووطئ العرب هام صياصيها وقبضوا على نواصيها...وأصبح غريس وليس به من العمارة اسم، ولم يبقى بعيد أهله إلا الاسم، وحسب بعض المصادر أن سهل غريس كان مشيدا بثراء المنطقة الفلاحي وشهرة منتوجاتها وكثرتها، ينظر:

- أبي زيد عبد الرحمان بن عبد الله التويجني، المصدر السابق، ص8.

- أحمد توفيق المدني، جغرافيا القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، سانديكا دينسيانيف، الجزائر، 1948، ص25.

-الطيب بن المختاري الغريسي، القول الأعم في بيان نسب قبائل الحشم، المطبعة الخلدونية، تلمسان، 1961، ص371.

- بلهاشمي بن بكار، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ، مطبعة بن خلدون، تلمسان، الجزائر، د.ت، صص 34،33.

- أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ص44.

-الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص26.

4- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص61.

-ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص155.

- دينيزين، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، تر وتق، أبو العيد زوزو، دار هومة، الجزائر، 2003، ص20.

- عادل النويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة النويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1980، ص103.

5- معسكر تبعد عن وهران بحوالي 95 كلم بالجنوب الشرقي، وهي من المدن الهامة بالغرب الجزائري، ومن أقدمها في معرفة العمران البشري، كانت قرية صغيرة، ونظرا لموقعها الإستراتيجي إتخذها الرومان مقرا لجنودهم، وظلت ضمن خطوط الدفاع المعروفة ب"الليمس"، وأطلقوا عليها إسم "كاسترانوفا، أي القلعة الجديدة، وفي القرن 6هـ (12م) جعلها الموحدون قلعة عسكرية، ثم صارت عاصمة الإقليم في عهد الباي "مصطفى بوشلاغم"، وإستمرت مركزا لبايلك الغرب إلى سنة 1791م. وبعد إستيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر سنة 1830م، عرفت المدينة مرحلة جديدة في تاريخها بدخول أهلها في المقاومة بقيادة الشيخ "محي الدين" والد الأمير " عبد القادر"، وبعد مبايعة هذا الأخير دخلها ونزل في دار الحكومة، فأصبحت المدينة حاضرة لإمارته، وبقيت هكذا إلى أن استولى عليها "كلوزيل Clauzel" في 6ديسمبر 1835م، فأحرقها ثم غادرها، فرجع الأمير إليها، واستأنف منها نضاله، وبقيت العاصمة السياسية للإمارة حيث يقيم قنصل فرنسا، إلى أن ارتحل عنها الأمير نهائيا. ينظر: -الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص47.

6- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص61.

طالبا في سن الثانية عشر من عمره، تعلم الفقه وتلقى تعليمه الأولي في كتاب زاوية أسلافه بالقيطنة،[1] عن أبيه وبعض شيوخ الزاوية في مدرسة جده الغريسي، فنشأ بذلك في بيت علم وتقوى وفي بيئة دينية متعلمة ومحافظة،[2] فأجاد حفظ القرآن جيدا وهو في سن الثانية عشر من عمره وفي فترة وجيزة،[3] واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغوية، واكتسب معارف أوسع في العلوم الإسلامية[4]، فأخذ التفسير والحديث والفقه والنّحو وأصول الدين عن والده وهو أخذ عن والده أيضا ووالده أخذ عن الشيخ العالم لمسائل الفقه السيد عبد القادر المشرفي، وأخذ أيضا النحو وجوهرة البيان عن بعض علماء وهران كالسيد مصطفى بلهاشمي واخذ جملة العلوم التي حصلها أو جلها عن جملة من الفاسيين كالعلامة أبي حفص عمر الفاسي والمسناوي وأبي علي الحسن بن رحال، أما العلوم النقلية والعقلية فأخذها عن فقهاء فاس وفضلائها.

هكذا نجد أن الأمير قد أخذ العلم من أشياخ جمة وبهذا كان واسع الثقافة في مختلف العلوم وفروع الأدب وعلوم القرآن والتفسير، وكان متمكنا من التراث العربي والحضارة الإسلامية.[5] ويذكر ناصر الدين سعيدوني أيضا أنه في سن الخامس، عشر من عمره إرتحل إلى أرزيو ليدرس على يد قاضيها الشيخ"أحمد بن الطاهر"،[6] قبل أن يتحول إلى مدينة وهران وينسب إلى مدرسة "أحمد بن خوجة"[7] المخصصة لأبناء الأعيان، حيث قضى فيها ما يقرب من سنة، ووسع معارضه اللغوية ومعلوماته الفقهية، وصقل ملكاته الأدبية والشعرية،[8] وقد حصل على تسمية [حافظ]، وذلك يعني أنه أصبح قادرا على ترتيل القرآن عن ظهر قلب، ثم سافر إلى الزيتونة بتونس، ودرس الحديث والفقه [صحيح البخاري ومسلم] ونهل الفلسفة من مصادرها في وهران مثل [رسائل إخوان الصفا][9] و[فلسفة أرسطو وإيساغوجي في المنطق

1- عبد الحميد حاجيات، الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، عدد خاص، الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر 1883م-1983م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983، ص81.

2- عبد الحميد شعابنة، الأمير عبد القادر المجاهد المثقف والسياسي الفارس، مجلة أول نوفمبر، عدد165، الجزائر، 2001، ص27.

3- زيدان جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص199.

4- عاشور شرفي، معلمة الجزائر، القاموس الموسوعي، نقله إلى العربية عبد الكريم أوزغلة وآخرون، تنسيق: مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، 2006، ص1016.

5- الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، صص 52،53.

6- أحمد بن الطاهر الرزيوي، قاضي أرزيو، أصله من مدينة أرزيو، تولى القضاء لدى الأتراك بوهران ودرس على يده الأمير عبد القادر في صدر شبابه، عندما فرض عليهم الباي حسن الإقامة الجبرية، لكن بعد تولي الأمير الإمارة قدّمه للمحاكمة وأعدمه في مدينة معسكر بعد أن ثبت تعامله مع الفرنسيين، ينظر:
- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، المرجع السابق، ص210.

7- مدرسة أحمد بن خوجة: أصل صاحب هذه المدرسة من مستغانم إستوطن وهران وأنشأ بها مدرسة للأعيان ونشط في الكتابة حيث كتب [دار الأعيان في أخبار وهران] وتتلمذ على يده الأمير عبد القادر وغيره من أبناء الأعيان. ينظر: - المرجع نفسه، ص210.

8- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص156.

9- إخوان الصفا: من أهم الجماعات الفكرية التي ظهرت في تاريخ المسلمين الفكري والسياسي، ظهرت في البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع هجري العاشر ميلادي [373هـ/ 983م]، وكانت سرية التنظيم لها فروع في بغداد. ينظر: - الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر، ط2، مجلد1، الرياض، 1999، ص361.

وفيتاغورث]، وأخذ العلوم عن عدد من شيوخها مثل الإتقان في علوم القران، والعقائد النفسية في التوحيد، كما تلقى الألفية في النحو، في الوقت الذي أعزم بمؤلفات الشيخ "محي الدين بن عربي".[1]

ولما توافر للأمير العلم الشرعي والعقلي، وانتظمت لديه البلاغة والفصاحة، وبدأ يضع قدما راسخة في الشعر عاد إلى بلدته في السابعة عشر من عمره، ثم زوجه أبوه بلالا خيرة ابنة عمه سيدي علي بن أبي طالب.[2]

لقد كان طموح الأمير عبد القادر أكبر في شبابه بأن يصبح مرابطا مثل والده الذي كان يحبه ويتحمس له تحمسا بلغ حد العبادة، فنلاحظ الطابع الأسطوري لظهور الأمير بدأ منذ نعومة أظافره فقد كانت تظهر عليه علامات خاصة ميزته عن جميع إخوته مما جعل والده يوجه له عناية خاصة وظهرت هذه العناية في الثقافة والتوجيه، فكان يراقب ابنه عن كثب ويتوسم فيه علامات غامضة، ثم أن نبوغه العلمي دون إخوته واهتمامه بالفروسية والصيد وزواجه المبكر وانتمائه إلى قبيلة بني هاشم العربية وإلى عائلة المرابطين،[3] وغيرها من العناصر هي التي ساهمت في تكوين شخصيته وتقويتها، كما ساعده نسبه الشريف والعريق وثقافة أسرته على الإبحار في العلوم العقلية والنقلية.

أما عن نضج الأمير عبد القادر، يضاف إليه الحسب والنسب الشريف، والحج والوسامة والورع، فقد اشتهر في سن السابع عشر من عمره بشدة البأس، وقوة البدن والفروسية[4] حتى كان يشار إليه بالبنان وسط الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها،[5] فبرز بذلك على جميع أقرانه فصار عالما فاضلا وفارسا مدربا جمع بين السيف والقلم[6] وكان دائما لا يغفل عن واجباته الدينية، وفي عام 1821م انتقل إلى وهران مع والده محي الدين الذي وضعته الحكومة التركية هناك تحت الإقامة الجبرية بسبب أن الأهالي كانوا ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير، بل وبلغ بالمتحمسين لأفكاره أن اعتبروه زعيمهم الشجي القادر على مجابهة الأتراك وتخليصهم من حكمهم الجائر، وهناك في وهران استطاع

1- حسين جمعة، التجربة النضالية الوطنية للأمير عبد القادر الجزائري، مجلة التراث العربي، عدد 117-118، شهر أذار/ حزيران، سنة 2010، ص14.

- محي الدين بن عربي: (560هـ/1165م-638هـ/1240م) محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله ابن العربي، أبو عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر من أئمة العلماء في كل فن وعلم. تآليفه تعد بالمئات أغلبها في التصوف، ولد في مرسية. ينظر:

- عبد الباقي مفتاح، بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي، تق: عبد الإله بن عرفة،دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2011، صص12،13.

- زيدان جرجي، تراجم مشاهير الشرق، المرجع السابق، ص163-168.

2- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص156.

3- رابح تركي، من أعلام الجهاد الإسلامي في الجزائر، الأمير عبد القادر وأثر البيئة والتربية التي نشأ فيها في تكوين شخصيته، مجلة الثقافة، العدد88، السنة 15. جويلية. أوت1985، ص118.

4- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص36،37.

5- زيدان جرجي، تراجم مشاهير الشرق، المرجع السابق، ص199.

6- لقد كان للأمير عبد القادر مؤلفات منها: - المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد ردا على الطاعنين في مبادئ الإسلام. — ذكرى العاقل وتنبيه الغافل— المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، وله رسائل أخرى وإجابات عن أسئلة في مختلف الأغراض وشتى العلوم والفنون.

أن يضيف إلى ثقافته الأولى معارف أخرى من علمائها، واستطاع أن يصل إلى حقيقة هامة، تتمثل في ضعف الأتراك السياسي والعسكري، مع اتساع استغلالهم للطبقات الشعبية الكادحة.[1]

ولما أفرجت الحكومة التركية عليه وعلى والده، أذنت لهما بأداء فريضة الحج، ففي نوفمبر 1825م اتجه مع والده إلى الحرمين لأداء فريضة الحج فمرا بحاشيتهما بالإسكندرية وزارا القاهرة، ومنها قصدا الحجاز عن طريق السويس وعرجا بعد الحج نحو دمشق، وسار منها إلى بغداد لزيارة مقام سيدي عبد القادر الجيلاني[2] فنالا كل الرعاية والإكرام، ثم غادرا بغداد نحو دمشق من جديد ومنها إلى الحرمين ثانية حيث أديا مناسك الحج مرة ثانية ومنها إلى وطنهما فوصلاه في أوائل عام 1828م بعد غياب دام أكثر من سنتين.[3]

وبعد عودتهما من الحج كان "عبد القادر" قد قطع عهدا على أن يلتزم عزلة دينية، حيث لم تظهر أمامه أية رؤى لعظمة انسانيته، ولم تخالج صدره أية مطامع دنيوية، فقد أعطى كل وقته إلى الدراسة المتواصلة المتأنية، وما من ناسك استطاع أن يقطع بعناية كل صلة بينه وبين الإنسان مثل ما فعله عبد القادر،[4] الذي فهم بفضل ذكائه الحاد ورحلاته الطويلة أن النظام والتنظيم المحكم هما من الضرورة بمكان لكل مؤسسة تريد البقاء، والدليل على ذلك هو تنظيم جيش الخديوي "محمد علي"، وكل ما تمكن من تحقيقه بفضله وهذا ما أدى به منذ أن بويع للإمارة كان همه الأول كقائد، هو أن يملك جيشا عصريا بغية التمكن من توحيد القبائل التي لم تكن بينها أي اتصال.

1- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص41.

2- سيدي عبد القادر الجيلاني: هو محي الدين أبو عبد القادر الجيلالي الكيلاني الجيلي، ولد في جيلان بقرية نيف قرب بغداد عام 476هـ/1079م من أصول شريفة وأبوين فقيرين لكنهما من بيوت علم وفقه، وأخذ في بغداد العلم الظاهر بسائر فنونه على جماعة من الأعيان توفي سنة 11 فيفري 1166م ودفن بمدرسة بغداد في يومه، نجد إنعكاسه راسخا فيما بعد في نفس الأمير عبد القادر، اشتهر الصالح (عبد القادر الجيلاني) بجهاده في القرن الثاني عشر، وكان له مقامات أثرية تذكارية في معظم بلاد المشرق، وقد نسجت حكايات كثيرة عن كراماته، ويذكر أن (مصطفى بن المختار) جد عبد القادر، قد زار أكثر من مرة ضريح (عبد القادر الجيلاني)، وأجازه الشيخ مرتضي الزبيدي، كما زاره محي الدين وولده عبد القادر عند عودتهم من الحج. للمزيد ينظر:

- عبد القادر الجيلاني الحسني، السفينة القادرية، تع: عبد الجليل عبد السلام، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص5.

- عبد القادر الجيلاني، سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تح: خالد محمد عدنان الزرعي، محمد غسان نصوح عزقول، دار السنابل، ط3، بيروت، 1994، ص32.

- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص24.

3- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، المصدر السابق، صص96-101.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص68-70.

4- المصدر نفسه، ص71.

ب.2. خصاله الخلقية والوطنية:

لقد حظي الأمير عبد القادر بوصف العديد ممن اتصل بهم أو تعرف إليهم أو تعامل معهم، فكانوا في مجملهم يشيدون بخصاله ويفتخرون بسجاياه ويقدرون موقفه ويعتزون ببطولاته، فبمعرفتنا لملامح شخصيته يمكننا أن نتعرف على أبعادها وعلى سر نجاحها.

فقد كان مربوع القامة، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كثيف اللحية فاحمة السواد، أقنى الأنف، أشهل العينين حركتها تتعارض مع الوقار المعتاد لرأسه، أضبط، بحيث يستعمل يساره لأداء ما يمكن عمله بيمينه، متواضعا في مشيته، جهوري الصوت، قوي اللهجة، أجش النغم، وكان يتصف بالبشاشة والتأدب ولين الطبع، ويفضل الإبتعاد عن مظاهر التكلف والفخامة والأبهة، ويميل إلى حياة التقشف والبداوة، وكان يكره الجشع والتقشف،[1] ويقلل من الأكل وقد يقنع بشيء من الحليب والسويق.[2]

أما ثيابه فكانت في منتهى البساطة فهي أقل جمالا من ثياب بقية الشيوخ، وكان يرتدي عادة حائكا أبيض ويلبس فوقه برنوسا مصنوعا من شعر البعير، ومن الصعب أن يصل الإنسان إلى معرفته بين جمع غفير من العرب، غير أن سلاحه وسرجه يمتزان بنوع من الفخامة.[3]

أما فيما يخص تصرفاته ومعاملاته، فقد جمع فيها بين أخلاق العالم وتصرفات البطل وسلوك زعيم الجماعة، وشيخ الطريقة عن سجية وفي تواضع وبدون تكلف، فقد كان متمسكا بتقاليد أسرته، معروفا بطاعته لوالديه، لدرجة أنه عندما كان يسافر مع والده بالمشرق لأداء فريضة الحج فإنه كان يحرص دائما على خدمته بنفسه بالرغم من كثرة الخدم الذين كانوا معه،[4] كما أنه كان صبورا على الجهاد، صبورا على وفاة ابنه، صبورا أثناء سجنه ونفيه إلى فرنسا وهذا ما زاده إيمانا بقدر الله تعالى لم يظهر فجرا ولا تأوها ولا ترك صلاة،[5] أما صبره خلال مرض وفاته عام 1883م، فكان صبر المؤمن المحتسب، ولا نزكي على الله أحدا، كان مشتغلا بالمراقبة والذكر، يقول عنه هنري تشرشل أنه لا يحب الثروة

1- ينظر: - أدريان بيربروجير، مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة 1837م-1838م، تر وتع: سعد الله أبو القاسم، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الطباعة العصرية، الجزائر، 2006، صص100،101.

- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، صص180،181.

2- السويق: وهو الدقيق المطهي مع شيء من الماء والملح. ينظر: - بسام العسلي، الأمير عبد القادر، دار النفاس، ط2، بيروت، 1983، ص18.

- إسماعيل العربي، الأمير عبد القادر مؤسس دولة وقائد جيش، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1984،صص8،9.

3- أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830م-1855م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 1975، ص55.

4- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1982، ص317.

5- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ط2، بيروت، 1964، ص856.

ولا الغنى، فهو يعيش بكل بساطة وقناعة، فهو يلبس دائما ثيابا بسيطة، وكل الهدايا التي تحضر إليه يرسلها إلى الخزينة العامة لأنه لا يخدم نفسه بل يخدم الدولة.[1]

لقد كان الأمير فارسا بالسيف والقلم، فهو حسب تعبير أبو القاسم سعد الله، أنه سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وسطر بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية،[2] وهو في كل أعماله الحربية ومواقفه الجهادية يتمثل بأبطال العرب والإسلام، ويستوحي سيرته ويقلد مأثره، فهو رجل علم وجهاد، بذل كل ما في وسعه من أجل أن يجعل الأمة الجزائرية أمة واحدة تعمل بتعاليم الإسلام، فقد سعى جاهدا من أجل بعث الروح الوطنية في الأمة الجزائرية من خلال تحريض الناس على الجهاد، وقد اتفقت معظم روايات القادة الفرنسين الذين عرفوه أنه يعمل على بعث قومية عربية في عهد انبعاث القوميات في أوربا، فكان القادة الفرنسيون يخشون من انتشار هذه الفكرة، فمن الأفكار التي سيطرت على سيرة الأمير فكرتا الوطنية والقومية، ونعني بالأولى: محاولة الأمير بعث الروح المعادية للسلطة الأجنبية التي احتلت البلاد وإثارة الناس بخطاب تتردد فيه عبارات "بلادكم، أرضكم، دينكم، نسائكم..."، وفي هذا إشارة أن هذا العدو يريد أن يعتدي على شرف هذا الوطن وشعبه وكرامته، والتوجه إلى كل القبائل والزوايا ومختلف الجهات.

يقول تشرشل: "...تقدم الأمير عبد القادر إلى بني وطنه بفكرة بسيطة وعظيمة في نفس الوقت، وهي فكرة قومية عربية، ورغم أن هذه الفكرة قد تظهر في بادئ الأمر بعيدة المنال ولا يمكن أن تقدرها سلالة اعتادت منذ قرون على مد رقابها...من بين مئات القبائل التي تقطن الجزائر بعضا على الأقل ستوقظ فيه الفكرة القومية رد فعل إيجابي...".[3]

وصل خطابه إلى أعماق الشعب الجزائري، وحرك نداؤه ضمير الأرض، فأعد شعبه لمواكبة المؤسسين الثابتيين والمضحين، لأنه المنبر للتعبئة والتجنيد والتربية للإنسان الجزائري في البذل والتضحية، وتذكيره بواجباته وحقوقه من أجل قيم إنسانية ومن أجل الوطن، وها هي ذي أبيات شعرية سجلها الأمير عبد القادر في العديد من قصائده والتي نقتطف منها هذه الأبيات المعبرة عن روح الشجاعة والإقدام التي واجه بها الفرنسيين.[4]

لهم همم سمت فوق الثريـــا ... بهم ترقى المــكارم والخصـــال

لهم لسن العلوم لها احتجاج ... وبيـــض ما يثلمـــها النـــزال

سلوا تخبركم عنا فرنـــــسا ... ويصدق إن حكت منها المقال

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص192،193.

2- أبو القاسم سعد الله، السيرة الذاتية للأمير عبد القادر، ضمن كتاب أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص180.

3- شارل هنري تشرشل ، المصدر السابق، ص10.

4- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص47.

فكم لي فيهم من يوم حرب **بـه افتـخر الزمـان ولا يـزال**

وقال أيضا:[1]

اذا مـا لقيـت الخيل إنّـي لأول **وإن جال أصحابي فإني لها تـال**

دافـع عنهم ما يخافـون من ردى **فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي**

وأورد رايـات الطعـان صحيحة **وأصدرها بالرمي تمثـال غربـال**

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي **وبي يحتمي جيشي وتحرس أبـطالي**

وبي تتقي يوم الطـعان فـوارس **تخالينهم في الحـرب أمثال أشبـال.**

هذه هي خصال الأمير عبد القادر الجزائري، الذي طالما امتاز بحذاقته ورزانته، وحسن رأيه وتدبيره، وميزان أقواله وأفعاله، وترتيبها فيما يناسب الناس خاصة وعامة وما يليق بمنازلهم كبارا وصغارا ومواساة ومعاملة وإحسانا بطيب القول ولين الكلام وخفض الجناح، فلقد كان من ذلك بالمكان الأعلى والحظ الأوفى يتعجب المريدون الوافدون أفواجا لزيارة والده من ذكاء ذهنه وجودة قريحته وسعة أخلاقه بأحوال الضيف إكراما وتسليما وإعلاما.

ج. رحلة الأمير عبد القادر مع والده إلى الحج وأثرها على شخصيته :

ج.1.رحلاته إلى بلاد المشرق وأخذه عن علمائها:

غادر محي الدين وولده عبد القادر بسرعة في ربيع الثاني 1241هـ/1825م قاصدين مكة المكرمة لأداء فريضة الحج بعدما وصلا تونس براً،[2] مارين بالمدية وقسنطينة، وفي تونس تعرف الأمير إلى الفقيه أحمد المازري ووكيل المغاربة الحاج الحرشي،[3] وهناك انضما إلى وفد من الحجاج تعداده ألفي حاج، كانوا ينتظرون تحسن الطقس ليقلعوا إلى الإسكندرية،[4] بعد رحلة بحرية شاقة استغرقت حوالي تسع عشر يوما وصولا إلى الإسكندرية مع حاشيتهما فزاروا معالمها ووقفوا عند مقام أبي العباس المرسي، وابن عطاء الله وأبي الحسين البصري صاحب المدائح النبوية،[5] ثم انتقلوا إلى القاهرة وحظوا بضيافة الولي الفقيه محمد سعيد القاندي في داره التي كانت تجتمع عنده أجلة العلماء ورؤساء الدول في كل وقت، ثم مشو لزيارة معالم القاهرة، فزاروا أهل القرافة الكبرى والصغرى، وترددوا على مساجد الحسين رضي الله

1- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص49.

2- نزار أباضة، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 1994، ص10.

3- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص157.

4- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص68.

5- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، المصدر السابق، ص99.

عنه، والإمام الشافعي، والجامع الأزهر، وتعرفوا على بعض علمائها المحققين، أمثال الشيخ الميلي، والشيخ فراج، والشيخ محمد بن الأمير، وأمثالهم.[1]

ويذكر هنري تشرشل أن الأمير عبد القادر التقى بمحمد علي والي مصر، وأعجب بتلك الإصلاحات التي أدخلها على القاهرة، فراح يتأمل في هذا الجندي الناجح، ونظر إليه بدقة، ولم يدرك أنه سيتبع يوما من الأيام خطاه ويفوقه في المهارة العسكرية والقدرة الإدارية.[2]

كان محمد علي قد استقبلهما بكثير من الحفاوة والتكريم، وأحلهما محلا رفيعا،[3] فكان لوضع البلد العصري والإصلاحات التي بادر بها هذا الأخير أي "محمد علي" وقعا كبيرا في نفس الأمير.[4]

بعدها تحول مع مرافقيه إلى السويس فركبوا البحر نحو جدة وأدوا فريضة الحج، ثم صاحب الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر ركب الحجيج إلى المدينة المنورة لزيارة الحضرة النبوية الشريفة، ومنها سارا إلى بغداد عن طريق دمشق لتعذر الذهاب إليها مباشرة، عن طريق الدروف، كما وصفه ابن التهامي في سيرة الأمير عبد القادر: وذلك بكثرة اللصوص المنتهبين وعدم اجتياز السيارة مع قبائلها في البر، ولكونهم لا ينالهم حكم سلطان ولا خوف،[5] وقد مكثا في دمشق عدة أشهر، وقام بالتعرف على العلماء وحضور حلقات الدروس العلمية ومجالس المشاهير وكبار العلماء في المسجد الأموي[6] والإلتقاء بكبار المتصوفة،[7] فقد كان يقضي مع والده جل وقتهما في الجامع الكبير دائبين

1- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، صص180،181.

- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، المصدر السابق، ص99.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص68.

- عبد الرحمان خليل البربير، الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الكشافة اللبنانية، المجلد الثاني، الجزء التاسع، بيروت، 1928م، ص554.

3- صالح بن النيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، ص18.

- زيدان جرجي، تراجم مشاهير الشرق، المرجع السابق، ص198.

4- سعيد بوطرفة، الأمير عبد القادر حكم زمني وسلطة روحية، رجل، قدر، رسالة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2013، ص10.

- إن كنا لانجزم بأن "عبد القادر" إستخلص شيئا من التجربة التحديثية المصرية إلا أن الإحتمال غير مستبعد، فسيرته اللاحقة الذكر تؤكد على بعد نظره وحسن تقديره لضراوة العصر، كما أن إعجابه بمظاهر التمدن الأوروبي، لم يقترن بأي تنازل عن الإيمان بتفوق العقيدة الإسلامية، فعبد القادر الذي كتب "ذكر العاقل"، هو ذاته الذي دافع عن (شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، المشتملة على محاسن الأخلاق ومحامد الأداب، وكل مايكون به الوفاق والإئتلاف بين العباد، وتصلح به المعيشة الدنيوية وتعمر به البلاد)، وهو نفس "عبد القادر" الذي وضع كل ثقله المعنوي لدعم مشروعه "فرديناند دي ليسبس" لحفر قناة السويس ثم لربط منخفظ الجريد في الجنوب التونسي بالبحر. ينظر: - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص50،51.

5- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، المصدر السابق، ص101.

6- المسجد الأموي، مسجد بدمشق، شيده الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك [86-96هـ/705-715م]، وكان قبل كنيسة كرست ليوحنا المعمدان، وهو يعتبر من آيات الفن المعماري العربي وهو شهير بفسيفسائه الرائعة. ينظر:

- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المرجع السابق، ص40.

7- أحمد درويش، في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للابداع الشعري، الكويت، 2000، ص152.=

على القراءات الدينية،[1] وقد قرأ الحديث وصحيح البخاري،[2] على الإمام المحدث عبد الرحمان الكزبري،[3] كما التقى عبد القادر الشيخ خالد النقشبندي[4] الشهرروردي[5] بدمشق، صاحب الطريقة النقشبندية،[6] وكان يكثر التردد إليه، فسمع منه علوما شتى في والتصوف.

ثم سافر إلى بغداد، واستقر المقام بهما فيها، مدة شهرين، زار أثناءها مقام صاحب الطريقة القادرية[7] وشيخ الصلحاء وقطب الأولياء عبد الرحمان الجيلاني، والكيلاني، وتعرفا إلى وكيل الضريح نقب الأشراف الشيخ محمود القادري شيخ السجادة القادرية، وخليفة السيد عبد القادر الجيلاني،[8] وهناك أخذ عبد القادر الإجازة بالطريقة القادرية من يده،[9]

=- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، ص42.

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 69.

2- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ص11.

3- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص69.

- بسام العسلي، الأمير عبد القادرالجزائري، المرجع السابق، ص24.

- أبو المحاسن وجيه الدين عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان الكزبري، [1184-1262هـ/1771-1846م] الدمشقي الشافعي، عالم محدث ولد بدمشق وتوفي بمكة حاجا في 19 ذي الحجة. ينظر: - الزركلي، الأعلام، ج4، المرجع السابق، ص110.

4- أحمد كمال الجزائري، المفاخر، المرجع السابق، ص19.

5- أبو البهاء، ضياء الدين مولانا الشيخ خالد بن أحمد بن حسين الشهرروردي الكردي [1193-1242هـ/1779-1827م]، السلفي العقيدة، الشافعي المذهب، النقشبندي طريقة ومشربا، القادري الشهرروردي الكبروي اجازه، ولد بقصبة قرة طاغ [من بلاد شهرزور]، هاجر إلى بغداد ورحل إلى الشام حيث توفي بدمشق، ودفن في سقح جبل قاسيون، برع في الحديث والفقه والكلام والأصول والتصوف والمناظرة والحكمة والحساب والهندسة، من أثاره "العقد الجوهري في الفرق بين كسب الماتريدي والأشعري" و"الرسالة الخالدية في أداب الطريقة النقشبندية" وديوان الشعر وجمعت رسائله في كتاب سمي "بغية الواجد في مكتوبات مولانا خالد". ينظر: - الزركلي: الأعلام، ج2، المرجع السابق، ص334.

6- الطريقة النقشبندية: تنسب الطريقة إلى الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد البخاري المعروف بشاه نقشبند ولد سنة 718هـ/1318م بقرية صغيرة بالقرب من بخارى وتوفي 791هـ/1384م. والنقشبندية كالشاذلية من أقرب الطرق وأسهلها على المريد الوصول إلى درجات التوحيد، وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهرا وباطنا، مع كمال الإلتزام للسّنة، وتمام الاجتناب عن البدعة والرخصة في جميع الحركات والسكنات.

ينظر: - أحمد توفيق عياد، التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1970، صص297،298.

- عبد المجيد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، تصحيح: عبد الرزاق عبد الله، دار آراس للطباعة والنشر، ط2، أربيل، العراق، 2002، صص7،8.

7- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص69.

- الطريقة القادرية: هي من أقدم الطرق تأسيسا وظهورا على العالم الإسلامي تنسب إلى عبد القادر الجيلاني التي اتسعت صمعته في كل بلاد الإسلام وهو مؤسس هذه الطريقة. ينظر: - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المرجع السابق، ص110.

- Rinn (L), Marabouts et Khouan, étude sure l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan libraire Ed, Alger, 1884, p177.

8- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص157.

- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، المصدر السابق، ص118.

9- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المرجع السابق، ص40.

كما لقيا استقبالا حارا كريما من قاضي المدينة السيد "محمد الزكريا" الذي كان ينحدر بدوره أيضا من الولي الصالح الجيلاني، وقدم محي الدين كيسا من الذهب على ما جرت عادة المرابطين تجاه إحياء ذكرى هذا الرجل الصالح الذي لا يشك أحد من المرابطين بكرامته وبعد إقامة في بغداد دامت ثلاثة أشهر، عاد إلى دمشق من جديد، ومنها إلى مكة والمدينة المنورة، حيث أديا مناسك الحج والعمرة مرة ثانية، ومنها سافرا مع الركب الحجازي نحو العقبة فمحطة النخيل بسيناء، ثم القاهرة حيث صادفا وصولهما إليها إقامة الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف واجتمعا بعلمائها وفضلائها وجمع أمهات الكتب،[1] ومنها ذهبا إلى برقة، فاجتازا العقبة وزارا قبر والد الشيخ محي الدين بعين غزالة قرب درنة، ثم اجتازا الجبل الأخضر بإقليم برقة ومرا على بني غازي ومنها واصلا طريقهما غربا فتوقفا بمصراته حيث وقفا على مقام أحمد زروق البرنسي، ومنها إلى تاجورة فطرابلس الغرب ثم قابس والقيروان والكهف،[2] مع العلم أنهما عندما ارتحلا في طريق العودة، نفذت مواردهما فكان لابد لهما من إكمال الرحلة على نفقة إخوانهم المسلمين الحجاج مثلهما والذين كانوا عائدين من أداء الفريضة،[3] وانتهت الرحلة بالوصول إلى القيطنة، بعد غياب استمر أكثر من سنتين وكان ذلك في بداية سنة (1243هـ/1828م)،[4] وعرفت المنطقة احتفالات وولائم لم تشهدها من قبل، فقد توافد كل عرب وهران ووفود تمثل القبائل الصحراوية بزيارة "سيدي بن هاشم" وتهنئته بالحج والعودة بالسلامة.

ما يمكننا قوله عن رحلات الأمير عبد القادر إلى الحجاز، وزياراته العلمية التي قام بها والتي زادته حنكة ودهاءا وتفطنا وربما يعود الفضل في ذلك لوالده "محي الدين" الذي كان يؤمن ابنه في الشغوف والتحمس لطلب العلم والإطلا ع، فقد جاء "محي الدين" لرسم طريق ابنه من أوسع الأبواب، وبدئها بتعليمه علوم القرآن بعد أن أقام زاويته التي تعمل على التطبيق العملي للمنهج الصوفي، فتمكن ابنه أن يجمع بين العلم والطريق على مذهب الجيلاني، وتعلم بذلك ما يبلغ نظراؤه في بيئته أن يتعلموه من القرآن والحديث ومصطلحه وبالتالي التراجم والسير والتاريخ وغيرهما، وبفضل والده اكتمل رشده بعد أن حصل على السياسة الأدبية بالوطن، وحاز الرئاسة العملية...وفي كل لحظة تقر عينه بمناقب فعل ابنه وأخلاقه ونبله،[5] ولم يكتفي عند هذا الحد فقد ارتحل إلى الضواحي العقيقية والمجازية ليتمرن من كل بلد يمر به بمناقب أهله، وهكذا أتاح له والده فرصة دامت ثلاثة أعوام، عمق فيها خبرته وتجربته، وعلا منزلته، بقراءة الكتب والآثار والأخبار ووجود العلماء ومؤلفاتهم وإجازاتهم.

1- أحمد درويش، في صحبة الأميرين، المرجع السابق، ص152.

2- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، المصدر السابق، صص120-124.

- الكهف: يقصد بها مدينة الكاف التونسية قرب الحدود الشرقية للجزائر.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص70.

4- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، ص43.

5- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص106.

ج.2. أثر الرحلة على نفسية الأمير عبد القادر:

لقد أتاحت هذه الرحلة المشرقية فرصة الإطلاع بالنسبة للأمير عبد القادر على أوضاع البلاد العربية، وسير حياتها في الحكم والإدارة ومختلف الميادين، السياسية والاجتماعية والعمرانية،[1] فقد عاد من هذه الرحلة مزودا بالكثير من التجارب والأفكار في مجالات المعرفة والإصلاح، فكانت أفكاره متجهة إلى التطوير المعرفي، لذاته ولمن حوله، خاصة بعد لقائه بعلماء المشرق في مصر وسوريا والحجاز والعراق، كما أدرك أيضا أهمية توافر المكتبات الغنية حول المتعلم والباحث،[2] فلم يزدد بعد هذه الرحلة إلا شغفا بالتحصيل العلمي فقد تمنى أن يصبح أحد علماء التدريس المستحقين للثناء بعدما جالسهم بتونس وقد عبر على إعجابه الشديد بهم، فقد كانت لهذه السياحة الوقع الكبير في نفس الأمير خاصة بعد التقائه بشخصيات مرجعية على المستوى الروحي، وكذا اكتشافه لأماكن مشبعة بالرمزية، ورجالا يمثلون خزائن علمية حقيقية، أخرجته من دائرة العلوم اللغوية والدينية إلى دائرة معرفية متكاملة، والتي ساهمت في تشكيله لنواة مكتبة هامة، والتي تعد من أثمن مكتبات هذه الأيام، وهي التي سوف يتوسع فيها عندما يتول الإمارة، ليشكل منها نواة مدينة علمية في "تقدمت" والتي كانت واحدة من مشروعاته لإنشاء جامعة ومكتبة مركزية والتي تحتوي ما يزيد عن خمس مائة كتاب من أمهات الكتب والمجلدات لولا أن الفرنسيين قاموا بإحراقها.

وبعودة الأمير بمكتبته المشرقية الثمينة، قرر أن يعتزل لتحصيله، ولازم الخلوة في "القيطنة"، ولم يفارق كتبه إلاّ إذا خرج إلى الصلاة، أو لتناول الطعام[3] ثم يعود لقضاء وقته في الرياضات العقلية التي تضمها مؤلفات القدماء أمثال "أفلاطون، فيثاغورث، أرسطو" علاوة على مؤلفات كبار المشاهير من أعلام المسلمين والتي شملت علوم التاريخ الإسلامي والفلسفة واللغة والفلك والجغرافيا والطب واستمرت هوايته هذه طوال حياته،[4] وكانت أرواح النبوغ ترفرف حوله،[5] لدرجة أنه كان يسعى جاهدا سعي آبائه أن يطلب العلم والعمل والجهاد والعمران والبناء والإصلاح، ويستفيد من رحلاته، خاصة المشرقية منها لما بها من فوائد دينية ودنيوية، فقد كان يخزن في ذكرياته ما يفيد وينفع، ويقتبس ما يناسب عادات وتقاليد أهل بلده.

ولكن لم تطل عزلته الدراسية بين كتبه ومباحثه، فالمرحلة القادمة من حياة إمارته وجهاده ستبدأ مع عام 1830م والتي برز فيها بطلا ورمزا للمقاومة الشعبية والتي سنتحدث عنها تفصيلا أثناء البحث.

1- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المرجع السابق، ص43.

2- أحمد درويش، في صحبة الأميرين، المرجع السابق، ص154.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص71.

4- أحمد درويش، في صحبة الأميرين، المرجع السابق، ص154.

5- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص72.

د. خبرات الأمير عبد القادر وتصوراته لمجال السيادة:

د.1. خبراته السياسية:

لقد تمكن الأمير عبد القادر أن يجمع في شخصيته القوية صفات كثيرة فكان مثقفا، متدينا، سياسيا ودبلوماسيا شجاعا اشتهر بالوفاء والمحافظة، ورجاحة العقل، فالبرغم من صغر سنه إلا أنه تمكن من تأسيس دولة فتية وفاوض فرنسا، وهي أكبر قوة سياسية وعسكرية في حوض البحر الأبيض المتوسط أنذاك، وجعل من الدين الإسلامي ومبادئه السمحاء مشروعا لدولته الداخلية ومعاملاته الخارجية، فقد كان هدفه الأسمى والأشمل هو جعل عرب الجزائر شعبا واحدا، من خلال دعوتهم للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم وإيقاظ كل قدراتهم الكامنة، لبناء مجتمع الحرب والسلم، وقد اصطدم بعقبات كثيرة من أجل ذلك فقد عمل منذ البداية على تحديد المبادئ العامة لأعماله القتالية والتي تتناسب مع الطبيعة الجيوإستراتيجية للإقليم وحجم القوى، خاصة بعد مشاهدته للمنجزات السياسية والإقتصادية والإدارية وغيرها في مصر وهو في طريقه إلى الحج مع والده وتأثره بها[1] لذلك حرص على خدمة المصلحة العامة للبلاد وقرر أن يحتذى به، وسيظهر ذلك الأثر فيما بعد في دولته.

وما كان يميزه في فكره السياسي وخبراته أنه كان يتخذ قرارات صعبة من أجل مصلحة الوطن، وكان ديموقراطيا يتشاور مع غيره حول كل المسائل التي تهم الأمة من ذلك مع مجلس الشورى الذي أنشأه، كما كان مدركا للخيانة الفرنسية وعدم التزامها بالوعود، فهدف الأمير عبد القادر أن يؤسس لاستقلال العرب في الجزائر تحت سلطة واحدة.

وفي ظل هذا قد تفطّن له أعداؤه حيث كانوا يفهمون عمله وطبعه الوطني، فالمعاهدات الموقعة مع فرنسا: المعاهدة التي وقعت مع "ديميشال Desmichels" في 25فبراير1834م ومعاهدة التافنا 1837م،[2] لم يكن لها معنى في نظر الأمير لأنها كانت حيلا تسمح له بالإستفادة من بعض الأمور، فيصبح بعد ذلك أقوى على مواصلة الحرب ضد المحتل، قال عنه الجنرال "دوماس Daumas"[3] الذي كان قنصلا في معسكر: "الأمير لم يوقع إلا ليربح الوقت ويصلح ماليته ويجعل نفسه قادرا على إعادة الكرة بشراسة أكبر وبقوة أقوى من ذي قبل وكل شيء يدل على ذلك"،[4]

1- صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر1830-1925م، مديرية النشر لجامعة قالمة، د.ط، 2010، ص19.

2- صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص157.

3- دوماس Dumas: كان قنصلا لفرنسا في معسكر أثر معاهدة التافنا (1837-1839م)، ثم مرافقا للأمير، في قلعة لامالق، وله عدة تأليف، كما تولى إدارة الشؤون العربية في الجزائر. ينظر: - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص28.

4- كمال بوشامة، الأمير عبد القادر ووحدة الأمة الجزائرية، من كتاب الأمير عبد القادر ملحمة الحكمة، زكي بوزيد للنشر، 2007، ص38.

فالأمير كان لا يعترف بالسيادة الفرنسية على الجزائر والتي كانت فرنسا حريصة على تقديمها في كل مطلب وكل شرط بل على العكس كان متمسكا بفكرة أنه هو صاحب السيادة الحقيقية على البلاد، وأنه سلطان عظيم.[1]

ويقول عنه فرحات عباس، أن الأمير عبد القادر كثيرا ما خرج من تلك المعارك ظافرا منتصرا، وأعطى الدليل بأنه جمع الحداقة الدبلوماسية الفائقة، مع العبقرية العسكرية السامية والمهارة العربية الرائعة.[2]

لقد كان دهاء الأمير السياسي واسعا، فقد أوقع عدوه في مآزق عديدة، وعرضه للأخطار والمهالك مرات عدة بالرغم من قوته وخططه الاستراتيجية ومؤامراته، ففي كل مرة يحاول أعداؤه تغليطه إلا وينقلب عليهم ويذيقهم طعم غدرهم وخيانتهم، وتمكّن من صد عدوانهم والوقوف دون احتلالهم للبلاد قرابة السبعة عشر عاما.

أما شجاعته فالحديث عنها لا ينتهي، وقوته الروحية والمعنوية، وكل خصاله التي أورثته حب التضحية من أجل الوطن والشعب ومن أجل العز والشرف والحرية والاستقلال.

يقول إسكندر بالمار نقلا عن يحي بوعزيز: "...إن من العجب رجوع قوة الأمير عبد القادر إلى حالها الأولى بعد أن اعتراها الإضمحلال والتلاشي ثلاث مرات: الأولى بعد استلاء الجنود الفرنسيين على عاصمته معسكر والثانية بعد غزو تلمسان، والثالثة بعد واقعة السكاك، وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لأن تكون سببا قويا لسقوط أعظم سلطان راسخ القدم ومع ذلك فإنّها لم تؤثر في أمره، ولم تحصل الأمة الفرنسية منه على طائل، فلهذا أقول: لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة وتصرفاته الغريبة لا يفارقان ذاته طرفة عين، ومن هنا تعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يعقده من قوته...".[3]

د.2. خبراته العسكرية:

لقد عمل الأمير عبد القادر على توحيد الصفوف لمختلف القبائل حول مسألة الجهاد، وبسط نفوذه على أغلب الغرب الجزائري، واتخذ من مدينة معسكر عاصمة له، وشرع في تنظيم المقاومة، فاستولى على ميناء أرزيو لتموينها، وشرع أيضا في تنظيم الجيش، بعد أن بذل جهودا جبارة من أجل تحقيق ذلك، ووضعه في مصاف الجيوش المعاصرة له في الدول العظمى، فقسمه إلى ثلاث فرق، أو أسلحة، وهي (المشاة، الخيالة، المدفعية)، ووحد زيه ولباسه وأصدر القوانين الصارمة والرادعة على المخالفات، ووضع سلم التسلسل العسكري،[4] كما درب جنده على حرب العصابات، فقد كانت قواعده وخططه العسكرية تعتمد على الكر والفر مستعينا في ذلك على قوات قليلة العدد وسريعة الحركة،

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص12.

2- عباس فرحات، ليل الإستعمار، نقله إلى العربية: أبو بكر الرحال، مطبعة الفضالة، المحمدية، المغرب، د.ت، ص74.

3- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح ، المرجع السابق، ص43.

4- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، صص41،42.

كما أنه لم يغفل قواعد الحرب الغربية، ولكنه فضل المباغتة والكمائن، فقد عرف كيف يتخذ مواقعه الإستراتيجية، في أرض القتال، فهو يعرف مسالك بلاده وغاباتها الكثيفة ووهادها المتشبعة، وجبالها المختلفة، فاتخذ منها مراكز إنطلاقه.[1]

كما قام في إطار التنظيم العسكري زيادة على توحيد الصفوف والأوامر والقوانين العسكرية الدالة على الإنضباط والصرامة، في المؤسسة العسكرية كوضعه سلم تسلسلي للرتب العسكرية، ثم قام بتقسيم الوحدات الأساسية في الجيش النظامي إلى كتائب وتظم الكتيبة الواحدة مائة جندي، كما قام بتوسع دائرة نفوذه إلى أنحاء أخرى من الوطن شملت جزء كبير من إقليم تلمسان ومليانة والتيطري (المدية)، وهكذا توسم نفوذ الأمير عبر الغرب الجزائري خاصة بعد إنتصاراته العسكرية، وأصبح يهدد الإحتلال الفرنسي في وهران وأرزيو، مما أدى بهم إلى فرض هدنة أو إبرام معاهدة تسمى بمعاهدة "ديميشالDesmichels" في 26 فبراير 1834م، خاصة بعدما وجد "ديميشالDesmichels" نفسه مشلولا بجرأة وحضور خصمه في كل مكان ووجد موارده تنقص، وإمداداته تنقطع والجوع على وشك القضاء على رجاله، لذلك قرر المهادنة.[2]

لقد كان " عبد القادر" يعي تماما أن النجاح في ميدان المعركة لا يكفي لتدعيم سلطته، لذلك قرر أن يقيم سيادته على أرضية أكثر صلابة عن طريق الإحتفاظ بمراكز قوية، وتشييد دور الأسلحة وبناء المخازن والمستودعات للذخيرة، كما قام ببناء التحصينات من أجل حماية المدن والثغور والطرق التجارية، وغيرها من المواقع التي يحتمل أن يمر منها العدو داخل المدينة، وهي تشمل القلاع والحصون والأسوار وما تحويه من عناصر كالمزاغل والشرافات والفتحات وغيرها، وكانت إستحكماته تشكل خطا دفاعيا مكونا من خمس قلاع، وكانت القلاع مكونة من مجموعة من المنشآت المعمارية والعسكرية والدينية والمدنية.

إن المتصفح للمسار العسكري للأمير "عبد القادر" يمكنه إبراز حنكته العسكرية من خلال تنظيمه لصفوف جنده وتحكمه في القبائل وتوحيد صفهم، فقد كان هدفه هو إخراج الإستعمار الفرنسي من كامل التراب الجزائري وإقامة دولة جزائرية مستقلة واحدة وموحدة، لذلك عمل جاهدا على تحقيق مآربه وتدابيره العسكرية المتمثلة في:

- ✓ إقامة جيش نظامي.
- ✓ توفير الأسلحة والذخيرة.
- ✓ إنشاء مصانع لإذابة الحديد، وتوفير الأسلحة وإنتاجها.

1- صالح فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، صص29،30.

2- شارل هنري تشرشل ، المصدر السابق، ص108.

✓ إنشاء الحصون والقلاع (الإستحكمات العسكرية) .

د.3. فكره النهضوي التجديدي:

حاول الأمير عبد القادر لبناء هذه الدولة والأمة أن يوضح قولا وعملا "نظريا وتطبيقيا" أنه لا يعمل لنفسه بل لخدمة الصالح العام، فالأمير أثناء مبايعته أميرا 1832م على أرض الجزائر، جاء بتجربة جديدة في الحكم، وحديثه على العصر الذي عاش فيه، فالبرغم من وجود نماذج من الحكام المسلمين أمامه، إلا أنه لم يقلد أحدا من هؤلاء.

فعند الرجوع إلى مراسيم البيعة، فإننا نلاحظ أننا أمام بحث لتقليد كاد الحكام المسلمون أن ينسوه، وهو الخضوع لإرادة المحكومين ودعوتهم للتعبير عن اختيارهم بمحض الحرية،[1] وبإرادة شعبية عن رضا وطوعية، وبموافقته التامة وهو ما يتعارض مع ما كان سائدا في أوساط السلطة العثمانية بالجزائر آنذاك.

لقد شكلت مبايعته انفصالا تاما عما كان سائدا قبل ذلك، حتى المنظومة الإدارية في عهده تميزت بحكم أبناء البلد –جزائريون محض– وبهذا استطاع رفع راية الدفاع الشرعي وغيّر معطيات العقد العثماني وأوجد واقعا جديدا، وهو واقع الشعب الجزائري على أساس أنه الفاعل والعامل، بحيث بانتهاجه استراتيجية الحرب الشعبية والتي سنأتي على تفسيرها، حينما أنقذ شعبه من الإبادة التامة والجماعية، كالتي حدثت قبلا في أمريكا الشمالية والجنوبية، أين أبيدت الشعوب الأصلية وحلت محلها جالية جديدة، لذا جنّد الجزائريين للمقاومة والصمود ضد الغزو الأجنبي بدل الهجرة، وقرر البقاء في الجزائر والصمود والدفاع عن أرضه، فوضع راية الجزائر واتخذ علما مخالفا لعلم "آل عثمان"، إستوحاه من التقاليد الجهادية الشعبية، وهو عبارة عن قطعة من القماش الأبيض، تتوسطه يد مفتوحة، والبياض رمز الطهارة والجدة والصفاء، واليد الخماسية ترمز إلى نفي الغريب والتعوذ من الحسود والشرير، والغالب على الظن أن هذه اليد كانت صفراء اللون.[2]

ويذكر "عشيراتي سليمان"، أن راية "الأمير عبد القادر" كانت خضراء اللون، وكان عرضها يشمل ثلاثة مطارح، مطرحان أخضران، ومطرح أبيض تتوسطه كف سوداء دائرية مطرزة بالخيوط الذهبية بها يد خماسية، مكتوب حولها نصر من الله وفتح قريب، وهو شعار الدولة الجزائرية الفتية وناصر الدين عبد القادر بن محي الدين.[3]

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص7.

2- المصدر نفسه، ص7.

3- سليمان عشيراتي، الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فرادة الرمز والريادة، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط3، وهران، الجزائر، 2009، ص148.

كما سكّ الأمير نقودا خاصة من الفضة تسمى المحمدية، بالإضافة إلى ذلك اتخذ ختما للدولة، يعرف بالطابع السلطاني.[1]

هذا بالإضافة إلى أن الأمير "عبد القادر" تمكن من تجاوز تلك الممارسات السياسية التي حدثت في العالم العربي، في عصر النهضة أو قبله، فهذا ناتج عن وعيه الشخصي، ونابع من محيطه وواقعه وإدراكه الفكري العميق، الناجم عن ملاحظاته ومعاناة مجتمعه، فمحور تفكيره جاد من منطلق ذاتي، فالأفكار التي إعتمدها في بناء دولته وفي ممارساته السياسية، تعبر عن دهائه، فقد حوّل تلك الأفكار المتعلقة بالدولة إلى أجهزة وأدوات للعمل الإجتماعي والسياسي، والديني في مجتمعه، لأنه كان متعلقا شديدا بالتجديد في الجزائر.[2]

ففكره النهضوي التجديدي، تمظهر في شخصيته التي جمعت بين العسكري والسياسي والمثقف والإنساني، الذي تعاطف مع القضايا الإنسانية دون أن يجد الإهتمام الجدي في كتابات المفكرين، وأهل الثقافة والعلم.

كما أننا نلمس فكره التجديدي النهضوي في إستراتيجياته الحربية المتمثلة في تنظيمه للجيش، وتقسيمه إلى وحدات قتالية وصناعة الأسلحة والذخيرة إلى غير ذلك،فقد أنشأ مؤسسة الجيش،المكون من ثلاثة أجزاء: "مقدمة، وقانون ،وخاتمة"، أي أنّه أول من استخدم التدوين في عملية تقنين القانون الدولي الإنساني،فقد وضع الأساس لإحترام القانون، وجاء في مقدمة الوثيقة المتعلقة بالجيش، أصناف الجيش العامل ،وقسمه إلى ثلاثة أصناف: الصنف الأول وهم الخيالة الذين يركبون الخيل ويحملون السلاح، الصنف الثاني: وهم المشاة ويسموهم "جند محمد" أمّا الصنف الثالث: وهم مستخدموا المدفعية، وكل صنف قسّمه إلى مائة شخص، وكل مائة شخص عليهم رئيس يسمونه الآغا.

أما ماسماه بالقانون وفيه سبع وأربعون مادة،وكل مادة يحدد فيها الصنف وما يأخذه من علاوات (دراهم)، وكيف يتقاضى أكله وإقامته...إلخ، أي أن المادة الأولى تتعلق بالآغا،وكل مادة يضع فيها الشخص وراتبه ومعاملاته. أما الخاتمة فهي مهمة جدا،توجد بها جزاءات،أي إذا تجاوز الجندي حدود السلوك المقرر في القانون فإنه يجازى، والجزاءات التي قررها على كل جندي يتصل بالعدو هي أن يعاقب من ستة أشهر إلى عشرين يوما. إذن فالأمير عبد القادر كان أوّل قائد عسكري وأوّل من كان يعطي الأوامر لجنوده، وكان يعايش الحرب.[3]

كما لاننسى دوره في تنظيم شؤون الدولة، بإقامة وزارات مختصة وعاصمة متنقلة، وهي كلها تعد نواة الدولة التي ناضل بقوة السلاح من أجل إقامتها، غير متقبل بالمرة فكرة الإحتلال الفرنسي للبلاد.

1- إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، د، م، ج، د.ط، الجزائر، 2007، صص36،37.

2- صالح فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص31.

3- فعاليات الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر وحقوق الإنسان، منظور الأمس ومنظور اليوم، قصر زيغود يوسف، الجزائر، 24-25 ماي 2008، صص90،91.

ضف إلى ذلك كتاباته الشعرية وإجتهاداته في البحث في العلوم الدينية والصوفية، وموقفه التاريخي إلى جانب مسيحي بلاد الشام في إخماده لنار الفتنة الطائفية لعام 1860م،والتقدير الكبير الذي أوصله للإعتراف بأنه المؤسس للقانون الدولي الإنساني، قبل "هنري دونال السويسري" الذي أنشأ اللجنة الدولية للصليب الأحمر، كون أن القانون الدولي الإنساني يتعلق بحقوق الإنسان في ظروف الحرب، وفي إطار النزاعات المسلحة كحقوق ضحايا الحرب من جرحى ومرضى من أسرى، المرأة والشيوخ الذين عايشوا الحرب، إذن هذا هو القانون الذي تطبق قواعده القانونية في ظروف الحرب، والأمير عبد القادر عاش ظروف الحرب، إذن هو أب المقاومة، أي أب القانون وهي الأخلاق عند القانونيين، وعليه فهو أبو القانون الدولي الانساني.[1]

هذا بالإضافة إلى جدلية التقارب مع الحضارات، والأديان والشعوب ،فهذا ملف هام يؤسس لمضامين الإعتراف بحقوق وواجبات الطرف الآخر، عربيّا كان أو أوروبيا أو آسيويا، ودوره في المساهمة في الحضارة الكونية، ولا يتسنى مطلقا التمتع بمثل هذه الرؤية العميقة للإنسان، إلّا لقلة من الرجالات الذين استوعبوا وتشبّعوا بتراثهم الروحي والفكري والحضاري، وسعوا إلى إثرائه وتعزيزه بإعمال الرأي في صيرورة مسيرة الإنسان على صعيد الخريطة البشرية، وهي التي اعتمدت على الإنسان بانتزاع حقوقه الإنسانية والإعتراف به كمحور ومدار جوهري لأي تقدم بشري.

" فالأمير عبد القادر" كان يدافع دفاعا مستميتا على التسامح الديني والتقدم البشري، وهذا ما نفسره من خلال تفكيره، وسلوكه، ونوعية علاقاته الواسعة التي أقامها مع المئات من الشخصيات السياسية، الأولى في فرنسا والدولة العثمانية، ومع مختلف مؤسسات المجتمع المدني الأوروبي والعربي، والتي أنضجت لديه رؤية وعقدت له الإنفتاح على القيم الإنسانية. وجميع ذلك يندرج فيما يطلق عليه اليوم بالثوابت الأساسية لحقوق الإنسان، فبفضل بطولاته وحنكته السياسية والعسكرية، وبعده الثقافي والحضاري جعل من سيرته تتخطى حدود العالم العربي.

هـ. إستراتيجية ومعارك الأمير عبد القادر "نماذج":

كانت فترة ما بعد مبايعة "عبد القادر" في سنة 1833م، و النداء الذي وجهه لشعبه، حيث مرت تطورات متسارعة وأحداث متلاحقة على أرض المقاطعة الغربية، خاصة مع وجود منافسيه على الزعامة في تلك المنطقة، فقد وجد نفسه محاطا بين مؤيّد ومعارض، مما أكّد له أن المهمة التي أوكلت إليه صعبة، ولذلك عمل جاهداً من أجل أن يثبت حكمه، بالتغلب على منافسيه في المنطقة[2] أوّلا ثم مقاومة الإحتلال الفرنسي.

1- فعاليات الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر وحقوق الإنسان، المرجع السابق، صص 89،88.

2- حصلت أولى مشاكل الأمير، مع قبيلتي الدواير والزمالة اللتان أعلنتا الولاء للفرنسيين، غير أنه فرض هبته، وكسر شوكة المتمردين، وكان في مقدمتهم "مصطفى بن إسماعيل الذي أعلن ولاءه لقوات الإحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال لامورسيير سنة 1842م، واعترضت قوات المقاومة سيره جنوب تيارت،=

كما قام الأمير بتوحيد صفوف المقاومة من أجل القضاء على المتمردين، وضمّهم إلى جبهته لمواجهة الإحتلال الفرنسي، وفي عام 1833م قامت قواته إنطلاقا من معسكر، بجولة على القبائل التي لم تحضر البيعة حتى تنظم إلى المقاومة، فاصطدموا بقوات قبيلة فليتة، بمنطقة شلف بقيادة العربي،[1] وبعد مناوشات طفيفة تعهد هذا الأخير بالإنضمام إليهم، وعليه إنضمت معظم قبائل المنطقة للمقاومة الوطنية، واستأمنوه أمنهم، وولى عليهم عمالا يثق فيهم.[2]

وبعد ذلك اتجه مع قواته نحو أرزيو، حيث كان "القاضي الطاهر"[3] يتعامل تجاريا مع قوات الإحتلال الفرنسي متجاهلا التحذيرات التي أرسلها إليه الأمير، ودخلت قوات المقاومة الوطنية المنطقة في 13 أفريل 1833م، وتمّ القبض على القاضي الطاهر وأرسل مكبلا إلى معسكر، وهناك أمر الشيخ محيي الدين بإعدامه مغتنما فرصة غياب إبنه عبد القادر، الذي كان يرغب في إطلاق سراحه بعد إعطائه فديته من طرف سكان أرزيو وفعلا طبق الحكم عليه ليكون عبرة للخونة.[4]

أما عن تلمسان فقد كانت بها إضطرابات كثيرة، وفي تصاعد مستمر بين سكان الحضر والكلوغليين، فاتجهت إليها قوات المقاومة الوطنية، غير أن زعيم الحضر في تلمسان "إبن نونة"، بعث للأمير يخبره أنه لا يعترف بسلطان غير سلطان المغرب، ولذلك إحتفظ لنفسه بلقب الباشا الذي يحمله، وقرر التصدي للأمير وقواته.[5]

=وتم القضاء عليه مع بعض الفرسان الموالية للمخزن، فسقط قتيلا، وحمل رأسه إلى الأمير، واعتبرت السطات افرنسية مقتله أمرا سلبيا لا يخدم المصالح الفرنسية. ينظر: – العربي المشرفي، ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول، م.خ.ع، الرباط، 2659ك، ص205.

– Esterhazy (W), Notice historique sur le Maghzen d'Oran, typographie de Berrier, éd, paris, 1849, pp171-173.

– إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، صص44،45.

1– سيدي العربي في سهل الشلف، كان أقوى شخص بينهم وأقدرهم وذو تأثير كبير، لاسيما على قبيلة فليتة، وكان يتمتع بنفوذ في أرجاء هذا السهل وقد وقف بوجه السلطان الجديد. ينظر: – أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص92.

2– إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص45.

– محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص146،147.

3– سيدي أحمد بن الطاهر في أرزيو: ذو شهرة عظيمة وثروة طائلة لتجارته المتواصلة مع القادة الفرنسيين، وكان قاضي أرزيو، ومعلم عبد القادر، والذي أبى أن يكون تلميذه سيده، إضافة إلى أنه كان يمد الفرنسيين بالمواد الغذائية. ينظر: – أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص93.

– إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص41.

4– المرجع نفسه، ص44.

– يذكر محمد بن الأمير أن القاضي أحمد بن الطاهر البطيوي عقد له مجلسا من العلماء، فأمعنوا النظر في أمره، وقامت البينة عليه، فحكم المجلس بقتله فسملت عيناه، وقطعت يداه ورجلاه، ووضع في حفرة في ساحة الصراية إلى أن مات بعد ثلاثة أيام. ينظر:

– محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص150.

5– إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص45.

– أديب حرب، ج1، المرجع السابق، صص92،93.

– محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص148.

نجح "الأمير عبد القادر" خلال جولاته في فرض طاعته على أغلبية القبائل، إلا أنه مازالت هناك قبائل أخرى نازعت سلطانه، وفي مقدمتهم الدواير و الزمالة وشيخ قبيلة الأنجاد "ابن الغماري"، و"إبراهيم باي" قاضي عنابة، وغيرها من القبائل المتمردة التي رفضت الطاعة والولاء له،[1] وهكذا فرض عليه مواجهة الجيش الفرنسي، ووضع حد لتصرفات زعماء القبائل الثائرة، فكان عليه الإستعداد التام والحذر الدائم للصمود والتصدي، أمام هذه الصعوبات التي كانت لها قيمة، حيث أتاحت للأمير فرصة ليظهر مقدرته على فرض الطاعة، و إستعمال القدر الكافي و الضروري من القوة ممزوجا باللين وسعة الصدر، والميل إلى العفو من جهة، ومن جهة أخرى فإن رفض بعض القبائل الإنقياد تحت لواء عبد القادر، و انقضاءهم عن طاعته، جعل الفرنسيين يتأكدون من الإعتقاد أن العرب غير قادرين على توحيد صفوفهم، وغير قادرين على التنظيم، كما أنهم ينفرون من الخضوع لسلطان غير سلطان القبيلة، وبذلك لا يتسنى للأمير من جمع و توحيد صفوف الجزائريين لمواجهتهم.

ومن الأسس التي قامت عليها إستراتيجية الأمير عبد القادر، تأسيسه لجيش نظامي، إذ فتح باب التجنيد والانخراط فيه وصف بحرية ودون إكراه.

كما وضّف أيضا وسائل الدعاية لإقبال الناس على إلتزام الخدمة العسكرية في هذا القطاع، بأن كلف مناديا ينادي في السوق بالقول: " ليبلغ الشاهد الغائب، أنه صدر أمر من مولانا ناصر الدين، بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر من كافة البلاد، فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي، و يشمله عز النظام فليسارع إلى دار الإمارة (معسكر)، لتقييد إسمه في الدفاتر الأميرية"،[2] فأجابوه على السمع والطاعة، حبًّا لشخصه الأمين والصادق.

إذن فاستراتيجية الأمير برزت براعته في فنون القيادة لجيوشه، الذي قسمه إلى ثلاثة صفوف:

- ✓ الخيالة.
- ✓ المشاة.
- ✓ المدفعية.

فقيادة الجيش تحتاج إلى الكثير من الترتيبات والتدابير، الواجب اتخاذها والتقيّد بها، بغية تنظيم الجيش أمام العدو، فالأمير مثلا قامت إستراتيجيته الحربية على ثلاث قوى:

- ✓ جيش نظام جزائري حفيف.
- ✓ مدن دفاعية محصنة.

1- للمزيد من المعلومات حول القبائل المتمردة ينظر: - أديب حرب، ج1، المرجع السابق، صص91-98.

2- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص165.

✓ قبائل مواليه له.

كان لا يخوض المعارك إلا في أماكن يختارها مسبقا، كالمضايق وأعالي المرتفعات ويركز على المناوشات والمضايقات والهجمات الخاطفة، ويشرك القبائل الموالية له من محاصرة مدن العدو ومضايقته بقطع المؤونة عليه.[1]

كل هذا لم ينقص من إيمانه بالرسالة التي حملها، لذلك قرر مواصلة نضاله ومقاومته للحد من تصرفات الفرنسيين، وبذلك قام بعدة معارك في مناطق مختلفة من الوطن الجزائري، سنذكر نماذج منها فقط:

- **معركة التينة 27 ماي 1833م:**

عملت قوات الجيش الوطني بقيادة الأمير عبد القادر على تضييق الحصار على القوات الفرنسية بوهران، فقاموا بمهاجمة قبيلة مجاهر التي كان أهلها يتاجرون مع الفرنسيين، ونتيجة لذلك ذعر كل من كان على صلة بالفرنسيين، وكان من نتائج ذلك أن كفّت معظم القبائل عن تمويل الفرنسيين، وبهذا أصبحت القوات الفرنسية تحت قيادة الجنرال "بوايبهBoyer" عاجزة عن تنفيذ المهام المناطة بها لصعوبة حصولها على المؤن من أسواق المقاطعة الغربية[2].

وأمام هذا الوضع إستبدل الحاكم العام "فوارول"، الجنرال "بوايبه" بالجنرال "ديميشالDesmichels" في 23 أفريل 1833م، وبعد إطلاع "ديميشالDesmichels"على الوضع حاول إيجاد خطة لحل هذا المأزق ، فعمل على جعل خطته على مرحلتين تقضي الأولى القيام بعمليات عسكرية لفك الحصار المضروب على قواته، إلاّ أنه في المرحلة الثانية نجده قد أبدى ميولا واضحا إلى السلم والمهادنة،[3] وفي 07 ماي 1833م خرج على رأس قواته، وفي ليلة 7 ماي أغار على قبيلة الغرابة التي كانت بسهل تليلات على بعد 24 كلم من وهران،[4] وتحت ضغط هذا الهجوم الفرنسي تراجعت عناصر القبيلة لتحتمي بغابة مولاي اسماعيل، وبعد ذلك سمعت القبائل المجاورة للغرابة بما حدث فجمعت رجالها وهاجمت ميمنة الجيش الفرنسي الذي بدأت صفوفه تتقهقر، بسبب مقتل النقيب "دوسه Dousch" ومساعده الملازم "مونييه Moniex"، إلاّ أن "ديميشالDesmichels" عزز صفوف قواته.

وفي مساء 8 ماي، عادت هذه القوات إلى مدينة وهران تحت المتابعة والمقاتلة من قبل قوات القبائل، وكان من نتائج هذه المعركة أن قتل من جانب القبائل حوالي 60 فردا حسب الإحصائيات الفرنسية، بالإضافة إلى ما غنمه الفرنسيون من ماشية، كما أسروا العديد من النساء والأطفال،[5] ولما سمع الأمير بهذه التطورات التي حدثت بدأ يعد العدة

1- احميدة عميراوي، موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2003، صص68،69.

2 - محمد بن عبد القادر الجزائري، ج1، مصدر السابق، ص171.

3 - العربي اسماعيل، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص47.

4 - Azan(P), op-cit, p18.

5 - أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص100.

لمقاتلة الفرنسيين، فجمع ما أمكنه من قوات للرد على المجزرة التي قامت بها القوات الفرنسية، وفي 25 ماي أقام الأمير معسكر القوات الشعبية في محلة التينة على بعد ثمانية كلم جنوب وهران، ولما بلغ "ديميشالDesmichels" بمكان تلك القوات خرج على رأس قواته ليعسكر بالقرب من برج سانت أندريه، وأمر قواته بمراقبة قوات المقاومة الجزائرية دون الدخول في اشتباكات معها.[1]

وفي الساعة الخامسة من صباح 27 ماي أرسل "ديميشالDesmichels" الجنرال "سانست Sanset" وبإمرته الكتيبة الرابعة من الفرقة الأجنبية، وسريتين من الفرقة 66 وسرية فرسان، فأبقى قائد القوة مجموعة صغيرة لحماية المكان، وبدأ في مهاجمة الحصن، الذي كان محميا بشكل جيد وهو ما جعل الأمير يتجه نحو مقاتلة القسم المهاجم من القوات الفرنسية،[2] فكاد أن يبيد هذه القوات لولا الدعم الذي استدعاه حاكم مقاطعة وهران، وقصف المدفعية الفرنسية الشديدة، وأمام هذا الوضع إمتطى جواده وتراجع مع من معه، وفي ليلة 30 ماي عاد لمهاجمة حصن أورليان إلاّ أن القصف المدفعي حدّ من هذا الهجوم، فأمر قوات المقاومة الجزائرية بالعودة إلى مُعَسكر "ديميشالDesmichels" داخل وهران في أول جوان 1833م.[3]

- **معركة عين البريدية 11 جوان 1833م:**

لم يترك عبد القادر لقوات "ديميشالDesmichels" فترة للإستراحة في مخيماتها، ولا الحرية في تنقل عناصرها، ففي 2 جوان قبض رجاله على سبعة جنود من المدفعية الفرنسية في المرسى الكبير، ونتيجة لذلك خرج "ديميشالDesmichels" من وهران في صباح 11 جوان على رأس قواته إلى غربي السبخة الكبرى جنوبي وهران لمحاربة الأمير، وفي ظهر هذا اليوم عسكرت القوات الفرنسية في مسرغين، ثم تابعت تقدمها إلى منطقة تينة،[4] التي اتجهوا منها إلى عين البريدية، ودامت المشاداة إلى منتصف الليل.

وفي صباح اليوم التالي إنسحبت القوات الجزائرية إلى الجهة الغربية للسبخة الكبرى ، بينما دخل الفرنسيون إلى وهران في ظهر هذا اليوم.[5]

لم تكن الخسائر البشرية في هذه المعركة كبيرة بين الطرفان بل كانت طفيفة خاصة الأرواح، ولم يستطيع "ديميشالDesmichels" من تحقيق هدفه المتمثل في القضاء على قوات المقاومة، أما الأمير فقد تمكن من الحفاظ

---

1 – Azan (P), op-cit.p.19

2 –محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص171.

3 – أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص103.

4– Azan (P), op-cit,p.19

5 – أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص104.

على قدرات المقاومة الجزائرية بالرغم من التفاوت الواضح بين القوتين،[1] كما تعرف على نقاط الضعف و القوة التي كان يتمتع بها أفراد المقاومة الجزائرية.[2]

بعد هذه المشاداة بالغرب الجزائري ،وقعت عدة مواجهات أخرى بين قوات الأمير عبد القادر، وقوات الإحتلال الفرنسي، فقد تمت بعدها مواجهات بمنطقة أرزيوفي 05جويلية 1833م، ضدّ قوات الجنرال "ديميشالDesmichels"، ومن نتائجها انسحاب قوات الأمير عبد القادر نهائيا من أنحاء أرزيوفي 13 جويلية،ورحل الفرنسيون عنها باستثناء حامية صغيرة بقيادة العقيد "بارتلمي Bartelmi".

وتمت مواجهات أخرى بمنطقة مستغانم في 27 جويلية، وفيها تمكنت القوات الفرنسية من دخول مدينة مستغانم تحت إستقبال القائد العثماني "الباي ابراهيم".[3]

أما عن قوات "الأمير عبد القادر" فقد انسحبت بعد فشلهم في الصمود أمام قوات الإحتلال، ولكن ذلك لم يزده إلاّ عزما وإيمانا بمتابعة الحرب، ليصل إلى هدفه وهو تأسيس دولة في غربي الجزائر أولا،ثم السيطرة على كافة أنحاء البلاد.[4]

بعد أن رجع الأمير من مستغانم إلى معسكر ، واجه مشكلة خطيرة كانت تتمثل في محاولة بعض القبائل الخضوع للفرنسيين، كالزمالة والدوائر والبرجية، فقام بعزل بعض شيوخ قبيلة البرجية، بينما أرسل مبعوثين عنه إلى قبائل الزمالة والدوائر، لإقناعهم بضرورة الإبتعاد عن عقد علاقات مع الفرنسيين، فنجح في إقناعهم، وبذلك شدد الحصار على الفرنسيين، ولدفعهم إلى الولوج نحو الداخل، وبهذا تكون أرض المعركة لصالح قوات المقاومة الجزائرية،[5] أما الجنرال "ديميشال Desmichels" فاقتنع بأن اتفاقا مع "الأمير عبد القادر" هو الحل الوحيد،أمام قلة المؤن التي كانت تعاني منها قواته جراء الحصار الذي ضربته عليها قبائل المنطقة.

في 28 أكتوبر بعث الجنرال "ديميشال Desmichels" رسالة إلى الأمير يعرب فيها عن رغبته في عقد معاهدة معه، فوافق على ذلك،[6] وكلّف الأمير بعد ثلاث أيام وزير خارجيته "الميلود بن عراش"،[7] و"خليفة بن محمود" لإجراء

---

1 – محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص171.

2 – المصدر نفسه، ص171.

3-Azane (P), op-cit, p19.

4- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص 106.

5- محمد بن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص175 .

6 – المصدر نفسه، ص107.

7- الميلود بن عراش: كان شخصية محبوبة من الأمير، أخلص له وعينه وزير خارجية إمارته، كان آغا لمنطقة في الشرق تمتد من المينا إلى وادي فودا. ينظر:

- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص 116.

المفاوضات، وفي 4 فيفري إلتقى الوفدان بالقرب من وهران، وسلّم "مردخاي عمر" لوزير خارجية الأمير مسودة مقترحات الجنرال "ديميشال Desmichels" وبتاريخ 20 فيفري تسلّم "ابن عراش" مقترحات أميره وتوجّه إلى وهران ومعه الأسرى الفرنسيين، وكان الأمير قد أمره بعدم تسليم وثيقة مقترحات الجنرال "ديميشال Desmichels" المختومة من قبله، قبل أن يوقّع الضابط الفرنسي على الوثيقة الخاصة بمقترحاته، وبتاريخ 25 فيفري ختم "ديميشال Desmichels" وثيقة مقترحات الأمير ووقعها، وبناءا على طلب حاكم مقاطعة وهران وموافقة "ابن عراش"، وضعت إتفاقية واحدة شملت أهم بنود الوثيقتين السابقتين، والمعاهدة كانت من نسختين أصليتين في عمودين، عليها شروط الأمير عبد القادر والجنرال "ديميشال Desmichels"، باللغتين العربية والفرنسية، في ستة مواد، ولم تورد المعاهدة أيّة تبعية، ولم تحدد مناطق سلطة الأمير.

وهكذا تمّ اعتماد إتفاقية ديميشال في 26 فيفري 1834م،[1] الذي لازالت تطرح حولها عدة إشكاليات حول مدى صحة بنودها من الطرفين.

وعليه اتفق كل من الجنرال "ديميشالDesmichels" قائد الجيوش الفرنسية، والأمير عبد القادر ممثل الدولة الجزائرية على الموافقة على الصلح والهدنة.[2]

إن فترة الهدنة والسلم كانتا بالنسبة للأمير نقطة انطلاق من أجل تنظيم دولته الفتية، والتي مازالت في طور الإنجاز، لذلك تفرغ للتجهيز والتنظيم من أجل إنطلاقة جديدة ،وتحضير قواته وتجنيدهم للمقاومة ضد قوات الإحتلال الفرنسي، فهذه الفرصة أعطته دفعا قويا لتنظيم صفوفه.

غير أن السلطات الفرنسية أحسّت بالخطر المحدق بها إذا ما تطورت الدولة الحديثة النشأة، ولذا أعادت صياغة المعاهدة حيث جمعت فيها كل ما كان يرفضه الأمير، لاسيما الإعتراف بسلطة فرنسا على البلاد، ونقضت المعاهدة فعليا في معركة المقطع الشهيرة عام 1835م.

شهد الوضع بعد إتفاقية ديميشال تعيين "درواه دارلون Drouet D'erlon" حاكما عاما على الجزائر في سنة 1834م، فبدأ فورا في تطبيق تعليمات حكومته القاضية بضرورة القضاء على المقاومة الجزائرية حتى تتم عملية احتلال الجزائر بصفة دائمة، وبذلك بدأ هذا الحاكم يبحث عن ذرائع لنقض الإتفاقية، وفي هذا الإطار قام بتعيين "تريزل Trézel" كقائد للقوات الفرنسية بوهران بدلا عن "ديميشال Desmichels" في 07 فيفري 1835م،[3] تمهيدا لنقض

---

1 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق ، ص49.

2– Bellemare (A), Abdelkader sa vie politique et militaire, Edition Bouchene, Alger, pp 37-38.

– راجع بنود المعاهدة: – شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسيية للنشر، تونس، 1974، صص 78،79.

3 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق ،ص78.

الإتفاقية،[1] التي كان يرى فيها أنها جعلت الجزائريين أسيادا في تجارة الجنوب في المنطقة كما كانت لهم حرية بيع و شراء الأسلحة، و هو ما يهدد تواجد الفرنسيين بالمنطقة.

وبهذا كانت الأمور تزداد تصعيدا نحو تجدد القتال بعد أن توضحت الأمور بأن الفرنسيين مقبلين على التنقل من الإتفاقية التي عقدوها مع الأمير، وكان كلا الجانبين يترقبا الوضع ويأخذا احتياطاتهما لمواجهة أصبحت وشيكة، وكان ابتداء التصادم بين الجانبين بقيام تريزل بالتحرك بقواته إلى مسرغين ومنها توجه إلى معسكر في 16 جوان 1835م،[2] وفي هذا اليوم أغارت مجموعة من فرسانه على قبيلة بني هاشم في غرب معسكر، فردت قوات المقاومة على ذلك، بأن نفّذت بعض عناصرها كمينا لمجموعة فرنسية في سهل تليلات، ثم تلا ذلك هجوم على قافلة عسكرية كانت متجهة نحو وهران، عبر سهل سيرات في جنوب مستغانم في جوان،[3] وهكذا بدأ الطرفان يستعدان للمواجهة الحاسمة.

- **معركة المقطع 28 جوان 1835م:**

خيّم الفرنسيون على الضفة اليسرى لنهر سيق في منطقة سيدي داوود شرق جبال حميان في الجنوب الغربي لمستنقعات المقطع،[4] أما الأمير فعسكر على الضفة اليمنى لهذا النهر في منطقة أولاد صالح جنوب غرب سهل سيرتا وفي صباح يوم 27 جوان إلتحق ممثل الفرنسيين بمعسكر وهو "عبد الله أصبون" بالقوات الفرنسية، كما إلتحق ممثل الأمير في وهران وهو "ابن دران" بالأمير كذلك،[5] و استغل "تريزيلTrézel " هذا الإتصال ليبعث للأمير بمذكرة تحتوي على شروط لإنهاء القتال معتقدا بأنه كسب الحرب، وبالتالي يحق له إملاء شروطه عليه، فطلب منه الإعتراف بسلطة فرنسا، ودفع جزية سنوية، وترك سلطته على عدد من الأعراش،[6] وهو الأمر الذي اعتبره الأمير تعويضا للدولة الجزائرية الحديثة التي كان يسعى لتوطيد دعائمها، ولذلك لم يرد على مراسلة "تريزيلTrézel"، وبدأ يستعد لمجابهة أخرى، حيث أمر المجاهدين بالتمركز على مقربة من القوات الفرنسية لمراقبة تحركاتهم، وبدأ يبعث على بث الحماس في صفوف الجزائريين لمواصلة القتال، وخلال هذه الفترة إلتحق به بعض مقاتلي تلمسان تحث إمرة "محمد بن نونة".[7]

1- Julien (CH.A), Histoire de l’Algérie contemporaine, op-cit, p 215.

2 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق ، ص79.

3 –أديب حرب ، ج1، المرجع السابق، ص175.

4- تغطي مستنقعات المقطع قسما من جنوبي خليج أرزيو، وتنتشر فوق هدا المستنقع مساحة واسعة موحلة بشكل حوض مغلق، وتصب في هذه المنطقة أودية كثيرة أهمها الحمام، سيق، طرارا، أما مضيق الهبرة فيقع بين جبال الحميان والمستنقعات التي يلتقي عندها نهر سيق ونهر الهبرة، ثم ينحدران إلى البحر في مجرى ضيق يسمى المقطع.

5 –إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق ، ص91.

6- Julien (CH.A), Histoire de l’Algérie contemporaine, op-cit, p 217

7 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص92.

في ظهر يوم 28 جوان 1835م وصلت القوات الفرنسية إلى الوادي حتى إنهالت عليها القوات الجزائرية بوابل من الرصاص من جميع الجهات،[1] وهو ما أحدث فوضى في صفوف القوات الفرنسية واختلطت فيها قوات الأطراف بالوسط، وفي هذا الوقت أمر "تريزلTrézel " بإرسال سريتان من الكتيبة الإيطالية لمساندة المجموعة الأولى، وعند تقدم هذه القوات دحرجت عليها القوات الجزائرية الصخور[2] من كل جانب فتراجعت القوات الفرنسية، وبدأت تعمل على فتح الطريق بصعوبة كبيرة أمام الضعف الذي كانت تمارسه عليها قوات المقاومة من جميع الأطراف، لكي تسهل مهمة فتح الطريق أمام القوات الفرنسية،[3] قام "تريزلTrézel " بإرسال قوة لتشتيت المجاهدين المتمركزين على مرتفعات حميان، فتصادمت هذه القوات مع الفرسان الجزائريين المتمركزين في هذا الموقع، وعلى إثر هذه المواجهة إنضمت تلك القوة الجزائرية إلى الأمير، الذي بدأ يزحف على مؤخرة الجيش الفرنسي في محاولة لتحييدها ومحاصرتها والقضاء عليها،[4] ونتيجة لهذا الهجوم الذى شنه المجاهدون إنقسمت القوات الفرنسية إلى قسمين، ظهرت بينهما ثغرة، فتوغّلت القوات الجزائرية من خلالها،[5] ونتيجة لذلك تزعزعت قوات تريزل واختلطت صفوفها، وفي ظل هذا الوضع شكل الأمير قوة من الفرسان، وأمرها بالتوجه بسرعة نحو الجهة اليمنى لنهر الهبرة حيث قافلة المؤن وميمنة الجيش الفرنسي اللتان تركتا غير محميتين فحدث نتيجة لذلك خسائر كبيرة فادحة في صفوف تلك القوات الفرنسية،[6] فمن بقي من مقاتلي المدفعية الفرنسية فصلوا المدافع عن حاملاتها و هربوا على ظهور خيول هذه الحمالات،[7] أما باقي الفرق الفرنسية فتداخلت بعضها مع بعض وسادت فيها فوضى عارمة، وأصبح أفرادها مشتتين يبحثون عن مخابئ تحميهم من المجاهدين.[8]

وبعد مرور فترة من الزمن أخدت مقدمة القوات الفرنسية تعود إلى طريق أرزيو بينما سار الأمير على رأس مجموعة من الفرسان، وأخد يطارد مؤخرة القوات الفرنسية التي كانت تسير ببطئ،[9] وبعد ساعتين من المشي وصلت القوات الفرنسية إلى مرفأ أرزيو، وفي اليوم التالي، وصلت قوات النجدة التي طلبها "تريزيل Trézel" من وهران عن طريق البحر تحت قيادة "لاموريسير Lamorciére"، وفي 4 جويلية وصلت القوات الفرنسية إلى وهران،[10] أما الأمير عبد

1- Rousset (C), la conquête d'Alger, op-cit, p393

2 -أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص194.

3 -تشرشل، المصدر السابق، ص135.

4- Azan (P), op-cit, p52.

5 -أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص195.

6 -إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص93.

7- Azan (P), op-cit, p52.

8 - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص135.

9 - إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص96.

10- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص198.

القادر فاتجه نحو معسكر التي دخلها في الأول من جويلية بعدما قام بتوزيع قسما من مشاته النظاميين في نقاط مهمة على طريق أرزيو ووهران لتقصي أخبار الفرنسيين والإفادة عن جميع تحركاتهم.[1]

أما عن الخسائر البشرية في هذه المعركة كانت كبيرة بالنسبة للقوات الفرنسية، فقد فقدوا حوالي 800 مقاتل،[2] أما قوات المقاومة فقد حققت نتائج هامة على الرأي العام الفرنسي، حيت تعالت الأصوات في البرلمان الفرنسي تنتقد الوضعية التي تعيشها القوات الفرنسية في الجزائر،[3] حيث طالب بعض البرلمانيين بضرورة تغير القيادات الفرنسية في الجزائر، بينما كان رأي آخر يرى أنه ليس من الحكمة أن تحتفظ فرنسا بالجزائر، ونتيجة لهذا الضغط قامت الحكومة الفرنسية بتعين الجنرال "كلوزيل Clauzel" حاكما عاما على الجزائر،كما تم تعيين الجنرال "دارلانج D'arlange" خلفا "لتريزيل Trézel" على رأس القوات الفرنسية في وهران، أما في الجزائر فقد انتشر خبر انتصار الأمير بين القبائل بسرعة، فكان لذلك الأثر الكبير في زيادة الوعي بين القبائل لمواصلة المقاومة الفرنسية، وبذلك ساعد هذا الإنتصار الأمير في توطيد دعائم الدولة الوطنية الجزائرية التي كان يعمل من أجل إقامتها.[4]

ومن جهة ثانية فقد أبرزت هذه المعركة عبقرية الأمير العسكرية بخوضه لهذه المعركة، بتكتيك عسكري حديث بقوات قليلة العدد والعدّة من خصمها، كما أبرزت سرعة الأمير في مواجهة المستجدات العسكرية، وحسن استثماره للنصر بتصميم يتوافق مع الفنون القتالية الحديثة، حيث كانت هذه معركة إفناء ومناورة من الجناحين، وهذا مبدأ نفذه عدة قادة عسكريين، يستلزم الكثير من الدقة والحذر.[5]

- **معركة الغروف 03 ديسمبر 1835.**

وجه "كلوزيل Clauzel" كل اهتمامه من أجل القضاء على المقاومة مهما كلفه ذلك، حيث سعى إلى قطع الإمدادات التي تصل إليها عن طريق البحر فاحتل جزيرة رشقون في 20 أكتوبر 1835م، [6] وبإضافة رشقون إلى مستغانم وأرزيو أصبح الفرنسيون يسيطرون على معظم شواطئ الغرب الجزائري، وكان ذلك يندرج في إطار سياسة "كلوزيل Clauzel" الهادفة إلى رفع معنويات المعمرين الأوروبيين في الجزائر، وكذا أفراد الجيش، حيث كان هؤلاء يشعرون بأن جميع الجهود لاحتلال الجزائر لم تمر بعد بالإنهزام الذي منيت به القوات الفرنسية في المقطع،[7]حيث أكدت

1- Azan(P), op-cit. p 53.

2- Rousset(C), la conquête d'Alger,op-cit, p393.

3- Ibid, p394.

4 – شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص136.

5 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص102.

6 – المرجع نفسه، ص107.

7- Azan(P), op-cit, p56.

هذه المعركة مدى استماتة الجزائريين في الدفاع عن أراضيهم، كما شهدت هذه الفترة تأزم وضعية القوات الفرنسية في المدن الساحلية بعد أن امتنعت معظم القبائل عن تموينها، إستجابة لأوامر الأمير، الذى كان في هذه الفترة يبحث عن الطرق المثلى لإقامة دولة وطنية جزائرية تخضع لها في مختلف قبائل الجزائر.[1]

حينها بدأ "كلوزيل Clauzel" يفكر في تسيير حملات ضد موقع تمركز قوات الأمير، وفي إطار هذه الخطة، خرج من وهران في 27 نوفمبر 1835م على رأس قواته في حملة هدفها تدمير مدينة معسكر،[2] بعد أن انظم إليه الدوق "دورليان D'orléans" ونظرا لشدة القصف المدفعي تمكنت القوات الفرنسية من تشتيت قوات المقاومة التي كانت تراقب تقدم القوات الفرنسية نحو معسكر،[3] إلا أن الأمير تمكن من تنظيم صفوفه بسرعة، وشنّ هجوما مضاداً على القوات الفرنسية التي اضطربت صفوفها نتيجة لهذا الهجوم، وتحت ضغط القوات الجزائرية إنسحبت القوات الفرنسية نحو وادي الهبرة المطاردة من قبل المجاهدين، ونظرا لما لحق الجيش الفرنسي من خسائر فادحة خلال هذه الفترة من المواجهات الأولية قرر "كلوزيل Clauzel" دخول معسكر عبر الطريق الأطول مرورا بمنطقة الغروف.[4]

بعدما تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة بسهل سيق،[5] وفي صباح 3 ديسمبر، أمر "كلوزيل Clauzel" قواته بالمسير في طريق مناطق سيق والهبرة ، وهي الطريق الأطول للوصول إلى معسكر، بعد أن لاحظ عناصر القوات الجزائرية في الجبال، فخاف من أن تتم إبادة جيشه في تلك الجبال،[6] ولما أدرك الأمير تصميم "كلوزيل Clauzel" على متابعة سيره نحو معسكر متجاهلا الطريق المؤدية إليها مباشرة أمر قوات المقاومة بالهجوم على الجيش الفرنسي متخذا المبادرة لمنعه من إتمام مهمته،[7] فشنوا والمشاة الجزائرية هجوما على مؤخرة الجيش الفرنسي، تلا ذلك هجوما آخر من قبل الخيالة على مقدمة الجيش الفرنسي، وبعد مرور فترة وجيزة من هذا الهجوم،[8] وقعت ثغرة كبيرة بين مقدمة الجيش الفرنسي ومؤخرته استغلتها القوات الجزائرية لتنفذ منها إلى صفوف الجيش الفرنسي،[9] إلاّ أنّ إنضمام فرقة "أدينوا

---

1 -أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص280.

2- Azan (P), op-cit, p61.

3- Ibid, p61.

4 – منطقة الغروف عبارة عن أرض وعرة متموجة، تكثر فيها الأغطية النباتية الكثيفة، وبها منبع سيل الغروف الذي يلتقي مع وادي سيق على بعد 10 كلم جنوبي مستنقعات المقطع، ويجتاز هذا النهر مسالك تكثر فيها الصخور والمرتفعات والوديان العميقة من منبعه حتى طريق وهران ومعسكر، أما جزءها الممتد من هذه الطريق حتى مصبه في نهر سيق فهو سهلي يسمح بمرور العربات بسهولة. ينظر:

- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص226.

5 – المرجع نفسه، ص227.

6 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص212.

7- Azan(P), op-cit, p62.

8- Ibid, P.62.

9 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص113.

Adinou" إلى الفرق الفرنسية الأخرى، وتشديد القصف المدفعي على القوات الجزائرية جعل الأمير يأمر قواته بالإنسحاب نحو الجبال حيث كان يريد استرجاع القوات الفرنسية إليها،[1] أين تكون أرض المعركة في صالح القوات الجزائرية، إلا أن كلوزيل أدرك غرضه ورفض متابعته، وفضّل السير في اتجاه وادي الهبرة، بينما الأمير بدأ يحضر قواته لمجابهة ثانية لمنع تقدم الفرنسيين نحو معسكر.[2]

لقد كان الخلل في التوازن العددي قبل معركة الغروف واضحا بين قوات عبد القادر وكلوزيل، وأن العرب يخوضون معركة خاسرة بالتأكيد، فلم يكن أمام الأمير خيار إلا مجابهة جيش الحاكم العام، فإذا انسحب تاركا الطريق حرة أمام الفرنسيين لاحتلال عاصمته، استضعفه حلفاؤه والقبائل وفقد هيبته عند أصدقائه وأعدائه، لذلك لم يكن له إلا أن يختار الصمود والتصدي للقوات الفرنسية. وبذلك دفع عناصر قواته إلى ساحة الإستشهاد في سبيل كرامتهم والعيش بحرية داخل حدود إمارتهم.[3]

- **معركة يسر التافنا 25 جانفي 1836م:**

مع بداية سنة 1836م كانت الأمور تتجه نحو حملة فرنسية أخرى، فبعد أن راسل "كلوزيل Clauzel" حكومته، وافقت هذه الأخيرة على طلبه في القيام بحملة على تلمسان (ديسمبر 1835م، مارس 1836م)،[4] حيث كان "مصطفى بن اسماعيل" متحصنا في قلعة المشور مع الكولوغليين، وأخذ يراسل القوات الفرنسية، يدعوهم إلى الزحف على تلمسان، ويعدهم بخضوعهم مع أتباعه لسلطتهم خصوصا بعد أن انضم إليه المازاري والعماري شيخ الأنجاد،[5] وفي غابة الزيتون بالقرب من تلمسان وقعت مواجهة بين الأمير وزعيمي الدوائر والزمالة وشيخ الأنجاد في مدينة تلمسان فألحق بهم الهزيمة،[6] فقام "مصطفى بن اسماعيل" بمراسلة "كلوزيل Clauzel" يدعوه إلى المجيء للمدينة من أجل مساعدته في قتال الأمير نظرا لانضمام معظم قوات المنطقة إليه.[7]

غادرالأمير المنطقة في الليلة السابقة لوصول القوات الفرنسية إليها، لأن قواته لم تكن مجهزة لقتال الفرنسيين داخل مدينة تلمسان، مما جعله ينسحب إلى وادي عوشبة شرق تلمسان، وأخذ يراقب تحركات القوات الفرنسية التي قام قائدها "كلوزيل Clauzel" بإرسال فرقة تحت قيادة الجنرال "براجو" و"دارلانج" تتكون من عناصر الكولوغليين

---

1 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص114.

2 – أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص230.

3– المرجع نفسه، ص230.

4– محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص249.

5 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص116.

6 –أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص214.

7 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص120.

والأنجاد ومقاتلين من الزمالة والدوائر، لاستكشاف ضواحي المدينة،[1] وعندما علم الأمير بأمر هذه الفرقة انسحب نحو الجبال القريبة من وادي عوشبة، وأثناء هذا الإنسحاب لحقت به القوات الفرنسية وشبّ بينهما القتال، مما دفع به للتوجه إلى بعيد عن مرمى الفرنسيين.

وبعد مرور فترة قصيرة بدأت القوات الفرنسية تعاني من مشكلة التزوّد بالمؤن، نظرا لسيطرة الأمير على طرق المواصلات، ولكي يحل "كلوزيل Clauzel" هذا المشكل سعى إلى فتح طريق بين جزيرة رشقون وتلمسان لتأمين المواصلات بين الجزيرة والمدينة وهنا سوف يتصادم الطرفان مجددا.[2]

لما علم الأمير بتحرك القوات الفرنسية اتخذ الإحتياطات على الضفة لمواجهتها، حيث وزّع عناصر البوحميدي فوق مرتفعات عالية ومشرفة على الضفة اليسرى لنهر الأيسر، وركّز ما بقي من المقاتلين تحت إمرته مقابل المجموعة الأولى، أي على الضفة اليمنى لنهر الأيسر.[3]

وابتدأت المعركة بدخول فرسان الدوائر والزمالة إلى مضارب عناصر الأمير في الضفة اليمنى لوادي يسر، حيث شنّت عناصره هجوما على أولئك الفرسان ، كما فاجأت قواته سرايا الكتيبة الإفريقية الأولى في محاولة لمحاصرتها وأسر عناصرها، فتراجعت هذه الأخيرة نحو منحدرات التافنا، وما هي إلاّ دقائق حتى عادت قوات "البوحميدي" واجتمعت مندفعة باتخاذ القوات الفرنسية المهاجمة لقوات الأمير، فاجتاز نهر التافنة وهاجمت القافلة الفرنسية التي تراجعت أمام هذا الهجوم، وعقب هذا التراجع الفرنسي، إلتحمت عناصر الأمير مع عناصر البوحميدي وتمركزوا فوق الجبال المطلة على طريق تلمسان –التافنا– يراقبون تحركات الفرنسيين،[4] وأخذ الأمير يحضر للمواجهة المقبلة.

يمكن القول بأن الأمير لم يتبع تكتيكا معينا في قتاله هذا، بل لجأ إلى عملية الكر والفر التي اشتهرت بها قواته.

- **معركة سبع شيوخ 27 جانفي 1836م**:

بعد أن قطعت قوات "كلوزيل Clauzel" مسافة قصيرة قام بعض مقاتلي الزمالة والدوائر بإمرة "المازاري" والمقدم "يوسف" بهجوم على قوات الأمير المتمركزة في مرتفعات سبع شيوخ، إلاّ أنها تراجعت أمام الهجوم المعاكس الذي شنّه عليها فرسان الأمير الذين كانوا تحت إمرة "البوحميدي".

1– Azan (P), op-cit, p69.

2 – أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص251.

3 – المرجع نفسه ، ص256.

4 – إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص126.

وأمام تدخل كتيبة المشاة الفرنسية والفرسان من اليسار واستمرار القصف الموجه ضد القوات المقاومة، اضطرت هذه الأخيرة إلى التراجع وابتعدت عن ساحة المعركة لتتمركز على المرتفعات المتحكمة بطريق الفرنسيين، وبذلك أصبحت القوات الجزائرية هي المسيطرة على الأوضاع، وهو ما دفع القوات الفرنسية إلى التراجع نحو تلمسان.[1]

لقد نجح الأمير في تحقيق هدفه في إيقاف تقدم القوات الفرنسية وأجبر الحاكم العام على العودة إلى تلمسان بعد أن ترك حماية عسكرية في تلمسان تحث قيادة "كافينياك Cavignac"،[2] وبذلك أدى إنتصار الأمير في هذه المعركة إلى السيطرة على طريق مواصلات جد مهم للقوات الفرنسية، كما أفشل مشروع كلوزيل العسكري القاضي باحتلال أهم المدن، وإخضاع كل قبائل المنطقة للسلطة الفرنسية، وهو ما أدى إلى إنضمام بعض هذه القبائل إليه.[3]

- **معركة السكاك[4] 06 جويلية 1836م:**

قامت وزارة الحربية الفرنسية بإرسال الجنرال "بيجوBugeaud" إلى الجزائر، وذلك بسبب الأوضاع الصعبة التي تعيشها قوات الإحتلال الفرنسي بالغرب الجزائري.

في صباح يوم 6 جويلية 1836م بدأت قوات الأمير تتقدم نحو معسكر الفرنسيين الذين لم يستكملوا تمركزهم بعد، وفي نفس الوقت كانت قوات ابن نونة تقاتل قوات الدوائر على الضفة اليسرى لنهر السكاك، فأمر بيجو قواته بتكثيف القصف المدفعي ضد قوات ابن نونة ثم قام بهجوم ضد تلك القوات فأجبرها على التراجع.[5]

قام الأمير بجمع قواته النظامية التي كانت تشكّل الإحتياط، وأمرها بتوجيه نيران بنادقها نحو القوات الفرنسية التى تجمعت و ركزت طلقات مدافعها نحو قوات المقاومة المهاجمة، إلاّ أن حدة القصف و تجمع القوات الفرنسية جعلت قوات الأمير تتراجع، وهو ما دفع بالفرسان إلى التجمع قصد مهاجمة القوات الفرنسية،[6] إلا أن بيجو علم باجتماعهم للهجوم و جمع قواته وزحف على رأسها تحت غطاء القصف الكثيف لمدفعيته نحو وادي السكاك ليقوم بمحاصرة قوى المقاومة عندما يحاول عبور الوادي، ولما علم الأمير بذلك أصدر الأوامر لجيشه بوقف القتال والإنسحاب في الحال

---

1 -أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص261.

2- Azan (P), op-cit, pp73,74.

3- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص126.

4-يقع وادي السكاك بالقرب من مدينة تلمسان على بعد بضعة كيلومترات فقط، ويلتقي هذا النهر مع نهر يسر في السفوح الجنوبية لجبل سبع شيوخ، بالقرب من قرية سيدي يوسف، ويتميز هدا الوادي بمنخفضاته العميقة، في هذه المنطقة بينما على جانبيه كانت تنتشر الهضاب والتلال، وفي هذا الموقع أي الذي يلتقي فيه وادي يسر ووادي السكاك وقعت معركة السكاك. ينظر: - أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص302.

5- Azan (P), op-cit, p84.

6- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص302.

فاجتازت قواته وادي يسر مفلتة من الفخ الذي نصبه لهم بيجو وقواته،[1] وفي مساء يوم 6 جويلية كانت منطقة السكاك في أيدي الفرنسيين.[2]

سقط العديد من القتلى والجرحى والأسرى من الجانبين، حسب الإحصائيات الفرنسية، حيث تشير هذه الإحصائيات إلى أن قتلى قوات الأمير في هذه المعركة كان حوالي مائة وعشرون (120) قتيلا والجرحى مائتان وأربعون (240) [3] والأسرى مائة وثلاثون (130)، أما الجانب الفرنسي فلقد خسر في هذه المعركة حوالي إثنان وثلاثون قتيلا وسبعين جريحا، وعقب نهاية المعركة إعتبر الفرنسيون نهايتها نصرا كبيرا لهم حيث واصل بيجو سيره نحو تلمسان، حيث سارعت حامية "كافينياك Cavignac" ومعها حفنة من الكولوغليين واليهود لاستقباله وتهنئته خارج المدينة.[4]

تمكن الأمير من صقل مواهبه العسكرية مرة أخرى، فقد أدرك أن الهدف أكبر من أن تحدده معركة واحدة، ولذلك نراه بعد معركة السكاك، بدأ يشحذ قواته لمواصلة مقاومة الفرنسيين، كما صار يعرف متى ينسحب والطريقة التي ينسحب بها، دون أن يعرض قواته للخطر، وبذلك استخدم في هذه المعركة أساليب قتالية جديدة رفعته إلى صفوف القادة العسكريين الكبار.

❖ عقد إتفاق التافنا 30 ماي 1837م:

هي إتفاقية جرت بين الأمير عبد القادر والجنرال "بيجو Bugeaud" بمنطقة وادي التافنا في 30ماي 1837م، وتضمنت خمسة عشر بندا، على وثيقة بتوقيع من الطرفين، ومن نسختين عربية وفرنسية.

فبعد معركة السكاك بدأت الحكومة الفرنسية تيأس من إيجاد أسس لحل المسألة مع عبد القادر، فالمناقشات التي كانت تجرى في جلسات الحكومة الفرنسية كانت في مجملها تبحث عن الحل الأمثل للقضاء على قوات المقاومة التي أصبحت تهدد التواجد الفرنسي في الجزائر،[5] لكن "بيجوBugeaud" أعلن لوزير الحربية بفرنسا تصميمه عرض الصلح على الأمير عبد القادر، فوافقت حكومة باريس على انتدابه مجددا إلى الجزائر لمعالجة القضية بطريقة سلمية مع الأمير، وقد أولته صلاحيات مطلقة دون العودة إلى الحاكم العام "دامريمون Damrémont".[6]

1- Azan (P), op-cit, p.84.

2- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص138.

3- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص304.

4- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص138.

5 - Azan (P), op, cit, p87.

6- أديب حرب، ج1، المرجع السابق ،ص313.

أما في الجزائر فكان "كلوزيل Clauzel" يبحث عن نصر للقوات الفرنسية يضمن به إستمرار عملية احتلال الجزائر، ولذلك قام بشن حملة على قسنطينة في نوفمبر 1836 إلا أن نتائج هذه الحملة كانت على عكس ما توقعه، فالقوات الفرنسية منيت بهزيمة أخرى أثرت سلبيا على التواجد الفرنسي في الجزائر.[1]

أما الأمير فقد أدرك المأزق الذي أصبحت فيه القوات الفرنسية، و لذلك نجده يحاول استغلال هذا الوضع لتضييق الخناق عليهم، فقام بإصدار أوامر لخلفائه بالقيام بعمليات عسكرية ضدّهم.

وفي 12 أفريل إبتدأ التفاوض مع الأمير عن طريق "ابن دارن"،[2] وبعد أخذ ورد وصلت المفاوضات بين طرفين إلى طريق مسدود حيث رفض الأمير الإعتراف بسيادة فرنسا على المناطق التي تحتلها، وكذا حصر حدود دولته في إقليم وهران، وانسحابه من التيطري، ونظرا لهذه الإختلافات توقفت المراسلات بين الطرفين.[3]

إلا أن الظروف العامة التي كانت تعيشها الجزائر في تلك الفترة حتمت على الطرفين إستئناف المفاوضات، وكان الواسطة "سي حمادي السقال"، وفي بداية هذه المفاوضات اتفق الطرفان على عدم إستئناف القتال قبل أن تنتهي المفاوضات، التي امتدت من 24 إلى 30 ماي 1837م، وبالرغم من النقاشات الحادة التي جرت بين الطرفين إلاّ أن حاجتهما إلى فترة من السلم جعلتهم يتفقون على عقد اتفاقية التافنا في 30 ماي 1837م.[4]

لقد أوجدت معاهدة التافنا فرصة مناسبة للأمير للبدء بإنشاء الدولة الجزائرية، إلا أنه واجه مشكلة نقص الوعي الوطني لدى بعض زعماء القبائل الذين كانوا يريدون البقاء خارج أي قوانين تحد من حرياتهم، نظرا للتعسف الذي عانت منه خلال فترة الحكم العثماني للجزائر،[5] فزعماء هذه القبائل كانوا يعتقدون أنه لا ضرورة لمواصلة الجهاد خاصة بعد التوقيع على إتفاقية التافنا، فالفرنسيون حسبهم لن يقوموا باحتلال مناطقهم بعد التوقيع على هذه الإتفاقية، على عكس

1- أديب حرب، ج1، المرجع السابق ، ص310.

2- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص 141.

3- المرجع نفسه، ص147.

4- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص317.

- راجع بنود الإتفاقية: - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص 117-119.

- Osmanli Arsivi, HAT 46427-C.

- ينظر الملحق رقم 04.

- لقد جعلت هذه الإتفاقية بعض الجزائريين يتهمون الأمير بالخيانة من خلال السماح لفرنسا بتحييد جيشه وتوجيه قواتها الكاملة للقضاء على مقاومة الشرق الجزائري بقيادة أحمد باي، وإعلان التقارب بين الأمير عبد القادر وفرنسا، هذا ما نفته الوثاق العثمانية من خلال الإبلاغ على عدم حصول إتفاق بين الأمير عبد القادر الجزائري وفرنسا وأن التقارب الذي حصل بينهما لم يكن إلاّ لغرض سياسي محض، وأنه مازال متمسكا بولائه للدولة العثمانية. ينظر: وثيقة مؤرخة في عام 1840م، مأخوذة من:

- Osmanli Arsivi, I.HR, 8/386.

5- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص160.

الأمير الذي كان يدرك أن هذه المعاهدة ما هي إلا وسيلة لكسب الوقت حتى تستعد السلطات الفرنسية لمواصلة عملية احتلال الجزائر،[1] و لذلك كان عليه العمل على إرساء أسس الدولة الجزائرية على جميع القبائل، وبالفعل حقق مكاسب إستراتيجية وسمحت له بتنظيم الدولة.

بعد أن أقرت الحكومة الفرنسية ضرورة الإحتلال التام للجزائر، بدؤوا يبحثون عن أعذار للتنقل من إتفاقية التافنا التي رأوا في بنودها عقبة أمام توسعهم في المنطقة الشرقية من الجزائر، فحسب إدعاءاتهم فإن هذه الإتفاقية لم تحدد إمتداد المنطقة المحتلة شرقا.[2]

لكن الأمير كان متفطنا للأكاذيب والأباطيل الفرنسية، لذلك أعلن عن إنتهاء معاهدة الصلح، والرجوع من أجل الدفاع عن الوطن، وعليه قرر الفرنسيون مواصلة الحرب واكتساح البلاد طولا وعرضا، والأمير كان مستعدا بجيوشه،لاستكمال مهمته الدفاعية عن دولته الفتية.[3]

أخذت المعارك تتطور بين قوات الأمير وقوات الإحتلال، وكانت تكبد خسائر بشرية ومادية كبيرة ، فبعد نقض المعاهدة عادت كل من القوتين إلى المواجهة والحرب، وفيما يلي نماذج عن المعارك التي خاضتها قوات المقاومة الشعبية ضد قوات الإحتلال الفرنسي، بعد نقض معاهدة التافنا.

- **معركة غابة كرازة –العفرون– 27 أفريل 1840م:**

أسرع "ابن علال" إلى ضواحي غابة كرازة –العفرون– تنفيذا لتعليمات الأمير عبد القادر القاضية بأخذ الإحتياطات لمواجهة القوات الفرنسية، وفيها قسّم قواته إلى قسمين تمركز القسم الأول منها في وادي جر، أما القسم الثاني فأخذ مواقعه على المنحدرات الفاصلة بين بحيرة حلولة وحوض وادي جر، وكان على "ابن علال" وفرقته وقف الزحف الفرنسي أو تأخيره على الأقل، وفي حال عجزه عن الصمود في وجه الهجوم الفرنسي، كان عليه الإنسحاب فورا والإلتحاق بباقي الوحدات المنتشرة على مرتفعات مضيق موزايا.[4]

بينما كان "ابن علال" يتخذ تدريباته القتالية،كان فالي يغادر البليدة، وتوجه مع قواته لاحتلال المدية، ثم عسكروا في ضواحي وادي الشيفا، في صباح يوم 27 أفريل 1840م، إجتازت الوحدات الفرنسية وادي الشيفا نحو غابة كرازة فالعفرون بأرتال أربعة.[5]

---

1 – Azan (P), op-cit, p100.

2- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص137.

3- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص62.

4– Azan(P), op-cit, p164.

5- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، صص276،277.

إبتدأت المعركة بدخول الرتل الرابع من القوات الفرنسية إلى غاية كرازة، حيث تصدى لها مقاتلوا ابن علال المتمركزين في وادي دجر، وهاجموا مسيرة الجيش الفرنسي الذي اختلطت قواته بعضها ببعض نتيجة لهذا الهجوم المفاجئ، فحاول "ابن علال" إستغلال الوضع بالقيام بهجوم على جميع الأرتال الفرنسية، إلا أن "فالي Valée" أمر قواته بشن هجوم شامل على جميع مواقع قوات "ابن علال". فدخلت مجموعة "لاموريسير Lamorciére" إلى الغابة بينما الدوق دورليان أخذ يحضر قواته لشن هجوم على فرسان "ابن علال".[1]

تراجعت قوات "ابن علال" أمام هجوم الدوق "دورليان D'orléans" إلى الضفة اليسري لوادي جر، وهناك قام بترتيب صفوف قواته،[2] وتقدمت القوات الفرنسية بعد ذلك لتحتل قمة العفرون، بينما اجتازت قوات "ابن علال" وادي رومي والتحقت بقوات الأمير في مرتفعات مضيق موزايا بعد أن أوقعت بالفرنسيين خسائر معتبرة.[3]

- **معركة موزايا 12 ماي 1840م:**

لم تكن معركة غابة الكرازة – العفرون- إلا بداية المجابهة بين الأمير عبد القادر وفالي أثناء تقدم الفرنسيين نحو المدية، ولما كانت القوات الفرنسية تستعد للسير نحو المدية بعد معركة غابة كرازة كان الأمير في هذه الأثناء وقبلها على مرتفعات مضيق موزاية يتهيأ لوقف الزحف الفرنسي، حيث عمل على تعزيز دفاعاته على مرتفعات مضيق موزايا.

ابتدأت المعركة في صباح 12 ماي بتقدم مجموعة الدوق "دورليان D'orléans" نحو مرتفعات الغذاء وأخذت فرقها تتخذ ترتيباتها القتالية، وبعد أن أنهت استعداداتها قامت فرقة الجنرال "دوفيفيه" بالتوجه نحو مضيق موزايا، ثم تبعتها فرقة الوسط، بقيادة الجنرال" لامورسيير Lamorciére" ثم فرقة الجنرال "هوداتو"، وفي الوقت ذاته تمركزت فرقة الجنرال روميني على مرتفع الغذاء، أما الأمير فخلال كل هذه التحركات التي كانت تقوم بها القوات الفرنسية كان يترقبها بحذر وأصدر الأوامر لقواته بعدم إطلاق النار إلا بعد أن تصبح القوات الفرنسية على مرمى أسلحتهم، وما إن اجتازت الفرقة الأولى من مجموعة الجنرال "دوفيفيه" أولى المرتفعات المتحكمة بالطريق، حتى اشتبكت مع عناصر من مقاتلي القبائل الذين كانوا بتلك المنطقة، وفي نفس الوقت أطلقت عناصر المقاومة نيرانها ضد العناصر الفرنسية المتقدمة والموزعة على جبل الغذاء، فسادت الفوضى في صفوف القوات الفرنسية على مرتفع الغذاء.

وأمام تجمع معظم وحدات الجيش الفرنسي لمقاتلة مشاة الأمير في قمة أنفوس، أمر الأمير قواته بالإنسحاب في ثلاث اتجاهات حتى يتفادى سقوط الكثير من القتلى في صفوف قواته ، و قبل عملية الإخلاء اشتبكت قوات الأمير مجددا مع فصيلة "شانغرنييه Changarnier" بالسلاح الأبيض وبعد ذلك احتلت القوات الفرنسية قمة آنفوس،

1- Azan (P), op-cit, p195.

2- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص280.

3- Azan (P), op-cit, p195.

وبعد تأمين هذا الموقع من قبل القوات الفرنسية واصل السير مع عناصره نحو ممر موزايا، بينما اتجه "لاموريسيير Lamorciére" نحو بحيرة صغيرة بالمنطقة حيث كانت هناك سريتين نظاميتين للأمير، فاشتبك معهما.[1]

وبعد أن تأكد الدوق "دورليان D'orléans" من سيطرة القوات الفرنسية على قمة أنفوس تقدم على رأس قواته نحو الممر، حيث هجمت عليه بعض عناصر القوات الجزائرية المسلحة فأجبرته على التراجع، إلا أن بعض الكتائب الفرنسية كانت تحتل المرتفعات المحاذية للطريق و هو ما جعل عناصر الأمير تخلي المنطقة ليتقدم فيها قوات الدوق دورليان مجددا، وفي هذه الفترة التي كانت تجري فيها المواجهات في المرتفعات المحادية لمضيق موزايا، قام "ابن علال" بهجوم مفاجئ على القوات الفرنسية بمرتفع الغداء، فأمّن بهذا الهجوم انسحاب قوات الأمير ثم التحق به.[2]

- **معركة غابة الزيتون[3] 20 ماي 1840م:**

إثر إنتهاء معركة موزايا في 12 ماي ،أسرع الأمير عبد القادر جنوبا ووزع قسما من عناصره على المرتفعات المتحكمة بطريق موزايا، ثم توجه إلى المدية فدخلها وأخلاها من السكان،وبعد إتمام هذه الإجراءات إنطلق شمالا ينتظر فالي عند غابة الزيتون حيث رتب قواته،[4] وما إن اجتازت مقدمة وحدات الجنرال "دامبيارDambier" مسافة قصيرة في ممرات مناجم النّحاس والغابة حتى هاجمتها قوات المقاومة، فتراجعت وتداخلت صفوفها بسرايا الكتائب الخلفية مستنجدة بها.

وإزاء هذا التعقد في الموقف الفرنسي حاولت كتيبتان مؤازرة كتائب العقيد "بيدو Budeaud" ومساندة وحدات "دامبيار Dambier"وصد هجوم قوات الأمير وإعادتهم إلى الوراء، إلا أنها فشلت في هذه المحاولة، بل حدث العكس حيث تراجعت هذه القوات وحصلت اشتباكات بالسلاح الأبيض مع مشاة الأمير التي تمكن من السيطرة على المرتفعات المحادية لوادي الهربان.

أما الفرسان الجزائريين في هاته الفترة كانوا في اشتباك مع قوات "بيدو Budeaud"،[5] إذ تمكنت بعض الوحدات التنظيمية التابعة للأمير من السيطرة على الأراضي المتاخمة لمرتفع النظاميين، وأمام هذا الوضع أمر "فاليValée" المدفعية بقصف المواقع التي تحتلها قوات المقاومة، كما أمر المقدمة بنشر كتائبها مقابل أرض المعركة، أما كتيبة الزواف فأمرها

1-أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص298.

2- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص202.

3-تنتشر غابة الزيتون على مرتفع يجاور تقاطع مياه حوضي الشلف والشيفا، وتبعد مسافة 4 كلم تقريبا شمال غرب المدية، يحدها شمالا جبال موزايا، وجنوبا جبال الناظور والدقلة، أما غربا فيحدها مرتفع النظاميين وقسم من جبال ناظور، ويمر في هذه المنطقة وادي الهربان، وشرقا تحدها تلال صغيرة على امتداد وادي الشيفا. ينظر:
-Azan(P), op-cit, p.165.

4- Ibid, p292.

5- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص310.

بالتدخل الفوري في المعركة، فتمكنت هذه الأخيرة من صدّ قوات الأمير، بينما تمكن العقيد "رينو Runeaud" من حماية مؤخرة سرايا الجنرال "دامبيار Dambier".[1]

إستمر القتال بين الطرفين، إلى أن أسدل الليل خيوطه فأمر الأمير قواته بإنهاء القتال والإنسحاب بنظام من المعركة، وعقب ذلك توجه فالي شمالا إلى حوش موزايا و منه إلى البليدة التي دخلها في 22 ماي ، وبعد يومين وصل إلى الجزائر العاصمة، ومن هناك أخذ الحاكم العام يستعد لتنفيذ المرحلة الثانية من حملة الربيع وهي احتلال مليانة.[2]

لقد أبرزت هذه المعركة قدرة الأمير على استخدام المبادئ القتالية الأوروبية، حيث كان اختياره للمكان والزمان المناسبين دورا في مباغتة القوات الفرنسية، مما أدّى إلى خسائر فادحة في صفوفها، بينما القوات الجزائرية لم تكن خسائرها بنفس الحجم بالرغم من القصف المدفعي المركز من قبل القوات الفرنسية ، وبذلك خسرت القوات الفرنسية في هذه المعركة أربعين قتيلا ومائتان وإثنتا عشر (212) جريحا، و من جهة أخرى كان انسحاب الأمير من المعركة جد مناسب بعد تحقيق هدفه المتمثل في إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالقوات الفرنسية دون تعرض القوات الجزائرية لخسائر كبيرة، كما أكد للسلطات الفرنسية بالجزائر بأن مقاومته ستستمر مادام الإحتلال الفرنسي باقيا في الجزائر.[3]

- **معركة جبل كركور 23 سبتمبر 1845م:**

كانت هذه المعركة قاسية، حيث حدثت المواجهة بين قوات المقاومة الشعبية ضد قوات الإحتلال على المنحدرات، فبعد أن أصدر النقيب "داشرجار" أوامر للملازم "لازارت"، بالتوجه بسريتة نحو الشرق، لإنقاد ما تبقى من القوات الفرنسية، فتقدمت هذه السرية نحو منحدرات جبل كركور، وما هي إلا لحظات حتى تعرضت هذه السرية لهجوم شامل من قبل القوات الجزائرية، فتمت إبادة معظم عناصرها.[4]

وبعد ذلك واصلت قوات المقاومة هجومها على مجموعة "داشرجار" الذي فقد عددا كبيرا من عناصره في هذا الهجوم، ولما رأى "مونتينياك Montignac" الخسائر الكبيرة التي لحقت به أصدر أوامر للنقيب "بربوت" من أجل الإسراع نحو منطقة سيدي موسى العنبر، وجلب قوات "داكوست Dacoste" إلى كركور لمساندة العناصر المتبقية من القوات الفرنسية، و لما نفذ الأمر ورجع إلى "مونتينياك Montignac" وجده قد مات، فتولى قيادة باقي القوات الفرنسية، حيث قام بترتيبها بشكل دفاعي على منحدرات جبل كركور،[5] و لما رأى الأمير تلك الفوضى التي كانت

---

1 – Azan (P), op-cit, p165.

2- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص311.

3 – Azan (P), op-cit, p165.

4- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص523.

5 – Azan (p), op-cit, p208.

سائدة في صفوف القوات الفرنسية أمر قواته بشن هجوم شامل عليها، فتمكنت بذلك القوات الجزائرية من شل حركة القوات الفرنسية فأوقعت بهم خسائر كبيرة، وأخذ قائد هذه القوات النقيب "كونورود" أسيرا.

أما "داكوست" الذى كان يسير على رأس قوات النجدة نحو جبل كركور فقد وجد عند وصوله إلى منطقة القتال أن قوات الأمير تسيطر على الوضع، فأمر قواته بالتراجع بعد أن انظمت إليه سرية بوغار نحو موسى العنبر وفي الطريق أحاطت بهم مجموعة من فرسان البوحميدي، فوقع بينهما اشتباك، قتل خلاله قائد القوات الفرنسية "داكوست" فتسلم النقيب "دوترت" قيادة ما بقي من القوات الفرنسية، إلا أنه سرعان ما قتل هو الآخر، فرجعت قيادة القوات الفرنسية الى النقيبين "توماس و بربوت"، بعد إصابة بورغار برصاصة في رجله، إلا أنهما لم ينجحا في صد هجوم القوات الجزائرية التي تمكنت من أسر خمسة وستين جنديا وضابطا من بينهم توماس وبربوت، وبذلك بقت سرية واحدة من القوات الفرنسية قادرة على القتال وهي سرية النقيب جار والمتمركزة في سيدي موسى العنبر[1]

لقد أسفرت هذه المعركة عن مقتل عدد كبير من الضباط الفرنسيين "كمونتينياك وداكوست ودوترت"، وبينما تم أسر المقدم "داكونور" بالإضافة إلى ثمانين جنديا وضابط من سرايا المشاة، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المعركة أثبتت أن المقاومة لازالت مستمرة، وقادرة على إحراز الإنتصارات بالرغم من الوضعية التي كانت تعيشها القوات الجزائرية جراء نقص في التموين و عدد المقاتلين، و من ناحية أخرى أظهرت الخطة التي طبقها الأمير في هذه المعركة الخبرة العسكرية التى أصبح يتمتع بها، بالإضافة إلى المعنويات العالية التي كانت تتمتع بها قواته بالرغم من المحن التي أصابتها.[2]

من خلال دراستنا لنماذج عن المعارك العديدة التي خاضها الأمير والتي سوف نواصل التحدث عنها في فصول لاحقة، نجد أنه كان يريد أن يجعل المقاومة تحت رايته، تتخذ شكلا آخر غير مألوف في المنطقة خلال هذه الفترة، بأن يجعل المواجهة تتم بين دولة ودولة، لا بين مجموعة قبائل ودولة قوية، كما نرى من طول مدة هذه المعارك والانتصارات التي حققها أن مقاومته كانت مبينة على أسس راسخة ،كالبيعة وتنظيم الدولة وإنشاء جيش نظامي، خوّلت لها أن تدوم سبعة عشر سنة غير أن تعدّد هذه المعارك لا يعني أن الأمير كان رجل حرب فقط، فمعاهدتي ديميشال والتافنا تظهر أنه دبلوماسي محنك لا تخفى عنه صغريات الأمور كما أن اعتماده على البيعة يظهر مدى ارتباط الأمير بالشريعة الإسلامية في حكمه، إضافة إلى أن هذه المعارك التي خاضها من الناحية التكتيكية.

كما أن المعارك التي خاضها من الناحية التكتيكية تعتبر مدرسة بحد ذاتها، فتكتيكاته العسكرية تميزت بالحداثة والعصرنة، حيث أن فطنته جعلته يتفوق على كبار ضباط فرنسا المتخرجين من مدارس عسكرية مرموقة.

1- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص254.

2- أديب حرب، ج1المرجع السابق، صص522،523.

و. أسس الدولة الجزائرية الحديثة حسب المنظور الأميري:

إذا تحدثنا عن الأمير عبد القادر وتأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة، فنقول أنها نتيجة وعي شخصي نابع من محيطه وواقعه، وناتج من إدراك فكري عميق يعبر عن ملاحظاته ومعاناته، فقد كانت رؤيته الحدودية تتجاوز الإقليمية، أي أنه كان مدركا لواقع الأمة التي حاول جاهداً من أجل إعادة مجدها وعزّها، فقد استطاع أن يبلور أفكاره في مجموعة من القواعد والنظريات التي يكون لها إستمرار وتواصل، والتي أدحض بها كل الإدعاءات والمزاعم التي ترى أنّ الأمة الجزائرية لم تكن لها دولة أبداً، وأنّها عاجزة عن تكوين دولة، بالرغم من أن الجزائر لها إمتداد طويل في الزمن، والشواهد التاريخية على ذلك عديدة، وتلك الأفكار تظهر جليا في تنظيمه لدولة وعصرنتها في جميع المجالات السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية.[1]

لقد إنصب مشروع الأمير عبد القادر على تأسيس سلطان شرعي مقاوم يحمل إمارة الجهاد، مدافعاً في ذلك على كرامة وعزّة بلاده، فقد فهم أن دولة عظمى كفرنسا بضباطها وجنرالاتها وعتادها الحربي المتطور، لا يمكن مقاومتها إلاّ بدولة لها سلطانها وسيادتها، وجاءت أفكاره هذه أثناء معاركه الأولى ضد الإستعمار الفرنسي في معركة خنق النطاح وسانت أندري ورأس العين، فعمل من أجل تحويل أفكاره في الميدان النظري إلى الميدان التطبيقي العملي، فحوّلها إلى أجهزة وأدوات، وسعى إلى تأسيس جيش دائم، وقام بتأسيس الدولة الجزائرية الحديثة بمؤسساتها، وصناعاتها، وقانونها، وإدارتها، وغيرها، محاولا من خلالها إعادة الدولة الإسلامية إلى غابر مجدها الزاهر، لأن دولته إنبثقت من إرادة شعبية،[2]

1- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، الملتقى 26-27 نوفمبر، الجزائر، 1998، ص15.

2- أي أنه أحدث القطيعة مع الهوية القبلية التي لا تبني دولة، ولا تدافع عن الوطن، ونشر وعمّم الهوية الوطنية وأسس دولة جزائرية حديثة ومميزة، والتي تدل على الشخصية الوطنية الجزائرية، ويكون الشعب الجزائري وليس القبيلة هو صاحب القضية، الذي ستظهر قطوفه مع ثورة 01 نوفمبر 1954م، والتي أوصلته لنيل الحرية والإستقلال سنة 1962م، لأن القبيلة عبارة عن كيان إجتماعي قائم على رابطة القرابة والولاء والدم، والتضامن فهي تخضع إلى ترسيخ الترابط معها، وتسير بآليات منظمة عرفيا ومتوارثة عصبيا، فرؤساء القبائل عندهم هم الذين يملكون السلطة، إذ لا منازع لهم إلاّ من يكون قد حقق عصبية أقوى منهم.

يعد سيد القبيلة نفسه شيخاً لها وزعيمها وممثلا لها في علاقاتها مع غيرها من القبائل والتنظيمات الإجتماعية المختلفة، ويحظى في قبيلته بالتقدير والإحترام، فالقبيلة إذن تعد من أكثر النظم الإجتماعية قِدماً في التاريخ الإنساني، إضافة إلى كونها رافقت الأشكال التنظيمية الأخرى التي ظهرت فيما بعد، من خلال الروابط الدينية والإقتصادية والسياسية، وكانت لفترة طويلة من الزمن الأساس التي تقام عليه معايير التفاعل الإجتماعي، من تظافر وصراع وتنافر، لكنها أخذت بالإنحصار إثر ظهور أشكال جديدة من التنظيمات الإجتماعية، وخاصة ذات العلاقة بالتنظيمات السياسية القائمة على مفاهيم الوطن والمواطنة، والتي أصبحت اليوم أكثر إنتشاراً في معظم أنحاء العالم، لكن كيف تعامل الأمير عبد القادر مع هذه الذهنيات والتعصب؟

كان الأمير عبد القادر مدركاً لنار التعصب التي كانت تشتعل في صدر كل مسلم ينتمي إلى قبيلة ما، وكان مدركاً أيضا أن ما قد يحققه حب الوطن، ستحققه بالتأكيد الغيرة على الدين الإسلامي، لذلك قرر أن يجعل من هذا الشعور الأخير حجر الزاوية في الصرح المائل الذي تجاسرت عبقريته هو وحده على تصوره، من أجل إحداث الوحدة، وفتح الذهنيات على مشروع إعادة هيكلة البنية الإجتماعية القاعدية، والإنتقال من حال القبيلة الكلي إلى حال الأمة الشمولي، ثم الشعور بالوطنية والإنتماء.

وبيعة شرعية،[1] قائمة على نظام سياسي شرعي ومركزي ومؤسساتي، فالأمير عرف أن البعد الحقيقي للنهضة هو النهضة التنموية والمداخيل المادية، وبناء الدولة على أسس متينة من أجل مجابهة النظام الإحتلالي، وفعلا فقد قامت دولته على مجموعة من الأسس إستطاعت بفضلها التميز عما كانت عليه الدولة العربية الإسلامية في وقته،[2]

و.1. البيعة والإلتزام برأي الجماعة والشورى:

البيعة هي نظام حكم مرتبط بالدين الإسلامي، وتعتبر من أهم مميزات النظام السياسي له، وقد تفردت الحضارة الإسلامية بنظام البيعة للمسلمين وغير المسلميين، فهي من المصطلحات الإسلامية التي ذكرت في القرآن والسنة النبوية الشريفة ولها مفهوم في السياسة الشرعية.

فلفظ البيعة في لغة العرب تعني "المبايعة والطاعة: والصفقة على إيجاب البيع، وبايعه عليه مبايعة أي عاهده، كما هو عبارة عن المعاقدة والمعاهدة، كأن كل واحد منها با ع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته، ودخيلة أمره"،[3] ويعرفها إبن خلدون: "...البيعة العهد على الطاعة، كأن المبايعة يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، وهي عقد بين الحاكم والمحكوم يوجب كل منهما إلتزامات...".[4]

لكن هنا ندرك أن الحضارة الإسلامية حضارة بناءة، فهي تعي قيمة أفرادها، وضرورة مشاركتهم في الأحداث المحيطة بهم، ومن ثم وجدنا أسوة المسلمين رسول الله علية الصلاة والسلام، يرسي مبدأ البيعة منذ اليوم الأوّل لقيام الدولة الإسلامية، ولأهمية أمر البيعة في المنظور الحضاري الإسلامي وجدنا القرآن الكريم يشير إليه في أكثر من موضع حيث يقول عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ

1- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 14، ديسمبر 2000، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2000، ص91.

2- يقول بول آزان في هذا الصدد: "استطاع الأمير عبد القادر أن يقيم حكومة حقيقية في وقت قصير، لقد كانت هذه الحكومة ثمرة تعاليم ونصائح والده، وكذا إستفادته من المثال الذي تبناه من إرادة محمد علي لمصر من خلال فترة أدائه فريضة الحج، كما كان ثمرة خصاله الشخصية، وإيمانه القوي بمهمته المقدسة، وشجاعته في ميدان القتال، وطاقته التي لا تفتر في الشدائد والمحن، وصرامته التي لا تلين في ممارسة السلطة، وقراره الصائب في إختياره لممثليه، لقد كان نظام حكومته يختلف تماماً على نظام الأتراك، جعل على عكسهم الجماهير العربية القبائلية تحت سلطته المباشرة بعد إختيار قادة لها ترضى عنها تلك القبائل...". ينظر:

- Azane (P), L'émir Abdelkader (1808-1883), du fanatisme musulman au patriotisme français, Hachette, paris, 1925, p128.

3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ج8، د س، ص26.

4- ابن خلدون، المقدمة، تح: درويش جويدي، ط2، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص194.

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾،[1] وفي ذات السورة يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾،[2] كما أشار الله عزّ وجل إلى بيعة النساء، دلالة على أهمية دورهن الفاعل في بناء الحضارة الإسلامية فقال تعالى: ﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۚ ﴾،[3] وبذلك إقتدى المسلمون برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأضحت البيعة ركنا لا فكاك منه في المنظومة الإسلامية، ودليلا على مشاركة الرعية كلها في مبايعة الإمام.

فالبيعة دينية في الأساس منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي تأييد المرشح للخلافة،[4] والموافقة على الترشيح، وبهذا المفهوم السياسي فهي مثل بيعة الخلفاء الراشدين، وبيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي كانت أوّل بيعة سياسية في الإسلام، وكانت المبادرة بمبايعته للثقة بقبول سائر المسلمين، فأصبحت سنة يحتذى بها الذي يأتي من بعده من المسلمين.

إذن فالأصل في المبايعة أن تكون بعد إستشارة جمهور المسلمين، وإختيار أهل الحلّ والعقد، ولا تعتبر مبايعة غيرهم إلاّ أن تكون تبعا لهم،[5] إقتداءا بقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾،[6] وقوله عليه الصلاة والسلام: "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم" قال قلت: "فإن لم يكن لهم جماعة

1-سورة الفتح، الآية 10.

2-سورة الفتح، الآية 18.

3-سورة الممتحنة، الآية 12.

-يذكر الإمام مالك بن أنس في كتابه "الموطأ"، فيما جاء في بيعة النساء لرسول الله عليه السلام، حَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهَ وسَلّم، فِي نِسْوَةٍ بَايَعْنَهُ عَلَى الْإِسْلاَمِ، فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللهِ نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لاَنُشْرِكَ باللهِ شَيْئًا وَلاَ نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ وَلَا نَقْتُلَ أَوْلاَدَنَا وَلاَ نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا وَلاَ نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهَ وسَلّم: "فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ" قَالَتْ: فَقُلْنَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا هَلُمَّ نُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهَ وسَلّم "إِنِّي لاَ أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ إِمْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ مِثْلَ قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ". ينظر:

- مالك بن آنس الأصبحي، الموطأ، تح: طه عبد الرؤوف سعد، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2016، ص561.

4-الخلافة تعني: الرئاسة العظمى والولاية العامة الجامعة، القائمة بحراسة الدين والدنيا والقائم بها يسمى الخليفة، لأنه خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأيضا الإمام لأن الإمامة والخطبة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين لازمة له، لا يقوم بها غيره إلاّ بطريق النيابة عنه، كالقضاء والحكومة، ويسمى أيضا أمير المؤمنين، وهو الوالي الأعظم لا والي فوقه ولا يشاركه في مقامه غيره، وأوّل خلافة إنعقدت على حقيقتها ووجهها في الأرض، هي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الفخر الرازي: الخليفة هو من يخلف غيره ويقوم مقامه. للمزيد ينظر: - محمد عبد الحي الكتاني الإدريسي، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، تح: عبد الله الخالدي، ج1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د س، ص79.

5-محمد رشيد رضا، الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، د.ط، مصر، د س، صص20،21.

6-سورة الشورى، الآية 38.=

ولا إمام" قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها"، أي أن وليّ الأمر واحد من الجماعة، ويطاع بتأييد جماعة المسلمين الذين بايعوه له وثقتهم فيه، فطاعة الأمير، تابعة لطاعتهم وإجتماع الكلمة بسلطتهم،[1] وكل هذا من أجل التعاون للوصول إلى ما فيه الخير العام والخاص، ولما فيه من تآلف القلوب وإجتماع الكلمة، ولما في ذلك من التواضع ولين الجانب للمؤمنين، قَالَ عَزَّ وَجَلْ لِنَبِيهِ مُحَمَدْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهَ وسَلّم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اَللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ اَلْقَلْبِ لَانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي اِلْاَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اَللَّهِۖ إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اُلْمُتَوَكِّلِينَۖ﴾،[2] فالعمل بالشورى مشروع للمسلمين في كل وقت على أن تكون الشورى في الأمور المهمة التي يخفى فيها وجه الصواب، ويكون المستشار من أهل الرأي والمعرفة.[3]

هذا المنهاج الإسلامي الراشدي في اختيار الحاكم وتنصيبه، انحرف عنه الكثير ممن تولوا الحكم بعد الخلفاء الراشدين، حيث صاروا يعمدون إلى القوة في الإستلاء على السلطة، وهذا ما أدّى إلى ظهور الدويلات بعد ضعف الخلافة الإسلامية في المشرق والمغرب الإسلاميين، لأن المبايعة نموذج إسلامي شرعي يعمل وفق أطر دينية، ووفق مبدأ الشورى كمبدأ أساسي تم تطبيقه وفق نموذج إسلامي سليم في قيادة الحكم.

=-الزمخشري في شرحه للآية يذكر أنّها نزلت في الأنصار دعاهم الله عزّ وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه، وأقاموا الصلوات الخمس، وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم الرسول عليه السلام، لا ينفردون برأي حتى يجتمعون عليه، وعن الحسن ما تشاور قوم إلاّ هدوا لأرشد أمرهم. ينظر:

– أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تع: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 2009، ص981.

1– محمد رشيد رضا، الخلافة، المرجع السابق، ص21.

2– سورة آل عمران، الآية 159.

– يقول صاحب تفسير مختصر ابن كثير للمحقق محمد علي الصابوني في تفسيره لقوله عَزَّ وَجَلْ: "وَشَاوِرْهُمْ فِي اِلْاَمْرِ" أَيْ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَلَامْ كان يتشاور أنصاره في الحروب ونحوها ليطيب في ذلك قلوبهم، حتى أنهم لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا في أرائهم، وهذا ما ذكره البيضاوي في تفسيره أي فيما يصح أن يشاور فيه إستظهاراً برأيهم وتطيبياً لنفوسهم وتمهيدا لسنة المشاورة للأمة. ينظر:

– ابن كثير، تفسير ابن كثير، إختصار وتح: محمد علي الصابوني، مجلد 3، شركة الشهاب، الجزائر، 1990، صص279،280.

– وينظر: –ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تق: عبد الرحمن،ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.س، ص45.

3– ويضيف شرف الدين الطيبي في حاشيته على الكشاف عن أمر الشورى عن النَبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهَ وسَلّم قَالَ: "ما نشاور قوم قط إلا هدوا لأَرْشَدِ أمرهم" لذلك فقد أمر الله عَزَّ وَجَلْ نَبِيَهُ عَلَيْهِ السَلَامْ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم إستبداده بالرأي من دونهم ويذكر أن الآية الكريمة 154 من سورة آل عمران عنيت في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل على لنَبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهَ وسَلّم من وحي ليستظهر برأيهم، ولما فيه من تطييب نفوسهم، والرفع من أقدارهم. للمزيد ينظر:

– شرف الدين الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب وهو حاشية الطيبي على الكشاف، تفسير سورة آل عمران وقسم من سورة النساء، حقق تفسير سورة آل عمران حسن ابن أحمد العمري، حقق التتمة صالح بن ناصر الناصر، إشراف محمد سلطان العلماء، ط1، مصرف أبوظبي الإسلامي، دبي، 2013، ص322.

وها هو الأمير عبد القادر يعمل إستنادا لمبادئ وتعاليم الشريعة الإسلامية ومبدأ الشورى،[1] حيث أنه وصل إلى الحكم عن طريق البيعة، لا عن طريق القوة كما كان متعارفاً عليه، شاركت فيها جميع القبائل التي كانت تمثل أنذاك وحدة فاعلة وعملا حاسما، ومن ثمة فإن دولته لم تكن دولة سلطانية، بل كانت كأداة وجهاز في يد الأمة، تدافع بها عن نفسها من الإعتداءات الداخلية والخارجية، ولم تكن هدفاً شخصيا، بل أهداف حددتها شروط البيعة، والتي كانت إنتخاباً وعقداً بينه وبين الرعية، ومن هنا فإن دولة الأمير عبد القادر كانت أداة ووسيلة تتمثل في حماية الوطن والدفاع عنه،[2] إذن فهي وسيلة لتوحيد صفوف المسلمين، ومنع الفرقة بينهم، وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد، هذا ما ردده الأمير عبد القادر اثناء قبوله الإمارة، حيث قال: "... ومن أجل ذلك، إذن تولينا هذه المسؤولية الهامة، (على مضض شديد)، آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين، ومنع الفرقة بينهم، وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد، ووقف كل الأعمال غير القانونية، التي يقوم بها الفوضيون ضد المسلمين، وصد وطرد العدو الذي إعتدى على بلادنا مريدا إن يغلّ أعناقنا بقيوده،..."،[3] وهكذا اعتبرت البيعة التي منحت له كقاعدة أساسية أعطته الصفة الشرعية في التعامل مع الفرنسيين بإسم الشعب الجزائري ما عدا بعض القبائل الممتنعة عن بيعته.

أما عن محمد بن الأمير فيذكر أن الأمير عبد القادر قال في هذا الصدد: "...كما أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام من بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف، فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعاً، وأعلموا أنّ غايتي القصوى إتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الإتكال في ذلك كله...".[4]

وهكذا جرت البيعة بكتائب صدرت من علماء غريس، وفضلاء تلك الجهات، إضافة إلى حضور المفتي والقاضي، وتم ذلك في 27 نوفمبر 1832م،[5] تحت شجرة الدردارة المتواجدة في واد فروحة من غريس بمعسكر،[6] وتمت

1- لقد أكّد الأمير عبد القادر عند مبايعته، أنه لن يأخذ بقانون غير القرآن الكريم، ولن يكون مرشده غير تعاليم القرآن الكريم حيث قال: " وأنا بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن وحده، فلو أنّ أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات" ينظر: - هنري تشرشل، المصدر السابق، ص85.

2- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، المرجع السابق، ص92.

3- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص86.

4- حرر هذا القول عن أمر ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين من معسكر في الثالث من رجب سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف، وفي السابع والعشرين من نوفمبر سنة إثنين وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية، أي مع البيعة الأولى. ينظر: - محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص140.

5- محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تح: علي السنوسي، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ص181.

6- لا يخفى على ما في وقوع هذه البيعة تحت الشجرة من الإتفاق، وما فيه من الإشارة إلى متابعة سيدنا رَسُولُ الله عَلَيْهِ الصَلَاةُ وَ السَلَامْ، وإقتفاء أثره في بيعة الرضوان، التي نوه بها عَزَّ وَجَلْ في القرآن بقوله: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ ينظر: - محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، ميلاد دولة وتنظيم المقاومة، مقتبس من مجلة مسالك، عدد6 خاص، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، جوان 2003، ص4.

البيعة الثانية في 4 فبراير 1833م م في قصر الإمارة بمعسكر، وتمت مراسيمها على كتاب الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَلَاةُ وَ السَلَامْ،[1] وهكذا أثبت الأمير عبد القادر لمناصريه أنه جدير بالثقة، جاعلاً دستوره القرآن الكريم مرسيا لقاعدة الشورى مستعينا بسيرة السلف الصالح.

فنص البيعة كان متضمنا برنامجاً عريضا يسعى الأمير إلى تحقيقه، وهذا ما كان قد وعد به في مقولته، وأولى هذه الأمور، هو توحيد صفوف القبائل، والعمل على إستتباب الأمن والإستقرار، وصيانة النفوس وإجراء الحق والعدل في البلاد التي كثر فيها الفساد لعدم وجود السلطة بعد سقوط الجزائر، وبذلك يتضح أن حكومة الأمير عبد القادر إختلفت عن الحكومة الجزائرية العثمانية السابقة، لكونه تولى السلطة بموجب البيعة التي رضي بها سكان سئموا من الإضطرابات والفوضى التي كانت تعم البلاد، فجاءت البيعة لتضع الثقة التامة في شخص الأمير عبد القادر، ولكي تفوض له مسؤولية العمل على إنقاذ البلاد من الفوضى والإحتلال،[2] وبذلك جاءت بيعة شرعية يقدمها المواطنون، ويجددونها بمختلف الجهات، وكان منطلق نظامها الجيش والحكومة ومجلس العلماء، وبعدها الحضاري والثقافي، تجديد الفكر والعمل السياسي، مع تحريك همم أهل المغرب العربي داخل الجزائر وخارجها إلى الصمود في وجه المستعمر عسكريا، وسياسيا وعلميا أي نظريا وتطبيقيا.[3]

لقد كان عبد القادر مدركاً لمقتضيات العصر وما تحتاجه البلاد من أجل طرد الإستعمار منها، فقد جسد لشعبه اساساً من أسس الدولة الجزائرية الحديثة، هي أن يختار الحاكم من الأمة أو نوابها، وأن تتفاعل مع حكامها،[4] وبذلك يكون قد أحكم أوّل قاعدة التوحيد الوطني، إضافة إلى التشبع بروح الدين الإسلامي والجهاد.

و.2. الوحدة الوطنية وخدمة الدين الإسلامي:

عند تولي الأمير عبد القادر الإمارة، وفي نواء له بمسجد معسكر 1833م أثناء البيعة العامة خطب شعبه قائلا: "إذا كنت قد رضيت بالإمارة، فإنما ليكون لي حق السير في الطليعة، والسير بكم في المعارك في سبيل الله... الإمارة ليست هدفي، فأنا مستعد لطاعة أي قائد آخر ترونه أجدر مني، وأقدر على قيادتكم، شريطة أن يلتزم خدمة الدين وتحرير الوطن...".[5]

1-إسماعيل العربي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، صص16،17.

2- يذكر عبد المجيد مزيان في تقديمه للكتاب مذكرات الأمير أن الأمير عبد القادر الأزمة السياسية ، فيبرز لنا من خلال كل واقعة بمفردها مدى التباعد بين الضمير السياسي الوحدوي الذي كان يكافح من أجله، وسلوك التشتيت والتطاحن الذي كان سائدا بالمغرب العربي في أواسط القرن الماضي من فوضى قبلية، وذهنيات إقطاعية وأنظمة هارية، وخيانات للقضية الوطنية. ينظر: - الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص13.

3- المصدر نفسه، ص13.

4- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، المرجع السابق، ص93.

5- علي التسولي، رسالة في أجوبة على أسئلة الأمير، المصدر السابق، صص102،103.

إن الملامح الأساسية لدولة الأمير عبد القادر إسلامية بقوانينها وتشريعاتها، كون أن مهامها الأساسية خدمة الدين والدفاع عنه وعن الوطن، فالحروب والمعارك الطاحنة التي خاضها مع والده، لم تكن دفاعاً عن الدين فحسب إنما دفاعاً عن الدين والوطن معاً، لذا اشترط على الحاكم الذي قد ينتخبونه من دونه أن يخدم الدين والوطن معاً، فمعاركه ومجابهاته للإستعمار لم تثنه عن بناء الوطن الذي كان يطمح إلى تحريره.

حرص الأمير عبد القادر على خدمة المصلحة العامة للبلاد، فأوجد بذلك بعداً جديداً في حياة المجتمع الجزائري وهو شعور الإنتماء إلى مجتمع يتجاوز حدود القبيلة، مجتمع أراده أن يكون أمة،[1]

إذن فالوحدة الوطنية التي أرادها الأمير عبد القادر تعد عاملا مهما من عوامل الإلتقاء بين الجزائريين، وأساساً مكيناً من أسس بقاء كيانهم وإستمرار وجودهم التاريخي والحضاري، الذي عمل المستعمر على تحطيمه وتبديده، مسخراً في ذلك كل أجهزته، وبكل الوسائل والطرق غير الشرعية واللاإنسانية لتحقيق الفرقة والشقاق بين الجزائريين.

لقد بذل الأمير عبد القادر جهوداً قصوى في سبيل حماية الوحدة الوطنية والدين الإسلامي، منطلقا من وعد عميق بأهمية ذلك، ففي نظره أنهما مفتاح لإتحاد الجزائريين وتعاونهم فيما بينهم لإنقاذ وطنهم، وتحرير أرضهم وبناء مجتمعهم.

فالإسلام يمثل المقوم الأوّل للشخصية الوطنية الجزائرية، إذ هذا المقوم دخل إلى أعماق النفس الجزائرية، ويعتبر مظهرا من مظاهر هذه الأمة ولباسها وهويتها التي تتمظهر بها بين الأمم وتعرف بها بينها، ولأجل الحفاظ على هذه الهوية عمل الأمير عبد القادر على ترسيخها في أذهانهم، للدفاع عن الوطن.

إذن فقد فهم أنّ الإسلام هو عامل الوحدة الوطنية الأولى، كون تعاليمه كلها تدور حول التعاون والتآزر والتناصر والاخوة المتبادلة بين أفراد المجتمع، تلك القيم التي من شأنها أن تزيد من إرتباط الجزائريين بعضهم ببعض، وتدعم تناغمهم وتعاونهم على النهوض بوطنهم وحماية مقومات شخصيتهم، هذه هي الأسس التي أقامها الأمير عبد القادر وأرساها لبناء دولته، وقد نجح فعلا في وضع نواة الدولة والأمة التي ظلت حية في أذهان المتنورين الجزائريين حتى قامت الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر 1954م التي إعتبرها زعماؤها بنت ثورة عبد القادر وإمتداداً لها، فهو إذا موقظ الوعي والضمير الوطني الجزائري، ومؤسس الوطنية والسيادة لهذا البلد.[2]

1- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي، مكتبة دارالشرق بيروت، 1979، ص227.

2- الحسين عماري، الأمير عبد القادر الجزائري، رجل الدولة والقائد العسكري، مجلة عصور الجديدة، العدد 14-15، جامعة وهران، الجزائر، أكتوبر 2014، ص320.

تعد المبايعة نتاج فكر جزائري أصيل، على الرّغم من عدم وجود جامعات علمية يتخرج منها علماء في السّياسة الشرعية على غرار ما يشبه الأزهر والزيتونة، وعلى الرّغم من تحوّل كثير من الزوايا من مركز جهادي وثقافي إلى مكان للإنزواء، الأمر الذي أدّى إلى اضمحلال الإنتاج العلمي، والحد من الحرية العقلية، فعلى الرّغم من ذلك فقد كان لشيوخ العلم دور في تشكيل نظام حكم حديث برئاسة الأمير عبد القادر، الذي أسّس نواة حكم لدولة فتية، وأحدث المناصب الأساسية لهذه الدولة، وأسند هذه المناصب إلى من كانت تلك المناصب تطلبهم، لا إلى من كان يطلبونها، وبذلك يكون هذا النظام الأميري ظاهرة نادرة في الفكر العربي الإسلامي، ولهذا لا نستغرب فيما شكّله هذا النظام الشوري من خطر على الأنظمة الأسرية والملكية والسّلطانية السائدة في البلاد العربية الإسلامية، وأكثر ما شكّله من خطر، كان على الأنظمة الأوربية المدنية التي جاءت إلى الجزائر باسم الليبرالية والإنسانية وعليه يسهل فهم طبيعة المواقف التي أيّدت الأمير، وخلفيات المواقف التي ناصبته العداء، مثلما يساعدنا هذا على فهم الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الدّولة الأميرية الفتية، لتلقّيها ضربات جوارية أقوى من الضّربات الفرنسية.

كون أنّ الأمير أصبح حاكما مبايعا، فإلتزم حدود الشريعة الإسلامية، وأسّس علاقات مع الجهات الأخرى انطلاقا من هذا الإعتبار، أي أنّه حارب كل من خرج عن طاعة المبايعة، وبناءا على هذا فإنّ ما وُجد من اختلاف بينهم وبين أطراف جزائرية فهو يتجاوز حدود الإعتبارات الشّخصية، لأن الأمير كان على قناعة في أنّ نظام حكمه مستمد من شرعية إسلامية، جاءت عن طريق الشّورى – البيعة الخاصة و البيعة العامة – وقد اختار لقب الأمير لأنه كان يتوافق والمرحلة التاريخية التي كانت الجزائر تمر بها.

فقد اختاروه أميرا عليهم لحبّهم له وللجزائر رغبة منهم لبدء تأسيس دولة جزائرية إسلامية قويّة، لهذا كانت البيعة مقرونة أساسا بممارسة الجزأرة.

الفصل الثالث:

المشروع النهضوي الأميري بالجزائر بين النظري والتطبيقي 1832م-1847م.

أ.مساهمة الأمير عبد القادر في إحياء الدولة الجزائرية وبعث نهضتها من جديد.

ب. بناء مؤسسات الدولة الجزائرية في فترة الأمير عبد القادر.

ج. القيم الإنسانية والأخلاقية لدى الأمير عبد القادر.

د.نهاية المشروع النهضوي للأمير عبد القادر في الجزائر 1847م-1852م.

إنّ كثيرا من الدراسات التي اهتمت بعصر النهضة العربية أهملت مساهمة الأمير عبد القادر الجزائري في تلك النهضة، والذي نعتقد أنه مثّل في شخصه نمط الرجال المفكرين والمصلحين، فهو لم يكن منظّراً فحسب بل كان منظراً ومطبقا في وقت واحد رغم ظروفه الصعبة ومواجهته لقوات الإحتلال الفرنسي، فقد استطاع أن يجسد نموذجاً في الحكم، يهرع إليه في كل المجالات التي شكلت عناصر دولته الفتية والتي قام هو بنفسه ببنائها، فالأفكار التي اعتمدها في بناء دولته وفي ممارساته السياسية تعتبر أعظم إنجاز أنجزه العقل السياسي العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر، إذ استطاع أن يؤسس دولة تضاهي في مؤسساتها وأجهزتها وقوانينها الدول الغربية المعاصرة لها في الحداثة، وقطع بذلك الصلة بالمفاهيم التقليدية التي كانت تؤسّس عليها الدول العربية في تاريخها الممتد عبر الزمن وحتى في عصره، هذا ما سنوضّحه من خلال وقوفنا في هذا الفصل حول المشروع النهضوي الأميري في الجزائر بين التنظير والتطبيق أي قولاً وفعلاً وممارسة.

أ.مساهمة الأمير عبد القادر في إحياء الدولة الجزائرية وبعث نهضتها من جديد:

يعد النهوض العربي، ومواكبة العصر من أهم ما يتطلع إلى تحقيقه مثقفوا الأمّة من أصحاب الفكر وقادة الرأي إلى تحقيقه، وذلك في أعقاب ما أصاب الواقع العربي من إنتكاسات، وما لحقه من تراجعات خطيرة، إضافة إلى ما تعانيه الأمّة العربية من أزمات متعدّدة الصور والأشكال والأسباب، خاصة في ظل ظهور الاستعمار الحديث وسيطرته على أغلب مناطق الدول العربية الاسلامية.

لقد بات من الضروري في ضوء ما شهده العالم من تغيرات جذرية متسارعة -النهضة الأوربية- أن ينبّه حكماء الأمّة العربية، من أهل الفكر والثقافة والرأي والرؤية، لمراجعة الواقع العربي من مختلف جوانبه السياسية والإقتصادية والثقافية، والإجتماعية مراجعة شاملة وعميقة تشخص واقع الأمّة وجوانب الخلل والضعف في مسيرتها، وتتفحص الأسباب التي أدّت إلى تراجعها، وتقترح التصورات الملائمة لإخراجها من مأزقها، ووضعها على طريق التقدم والمشاركة في بناء الإنسانية،[1] من أجل إعادة بعث النهضة العربية الإسلامية من جديد ومدى فاعليتها.

إن هذا الإهتمام بالبحث عن فاعلية الأمّة العربية الإسلامية، واضح تمام الوضوح في القرن التاسع عشر -قرن النهضة- إن أقررنا ببدايتها من هذا القرن في أعمال المفكرين البارزين في العصر الحديث، من "الجبرتي" و"رفاعة الطهطاوي" إلى "ابن باديس" مروراً بـ"الأمير عبد القادر الجزائري" و"خير الدين التونسي" و"جمال الدين الافغاني" و"محمد عبده" و"عبد الرحمن الكواكبي" وغيرهم كثيرون، الذين ساهموا جميعاً في محاولة إحياء الأمة العربية، وبعث نهضتها من جديد.[2]

إن تحديد المفاهيم التي تأسست عليها النهضة كانت محور اختلاف بين المفكرين والباحثين، حتى في مفهوم النهضة في حد ذاتها، هل هي الولادة الجديدة من ظهور كينونة جديدة تحل محل الكينونة القديمة؟ أم القيام، وانتقال نفس الكينونة من حال القعود أو الجلوس إلى حال القيام؟ أي وهل يمكن إرجاع النهضة إلى الاصلاح الإجتماعي أم السياسي، أم كليهما معاً؟ أم يعود إلى الإصلاح الإقتصادي والثقافي فقط؟ وهل يتوجه ذلك إلى المجتمع ومؤسساته؟ أم إلى الدولة ومؤسساتها؟ وإحداث التجديد وتحقيق الولادة الجديدة في مجالات الفكر والفن والإقتصاد... الخ.

إن مفهوم النهضة في اللّغة العربية يفيد النهوض،[3] واليقظة والحركة للمواجهة خاصة، بينما يحيل مصطلح (النهضة) في الحقل الثقافي الأوربي إلى الحركة الفكرية، الفنية والأدبية التي شهدتها أوربا في القرنين الخامس عشر،

1- ناصر الدين أسد وآخرون، النهوض العربي ومواكبة العصر، مراجعة وتق: صلاح جرّار، ط1، مؤسسة عبد المجيد سومان، عمان، الأردن، 2005، ص5.

2- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير في النهضة، المرجع السابق، ص88.

3- ابن منظور، لسان العرب، المصدر السابق.

والسادس عشر، وربما يعود ورود كلمة نهضة على ألسنة وأقلام المفكرين العرب، إلى الظروف التي كانوا يعيشون فيها، والتحديات التي كانوا يواجهونها، والتي كانت تتطلب ما تفيده كلمة (نهوض) للدفاع عن النفس، والوقوف في وجه الهجمة الإستعمارية، التي كانت شكل الوجه الآخر للحداثة الأوربية.[1]

غير أن كلمة النهوض يجب أن تكون في آن واحد قياماً وحركة، أي استجماع القوى والإستعداد من أجل مواجهة التهديد الخارجي، وبعبارة أخرى البحث عن صيغة مثلى للدولة العربية الإسلامية، التي يمكن لقيامها ونهوضها لتجنيب أمّة العرب إستمرارية التقهقر والانهيار والضعف، لكي تتمكن من مواجهة التحرشات الداخلية والخارجية، التي تبحث عن إزالتها من الوجود.[2]

إنّنا إذا حاولنا تحديد عناصر النهضة العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر، سنأخذ نماذج منها ما تتعلق بالفكر التنظيري، ومنها ما يتعلق بالجانب التطبيقي العملي، كأن نأخذ في الجانب التنظيري كل من "رفاعة الطهطاوي" و"جمال الدين الافغاني"، أما عن التطبيق والتنظير فكل من "خير الدين التونسي"، و"الأمير عبد القادر الجزائري" الذي هو محل الدراسة.

"فجمال الدين الأفغاني" مثلا، هو رائد من رواد النهضة العربية في القرن الماضي، وهو الرائد لحركة النهضة العقلية، حيث ذاعت أفكاره بفضل عدد من تلامذته ومريديه الكثيرين، مثل "محمد عبده"، و"مصطفى عبد الرزاق" في مصر، و"رشيد رضا"، و"عبد الرحمن الكواكبي" في سوريا، و"ابن باديس" في الجزائر،[3] ويعتبر أحد الأعلام البارزين في النهضة المصرية، ومن أعلام الفكر الإسلامي بالنسبة للتجديد.

1- مرحلة الحداثة قامت في أوربا في القرن التاسع عشر، بعد مرحلة الأنوار في القرن الثامن عشر، والتي قامت هي نفسها بعد مرحلة النهضة الثانية في القرن السادس عشر، حيث سبقتها نهضة أولى في القرن الثاني عشر، تظهر إيديولوجية الحداثة عند الأوربيين، وتبرر وجودها بكونها البديل لفكر الأنوار والنهضة بوصفها الجديد الذي جاء ليدفن القديم إلى غير رجعة، من ذلك مثلا: أن فكر النهضة كان قوامه في أوربا، إحياء التراث اليوناني والروماني، الفلسفي والعلمي و الفني والأدبي، والإنتظام فيه، الشيء الذي يعني العمل على الإفلات من هيمنة فكر الكنسية، ووصايتها على العقل والوجدان، أما فكر الأنوار فقوامه التحرر من جميع السلطات التي توجه الفكر والسلوك، وعدم الاعتراف إلّا بسلطة العقل، أمّا النهضة فهي مرتبطة بإحياء التراث السابق على الكنسية، والمضاد لها والإنتظام فيه، والإنخراط في روحه وقضاياه، فإن الأنوار تعني الإستقلال عن كل تراث مضى، وخلق تراث جديد تكون مرجعيته نور العقل وحده، وتأتي الحداثة: لتنقل العقل: عقل الأنوار من دماغ الإنسان الفرد إلى كيان المجتمع والتاريخ، وهكذا فالعقل رفعته الحداثة إلى درجة أعلى لتجعل منه (المنطق) المحايت للتاريخ، قوامه الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، ومن هنا يأتي شعار (الوحدة والتقدم). للمزيد من التفاصيل ينظر:

- محمد عابد الجابري، المشروع النهضوي العربي، مراجعة عامة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط4، 2013، صص59،60.

2- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير في النهضة، المرجع السابق، ص88.

3- عثمان أمين، جمال الدين الأفغاني والتجديد الإسلامي، مجلة الأصالة، عدد 52، السنة السادسة، ديسمبر 1977، ص69.

يذكر أبو ريّة أن "جمال الدين" إمتاز بفهم أسرار الدين، حيث أنه كان يرمي إلى توحيد كلمة الإسلام، وجَمْع شمل المسلمين في سائر أقطار العالم،[1] وامتاز بتمجيده للعقل في زرع الثقة في النفوس، وإحياء عوامل المقاومة في مختلف الأقطار الإسلامية، وهذا الموقف في حد ذاته يعتبر ثوريا بالمعنى الدقيق للكلمة، أمّا من الناحية السياسية فقد هيمنت عليه فكرة النهوض بالعالم الإسلامي، فكان يرى ضرورة إزالة الإستعمار، لذا اتسم نشاطه بالطابع السياسي، مستخدما الأدلّة الدينية والعقلية لتحقيق هدفه،[2] كونه كان يرى أن النّصر مقرون بسير الإصلاح السياسي جنباً إلى جنب مع الإصلاح الديني، وأن كلاهما مكمل للآخر.[3]

لقد قدم لنا الأفغاني مجموعة من المبادئ الفكرية، التي رآها أساساً للنهضة والتي بفضلها يمكنه إنقاذ العالم العربي الإسلامي من سباته وانطوائه، وكانت تلك المبادئ نظرية أكثر منها عملية، وبهذا كان منظّرا أكثر منه مطبقا، فهو يدرك أن آلة التغيير السياسي لم تكن بيده، بل كانت في يد غيره، فهو كان بعيدا عن سدة الحكم،[4] غير أن دعوته تبقى في صميمها، دعوة إلى الحياة الكريمة، وارتفاع عن حياة الذل والمهانة، كما عبر عنه الشاعر حين قال:[5]

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

أمّا عن "رفاعة الطهطاوي" فهو يعتبر من قادة النهضة العلمية في مصر، في عهد "محمد علي باشا"، بعد الإضمحلال الفكري التي عاشتها مصر، حيث كان لاتصاله بالفكر المستنير أثر بالغ الأهمية في التواصل العلمي والفكري بين مصر وبين الفكر والعلم في الكثير من الدول في العالم، وحركة الترجمة فيما بعد.

يبدو جليا من فكر "الطهطاوي" أنه تأثر بالحضارة الغربية، بعدما احتك بها حسب نظر "مالك بن نبي"، حيث يذكر حسب اعتقاده أن النزعة التقليدية التي أتى بها "الطهطاوي" ونظيره "خير الدين" جاءت على أساس الشعور بالإعجاب نحو الحضارة الغربية، كما وقف أيضا على دور "الطهطاوي" وإسهامه الفكري والإبداعي، الذي اكتسبه

1- محمود أبو ريّة، جمال الدين الأفغاني، تاريخه ورسالته ومبادئه، إصدار: محمد توفيق عويضة، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية، القاهرة، 1966، ص16.
- وينظر: - فتحي عثمان، الفكر الإسلامي والتطور، دار القلم، القاهرة، د.ط، د.ت، صص240،241.

2- محمد طهاري، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، شركة دار الأمّة للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 1999، ص159.

3- من هذه الزاوية يختلف "الأفغاني" مع تلميذه "محمد عبده" الذي يرى أن الإصلاح الديني والعلمي والتربوي، يمكن أن يتم منعزلا عن الإصلاح السياسي، ضف إلى ذلك فقد اختلف معه في حدود العقل البشري، فمحمد عبده يعترف مع العلامة "ابن خلدون"، والفيلسوف الألماني "إيمانويل كانت"، بأن للعقل البشري حدوداً، لا يمكن أن يتجاوزها مهما كان الأمر، وامتثلوا لرسالة التوحيد. للمزيد ينظر: - المرجع نفسه، ص158.
- نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والقرآن، دار الأندلس، د.ط، بيروت، لبنان، 1963، ص59.
- عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ والإمام محمد عبده، مكتبة مصر الفجالة، د.ط، مصر، د.ت، ص242.

4- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامي، قسنطينة، أوت، 1970، ص139.

5- عثمان أمين، جمال الدين الأفغاني، مجلة الأصالة، المرجع السابق، ص72.

عن غيره، وحاول إرجاع ما اكتسبه من علم ومعلومات ليطبقه في بلده، وهذا ما لخصه "رفاعة" في مؤلفه الشهير "تخليص الابريز في تلخيص باريز"،[1] فقد تعرض للعديد من المفاهيم التي قامت عليها الدول الحديثة، في العالم الأوربي الذي ينبني بشكل أساسي على ما يمكن أن يطلق عليه اليوم مبدأ المواطنة، أو كما سماه هو (المنافع العمومية)، التي تقوم على مبدأ الحرية والمساواة بين أبناء الوطن الواحد.

فإنّنا من خلال هذا نجد فهمه العام للزمن والتاريخ بصفة عامة فهماً عقلانياً، مخطا وهو يعني اتصال التاريخ وتقدمه،[2] لذا اتسم بثلاث سمات ميّزته عن غيره هي شمولية النظر، والإحاطة بالظواهر الإجتماعية والسياسية من مختلف جوانبها، ثم جمع بين النظر والعمل والخبرة والواقعية، مما جعل فكره شديد الارتباط بالواقع، فمزج بين أرضية التراث الإسلامي، والتعرف على العلوم العصرية الحديثة، حيث انطلق في تفكيره الإجتماعي والسياسي من احترام العقل كأداة لحل مختلف مشاكل المجتمع بالكشف عن أسبابها وبواعثها.

أمّا بالنسبة "لخير الدين التونسي"، فإنه كان منظراً ومطبقاً في نفس الوقت، أي أنه كان مفكراً وممارساً للسياسة من خلال المناصب التي كان يشغلها،[3] فهو لم يكن إداريا عظيما فحسب، وإنما كان مفكرا ومصلحا، فقد دوّن أفكاره في كتابه (أقوم المسالك)،[4] الذي برزت فيه مقدمته التي اهتم سائر الكتاب، وأصبحت الإشارة إلى كتاب "أقوم المسالك" تعني الإشارة إلى المقدمة[5] وحدها، فهي تلخص تجربته كلها، والتي تركز على مقاومة أوربا عن طريق الإستعارة منها، والتمسك بالجامعة الاسلامية، لدعم هذه المقاومة ومحاولة إصلاح الولايات الإسلامية المختلفة وبث روح اليقظة والنهوض بها.

يرى "خير الدين" ضرورة التجديد والإجتهاد في الشريعة الإسلامية، بما يتلاءم مع ظروف العصر وأحوال المسلمين، ويتفق مع ثوابت الشريعة، كما نبّه بضرورة الأخذ بالمعارف، وأسباب العمران الموجودة بأوربا، لأنه حسب رأيه

1- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، المرجع السابق، صص137-139.

2- مروة حسين وآخرون، دراسات في الإسلام، دار الفارابي، بيروت، ط2، 1981، ص122.

3- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير في النهضة، المرجع السابق، ص89.

4- خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ط1، 1868م.

- وهو يتألف من مقدمة طويلة، وجزأين، يحوي الجزء الأول عشرون بابا، كل باب مخصص لبلد من البلاد الأوربية، وتضم الأبواب فصولا، تتضمن الحديث عن تاريخ البلد، وجغرافيته، وموقعه، ومساحته، وأهم ملوكه، وتنظيماته الإدارية والسياسية والعسكرية، أمّا الجزء الثاني فيحتوي على ستة أبواب، خمسة منها في جغرافيا القارات الخمس، وخصص الباب السادس للبحار.

- شملت الإصلاحات التي قام بها "خير الدين التونسي"، ميادين الإدارة والتعليم، والإقتصاد فألغى الضرائب، التي تراكمت على الناس، وأعاد تنظيمها، وعمل على النهوض بالتعليم، ونشر الوعي بين الناس، وأنشأ المدارس كالمدرسة الصادقية، وأنشأ مكتبة جديدة تحت إسم "العبدلية"، وشجع الطباعة، وطوّر الصحافة، وأعاد للأوقاف العامة دورها الديني والإجتماعي، وأنشأ جمعية للأوقاف، وأسند رئاستها "لمحمد بيرم الخامس" وفي عامه عرفت تونس أعواما من الطمأنينة والهدوء.

5- ينظر: - خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، المصدر السابق، صص5-50.

هي طريق المجتمع إلى النهوض، والتي تقف على دعامتين ليستا غريبتين عن المجتمعات الإسلامية، وهما (الحرية والعدل) في حكم الرعية، ورفع مظاهر الظلم والتعسف، واحترام حقوق الإنسان وعليه بدأ تيار النقل والتقليد عن الحضارة الغربية يسري فعلا في العالم الإسلامي، على القاعدة التي أبرزها "ابن خلدون"، في أن المغلوب مولّع بالاقتداء، بالغالب في أقواله وأفعاله ونحلته، وهنا فعلت فعلها عندنا القاعدة، خاصة في عصر محمد علي باشا والي مصر.[1]

غير أن فكر "خير الدين" الذي احتك بالحضارة الغربية وتأثر بها، واجه صعوبة في نشر أفكاره، وبالتالي لم يكتب لها النجاح، على مستوى الممارسة سواء في بلده تونس أو في مركز الخلافة بتركيا، وذلك لعدة إعتبارات داخلية وخارجية، إضافة إلى الوازع التغييري الذي صبغ بصبغة إستيراد للأشياء، أو للأفكار والمعارف من الخارج دون نزعة ثورية ترمي إلى تغيير في نطاق المجتمع الإسلامي.[2]

يذكر "مالك بن نبي" في هذا الصدد قائلا: "...الحضارة لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر، رغم إستيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها، لأن الحضارة إبداع وليست تقليد، أو إستسلاما وتبعية، كما يظن الذين يكتفون بإستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى، فبعض القيم لا تباع ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها، كثمرة جهد متواصل، أو هبة تهبها السماء، كما يهب الخلد للأرواح الطاهرة، ويضع الخير في قلوب الأبرار...".[3]

إذا حاولنا تحديد المنطلقات الأساسية لمفكري النهضة العربية الإسلامية، فإننا نجد الكثير قد سافر إلى الغرب واحتك بحضارته، وتأثر بها، بما في ذلك "الطهطاوي" و"خير الدين التونسي"، ولكن يمكننا في ذلك إستثناء "الأمير عبد القادر" الذي لم يحتك مع الغرب، ولم يعايش حضارته، بإستثناء فترة سجنه في فرنسا، وكان ذلك بعد نهاية مشروعه النهضوي، وإجهاض الفرنسيين لدولته عام 1847م.

إن المنطلقات الفكرية لكل من "الطهطاوي" و"خير الدين التونسي"، كانت نابعة من الآخر –فلاسفة التنوير وأفكار "مونتسكيو"- فدراستهما للذّات العربية الإسلامية لم تنطلق من واقعهما، بقدر ما كان الآخر هو محور التفكير عندهما وإسقاطه على ذاتهما، وبذلك فإن محور فلسفتهما وفكرهما لا يستند إلى واقعهما بقدر ما يستند إلى واقع الآخر.

فحسب "إسماعيل زروخي"،[4] أن "الطهطاوي" و"خير الدين التونسي" اللذان إعتمدا على الغرب، وعلى دراسة مقدمة "ابن خلدون" التي لم تعد حسبه كشفا وتعريفا به فحسب، بل هي أيضا تعديل لنظريته الرئيسية، ورغم كل تلك المجهودات والمحاولات التي قاما بها، فإن فكرهما حسب اعتقاده لا يمثل إلا فكر على فكر أو مشكلات على مشكلات

1- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، المرجع السابق، ص138.

2- المرجع نفسه، ص138.

3- سليم قلالة، هل تنقلب التكنولوجيا المتقدمة على ثقافتها، مجلة التبيان، العدد03، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، أوت، 2017، ص39.

4- إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير في النهضة، المرجع السابق، ص90.

لأنهما لم يستطيعا تجاوز ما دعيا إليه بحكم الظروف، عكس ما أحدثه "الأمير عبد القادر" الذي استطاع أن يحول الفكر إلى ممارسة، والمشكلة إلى علاج، وهذا ما سنوضحه فيما سيأتي من خلال ما قدمه من ممارسات إجتماعية وثقافية ودينية وإقتصادية، خاصة والسياسية التي صبغت بصبغة وطنية متميزة وواضحة، والتي كانت هي مظهر الحضارة الحديثة.

ب. بناء مؤسسات الدولة الجزائرية في فترة الأمير عبد القادر:

ب.1. التصور السياسي والإداري وآليات تحقيقها في دولة الأمير:

اعتمد الأمير عبد القادر على مجموعة من الأفكار الحديثة لبناء أسس الدولة الجزائرية الحديثة، وكيفية تولي الحكم والممارسة السياسية خلال القرن التاسع عشر (19م)، حيث استطاع تأسيس مؤسسات وأجهزة الدولة وقوانينها مع قطع الصّلة بالمفاهيم التقليدية التي كانت تؤسّس عليها الدولة في عصره، من خلال تغيير وبلورة الأفكار المتعلقة بنشأة الدولة لأجهزة وأدوات ديناميكية تقوم على العمل الإجتماعي والسياسي، والدّيني في المجتمع، وفق إرادة شعبية وبيعة شرعية قائمة على نظام سياسي وشرعي ومركزي، ومؤسساتي، ولم تستأثر جماعة معينة على حساب أفراد أمة، عكس الدولة السلطانية السائدة في عصره والقائمة على الحرب والمال والتسلط[1]، فالأمير عمل من أجل تقوية الجهاز المركزي على أسس تتجاوز مفهوم البنية القبلية، إلى فكرة بناء دولة تكون ثقيلة بالسّكان ورعاية مصالحهم وشؤونهم[2].

ومن أهم مقاصد الأمير في رسمه لمعالم البنية السياسية، هو ترسيخ مشروعية المركزية السياسية والسلطانية الجزائرية كبديل مؤسّسي وتمثيلي للمنظومة السلطانية التركية المنهارة،[3] فقد خالف في نظامه أشكال دولة الدايات، التي كانت عبارة عن دولة دكتاتورية تخضع لطبقة الإنكشاريين، وبنى دولته على أسس جديدة[4].

يذكر صالح فركوس في هذا الصدد، من خلال وثيقة عثر عليها "بأيكس Aix- en- Provence"، أن صاحب الوثيقة المجهول الهوية، أشاد بطموحات الأمير في التجديد حيث تجنّب تقليد الأتراك فيما وقعوا فيه من أخطاء إدارية ويضيف على لسان صاحب الوثيقة قائلا: "... منذ ظهور الأمير عبد القادر في السّلطة لم يقع بالنسبة

1- فلسفة الجهاد عند الأمير عبد القادر، ليست رؤية محلية دينية، وليست صراع ديانات، بل هي صراع بين حضارة المنفعة والأنانية والإستغلال التي يمثلها الأوربيون، وحضارة السلام والتسامح التي مثلها الأمير ورفاقه في القضية الوطنية.

2- Dinesen (A), Abdelkader et les relations entre les Français et les Arabes en Afrique du Nord, A.N.E.P, Alger, 2001, pp 76,77.

3- محمد الطيبي، الجزائر عشية الغزو الاحتلالي، المرجع السابق، ص174.

4- أحمد مطاطة، نظام الإدارة والقضاء في عهد الأمير عبد القادر، مجلة الذاكرة، السنة الثالثة، العدد 4، المتحف الوطني للمجاهد، المدية، الجزائر، 1996، ص171.

لتقسيم الإقليم أي خطأ من أخطاء الحكومة التركية، التي لم تعرف توطيد أية قاعدة ثابتة في الإدارة ..."[1]، وإذا حاولنا تتبع خطوات الفكر السياسي والإداري الحديث في الجزائر، في جانبه العملي التطبيقي وليس التنظيري الفكري الفلسفي، فيمكن أن نقول وبدون تحيّز، أنّ الأمير يعد من بين أهم الرجال الأوائل الذين نزلوا من مستوى حركة الأفكار إلى مستوى الواقع العملي -أي جمع بين النظري والتطبيقي- في بنائه للدولة الجزائرية الحديثة، وتجسيدها ميدانيا، فقد تبلورت أعماله من خلال التنظيمات الإدارية والعسكرية التي اتبعها في خطته النضالية، والتي راع فيها طبيعة الفرد الجزائري وخصوصياته ومكوناته الحضارية، فلجأ إلى سلسلة من التنظيمات الإدارية من أجل إحكام السيطرة وفرض النّظام.

كما تجلت عبقريته أيضا في تكوينه لمختلف أجهزة الدولة وتوجهيها، وربط العلاقات الإنسانية بين المشرفين على هذه الأجهزة للعمل في انسجام ووئام، فقد كوّن منذ مبايعته في سهل غريس، نظاما هرمي الشّكل للحكم والإدارة يتسم بالبساطة والكفاءة، ويحترم عواطف الشعب وعاداته، وميول القبائل إلى الحرية والاستقلال الذاتي،[2] فبالرغم من الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك من تمرّدات وانتفاضات، كرفض سيدي لعريبي الخضوع للأمير الذي حاربه سنة 1833م[3]، إضافة إلى بروز القبائل الموالية للمخزن العثماني بزعامة "مصطفى بن إسماعيل والمزاري"، وتمرّد قبائل الأنجاد بزعامة "الغماري" من الناحية الجنوبية، والتي تحالفت مع المحتل ثم أعلنت الطاعة بعد أن حاصرها الأمير.[4]

بالرغم من هذه الظروف الصعبة، إلا أنه عرف كيف يؤسّس دولته وينظّمها على قواعد مؤسّساتية معاصرة تستهدف رصّ صفوف الأمة،[5] وكان هدفه تناسي الأحقاد وتظافر الجهود، لمواجهة قوات الإحتلال الفرنسي وخطرهم على الدّين والبلاد الجزائرية لطردهم منها،[6] كما يمكننا أن نضيف أنّ مرحلة الهدوء والإستقرار، هي التي مهّدت له من أجل إقامة دولته التي وضع نواة إدارتها منذ أن بويع، وتمكّن من وضع مؤسّساتها وترسيخ مبادئ العدل والمساواة، قائمة على حب الوطن والإسلام، وتمجيد التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، مستمدّة أصولها من تجربة الخلفاء الراشدين،

1- عثر صالح فركوس على هذه الوثيقة "بآكس-أون-بروفانس" بفرنسا، تدور حول إدارة الأمير عبد القادر، وهي مجهولة الهوية، توجد بعلبة (1H4) مكونة من أربع صفحات معنونة، "لمحة مختصرة عن إدارة الأمير عبد القادر" وفيها عدة نقاط في غاية الأهمية للمزيد ينظر:

- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص73. - وينظر الملحق رقم 05.

2- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص217.

3- سيدي لعربي، كانت سلطته معترف بها في سهل شلف، من الأصنام على مصب الوادي بسهل مينة السفلى والجزء الساحلي من الظهرة، وقد رفض الخضوع للأمير. ينظر:

- Daumas (E) , Correspondances du capitaine Daumas: consul à Mascara, 1837-1839, collection de document inédit par le gouvernement du général d'Algérie, publiée par Yver (G), éd, Jourdan, Geuthenere Paris, 1921, p156.

4- ينظر: شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص89،90.

5- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص79.

6- Bellemare (A), Abed-el-Kader sa vie politique et militaire, op-cit, pp26,27.

ومن سيرة الصحابة والتابعين، ومن تجارب الأمم المعاصرة لها، وعليه فقد وضع اللّبنات الأولى للدولة، فأنشأ تنظيما إداريّا محكما يقوم على نظام المقاطعات[1]، واتخذ معسكر عاصمة له إعترافا بدور سكان منطقتها في انطلاق الجهاد المنظّم، كما شرع في تشكيل حكومته في فبراير 1833م، ووضع لهذه الدولة الفتية دستورا تضمن مجموعة من القوانين التي نظمت الدولة، وعيّن رجال الدولة، ونصّب العمال (الولاة) في مختلف أنحاء الإمارة، وشكّل مجلسا للشّورى من إحدى عشر عالما، جعل رئاسته للسيد "بن الهاشمي المراحي"، وكاتبا "ابن عمه محمد بن علي"، ووزيرا "محمد العربي"[2]، وكأيّ دولة تحتوي على ثلاث سلطات فالدولة الجزائرية أيضا كانت تمثيلاتها من الدول الأخرى تميّزت بثلاث سلطات (التشريعية، التنفيذية، القضائية).

ب.1.1. السلطة التشريعية:

هي السلطة الأساسية في الحكومة، تقوم بالمهمّة التشريعية ، وتعنى بصناعة القرار وسنّ القوانين التي تلزم كل المجتمع بها، ومن مهامها المناقشة والمداولة ومهام أخرى.

قام الأمير بتكوين مجلس للشورى يتكون من إحدى عشر عضوا،[3] من كبار العلماء والفقهاء، اتخذ معسكر مقر المجلس، كما اتخذ القرآن والسّنة النبوية والمذهب المالكي دستورا لها،[4] ووضع أعضاء المجلس الإستشاري من نواب الدولة بالتعيين والتصويت على أساس الإجتماع. ووضع في كل مقاطعة دار شورى للمفاوضة في الدعاوي المهمّة، التي تحدث بين الشعوب[5]، وفي مصلحة الدولة، وقد صدر عن هذا المجلس عدّة قوانين، أهمّها قانون الجيش المحمدي الذي دوّنه "قدور بن رويلة" في كتابه، وشائح الكتائب، كما كان المجلس يوزّع مناشير تشريعية على شيوخ القبائل ويراجع الأحكام الصادرة عن المحاكم.

1- هي عبارة عن ثماني مقاطعات على رأس كل منها خليفة، مهمّتهم الرئيسية العمل على إحترام الأجهزة الإجتماعية والتقليدية، وتحقيق الوحدة الظرورية لمواصلة الحرب، كما أنشأ مخازن كبيرة في تلمسان ومليانة والمدية وتاقدمت، وعين وكلاءه في وهران ومستغانم، وجلب أوربيين من أجل تدريب جيشه على استخدام الأسلحة. للمزيد ينظر:-أحمد بن عبد الرحمن الشقراني ، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تقديم: ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص56.

- يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، تر: أبو العيد دودو، دار هوما، الجزائر، 1996، صص142،143.

2- بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830م إلى 1989م، ج1، دار المعرفة، د.ط، الجزائر، 2006، ص76.

-نزار أباضة، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، صص10،11.

3- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح ، المرجع السابق، ص82.

4- صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص38.

5- أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص52.

كما قام بجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس إلى الخلفاء، والقضايا التي ترى فيها أن يكون فصلها على الوجه الشّرعي، يكتب فيها صكوك يضع أصحاب الشورى فيها أسماءهم بخط أيديهم، ورئاسة كل منها مناط بالقضاة فإذا حضرها الخلفاء فالرئاسة لهم، وعلى كل حال فهم المأمورون بتنفيذ صكوكها، وأمر هذه المجالس مربوط بالمجلس العالي الأميري[1]، أما مجالس الشورى الفرعية، فتعددت وتوزّعت في كافة الإمارة، وقد ارتبطت بأعضائها الذين كانوا يعيّنون بأوامر من خلفاء الأمير في المقاطعات، لمعالجة الأمور البسيطة فيها وحلّها وتدوينها في سجلّ خاص، وكان الأمير يولي اهتماما كبيرا بهذه السّلطة، لما لها من أهمية كبيرة في التوجيه الحسن لدواليب الحكم، لذلك عيّن السيد "أحمد بن الهاشمي المراحي" بمساعدة السيد "بن عبد المصطفى المشرفي" كقاضي القضاة للمذهب المالكي، باعتباره المذهب الرسمي للدولة الوطنية الجزائرية[2].

ب.2.1. السلطة التنفيذية:

يعتبر جهازا إداريا في الدولة، ويقوم بتنفيذ التشريعات والقوانين التي تصدرها السّلطة التشريعية، وأعلى سلطة تنفيذية في الدولة هي الحاكم، ومن وظائفها: إدارة الشّؤون الداخلية والخارجية للدولة عن طريق الوزارات.

كان يمثلها الأمير بعد مبايعته، فكان قائدا سياسيا، وعسكريا، يفصل في الأمور الخطيرة، ويصدر أوامره بسلطات واسعة، وقد حرص على إبعاد الطابع الإستبدادي في إدارة دولته، حيث أشرك ممثلين من العلماء، وشيوخ القبائل في حكومته بمعسكر[3].

تميّزت السّلطة التنفيذية بإدارة الأمير، أنّ جميع القرارات الإدارية تصدر منه، وتعرض على مجلس الشورى للتداول والتشاور ثم توجّه للتنفيذ، وهذه السلطة تعتبر من أهم السّلطات في دولته ، فقد حرص بالرغم من تمتعه بالسلطة المطلقة الإستثنائية على إبعاد الطابع الفردي لسلطته، وأشرك ممثلين من العلماء وشيوخ القبائل في حكومته من معسكر، واختار أعضاء حكومته من الأشخاص والعناصر التي تتمتع بالشخصية القوية والسّمعة الطيبة، بحيث اقتدوا به وساروا على خطاه، وقد تقبّلوا الصعوبات والمشقات من غير تردّد[4]، أمّا ما يتعلق بتشكيل مناصب الوزارات فهي:

1- اتخذ الأمير عبد القادر في كل مقاطعة دارا للشورى لبحث الأمور العامة في الدولة، وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس من قبل النواب الذين كانوا يدعون بالخلفاء، وربطها بالمجلس الأعلى للبلاد، المؤلّف من إحدى عشر عالما ومجالس الإستئناف، وأمّا العلماء منهم: "أحمد المحظوظي، أحمد الطاهر بن الشيخ المشرفي، محمد المختار الورغي، ومختار بن مكي الحاج، عبد القادر بن روكس، إبراهيم بن القاضي، أحمد بن الهاشمي"، أونفقات المدارس كانت تصرف من بيت المال كباقي كوادر الدولة، وأصحاب الوظائف الدينية، وما يتعلق بها فكانت رواتبهم تصرف من خزينة وزارة الأوقاف. ينظر: -أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص45.

2- صادق دهاش، الوحدة الوطنية السياسية والعسكرية لدولة الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة البحوث والدراسات العلمية، العدد6، ج2، جامعة يحي فارس، المدية، 2012، صص106،107.

3- صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق ، ص38.

4- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص40.

- ✓ وزارة الداخلية: أسندها إلى السيد محمد ابن العربي، يساعده كاتبان.
- ✓ وزارة الخارجية: أسندها إلى السيد أبي محمد الحاج مولود بن عراش.
- ✓ وزارة المالية: أسندها إلى السيد أبي عبد الله الحاج الجيلاني بن فريحة.
- ✓ وزارة الأوقاف: أسندها إلى السيد أبي عبد الرحمان الحاج الطاهر أبو زيد.
- ✓ وزارة الأعشار وصنوف الزكاة: أسندها إلى السيد أبي محمد الجيلاني العلوي، وكان الجباة يخرجون مرتين في السنة مرة في الربيع لجباية الزكاة، ومرة في الصيف لجباية الأعشار.
- ✓ وزارة الدفاع والحربية: أسندها إلى السيد محمد ابن الجيلاني، ومهمة هذه الوزارة هي ضرب السكة وصنع الأسلحة والذخيرة ،وما يتعلق بأدوات الحرب، ولها معامل ومراكز في أنحاء القطر.
- ✓ وزارة الخزينة أو المالية الخاصة: أسندها إلى السيد أبو سعيد محمد بن فاخة.
- ✓ وزارة الديوان: أسندها إلى السيد الحاج مصطفى بن التهامي[1].

إضافة إلى بقية الوظائف الأخرى، ككتابة الديوان الأميري والحجابة والقضاء بنوعيه: المدني والعسكري، والإفتاء، وإدارة الموسيقى، والملابس الأميرية، والسقاية، وغيرها من المهام التي كلّف بها الأمير موظفيه في الحكومة والوزارة.

ب.3.1. السلطة القضائية:

لقد كان على رأس كل دائرة قضايا عالما، يفصل في القضايا الشرعية، على مذهب الإمام مالك بن آنس، وكان الأمير حريصا على أن تكون السلطة القضائية وفق الشريعة الإسلامية، وكان يرأس هذه السّلطة بنفسه وكان يعدّ القاضي الأول في دولته[2]، وينقسم القضاة إلى مدنيين وعسكريين، وكان تعيينهم لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد، شرط إجتيازهم إمتحان كفاءة، وعدم إرتكابهم أخطاء جسيمة مهنية، وكان مرجعهم الشريعة الإسلامية[3].

أمّا في ما يخص مسائل الدولة ومصالحها الخاصة، فقد كان من إختصاص الأمير وخلفائه ربط إدارة هؤلاء القضاة بمراجعة العلامة قاضي القضاة السيد "أحمد بن الهاشمي المراحي"، رئيس مجلسه الخاص، ونصّب السيد "بن عبو

1- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، صص83،84.
-أديب حرب، ج2، المرجع السابق، صص 43،44.
-صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص38.
-عبد الرحمن الجيلاني، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، صص30،31.
-بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر، المرجع السابق، صص76،77.
2- صالح فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص82.
3- صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص39.

بن مصطفى المشرفي" قاضيا للعسكر، وعيّن لكل قاض كاتبين، أكبرهما يقوم مقام المفتي في مطالعة الفتاوى التي تجري الأحكام على مقتضاها[1].

ب.4.1. المقاطعات الإدارية في دولة الأمير:

لقد أسّس الأمير عبد القادر، دولة جزائرية حديثة بمؤسّساتها وهياكلها، وكان ذلك تأكيدا منه على إستمرارية الدولة الجزائرية التي كانت موجودة قبل الإحتلال الفرنسي للجزائر، والتي تجاهلتها الأقلام الفرنسية، وأشارت زورا وبهتانا على نشأة الدولة الجزائرية منذ فجر الإحتلال الفرنسي لها، لذا سعى لإنشاء مقاطعات إدارية تعمل على تنظيم مصالح الشعب الجزائري في إطار المقاومة الشعبية الوطنية ضد المحتل، فهو لم يكن جهويا ولا متعصبا لأفكاره، بل قام بتولية في كل مقاطعة رجلا من أبنائها التي يحكمها شرط أن يكون أهلا للثقة عندهم، فقد شملت دولته ثمانية أقاليم، على رأس كل منها خليفة نائب عن الأمير، وكانت هذه الأقاليم أربعة بين سنتي 1832م-1837م، وأصبحت ثمانية منذ هذا التاريخ[2].

1- للمزيد من التفاصيل حول النظام الإقتصادي لدولة الأمير ينظر: - محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص258.

- عدة بن داهة، رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، صص103،1116.

-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، صص221،222.

2- أعطت معاهدة التافنا للأمير بعض الوقت لتنظيم دولته إستعدادا لإنطلاقة جديدة ضد العدو، ولقد شمل التنظيم المدن التي دخلت تحت سلطته من جديد مثل: (تلمسان، معسكر...إلخ)، أو التي كانت تحته من قبل مثل: (مليانة، المدية، تاقدمت ...إلخ)، كما شمل مناطق أخرى لم تكن عنده من قبل، مثل (شرق وغرب الصحراء، ومجانة، سطيف، الأغواط وبسكرة...إلخ)، وكان الوقت يضغط عليه لأن الفرنسيين سيعودون إلى مضايقته وإفساد خططه، بعد إحتلال قسنطينة مباشرة، ويدخل في عملية التنظيم التي قام بها الأمير أيضا في رحلتاه إلى منطقة الزواوة (القبائل)، وحملته على عين ماضي. ينظر:

- أبو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، المرجع السابق، صص196،197.

الأقاليم الأربعة الأولى هي: إقليم الغرب أو تلمسان[1]، عين عليها محمد البوحميدي الولهاصي[2]، وإقليم الشرق أو معسكر عيّن عليها المصطفى بن التهامي[3]، بعد مقتل محمد بن فريحة المهاجي، وإقليم مليانة الذي شمل تنس وشرشال

1- مقاطعة تلمسان، هي ثاني مقاطعة أنشأها الأمير عبد القادر بعد مبايعته، تمتد حدودها من المنطقة الشرقية للمغرب الأقصى (واد وجدة) إلى غاية واد الصفصاف، مركزها مدينة تلمسان، الذي كان تعداد سكانها أنذاك حوالي إثنا عشر ألف (12000) نسمة، منهم الحضر المستقرين داخل المدينة، والكراغلة بقلعة المشوار، كان لسكان هذه المقاطعة علاقة وطيدة مع سكان المغرب الأقصى إقتصاديا وثقافيا، وكانت تستقر عدة قبائل بضواحي تلمسان. ينظر:
-أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص51.

-Emerit (M), op-cit, p10.

2- البوحميدي محمد: مرابط من جبال طرارة (منطقة جبلية تسكنها قبائل بربرية بين البحر شمالا، والحدود المغربية غربا، واد التافنا جنوبا وشرقا، كانت تشكل أغاليك تابعة لإقليم الغرب)، وبالضبط من قبيلة ولهاصة، كان رفيق الأمير في دراسته بوهران، مولده كان حوالي 1804م، حفظ القرآن صغيرا، ودرس الفقه والتفسير والحساب واللغة العربية، وكان شجاعا ونزيها، وصلبا وفطنا، وكان ذا نفوذ على منطقة تلمسان، وظل مكافحا إلى جانب الأمير في المقاومة التي خاضها من أجل تحرير بلاده من المستعمر الفرنسي، ويقال أنه كان نحيفا ذو قامة طويلة، لحيته سوداء، نظراته حادة، محارب قوي ومتفاني في مهامه الجهادية، عينه الأمير خليفة على مقاطعة تلمسان وهو منصب هام في الدولة. ينظر: -أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص144.
- خالد بالعربي، تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، دار الألمعية، ط1، 2010، ص22.
-الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص179.

- Julien (CH.A), Histoire de l’Algérie contemporaine, op-cit, p183.

- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p88.

- Emerit (M), op-cit, p18.

3- مصطفى بن أحمد التهامي، ولد بمعسكر 1796م، وهو إبن عمة الأمير وصهره، يرجع نسبه إلى أولاد بن علي، وهم الأوائل الذين إستوطنوا منطقة غريس، تعود أصولهم إلى بني عامر، والده كان ذو شخصية مثقفة، وعالما بالشريعة الإسلامية، وملما بأمور القضاء، ولقب بشيخ الجماعة لأنه كان مفتي بوهران أواخر العهد العثماني، وينتمي إلى عائلة علم وجاه مليئة بالعلماء، تميز بشخصية مرموقة علما وجاها ويعد مدرّسا وشاعرا وفقيها، وتميّز بالعلم والأدب والحكمة، وكان محاربا شجاعا، وكان يحضر المجالس في المسجد الأموي بسوريا ويناظر علماء الشام في المنفى، وكانت الكتب لا تفارقه،تولّى مهمّة رئاسة كتابة الديوان الأميري، ولم يبقى طويلا في هذا المنصب، ثم أوكل له الأمير منصب خليفة على مقاطعة معسكر مباشرة بعد مقتل محمد بن فريحة المهاجي مع بداية 1834م، إضافة إلى منصب رئيس الديوان في مجلس الشورى الأعلى، وبذلك أصبح يشغل منصبين.ينظر:
-أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص325.
-يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا، المرجع السابق ، ص138.
-صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص84.
- بلهاشمي بكار، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة إبن خلدون، تلمسان، 1961، ص54.
- أحمد بن عبد الرحمن الشقراني، القول الأوسط، المصدر السابق، ص56.
- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، صص26-30.

- Zoumoroff (PH), Et autre, Abdelkader, E.F.A, France, 1994, p418.

ولّى عليها محي الدين بن علال القليعي[1]، ولما مات خلفه محمد بن علال[2]، ومن هذه المقاطعات الثلاث مراسي تحصنها، مرفأ رشقون بتلمسان، ومعسكر مرفؤه أرزيو، أما مليانة فمرفؤه شرشال، ورابع مقاطعة هي مقاطعة التيطري، عاصمته المدية، ولّى عليها أخاه مصطفى بن محي الدّين، ثم عزله وولّى مكانه محمد البركاني[3].

وبعد معاهدة التافنا، أضاف الأمير أربعة أقاليم أخرى، وهي: مقاطعة جبال القبائل الكبرى أو برج حمزة عاصمته (البويرة)،" الذي كان تحت نفوذ الحاج سعدي كممثل للأمير"، وولّى عليها السيد أحمد بن سالم الدبيسي[4]، وإقليم أو مقاطعة مجانة، "الذي كان هدف الأمير من وراء إنشائه، إثبات شرعية نفوذه في إقليم قسنطينة القديم"، عاصمة هذا الإقليم سطيف، ولّى عليها محمد بن عبد السلام المقراني، ثم محمد الخروبي القلعي وأخيرا محمد بن عمر العيسوي، وإقليم

1- محي الدين بن علال القليعي، يلقب هذا الأخير بمحي الدين الصغير لتمييزه عن محي الدين آخر سبقه من سلالته، فهو ينحدر من ذرية "سيدي علي المبارك"، تاريخ ولادته غير معروفة، سمي بآغا العرب من طرف الجنرال برتيزان 1831م، قضى طفولته في ظل زاوية أسلافه بالقليعة، حيث تلقى تكوينه حتى أصبح رجل دين ،سلاحه اللّسان والمثل، طلب من الأمير أن يعينه خليفة على أيالة التيطري، وفي الأخير عينه الأمير خليفة له على مقاطعة مليانة في شهر ماي 1835م، كما ساهم في تحقيق عدّة إنتصارات سياسية، وكان مخلصا للأمير ووفيا لقضية وطنه ولازم منصبه إلى يوم وفاته يوم 14 جوان 1837م، في سن يناهز الثامنية وأربعون (48) سنة، وخلفه محمد بن علال (إبن أخيه). ينظر: - الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص152.

- محمد الحاج الصادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، د، م، ج، د.ط الجزائر، 1964، ص137.

- Clauzel (B), Correspondance du maréchal Clauzel, gouverneur général des possessions françaises dans le nord de l'Afrique 1835-1837, publié par Esquer(G), éd, Larose, paris, 1948, p36.

2- محمد بن علال: تم تعيينه على مقاطعة مليانة بعد وفاة الخليفة الحاج محي الدين ولد سيدي المبارك، ينتمي بن علال إلى عائلة مثقفة إشتهرت بالعلم، وكان جده سيدي علي المبارك، وليّا صالحا بمدينة مليانة، أما فيما يخص نشأته وتعليمه تبقى مجهولة،كان أعز وأخلص أصدقاء الأمير، برز بقياداته وطاقاته القتالية، وله صرامة لا مثيل لها، وكان رجل دين وإصلاح، إذ كان يعاقب كل من يتخلّف على صلاة الجمعة في المساجد، وصفه الأمير وحتى أعداؤه في الجيش الفرنسي أنه كان من الشخصيات السياسية والعسكرية البارزة، الذين تحمّلوا العبء الأكبر في تنظيم حركة المقاومة ضد المحتل، وهو يمثل أحد الرموز الجديرة بالدراسة والتحقيق في تاريخ المقاومة. ينظر: -الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص166.

-محمد الحاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، المرجع السابق، صص143،144.

- Changarnier (T), Mémoires du général Changarnier, Campagnes d'Afrique 1830-1848, Intra diction, Déstre (H), Édition, Berger, Paris, 1930, pp64, 65.

3- محمد بن عيسى البركاني: ينحدر من أسرة البراكنة، المشهورة بالدين والعلم والتقوى، والتي كانت لها مكانة في أوساط قبيلة "بني مناصر"، قرب مدينة شرشال، حيث تربى في وسطها ونشأ، أسس زاوية لتعليم تعاليم الدين الإسلامي، وكان يتميز بشعبية بين القبائل البربرية غرب العاصمة، أما عن تاريخ الميلاد فهو مجهول، وقد عرف بأنه كان أخلص الرفاق للأمير، ومن قادة الجيش الذين أبدوا شجاعة فائقة خلال المقاومة، عينه الأمير خليفة على مقاطعة المدية في 22 أفريل 1834م. ينظر: - الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص152.

- Emérit (M), op-cit, p207.

- Mont Rond, Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830-1847, T2, plée, l'Abdelkader, éd, berba, paris, 1847, p180.

4- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص86.

- محمد العربي الزبيري، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1982، صص30،31.

-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، المرجع السابق، ص197.

- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص84.

الزيبان عاصمته (بسكرة)، ولّى عليها فرحات بن سعيد ثم الحسن بن عزوز، ثم محمد الصغير بن عبد الرحمان بن أحمد بن الحاج[1]، وإقليم الصحراء الغربية، عاصمته الأغواط، ولّى عليها قدور بن عبد الباقي[2].

وكان كل إقليم مقسّما إلى عدة نواحي، على رأس كل ناحية آغا، وكل ناحية مقسمة إلى أعراش، أو قبائل، على رأس كل منها قائد، وكل فرقة من القبيلة أو قسمة منها تحت نفوذ شيخ، ونصّب على كل رأس ولاية من الولايات الشمالية التابعة لدولته خليفة له -وقد سبق ذكرهم-[3] يعتبر القائد المباشر للأمير، وكان من مهامه حفظ الأمن، وتحميل الزكاة، والعشور والضرائب، وفض النزاعات بين المواطنين[4]، وكان تعيين الخلفاء غير محدود بمدة، والخلفاء هم الذين ينقلون التعليمات والأوامر من الأمير إلى الآغوات، وهؤلاء إلى القيادة وهؤلاء إلى الشيوخ، وهكذا، وكان القادة والخلفاء يعيّنون من طرف الخليفة لمدة سنة قابلة للتجديد، أمّا القادة فيعيّنون في الغالب من طرف الآغوات، ولكن إذا كانوا على قبائل كبيرة فإن تعيينهم يأتي من الخليفة نفسه، أما الشيوخ فمنصبهم إنتخابي، إذ تنتخبهم فرقتهم أو قسمتهم (دوارهم)، بدون تدخل الدولة، والشيوخ يحوّلون شكاوى الناس إلى السلطات العليا، بطريقة السّلم التصاعدي، وعندما تقوم الحرب ضدّ العدو يصبح أولئك المسؤولين قوّادا عسكريا كل في دائرته[5].

1- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص84.

2- للتعريف أكثر على تنظيم دولة الأمير وعماله (خلفائه) في المقاطعات ينظر:

-محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، المصدر السابق، صص255-258.

-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، صص220-222.

-Roches (L), Trente-deux ans à travers l'islam 1832-1864, T1, F, Didot, paris, 1885, pp 466,467.

3- أبو العيد دودو، جيش الأمير في نظر راسلوف، مجلة الدراسات التاريخية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، عدد 11-12، الجزائر، 2000، صص169،170.

4- صادق دهاش، الوحدة الوطنية، المرجع السابق، ص106.

5- أبو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، المرجع السابق، ص197.

- أحمد مطاطة، نظام الإدارة والقضاء في عهد الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص173.

-عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، المرجع السابق، ص110.

- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، صص86،87.

لقد كان تنظيم الأمير عبد القادر للسلطات على النحو التالي: -الخليفة: يكون على مستوى المقاطعة، له العديد من الإختصاصات: حق مراقبة القواد والآغوات.

-الآغا: يتولى مهامه مدة سنة قابلة للتجديد، وله حق التصرف في المسائل العادية.

-القائد: مهمته الإشراف على شؤون القبيلة، وما يرفع له من أمور تتعلق بالعشيرة، إلى جانب الحفاظ على الأمن والفصل في بعض المنازعات وإقامة الصلح.

-الشيخ: هو المسؤول القاعدي يعمل كوسيط بين القبيلة والقائد، إلى جانب تمتعه بسلطات إدارية واسعة، أهمها: رئاسة المشرفة، مراقبة الأسواق، الإشراف على الشؤون المالية، تثبيت شؤون أحوال المدينة، التبليغ ورفع القضايا والأوامر، والمطالب بين الديوان الأميري والقبيلة، وأهمية الشيخ الوظيفية هي: عدم السماح لمن تقلدوا هذا المنصب بأي إنحراف أو سوء تصرف، أو إهمال، وإلا تعرضوا للعزل.ينظر:

-Bugeaud (TR), Expose de l'état actuel de la société arabe du gouvernement et de la législation qui la régit, éd, Imprimerie du gouvernement, Alger, 1844, pp30-45.=

لقد عمل الأمير عبد القادر بما تمليه عليه الشريعة الإسلامية في إدارة البلاد، وتنظيم الشعب الجزائري لمقاومة قوات الإحتلال الفرنسي[1]، وكان هدفه الوحيد هو تحرير البلاد تحت سلطة واحدة وعمل من أجل تقوية الجهاز المركزي على أسس تتجاوز مفهوم البنية القبلية إلى فكرة بناء دولة تقوم على المؤسسات الكفيلة بإدماج السكان والمحافظة على مصالحهم، فمشروع إنشائه للمؤسسات وتطبيقها ميدانيا، إنما هو نابع من قناعته أن الإدارة الشعبية لا تتحقق في الواقع إلا بإسنادها إلى هيئات معنوية، تحكمها قوانين أو تشرف على تطبيقها مجموعة من الشرفاء الأتقياء، المعروفين بورعهم وإخلاصهم لله.[2]

يقول الكولونيل تشرشل في هذا الصدد: :"... ملأ عبد القادر كل المناصب الهامة برجال نبلاء بالميلاد، تقديرا منه للنتائج المثمرة التي تعطيها النظرة الصحيحة للتكوين الطبيعي للمجتمع ...ولكن أولئك الرجال الذين وقع عليهم الإختيار، كانوا في نفس الوقت يمتازون بالشخصية القوية والسمعة النظيفة، أي أنهم كانوا أمثلة تحتذى وحكاما يطاعون وبذلك شاع بين كل الطبقات من قمة المجتمع إلى قاعدته، شعورا عال بالواجب والإحترام الذاتي، كما بعث العمل بالدين والفضيلة والشرف والأخلاق التي كانت قد أصيبت أثناء السيطرة التركية الغازية..." [3]، كما أقر على نجاح عبد القادر في إقامة جهاز حكومة، بحكم الإنسجام بين مختلف أجزائها، وأنه وضع سلّما إداريا يتماشى تماما مع حاجة قومه الإدارية وعواطفهم الوراثية، فالموظفون كانوا قلة وأجورهم معتدلة، ومجال نشاطهم كان محدّدا بدقة، حتى وإذا كانت سلطاتهم غير محدودة، وإذا كانت يدهم تمتد بلا حدود إلى المداخيل، فإنّ يقظة رئيس الدولة كانت تمنع من وجود الطغيان والفساد وسوء التصرف.[4]

يقوم النظام الإداري الأميري على الهيكل الحداثي، والتي جعلته يطبّق نظاما عاما يحترم خصوصية كل إقليم وهذا ما ساعده على بسط سلطته على قبائل التل وعشائر الهضاب وسكان الجبال، فقد إعترفت به حتى القبائل

=- Bellemare (A), Abed-el-Kader sa vie politique et militaire, op-cit, p118.

- فوزي أوصديق، النظام الدستوري لدولة الأمير عبد القادر، دراسة تحليلية مقارنة، د، م، ج، ط2، الجزائر، 2003، صص21،22.

-أثبت القنصل العام الإنجليزي اسكوت(Scoot) في رسالة له إلى وزارة الخارجية البريطانية، بتاريخ 13 سبتمبر 1846م يقول: "... إن سلطة الأمير عبد القادر معترف بها من جبل طارق إلى طرابلس...". ينظر:

-Hellal (F), La grande Bretagne et la résistance de l’émir Abdelkader d’après les correspondances du consulat général d’Alger 1837-1847, in R.H, Alger, N°11/1981, p22.

1- عبد الله شريط، محمد مبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والإجتماعي، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر، 1985، ص243.

2- أحمد ملاح، الأمير عبد القادر بين الإنسانية والروحانية، مجلة الكلمة، العدد 66-67، السنة 17 شتاء 2010، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، ص93.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص156.

4- المصدر نفسه، صص155،156.

التي كانت في السابق مستقلة عن سلطة البايلك، كما عمل على تقوية الجهاز المركزي من أجل بناء دولة تقوم على المؤسسات الكفيلة بإدماج السكان والمحافظة على مصالحهم ورعاية شؤونهم.

كما لعب واقع الإحتلال الفرنسي لبايلك الغرب دورا محوريا في الدفع بالمشروع الأميري إلى تنظيم مجاله السياسي، على مبدأ ترابي جغرافي -الحدود الجغرافية لسلطة الأمير- ونلمس ذلك من خلال الغزوات التي كان يشنّها جيشه ضد القبائل المتمردة والثائرة على سلطته، كما نلمس ذلك أيضا في تعيينه للزعامات وتفقّدها، وخلق شبكة إدارية والحرص على أخذ البيعة من كل قبيلة وبشكل مكتوب، كل هذا يبرز لنا إلى أي مدى حاول الأمير التحكم في مجاله السياسي الترابي، في ظل المشاكل والتعقيدات السوسيولوجية والسياسة والرمزية لدولته.

ب.2.مكانة القضاء لدى الأمير عبد القادر:

إتّسم نظام القضاء في الفترة الأميرية بالدقة والنّظام والعدل، فقد كان يحضى باهتمام كبير من طرف الأمير الذي أورد في إحدى مذكراته مع بداية مشروعه لبناء الدولة الجزائرية الفتية قائلا: "...أول شيء أبتدئ به النظر في أمر القضاة، وأخبار العدل لها في كل موطن، والسؤال عن المؤتمنين(كذا) في كل قبيل، ليعينهم لسعاية وجباية أموال الصدقات..".[1]

وفعلا طبّق ما أورده فعلا، فقد أسند شؤونها للأشخاص الذين توفّرت فيهم شروط الكفاءة القضائية، وإتّصفوا بالعدل والنزاهة، والثقافة والخصال الفاضلة، والأمير يعتبر المسؤول الأعلى للعدالة، بحكم منزلته في الدولة كقائد ورئيس لها.فقوة الأمم وحضاراتها لا تقاس بكثرة عماراتها وقصورها، بل تقاس بمدى عدالة قضائها وتصرّف قضاتها.

وكان القاضي بطبيعة منصبه، شخصية مهمة ومحترمة، لها إعتبارها وقدرها، وكان يمتاز بمعرفته للشريعة، ومقدرته وفهمه للتعاليم القرآنية، فكان لا يختار في هذا المنصب إلاّ العلماء والمتضلّعين في شؤون الشريعة الإسلامية.

وكان الشخص الذي يترشح لهذا المنصب يجتاز إمتحانا خاصا، أمام جمع من الفقهاء الأعلام، ويشترط أن يكون عالما بالفصل في القضايا الشرعية، وأن يكون نزيها ومشهورا بالعفاف، والحرص على أمور الدين[2]، وكان نظامه القضائي قائما أساسا على مذهب واحد "مذهب الإمام مالك"، في فصل القضايا،[3] لكن مع أخذ المذاهب الأخرى

1- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص143.

2- أحمد مطاطة، نظام الإدارة والقضاء في عهد الأمير، المرجع السابق، صص182،183.

3- محمد ابن الأمير، تحفة الزائر،المصدر السابق،ج1، ص 309.

بعين الإعتبار، وكانوا يقومون بتطبيق أوامر الشريعة الإسلامية الصادرة من الكتاب والسنة، والأمير يحرص على مراقبة تطبيقها، التطبيق الصحيح من طرف القضاة، فهو يعتبر منفذا لها.[1]

وكان يعيّن لكل قاض كاتبين يساعدانه في ترتيب القضايا وتنظيم شؤونها، وتسجيل الدعاوى في سجلات خاصة.

وكان القضاء في عهد الأمير ينقسم إلى قسمين: قسم يتولى شؤونه القضاة الشرعيون وهو القضاء المدني[2]، وقسم يسند إلى الخليفة والآغا والقايد، ويساعده الشيخ في القبائل والعشائر وهو القضاء الجنائي[3]، وكانت أعلى رتبة في مناصب القضاة المهنيين، وهي رتبة قاضي القضاة الذي كان يرأس مجلس الشورى الأعلى الأميري[4].

لقد إتخذ الأمير في كل مقاطعة دارا للشورى، لبحث الأمور الهامة في الدولة، وجعل أعضاء هذه المجالس -مجالس الشورى- تنتخب من قبل النواب "الخلفاء"، وربط هذه المجالس بالمجلس الأعلى للبلاد المؤلّف من إحدى عشر عالما،[5] وبمجالس الإستئناف، ويرأس هذه المجالس عادة القضاة، ومهامها إصدار فتوى بالأمر الذي يتعلق به القاضي أو فتوى في القضايا المطروحة للمداولة سواءا من طرف القاضي أو الخليفة أوالمواطنين.

كما طبق الأمير نظاما عقابيا، وقد ارتبط بثلاثة أجهزة: "قضائي إسلامي عادل ونزيه، شرطة قوية، إدارة منظمة يمثلها خلفاء الأقاليم"، بمساعدة الآغوات والقادة والشيوخ والحكام[6]، هذا النظام العقابي الذي طبّق في الفترة الأميرية كان نظاما فريدا من نوعه، فهو لم يخرج عن إطار الشريعة الإسلامية السمحاء، الذي كان يدعوا للرأفة والتسامح مما أدى إلى زوال كبير للفوضى السائدة بعد انسحاب الأتراك، فامتلكت الجزائر في هذه الفترة مؤسسات ذات مصداقية في منظور الجزائريين، بفضل سيادة العدالة والقانون التي طبقها عبد القادر،مقتديا بتعاليم القرآن والسنة النبوية الشريفة.

ب.3. المشروع الأميري العسكري للدولة الجزائرية:

عند دراستنا للأوضاع العسكرية للجزائر أثناء فترة الحكم العثماني، نجد أنّها بالرغم من اهتمامها الكبير بهذا المجال، إلا أن هذه الصبغة العسكرية باتت هي الغالبة على الوجود العثماني لطبيعة الدولة أساسا، وقد انعكس

1- عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص97.

2- القضاء المدني: يحافظ على خصائص الإدارة القضائية وأشكالها، سواءا في النظر في القضايا أو إصدار الأحكام.

3- النظام الجنائي: لم تكن له محاكم خاصة، وقضاة مهنيون بالمعنى الحقيقي، ولهذا تصبح القضايا بارزة في القضاء المدني أو منها في القضاء الجنائي.

4- أحمد مطاطة، نظام الإدارة والقضاء في عهد الأمير ، المرجع السابق، ص179.

-مجلس الشورى الأميري: هو أعلى هيئة قضائية في الدولة، وظيفتها تجمع بين وظيفة المحكمة الإستئنافية، ووظيفة محكمة النقض بالنسبة للأحكام من دونه من المجالس والإدارات القضائية، ومقره بجوار مقر الأمير، وكانت رئاسته تسند في الغالب إلى الأمير أو إلى القاضي الذي ينوبه في شؤون العدالة. ينظر: - المرجع نفسه، ص185.

5- من بين العلماء الإحدى عشر نذكر " أحمد المحفوظي، أحمد بن الطاهر بن الشيخ المشرفي، محمد بن مختار الورغي، إبراهيم بن القاضي، أحمد بن الهاشم وغيرهم".

6- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية الزمان والمكان، منشورات مخبر البحوث الإجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد للطبع والنشر، جامعة معسكر، الجزائر، 2014، ص207.

هذا الوضع على تسيير البلاد من خلال تدخّل الجيش في كل مناحي الحياة، وعدم التزامه بصلاحياته الأساسية، ممّا أضعف دوره العسكري، حتى أنّ الجيش الإنكشاري أصبح مصدر فوضى واضطراب وضرر وتمردات،حتى أنها ظلت مبعث رعب في نفوس الأهالي في جميع المناطق التي تتواجد فيها، فكما ساهمت في بناء مجد الإمبراطورية في البداية تسبّبت في انحطاطها في النهاية[1]، ضف إلى ذلك فإنّ الإدارة التركية في الجزائر كانت تعمل أساسا على جمع الضرائب، وإثقال كاهل السكان بها من أجل ملئ جيوب الأقلية الحاكمة، إضافة إلى اهتمامها في الحفاظ على الأمن، لذلك لم تسمح لها الفرصة في التفكير من أجل النهوض بالبلاد وتطويرها، يذكر "جوليان"[2] في هذا الصدد:"...أن الإدارة التركية لم تهتم بتطوير البلاد، فالأشغال العمومية والتعليم وإدخال التصنيع لم تكن تحظى باهتمام الإدارة...التي اتسمت العزلة، وحالت دون إمكانية اندماج الأتراك بالأوساط المحلية، بالرغم من أنّ الدين واحد.

ومع وقوع الإحتلال الفرنسي للجزائر، أثيرت من جديد الحماسة في التوسع والنهب والسطو على ممتلكات الشعب الجزائري، وظهرت الحرب المقدسة، وكانت مبايعة الأمير عبد القادر مؤشرا هاما على إنطلاق الجهاد بعد أن رشحه والده "محي الدين" للإمارة، وبعد الفوضى التي سادت المدن الجزائرية واشتعلت نيران الفتنة بسبب الفرنسيين وكثر الهرج والخصام، وبعد قبول عبد القادر هذه المهمة العظيمة كما سبق وأن ذكرناها، كوّن أسسا لهذه الدولة على هدي القرآن والدستور الإلهي،[3] وبهذا التكليف حصل على مبايعة الجميع فكان الإمتثال لأمره، وإلتفاف شعبه حوله ليكوّنوا دولة فعلية على أنقاض العثمانيين، وهو عامل حاسم في شرعيته وجهاده،[4] لأن الجهاد في نظره وحسبما استمده من الشريعة الإسلامية يقام من أجل مساعدة المستضعفين أو لمنع الاضطهاد،[5] فالجهاد في الغالب ينصرف إلى جهاد الكفار وقتالهم، من المعاندين والمحاربين، والمرتدين، والبغاة ونحوهم، ومقصوده إعلاء كلمة الله -عزّ وجل- هذا

1- للمزيد حول الانكشارية ينظر: وليام شالر، مذكرات وليام شالر، المصدر السابق،ص56.

- أحمد محمود علو السمرائي، محمد حمزة حسين الديلمي، الإنكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826م، مجلة التربية والعلم، المجلد 17، العدد2، السنة 2010، جامعة الموصل، العراق.

- مع نهاية الحكم العثماني، اشتد الصراع بين الإنكشارية والسلطة المركزية، مما عرض هؤلاء وخاصة العزاب منهم إلى التصفية عدة مرات من طرف عدد من الدايات والبايات، وكان آخرهم الحاج أحمد باي، آخر باي قسنطينة ،وآخر الحكام العثمانيين بالجزائر، ينظر: - جميلة معاشي، الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، إشراف كمال فيلالي، جامعة قسنطينة، 2008/2007، ص365.

-صالح فركوس، الحاج أحمد باي قسنطينة، المرجع السابق، ص13.

2- Julien (CH.A), Histoire de l’Algérie contemporaine, op-cit, p15.

3- بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، صص25- 27.

4- محمد بلغراد، الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر، مجلة التاريخ، عدد خاص بوفاة الأمير عبد القادر الجزائري،1883م-1983م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983،ص49.

5- حامد الجار، الجهاد وأبعاده الروحية والسياسية والاجتماعية في حياة الفرد والمجتمع، ملتقى الفكر الإسلامي العاشر، 10-19 جويلية1976، عنابة، مج3، قسنطينة، دار البعث، 1980، ص274.

هو معنى الجهاد[1] الذي يريد الأمير ترسيخه في أذهان شعبه الذي يعتبره المدافع عن الدين، يذكر إسكوت في هذا الصدد: "... أن القبائل قامت بحمل السلاح للدفاع عن العقيدة الإسلامية والإستقلال ضد الغزاة لبلدهم وأعداء دينهم تحت راية مرابطها الممتاز ... "[2].

ضف إلى ذلك فابن الثانية والعشرون سنة، تمكّن من إقصاء الزعماء الآخرين عن الميدان، وتسمّى بأمير المؤمنين ودعا إلى الجهاد ضد الفرنسيين[3]، وشرع في إنشاء جيش نظامي يدخل ضمن إستراتيجياته العسكرية لمواجهة العدو، إلى جانب توفير الأسلحة وإنشاء المصانع وبناء القلاع والحصون.

لقد أجاد الأمير عبد القادر تنظيم جيشه، خاصة عندما وضع الركائز الأساسية لبناء صرح دولة جزائرية فتية، وذلك وفق إستراتيجية سياسية وعسكرية محكمة، ومن هنا برزت النظرة الإستراتيجية البعيدة العميقة المتخصصة له، فأصبحت عنده قناعة راسخة بأن المحتل دخل بالقوة فلا يمكن أن يخرج إلا بالقوة، بالرغم من أنه كان مدركا لقوة عدوه عدة وعتادا،إلاّ أنه عزم على تدريب جيشه وتسليحه وفق الأساليب الحديثة لخوض كفاح شاق ضدّ العدو، فالقوات المسلحة الفرنسية كانت أقوى مؤسسة حكومية، وعلى أكتافها قامت فرنسا ببناء مجد عسكري كبير داخل القارة الأوربية وفيما وراء البحار، وكان الجيش الفرنسي هو مصدر قوة الدولة[4]، ضف إلى ذلك أن فرنسا أولت إهتماما كبيرا في تثقيف ضباطها وتطويرهم على استخدام أساليب القتال، فقد أنشأت من أجل ذلك أهم المدارس العسكرية في أوربا كان أهمها: المدرسة الملكية في باريس: أنشأت عام 1751م[5]، ومدرسة الهندسة العسكرية الكبرى التي تأسست في "سان سير"[6] 1748م، هذا وقد اهتمت أيضا بالتحسينات على مستوى الأسلحة والذخيرة من خراطيش، وبنادق ومدافع خاصة مع سنة 1770م على يد "غريبوفال" الذي أحدث تغييرات ذات أهمية ثورية، كما أضافت تغييرات في المضمار التعبوي واستخدام أسلوب الكشافة منذ 1760م، وإنشاء معامل الأسلحة القومية سنة 1718م، وتجهيزات البزاة العسكرية،

1- عرّف ابن تيمية رحمه الله، الجهاد: "هو بذل الوسع وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق..." ينظر: -أحمد بن تيمية، لمجموع فتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم ساعده ابنه محمد، المجلد 10، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 2004، صص192،193.

2- الكلونيل إسكوت، مذكرات عن إقامته في زمالة الأمير(1841)، تر: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص108.

3- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية،نقله إلى العربية:نبيه أمين فارس،ونبيه البعلبكي،دار العلم للملايين، ط3،بيروت،1968، ص622.

4- عبد الحميد البطريق عبد العزيز، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، د.ط، لبنان، 1974، ص243.

5- ماتيو أندرسون، تاريخ القرن الثامن عشر في أوربا، تعريب: نور الدين حاطوم، دار الفكر، د.ط، سوريا، 1988، ص20.

6- هي مدرسة فرنسية للتعليم العالي العسكري، تخرج ضباط الجيش البري، قد أنشأت هذه الكلية على يد نابليون بونابرت الذي كان حينها قنصلا أول وذلك في مدينة فونتينبلو عام 1803م، ثم نقلت في عام 1808م إلى مدينة سان سير، في منطقة سين أي واز، على بعد 5كلم من فارساي، من أبرز مهامها التكوين الأولي لقسم كبير من الضباط العاملين، وقسم من الضباط الإحتياطين من القوات البرية، ولعدد كبير من الطلبة الأجانب القادمين للإلتحاق بها من كل أنحاء العالم.

وغيرها من التغييرات الحديثة والمتطورة التي تؤكد مواكبة الدولة الفرنسية عصر النهضة،[1] وانطلاقا من كل ذلك، وبعد احتكاك الأمير عبد القادر بالقوة الفرنسية الضخمة والقوية، رأى أنه من الضروري إنشاء جيش نظامي يكون تحت تصرفه الدائم من أجل الوقوف أمام هذا التنظيم العسكري الفرنسي.[2]

يعتبر تطور الجيش الفرنسي في القرن الثامن عشر ميلادي (18م) وبداية القرن التاسع عشر (19م)، نتيجة حتمية لما شهدته فرنسا من تطورات على مختلف المستويات[3]، كما مس هذا التطور جميع شرائح المجتمع الفرنسي ليس فقط في الجانب العسكري، بل على المستوى التجاري والصناعي، وغيرها من التطورات[4] التي مست الجانب السياسي للثورة الفرنسية والتي كانت سببا في إنشاء جيش قوي يحافظ على مكانة فرنسا والتي ما فتئت أن وصلتها، فأقدمت على بناء أسطول وجيش فرنسي حديث[5]، يذكر "عميراوي أحميدة" أن فرنسا أصبحت ثاني دولة بحرية في العالم بعد إنجلترا ويذكر أنه في سنة 1773م كانت فرنسا تملك ستة وستون سفينة حربية، وفي سنة 1780م بلغت واحد وثمانون سفينة وهي قدرة بحرية لا سابق لها في التاريخ الفرنسي[6].

ب.1.3. نشأة الجيش الأميري:

منذ مبايعة عبد القادر أميرا على البلاد الجزائرية، بدأ في بذل مجهوداته الكبيرة من أجل تنظيم جيشه والنهوض به، وفق استراتيجية قوية أساسها توحيد القبائل، من أجل إجلاء الإستعمار الفرنسي من دار الإسلام، كما أن المعارك التي خاضها منذ البيعة اعتمدت أساسا على إستراتيجية محكمة، وضعت الإحتلال بالرغم من قوته في مواقف حرجة خاصة عندما كان يطبق ما يسمى بحرب العصابات أو حرب الإستنزاف.

لقد وضع الأمير عبد القادر اللّبنات الأساسية لتنظيم الجيش الجزائري، خاصة بعد عودته من حملته التأديبية لقبائل الدوائر والزمالة،[7] حيث قام بجمع أعيان البلاد وخطب فيهم مبرزا لهم أهمية وجود جيش نظامي، من أجل الحد

1- ماتيو أندرسون، المرجع السابق، صص202-205.

2- عبد القادر دحدوح، إستحكامات الأمير عبد القادر العسكرية 1836م-1842م، دراسة تاريخية أثرية تحليلية، موفم للنشر، د.ط، الجزائر، 2008، ص23.

3- سليمان نوار عبد العزيز، جمال الدين محمود محمد، التاريخ الأوربي الحديث في عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، د.ط، مصر، 1999، ص227.

4- Duby(G), Mandro (R), Histoire de la civilisation française XVIIe-XXe ciécle, librairie Armand colin, Paris,1968, pp20-31

5- Ibid, p154.

6- أحميدة عميراوي، جيش الإحتلال الفرنسي في الجزائر، المرجع السابق، ص55.

7-الدوائر والزمالة: هما مجموعتان كبيرتان من القبائل كانتا من القرب من وهران، وكانتا من قبائل المخزن، وقبائل المخزن هذه هي القبائل التي تحالفت وتعاملت مع السلطات العثمانية. ينظر: - أديب حرب، ج1، المرجع السابق، ص107.=

من التوغل الفرنسي داخل البلاد، وتعميم الأمن والإستقرار، لأنه قبل التفكير في إنشاء جيش نظامي، كانت قوات المقاومة الشعبية الأميرية مشكّلة من أناس عاديين متطوعين لا يحترفون الجندية، ناقصو التكوين والتجهيز والتسليح أقوياء بإيمانهم، وبعدالة قضيتهم والدفاع عن شرف الجزائريين واستقلال الوطن، كيّفهم الأمير مع الإنضباط والتجهيز العسكري، أمام تجهيز صناعي عصري متطور، وعتاد حربي قوي، وجنود وضباط خريجي مدارس عسكرية بأجهزة حديثة، لهذا كله حتّمت عليه الظروف اللاّحقة من أن ينتقل إلى مرحلة تنظيمية أرقى، وتفادي كل ما قد يسببه الوضع اللاّنظامي للمقاتلين من ارتباك ومحدودية في النتائج، بل وقد لاحظ أن تلك الحالة تسيء للجهاد، وكذلك تهدد بإبطال تطلعاته في إقامة جيش شعبي وطني[1]، لأنه منذ سنوات فرض على الأمير واجب مزدوج. من جهة كان عليه أن يوحد الجهود المبعثرة التي حوله، فيهدئ الثورات ويجمع الخلافات ويقضي على التمرّدات، ومن جهة أخرى كان عليه أن يواجه بشجاعة الهجومات الكبيرة من عدوه، الذي يمتاز عليه بالوسائل والمعدّات التي تصعد بالحرب إلى درجة العلم[2].

يذكر هنري تشرشل فيما يخص الجيش غير النظامي لدى الأمير، أن عدد قواته كانت خلال الفترة الأولى من عمله بلغت حوالي ستون ألف (60000) جندي، وكان هذا العدد يشمل جميع الوحدات التي كانت القبائل تمده بها في حالة الطوارئ، وأنه من النّادر أن اجتمع ثلث ذلك العدد في وقت واحد، بغرض القيام بحملة عسكرية، أما الفرسان غير النظاميين والأكثر تفوقا فلم يتوفروا لديه.[3]

ولكن سرعان ما اكتشف عدم كفاءة هؤلاء المحاربين، أمام جيش منضبط لدولة عسكرية كبرى كان عليه أن يواجهها، وتجنيد جيش نظامي من بين شعب لم يعرف التجنيد الإجباري حتى أيام الحكم التركي،[4] هي تجربة خطيرة تحتاج إلى حنكة وحذر كبير، فلولا معرفته الدقيقة بعقلية أمته وميولها وأحكامها المسبقة، وقدرته على ربط ذلك بنتائج أفعاله وقواعده السّلوكية، لما تمكن من إقامة نظامه الذي جعل منه مصلحا،[5] وهكذا حاول إنشاء الجيش النظامي لحماية دولته التي كان يسعى لتوطيد أركانها.

=- قام الأمير عبد القادر بجمع أعيان البلاد وخطب فيهم مبرزا لهم أهمية وجود جيش نظامي، وتم الإعلان لذلك في الأسواق والمساجد، وقد جاء في هذا الإعلان ما يلي: "ليبلغ الشاهد الغائب، أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين، بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر من كافة البلاد، فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام، فليسارع إلى دار الإمارة معسكر، ليتقيد اسمه في الدفاتر الأميرية" ينظر: - محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، ص191.
- Benachenhou (A), L'état Algérien en 1830, ses institutions sous l'émir Abdelkader, I.E.P.A, Alger, 1969, p111.

1- عشيراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، المرجع السابق، ص223.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص125.

3- المصدر نفسه، ص140.

4- المصدر نفسه، ص140.

5- دينيزن، الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص58.

في الواقع أنه كان رجلا مثقفا يتقن اللغة العربية، ويعرف الكثير من أخبار الأمم علاوة على إتقانه فنون الحرب ومهارة القيادة، وكما ذكرنا أن هذا الأخير كان يعلم بالفرق الذي بين الجنود المنظمة والحشود المتطوعة، وبعد اطلاعه على أنظمة العدو قرر العزم على تنظيم قوته تنظيما يتجاوب وروح العصر، وأدخل في الأنظمة الجديدة التمرين والتدريب بحيث يصبح أعضاء الجيش على اختلاف أنواعهم لهم دراية بأساليب القتال، ومعرفة بدسائسها ومناوراتها،[1] وعليه عقد مجلسا مع رجال الدولة وأعيان القبائل والزعماء وجميع من له رأي مطاع في عشيرته، وذكر فيهم ما ذكر،[2] وأجابوه على السمع والطاعة، فصدر أمر من أمير المؤمنين "ناصر الدين" بتجنيد الجنود وتنظيم العساكر من جميع البلاد فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي فليسارع إلى دار الإمارة ليقيد اسمه في الدفاتر الأميرية.[3]

فكان ذلك بداية لظهور جيش قوي، ومنظم، وموحد على رفع كلمة الإسلام والدفاع عن الوطن.

ب.2.3. تنظيم الجيش الأميري وتقسيمه:

بعد احتكاك الأمير بالقوات الفرنسية أثناء المعارك، إكتشف عدم كفاءة هؤلاء المحاربين أمام جيش منظم لدولة عسكرية كبرى، كان عليه أن يواجهها، فرأى أنه من الضروري إنشاء جيش نظامي، وتجنيده[4] ليكون تحت تصرفه، بالرغم من أنه كان يعلم أن هذه التجربة ستكون خطيرة، وهي تحتاج إلى حنكة وحذر كبيرين، وبناءا على ذلك وبعد رجوعه من واقعة الدواوير، عقد مجلسا عموميا من رجال دولته وزعماء قبائله وأعيان رعيته، وتم الإتفاق على ضرورة إنشاء جيش نظامي، وخطب عليهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد كاف منه فأجابه الجميع ووافقوه عليه، ونادى فيهم المنادي، بضرورة التجنيد، والدخول تحت اللواء المحمدي، فتلقى الناس هذا الأمر وتسابقوا إليه طوعا بكل ارتياح،[5] فرأى الأمير أنه من الضروري وضع قوانين تحكمهم وتنظمهم، وتضمن السير الحسن والطاعة والإنضباط، فقد تولى هو بنفسه ترتيب جيشه وتنظيمه فجعله ثلاث فرق، أما القوانين فقد قام قدور بن الرويلة بترتيبها وتبويبها، في كتاب سمّاه وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب،[6] كما ذكرناه سابقا، رتّبها

1- مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، صص150-151.

2- ذكر فيهم ما قاله:."...إن الوضع الحربي تغير، وأن للعدو طرقا خاصة في القتال ،وبناءا على أننا نرغب أن نتغلب عليه، يجب علينا أن نتقن أنظمتنا وأن نلجأ إلى أمور تكون السبب في كسر شوكته ،وأن الخير كل الخير ،في أن يكون عسكرنا عسكرا نظاميا لأن النظام كله فائدة...".ينظر:

- المرجع نفسه، ص151.

3- محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص165.

4- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص185.

5- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص165.

6- قدور بن أرويلة، وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1968، صص39-72.

-محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص165،166.

على مقدمة وأربعة وعشرين قانونا وخاتمة، وقد ذكر فيه مهام أفراد الجيش، شاراتهم، مرتباتهم، لباسهم، عقوباتهم إلى غير ذلك.

وأول شيء ابتدأ به الأمير هو النظر في أمر القضاة، وأخيار العدل لها، وجباية أموال الصدقات من مواشي وغيرها[1]، بعدها عمل على وضع شروط خاصة للإنضمام للجيش النظامي.

ب.3.3. الشروط الأميرية للإنضمام إلى الجيش النظامي:

لقد وضع الأمير عبد القادر شروطا ينبغي أن تتوفر في الجندي الذي يريد أن ينضم إلى صفوف الجيش النظامي ومن أهم تلك الشروط ما يلي:[2]

- ✓ أن يكون الجندي جزائريا مسلما عاقلا بالغا وحرا.
- ✓ أن يكون صحيح الجسم قوي البنية مقداما وشجاعا.
- ✓ أن يكون إسمه في الدفاتر أو السجلات الأميرية.
- ✓ أن لا يمارس أية مهنة أخرى غير الجندية.
- ✓ أن يكون إنضمامه إنضماما نهائيا، ولا ينقضه إلاّ إذا سلك سلوكا منافيا للدّين، أو مخلا بالنظام العام للجيش.
- ✓ أن يكون الجندي متديّنا ومتخلّقا [3].

أما فيما يخص الضباط فتلخصها بديعة الحسني كالآتي:

"...كان النظام العسكري لهذه الحاميات يلزم الضباط بأن يعيشوا داخل هذه الحصون مع جنودهم ويشاطرونهم معيشهم، وخضوعهم للفحص قبل أن يسلمو لهم مهماتهم في هذا الحصن، ووضع مواصفات متعددة لهم منها :أن يكون الضابط أو القائد شجاعا صحيح البنية، ينحدر من أسرة معروفة وأصيلة، وأن تكون سوابقه جيدة، وغير متّهم بجناية أو قتل، وأن يكون متديّنا متخلّقا بالأخلاق المحمدية، أي حليما رابط الجأش...". [4]

1- مصطفى ابن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، المصدر السابق، ص131.

2- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص102.

- عبد القادر دحدوح، إستحكمات الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص24.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص191.

3- جمال قنان، نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر، 1830م-1914م، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 2009، ص24.

4- بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص31.

إذا نظرنا في الشروط التي أملاها الأمير عبد القادر، فإننا نلاحظ مدى حرصه على أن تكون كلها متوفرة في الجندي الذي سيجنّده، من أجل تكوين جيش وطني شعبي، مدرّب ومجهّز، يتمتع بالشروط العالمية المعمول بها لحد كبير في وقتنا الحاضر، لمواجهة قوة عسكرية فرنسية متحضرة ومتطورة.

كما أن أهم ظاهرة في إدارة الأمير، هي جهده الكبير في خلق جيش جديد حديث، وقد كان العمود الفقري لهذا الجيش في بداية تكوينه هم الفلاحون، الذين كانوا أميّون وجهلة بالأسلحة الحديثة وبمناورات الحرب، لهذا جعل الثقافة العسكرية إجبارية لتخريج جيش مدرّب بإتقان، ومنظّم تنظيما محكما.[1]

ب.4.3. أصناف الجيش الأميري النظامي:

لقد تولى الأمير عبد القادر أمر الجند، ورتّبه ونظمه بنفسه،[2] وأجاد تنظيمه خاصة عندما وضع الركائز الأساسية لبناء صرح دولة جزائرية حديثة، وفق إستراتيجية سياسية وعسكرية محكمة، فقد أراد من وراء ذلك أن يحيي الجهاد في نفوس الجزائريين، وكان من الضروري التوصّل إلى توحيدهم تحت راية واحدة[3]، وكانت أوّل نواة للجيش النظامي قد تشكلت بنداء إلى الشباب المتطوعين، يذكر "راسلوف" أن معظم جيش الأمير ضمّهم إليه عن طريق الدعوة إلى ذلك، فقد كان يعيّن رجالا مهمّتهم أن يتولّوا تجنيد من يرغب في ذلك، ويذكر المؤلف أن أبناء الطبقة الدّنيا كانوا يرغبون في الإنضمام إليه، أما الطبقات الأخرى كانت تنفر من الجيش النظامي.[4]

يتكوّن الجيش النظامي من ثلاثة أصناف[5] أهمها: "المشاة أو العسكر المحمدي، الفرسان أوالخيالة، والمدفعيون أو الطبجية"[6] التي ينفرد بها ذو المعرفة في استعمال السلاح، من جماعة الأتراك والكراغلة، تحت إمرة أجانب أغلبهم

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المرجع السابق، ص43.

2- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص72.

3- عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، صص84،85.

4- أبو العيد دودو، جيش الأمير في نظر راسلوف، المرجع السابق، ص165.

5- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص165.

-صادق دهاش، الوحدة الوطنية السياسية العسكرية لدولة الأمير، مرجع السابق، ص110.

6- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ينظر: - جمال قنان، دراسات في المقاومة والإستعمار، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، د، ت، صص47-50.

- عدة بن داهة، رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص61.

- قدور بن أرويلة، المصدر السابق، ص40.

-محفوظ قداش، جيش الأمير عبد القادر تنظيمه وأهميته، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، العدد75، سنة1983، الجزائر، ص60.

- عبد القادر دحدوح، إستحكامات الأمير عبد القادر، المرجع السابق، صص24-26.

- Bellemare (A), Abed-el-Kader sa vie politique et militaire, op-cit, p120.=

من الألمان، الذين تركوا الجيش الفرنسي وفضّلوا خدمة الأمير، كما ولّى وقتئذ على المشاة والخيالة من مشاهير الأبطال منهم:" الحاج قدور بن بحر، عبد القادر بن عزالدين، محمد قوشارمة، محمد بن السنوسي، سالم الزنجي، أحمد الغديوي، الحاج بن عومر المستغانمي...وغيرهم"،[1] كل واحد على ألف جندي، وولّى على المدفعيين محمد آغا المعروف بابن كسكسه الكولوغلي.[2]

هذا وتتوزع أصناف الجيش الأميري على المقاطعات "الخليفليك"، بحيث كان يوضع تحت تصرف كل خليفة فرق من الجند النظامي (العسكر)، ومجموعات من الفرسان (الخيالة)، كل مجموعة تتألف من خمسين فارسا عليها آغا، يتلقّون الأوامر مباشرة من مساعد الخليفة (باش سيّاف)، أما الأمير فكان له حرسه الخاص به، وهو كوكبة من الفرسان تتألف من مائة فارس، موزّعين على خيام، كل خيمة بها خمسة وعشرون جنديّا، لهم ضابط أوّل يعرف بلقب(الكبير)،[3] ضف إلى ذلك فقد اهتم الأمير بجهاز الطب العسكري، حيث أقام مستشفيات متنقلة ترافق جيشه لمعالجة المرضى والجرحى من العسكر، وعيّن في كل مستشفى أربعة أطباء ذو كفاءة.[4]

يذكر محمد بن الأمير: أنّه من بين الأمور التي أحدثها والده والتي حاز بها الفضل على من سبقه من الملوك في المغرب هو إنشاء تلك المارستانات لمرضى العساكر في كل المقاطعات، حيث يعود هؤلاء الأطباء الأربعة الذي عيّنهم في كل مارستان أمرهم إلى طبيب حضرته، وهو "أبو عبد الله الزروالي"، ويذكر أنه كان ماهرا في علم الطب، وأنه كان خبيرا بخواص الأعشاب على اختلاف أصنافها، كما يذكر أنه كان يخرج الرصاص من المصاب بوضع عشب على مدخله فيخرجه من موضعه بعد بضع ساعات دون أن يحسّ المريض بالألم[5]، كما بنى دارا للمسافرين والوفود في الحضرة،

=- Benachenhou(A), L'état Algérien, op-cit, p112.

1- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص165.
- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص72.
- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير، المصدر السابق، ص135.
- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص147.
2- بن كسكسه: هو رئيس المدفعية يسمى محمد آغا (كلورغلي الأصل) ينظر: - المصدر نفسه، ص157.
- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص165.
3- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص219.
-يذكر محمد العيد في مقاله، جوانب من التنظيم العسكري في دولة الأمير، أن عدد حراس الأمير أو الفرسان الذين يحرسونه يبلغ عددهم حوالي خمسين جنديا، بحيث يقومون بحراسته في الحل والترحال والليل والنهار. ينظر: - محمد العيد مطمر، جوانب من التنظيم العسكري في دولة الأمير عبد القادر، الملتقى الثقافي الوطني، تاقدمت عاصمة للجزائر في عهد الأمير عبد القادر، تيارت، مارس، 1996، ص48.
4- بديعة الحسني الجزائري، ناصر الدين الأمير عبد القادر الجزائري بن محي الدين سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ط2، مطبعة السلام، دمشق، 1992، ص120.
5- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص203.=

وأقام ناضرا عليها من أمناء دولته، ينزل الناس فيها على حسب طبقاتهم، وتقدّم لهم المآكل والمشرب على حسب مقامهم.

وكان من مشاهير الأطباء في هاته الفترة الأميرية الحكيم "بن زرقة" وهو طبيب جراح في الجيش الأميري، حيث أبلى بلاء حسنا وقدم تضحيات كبيرة من العلاج والإسعفات داخل المارستانات وخارجها، بل بقي يواصل العطاء حتى في انعدام المال والغذاء،[1] لأنه في كثير من الأحيان عند خروجهم في حملة ينفذ منهم الطعام والماء،[2] سعيا منه إلى تقديم الأفضل وتوفير جو العمل الطبي من أجل إسعاف المصابين.

أمّا عن جهاز الطّنبور والموسيقى فيذكر "قدور بن رويلة" أنها كانت وسيلة من الوسائل التي ترفع الروح المعنوية للجنود قبل وأثناء القتال، كما أنهما وسيلتان من وسائل الإتصال لها عدّة صيغ مختلفة ولكل صيغة دلالة معينة،[3] كما أنها استخدمت أثناء القتال من أجل الترفيه وإثارة الحماس،[4] وما تجدر الإشارة إليه أن الفرقة الأميرية كانت تتلقى العناصر الماهرة من داخل الوطن وحتى من خارجه، إذ أن المعلمين كانوا إمّا من قدامى الجيش الأهلي، أو من النصارى الذين ضمّهم الأمير إلى العسكرية من أجل الإستفادة منهم.[5]

لقد حاول "الأمير عبد القادر" أن يهتم أيضا بألبسة جنوده، تتناسب ورتبهم العسكرية، لتنظيم وحدات الجيش كل حسب اختصاصه، ويذكر أن أغلب الألبسة كانت تأتي عن طريق التّطوع، إذ يحصلون عليها من بيت المال، وفي حال تلفها أثناء القتال أو التدريب تجدد لهم مجانا، أمّا إذا أتلفت في غير هذه الحالة يدفع ثمنها لتجديدها،[6] ويضيف "راسلوف" عن لباس الجند فيذكر: "...أنّ الزّي الرسمي للمشاة النظاميين بسيط جدا، يتكون من رداء طويل خشن من الصوف ذي قلنسوة، وصدرية زرقاء، وسروال أزرق، وحزام صوفي أحمر، وقلنسوة حمراء، ويشتري الجندي بنفسه عمامة وبرنسا، ويتسلّم الجنود كل ثلاثة أشهر قميصا أصفر، ونعالا جلدية صفراء، ويتسلّم المشاة من الأمير بندقية ذات

=- صالح بن قبي، النظم المدنية والعسكرية لدولة الأمير عبد القادر، مجلة مسالك، مؤسسة الأمير عبد القادر، عدد04، الجزائر، 1999، ص18.

1- جيلالي صاري، الحكيم بن زرقة، طبيب وجراح جيوش الأمير عبد القادر، مجلة الرؤية، تصدر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، سنة2، عدد03، 1997، صص86-88.

2- يذكر راسلوف: أنه في حملتهم على عين ماضي، من بين ما وقع لجيش الأمير أنهم لم يعثروا على الماء لمدة ثلاث أيام كاملة، وكان ذلك بعد أن نفذ منهم كل ما كان في الزجاجات، فشربوا منه وتبخر بضعه الآخر، بسبب أشعة الشمس المحرقة، فقد عجزوا على العثور على الماء. ينظر:

- أبو العيد دودو، جيش الأمير في نظر راسلوف، المرجع السابق، ص173.

3- قدور ابن رويلة، المصدر السابق، ص46.

- جمال قنان، دراسات في المقاومة والاستعمار، المرجع السابق، ص51.

4- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص85.

5- عشيراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، المرجع السابق، ص359.

6- دحدوح عبد القادر، إستحكامات الأمير، المرجع السابق، ص33.

حربة من صنع فرنسي أو إنجليزي، ومحفظة للذخيرة الحربية، ومسدّسات وياتغانا وهو سلاح خاص يحمله الكثير منهم..."،[1] كما أنشئت في بعض المدن مصانع للنسيج تنتج ألبسة الجند أهمها كانت بمدينة تلمسان.[2]

أما عن التغذية فكان الجنود يحصلون عليها مجانا أثناء الخدمة، حيث يمكن اعتبارها جيدة، لأنها تتوفر على عناصر غذائية هامة من "اللحم والخبز والدشيشة والسمن والرغيف...".[3]

يذكر "راسلوف" عن الوجبات التي يتناولها الجنود النظاميون، على حد قوله أنّها تتألف من حوالي رطل من خبز الشعير، ورطل من دقيق القمح لإعداد الطعام (الكسكسي)، ويقدم بالإضافة إلى ذلك خروف يجتمع عليه عشرون شخصا مرة في الأسبوع،[4] وكانت المواد الغذائية تحفظ في مطامير حفرت خصيصا لها، في كل من قلعتي "تاقدمت وتازة وبوغار"[5]، حيث بلغ عددها في تاقدمت أربعين مطمورة، وكانت تحفظ بعض المواد الدسمة في جرّات كبيرة.

لقد كان الأمير يمجّد الروح البشرية، ولهذا كان حريصا على سلامتها، فقد أولى اهتماما كبيرا بالجانب العسكري، حتى أنّه كي يضمن تموين جيشه، فإنه أحدث ضريبة موجهة إلى تدعيم جيشه تعرف بالمعونة، وتقوم على تضامن أفراد الرعية، وقد استشار علماءا من الجزائر والمغرب، على وجوب شرعيتها وأخذ موافقتهم، وتجاوبت معه العامة في هذا

1- أبو العيد دودو، جيش الأمير في نظر راسلوف، المرجع السابق، ص172.

2- لقد كانت ألبسة الجيش مشكلة من نوعين: الجوخ(الملف) وهو كلمة فارسية، يقابلها في اللهجة المحلية الملف وهو نسيج من الصوف –والكتان الشايق– معناه الكتان المنسوج بالقطن– فأما الجوخ فهو على ثلاثة أصناف: الأحمر القاني(شديد الحمرة) وهو أرفعها، إختص به رئيس العسكر ورئيس الخيالة، والأحمر العكري(خفيف الحمرة)، وكان يرتديه السيافون ورئيس الكتاب، والمدربون، والأطباء، ورئيس المدفعية وجنود الخيالة، والصنف الثالث والمتمثل في الجوخ الأسود، فهو أحط الأنواع، وكان يلبسه رئيس المدفع ونائبه، وجنود الطوبجية، وكاتب المدفعية، وأمّا رئيس الخباء، ورئيس الصف بالنسبة للخيالة، وكاتب المائة فلباسه متنوع بين الأحمر القاني والأحمر العكري والأسود ، أما الألبسة المصنوعة من الكتان، فكانت من نصيب جنود العسكر المحمدي، والتي كانت مشكلة من سروال أزرق وغليلة سوداء، عبارة عن معطف ذو أسكيم، لا يتجاوز طوله تحت الركبتين، والغليلة كلمة محلية عربية أصيلة، وهي ثوب يابس تحت ثوب ضيق. ينظر:
- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير، المصدر السابق، ص136.
- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص148.
- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص167.
- قدور ابن رويلة، المصدر السابق، صص50-64.
-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص226.
- عبد القادر دحدوح، المرجع السابق، صص33،34.

- Benachenhou(A), L’état Algérien, op-cit, p114.

3- جمال قنان، دراسات في المقاومة والإستعمار، المرجع السابق، ص52

4- أبو العيد دودو، جيش الأمير في نظر راسلوف، المرجع السابق، صص172،173.

5- Julien (CH.A), Histoire de l’Algérie contemporaine, op-cit, p185.

- Daumas (E), correspondance du capitaine Daumas, op-cit, p205.

الإجراء بحيث ارتفعت قيمة المعونة إلى خمس مائة وثلاثون ألف (530.000) ريال بوجو،[1] ولكي يضرب المثل بنفسه ويدعّم روح التضحية لدى أفراد القبائل، سارع إلى بيع جواهر وحلي نسائه في المزاد العلني بسوق معسكر، لتزويد الخزينة بالأموال الضرورية لتموين جيشه.[2] وهذا ما يؤكد حرصه الدائم على أن يجعل نفسه مثال أعلى لجنوده، وقدوة لضباطه ورجاله.

لقد اعتنى الأمير بتدريب جيشه على الأساليب القتالية الحديثة، وألحق بقواته مجموعة من الفارين من الجيش الفرنسي، الذين درسوا الخطط الحربية التي تلقوها ونفّذوها عمليا مع جيش الإحتلال الفرنسي،[3] وكان الجنود المقيمون في الحامية ملزمين بحصص من التدريب العسكري، وكان يفرض على الجندي عقوبات إذا خالف القوانين العسكرية وهي متفاوتة في الشدّة واللين، حسب رتبة الجندي،[4] كما درّب جيشه على حمل السلاح وحسن استعماله، وسهر على تموين جيشه وتوفير الشروط اللازمة لهم من عتاد حربي، وتجهيز طبي، وغيرها من أجل إتمام مهامه وتوجيههم نحوى الهدف الأسمى الذي أعلنه وهو (الجهاد في سبيل الله ضد الغزاة أعداء الدّين والوطن).

ب.5.3. أسلحة الجيش الأميري والصناعة الحربية:

أدرك الأمير أن تكوين الجيش الشعبي الوطني وضمان ألبسته ومؤونته ومرتّباته أمر غير كاف لمجابهة العدو، فكان لزاما عليه أن يزوّد هذا الجيش بأسلحة وعتاد كفيل بتحقيق الجهوزيةلدى عناصره، لذا أظهر الأمير خبرة وعبقرية اعتمد عليها من أجل الحصول عليه وذلك عن طريق الشراء والصناعة من جهة والغنائم والهدايا من جهة أخرى.

كما تمكن من تسليح جنده النظامي بالبواريد الفرنسية والإنجليزية التي حصل عليها كما أسلفنا الذكر عن طريق الغنائم التي اكتسبها نتيجة معاركه الظافرة من الجنود الفرنسيين الفارين، أو التي تم شراؤها من المغرب الأقصى (مراكش)،[5]

1- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص218.

2- ناصر الدين سعيدوني، النظام الضريبي في دولة الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، عدد75، وزارة الثقافة، ماي، جوان 1983، ص250.

- Azan (P), op, cit, pp 227,228.

3- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص121.

4- لمعرفة المزيد عن القوانين العسكرية التي وضعها الأمير عبد القادر لتنظيم جيشه ينظر:

- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص172-179.

- قدور ابن رويلة، المصدر السابق، صص68-72.

- محمد زهير حمام، عين طاغين المكان الأخير لنكبة زمالة الأمير عبد القادر 16ماي1843، درا أسامة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص46.

5- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص45.

وفي كثير من الأحيان كانت تجلب لهم كميات كبيرة بواسطة وكلاء تجاريين اعتمدتهم الدولة الجزائرية في إطار التبادل بالتموين.[1]

أمّا عن المساعدات والهدايا، فتذكر بعض المصادر أنه لما تمت البيعة، جاءته مجموعة من القبائل وهي محملة بالهدايا من عتاق الخيل والسروج، والأسلحة الفاخرة،[2] أما فرنسا فبعد معاهدة الصلح سنة1834م، أهداه ديمشال (Desmichals) مئة بندقية وعدة قناطير من البارود،[3] كما أرسل له بندقية مزيّنة على الطريقة الشرقية،[4] وبعد عقد معاهدة التافنا 1837م بعثت له أسلحة وأقمشة وبرية مطرزة بالذهب كهدية.[5]

ويذكر "هنري تشرشل" أن الإنجليز وقفوا موقف المعجب المشجع للأمير أثناء مقاومته، وقد ثبت أنهم أمدوه ببعض الأسلحة والذخيرة من مراكزهم في المغرب وإسبانيا.[6]

هذا إضافة إلى المساعدات المغربية، فقد وصلته مساعدات من ملك المغرب في سنة 1833م، وفي 1841م أرسل له حوالي ألف بندقية وعدة أطنان من البارود،[7] ذلك لأنه كانت تربطه به علاقة وصداقة متينة، لذا أرسل له الضروريات الحربية كالأسلحة والبارود حملت السفن بعضها إلى الخليج المقابل لمدينة تلمسان،[8] ويذكر "آزان Azan" أن الملك المغربي أهدى له في سنة 1837م سبع كسوات من مفاخر الثياب، وسبع أفراس من عتاق الخيل بسروجها، وأربع مدافع، وستين فرسا، كما أعطاه مساعدات مالية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب "للحاج الطالب بن جلول"[9] ليشتري بها للأمير ما يحتاج من عتاد حربي،[10] وفي سنة 1838م تلقى مائة وستين قنطارا من البارود، وألفا وخمس مائة بندقية إنجليزية الصنع، وأربعة مدافع من الملك المغربي،[11] ويضيف إسماعيل العربي أنه جاء في رسالة مؤرخة

1– Bellemare (A), Abed-el-Kader sa vie politique et militaire, op-cit, p121.

2– محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص165.

3– دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية، المصدر السابق، ص54.

4– المصدر نفسه، ص45.

5– محمد بن الأمير، ج1، تحفة الزائر، المصدر السابق، ص182.

6– شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص29.

7– إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص70.

8– دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، المصدر السابق، ص82.

9– الحاج الطالب بن جلول: تاجر مغربي، وهو الذي كان يزود الأمير عبد القادر بالأسلحة من المغرب، كما ربط علاقات في جبل طارق مع تاجر يهودي يدعى ابن إيسي. ينظر:

– Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p372.

10– Azan (P), L'émir Abdelkader, op-cit, pp98-100.

11– محفوظ قداش، جيش الأمير عبد القادر تنظيمه وأهميته، المرجع السابق، ص63.

في 8 أكتوبر وجهها وزير الحربية إلى الوالي العام مفادها أنه يستخلص من تقرير للقنصلية الفرنسية في طنجة، أن قافلة تتكون من ستة مائة (600) جملا خرجت من فاس متجهة إلى معسكر، وتنقل كميات كبيرة من البارود والمدافع والبنادق التي تصنع في تطوان ورصاص عيار ثمانية، وأن القافلة سيرت بناءا على تواطؤ السلطان المغربي.[1]

ويضيف "السلاوي" عن هذه المساعدات المغربية للأمير قائلا: "... فلمّا اتصل بالسلطان مولاي عبد الرحمان ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدّين، وحماية المسلمين أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لأنه باعتباره قد قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له، فصار السلطان يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة...".[2]

أما عن الغنائم، فكان الأمير عند انتصاره في المعارك التي كان يخوضها ضد قوات الإحتلال الفرنسي، يحصل على النتائج التي عادة ما تكون عبارة عن أسلحة.

أما فيما يخص عملية الشراء والتهريب، فيذكر دينيزين أن الأمير كان أثناء حملاته المتكررة يأمر بشراء البارود والرصاص والذخيرة من الفرنسيين،[3] وهذا وفق ما نصت عليه إحدى البنود في معاهدة ديميشال 1834م والتي تسمح للأمير بشراء الأسلحة من فرنسا، ومعاهدة التافنا 1837م التي نصت في إحدى بنودها أيضا على إمكانية شراء الأسلحة من فرنسا والبارود والكبريت الذي يحتاجه،[4] وهذا ما قام به فعلا، فقد ذكر بنفسه بأنه كان يأتي بالكبريت والرصاص من فرنسا خاصة أثناء وقت السّلم التي أعقبت معاهدتي ديميشال والتافنا،[5] إضافة إلى أنه كان يشتري أسلحته من المغرب الأقصى، ومن قبائل الصحراء التي تأتي إلى التل، ومن تقّرت وميزاب، ومن أولاد سيدي الشيخ،[6] كما ذكر "دوماس Daumas" أنه في أكثر من مرة تصل الأمير الأسلحة والذخيرة بواسطة قافلة تأتي من المغرب، وذكر أنّه في سنة 1838م، وصلته إحداها وهي تحمل ألبسة للجنود وأحجار النار وستمائة سيف من فاس، وأربعمائة أو خمسمائة بشطولة،[7] ويذكر "غزيفرYver" في مقال له على علاقة الأمير بالمغرب سنة 1838م، على لسان "دوماس Daumas" بأن الحاج "الطالب بن جلول" قد أرسل إلى الأمير أربعة مائة بارودة إنجليزية بحرابها، ومائتين بشطولة وثلاثمائة سيف وعشرين حمولة من الكبريت، وخمسة عشر أخرى من ملح البارود.[8]

1- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص108.

2- ثورة الأمير عبد القادر من خلال ثلاث مخطوطات، تح: مختار حساين، دار الحكمة، د.ط، الجزائر، 2007، ص17.

3- دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية، المصدر السابق، ص127.

4- إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص203.

5- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص113.

6- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص45.

7- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p183.

8- للمزيد من التفاصيل ينظر:=

صحيح أن الأمير عبد القادر كان يعتمد كثيرا في تموينه لجيشه عن طريق المساعدات والهدايا والغنائم وغيرها، لكنه لم يبقى مكتوف الأيدي، فقد تمكّن من جمع كلمة الجزائريين على تحرير البلاد، بسلوك الطريق الوحيد والشاق المكلف وهو المقاومة الشعبية المسلحة، كما استطاع أن يدرك مدى ضرورة الإعتماد على النفس لذلك عمد على تأسيس صناعة حربية ظهر من خلالها تزامن وتلازم المقاومة المسلحة مع النهضة الفكرية والصناعية لإنتاج الأسلحة، وبذلك يكون قد طبّق نظرياته ومبادئه ميدانيا وعمليا، ويكون قد أسّس النواة الأولى لثورة صناعية جزائرية وملحقاتها في معاهد التكوين.

- **الصناعة الحربية:**

أدرك الأمير عبد القادر بعد المعارك التي خاضها ضد قوات الإحتلال الفرنسي، ضرورة الإعتماد في تسلحه على القدرة الذاتية للبلاد، ومما زاده تحمّسا هو ذلك التفاوت الحضاري والتجهيزي بين القوتين،[1] لذا سعى للإستفادة من التقدم الصناعي الأوربي، فأحدث شبكة من المصانع في المدن والقواعد الداخلية التي أوجدها، ففي تلمسان أقام مصنعا لصهر المدافع، كان ينتج يوميا اثنا عشر وستة مدكات مدافع تحت إشراف هارب إسباني قدم إلى المغرب، كما أنشأ له أحد الفرنسيين الإختصاصيين في علم المعادن يدعى "دوكاس Daucass " مصنعا للبنادق، وآخر لإنتاج البارود وكان يحضر الحديد من منجم قرب مليانة، وكانت مناجم ملح البارود والكبريت والحديد محل عمل متواصل،[2] ومعمل رحي لتحضير البارود في كل من تلمسان وقلعة بني راشد، كما قام ببناء معمل لسبك المدافع بتلمسان ومليانة،[3] أمّا المشاريع الكبرى فكانت من نصيب كل من تاقدمت ومعسكر، حيث استغل ظروف الهدنة مع الفرنسيين إثر معاهدة التافنا، فأقام دارا للسكة في تاقدمت وجلب إليها الآلات من الجزائر، كما أوصى على استقدام فنيين أوربيين، يلزمهم

=- Yver (G), Abed El Kader et le Maroc en 1838, in R.A, N'60, 1919, PP103-122.

-للمزيد من المعلومات حول ما ذكره القنصل "دوماس" عن الإمدادات المغربية للأمير عبد القادر ينظر:

- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, pp123-373.

1- ذكر العربي المشرفي أنّ الفرنسيين كانوا متفوقين في الجانب التقني والعسكري، هذا ما ساعدهم على هزم المقاومة الجزائرية، وأن من مظاهر التفوق هو اختراعهم لعود ثقاب فعال إستخدموه في الإكتساح الميداني إبان حرب الأرض المحروقة التي نهجها الجنرال بيجو حيث يقول: "...ففي حدود الستين -حوالي سنة 1260هـ- اخترعوا الوقيد البوجي، فكانوا يخرجون زمن المصيف إلى اشتد الحر بأرض الواسطة، يشعلون الوقيدة ويجعلونها في الفدان قبل حصد الزرع فتحرقه جميعا، وبهذا كانت لهم الغلبة وملكوا البلاد البعيدة عن البحر...". ينظر: - العربي المشرفي، نزهة الأبصار لذوي المعرفة والإستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي محمد بن محمد وولده الحسن، م.خ.ع، الرباط، رقم: 579ك، وتحت رقم: 5616، ص527.

2- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص46.

3- دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية، المصدر السابق، ص128.

بمساعدته في العمل بالمنشآت الجديدة المختلفة التي يريد بناءها،[1] كما منح للعمال الأوربيين أجورهم المقدرة بثلاثة آلاف فرنك كأجرة عملهم طوال سنوات الخدمة.[2]

لقد استفاد الأمير من الصناع الأجانب، وتم صرف أموال كبيرة من أجل بناء هذه المنشآت الحربية والمصانع لتحضير حرب طويلة النفس ضد قوات الإحتلال الفرنسي،[3] لقد كان صنع الأسلحة في تطور كبير، وكان الأمير يشرح ما يفعله هو شخصيا أو تحت إشرافه السامي، ليضمن آداة الحرب لجيشه، فنجده يقول في هذا الصدد: "...كنت أصنع بارودي في تلمسان ومعسكر، ومليانة والمدية، وتاقدمت، لقد أسّست في تلمسان مصنعا للمدافع...ومن جهة أخرى كان عندي مصنع للسّلاح في مليانة، كنت أستخرج الحديد من منجم كنت أقوم بإستغلاله في الناحية...كنّا نصنع فيه قطعة السلاح كاملة، وأخيرا أسّست في مقر حكومة كل خليفة خياطين، وصانعي السّلاح والسروج، ليصنعوا الثياب اللاّزمة لجيشي وليصلحوا الأسلحة، ويصبغوا قطع السروج...".[4]

- **مراكز الأسلحة:**

1.<u>مصنع معسكر:</u>

يذكر "دوماس Daumas "، أنّ الأمير عبد القادر أنشأ مصنعا للأسلحة الخفيفة، تصنع فيه أخشاب البنادق وتجهز به الخراطيش، وكان يعمل في هذه المصانع خيرة الصناع الماهرين ذو الكفاءة العالية، لدرجة أنه كان بإمكانهم تصليح مصانع المراكز الأخرى.[5]

1- دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية، المصدر السابق، ص128.

2- Bellemare (A), Abed-el-Kader sa vie politique et militaire, op-cit, p121.

3- Changarnier (T), Mémoire du général Changarnier, op-cit, p64.

-لقد اعتمد الأمير عبد القادر على صناع "إسبان، إيطاليين، فرنسيين، يهود، ألمانيين، مالطيين، دانماركيين، وسويديين،... وغيرهم" مما كانت لهم الحرفة والخبرة والكفاءة في مجالات الصناعة الحربية، فمثلا أنشأ له أحد الجنود الألمان الفارين من الفرق الأجنبية بالجيش الفرنسي، نموذجا لطاحونة بارود فأعجب بها، وعزم على تطويرها، أمّا عن الأوربيين، فصنعوا له بنادق عالية الجودة على النموذج الفرنسي. ينظر: -دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية ، المصدر السابق، ص67.

4- كمال بوشامة، الأمير عبد القادر ووحدة الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص39.

5- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, pp 330-383.

2.مصنع تاقدمت:

يذكر "دوماس Daumas"، أنه في تاقدمت كانوا يهتمون بصناعة الفشك بالرصاص المشتري أثناء الهدنة واستخدام منجما للكبريت بالمنطقة،[1] كما كانت تنتج بالمنطقة السيوف والعزب وغيرها من الأسلحة الثقيلة والخفيفة،[2] كما قام بتحويل سراديب المدينة الرومانية القديمة إلى مخازن للذخيرة والكبريت، وملح البارود والرصاص والحديد، كما استقدم خبيرا فرنسيا على أساس عقد، يقضي بأن يقوم هذا الأخير بتعليم الجزائريين صناعة الأسلحة، وعند نهاية العقد رحل العمال الأجانب وبقي المحليون،[3] وكان المصنع ينتج حوالي ثماني بندقيات،[4] وفي سنة 1841م أصبح المصنع تحت إدارة الجزائريين معطلا بعد نقل الآلات من المخازن لإحباط عملية الغزو الفرنسي، والذي كان يهدف إلى تدمير المنشآت الصناعية للدولة الجزائرية.[5]

3. مصنع مليانة:

أنشأ الأمير مصنعا بمليانة للأسلحة ومصهرة للحديد، جعل عليها مديرا يدعى "دي كاسي"، وهو خبير بالصناعة التعدينية[6]، كما أسّس مصنعا للبنادق وآخر لإنتاج البارود، كما حاول صناعة صواريخ لكنه لم يوّفق في معدلاته الرياضية[7]، فكانت المصهرة تستخدم لصهر معدن الحديد الخام المستخرج من منجم زكار، وتم استخدام الخشب في أعمال الحدادة، والمواد الأولية لصناعة البارود، ويذكر دوماس في رسالة بعث بها إلى رئيسه الجنرال "غيهينيك Guéhenneuc" في 9جويلية 1834 قائلا: "... إن سيدي مبارك إئتمر بأمر الأمير، فبنى قلعة (بلال)، وهو جبل يقع على بعد يومين من مليانة، حيث يستخرج الكبريت، ويصنع البارود..."، كما يذكر أيضا له وفي رسالة بعثها إليه في 8جانفي 1839 "... أنّ الناس يؤكّدون أن مليانة حاليا يوجد بها عشرة عمال فرنسيين، جاؤوا من مدينة الجزائر

1- للمزيد من المعلومات ينظر:

-Bourouiba (R), Places fortes et établissements militaires fondés par l'Emir Abdelkader, T2, in R.H, N° spécial à l'occasion du centenaire du décès d'Abdelkader Alger, 1983, pp37-39.

2- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص232.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص137.

4- Emérit (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, Edition Larose, Paris, 1951, p289.

- إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، صص88،89.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص137.

5- إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص89.

6- رشيد بورويبة، القلاع والحصون التي أنشأها الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، العدد75، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1983، صص99،100.

7- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص139.

-إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص86.

ويوجد من بينهم من يصنع الأسلحة و يصهر الحديد، وقد توقّفت نشاطات المصنع بعد احتلال القوات الفرنسية المدينة سنة 1840..."، ويذكر رشيد بوروبية "... أن مصنع مليانة للأسلحة مازال موجودا حتى الآن، ولا تخلوا واجهة بنائه من موقد على الرغم من حالة التصدّع بفعل الزمن ...".[1]

4. مصنع تلمسان:

حسب تقرير أعده "دوماس Daumas" أنه تم إنشاء مصهرة للحديد بقلعة المشور بتلمسان[2]، وكانت القلعة بقيادة الخليفة البوحميدي، جعل منها مركزا للصناعة الحربية،[3] ويضيف "دوماس" متحدثا عن هذه المصانع في العديد من رسائله بأن صهر الحديد وصناعة المدافع والبارود كانت تتم بتلمسان، كما في رسالة التي بعث فيها إلى "رابتيل" بتاريخ 8فيفري 1838م يخبره فيها أنه شوهدت الأفران والمصاهر، والمنافخ والقوالب والدواليب، وأنه لحد الآن مازالوا يستعملون فحم الخشب، كما ويخبره أنه شوهدت قطعة مدفع جاهزة الصنع وهي من نفس طول وعيار مدافعهم الميدانية، وأنّ من يدير هذه الأشغال هم هاربان من الجيش الفرنسي يدعيان حاليا "مصطفى وحميدو"،[4] ويخبره أنهم علموا أن البارود يصنع في تلمسان،[5] فـ"أولس" أو "مصطفى" حاليا، قام بصنع جميع الأجهزة التي تستخدم لصنع البارود وصهر الحديد، بينما "شوفال"[6] أو "عبد الله" حاليا، وعد الأمير بصهر المدافع، وقد قام ببناء الأفران العليا، وأجهزة صنع القطع الحديدية وحزمها، ولكنه أخفق في عمله، ولم يتوصل لإذابة المعدن، وكلّف الخزينة ثمانية آلاف دورو، ثم أودع في السجن لإسرافه في الأموال،[7] التي كانت الدولة الجزائرية بحاجة إليها، ولم تتوقف الأعمال بل تواصلت على يد خبير إسباني وآخر إيطالي يدعى: "فدون خوسي" ،كلّف بإدارة المصنع بعد انتهاء عقود الخبراء الفرنسيين والإيطاليين،[8] أما عن "ألبنقو" الإيطالي، فقد واصل هو الآخر التجارب، وقام بتجريب إثنان منها، وعليه شرع المصنع في نشاطه.[9]

1- بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص28.

- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p 399.

2-Ibid, p110.

3- Emérit (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, op-cit, pp83,84.

4- حميدوا وإسمه الحقيقي جستير نجير الميونيخي، ومصطفى يدعى أولسن وأصله بروسي.

5- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p138.

6- شوفال: ألماني الأصل واسمه الحقيقي عبد الله.

7- Daumas (E) , Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, pp158,159.

8- إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص66.

9- المصدر نفسه ، صص66،67.

-يوهان كارل بيرت، المصدر السابق، صص151-164-175.

أما فيما يخص أنواع الأسلحة فكان الأمير يصنع البارود في كل من تلمسان وتاقدمت ومليانة، أما عن القذائف فكان يصنعها بتلمسان،[1] والخراطيش كانت تصنع حسب "دوماس Daumas" في مصنع معسكر،[2] وكان جنود المدفعية يقومون بتهيئتها وتجهيزها، والخراطيش هي الفشك حسب ما ذكر في وشائح الكتائب،[3] أما عن البنادق فكانت تنتجها مصانع تاقدمت ومليانة، تازة، ومعسكر، وكانت تصنع حوالي ثمانية بنادق في اليوم،[4] كما إهتم كثيرا بالبنادق باعتبارها سلاح العصر، ولأنها أشد فتكا من السيوف، وجهّز جيشه ببنادق فرنسية وأخرى إنجليزية، كما جاء على لسانه[5]، وفي مليانة أنشأ "دي كاس" مصنعا خصيصا لصناعة البنادق[6]، هذا وقد إهتم أيضا بصنع المدافع، فكانت تصنع هي الأخرى بمصنع تلمسان.[7]

ب.6.3. القلاع والحصون الأميرية:

إن بناء الأمير عبد القادر لهذه القلاع والحصون كان في فترة متقاربة ووجيزة، عرفت فيها دولته السلم والإستقرار والقوة والإزدهار، فبنى قلعة تاقدمت سنة 1836م، وتازة 1838م، بينما بنيت كل من سعيدة، سبدو، وبوغار سنة 1839م، وكانت هذه القلاع والحصون، عنصرا أساسيا من العناصر التي اعتمدها في إستراتيجياته العسكرية لمجابهة العدو الفرنسي، وكان لها دورا مهما في توطيد وتوسيع سلطان الأمير على جزء كبير من التراب الجزائري، خلال الفترة الممتدة ما بين 1836م-1842م ،وبفضلها استطاع أن يفشل العديد من المؤامرات لبعض القبائل.

لقد تحدث رشيد بورويبة بإسهاب عن دولة الأمير قائلا: "... ما من شك في أن هذه التحصينات كان لها دور مهم في استراتيجيته، وأهم هذه الحصون كان حصن تاقدمت، ويقتصر حديثنا اليوم على حصون سبدو، بوغار، سعيدة وتازا، التي استطعنا أن نحصل بشأنها على بعض المعلومات المهمة، وسنعني بعد ذلك "بوخرشوفة"، التي لعبت دورا كبيرا في الكفاح الذي خاضه الأمير لمواجهة الفرنسيين، وفي المؤسسات العسكرية التي أقامها في المدن الأخرى التابعة له...".[8]

1- إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص56.

2- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, pp283-330.

3- قدور ابن رويلة، المصدر السابق، ص65.

4- إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص137.

5- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص141.

6- المصدر نفسه، ص139.

7- يذكر محمد ابن الأمير عبد القادر، أنه رأى ثلاثة مدافع في باريس، أخذت في أيام الحرب مكتوب على كل مدفع فوق خزانته النارية عمل في تلمسان، وقت إمارة ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين سنة1255هـ. ينظر: -محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، المصدر السابق، ج1، ص262.

8- Bourouiba (R), Places fortes et établissements, op-cit, p34.

إذن الإستراتيجية الحربية بقيادة الأمير كانت تتطلب منع توغل قوات الإحتلال الفرنسي نحو المدن الداخلية، لذا تم إنشاء خط من المواقع المحصنة في الحدود الجنوبية لمنطقة التل[1]، وكان كلما علم باقتراب العدو من قلعة من قلاعه إلاّ ويأمر بالجلاء منها، وهنا ذكرٌ بعض هذه القلاع والحصون:

1.قلعة تاقدمت:

بدأت عمليات بناء قلعة تاقدمت[2] في شهر ماي 1836م، على هضبة ضمن سلسلة جبل جزول وهي تقع على بعد 8كم غرب مدينة تيارت، تنقسم إلى حصن كبير وصغير وقلعة، والهدف من إنشائها هو توفير المؤن لرفع أنقاض القصبة القديمة وبناء محقل،[3] ويقول هنري تشرشل أن تاقدمت بناها عبد القادر على أنقاضها القديمة هادفا إلى جعلها عاصمة لمملكته، وكان قد بناها الرومان، وهي تقع حسبه على مسافة ستين ميلا جنوب شرق وهران، ومحيطها كان يبلغ عشرة أميال، وهي تضم معبدين كبيرين، ولها مدرسة ثانوية، وقد أنجبت شعراء وعلماء، ولكن الحروب التي جرت بين حكام القيروان وفاس عند نهاية القرن العاشر، أدت إلى القضاء عليها وتخريبها نهائيا، وجاء عبد القادر ليضع أول حجرة لتاقدمت الجديدة في 1836م، وقد دفع جوائز للقبائل الواقعة على مسافات محددة التي ترسل العمال للمساعدة في بناء الحصون، فجاءته المعونة من كل الجهات "معسكر، مليانة، مدية، مزغران ومستغانم...."، وتحولت سراديب الرومان القديمة إلى مخازن للذخيرة، الكبريت، ملح البارود، النحاس، الرصاص، الحديد، الآلات، الأدوات والأواني،[4] وجلب إليها عملة من إسبانيا وفرنسا، فكانوا يصنعون فيها البواريد وحرباتها، والسيوف وغيرها من أدوات

1- يذكر طلاس في كتابه "فارس الجزائر"، أن مقاومة الأمير كانت وفق خطين دفاعيين في بادئ الأمر، وكان الأول على الشريط الساحلي والثاني في التل فالخط الأول كان مشكلا من مجموعة من القبائل الموالية، جعل الأمير في مقاتليها حراسا، ووسيلة ضغط اقتصادي على الحاميات الفرنسية في المناطق الساحلية المحتلة، ومن بين تلك القبائل "الغرابة" في وهران، و"الحاجوت" في ضواحي الجزائر، أما الخط الثاني فهو مشكل من مدن، تمثلت في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية، واتخذ كل واحدة منها مركزا لولاية، وعين على رأسها خليفة، وأنشأ بها المصانع، وقصدها السكان من كل النواحي، كما فكر في ضرورة إنشاء مراكز متوغلة في الصحراء، بحيث لا يتمكن العدو من الوصول إليها لصعوبة مسالكها، فكما قال الأمير:"... لقد أقمت على حدود التل، عددا من الحصون كلفتني أموالا طائلة، بينما كنت أواجه صعوبات جمة، وكان الهدف من إقامتها ،هو إشعار قبائل الصحراء المضطربة بالسلطة والإبتعاد عن هجومات أي عدو. ينظر:

- مصطفى طلاس، فارس الجزائر الأمير عبد القادر، دار طلاس، د.ط، دمشق، 1984، ص140.
- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص135.
- إسماعيل العربي، الأمير عبد القادر الجزائري المرجع السابق، ص51.

2- تاقدمت : تعني عتيق باعتبار الموقع الذي يحتوي على آثار رومانية قديمة، وتعني بالبربرية "قديم" ينظر:

-Marçais (G) et Lamar(D), Recherches A' archéologie musulmane, Tiherrt, Tagdempt, In R.A, xc, 1946, p36.

ينظر الملحق رقم: 06.

3- De France (A), Les prisonniers d'Abdelkader ou cinq mois de captivité chez les arabes, éd Desessait, T1, Paris, 1837, p170.

4- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص182.

الحرب ومهماتها، وابتنى دارا لضرب السكة، وجعلها ثلاثة أجناس من الفضة والنحاس مستديرة الشكل، وكانت تتراوح قيمتها بين خمسة شيلنات إلى بينسين،[1] ويعود تاريخ الضرب إلى سنة 1255هـ/ 1838م.[2]

لقد أولى الأمير إهتماما كبيرا بحصن تاقدمت، فقد اعتبره أعظم الحصون كونه يربط تجارة الصحراء بالمناطق الداخلية، كما شيّد فيه معملا لصنع السلاح كما ذكرنا سابقا[3]، ودور هذا الحصن هو الوقاية من الهجمات الفرنسية، والتمكن من جمع شمل القبائل الجزائرية لرد الهجمات واسترجاع المدن المحتلة،[4] وحتى يستمد قوته لمواصلة المقاومة الوطنية.[5]

2.قلعة تازة:

تازة كلمة بربرية أصلها تالة، والتي تعني عين، أو منبع، أو تيزي، فهو الممر أو الطريق الذي يكون بين جبلين وهي مبنية على منبع مائي ينحدر من جبل الشاون يسمى حاليا بوادي تازة، ثانيا لوجودها بين جبلين أحدهما في الشمال وهو الذي بنيت عليه والثاني في الجنوب.[6]

أما عن الموقع لتازة سابقا، وبرج الأمير عبد القادر حاليا، على بعد خمس وثمانين (85)كم شرق مقر ولاية تيسمسيلت، وعلى بعد حوالي مئتين (200)كم جنوب غرب مدينة العاصمة، يحدها شمالا بلدية طارق بن زياد

1-"شيلنات، بينسين" هي عملات أجنبية والشلن الواحد فيه إثنا عشر بينس، والبينس يقدر بحوالي دورو والدورو كلمة إسبانية تعني صلب أي "Dur" باللغة الفرنسية، وهي العملة الإسبانية "Peso duro" وقيمتها أونصة من الفضة الخالصة. ينظر: - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص182.

-Bouchenaki (M), La monnaie de l'émir Abdelkader, 1836-1841, SNED, Alger, 1976, p78.

2- الفضة والنحاس نوعان: مكتوب على أحد وجهيهما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ {آل عمران الآية 85}، وعلى الوجه الآخر من العملة "ضرب في تاقدمت"، وهذه القطعة عبارة عن فرنكين، والجنس الثاني من الفضة والنحاس مكتوب على أحد وجهيه، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ ﴾{آل عمران الآية 19}، وعلى الوجه الآخر محل الضرب والتاريخ، وهذه القطعة عبارة عن فرنك واحد، والجنس الثالث من الفضة والنحاس، مكتوب على الوجه الأول، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾{البقرة: الآية 250}، وعلى الثاني محل الضرب والتاريخ، وهذه القطعة عبارة عن نصف فرنك، وتنقله في رسم هذه الآيات بحسب ما كان عليه من اختلاف الظروف والحالات.

ينظر: -محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص261،262.

-شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص182.

- بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص30.

3- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص92.

-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص224.

4- De France (A), Les prisonniers d'Abdelkader, op-cit, pp 178, 179.

5- Roche (L), Dix ans à travers l'islam 1834-1844, éd, Didot, T1, paris, 1885, p277.

6- عبد القادر دحدوح ، إستحكامات الأمير، المرجع السابق، ص101.

- عبد القادر دحدوح ، المرشد الأنيس إلى تاريخ وآثار عاصمة الونشريس، دار أبجديات للإتصال والنشر ولاإشهار،برج بوعريريج، الجزائر، 2012، ص46.

من ولاية عين الدفلى، ومن الجنوب بلدية البواعيش (ولاية المدية)، ومن الشرق بلدية دراق (ولاية المدية)، ومن الغرب ثنية الحد واليوسفية (ولاية تيسمسيلت)، ويقطعهما الطريق الوطني رقم60 الرابط بين قصر البخاري وثنية الحد.[1]

تعد قلعة تازة ثاني القلاع التي أنشأها الأمير عبد القادر بعد تاقدمت، وقد وضعت أسسها الأولى مع بداية شهر ماي 1838م[2]، وكان من وراء بنائها هو منع العدو الفرنسي الوصول إلى المناطق الصحراوية، وقد بنيت على سفح جبل حصين منحدر، يقع جنوب غربي المدية ويجري في سفحه نهر[3]، ويذكر مارسيل إمريت نقلا عن (Guarcin) أن المنطقة غنية بالغابات، وأنّ بها منبعا مائيا، والأمير بنى حصنه في الناحية الشمالية لهذا الموقع.[4]

يذكر محمد بن الأمير في كتابه تحفة الزائر أنّ والده، بعدما قام بجولة مارّا بحصن تازة ورأى هذه المنشآت التي شيّدها في أقصر زمن، حمد الله وشكره وقال ارتجالا هذه الأبيات، وأمر بكتابتها على باب الحصن بخط كبير ومقروء لكي يخلّد اسمه بهذه الحصون:[5]

الله أعلـم أن هـذا لم يكـــن مني على الأمد الطويل دليلا

كلا وإن مـنيـــتي لقريبـــة مني وأصبح في التراب جديلا

ورضا الإله هو المنى ويكون من بعد انتفاع الخلق طويـــلا

بعد الإنتهاء من عملية البناء أحضر الأمير مهاجري الجزائر العاصمة والبليدة، الذين كانوا يسكنون بمليانة ببناء منازل لهم، وقدّم لهم المال كمساعدة، وفي 1840م أضاف إليهم مجموعة من الكراغلة، واتخذ قلعة تازة مخزنا لأسلحته ومؤونته ،وحبسا لأسراه الفرنسيين الذين بلغ عددهم مائة وخمس وثمانين (185) سجينا في 18جوان 1839م.[6]

1- عز الدين بويحياوي، حصن تازة حدث تاريخي وواقع أثري، مجلة أبحاث، منشورات دار الثقافة لولاية تيسمسيلت، 2012، ص44.

-أرشيف بلدية برج الأمير عبد القادر "تازة سابقا"

- ينظر الملحق رقم 07.

2- هناك بعض المصادر والمراجع ترى بأن تاريخ بداية البناء كانت في شهر جوان 1838م،فمثلا يذكر مارسيل اميريت:أن تازة بنيت في شهر جوان 1838م، من طرف الخليفة بن علال، نقلا عن "Guarcin" إضافة إلى أديب حرب ، ودوماس يذكر ماي 1838م وغيرهم. ينظر:

- Emérit (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, op-cit, p288.

- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص26.

3- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, pp191,192.

4- Emérit (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, op-cit, p291.

5- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص261.

6- دحدوح عبد القادر، إستحكامات الأمير، المرجع السابق، ص103.

-إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص128.

يذكر بويحياوي أن الآثار الباقية في منطقة تازة كاملة، تؤكد الإستيطان البشري بها منذ فترات ما قبل التاريخ ويستدل في ذلك ما قاله الجنرال "فالي Valeé"، في رسالة موجهة إلى وزارة الحرب، "...أن حصن تازة الذي أنشأه الأمير، بني على أنقاض مدينة رومانية قديمة..."، لكن ما يهمّنا هو المعطيات التاريخية والأثرية لفترة الأمير عبد القادر.[1]

تم إحتلال تازة من قبل القوات الفرنسية بعد أمر من الجنرال بيجو، يقضي باحتلال جميع مدن وقلاع وحصون الأمير، فتم احتلال تازة في 25 ماي 1841م.[2]

3.قلعة سعيدة:

تقع سعيدة في الغرب ، يحدها من الشمال معسكر ب74كم، ومن الجنوب البيض ب198كم، ومن الشرق تيارت بـ174كم، ومن الغرب سيدي بلعباس ب97كم، كما تبعد عن الجزائر العاصمة ب434كم، وهي مبنية على منحدر من جبال سعيدة، التي تبلغ أعلى قمة بها على مستوى سطح البحر بحوالي 1288م، على ضفاف واد "بوتلنغ Boutelleng" المعروف حاليا بوادي سعيدة، وبظهور مدينة سعيدة الجديدة أصبحت تنتمي قلعة الأمير عبد القادر بسعيدة القديمة، وهي تبعد عن سعيدة الجديدة ب2كم،[3] وكانت بداية الإنطلاقة في الأشغال شهر جانفي1839م[4] ولم تكتمل إلا في شهر أكتوبر من نفس السنة، ففي رسالة بعث بها النقيب "دوماس Daumas" إلى الجنرال "غيهنيك Guéhennenc"، في يوم 18 جانفي 1839م، يقول فيها: "...أن الخليفة مصطفى ابن التهامي والقائد الحاج بوكاري، قد خرجا أمس أي يوم 17جانفي 1839م، لتحديد موضع مدينة جديدة أمر الأمير بتشييدها في سعيدة..."،[5] وقلعة سعيدة تعتبر ثالث قطعة باشر الأمير في بنائها، بعد كل من تاقدمت (1836م) وتازة (1838م) وكانت الإنطلاقة في الأشغال بها في شهر جانفي 1839م، وبقيت متواصلة.

ففي 31 مارس 1839م بعث النقيب "دوماس Dauma" رسالة إلى الجنرال "غيهنيك Guéhennenc" يذكر فيها بأن الأشغال مازالت متواصلة في سعيدة،[6] والمشرف عليها هو الخليفة مصطفى ابن التهامي، غير أنه لم يكن

1- عز الدين بويحياوي، حصن تازة حدث تاريخي وواقع أثري، المرجع السابق، ص46.

-للمزيد من المعلومات حول المنشآت المعمارية لقلعة تازة وأسوارها ينظر: - عز الدين بويحياوي، تقرير حول حفرية أنقاذ موقع تازة (برج الأمير عبد القادر)، أرشيف مؤسسة الأمير عبد القادر، فرع تيسمسيلت، جويلية 2001.

2- إسكوت، الكلونيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص102.

3- دحدوح عبد القادر، إستحكامات الأمير، المرجع السابق، ص114.

4- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p407.

5- Bourouiba (R), Places fortes et établissements op-cit, p35.

6- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p444.

-Bourouiba (R), Places fortes et établissements, op-cit, p36.

دائم الوجود بها، ولما تمّت أشغال البناء بها ركّز الأمير حامية فيها، وجعلها تابعة للخليفة ابن التهامي الذي بنى فيها دارا كمقر لإقامته، مقرا لاستقبال الوفود من القبائل المجاورة لها.

لقد بنى الأمير مجموعة من المنشآت بقلعة سعيدة، وأحاطها بصور ضخم، وتتمثل في قصر، ومخازن، وطاحونة مائية، وفندق، وأكواخ، ومصانع للأسلحة، ودور لتصليحها،[1] يشير "بيليسي Pellissier"، إلى وجود بيوت أو بالأحرى الأكواخ بقلعة سعيدة،[2] وكانت القلعة محاطة بأسوار.

غير أن هذه القلعة أحرقت وخرّبت من طرف الأمير، حتى لا يستقر بها العدو الفرنسي الذي وصلها يوم 22 أكتوبر حسب جوليان أو 19 أكتوبر حسب إميريت[3]، وبهذا أسقطت قلعة سعيدة بيد الإستعمار سنة 1841م.[4]

4.قلعة سبدو:

اسمها العربي "تافراوة"[5]، وهي قرية صغيرة تقع على ارتفاع 930 مترا وسط غابة من القرو، وقد اشتهر هذا المركز شهرة تاريخية، حيث كان من أهم نقاط دفاع الأمير، ووقعت فيه الكثير من المعارك الدموية.[6]

أما عن الموقع، فهي تقع جنوب تلمسان، وتبعد عنها حوالي 37 كم، يحدها من الشمال بلدية تريني، ومن الجنوب بلدية العريشة (ولاية بشار)، ومن الشرق بلدية غور، ومن الغرب بلدية العزابة، وهي مبنية على منخفض يرتفع على مستوى سطح البحر ب981مترا، يتوسط سلسلتين جبليتين شبه متوازيتين، أراضيها خصبة وصالحة للزراعة، وبها منابع ووديان مائية كثيرة.[7]

1- De Martimprey, Souvenirs d'un officier d'état-major histoire de l'établissement de la domination française dans la province d'Oran 1830-1847, éd, Maisons Quantin, Paris, 1886, pp119,120.

2- Péllissier (R), Annales Algérienne, op-cit, p479.

3- Julien (CH.A), Histoire de l'Algérie contemporaine, op-cit, p478.

- Emérit (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, op-cit, p173.

4- يذكر أحمد توفيق المدني، أن سعيدة آخر المدن على الأطلس التلي، ولها من الجهة الإسلامية قيمة تاريخية كبرى، وهي إحدى العواصم التي شيّدها الأمير وجعلها قاعدة أعماله وعمّرها بالذخيرة والسلاح، ويذكر أن الجنرال بيجو هاجمها من معسكر قصد إتلافها، وأيقن الأمير أنه لا يستطيع الدفاع عنها، فأحرقه والتجأ إلى جبال الحساسنة، وقد بنى الفرنسيون مكانها حصنا سنة 1844م، وعاد إليها العمران شيئا فشيئا، وهي تقع وسط بلاد قصبة جميلة الهواء، معتدلة الطقس كثيرة المياه، اشتهر أهلها في خدمة النحاس المنقوش. ينظر:-أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، م.و.ك، ط2، الجزائر،1984، ص218.

5- حسب بوديكور (Boudicour) فإن تسمية قلعة سبدو تعني حد أو تخم. ينظر:

- Boudicour (L), Histoire de la colonisation de l'Algérie, éd. Le coffre, Paris, 1860, p199.

6- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص218.

7- دحدوح عبد القادر، إستحكامات الأمير، المرجع السابق، ص125.

أسست هذه القلعة في شهر جويلية 1839م، تحت إشراف الخليفة "البوحميدي"،[1] وكانت القلعة حسب "دوماس Daumas" تستطيع أن تأوي ثلاثة آلاف مقاتل من المشاة، وهي محمية بتسعة مدافع،[2] وكانت تحتوي على مطحنة ومصنع لصهر الحديد،[3] ومازالت المطحنة موجودة إلى الآن، ولكنها معطّلة، أما عن المصنع فيذكر "أديب حرب" أن الأمير عند بنائه القلعة، نقّل إليها بمساعدة أحد العمال الإسبان، مصنعا لصهر المدافع ذات العيار أربعة، الذي كان بتلمسان ووضعه في منطقة آمنة بين الأحراش المحيطة بالقلعة.[4] لكن القلعة سقطت وتمكّن الإستعمار من احتلالها يوم 9فيفري 1842م، وخربها عن آخرها.[5]

5.قلعة بوغار:

أصل تسمية هذه القلعة اختلف فيها الكثيرون، وربما يرجع أصل تسميتها إلى الإسم القديم أبوغار، أي رجل المغارة، دلالة على المخبأ أو المغارة التي توجد بها تحت قمة جبل بوغار، والتي سكنها الإنسان من العصور القديمة[6]، ومن المحتمل أنّ إسم بوغار هو نفسه الإسم الذي تسمّت به مدينة قصر البخاري، التي تبعد عنها بحوالي 5كم[7]، حيث كانت تسمى المدينة قبل الإستقلال بقصر البخاري.

أما عن الموقع فهي تقع فوق هضبة جنوب سلسلة الأطلس التلي، التي يتراوح ارتفاعها فوق سطح البحر بين 600م و1300م، يحدها من الشمال والغرب بلدية اولاد عنتر،ومن الشرق بلدية مجبر، ومن الجنوب الشرقي بلدية قصر البخاري، ومن الجنوب تحدها بلدية أم جليل، وهي تبعد عن المدية ب70كم، وهي ذات تربة خصبة صالحة للزراعة، تكثر بها مصادر المياه[8]، ويشرف على كل السهول والهضاب التي حوله، ويسمى نافذة الصحراء[9].

1- إمتدت سلطته من تلمسان حتى الحدود المغربية، توفي بتازة المغربية في ديسمبر 1847م. ينظر: -إسكوت، الكولنيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص74.

2- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit,pp 486,487.

3- رشيد بورويبة، القلاع والحصون التي أنشأها الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص88.

- الملحق رقم: 08.

4- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص230.

- الملحق رقم: 09.

5- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، صص409-414.

6- دحدوح عبد القادر، إستحكامات الأمير، المرجع السابق، ص139.

7- يذكر أحمد توفيق المدني، أنها تبعد عن قصر البخاري بحوالي 8كلم. ينظر: - أحمد توفيق المدني،كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص231.

8- دحدوح عبد القادر، إستحكامات الأمير، المرجع السابق، ص140.

9- أحمد توفيق المدني،كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص231.

وتم تشييد هذه القلعة في شهر جويلية 1839م، تحت إشراف الخليفة محمد البركاني، وقد اختار الأمير هذا المركز وجعله معسكرا محصّنا، وكان بها أبراج وأسوار تحيط بالقلعة، وبها مصانع خصّصت لصناعة البنادق الخشبية والخراطيش، والنسيج والألبسة والدباغة، ومصاهر للحديد ومعدن الرصاص، وسجن، وورشة لتصليح الأسلحة، ومطحنة للحبوب وغيرها ، وجعل لها بنايات خاصة بها[1]، إضافة إلى بنائه لمستشفى لمعالجة المرضى المدنيين و العسكريين، حيث يذكر "بيليسي Pélissier"، أنّ الأمير قد اتخذ من قلعة بوغار مستودعا ومخزنا للكبريت، والصودا، والمينا والرصاص والأسلحة[2]، لكن القلعة هي الأخرى تعرضت للتخريب من طرف القوات الفرنسية في عام 1842م، وأنشئت فيها ثكنة سنة 1843م[3].

إنّ من بين السّمات التي طبعت سياسة الأمير هو حضور البعد الحداثي، فيما يخص بعض الجوانب منها حيث كان متفهّما لروح العصر الحديث، لاسيما أنه اطّلع على تنظيمات ومنجزات محمد علي باشا والي مصر، في إطار بناء دولة مصر الحديثة، مما ترك في نفسه أثرا عميقا، وأدرك سر تفوق الغرب، لذلك وقف موقف المجند للإختراعات الغربية، خصوصا في المجالين العسكري والصناعي، وبالضبط الصناعة الحربية، المتمثلة في صناعة البارود والبنادق والمدافع وجلب أطرا عسكرية أوربية لتدريب جيشه النظامي، فعبد القادر حاول أن يوضّح قولا وفعلا –نظريا وتطبيقيا- أنه لا يعمل لنفسه بل لخدمة الصالح العام.

لقد أرجع العربي المشرفي إنتصارات الأمير إلى ذلك التنظيم الجيد والمحكم الذي أجراه في المناطق الخاضعة لسلطته، من ذلك تأسيس جيش نظامي، وتعيين الحكام والقياد على القبائل والمراسي، حيث قال: "...جيّش الجيوش، وجاهد في كل فج من فجاج الجزائر، وغنم الغنائم، وأسر الأسرى، وأفنى الجيوش العديدة للكفار، وجعل الخلفاء في مقابلة الثغور... واتصل الجهاد في كل البلاد، وجل خلفائه ماتوا بالجهاد..."[4]. كما نجده ينعت الأمير بالملك الهمام والملك الإمام حيث قال بأنه: "...قاد الجنود وخفقت على رأسه الرايات والبنود، طأطأت له الرؤوس، طارت شهرته

1- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص231.

- Ladmir (J), les guerres d'Afrique, éd, Renault, Paris, 1858, p256.

- Azan (P), L'émir Abdelkader 1808-1883, op-cit, p170.

- Patoni (F), L'émir El haj Abed-el-Kader, Règlement militaire avec appendice, Alger, 1889, p68.

2- Pélissier(R), Annales Algériennes, op-cit, p46.

3- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص425.

4- العربي المشرفي، نزهة الأبصار، م.خ.ع، رقم: 579ك، المصدر السابق، صص510،511.

في المغربين والمشرقين وأقطار سوس، قاتل عدوه وناصله وقرب كل صنديد شجاع وواصله...أحيا مدينة جده تاقدمت وأحيا مدائن في ذلك المعمور كتازا وبوغار..."[1]

كما عبّر الناصري عن إعجابه باعتناء الأمير عبد القادر بجيشه، فقال فيهم: "...كلهّم بطل مجرب انتقاهم انتقاء ..." ثم عاد ووصف هيأة بعض جنوده الذين وقعوا في أسر القوات المغربية، في واقعة سلوان سنة 1847م، في قوله: "... وأصبح قول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر، الذين أجهضهم القتال عن حملهم ... وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا من طمأنينتهم عن القتل ما قضوا منه العجب، ووجدوا عليهم كس رفيعة مطرزة بالصقل والحرير ونحوى ذلك، فقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما نرى...."[2].

ويضيف العروي، تعليقه على التنظيم الأميري لجيشه والذي يذكر أنّ جيشه أعيا سلاطين بلاد المغرب، قائلا: "... يبدو أنّ إمارة عبد القادر استطاعت التغلب على معضلة الجباية والجيش، التي أعيت كل سلاطين بلاد المغرب، واستطاع أن ينظّم في سنوات قليلة جيشا قويّا سبيّا، وأن يموّله بجباية شرعية، ولذلك لم يخف أحد من مؤرخي المغرب الأقصى إعجابهم بهذا الجانب من التجربة، رغم حكمهم السلبي على نتائجها البعيدة..."[3].

ب.4. النظام الإقتصادي للدولة الجزائرية الأميرية:

لقد اهتم الأمير باقتصاد دولته الفتية وفق أسس سليمة صحيحة، عبر إعادة تفعيل الحياة الإقتصادية، وإعادة الثقة للتعاملات التجارية، وذلك بمراقبة تنقل السلع والتجار، في وقت كانت تعاني فيه الحامية الفرنسية في منطقة وهران صعوبات كبيرة في التمويل، جراء الحصار الإقتصادي المضروب عليها، ومنع كل القبائل من التعامل بالبيع والشراء تحت أي ظرف كان،[4] فقد ركّز الأمير على الجانب الصناعي والزراعي والتجاري، وعلى النظام الضريبي، من أجل تموين الجيش لمقاومة قوات الإحتلال الفرنسي.

1- العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، م.خ.ع، الرباط، رقم: 1534د، ص47ب- 58ب.

2- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية، القسم الثالث، ج9، تح وتع: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، د.ط، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص57.

3- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج3، المركز الثقافي العربي، د.ط، الدار البيضاء، الرباط، 1999، ص84.

4- ناصر الدين سعيدوني، النظام الضريبي في دولة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص123.

ب.1.4. سك العملة:

سكّ الأمير عبد القادر عملته الخاصة به في تاقدمت وحصرها بقوانين دولته، دليل على مظهر من مظاهر السلطة المركزية القومية والإستقرار السياسي في عاصمته،[1] ويذكر المزاري أيضا عنه، أنه عندما نقل مقر عاصمته إلى مدينة تاقدمت، وصيّرها قاعدة ملكه لكونها بلد أسلافه بالإحتكام، ضرب السكة بها والسلاح.[2]

لقد أراد إنشاء دولة من إرادة الشعب الجزائري، مع العلم أنه لم تكن له خزينة، أو معمل لسك العملة، أو معمل من الآلات لضرب النقود، أو منجم يستطيع التصرف فيه، أو إستثماره في مصانع الدولة، غير أنه تحدى كل الصعاب بفضل دهائه وحنكته، وقوة إيمانه، وقام بسك العملة بالرغم من أن قيمتها لم تكن كبيرة، وبذلك استطاع فرض وجوده، رغم مجريات الحرب وضراوتها، إلا أنه ضرب العملة بتاقدمت، وسكّ نوعين من القطع النقدية سمّاها المحمدية تكريما للرسول عليه السلام.[3]

كان الأمير يعلم أن كل من العملة والنظام المالي والنقدي، تعتبر الدعائم الأساسية لأي دولة ذات سيادة معترف بها دوليا، لذلك حاول إيجاد عملة خاصة بدولته الحديثة التأسيس، وهو الذي كان يعلم جليّا الأهمية الكبيرة والخطيرة لمثل هذا الإجراء، الذي يعبر عن شرعية دولته، وكان القصد من وراء هذا الإجراء، فرض نظام مالي خاص به في ظل الفوضى النقدية والمالية التي كانت تعيشها البلاد قبل الغزو الفرنسي، من تداخل العملات المحلية والأجنبية وعمليات التزوير إضافة إلى رداءة العملة العثمانية، خاصة في أواخر العهد العثماني[4].

1- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص87.

2- بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص170.

3- عبد الرحمن الجيلالي، سكة الأمير عبد القادر، وزارة التربية والتعليم، د.ط، الجزائر، 1966، ص16.

-Bouchenaki (M), La monnaie de l'émir Abdelkader, op-cit, pp 42,43.

4- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني 1792م-1830م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص220.

-لتقدير العملة الأميرية، وجب عرض قيمتها على السوق المالية في تلك الفترة، لمعرفة حجمها الحقيقي في تلك الظروف الإستثنائية، فقد كان على الشكل التالي: - دورو بومدفع يساوي أربع ريال.

-الريال يساوي ثلاثة أرباع.

- الربع يساوي ثمانية محمدية، وهي عملة الأمير.

-المحمدية تساوي إثنين نصفية، وكان الريال العملة المفضلة له، لأنها كانت أكثر تداولا وشهرة وثقة، حيث كانت تساوي 1,35 فرنك، في الوقت الذي كان يساوي فيه الربع 0,45 فرنك، والمحمدية 0,05 فرنك، والنصفية 0,025 فرنك.ينظر:

-Bouchnaki(M), La monnaie de l'émir Abdelkader, op-cit, pp77,78.

- ينظر الملحق رقم: 10.

بالرغم من أن عملة الأمير جاءت بحلة جميلة، وبها نقوش لآيات قرآنية منتقاة في غالبها جيّدا، لما توافق الظروف السياسية لتلك الفترة، حيث كانت تدعوا للجهاد وتحثّ على الصبر، وتهدف إلى توحيد النظام النقدي في الجزائر ليشمل حتى المناطق الخاضعة لنفوذ المحتل الفرنسي، إلا أنّها بقيت منخفضة في سوق المال مقارنة مع الفرنك الفرنسي الذي تغلغل بسرعة في الشرق أكثر من الغرب، وبالتالي ظلت العملة الأميرية محصورة في مناطق نفوذه، ربما يرجع الأمر لحداثة العملة الأميرية، وفوضى السوق النقدي الداخلي، والإقتصاد الهش والضعيف لدولة الأمير، وقلة المعادن الثمينة التي تعتبر أساس العملة، وهو النظام المعمول به إلى يومنا هذا.[1]

مهما يكن من أمر، فإن موضوع سكة أو نقود الأمير عبد القادر، وأهميتها البالغة بصفتها وثائق رسمية معاصرة للأحداث التي شهدتها البلاد أنذاك، و مصدرها من مصادر التاريخ السياسي والإقتصادي، إذ تساعد في تشخيص ومعرفة بعض الحقائق التي تتعلق بالفترة التي وجدت فيها، لم تحظ بدراسة علمية وافية من قبل الباحثين بإستثناء بعض الدراسات القليلة النادرة التي نبّهت الأنظار إلى هذا الموضوع الشائك، واعتبرت أعمال هؤلاء الباحثين البدايات الأولى التي فتحت المجال واسعا، للإجتهاد والتعمق أكثر في دراسة نقود الأمير عبد القادر، بالتركيز على أهميتها الحضارية إنطلاقا مما تحمله من نصوص كتابية ورموز وربطها بمسائل التاريخ، ذلك بأن النقود تعتبر ذات أهمية كبيرة بما تلقيه من أضواء كاشفة على التاريخ، ومدى إرتباطها بالنظم المالية والسياسية فضلا عما تقدمه من معلومات حول التطور الصناعي والفني للبلاد، ومدى الإستقلال الحضاري للدولة التي أشرفت على ضربها، فدراسة نقود الأمير من وجهة نظر علم المسكوكات، ستكشف النقاب على جوانب كثيرة من حياته.

بعد البحث في الإشكاليات التي تطرحها هذه النقود؟ - ما هي الأسباب التي جعلت نقود الأمير مجردة من الأسماء والألقاب، وخصوصا إسمه بصفته حاكما شرعيا لهذه الإمارة الجديدة؟ - فهل هناك خلفية تاريخية يمكن أن نفسر بها هذه الظاهرة؟ علما أن السكة تعد من تقاليد نظم الحكم الإسلامية، وشارة من شارات الحكم، ووظيفة ضرورية للملك أو الخليفة أو السلطان، إذ هي وسيلة للإعلان عن سيادة الدولة الإسلامية وعروبتها، فالعملات التي كانت تضرب تنسب إلى من أمر بسكها من الخلفاء أو الولات، منها: الدنانير اليوسفية المنسوبة إلى يوسف بن علي، والدنانير والدراهم المومنية المنسوبة إلى عبد المؤمن بن علي، والدينار اليعقوبي المنسوب إلى يعقوب المنصور.

ذكر صاحب الإستقصاء، أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، حين ورد عليه التقليد من الخليفة، ضرب السكة بإسمه ونقش على الدينار "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله"، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب على الدائرة قوله تعالى:﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾، وكتب

1- هواري قبايلي، العملة الجزائرية في أواخر العهد العثماني ودولة الأمير عبد القادر، مجلة عصور، عدد 12-14/13-15، سنة 2008-2009، جامعة وهران، صص50،51.

على الصفحة الأخرى عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي، وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته[1] وغيرهم، وهناك تساؤلات أخرى كثيرة تتعلق بالقاعدة النقدية المستعملة، وعدم تعدد إنتشار دور الضرب، واقتصار إنتاج النقود جميعها على دار السكة بتاقدمت فقط؟ وما مدى إنتشارها وتداولها، وما مركزها بين العملات الأجنبية التي شاع تداولها في عمليات البيع والشراء؟ وإلى أي قاعدة كان يسند نظام النقد الأميري؟

ب.2.4.النظام الضريبي في دولة الأمير عبد القادر:

لقد إعتمدت دولة الأمير في القيام بمهامها العسكرية ومشاريعها الصناعية وفي تسيير أجهزتها الإدارية على المداخيل الجبائية وموارد بيت المال المتعددة، وقد تميزت هذه الأنظمة الجبائية والإجراءات الضرائبية التي إستحدثها إثر مبايعته، بكونها ترتكز على أسس ومبادئ خاصة منها:

-أنها تتقيّد بأحكام الشريعة الإسلامية، وإلغاء ماكان مستحدثا من الضرائب غير الشرعية العثمانية مثل:"اللّزمة، الغرامة، الفوائد"، وعوضّها بضريبتي "العشور والزكاة"،[2] التي أقرتها الأحكام الإسلامية، وبهذا أكسبه ثقة رجال القبائل وشيوخ الزوايا.

- أنها تعتمد على الإلتزام والعدل والمساواة بين الناس في تحصيل ما يتوجب عليهم من متطلبات، فخفّف المطالب المخزنية على قبائل الرعية، وأبطل أعمال السخرة والمصادرة التعسفية والتغريم، التي كانوا عرضة لها بغير وجه حق، وأبطل إمتيازات قبائل المخزن وجماعة الكراغلة، وأجبرهم بضرورة المساهمة في دفع المعونة كغيرهم.[3]

كما كان يعاقب كل مرتشي ومفسد، ومرتكب المخالافات، ولكي يراقب تحركاتهم قام بتعيين قاضي القضاة ينظر في شكوى الناس والذي يعرف بدار الشورى،[4] وهكذا استطاع محاربة الفساد وسوء التصرف بفضل يقته وفطنته، ولكن مع هذا يذكر أنه في كثير من الأحيان لا يستطيع أن يمنع الغش، خاصة عندما يستأنف القتال، فقال في هذا الصدد: "... إستطعت أن أقيم نظاما كاملا لإدارة الضرائب في كل ولاية (خلافة)، ولكن عندما إستؤنفت الحرب

1- أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا، المصدر السابق، ص59.

2- ناصر الدين سعيدوني، النظام الضريبي، المرجع السابق، ص123.

- عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر و بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص86.

3- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، المرجع السابق، ص248.

4- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص166.

لم أستطع أن أمنع الغش، وقد اغتنم العرب في كل مكان فرصة انشغالي..."،[1] لكنه اضطر إلى معاقبة أحد عمّاله لتقاضيه الرشوة، وعزله وإيقافه عن عمله، وكانت هذه أوّل عملية عرضت عليه في منصبه الجديد.[2]

كان الأمير يتساهل في كيفية دفع الضريبة، فهو لا يشترط النقود فقط، بل كان يتقبّل المواد العينية كالمواشي والخيول والحبوب والمنسوجات وغيرها،[3] على أن تُقدّم في مواعيدها المحددة، فهو كان يحاول ويطالب القبائل بدفع ما هو ضروري لدعم الدولة، على أن يتوافق ذلك في الوقت ذاته مع مصالحهم الخاصة، بحيث يتمّ الجمع بين المصلحة العامة للدولة والمصالح الخاصة للمواطنين،كما أنه لم يتوقف عند هذا الحد، فلم تقتصر المعونة على العشور والزكاة فقط، بل تعززت كذلك بالغرامات والخطية، التي كان يفرضها على القبائل المتمردة،إضافة إلى مصادر الأملاك بعد الغارات الحربية الإنتقامية والمعارك،[4] وقد سبق للأمير أن فرض خطية كبيرة على قبائل السّبخة، السّاكنة سهل الشلف بعد ما وقفوا ضده.

ويضاف إلى هذه المداخيل من غرامة وخطية ومعونة، أيضا المساعدات الخارجية، التي تلقّاها مثلا من السلطان المغربي "مولاي عبد الرحمان" في السنوات الأولى لكفاحه، إضافة إلى عوائد احتكار تصدير المواد الأولية وكذلك إشتركات كبار الموظفين من الآغوات والخلفاء والقواد والشيوخ، أو ما يسمى "حق البرنوس"[5] لقاء بقائهم في مناصبهم، إضافة إلى مداخيل الأملاك العقارية.[6]

بالرغم من أنّ الأمير عمل جاهدا من أجل تعزيز خزينته بالموارد مستخدما في ذلك كل الأساليب والطرق الشرعية، إلاّ أن ذلك لم يكن كافيا، بسبب حاجاته لشراء لوازم جيشه من أسلحة وذخيرة وبارود وغيرها من حوائج

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص190.

2- إسكوت، الكولنيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص146.

3- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص219.

-كان الأمير يستفيد كثيرا من المواد العينية، فكان يقدم الخيول لفرسانه، ويستخدم البغال والإبل في عمليات النقل و الإمداد، أما المواد الإستهلاكية فكانت تقدّم لتموين الجنود، مع حفظ الفائض منها في المستودعات "مخازن الطوارئ". ينظر: -بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص53.

4- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، المرجع السابق، ص253.

-بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص53.

ولأخذ فكرة عن مقدار هذه الغرامة ينظر: - المرجع نفسه، ص253.

-Lacoste(Y), Et autres, L'Algérie passé et présent, op-cit, p274.

5- لجأ الأمير إلى المعونة بإقرار حق البرنوس، التي ألزم بها موظفي دولته كل سنة، حتى يظمنوا البقاء في مناصبهم، وحتى يساهموا كغيرهم في مجهود الحرب، وواجب الدفاع عن البلاد، وكذلك المحافظة على رسوم الأسواق، وحقوق الجمارك التي سبق العمل بها في عهد الدايات. ينظر:

- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، المرجع السابق، ص251.

6- ناصر الدين سعيدوني، النظام الضريبي في دولة الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص127.

ومستلزمات الحرب، ضف إلى ذلك تهرّب بعض القبائل عن دفع ما يتوجّب عليها، بسبب تزايد اعتماد الأمير على ضريبة الجهاد المستحدثة (المعونة)، مما أثقل كاهلهم، والضربة القاضية كانت إثر تجدد الحرب مع الفرنسيين إثر نقض معاهدة التافنا (18نوفمبر1839م)، والتي أدت إلى إنهيار الإقتصاد وإتلاف الإنتاج، وتعطيل المصانع وإبطال صلاحيات الموظفين في تحصيل الضرائب،[1] هذا كله دفع به لإتّباع سياسة التّقشف، بعدما رهن جميع أملاكه العائلية والشخصية وباع حلي عائلته في أسواق معسكر، واقتطع لنفسه راتبا متواضعا لايكاد يكفيه وعائلته.

مهما يكن فإن الأنظمة الجبائية وما يتصل بها من أوجه الإنفاق والدّخل وما تتميز من مميزات وأوضاع تعطي لنا صورة صادقة على مدى الجهد الذي بذله الأمير عبد القادر في بعث الدولة الجزائرية، وتصديه للغزو الفرنسي كما أن هذه الأنظمة تظهر لنا جليا مدى عبقريته وكفاءته في مجال التنظيم والتسيير والتخطيط، فلو لم يسهر بنفسه على إنجاز مخططاته، لما تمكن من تحقيق أهدافه، فقد كان دائم الحركة يفتش جنوده، ويزور مخازنه الحربية، ويتفقّد مدارسه ويدير القضاء، فغيرته على وطنه دفعته لتحقيق مهمته العظيمة على أكمل وجه رغم الصعوبات والعراقيل بهدف الإصلاح وجعل الشعب الجزائري شعبا واحدا وبعث روح الوطنية فيهم، وإيقاظ كل قدراتهم الكامنة، لبناء مجتمع الحرب والسّلم ولدعم إقتصاد الحرب بزيادة الإنتاج في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة.

ب.3.4.التعبئة المالية في دولة الأمير عبد القادر:

لم يتوقف الأمير عن طلب المساعدة من أجل تموين جيشه، فمتطلبات الحرب ألزمته البحث عن الطرق التي يتم بها الحصول على الأسلحة والعتاد الحربي والذخيرة لتجهيز جيشه، من أجل مواجهة قوات الإحتلال الذي يفوقه عددا وعدة[2]، فبحكم صلاته الدولية الواسعة والمكثفة والمتعددة مع ساسة العالم والقادة العسكريين والسياسيين والمفكرين حظي بالتقدير والإحترام، فالأمير كان كثير الإتصالات والمراسلات للدول والملوك والأمراء والحكام والوزراء وغيرهم من السياسيين والدبلوماسيين، سواء خلال معركة الكفاح المسلّح بالجزائر (1832-1847)م، أو في منفاه بفرنسا أو في المشرق (1848-1883)م.

فأثناء كفاحه ومقاومته للإستعمار الفرنسي بالجزائر، راسل الملك والحكومة الإنجليزية عن طريق قناصلها بطنجة ومدريد طالبا منها التأييد والمساعدة المادية، بعد أن شرح شراسة جيش الإحتلال الفرنسي وخداع قادته، وعرض أن يمنحها ميناء تنس أو غيره لاستثماره مقابل حصوله على الأسلحة والذخائر الحربية،[3] وفي 6 أكتوبر 1840م كتب

1- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، المرجع السابق، ص258.

2- Yver (G), Abdelkader et le Maroc en, op-cit, p101.

3- أخذ الأمير عبد القادر بالمبادرة من أجل الكتابة إلى الإنجليز بواسطة قنصلهم المقيم بمدينة طنجة، "دورمون هاي" عن طريق "نيكولا مينوتشي" ابن قنصل إنجلترا ببنزرت بتاريخ 1840/04/11م وطلب منها التأييد والمساعدة المادية بعد أن شرح لها شراسة جيش الإحتلال الفرنسي وخداع قادته، كما قام بعرض=

اللورد "بلمرستون Lord Palmerston" إلى قنصله بجبل طارق طالبا منه أن يبعث بمحتوى رسالته إلى مبعوث الأمير عبد القادر، وجاء في رده شاكرا إياه على عرضه ميناءا بالتراب الجزائري، مبلغا أسفه الشديد بعدم رغبة ملكة بريطانيا في الحصول على ممتلكات على ساحل البحر الأبيض بإفريقيا، كما أضاف أن الحكومة البريطانية لا ترغب بالتدخل في شؤون الدولتين الجزائرية والفرنسية خوفا على مصالحها واقترحت أن تبقى على الحياد،[1] وفعل ذلك مع الحكومة الأمريكية وراسلها بواسطة قنصلها بطنجة، وشرح لها خيانة الفرنسيين وعدم وفائهم بالعهود وطلب منها أن تدعمه وتؤيده بالأسلحة، مقابل منحها ميناء على الساحل لصالح الأسطول الأمريكي كذلك.[2]

كما راسل ملكة إسبانيا وحكّامها العسكريين في مليلية، وطلب منهم التوسط بينه وبين فرنسا وتزويده بالأسلحة والذخائر، بعد أن شرح لهم ما ارتكبه الجيش الفرنسي من أعمال القتل والتخريب، ثم حصل منها على الدّعم المادي، المتمثل في قناطير من ورق الخرطوش من طرف حاكم مليلية[3]، كما راسل السلطان العثماني "عبد المجيد" و"الصدر الأعظم" بإلحاح من "حمدان بن عثمان خوجة" وشرح وضع البلاد لهما، وما آلت إليه من نكبات وتخريب جراء الهجومات المتكررة من طرف القوات الفرنسية، طالبا منهم التأييد والمساعدة والدّعم العسكري والسياسي.[4]

ثم توسّط بعض خلفائه في شرق الجزائر بايات تونس ووزرائها وحاولوا أن يحكموا الصلة بينه وبينهم لخدمة القضية الوطنية، وأرسلوا إليهم باسم الأمير وبأمر منه هدايا كثيرة، كما ربط صلاته بوكيل وبق تونس في "جبل طارق" وكلّفه بشراء الأسلحة والذخيرة وغيرها من الأعمال، غير أن بايات تونس اختاروا طريق التحالف مع جيش الإحتلال،[5]

=ميناء تنس للحكومة من أجل استثمارها بالمنطقة مقابل حصوله على الأسلحة والذخائر الحربية، وفي أحد رسائله التي بين أيدينا كتب إلى الحكومة الإنجليزية يبلغها بالهدنة التي وقعت بينه وبين الفرنسيين. ينظر: – الملحق رقم 11.

– Emérit (M), L’Algérie à l’époque d’Abdelkader, op-cit, p295.

– A.N.O.M, Série F.O ; 3/43.

– يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الدولية والوطنية، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1999، ص231.

–يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، ص176.

– صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص35.

1– A.N.O.M, F.O ; 3/43.

2– عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق، المرجع السابق، صص134،135.

–يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص232.

3– يحي بوعزيز، مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1988، ص24.

4– نتيجة لمواصلة الفرنسيين تقوية جيشهم بالجنود والمعدات العسكرية إستنجد الأمير عبد القادر بالدولة العثمانية لدعمه ماديا ومعنويا من أجل القضاء على الإحتلال الفرنسي. ينظر: وثيقة مؤرخة في ديسمبر 1841م. مأخوذة من: – Osmanli Arsivi, I.HR,821 .

5– للمزيد عن مواقف بايات تونس من الأمير ينظر: – يحي بوعزيز، مواقف بايات تونس من الأمير عبد القادر وثورته، مجلة الأصالة، عدد 23، جانفي، فيفري، 1975، الجزائر، صص23-34.=

حيث كان لهم موقف معارض ومضاد لمقاومة الأمير فقد عارضوا نوابهم ووكلاءهم لتقديم أية مساعدة لهم، ويظهر ذلك جليا من خلال معارضتهم لوكيلهم بجبل طارق "زكي كرطوزو" الذي كان يساند مقاومة الأمير عبد القادر بدعمه بالأسلحة وعلى تنظيم الاتصالات،[1] وبسبب ذلك أعلن في رسالة له وجهها إلى حكومته بتونس عن استعداده التام لقطع العلاقة مع الأمير عبد القادر مصرحا أنه مازال لديه مقدارا من المال قدره ستة آلاف ريال يعود للأمير الذي سلّمه له من أجل شراء السلاح.[2]

أما عن المغرب الأقصى فحرص الأمير على توثيق الصّلات معه، لما يكنّه من احترام للسلطان المغربي "مولاي عبد الرحمان"، وقد سعى من خلال علاقاته هذه إلى تكوين جبهة موحدة لمواجهة الغزو الفرنسي، فجرت في بداية الأمر مراسلات دبلوماسية، أسفرت عن تعيين الحاج "الطالب بن جلول"[3] سفيرا فوق العادة بفاس من قبل الأمير، وتبادلوا الهدايا وكان من بينها ذخائر حربية بعثها السّلطان المغربي إليه في نطاق المساعدات الحربية،[4] في بداية الأمر إلا أنه ظهر مؤخرا خصام وعداء إشتدّ بينهما مع مرور الوقت. وهكذا إنقطع كل الدعم الذي كان يحتاجه الأمير ولم يحظى بالسند التونسي ولا حتى المغاربي في فترة كان في أشد الحاجة إلى المساندة.

كان الأمير يهدف من خلال اتصالاته بحكام دول إسلامية ودول أوربية، إعطاء دولته بعدا سياسيا في المجال الدولي، أساسه المصلحة المشتركة وقوامه المنافع التجارية، ورباطه علاقات تعاون تفرض الإحترام المتبادل والإلتزام بالأعراف الدولية.

=- لقد جاء في رسالة كان قد أرسلها الباي التونسي لوكيله زاكي كرطوزو يوبخه فيها على أمرين اثنين أولاها: حول جوازات السفر التونسية المقدمة من طرفه إلى المغاربة. والثانية: عن الإعانات التي كان يقدمها للأمير عبد القادر، كما أعلن محبته للفرنسيين وعن العلاقة الطيبة التي تربط الدولتين التونسية والفرنسية.

ينظر: - أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78 ملف 929، وثيقة رقم 05 مؤرخة في 30جمادى الأولى 1263هـ/17ماي 1847م.

- ينظر الملحق رقم 12.

-ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص225.

1- في عام 1257هـ كاتب زاكي كرطوزو وكيل بايات تونس في جبل طارق الباي التونسي "مصطفى باشا"،الذي يلقبه بسلطان افريقية،بأن يسمح له بمواصلة مساندة الأمير عبد القادر وتموينه بالآلات الحربية كما جاء على لسانه،طالبا منه الرد السريع على جوابه. للمزيد ينظر: - أرشيف الحكومة التونسية، المصدر السابق، وثيقة رقم 04: تتضمن مراسلات زكي كرطوزو مع حكومته حول طلب الأمير المساعدة منه في شراء الأسلحة. مؤرخة سنة 1257هـ/1841م.

- ينظر الملحق رقم 13.

2- أرشيف الحكومة التونسية، المصدر السابق، وثيقة رقم: 06، مؤرخة في 17 جمادى الثانية 1263هـ/ 3 جوان 1847م. - ينظر الملحق رقم 14.

3- الحاج طالب بن جلول الفاسي، هو إبن رئيس الوزراء المغربي، كان مهامه على الصعيد التجاري مع الأمير كوكيل تجاري بمدينة فاس. ينظر:

- Yver (G), Abdelkader et le Maroc, op-cit, p101.

4- يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، المرجع السابق، ص96.

-لمعرفة العلاقات الدبلوماسية للأمير عبد القادر مع السلطان المغربي ينظر: -ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص224.

ب.4.4.الجانب الصناعي:

سبق وأن فصّلنا في هذا العنصر وذكرنا أن الأمير عبد القادر أعطى أولوية للصناعات الحربية، فاستقدم خبراء أجانب، وجعل من مدنه قواعد صناعية بإنشاء مصانع ومخازن للبارود في معسكر مليانة، المدية وتاقدمت، ومعامل للسلاح في مليانة، بفضل استخراج الحديد الخام من جبل زكار المطل على المدينة، وأنشأ مسابك المدافع في تلمسان التي كانت تصنع الملابس للعسكريين والمدنيين على حد سواء، كما ركّب أوّل فرن عال جزائري.[1]

لقد كان يهتم بالتطور والرقي، متمسّكا بالدين وتعاليمه، وبنصوص القرآن و السنة، ومتمكنا من التراث العربي والحضارة الإسلامية، وكان شاعرا عارفا بحياة الفلاسفة والأطباء والرياضيين، مطلعا على الحكم والأمثال والخطب، ومع ذلك وجد نفسه بحكم ظروف بلاده على قمّة هرم السلطة، فكان عليه أن يلائم بين التقليد والتجديد من جهة وبين التراث التليد والحضارة الغربية من جهة أخرى، فلا شك أن همّه الأول هو إصلاح الدولة وتزويدها بمؤسسات قابلة للإستمرار، تسمح له بالإهتمام لاسيما بمشكلات المواطنين، ولكن كذلك وفي نفس الوقت كان لزاما عليه وفي الأوقات الصعبة أن يقاوم عصابات المستعمرين ويطردهم من البلاد[2]، فالصناعة الحربية كانت من أولى إهتماماته [3].

ب.5.4.الجانب الفلاحي والتجاري في الدولة الأميرية:

لقد شجع الأمير عبد القادر العمل الزراعي، وألغى ضريبة الخراج واستخدم أدوات بسيطة للحرث،كما استعمل مخازن القمح لتموين الجيش والتبادل التجاري، من أجل شراء مستلزمات الحرب[4]، فقد كانت الزراعة تمثل النشاط

1- عبد القادر جغلول، الأمير عبد القادر1807م-1883م، رئيس دولة مسلم فاعل ومفكر في الحداثة، من كتاب الأمير عبد القادر ملحمة الحكمة، زكي بوزيد للنشر، الجزائر، 2007، ص32.

-مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص157.

2- كمال بوشامة، الأمير عبد القادر ووحدة الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص39.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص15.

3- للتعرف على مدن ومراكز دولة الأمير عبد القادر وما أنشأ بها من مصانع ينظر:

- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، المصدر السابق،ج1، صص313-315.

- دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية، المصدر السابق، ص67.

- Bellemare (A), Abed-el-Kader sa vie politique et militaire, op-cit, p121.

- Emérit (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, op-cit.

-Sari (DJ), Le rôle de l'espace dans la stratégie de l'émir Abdelkader, R.H, N° spécial à l'occasion du centenaire du décès d'Abdelkader Alger, 1983, pp49-54.

-Bourouiba (R), Places fortes et établissements, op-cit, pp33-48.

- Benachenhou(A), L'état Algérien, op-cit, pp74-79.

4- Azan (P), L'émir Abdelkader,op-cit, p136.

الأساسي للسكان الجزائرين، لذلك حاول تغيير وضعية النظام الفلاحي التي كان يعيش في أواخر العهد العثماني،[1] فألغى ضريبة الخراج التي كانت تطال الأرض ومحصولاتها والتي كانت تثقل كاهل الفلاح،[2] مما شجّع هذا التدبير الفلاح على العمل، فكان كل واحد يستهلك قسما من محصوله مع عائلته ويحتفظ بالباقي في المخازن لأوقات الشدة،[3] كما شجع الأمير السكان على حراثة أراضي الدولة، وجنى محاصيلها عن طريق التويزة، وهي عملية كانت تقلّل من مصاريف الدولة، وتشجّع العلاقات بين أفراد القبائل، وتربط مصالحهم مع مصالح الدولة[4].

لقد كان الأمير يدرك أنه في حالة حرب الإبادة التي تشنّها فرنسا على شعبه، وجب عليه إيجاد قوت الحرب، فحاول في وقت واحد أن يؤمّن القوت الضروري لأتباعه، ويحرم أعداءه من سهولة التعامل مع شعبه.

كما يذكر عن خطته في الأمن الغذائي قائلا: "... لم تكن الإحتياطات تكفي لتموين جيشي في كل المجالات التي دعاه واجب الحرب للعمل فيها، لذلك أمرت تفاديا لوضع حمل جديد على الأهالي، بإقامة مخازن للحبوب تحت الأرض في كل ولاية، وكانت هذه المخازن تحت مسؤولية قائد كل قبيلة، حيث تحتوي على الحبوب التي تدفع كعشور... وبهذه الطريقة برهنت للعرب الذين من طبيعتهم الشك،[5] أنني لم آخذ شيئا من الضرائب لمصلحتي الشخصية، بل جعلتهم يدفعونها للصالح العام فأجابوني والواقع أن هذه المخازن هي التي أجلّت سقوطي، فعندما جرّدت من مخازن تمويني أصبحت مضطرا إلى فرض مطالب جديدة على القبائل ولماّ شعرت هذه القبائل بالضغط الشديد من الجهتين، إرتخى حماسها للجهاد..."[6].

1- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص314.

2- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص87.

3- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p607.

4- Roche (L), Trente Deux ans, op-cit, p479.

5- العربي المشرفي من بين الذين شككوا في إخلاص الأمير لشعبه فيما يخص جباية الأموال وجمع الضرائب، إذ يذكر في محطات عديدة أن الأمير كان يهدر الأموال في ملذات الدنيا، وأن سبب فشل ثورته هو إثقال شعبه بالضرائب، إذ يقول: "... وملوا ضرب الجزية عليهم المعونة، ووظفها على الأعراب كل سنة، وقال لهم عمارة بيت المال واجبة على المسلمين، في الحال وللميال،... وسوّى في العطاء بين الغني والفقير... ويجمع في كل بلد المقبوض، واتبع هواه وترك المفروض، فترى الفقراء يذهبون للأغنياء يسألونهم الزكاة فيطردونهم ،وهم حفاة عراة، ويقفون قبالته لايبالي بهم..."، ويضيف قائلا: "...ويقول الشرعي أمرني فيعدهم، فإن العشر والمعونة للمجاهدين والعسكر، والخيالة اليوم هم المساكين، ويحتل بهم وملأ المطامير...". ينظر:

- ثورة الأمير عبد القادر من خلال ثلاث مخطوطات، المصدر السابق، صص20-44-106.

6- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص190.

- أحمد درويش، في صحبة الأميرين، المرجع السابق، ص157.

ولكن بالرغم من ذلك، فإنّ الإصلاحات التي أحدثها عمّت بالفائدة على الفلاحين وعلى البلاد، ففي عام 1839م بلغ إحتياط الحبوب في المخازن إكتفاءا لمدة سنتين، وإنتاج سهل غريس لعشر سنين.[1]

أمّا الحيوانات فكان هناك ألفي رأس جمل وثمانمائة حصان،[2] بالرغم من زيادة الإنتاج، فالفلاح الجزائري كان يعاني من استخدام وسائل الإنتاج القديمة، ضف إلى ذلك حالة الحرب التي لا تسمح بتطوير هذا النشاط.[3]

أما عن التجارة فإن الأمير لم يدّخر جهدا في توفير مواد التجارة، وأنواع الحرف، وإنشاء الأسواق، حيث وفّر للأهالي وسائل الراحة،[4] فكانت التجارة مزدهرة بفضل الأمن الذي كان مستتبا تماما في كل الأقاليم الواقعة تحت سلطته، وكان صارما فيما يخص قضية أمن الطرق والأسواق، وكانت العقوبات قاسية بالنسبة للذين كانوا يعترضون القوافل المحمّلة بالبضائع،[5] وكان يراقب السّوق عن طريق المحتسب ما يشبه المفتشين، وهو الذي يتحكم في الأسعار ونوعية البضائع ويراقب سلامة الأخلاق، فالنظام كان أكثر إستتبابا في أقاليمه، وكانت الشرطة الفعّاله لدولته، تهتم بالأخلاق الحميدة وتحارب الذميمة وتقضي على ظاهرة تعاطي الكحول والتدخين والمقامرة.

فالتجارة نشطت في عهده، وارتبطت أسواقها المهمة فيما بينها، فكانت عمليات البيع والشراء واسعة، فمثلا في معسكر عادت صفقاتها بأرباح طائلة لبيت المال بالمنطقة[6]، كما استفاد الأمير كثيرا فيما يخص القطاع التجاري من المعاهدات الدبلوماسية لإنعاش هذا القطاع، خاصة في زمن السلم.

ب.5. الجانب الثقافي ونظام التعليم في دولة الأمير عبد القادر:

لم يهتم الكثير من المؤرخين والباحثين والدارسين، بهذا الجانب، حيث أن الأمير المحارب أخفى الأمير المثقف والعرفاني، فنجدهم يميّلون اهتمامهم إلى دراسة الجانب العسكري والسياسي والدبلوماسي، أكثر من الأمير المفكر والروحاني سواء في الجزائر أو في المنفى، إن هذا التوجه في الدراسات التاريخية حجب علينا مساحات كبيرة في تاريخه فبقدر ما كان عسكريا وسياسيا محنّكا، كان رجل فكر وعلم، عميق المعرفة في أمور الدين والدنيا، وله آراء في مختلف قضايا عصره الفكرية، والمعرفية، ونصوصه ومواقفه تمثل أيضا تميزه الفريد من ناحية التأصيل والتمثيل بها، لاسيما فيما

1- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص68.

2- Emérit (M), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, op-cit.p275.

3- إسكوت، الكولنيل إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير، المصدر السابق، ص10.

4- يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص95.

5- Benachenhou (A), L'état Algérien, op-cit, p99.

6- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص87.

يتعلق بالتنظير والتطبيق في بنائه للدولة الجزائرية،[1] فتكوينه ومخططات ثقافته التي تلقاها وهو صغير، قد أثرت ولعبت دورا واضحا في توجيه سلوكه وهو كبير وهي التي أطرت حياته وبلورت مواقفه كلها، فليس من الغريب عليه أن يفتح جبهات متعددة في مقاومته للإستعمار الفرنسي، فإلى جانب مقاومته العسكرية والسياسية مارس مقاومة ثقافية وفكرية عكسها اهتمامه بالشأن الثقافي أثناء تنظيمه لدولته، فالأمير عمل من أجل المحافظة على رصيد الدولة الثقافي العربي الإسلامي وذلك من أجل تحقيق التحرر الجزائري والمحافظة على الكيان الإسلامي،[2] إضافة إلى أنه كان يرمي لتحقيق معالم مشروعه الحضاري التجديدي، فهو يعتبر أحد رموز الحداثة العربية الإسلامية، وأحد رجالات النهضة في العالم العربي الإسلامي.

لقد نال التعليم حظّا وافرا من اهتمام الأمير، وذلك راجع إلى ولعه الشّديد بالدراسة منذ فتوّته الأولى، ففي مذكراته لم ينفي إعجابه بجو الدراسة داخل الزاوية، فنجده يقول: "... وأما طلبة القرآن الذين قرؤوا القرآن والعلم بقريته المذكورة فلا يحصون، ولا يخلوا موضع قراءتهم من خمسمائة إلى ستمائة، بحيث لا يسمع المار بها إلاّ دوي القراءة في كل وقت، مع تدوين العلم بأكثر أنواعه بمسجدها المعد للصلاة..."، ويضيف: "... وكانت فيه نحو سبعة مجالس للتدريس ...".[3]

ضف إلى ذلك تقاليد عائلته العريقة التي تقوم على تقدير العلم والعلماء، كل هذه المعطيات وأخرى، تقدم لنا صورة جلية عن الجو الثقافي والديني للأميري، فقد أدرك أن نجاح مقاومته للإستعمار الفرنسي، رهينة بمدى انتشار الوعي القومي بين مختلف فئات المجتمع الجزائري، والوعي القومي عبارة عن فشو الثقافة وانتشارها،[4] فالعلم والتعليم بالنسبة له يعد نشاطا أساسيا للنهضة، لذلك أنشأ المدارس لتعليم القبائل مجانا، فكان أول من جعل التعليم مجانا في العالم العربي وكانت المدارس تعلم الأطفال العبادات وحفظ القرآن، وفروض الإسلام والقراءة والكتابة والحساب[5]، كما أنشأ المدارس والمساجد والزوايا في أنحاء الوطن، وأسّس نظاما تعليميا بين جميع القبائل[6] أساسه القرآن في جميع

1- بالإستطراد مع آراء الأمير وإتجاهه الثقافي أو العرفاني، يشترط أن يستجيب المثقف أو العارف إستجابة فعالة لما يثقفه، فإنما تكتسب النظرية قيمتها بالتطبيق، حتى يظهر أثر ما رحق المتعلم فيما يفرزه من أساليب جامعة للتفكير والتعبير والسلوك، تصلح بالفعل (تطبيقي)، لا بمجرّد القول (تنظيري)، تلبية لحاجة الإنسان للإجتماع والعمران عبر الأجيال، وفعلا هكذا كان الأمير عبد القادر ينظر ويطبّق. ينظر: - محمد السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري وثقافته وأثرها في أدبه، الطباعة الشعبية للجيش، د.ط، الجزائر، 2007، ص6.

2- محفوظ قداش، الأمير عبد القادر، سلسلة الفن والثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، 1974، صص50،51.

3- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص49.

4- يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص140.

5- أحمد كمال الجزائري، المفاخر، المرجع السابق، ص24.

6- يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص140.

-بلغ عدد المدارس التي بناها بتلمسان حوالي خمسين مدرسة إبتدائية ومعهدان كبيران للتعليم الثانوي والعالي، مدرسة الجامع الأعظم، ومدرسة اولاد الإمام. ينظر: - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص152.

مراحل التعليم الإبتدائي والثانوي والعالي،[1] وكان الذين يريدون أن يواصلوا تعليمهم بعد ذلك يرسلون إلى الزوايا والمساجد حيث يتعلمون بدون مقابل، وهناك يجدون الطلبة على استعداد لتعليمهم التاريخ وعلوم الدّين، كما خصّص للطلبة على حسب معارفهم ودرجاتهم، هذا ما شجّعهم على طلب العلم، وأعطى للمدرّس مرتبة عالية في المجتمع وحثّهم على احترام أهله، وجعل من المدرسين أعزّ المساعدين له في المهمة المقدسة التي رسمها.[2]

كان الأمير يولي إهتماما كبيرا للعلم، فعمل على تشجيعه،[3] من أجل إخراج نخبة من الطلبة قادرة على إستيعاب مشروعه الحضاري التجديدي، الهادف إلى فك الخناق عن التجديد الفكري، باعتباره كمنطلق للنهضة الحضارية والخروج الواعي بما نسمّيه بالغفلة المعرفية،[4] وكان يؤكد على إتباع الأخلاق الحسنة والتحلي بالمحاسن والفضائل، وبذل الجهود الجبارة في إصلاح الآداب العامة وتهذيبها، وشدّد على الناس في استصلاح عامة الأخلاق، وحثّهم على حسن السلوك وفرض عقوبات صارمة على شاربي الخمور ولاعبي القمار خاصة العسكر،[5] ومنع استعمال الدّخان لكونه إسرافا من دون فائدة سيما الفقراء، ومنع الرجال من استخدام الذهب والفضة إلاّ في الأسلحة وعلى الخيول، وأمر بالصّلوات الخمسة أن تكون في الجوامع، ومن وجد في دكّانه وقت الصلاة يجلد، وعيّن مأمورين لذلك، ومنع النساء من دخول الجوامع، وأحدث أمورا محسنات للإمارة لم تكن موجودة في أيام من سلفه من ملوك المغرب[6]، وأمر بطلب العلم وباحترام أهله، فكثر النفع وعمت الفائدة في جميع المقاطعات.

ب.1.5.نظام التعليم:

كان نشر التربية والتعليم في الجزائر على النمط الحديث من الإنشغالات العامة للأمير لهذا عمل على تنظيم مختلف مستوياته وأطواره وفق ما يلي:

1- قال الأمير عبد القادر في هذا الصدد : "...واجبي كحاكم ومسلم أن أؤيد وأبعث العلوم والدين، لذلك فتحت المدارس في المدن وفي القبائل، وفي هذه المدارس كان الأطفال يتعلمون الصلوات ويحفظون تعاليم القرآن وفروضه، ويعرفون جيدا القراءة والكتابة والحساب...".ينظر:
- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص152.

2- Azan (P), L’émir Abdelkader, op-cit, p135.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص150.

4- محمد الطيبي، الرواية المعرفية والتدبير السياسي، قراءة في الإرهاصات الجيو سياسية للفكر الأميري، ضمن كتاب تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، تأليف جماعي، دا رالقدس العربي، ط1، الجزائر، 2000، صص61،62.

5- يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح، المرجع السابق، ص142.

6- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص258،259.

الطور الإبتدائي: مدتها أربعة سنوات تقريبا، يتعلم الطفل خلالها مبادئ القراءة ويحفظ القرآن،[1] وقد تمّ بناء المدارس في المدن والكتاتيب وفي القرى، حيث وضع في كل قبيلة من القبائل خيمة تدعى "الشريعة" يشرف عليها مؤدب يختاره سكانه، وينال نحو فرنكين أجرة في اليوم.[2]

كما استعان في هذا الطور بالزوايا خاصة، وعمل على تطويرها وتزويدها بكل ماتحتاج إليه من أسباب المعرفة ووسائلها، سواء تعلق الأمر بالمعلمين أو الفقهاء أو الكتب والمراجع، وذلك لأنها كانت الشبكة التربوية الوحيدة المتاحة آنذاك لمواجهة متطلبات المرحلة[3].

مرحلة الثانوي:

يلتحق التلميذ بعد ذلك ليواصل تعليمه مجانا في الجامع أو في مدرسة ملحقة بالأوقاف يشرف عليها مدرّس وكانت الدروس تشمل النحو وتفسير القرآن خاصة، وما ينال الإجازة يصبح مؤدّبا أو كاتبا.[4]

مرحلة التعليم العالي:

ليس هناك فصل واضح بين الثانوي والعالي، فالأستاذ الذي يدرس في هذه المرحلة يسمى عالما، ويتقاضى أجره من الأوقاف، وكانت الدروس تتألّف من النحو والحساب والفلك والتاريخ وتعطى في الزوايا وأهم الجوامع.[5]

يضيف الأمير عبد القادر في هذا الصدد قائلا: "... لكي أساعد الطلبة على دراساتهم، بذلت أقصى الجهود في المحافظة على الكتب والمخطوطات من الضّياع، وكان هناك أكثر من سبب يحدوني إلى بذل هذه الجهود، ذلك أنه بالنسة إلينا، يلزم المرء عدّة شهور لكتابة نسخة واحدة، ومن أجل ذلك أعطيت أوامري المشددة في جميع المدن والقبائل أن يبذلوا عناية قصوى في المحافظة على المخطوطات...".[6]

1- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص70.
- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص88.
2- المرجع نفسه، ص88.
3- جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر... إلى عبد القادر، دار القصبة للنشر، د.ط، الجزائر، 2008، ص75.
4- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص88.
- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص71.
5- المرجع نفسه، ص71.
- صالح بن النبيلي فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص88.
6- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص152.

لقد كان جنوده يحرصون على إحضار كل ما تقع على أيديهم من مخطوطات أثناء الغزوات، وعليه تمكّن من جمع مجموعة ضخمة من هذه المخطوطات ووضعها في أماكن أمينة في الزوايا والمساجد، وأوكلها إلى الطلبة الذين كانوا موضع ثقة،[1] وبالتالي أصبحت له مكتبة إسلامية خاصة، يذكر إسماعيل العربي أن مكتبته في الزمالة حسب بعض المؤرخين كانت تحتوي على العديد من المجلدات بما لا يقلّ عن خمسة آلاف مجلّد، لولا استيلاء الجيش الفرنسي عليها وكان هذا أكبر ما تألّم عليه عبد القادر من ضياع مكتبة.[2]

مهما يكن فإن التنظيم المحكم للمنظومة التعليمية للأمير، وتقديره وعنايته التي كان يخص بها علماءه وطلبته تعطينا صورة صادقة لتجربة الحداثة العربية الإسلامية للقرن التاسع عشر ميلادي (19م) في الجزائر.

ج. القيم الإنسانية والأخلاقية لدى الأمير عبد القادر:

الأمير عبد القادر من أشد الناس تمسّكا بالدّين والعمل وفق مبادئه الحسنة، هذا إلى جانب مجهوداته المتواصلة من أجل تركيز هذا الدين بين مختلف طبقات الشعب بشتى الوسائل والإمكانيات المادية والأدبية، والفضل في ذلك يعود إلى نشأته في الوسط الديني بين أحضان عائلة متدينة لها سطوتها الروحية على قبائل الجهة وعروشها، ولاشك أن شدة التأثر بمبادئ الدين والتكوين الأسري المحافظ هو الذي يكيف المرء تكييفا قوميا، فالأمير ممن أودع الله فيهم صفة الإنسانية والتي محضته لخدمة شعبه .

كما كان الأمير عبد القادر يولي اهتماما كبيرا بجنوده، فقد اعتمد على سياسة مجاهدة النفس مع جنده وعلى البساطة والتواضع وكان يعتمد كثيرا من أجل ترويضهم على الشعارات الدينية المشجعة، ولعل الجدير بالذكر أنه كان حريصا على سلامة صحتهم لدرجة أنه كان في كثير من الأحيان يخاطر بحياته من أجل إنقاذ الجرحى في أرض المعركة،[3] كما قام ببناء المستشفيات لمعالجة المرضى المدنيين والعسكريين على السواء[4] إضافة إلى بنائه للمستوصفات في المقاطعات، ومشافي تنتقل مع الجنود في المعارك من أجل إسعافهم، وعين لكل مشفى أربعة أطباء ذوي خبرة وكفاءة

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص153.

-محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص258.

2- إسماعيل العربي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص31.

-قام جيش الإحتلال الفرنسي بحرق المكتبة الضخمة التي تحتوي على أهم المخطوطات والمتواجدة بالزمالة، العاصمة المتنقلة الجزائرية، وأحرقت يوم 16ماي 1843م بقيادة الدوق دومال(Daumal)، فبعد عودة الأمير إلى الزمالة كان يلاحق شتات أوراق الكتب المعتبرة التي عانى في جمعها. ينظر:

– Bellemare (A), Abed-el-Kader sa vie politique et militaire, op-cit, pp125,126.

-محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص258.

3- رابح تركي، من أعلام الجهاد الإسلامي في الجزائر، المرجع السابق، ص118.

4- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص61.

يرأسهم طبيب متمرس في الميدان،[1] وكان هؤلاء الأطباء يتقاضون راتبا ثابتا، يدفع لهم من بيت المال، وقد كانت مهمتهم تقتصر على تجبير العظام وتضميد الجروح، عما صمم الأمير على تأسيس مدرسة للطب، واعتمد في ذلك على مجموعة من الأطباء من خارج الوطن كالأطباء التونسيين، وأنفق أموالا كبيرة لشراء الكتب العلمية الطبية لنقل العلوم الطبية في المعاهد للطلبة المتفوقين بالاعتماد على هؤلاء الأطباء ذوي الكفاءة العالية،[2] لكن عمر إمارته القصيرة وقلة الأموال حال دون تحقيق ذلك.[3]

يذكر "قدور بن رويلة" في كتابه "وشائح الكتائب" أن الأمير كان يرأف كثيرا بجنده لدرجة أنه وضع قانون واضحا خاصا بالجرحى والمرضى وعائلات الشهداء، إذ يذكر في أحد بنوده عن المعطوبين في الحرب :"...إن تعطل بالكلية فإنه يجري عليه راتبه حتى يموت...".[4]

ليس هذا فحسب حتى أنه كان يهتم بغذائهم وملبسهم، وها هي شهادة لهنري تشرشل يقول فيها:"...قدم على عبد القادر جنوده فرحين بإيجادهم لقطيع من الغنم، وألحوا عليه ليتناول وجبة طعام دسمة لكنه قال خذوها إلى جنودي الذين يكادون يموتون جوعا وعاد هو إلى ثمار البلوط...".[5]

أما عن الألبسة فكان يصنعها لهم من الكتان هذا فيما يخص الجنود، أما الضباط فكانت من الجوخ وفي حال تلفها كان يجددها لهم دون مقابل.[6]

ما يجب التأكيد عليه في هذه المواقف الأميرية، هو أن إنسانيته جوهرها قائم بذاته، وليس عرضا من الأعراض الانية، إنما شعور مستقل عن الذات، متعال من روحه عن الأحوال والتقلبات، فهي لم تتأثر بالظروف الخارجية، بل بقيت كما هي بالرغم من الصدمات التي كان يصادفها.

فالجندي الأميري مثلا كان في حروبه مطالبا باحترام خصومه في حالات ثلاث: إذا ألقى بسلاحه، أو استسلم للأمر، أو اعترف بهزيمته.

القاعدة الأولى عند عبد القادر: هي أن العدو مهما كانت شدته، لما يجرد من السلاح يصير إنسانا يتوجب إحترامه.

1- Christian (p), L’Afrique française l’empire de Maroc et les déserts de Sahara, conquêtes victoires et découvertes des Français depuis la prise d’Alger jusqu’à nos jours, Robarts, Toronto, paris, 1846, p390.

2- بديعة الحسني الجزائري، ناصر الدين، المرجع السابق، ص120.

3- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص84.

4- قدور ابن رويلة، المصدر السابق، ص43.

5- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص211.

6- عبد القادر دحدوح، إستحكامات الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص33.

والقاعدة الثانية: هو أن الحياة أغلى ما يتملكه الإنسان في الوجود ولما يتاح للمرء أن يعفو فالعفو من الرحمة[1] تلك هي الأخلاقيات الحربية التي لقنها الأمير لجنوده، ساعيا من وراء ذلك على ترسيخ وتفعيل الشعور الإنساني لديهم إلى حد المكافأة بالمال لمن يحافظ على الأسير.

تذكر الكثير من المؤلفات الأجنبية عن معاملة الأمير للأسرى وعن أخلاقياته القتالية وايمانه وشخصيته المتزنة ولعل من أهم المواضيع التي ذكرها "محفوظ قداش" في مقال له باللغة الفرنسية وهي عبارة عن وثائق بها شهادات من الأسرى الفرنسين منها مثلا: شهادة الكابتن "موريزو" الذي تكلم عن حادث أسره فقال"...بعد ساعات فتحت عيني فوجدت نفسي في معسكر سيدي مبارك بن علال، ولم أكن أصدق ما حصل لي إذ كنت أحتفظ برتبي وأيضا بوسام الشرف...وشعرت أنني في مأمن داخل الخيمة ...".[2]

كما يقول هنري تشرشل أيضا في كتابه "حياة الأمير عبد القادر" ترجمة :أبو القاسم سعد الله "...إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداها "عبد القادر" نحو الأسرى ليس لها مثال في تاريخ الحروب ،فكبار الضباط المسيحيين عليهم أن يجلسوا عند قدميه وأن يتمسحوا بها لانحطاطهم في المعاملة..."[3] فعبد القادر كان يعامل أسراه كضيوف لا كأسرى كونه كان متشبعا بقوانين الشريعة الإسلامية السمحاء ذات السلوك الحضاري الثقافي، الذي لا يفرق بين الناس إلا بتقواهم. وتمظهرت إنسانيته وسلوكياته الأخلاقية وفروسيته عندما منع قطع الرأس والأذن والوحشية التي كانت تمارس في حق شعبه من طرف العدو الفرنسي.

قصة الأمير مع الأسرى لا تنتهي فقد أخذت منحى إنساني أوسع، فعندما طلب منه أسقف الجزائر "ديبوش" سنة 1841م، إطلاق سراح أحد الأسرى أجابه الأمير عبد القادر وهو في أوج القوة والسلطان:"...إسمح لي بأن أقول لك: أنه بحكم كونه خادما لله وصديقا للرجال الذين هم أيضا إخوتك، إنه كان عليك أن تطلب مني إطلاق سراح ليس واحدا فقط، ولكن كل المسيحيين الذين وقعوا في الأسر منذ استئناف الحرب...".[4]

بالرغم من شراسة الحرب وعدوانيتها وقسوتها فهي لم تفقد من عزيمة "الأمير عبد القادر" في رفع شعار الإنسانية إلى أعلى مقام، فمواقفه الشهيرة لمعاملته الراقية للأسرى زادت من قيمته التاريخية، فتشبعه بقيم الحضارة الإسلامية منذ صغره بكل معاني الرقي أدى به إلى تطبيق قوانين كما لو عاشها مع الرسول عليه السلام،[5] واهتمامه بغذاء جنده

1- أحمد ملاح، الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص104.

2- الأميرة بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، صص55،56.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص61.

4- المصدر نفسه، صص101،102.

5- علي عزوزي، الأمير عبد القادر والأسرى، الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية، عدد خاص، دار الأمة، 2001، ص192.

كما كان يعمل داوود عليه السلام، كلها قيم إسلامية اقتدى بها الأمير وطبقها في حياته، يذكر أيضا أنه حتى النّساء الأسيرات كان يكن لهن احتراما شديدا، لأن في نظره أن إقحام المرأة في الحرب يعد في حد ذاته مصدر قلق دائم له،[1] وكانت زوجته وأمه تعتنيان بالأسيرات، فأمه كانت خيمتها قريبة من خيمهن المحروسة من طرف الزنجيات، وكانت كل صباح تهديهن الزيت والزبدة واللحم، وكانت عنايتها بالمريضات شديدة، إذ تمنحهن القهوة والسكر والشاي وكل شيء ليخفف عنهن الألم،[2] أما عن زوجته فهي الأخرى كانت تسهر على أمنهن وتقدم لهن المأكل والمشرب والعلاج لهن.

لقد كان الأمير في نظر الأسرى عدوا كريم الأخلاق، وكل من كان أسيرا عنده قد أثنى عليه،[3] فقد وصف أحد الأسرى معاملة الأمير لهم مبينا تواضعه معهم قائلا:"...عندما مررت بالسلطان حياني بجلال فريد، وابتسامة مدهشة وأشار إلي بيده بالجلوس ثم سألني رأيي في بناء التحصينات، فأجبته أنها تظهر لي جيدة..."،[4] هذا يدل على حرية تنقل الأسرى في معسكر الأمير، فهم يتمتعون بحماية تامة.

إن مواقف الأمير كلها مواقف كريمة وشجاعة ونادرة في تاريخ الحروب، هذا ما يؤكد حكمته ووزنه للأمور التي ورثها عن أبيه "محي الدين"، صحيح أن التنشئة والبيئة الأسرية لها تأثير كبير في نضوج عبقرية الأمير العسكرية والأدبية وخاصة الإنسانية، فقد أجمع المؤرخون من أجانب وأنصار على أن سلوكياته تتسم بالفروسية والإباء والإنسانية، بدليل أنه كان يتقيد بقوانين الحرب في الإسلام وبالشريعة التي فرضها الله عز وجل.

كما أن من أهم المواقف الإنسانية التي سجلها "الأمير عبد القادر" هي أثناء إطفائه نار الفتنة الطائفية بلبنان ودمشق خاصة. والتي تسمى: "مجازر 1860 في بلاد الشام". وهو صراع في لبنان قام بين الموارنة من جهة والدروز والمسلمين من جهة أخرى، بدأ الصراع بعد سلسلة من الاضطرابات توجت بثورة الفلاحين على الإقطاعيين وملاك الأراضي . وسرعان ما امتد إلى جنوب البلاد حيث تغير طابع النزاع، فبادر الدروز بالهجوم على الموارنة. بلغ عدد القتلى من المسيحيين حوالي 20,000 كما دمرت أكثر من 380 قرية مسيحية و560 كنيسة، وبالمثل تكبد الدروز والمسلمون خسائر فادحة كذلك. لهذا لم يتردد الأمير في حماية أهل الذمة حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية ففتح إقامته وإقامات أتباعه لاستقبال النصارى المهددين في حياتهم، ويعود الفضل إليه في إنقاذ خمس عشرة الاف فرد منهم[5]، وأثناء ذلك

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص203.

2- المصدر نفسه، ص204.

3- صالح فركوس، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص28.

4- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص138.

5- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص71.

تصدى للفتنة والتي كانت نكبة حقيقية طالت بلاد الشام، بسبب الحرب بين الدروز والموارنة لولا تدخله وايقافه نار الفتنة.[1]

من هنا يمكننا القول أن إنسانية "عبد القادر" لم تعم بمنفعتها الوطن فحسب، بل على العالم ككل رغم تباعد الأديان والمسافات، فهو رجل عصره وبطل من أبطال تاريخ هذه الأمة المكينة، جمع بين السيف والقلم ليؤسس دولة جزائرية حديثة وكان لموقف الأمير الإسلامي الإنساني في هذه الفتنة، صدى في الأوساط العالمية. فأتته رسائل شكر مصحوبة بالأوسمة وشارات الفخر والتقدير من جميع ملوك ورؤساء الدول العالمية. ونوهت به كبريات الصحف العالمية وأشادت بخصاله الكريمة ومواقفه الإنسانية.[2]

إن الذي يبحث عن عظمة الأمير، وقدرته الحربية والسياسية والإنسانية يبقى مندهشا، نظرا لما وصل إليه من مكانة خلال مراحل طويلة من الكفاح، والذي وضعته في قمة البطولة والمجد، وإذا بحثنا عن مصدر عبقريته نجدها في أمرين إثنين إحداهما فطري طبيعي كونه من عائلة شريفة، عظيمة الشأن كريمة المنشأ، والآخر وضعي مكتسب كونه قاد حروبا طاحنة ومعارك عنيفة طيلة سبعة عشر سنة ضدّ دولة عظمى وجيش منظّم.

إنّ جوانب النبوغ والبداهة والحنكة في شخص الأمير لا تخطيها جملة من القيم الإنسانية التي أشرنا إلى معظمها، فخصاله الحميدة وأخلاقه الرفيعة وحكمته ودهاؤه وغيرها من جوانب العظمة تحتاج إلى أقلام مؤرخين أكفاء من أجل أن يخطوا أقلامهم لإزاحة غطاء التغافل عن ذكر واقع حياة رمز اجتمعت عنده ملامح النبوغ والفطنة والإكتمال لدرجة وصفه بالرجل الظاهرة، كونه كان وطنيا جزائريا يعشق شعبه، ولعب دورا بارزا في قيام أمتة، وكونه كان إنسانا يمثل تماما روح الجزائر.

د.نهاية المشروع النهضوي الأميري في الجزائر 1847م-1852م:

لقد أشارت المصادر التاريخية أن الفرنسيين منذ البداية جاؤوا بمشروع مضبوط يتمثل في النظام الإحتلالي وبسط النفوذ والسيادة والقانون الفرنسي، بالإضافة إلى تفكيك البنية القبلية، وبذلك يمكن إبتلاع الوطن أرضا وشعبا وتاريخا وهوية، واستبدال شعب بشعب آخر، غير أنهم وجدوا في قوة المقاومة الشعبية صلابتها، خاصة بعد النظر السياسي للأمير عبد القادر، فمرجعيات السلطان الأميري فلسفة سياسية وتنظيما للإجتماع وقيادة للجهاد، إذ هي اللّبنة الأساسية تفانى الأمير في بلورتها، كمرتكز قوة وتعامل يؤنس به أهل الجزائر، في ظروف كانت مصائرهم الكبرى معلقة تهددها مخاطر تتجاوز هزائم الحرب، لتمتد إلى ما يسمى لعبة الأمم العظمى الساعية إلى تغيير خارطة العالم الإقتصادية والسياسية والثقافية، فأمام محاولات القوات الفرنسية لتحقيق أهدافها، وجدوا صعوبة في ذلك، فالواقع فرض عليهم التعامل

1- أحمد توفيق المدني، الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سوريا المحزنة والدولة العثمانية، 1860م-1983م، عدد خاص، الجزائر، 1983، صص7،8.
2- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص72.

مع هوية سياسية وسيادية وشرعية جديدة في الجزائر، "الأمير وخلفائه" الذين اعتبروا كحد للمشروع الفرنسي في الجزائر، الذي عمل جاهدا لإجهاض الدولة وتفكيك التضامن الشعبي حوله، وتقويض الطاقة العسكرية للأمير.

وهكذا تنامت قوات الإحتلال الفرنسي داخليا "عدة وعتادا، ماديا ومعنويا"، وسخّروا كل هذه القوة من أجل إنهاك المجتمع وإختراقه بالمعارك والحروب، خاصة بعد حصولهم على مساعدات أوربية، فاستخدمت من أجل تفكيك خطة الأمير لتحقيق مشروعه النهضوي في بناء دولة جزائرية حديثة، مستقلة بذاتها، أو كمشروع قائم بصفة من الصفات سياسة قاسية واستبدادية لقطع كل وسائل تموينه ماديا وعسكريا، إضافة إلى سياسة الإبادة والتقتيل الجماعي، ومصادرة الأراضي أو ما يسمى بسياسة الأرض المحروقة التي إنتهجها الجنرال "بيجو"،[1] منذ وصوله إلى الجزائر (1840-1847)م

1- ولد الجنرال "بيجو" بتاريخ 15 ديسمبر 1775م في مقاطعة لادورانتي وهو من مواليد "ليمونج"، القي بوالده في السجن عام 1793م أثناء الثورة الفرنسية لأنه من نبلاء "بيريغورد"، توفيت والدته و هو في سن 12 من عمره أي عام 1796م من أصل أيرلندي، أخذته أخته للعيش مع فلاحي"دوردونيو"، وتربى تربية الريفي ذو العزيمة القوية التي تكسوها الكثير من القسوة خاصة وأنه تربى يتيما، كما كانت من بين طموحاته الإلتحاق بالجيش من أجل تحقيق غاياته والوصول إلى أعلى المراتب ، لذلك التحق بالجيش الفرنسي وهو في سن العشرين من عمره ، حارب في معركة "أوستر ليس"1805 م،وتحصل على رتبة ملازم أول، وشارك في حملات بروسيا، بولونيا، ثم إلى إسبانيا التي حارب فيها لمدة ست سنوات وتوصل إلى رتبة عقيد، ثم حارب النمساويين وتغلب عليهم بعد معركة عنيفة عام 1815م، توج برتبة قبطان وتلقى تدريبا خاصا في القمع والإجرام في عهد "نابليون الأول"، لذلك كان حكمه يمثل الصورة القاسية ومخططاته تضمن الإضرار بالسكان في أرزاقهم وممتلكاتهم ومحاصيلهم، كما رقّاه" لويس 18"إلى رتبة كولونيل في 1814م،حينما كانت قوات الحلفاء تحتل فرنسا، ترك الجيش برتبة عميد في منتصف ماي 1815 م،حين فصل من قبل "بوربون"، فانسحب إلى ممتلكاته ب"Excideuil "،حيث عمل مزارعا حتى 1830م، وبعد ثورة جويلية عاد للنشاط العسكري يوم 08 سبتمبر 1830م، وفي هذه الفترة عين ماريشالا ثم نائبا بالغرفة، فالجنرال "بيجو" ولد كمحارب في وسط فلاحي قاس، تربي يتيما كما ذكرنا وتعلم الإعتماد على نفسه، له صفات رجل سياسي وإداري، ففي إقليم وهران دعم الجيش الغازي، واتجه بقواته إلى التافنة وبدأ بتكتيك جديد وهو الهجوم، فقد حارب قوات المقاومة الجزائرية تحت راية الأمير عبد القادر في معركة السكاك في 06 جويلية 1836م، فوجد من الجزائر الفرصة لتحقيق غاياته والوصول إلى رتبة جنرال بشتى الطرق خاصة وأنه كان يتفنن في ارتكاب المجازر، فرقي بعدها إلى رتبة جنرال في أوت 1836م، ثم فاوض" الأمير عبد القادر" على اتفاقية التافنة في 30 ماي 1837م، وفي أوائل سنة 1841م عين حاكما عاما للجزائر حتى أواخر 1847م، وأصبحت مناوراته ضد العرب بارزة، فقد أصبح يوسع الإحتلال بتوزيع الأراضي على المعمرين ،كما كان يساهم بنفسه في إحراق القرى و تخريب المزارع، في الوقت الذي عكف فيه على صياغة نظرياته الإستعمارية التي ستخدم الحكومات الفرنسية المتعاقبة منها في الأجيال المتتالية، التي تقوم على القمع و الاستيلاء على أراضي السكان بدون تعويض، فاستمرار المقاومة الريفية شكل عائقا أمام السلطات الفرنسية الاستعمارية التي كانت تريد المزيد من الأراضي فكان إرسال" بيجو" إلى الجزائر سنة 1840م، دليل على إسرار الحكومة الفرنسية على تسريع تنفيذ مشروعها الاستيطاني لذلك اعتبر الغزو طريقة حربية مشروعة وضرورية ، فكل شيء يقف أمام الوصول إلى هدفه كان لزاما عليه أن يزيله مهما كان الثمن ، ثم عاد بعدها إلى فرنسا ليصاب بالكوليرا في 06 جوان 1849م ليموت بها بعد ثلاثة أيام.
ينظر: - بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق ، ص115.

-Narcisse Faucon, Le Livre D'or de L'Algérie challamel et Editeurs, paris, 1889, pp 140-143.

-Augustin (B), Histoire des colonies Francaises et L'expansion de la France dans le monde, T2, L'Algérie, éd. Alcan, Paris, 1929, p208.

- Azan(P), L'émir Abdelkader, op-cit, pp 81- 83.

- للمزيد من التفاصيل حول بيجو ينظر:=

إضافة إلى سياسات أخرى إبادية طبقها جنرالات فرنسا في الجزائر، وعليه ضعفت قدرة الأمير العسكرية في نفس الفترة (1840-1847)م، عدة وعتادا، خاصة بعد نقض الفرنسيين لمعاهدة التافنا 1837م، وعودة الحرب من جديد بين الطرفين، وكانت هذه المعارك الأخيرة بين قوات الأمير عبد القادر وقوات الإحتلال الفرنسي.

د.1. إحتضار جيش المقاومة الجزائرية وتخلي السلطة المغربية عنها:

حاول الأمير عبد القادر إعادة تنظيم جيشه من أجل مجابهة قوات الإحتلال الفرنسي، خاصة بعد نقضهم لمعاهدة التافنا 1837م، وإحساسهم بخطورة نشاطات وتحركات الأمير على مصالحهم الحيوية بالجزائر، إذ لم يرتح لهم بال حتى وجدوا مبررا للعودة إلى الحرب، فارتكبوا إثر ذلك مجازر فظيعة وخربوا القرى والمداشر، وأجبروا الأمير على الانسحاب إلى الجنوب بعاصمته المتنقلة الزمالة،[1] وأخذوا يلاحقونه ويطاردونه، حتى هاجمه "الدوق دومال" في 16 ماي 1843م في معركة طاقين،[2] وكانت نتيجتها سقوط حوالي ثلاثة آلاف شخص بين قتيل وأسير، وفقد الأمير معظم مؤنه وذخائره، ومكتبته الخاصة، وكاد أن يقع في الأسر، فاضطر بعد مطاردة دامت حوالي سبعة أشهر للجوء إلى قواعده الخلفية بالمغرب، مع من تبقى معه من الجيش الشعبي الوطني، بعد القضاء على العاصمة المتنقلة الزمالة[3]، فلم يبقى للأمير بعد القضاء

=- Julien (Ch- A), Histoire de l’Algérie contemporaine, op-cit.

- Bounnafont, Douze ans en Algérie ,1830- 1842, E.D.E. paris, 1880.

-Rozet ET Carette, L’Algérie. F.F.E, paris, 1850.

1- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، المرجع السابق، ص48.

2- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص449.

طاغين: هي هضبة فسيحة بالجنوب الجزائري تبعد عن مدينة الجزائر ب288كم، تسمى حاليا زمالة الأمير عبد القادر، وبها فاجأ الجيش الفرنسي بقيادة الدوق دومال بتاريخ 14 جوان 1843م عاصمته المتنقلة الزمالة. ينظر: - الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص173.

3- لقد كانت صدمة الزمالة قوية الوقع على الأمير، فوصفها بقوله: "...كنت قرب تاقدمت أراقب الحامية الفرنسية القريبة مني (وهران)، عندما قام الفرنسيون بهجومهم المباغت على الزمالة، كان معي ألف وخمسمائة فارس، وكان ابن خروبي مع فليته، وبن علال في الونشريس، ومصطفى بن التهامي ببني ورغة، ولم أكن أبدا أتوقع نكبة كالتي حدثت من جهة المدية، ولم يكن أحد من خلفائي يراقب تحركات ابن الملك دوفال، ولكن رغم ذلك كله، لم نكن لنباغت بالحادث لو أن الله لم يطمس عيون شعبنا، فقد اعتقد أهل الزمالة، عندما رأووا جنود – الصبايحية – متقدمين ببرانسهم الحمراء، أن هؤلاء هم جنودي غير النظاميين عائدين بل أن النساء قد رفعن أصواتهن بالزغاريد ترحيبا واحتفاءا بهم، ولم يشعرن بخيبة الأمل إلا بعد إطلاق النار، ثم تلا ذلك إضطرابا لا يوصف شل جميع جهود الذين حاولوا الدفاع عن أنفسهم، ولو كنت حاضرا لكان علينا أن نحارب من أجل نسائنا وأطفالنا، ولعاش الفرنسيون يوما لن ينسوه، ولكن الله أراد غير ذلك ولم أسمع بالنكبة إلا بعد ثلاثة أيام من حدوثها، وكانت الفرصة عندئذ قد ضاعت..." ينظر:

- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص144.

- يذكر محمد ابن الأمير عبد القادر في مؤلفه، أن موضع طاغين لم يكن وقتئذ من حاميتها سوى خمسمائة جندي من ضعفاء العسكر، وقد إغتروا بالمكيدة العظيمة التي أجراها ابن الملك بإشارة "عمر العيادي" المرتد، وهي إلباس فرسانهم بلباس الخيالة المسلمين، فلما اطّلعوا على الزمالة من بعيد ظنّ الناس أنهم طلائع الأمير فاستبشروا وخرجوا إلى لقائهم بالتهليل والتكبير فما قربوا منهم حتى أظهرت جيوش العدو قساوتها المعروفة، وهكذا وقعت الفاجعة.=

على زمالته سوى ثلاثمائة فارس، وعائلته، وبعض الفرسان من قبائل الحشم، الذين بقوا بالونشريس، ومصطفى بن التهامي ببني وراغ، ولكنه رغم الخسارة الكبيرة التي مني إلا أن جيشه وخلفاءه واصلوا مقاومتهم لقوات الإحتلال الفرنسي[1].

أما "بيجو Bugeaud" فقد كتب إلى حكومته: "...بعد حملة الربيع 1843م، كان باستطاعتي أن أعلن بأن إحتلال الجزائر وإخضاعها قد إنتهى، غير أنني فضلت أن أذكر ما هو أدنى من الحقيقة، ولكن الآن، وبعد معركة 11 أكتوبر، والتي قضي فيها على بقية مشاة الأمير وقتل فيها أول وأشهر خليفة له (بن علال)[2]، فإني أعلن على الملأ وبكل جرأة، أن كل قتال جدي قد إنتهى، حقا أن عبد القادر قد يقوم بخفته الفرسان الذين ما يزالون معه ببعض الحركات المباغتة المعزولة على الحدود، ولكنه لن يحاول أبدا القيام بأية حركة هامة من جديد...".[3]

=ويضيف تشرشل: أن سبب الفاجعة يعود إلى خيانة الشيخ عمر العيادي بن فراح من بني عيادة، فقد عرض خدماته على الفرنسيين لإرشادهم إلى المكان الذي تعسكر فيه الزمالة بالضبط. ونتيجة لهذه الخيانة وصلت جيوش الدوق "دومال" (Daumale) الزمالة عند نبع طاغين، ووقعت الحادثة واحتلوها في ربيع 1843م. ينظر: - محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص365.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص274.

- مسعود مجاهد، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص337.

1- بعد سقوط الزمالة في 16 ماي 1843م، وبقي معه عدد قليل من القبائل والمقاتلين، أعاد الأمير تكوين عاصمته المتنقلة، وصارت تسمى الدائرة، ولكن سكانها لم يتجاوزوا الألف نسمة، وتمتد خيامها من نبع طاغين إلى سفح جبل عمور، وقد تحدث المشرفي عن الدور البارز الذي لعبته دائرة الأمير في مقاومة المحتل فقال: "...ودائرة أميرنا الحاج عبد القادر، إنتقلت إلى نواحي وجدة بخيلها ورجالها، ولم تترك غزوا على عدوها، وكانت تغنم من الروم الغنائم بحيث لا تخلوا غزوة من قتلى وأسرى..."، لأنه لما اشتدت محاصرة الجيش الفرنسي لتحركات الأمير إنتقل بدائرته إلى الحدود المغربية، أين أقام حول نهر ملوية وراء جبل بني يزناسن حوالي 80كلم جنوب شرق وجدة، وظلت من هناك تقوم بعمليات هجوم على الجيش الفرنسي، ويحاول من خلالها تخفيف الضغط عن خلافائه في داخل الوطن، وكان كلما زاد عليه الضغط من طرف الفرنسيين يدخل إلى القطر المغربي ليزوّد جيشه بالأسلحة والمؤن والذخيرة، وكانت بعض القبائل المغربية الصحراوية قد دخلت تحت ولائه هذا كله دليل على حنكة وعبقرية هذا البطل، ودليل إيمانه بتمسكه بشعبه، وأنه سيعيد ترتيب الجيش من جديد، وأن بإمكانه أن يعطي نفسا جديدا للمقاومة المسلحة، وأن النصر سيأتي بإذن الله. للمزيد ينظر: - عبد المنعم القاسمي الحسني، الأمير عبد القادر من خلال مخطوط نادر لأبو حامد العربي المشرفي، ذخيرة الأواخر والأوائل فيما ينتظم من أخبار الدول، الملتقى الدولي الخاص بالأمير عبد القادر، الجزائر، ماي 2005، ص9.

- Rozet et corette, L'Algérien, op-cit, p649.

- يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832م-1847م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2014، ص61.

2- في السادس من شهر أكتوبر 1843م، توجهت قوات بقيادة الجنرال "تامبور" إلى أراضي الجعافرة لقتال "بن علال"، وكانت قوات العدو حوالي ألف ومئة وثلاثون بين مشاة ورماة وفرسان، أما قوات بن علال فكانت سبعمئة فارس، ولكنهم لم يصمدوا أمام الجيش الغفير فاستشهدوا من الجزائريين الكثير ومنهم الخليفة بن علال وعين مكانه ابن أخيه "قدور بن علال". ينظر:- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص172.(بتصرف).

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص392،393.

- Roche(L), op-cit, pp379-380.

-ويذكر الآغا بن عودة المزاري، أنه لما قتل بن علال أجتز رأسه وأوتي به لوهران في شكارة من الجلد فيما يقال، وأن الأمير لم يظهر له خبر البيان منذ الواقعة -كونه تألم كثيرا لوفاته- فظهر في واقعة بني أهذيل بنواحي تلمسان، ويذكر أن الواقعة حصلت يوم 21 نوفمبر 1843م. للمزيد ينظر:

- بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص217.

3- Azan(P), L'Emir Abdelkader,op-cit, p75.=

بعد أن اتخذ الأمير من حدود المغرب قاعدة لغزواته في الجزائر لفترة من الوقت، ثم انسحب إلى الأرض المغربية[1] أدى بالقوات الفرنسية لتكوين فرقة عسكرية ضخمة بقيادة الجنرال "لاموريسيير Lamoriciére"، من أجل إحتلال الجزء الذي ينطلق منه عبد القادر، فاختار لاموريسير وبيدو مقرا لهما في زاوية[2]، حملت اسم لالة مغنية،[3] وفي 30 ماي 1844م حفر الفرنسيون خنادقهم، وعلقوا معداتهم، ودنسوا حرمة المكان المحترم، مما دفع بالسلطان المغربي "مولاي عبد الرحمن"، لتوجيه جيش بقيادة القائد "القناوي" القائد المغربي بمعسكر وجدة[4]، من القوات الفرنسية بالجلاء عن المنطقة لكن دون جدوى، فحدثت إشتبكات عنيفة بين الطرفين أدت إلى إنسحاب الجيش المغربي وعادوا أدراجهم إلى وجدة.[5]

وعاد الجنرال بيجو (Bugeaud) يوم 11 جويلية، في محاولة للتفاهم مع القائد "القناوي" غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل[6]، وبعدئذ أرسل إنذارا خطيا إلى "القناوي" جاء فيه ما يلي: "...نرغب أن تكون لنا نفس الحدود

=- Achille (F), Histoire de la conquête et de la colonisation de l’Algérie 1830-1860, Arnauld de vresse, paris, 1860, pp339-400.

- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص145.

1- لجأ الأمير عبد القادر إلى الحدود المغربية بعد التضييق عليه من قبل القوات الفرنسية، حيث يذكر محمد السعيد: "...لما قويت شوكة الفرنسيين وحدّتهم وأتوا بجنود لا طاقة لأحد بها... هاجر أرضه وتوجّه إلى المغرب وجعل طريقه على الصحراء، فخرج على نواحي وجدة..." ينظر:

- محمد السعيد بن محي الدين الحسني، نبذة عن حياة الأمير عبد القادر وأسرته، رقم: 0009، ص13.

2- لم تكن الحدود الجزائرية المغربية محددة بدقة في هذه الفترة.

3- هي إمرأة مرابطة إشتهرت بورعها وتقواها، ولا يزال هناك ضريح أقيم لها رسميا في المكان ذاته، وهي تبعد حوالي خمس عشر فرسخا غرب تلمسان. ينظر:

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص287.

4- هو من أعيان رباط الفتح المغربي، وعين كحاكم وجدة بالمغرب.

5- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص146.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص278.

- مسعود مجاهد، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص349.

-وجدة مدينة مغربية، في سهل الأنجاد على بعد 12 كلم من الحدود الجزائرية أسسها زيزي بن عطية 995م، كانت محل نزاع بين المغاربة والعثمانيين في القرن 18م، وأسس فيها السلطان عبد الرحمن حامية في 1828م، ودخلها الفرنسيون سنة 1848م و1859م، وإحتلوها سنة 1905م. ينظر:

- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p195.

6- في الحادي عشر من جوان وصل الماريشال بيجو إلى "لالة مغنية" وإقترح لقاءا بينه وبين القناوي، وتمت الترتيبات بذلك، غير أنه ظهرت سوء النية بين الطرفين، حيث كلا منهما احضر جيشا غفيرا معه، إضافة إلى الحراس لكل منهما، وبعد مشادات بينهما أطلقت النار، وردّ الفرنسيون على التحدي بقيادة "بيجو" بعد أن إنسحب "بيدو" وإنهزم الجيش المغربي، وبذلك قرر بيجو أن يحتل وجدة نفسها فكتب إلى القناوي طالبا منه توضيحا عما جرى، ولكن رده كان مباغتا ومراوغا، لذلك أرسل له الجنرال إنذارا يذكر فيه أن عبد القادر هو العقبة الوحيدة لإستعادة السلام بين فرنسا والمغرب، وكتب لهم الرسالة المرفقة في المتن. للمزيد ينظر: -إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، صص272،273.

- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص369.

التي كانت للأتراك ثم لعبد القادر، إننا لا نريد أن نأخذ منكم شيئا، ولكن يجب أن نصر على عدم إيواء عبد القادر بعد اليوم، وألا تمنحوه المساعدة أو التأييد، وألا تدعموه بعد أن أوشك على الهلاك، ثم تطلقوه ضدنا من جديد، وإنكم كنتم تقومون بالحرب ضدنا على هذا المنوال منذ سنين..."، إننا نطلب منكم أن تحصروا دائرة عبد القادر وكبار مساعديه في غرب الدولة، وأن تفرقوا جيشه النظامي، المشاة منه والفرسان، ونطلب منكم أيضا أن ترفضوا منذ الآن السماح بهجرة قبائلنا إلى مناطقكم، وأن تعيدوا إلينا حالا أولئك الذين هم فعلا قد لجأوا إليكم"، "وإننا نلزم أنفسنا بالمعاملة بالمثل نحوكم في صورة ما إذا حدث مثل ذلك بالنسبة إلينا، وهذا ما يمكن تسميته حقا التطبيق العملي لمبدأ الصداقة الحقيقية بين أمتين، وبهذه الشروط سنكون أصدقاءكم وسنشجع تجارتكم وسنكون في صالح حكومة مولاي عبد الرحمن بقدر ما نستطيع، أما إذا تصرفتم غير ذلك فسنكون أعداءا لكم، فأجب في الحال وبدون تملص لأنني لا أفهمه".[1]

رغم هذا الإنذار الذي قدمه الجنرال بيجو (Bugeaud) للقائد "القناوي" إلا أن الجيش المغربي تراجع إلى داخل البلاد، وإحتل بيجو (Bugeaud) مدينة وجدة بصورة مؤقتة وتطور الصراع على الحدود.

لقد كانت أهداف القوات الفرنسية من توغلها على الأراضي المغربية هو تشتيت القبائل الجزائرية حتى لا يتسنى لها مساندة قوات الجيش الشعبي الجزائري، الذي هاجر إلى الريف المغربي.[2]

وفي 26 جوان 1844م قامت قوات الإحتلال الفرنسي بإحتلال الغزوات على ضفاف واد التافنا، وتم إنشاء حاميات عسكرية فرنسية من أجل السيطرة على الحدود وإخضاع قبائل المنطقة من أجل القضاء على المقاومة الجزائرية حتى لاتتمكن من استرجاع قواتها وتنظيم صفوفها من أجل مقاومة قوات الإحتلال الفرنسي، وهذا ما دفع بالسلطات الفرنسية بأن تهدد السلطان المغربي بعدم التدخل ومساعدة قوات الأمير، وعليه قامت بالتوغل داخل أراضيها لتحول دون حدوث المساعدة، فحسبهم أن قوات الجيش الشعبي الوطني كانت تشكل عائقا لتحقيق أهدافها التوسعية، خاصة وأنها أدركت عدم استسلام الأمير عبد القادر بسهولة، والذي كان يحاول إعادة تنظيم صفوفه لمواصلة المقاومة، وإعطائها نفسا جديدا، غير أن السلطات الفرنسية حاولت جاهدة بل إستعملت كل السبل من أجل القضاء على المشروع الأميري

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص288،289.

2- لقد كانت معظم القبائل المغربية تساند الأمير عبد القادر، فمثلا كانت قبيلة بني يزناسن التي كانت تحتل الجبال الواقعة على الغرب الجنوبي من مدينة وجدة، وقبيلة أنقاد تقطن على ساحل غرب نفس الجبال، إذ وجد الأمير في هاتين القبيلتين، مساندة كبيرة حتى أن أحد مرابطيها أعلن فيها الجهاد باسم الأمير عبد القادر سنة 1844م، وبقيتا وفيتين للأمير حيث نظمتا العديد من الهجومات ضد قوات الإستعمار الفرنسي. للمزيد ينظر:

- Caillé (J), Une mission Léon roches à rebat en 1845, Casablanca, 1947, pp77-78.

-Farid (H), La grande Bretagne et la résistance de l'émir Abdelkader d'après les correspondances du consul général d'Alger 1837-1847, R.H, T11, 1981, pp58-59.

الذي يهدف إلى القضاء على المشروع الفرنسي، وعليه إستطاعت قوات الإحتلال الفرنسي فرض سيطرتها لتهديد الكيان المغربي، ومنعه من تقديم المساعدات لقوات الجيش الشعبي الوطني بقيادة الأمير عبد القادر.[1]

د.1.1. معركة إيسلي وعواقبها 1844م:

تعد هذه المعركة حاسمة بالنسبة للجنرال بيجو (Bugeaud) فقد وقعت على ضفاف "وادي إسلي"[2] بالقرب من وجدة حيث كان إبن السلطان معسكرا هناك بغية حماية حدوده، وفي 14 أوت 1844م إستطاع جيش الإحتلال الفرنسي إلحاق الهزيمة بالجيش المغربي الذي كان تعداده حسب "آزان Azan" ستين ألف فارس وألف ومئتين من المشاة، وخمسين ألف من فرسان القبائل بقيادة مولاي محمد بن السلطان عبد الرحمن، في مواجهته لقوات الإحتلال المشكل من ستة ألاف وخمسمئة جندي، وألف وخمسمائة فارس،[3] غير أن القوات المغربية إنسحبت نحو تازة المغربية[4] بالرغم من تنبيه الأمير لهم وتقديمه للنصائح، ولكن السلطان لم يأخذها بعين الإعتبار.[5]

لقد انهزمت القوات المغربية أمام القوات الفرنسية والتي استطاعت أن تتوغل بالأراضي المغربية واحتلال مدينة وجدة، بسبب هشاشة العديد من تجمعات مقاتلي القبائل التي استطاعت كسب ثقة "مولاي محمد" ابن السلطان

1- يؤكد المشرفي حقيقة سيطرة الأمير على الجيش الفرنسي في هذه الفترة فيقول: "واشتدت وطئته على الفرنسيس"، وذلك بعد تطبيق طريق الكر والفر التي إعتمدها ضد قوات الإحتلال، إذ كان يهاجم سراياها ثم ينسحب من أمامها، ليتمركز في موقع آخر، يشرف على تحركاتها، وهذا ما تجلى في رسالة بعث بها "كافينياك" إلى "لامورسير" الحاكم العام بالوكالة في 30 سبتمبر 1844م إذ قال فيها: "...لقد أصبح عبد القادر سيد البلاد التي تمتد بين الحدود الشمالية وأعلى نهر التافنا، إنه لنجاح هائل لعبد القادر، وأنا أشعر أنني عاجز عن وضع عوائق في طريق زحفه..." ينظر:

- عبد المنعم القاسمي الحسني، الأمير عبد القادر من خلال مخطوط نادر، المرجع السابق، ص10.

2- ينبع هذا الوادي من مرتفعات الأطلس التلي ويتجه بسرعة نحو الجنوب الغربي باتجاه البحر، يخترق مجراه المنعرج جبالا وعرة وأودية عميقة، وتكثر حوله الأشجار والأغطية النباتية، أما المعركة فقد وقعت بين الجيوش المغربية بقيادة مولاي محمد والجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال بيجو، وقد كانت هذه المعركة حاسمة في تقرير مصير الأحداث التاريخية في المنطقة إذ جعلت حدّا للتضامن الجزائري والمغربي السائد أنذاك والمتمثل في المقاومة المشتركة لجيوش الإحتلال، وبذلك يكون المحتل قد صرع الشقاق بين الشعبين الشقيقين. ينظر: -أديب حرب، ج2، المرجع السابق، ص481.

- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير، المصدر السابق، ص174.

3- أما إيدوفيل (Ideville) يقول شكلت جيشا بحوالي ثلاثون ألف فارس. ينظر:

- Ideville (HD), Le Maréchal Bugeaud, d’après sa correspondance intime et des documents inédits 1784-1849, T2, L.Didot, paris, 1883, p125.

- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية 1839م-1916م، تح: إدريس بوهليلة، ج2، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2005، ص80.

4- Azan(P), les grande soldats de l’Algérie,op-cit, p37.

5- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا، المصدر السابق، ص51.

- عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تق: عبد الهادي التازي، مطابع أديال، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1990، ص70.

- Zoumoroff (PH) et autre, Abdelkader, op-cit, pp345, 346.

المغربي، كما تزامنت هذه المعركة بضرب "طنجة" التي كانت قد أجليت من سكانها[1] بستمائة وخمسة وأربعين (645) قذيفة، إضافة إلى ضرب "موغادور"[2] بقيادة الأميرال "دو جوانفيل De joinville "[3] الذي أرسلته الحكومة الفرنسية مع قطعة من أسطولها إلى الساحل المغربي في شهر أوت 1844م لتدعيم مطالبها الرسمية، وكان الهدف من هذا القصف هو محاولة إجبار السلطان "عبد الرحمان" لمنعه من مساندة الأمير عبد القادر.

في ظل هذه الظروف وبعد الهزائم المتتالية التي مني بها الجيش المغربي فضل السلطان الجنوح إلى السلم والتواطؤ مع القوات الفرنسية ضد قوات المقاومة الجزائرية، خاصة بعد أن تعرضت مدينة الصويرة للقصف، وأخذوا الجزيرة المقابلة لها وبدأت فرنسا تساوم بها مقابل الرضوخ لمطالبها[4]، فكللت هذه الأحداث توقيع معاهدة طنجة في سبتمبر 1844م، وذلك بعد التدخل الرسمي للمبعوث الدبلوماسي البريطاني "دروموند هاي" الذي أقنع المغاربة بأنه لا يجب إنتظار أية مساعدة أوربية، وخوفا منه من أن تطول الحرب بينهم أكثر بسبب عدم رضوخه لهم، عمد السلطان عبد الرحمن إلى قطع المؤونة على الأمير عبد القادر.

وقد دخلت المعاهدة حيز التنفيذ في 26 أكتوبر 1844م، وتتكون من ثمان مواد[5]، وقد تعرضت بصفة جدية لمصير الأمير عبد القادر وحاشيته، وكذلك لمصير المقاومة الشعبية الوطنية، ومن بين اهم هذه البنود والمتعلقة بمصير عبد القادر نذكر ما يلي:

1- Changarnier (T), Mémoire du général Changarnier, op-cit, p329.

2- كانت موغادور تمثل كخزينة لثروة الملك التي يمتلك فيها تقريبا جميع الأراضي وتم قصفها في 15 أوت أما طنجة في 6 أوت، وتم إحتلال كل منهما وتم وضع حامية فرنسية في موغادور تتكون من خمسمائة مقاتل. للمزيد ينظر:

- Warnier (DR), Le confit Franco-Marocaine de 1844, D'après les notes de Warnier, R.A, N°94, 1950, pp399-425.

3- دو جوانفيل: (Pruice De- joinville- François de bonbon Orleans) هوأميرال من مواليد نويلي (Neuilly) (1818-1900)م، الإبن الثالث للملك لويس فيليب شقيق دومال السابق الذكر.

4- للمزيد ينظر:

- Prince De Joinville, Vieux Souvenirs (1818-1848), Ed de Grand luxe, paris, 1894, pp395-397.

5- لمعرفة بنود المعاهدة ينظر:

- Bellemare (A), Abed-el-Kader SA vie politique ET militaire, op-cit, pp293-296.

- De Card (R.E), Les traités entre la France et le Maroc, étude historique et juridique, éd, Durand, paris, 1898, pp54,55.

- بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص221.

-مصطفى المشرفي، الحلل البهية، المصدر السابق، ص82.

- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الإستقصا ، المصدر السابق، ص53.

- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ط2، دار الرشاد الحديثة، د.ط، الدار البيضاء، 1994، صص204-206.

- ينظر الملحق رقم 15.=

- ✓ إعتبار الأمير عبد القادر خارجا عن القانون وتلاحقه القوات الفرنسية بالأراضي الجزائرية، وتلاحقه القوات المغربية بالأراضي المغربية، وفي حال سقوطه في أيدي القوات الإحتلال الفرنسي، يعامل معاملة حسنة، أما إذا وقع في يد القوات المغربية يحتجز بإحدى المدن الساحلية الغربية للمملكة.
- ✓ عدم تقديم أي دعم لأعداء السلطات الفرنسية مثل الأمير.
- ✓ يعتبر قوات الجيش الشعبي الوطني الذين يقاومون إلى جانب الأمير خارجين عن القانون، وتقوم القوتان المغربية والفرنسية بمحاصرتهم.

د.2.1. قضية الأمير عبد القادر بعد معركة إيسلي 14 أوت 1844م:

إنسحب الأمير عبد القادر بعيدا في جوف الصحراء، غير أن المعاهدة المفروضة استثارت غضب المسلمين في المغرب، كما وصلت رسالة للأمير تطالبه بالإطاحة بالسلطان، لكنه رفض، ومضى يستشير حماسة القبائل في الجزائر متنقلا باستمرار، من تيارت إلى أقاليم التل حتى الحدود المغربية، وكانت مطاردة الفرنسيين لا تتوقف، فالأمير منذ لجوئه إلى المغرب سنة 1843م، واصل بعث المحاربين في مجموعات إلى الجزائر، وآزرته "بنو عامر" مدة في منطقة الجزائر، ثم إلتحق به عدد منه فيما وراء جبل بني يزناسن[1] غربا[2]، وتواصلت بعوثه حتى نواحي تاهرت، ووهران، وبعد توقف المساعدات المغربية له، تحت الضغط الفرنسي، بدأ يدعو لنفسه في مناطق الشمال وحصل فعلا على تأييد الريف كما ذكرنا سابقا.

لقد كان موقف الأمير واضحا، وهو أن المغرب كان يجب أن يواصل الجهاد ضد الفرنسيين، غير أن ملكه لم يلتزم، فكان لزاما على الأمير أن يقوم بحركة مناوئة من شأنها إثارة المغاربة ضد السلطة القائمة أنذاك، وتحريكهم لمواجهة الفرنسيين، والقبائل المناوئة. أما عن "مولاي عبد الرحمن" فقد أصبح عليه أن يواجه ويحافظ على الإستقرار في بلاده ويضمن حماية إستقلالها، ومن جهة أخرى بدأ يغضب من تصرفات الأمير وحركته في وسط البلاط المغربي.

لقد وقف المغرب بثقله ضد الجيش الفرنسي من معركة "إيسلي" 1844م لصالح المقاومة الجزائرية وأميرها، لكن بعدها كان المغرب بين خيارين إما أن يقبل، ولو بعد مقاومة طويلة الإستسلام وتفوز فرنسا بقطرين عوض واحد، وإما

=- ربما الذي يطلع على هذه البنود يتبين له أن البند الرابع يعد أسوء البنود لما فيه فحوى وتطبيق، لأنه يتعلق بمصير شخص قاد حركة الثورة في بلاده، ومد إليه المغرب يد المساعدة منذ إنطلاقاته الأولى، حتى مواجهة إيسلي، أي لفترة تناهز إثني عشر عاما، غير أن ملك المغرب خير بين أمرين، إما أن يقبل شرطا فرضه العدو وإما أن يتحمل كل المسؤوليات المترتبة عن عدم تطبيقه للبند السادس والبند الرابع.

1- بني يزناسن: هي قبيلة بربرية تسكن الجبال الممتدة بين الأنجاد جنوبا، وطريفة شمالا، تتكون من أربعة قبائل كبيرة، "بني خالد، بني عتيق، بني منقوش وبني وريانش"، كانوا تابعين للملك، لكنهم لم يولوا الطاعة له، وشكلوا في العديد من المرات فرسانا وساعدوا الأمير في مقاومته. ينظر:

- Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas, op-cit, p93.

2- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص293.

أن يحتفظ بإستقلاله ويخضع لتسليم شريف لزعيم كبير إلى عدوه الذي إلتزم بتكريمه، وهذا ما إختاره المغرب، إذ ليس له حل ثالث، وفي الأخير فرنسا هي التي قررت حل قضية الأمير، بالرغم من أن المغرب في البداية وقبل الوصول إلى هذه النتيجة نصحه الأمير بعدم مواجهة الجيش الفرنسي، ونصحه بأن يخفي مقره من عيون الإستعمار الفرنسي، هذا ما إتفق عليه الناصري وابن الأمير عبد القادر.

بعد زهاء ستة أشهر تم توقيع الإتفاق المذكور سابقا، ثم عقدت معاهدة "لالا مغنية" في 18 مارس 1845م، المتعلقة بتحديد الحدود طبقا للإتفاقية المذكورة،[1] غير أن ملك المغرب "مولاي عبد الرحمن غضب من تصرف عامل وجدة والكاتب الذي رافقه من جهة، ومن جهة أخرى أصر على أن تبقى الحدود كما كانت عليه مع الأتراك، ورفض المصادقة على المعاهدة كما هي، وإعتبرها خدعة من المفاوض الفرنسي، وبعد محاولات عديدة ومفاوضات بين الطرفين وصل السلطان المغربي إلى حل وسط كأن يقبل بالفصول التي أذن للمفاوض التفاوض فيها ورفض ما لا يؤذن به، ووافقت البعثة الفرنسية بطنجة على ذلك غير أن معظم المواضيع بقية عالقة كإدماج قبائل من التراب المغربي وإقتطعت قصورها لصالح القطر الجزائري.[2]

أما من جهة الأمير عبد القادر ففي أكتوبر 1845م، هاجم بفرقة من الجزائريين والمغاربة فرقتين فرنسيتين إحداهما قرب جامع الغزوات بساحل الجزائر غربا والأخرى بناحية تموشنت غربا ففتك بعدد كبير وأسر مئتين، وعندئذ أعطيت التعليمات لمطاردته، داخل التراب المغربي، ومعاقبة مسانديه، إضافة إلى إجبار السلطات المغربية مساعدتهم في هذا الأمر.[3]

في الوقت الذي ظلت فيه القوات الفرنسية تطارد الأمير وأتباعه، إنفجر سنة 1845م الموقف، وظهر مقاوم بارز اسمه "محمد بن عبد الله" الملقب ببومعزة[4]من مشايخ الدرقاوة، فحمل لواء الجهاد في منطقة الظهرة، وسهل شلف

1- لقد كان المفاوض المغربي هو عامل وجدة "حميدة الشجعي" والمفاوض الفرنسي هو "الكونت دولارو" وحسب هذه الإتفاقية، فقد جرد المغرب من أراضيه الممتدة غرب وادي تافنا (البند الثالث)، وأدخل قسم من الجنوب الشرقي في تراب الجزائر، وتركت الصحراء مجرد مرعى لسكان البلدين، من غير تحديد (البند الرابع)، في الوقت الذي كان قسم كبير منهما يدين بالبيعة لملوك المغرب عبر القرون، وفيما عدا الأراضي الواقعة جنوب قصور الصحراء (البند السادس)، والتي أعتبرت فلاة لا تحتاج إلى تحديد، فقد ضمن حق اللجوء السياسي لرعايا كل بلد في القطر المجاور ما عدا الحاج عبد القادر (البند السابع). للمزيد ينظر:
- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، المرجع السابق، صص207،208.

2- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، المرجع السابق، ص210.

3- المرجع نفسه، ص213.

4- إسمه الحقيقي هو محمد بن عبد الله، ويلقب ببومعزة، ينتسب إلى قبيلة خويدم، في واد الشلف بالظهرة، حيث أضطر دعوته سنة 1845م للجهاد على عناصر قبيلة فليتة وشيخها بن جلون، فنجحت دعوته إلى حد ما، وخضعت له بعض القبائل بجبال الظهرة والونشريس ووادي شلف، وكان عمره لا يتجاوز العشرين سنة، فقد حمل لواء الجهاد بإيمان يشبه التعصب، وبثقة في النصر لا تقل عن ثقة أسلافه، فقد إختار في سياسته القتالية الإندماج مع الشعب بحيث لا تظهر عليه ملامح الزعيم والقائد، كما يتصف بالذكاء والشجاعة، فقد هاجم حامية مستغانم، غير أنه طورد من طرف بيليسي وسانت آرنو، وفي هذه الفترة=

فعلى الرغم من أن قواته لم تتجاوز المئات إلا أن شرارته أحرقت السهل وإندلعت المقاومة في كل مكان، كما سانده سكان الونشريس، وكبد الجيش الفرنسي خسائر كثيرة خصوصا في معركة قادها من الجانب الفرنسي الجنرال "بورجلي" (Bourjolly)[1]، بل وقد بلغت به الجرأة أن هجم على رأس أتباعه على مدينة الأصنام التي كانت قلعة عسكرية، وكاد أن يستولي عليها، ومن جبال الظهرة إنتشرت الثورة كالنار، في ولاية التيتري وفي منطقة الحضنة، لكن هذه الأحداث عجلت في عودت الجنرال بيجو (Bugeaud) الذي وصل إلى الجزائر 29 ماي، وبعدما وضع نظاما محكما للقمع والتدمير والتخريب، سار بيجو (Bugeaud) بنفسه على رأس قوة لإخضاع عدة من القبائل الثائرة، كما وجه ثلاث فيالق لمطارة "بومعزة" بقيادة "سانت آرنو Saint Arnaud" و"لادميرو" و"بيليسي Pellissier"،[2] وطبق سياسة الأرض المحروقة، وبعد مقاومة ضارية في مناطق أخرى قام بها "بومعزة" وقع في الأسر ثم نقل إلى فرنسا، وبعدها سمح له الذهاب إلى تركيا.

أما الأمير فقد اعتصم بالريف الغربي، وأصبح عليه أن يواجه حملات المخزن بعد فترة من الصمت، وبعد ترتيب الأمير لقواته من جديد ظهر للقوات الفرنسية في جبل كركور عن الحدود المغربية محاصرا لهم، وأخذت عناصره تطلق النار على سريتهم المرابطة هناك، فنتج عن هذا الهجوم المفاجئ غير المنتظر ثلاثة ضباط فرنسيين من أصل أربعة بجروح خطيرة، من بينهم قائد السرية العقيد "مونتنياك Mantignac"، وإستطاع الأمير خلال فجر 23 سبتمبر 1845م من تحقيق إنتصار كامل على هذه الحامية بعد مقتل "مونتنياك" متأثرا بجروحه وقتل "كوستن فرومون"، أما من بقي من القواد والجنود القلائل ما يقل عن ثمانين مشاة وستة وثلاثون جنديا فقد تحصنوا بقبة سيدي إبراهيم وبقوا لمدة ثلاثة أيام بدون أكل ولا شرب، وانتهت الحرب بوفاة آمر السرية الفرنسية وآخر ضباطها.[3]

=حدثت مجزرة أولاد رياح، في كهوف القنطرة من قبل سانت آرنو، وهذا ما أثر عليه فالتجأ إلى جبال الونشريس، وأخذ ينتقل من مكان إلى آخر،حتى استسلم لسانت آرنو في الشلف، ثم نقل إلى باريس سنة 1847م، ومنها إلى الإستانة، وإلتحق هناك بالجيش العثماني. للمزيد عن أصل بومعزة وحركته ينظر:

- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص398،399.
- بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، صص 222-224.
-يحي بوعزيز، تاريخ الجزائر في الملتقيات، المرجع السابق، صص 157،158.
-المرجع نفسه، صص 158-164.
-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، صص 284-289.

1- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، المرجع السابق، ص 213.
- بسام العسلي، الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص149.

2- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، ص 285.

3- تنفيذا لمعاهدة طنجة أرسل الملك عبد الرحمن بلاغا نهائيا للأمير عبد القادر يطلب فيه تفكيك جيشه وإلتحاقه بفاس، ليقطن فيها هو وعائلته وكعادته قام الأمير بإستدعاء مجلسه للشورى إقتداءا لقوله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ سورة الشورى=

قاد الأمير بعدها عدة معارك أخرى فقد كان من نتائج معركة سيدي إبراهيم مقتل خمس عناصر من القوات الفرنسية، وجرح الكثيرين، وفي هذه المعركة أصيب الأمير برصاصة في شحمة أذنه اليمنى، وكان هذا الجرح هو الجرح الهام والوحيد الذي أصيب به، ورغم ذلك فقد حقق إنتصارات مع قوات الجيش الوطني الشعبي[1].

لقد كانت وضعية المقاومة صعبة جدا، في المناطق الغربية، التي ركز فيها العدو ضغوطه عليها لإعتبارات تكتيكية وإستراتيجية معا، فهذه المنطقة مازالت تتأجج فيها روح المقاومة الوطنية، فعلى الرغم من أن الأمير غادرها وعبر الحدود على رأس جيشه وإدارته وذخيرته ليودع كل ذلك في دائرته والتي استقرت على ضفاف نهر ملوية، إلا أن المغرب الذي رضخ لتهديدات فرنسا[2] بعد أن كانت تمد يد المساعدة للأمير وجنوده، على حسب ما يمليه الدين الإسلامي والجوار والتقارب بين وضعية البلدين إزاء المطامع الفرنسية، غير أنه بقيت الكثير من القبائل خاصة سكان المناطق الشرقية تساند المقاومة الجزائرية، حتى أن بعض رجالها تطوعوا للمشاركة في القتال في جيش الأمير.

كما أن تمركز القوات الفرنسية في غرب البلاد كان عاملا من شأنه أن يحقق الضغط العسكري على المناطق الشرقية، وخاصة في بلاد القبائل، وهناك ظل خلفاء الأمير يقاومون ببسالة. وبعد هذه الحادثة استطاعت بعض القوات الفرنسية من الفرار نحو الغزوات، لكنها حوصرت من طرف قوات الجيش الوطني الشعبي وأطلقت عليها الرصاص، فلم تنجوا منها إلا القليل، وقام الأمير بأسر بعضهم، وقضى على حوالي ستة وأربعون عنصرا في معركة وادي المرسى.

قامت قوات الإحتلال بتكثيف نشاطها العسكري خوفا من ظهور الأمير المفاجئ، الذي بات يؤرق جنرالات وضباط فرنسا الذين أحسوا بقدوم العاصفة، واعترفوا بعبقرية الأمير، وأن الخطر قد أصبح على الأبواب.[3]

=الآية 38، والمكون من الأعضاء: "البوحميدي، بن التهامي، البركاني، الميلود بن عراش" والذين رفضوا هذا الإقتراح، وتمركزوا في قبيلة بني يزناسن أين حصل على التأييد من قبائل منطقة الريف. للمزيد من التفاصيل حول المعركة ينظر: - إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية، المرجع السابق، صص252-254.

- إسماعيل العربي، معركة سيدي إبراهيم ومصير أسرارها، الموسوعة التاريخية للشباب، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1984، صص9-75.

- أديب حرب، ج2، المرجع السابق، صص510-560.

1- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص373.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص295.

-Azan (P), Sidi Brahim, Dictionnaire biographique international des écrivains, par Heury cornoy, E.L.F, paris, 1902, pp208-292.

2- عقب معركة وادي "إيسلي"، وتقبل الشروط التي فرضت عليها في معاهدة "لالة مغنية" أوت 1845م، والرامي إلى عدم تقديم مساعدات للأمير وللمقاومة الجزائرية (البند الرابع).

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص296.

في هذه الفترة كان الأمير قد اجتاز الحدود المغربية ووصل إلى ضفاف نهر ملوية، حيث تعرض إلى مضايقات القوات المغربية، التي استولت على بعض القبائل التي كانت تؤيد قواته[1]، بل كانت تحرضهم تأمرهم بتضييق الخناق عليه، وما كان على الأمير إلا أن يرد الهجوم، فنفذ هجوما مباغتا على القوات المغربية وألحق بها خسائر فادحة، واستحكمت العداوة بينه وبين السلطان المغربي، وكان التنسيق بين المغاربة والفرنسيين من أجل مطاردته، إذ كانوا يعملون على عمودين، الجانب الأيسر يجانب جبال الريف، والعمود الأيمن يتجه نحو ملوية، حينها أحس الأمير بخطورة الموقف حيث وجد نفسه محاصرا –من الشمال وجد البحر ومن الجنوب الشرقي قائد وجدة الذي كان يعمل على جمع المخزن ومن الغرب وجنوب الغرب القوات المغربية–

ما كان على الأمير إلا أن يفاوض سلطان المغرب فأرسل خليفته "البوحميدي"، لكنه رفض ذلك وبقي متمسكا باستسلام الأمير، فزج في السجن وأجبر على تناول السم،[2] غير أن الصراع المرير بين قوات الأمير وقوات الجيش المغربي لم تنتهي، ونتج عنها العديد من القتلى والجرحى، مما دفع بالأمير اللجوء إلى نهر ملوية لحماية دائرته من التقدم المغربي، وبقي يدافع على من كانوا معه فقط، غير أنه كان قريبا من القوات الفرنسية التي لم تتوقف من تنظيم الدوريات على الحدود، فعلم أنه ينبغي عليه أن يركز على إنقاذ ما تبقى معه من مناصريه، وأن يؤمن سلامة الأطفال والنساء والشيوخ، وكانت معركة سلوان كخاتمة لمسيرة جهادية أميرية دامت سبعة عشر سنة،[3] وعليه توجه من نهر ملوية إلى واد كيس في 21 سبتمبر 1847م، ثم إلى قمة كربوس، وكان يفكر في الفرار نحو الصحراء بعدما حوصر إذ بقي متبوعا بالمغاربة،[4] ولتحقيق هذه الغاية كان يعلم أنه يلزم عليه المرور عبر الجبال ومنها إلى الساحل وبالتالي الوصول، فكشف أمره، وتعرض للهجوم وحوصر، وبعد كل هذه المناورات والمشادات، ومع ظهور عدم توازن القوى بين الأطراف المقاتلة، إضافة

1- يذكر ابن التهامي أن السلطان المغربي أمر قواته بالقضاء على كل من يساند قوات الأمير عبد القادر، ومن بينهم قبيلة بنو عامر الذين هاجروا إلى المغرب الأقصى، وأقاموا بفاس بعد حادث مقتل الأسرى الفرنسيين في دائرة الأمير، ثم كاتبوا عبد القادر ورغبوا في العودة إليه، ورحب بالفكرة وفي طريقهم إلى دائرته، نكب بهم المغاربة وقتلوا أغلبهم، وباعوا أغلبهم في أسواق الرقيق، وفعلوا فيهم مالا يفعله مسلم في أخيه المسلم، إذ لا يوافق على ذلك العقل ولا الشرع. ينظر: – مصطفى بن التهامي، المصدر السابق، ص162.

ويضيف محمد بن الأمير قائلا: "آما سمع قوله عليه الصلاة والسلام: "كل المسلم على المسلم حرام، ماله وعرضه ودمه حسب إمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" ويضيف قائلا: أما بلغه ما روى ابن المبارك عن حمزة بن عبيد: "ما يحل لمؤمن أن يشتد على أخيه بنظرة تؤذيه" أي تعد وعند الله تجتمع الخصوم. للمزيد ينظر: – محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، ص406.

2- Lesur (CL), Annuaire historique universel, Histoire politique pour 1847, Rédige par Fouquier (A), Ed Thoisnier Desplaces, paris, 1848, pp15-18.

3- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص186.

–للمزيد عن هذه المعركة ينظر: – مصطفى بن التهامي، المصدر السابق، صص167،168.

4- بعد أن أصبح الأمير عبد القادر ومرافقيه محاصرين من قبل المغاربة في الغرب والجيوش الفرنسية في الشرق، إقترح عليه البعض أن يتوجه نحو الجنوب وذلك لعجزهم عن المواجهة نظرا لقلة العيش ونفاذ زادهم وموت دوابهم. للمزيد ينظر: – محمد السعيد، المصدر السابق، ص12.

إلى الصعوبات التي يواجهها عبد القادر مع أتباعه وأعوانه، إقتنع بضرورة أخذ قرار حاسم يكون عادلا فيه،[1] فالجهاد الذي كان شرعيا طالما كانت له حظوظ في الإنتصار، تنتهي شرعيته بإنعدام هذه الحظوظ مهما كان صغرها.

د.2. التقرير بإجماع المجلس لوقف القتال ومصادقة الدوق دومال ولامورسير على التعهد:

بعد زوال كل سبل النجاح أمام الأمير عبد القادر، وبعد الصراع المرير على امتداد السنين في شهر ديسمبر 1847م، وقف عبد القادر مع قواته المتبقية لديه بعد رجوعه إلى بني يزناسن مترددين هل يرجعون لناحية الدولة أم يذهبون إلى وجدة ناحية توات[2] ،فالسماء كانت تمطر بغزارة،والفرنسيون كانوا على مرمى البصر يحتلون المضيق الرئيسي لجبل كربوس-لقد سدت عليه طرق المجار- واستولت عليه الأفكار المتضاربة إلا أنه كانت فرص النجاة متبقية أمامه وحاشيته، فراح يفكر كيف سيمضي هكذا. في مقاومة دون طائل؟ وأي قوة بقيت لديه الآن؟ وعلى أية مساعدة سيعتمد؟ وما مصير أمه المسنة، وزوجته وأولاده، وأتباعه من مشايخ وعجائز وجرحى، ويائسين ومرهقين من مشقة الحرب ونتائجها الوخيمة، والذين كانوا على مسافة ثلاث ساعات من المعسكر الفرنسي، والذين يمكن أن يدخلوه جميعا كأسرى حرب، ولم يقع لعبد القادر أن وجد نفسه من قبل في هذه الحالة اليائسة، وشعر أن نهايته تقترب وعليه أن يتخذ القرار بسرعة[3]، إذ لا يمكنه أن يضحي بجزء من رجاله وحاشيته نساءا وأطفالا تحت رحمة العدو، فقد علم وأدرك أن القتال أصبح مستحيلا على أرضه، وأن الشعب بعد نضاله المرير وبعد التخريب والتدمير بدون مبرر الذي ألحقته بهم همجية الإحتلال الفرنسي قد أصبح له الحق في الهدوء والراحة الذي لن يمنحه إياه إلا الإستسلام.[4]

وهكذا وفي هذا الظرف المهيب جمع آخر مربع من جنوده البواسل فأحاطوا به بحضور مجلس الشورى في 22 ديسمبر 1847م، وافتتح هذا المجلس بكلمة قال فيها: "...هل تذكرون القسم الذي نطقتم به في المدية منذ ثماني سنوات عند استئناف الحرب، ذلك القسم الذي تعهدتم به ألا تتخلوا عني مهما كانت الأخطار والمعاناة التي تتعرضون لها...؟" ،قالوا له: "...كلنا نذكره ومازلنا على استعداد للإلتزام به..."، وتابع عبد القادر كلامه قائلا: "...إنني دائما كنت أعتبر ذلك القسم ملزما لي نحوكم كما هو ملزم لكم نحوي، إنّ هذا الشعور وحده هو الذي جعلني أثابر على الجهاد إلى هذه الساعة، حتى لو لم يكن هناك أمل فقد كنت عزمت على ألا يكون في استطاعة أي مسلم مهما كانت صفته أو درجته أن يتهمني بإلزامكم بشيء لم أكن أنا شخصيا مستعدا أن أقوم به، أو يقول بأنني لم أفعل كل ما في وسعي لنصر كلمة الله، فإذا كنتم تعتقدون أنه مازال بوسعي أن أقوم الآن بأي شيء فأخبروني، وإن كنتم

1- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص139.

2- بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص249.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص312.

4- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص168.

لا تعتقدون ذلك فإني أسألكم أن تعفوني من القسم الذي إلتزمت به إليكم عقليا عندما طلبت رسميا قسمكم..." فقالو: "إننا جميعا نشهد أمام الله أنكم فعلتم كل ما في وسعكم لإعلاء كلمته، ويوم القيامة سيجازيكم الله بعدله".[1]

وقاد الأمير الحديث من جديد: "...وإذا كان هذا رأيكم فأمامنا ثلاث إحتمالات:

- ✓ إما العودة إلى الدائرة حيث نكون مستعدين لمواجهة أية عقبة.
- ✓ إما محاولة إيجاد طريق إلى الصحراء، وفي هذه الحالة لا تستطيع النساء والأطفال والجرحى أن يتبعونا، وسيسقطون لامحالة في أيدي العدو.
- ✓ وإما وقف القتال.[2]

فأجابوه: بأنهم سائرون معه حيث يقودهم، وتوقف عبد القادر بضع لحظات ثم استأنف كلامه وهو متأثر للموقف المحتم الذي هو فيه وحاشيته، وكان تأثره عميقا وهذا يظهر من خلال حديثه، فالسامع لكلام الأمير يعرف قيمة هذا البطل الباسل الذي لم يعرف طعما للهزيمة واليأس، خصال كلها اجتمعت فيه وما زاده بطولة هو إنسانيته وخوفه الشديد وحرصه على من كانوا معه، فمن خلال حديثه نلمس مدى تأسفه لما آلوا إليه، ولكن هذا ما قدر لهم. فقد إستأنف كلامه بتأثر عميق حيث قال: "...صدقوني إن المقاومة قد انتهت، فلنعترف بذلك، والله شاهد على أننا حاربنا طالما كان في استطاعتنا، فإذا لم ينصرنا فلأنه حكم أن تكون هذه الأرض للمسيحين، وبقائي في البلاد أو عدم بقائي فيها سوف لا يغير من الأمر شيئا، وماذا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت من أجل القضية التي دافعت عنها طويلا؟ هل باستطاعتي أن أستأنف الحرب؟ إنني سأهزم وسيتعرض العرب إلى مزيد من الآلام، إضافة إلى ذلك فإن القبائل قد أصبحت تعبة من الحرب، إنها لم تعد تطيعني..."، ثم يواصل الكلام قائلا: "...إني سأكتفي بطلب الأمان لنفسي ولعائلتي ولأولئك الذين يريدون أن يتبعوني إلى بلاد إسلامية أخرى..."،[3] أي أن عبد القادر أعطى حرية الإختيار ولرفاقه في تقرير مصيرهم.[4]

ولا ربما الحديث الذي ذكره إبنه محمد وفيه تأثير بالغ على سامعه هو ما حفز قومه لاتخاذ القرار الصائب في وقف القتال، وجاء فيه ما يلي: "...يا قوم لا أرى إلا التسليم لقضاء الله تعالى، والرضا به، ولقد أجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد، وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر منها والباد، وذلك من حين إهتز غصن شبابي، وافتر

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص312،313.

- Churchuill(H), La vie d'Abdelkader, M.H, Alger, 1981, p270.

2- بسام العسلي، الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص151.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص313،314.

4- Ferdinand de conot, Recueil manuel et pratique de traités de conventions et autres diplomatique, E.B, paris, 1849, pp419,420.

عن شباة الهندي نابي، وأقمت على ذلك على ماينيف على سبع عشر سنة أقتحم الممالك، وأملأ بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك، واستحقر العدو، على كثرته، وأستهل استصعابه، وأتوغل غير خائف أوديته وشعابه، وأرتب له في طريقة الرصائد، وأنصب له فيها المكائد والمصائد، تارة أنقض عليه إنقضاض الجارح، وأخرى أنصب إليه إنصباب الطير إلى المسارح، وكثيرا ما كنت أبيته فأفنيه، وأصحبه فأبرد غليلي منه وأشفيه، ولازلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية وأشهر عن أقوى ساعد وبنان، وأقضي حق الجهاد بالهند والسنان إلى أن فقدت المعاضد والمساعد، وفني الطارف من أموالي والتالد، ودبت إلتي من بني ديني الأفاعي، واشتملت علي منهم المساعي، والآن بلغ السيل الزّبى، والحزام الضبين، فسبحان من لا يكيده كائد، ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد...".[1].

ويضيف هذا الشعر الحزين قائلا:

أن يسلب القوم العـــدا	**ملكي وتسلمي الجموع**
فالقلب بيــن ضلوعــــه	**لم تسلم القلب للضلوع**
أجـلي تأخـر لــم يكـــن	**يهواه ذلي والخضـــــوع**
ما سرت قط إلى القتـال	**وكان من أملي الرجـوع**

وبهذه القصيدة وبهذا الكلام المؤثر والمحزن من بطل لم يكن يخشى الصعاب فوجد نفسه بين ليلة وضحاها، وسط نارين إما أن يقاتل أو ينهي القتال، خاصة وأن دولة عربية إسلامية خانته، وتحالفت مع قوات الإحتلال ضدّه وهذا ما زاد من شدّة أسفه وحزنه، حتى أنه خيّر نفسه على أن يسلم نفسه للمسيح أم إلى سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن، فاجاب نفس قائلا: "...إنني أفضل ألف مرة أن اثق فيمن حاربني على الوثوق فيمن خانني...".[2]

هكذا فقد أثر خطاب عبد القادر في نفوس قومه، وتذكروا ما عانوه وما قدر لهم في سنوات بات التاريخ يذكرها، ثم أخذوا يتدوالون الرأي بينهم إلى أن قرّ القرار بالاجماع على أن يكون وقف القتال مع الفرنسيين بعد أن أعطى الأمير حرية الاختيار لرفقائه فيمن يرغب أن يتبعه إلى بلد مسلم، وإنتهى النقاش في معالجة هذا الموضوع اليائس عندما أخرج الأمير قطعة من الورق، ووضع عليها خاتمه، كدليل على التفاوض مع الفرنسيين من أجل وقف إطلاق

1- محمد بن الأمير عبد القادر، ج 1، تحفة الزائر، المصدر السابق، صص410،411.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص314.

النار، وبسبب غزارة الأمطار التي لم تسمح له بكتابة شروطه، فترك للفارسين المكلفين بنقل الرسالة إلى الفرنسيين كتابة الشروط.[1]

وصل المندوبين مع بن خوية، في 21 ديسمبر، وأبلغا الجنرال "لامورسير" رغبة الأمير في إنهاء القتال، وأظهروا له الخاتم، وأبلغوه بطلبات وشروط الأمير، فقبل بالشروط على الفور غير أنه لم يكن قادرا على الكتابة بسبب غزارة الأمطار، فأرسل هو الآخر سيفه وخاتم الضابط"بازين"،[2] مع المبعوثين لتقديمها للأمير علامة على قبول شروطه، فتحرك الأمير ومن معه إلى قرية تريرات وعاد مبعوثيه، فجمع رجاله ليبدوا رأيهم في الجواب الذي اتصل به، فلاحظوا أن الوعد شفويا إذ لابد من رد كتابي من طرف الجنرال، ومع توقف المطر كاتبه الأمير وطلب منه خطا كتابيا، إضافة إلى كتابة شروطه، وأرسل المبعوثين من جديد بهذا الشأن، وكان الجنرال "لامورسير" قد أرسل لإبن الملك الدوق "دومال"، الحاكم العام الجديد، فتهلل هذا الأخير وأرسل خطابا إلى أبيه الملك "لويس فليب" يقول فيه على وجه الخصوص: "...أن عبد القادر قد شرب الكأس حتى الثمالة والصيحة هي القطرة الأخيرة في هذا الكأس...".[3]

وبوصول الجواب إلى الأمير من طرف "لامورسير" تم تثبيت هذه الشروط في رسالة، وأرسلها مع المبعوثين من جديد إلى الجنرال "لامورسير"، الذي إستدعى الصقال من تلمسان لقراءتها، ومنها وثق وعوده في إتفاقية وقف القتال.[4]

ومباشرة بعد استلامه الرسالة، أرسل "لامورسير" رسالة إلى الدوق دومال جاء فيها: "...لقد كنت مضطرا أن ألتزم بتعهدات وأنني فعلت ذلك وأنا واثق من أن سموك والحكومة ستوافقون على تعهداتي إذا قبل الأمير كلمتي..."، ويضيف قائلا: "...إني أمتطي جوادي وفي طريقي إلى الدائرة، وليس لي الوقت أن أرسل إليكم نسخة من الرسالة

1- أرسل الأمير الرسالة التي تحمل شروطه والتي يطلب فيها من الفرنسيين الأمن والأمان مع محمد بن خوية الزمالي، وكذلك طلب رغبته في التوجه إلى الإسكندرية أو إلى عكا، وكانت طلباته كالآتي: "...نريد أن ترسل لنا كلمة فرنسي لا تنقص منها، ولا تتبدل، وتضمن لنا نقلنا إما إلى الإسكندرية أو عكا، ودون اتجاه آخر...". ينظر: - بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص250.

- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، المصدر السابق، صص411،412.

- Girardin (E), Questions de mon temps 1836-1856, Question politique, S.E, paris, 1858, pp46-77.

-Ferdinand de Cornot, recueil manuel, op-cit, pp419, 420.

2- بازين: (Achille- Bazaine)، ماريشال فرنسي من مواليد فرساي 1811م-1888م، خدم في الجزائر، واشتهر في حرب القرم، وأصبح قائدا أعلى للقوات الفرنسية المكسيك، وكلف سنة 1870م بقيادة جيش اللورين ضد بروسيا، غير أنه أضاع المبادئ، مما سمح للقوات البروسية بتطويقه في ميتز، وحكم عليه بالموت سنة 1873م لتقاعسه، غير أنه إستطاع الهرب إلى إسبانيا وقضى بقية حياته في مدريد. ينظر:

-بسام العسلي، الأمير عبد القادر، المرجع السابق، صص151،152.

3- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص187.

4- ينظر الملحق رقم 16. خطاب حول قبول الأمير لعهد الأمان الذي أعطي له عند وقف القتال.

التي تحصلت عليها من الأمير، أو نسخة من جوابي عليها، ويكفيني أن أذكر بأنني وعدت ووافقت على أن يؤخذ الأمير وعائلته إلى عكا أو الإسكندرية، ولم أذكر سوى هذين المكانين اللذين ذكرهما في مطلبه واللذين قبلتهما..."،[1] ويضيف قائلا: "...جاءني بن خوية بصحبة مبعوثي الأمير عبد القادر، كان حاملا لسيفي وخاتم الكومندار بازلي، إضافة إلى رسالة من الأمير عبد القادر، كان قد كتبها صهره مصطفى بن التهامي، أردف منها نسخة مترجمة صحبة هذه الرسالة في جوابي عليها، وجدت نفسي مجبرا لإتخاذ هذه الإلتزامات إتجاه الأمير عبد القادر، ولي الثقة الكاملة في سموكم والحكومة، في تزكيتها إذا وثق الأمير في الأمان الذي أعطيته له...".[2]

وهكذا تمت الموافقة على شروط الأمير عبد القادر، التي كان قد عهده بها الجنرال "لامورسير"، وصادق عليها الدوق "دومال Daumal". بعد هذا الإلتزام الكتابي المطمئن، ذهب الأمير مع عائلته ومع من وافقوا أن يتبعوه إلى المنفى، إلى زاوية المرابط سيدي إبراهيم، وهناك إستقبله العقيد "مونتوبان Montauban"، على رأس كوكبة من خمسمائة فارس، بكل تبجيل وتقدير يليق بمكانته السامية، وطلب الأمير أن يسمح له بالدخول إلى حرم الزاوية،[3] وصلّ ركعات وسار في ذلك الموكب إلى أن قرب من مرسى الغزوات، فاستقبله إبن الملك ومعه الجنرال "لامورسيرLamorciére"، وغيره من القواد الذين كانوا معه والأعيان في الأبهة والإحترام،[4] وبعد أن استقر به المجلس قال الأمير لإبن الملك: "...هذه الساعة التي قدر الله تعالى أن يكون فيها ما نحن فيه، وقد أخذت على الجنرال "لامورسير" عهدا وميثاقا، فلا أخشى أن ينقصه إبن ملك فرنسا وعظيمها...".[5]

حتى الآن كانت حياة الأمير "عبد القادر" مكرسة لخدمة الله ووطنه ولا ينكر أحد ولا حتى التاريخ بطولاته كان في الجزائر بطلا وخرج منها بطلا.

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص316،317.

2- Theodore (F.H) Et Lafosse (T), Histoire de la gendarmerie d'Afrique et la colonie d'après les documents de l'Armée 1830-1860, L.A.B.E, 1860, pp327-330.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص317.

4- محمد بن الأمير عبد القادر، ج2، تحفة الزائر، المصدر السابق، ص412.

- بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص250.

5- محمد بن الأمير عبد القادر، ج2، تحفة الزائر، المصدر السابق، ص412،.

-كان الأمير لما دخل الغزوات دخلها حاملا سيفه، علامة على أنه لم يؤخذ منه قهرا وإنما هو من سلمه بنفسه وبمحض إرادته، لأحد المرافقين، وليس به شيء من خوفه، كما قام بتسليم جواده للدوق "دومال" وقال له: "...إني أقدم لك آخر جواد أمتطيه، لقد كان جوادي المفضل، ولكن يجب أن نفترق الآن...".

ينظر: - بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص250.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص316،317.

- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص187.

ففي صبيحة اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر 1847م،[1] ركب الأمير عبد القادر ومن معه على متن الباخرة "لاسمودي" وتوجه إلى وهران أين كان من المفروض أن يبقى بضعة أيام، ولكن تقرر فورا مغادرته البلاد، وكان ذلك في اليوم التالي أي الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1847م.[2]

لقد اعتقد الأمير أن فرنسا ستوفي بوعودها، وأنها ستأخذه مباشرة إلى الإسكندرية أو إلى عكا، غير أن الفرنسيين وكعادتهم تنكروا وتجاوزوا لمواثيقهم، والتزاماتهم القانونية اتجاه الأمير وأتباعه. فلم يسمحوا لهم بالهجرة إلى المشرق بل حملوهم إلى المعتقلات الفرنسية مع أطفالهم وعائلتهم، وهكذا كان قد غادر الجزائر في 25 ديسمبر 1847م، على متن السفينة "لاسمودي"Asmodeus، وقد بيعت كل ممتلكاته الشخصية من خيام وجياد وبغال وإبل بمبلغ ستة ألاف فرنك،[3] وقامت سلطات الميناء بشرائها.

إن المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر برهنت على التقاليد الجهادية للشعب الجزائري، وأكدت رفضها المطلق لدخول أجنبي إلى أرض الوطن واستغلاله، فالروح المتصلبة التي تستهين بالموت دفاعا عن الدين والوطن، وتحتقر تفوق العدو بقوته المادية، فبالرغم من المآسي الضاربة، وصعوبات التجنيد، وقلة الذخيرة والمؤن وكل تلك الإهانات والتفاوت التجهيزي بين قوات الإحتلال الفرنسي والقوات الوطنية، إلا أنهم بقوا صامدين أمامهم، بقيادة "عبد القادر" الذي حمل مشعل المقاومة، وعلم النّاس الدروس الأولى للتضحية، والصبر والشجاعة، فالكل يعرف أن فرنسا طبقت حربا نفسية على الجزائريين، غير أن دهاء "عبد القادر" فاق التقدير واكتشف نيتهم وحاول كسب المزيد من الثقة في أوساط شعبه، خاصة وأنه كان يخوض المعارك أمامهم بكل بسالة ولا خوف ولا تراجع، فقد جسد فيهم فكرة حب الوطن والحرية خلال سبعة عشر سنة وهو ممتطيا جواده، باحثا عن الحرية، محافظا على شرعية الدفاع الوطني، وشرعية الدولة الجزائرية بمؤسساتها التي أنشأها، ولم يعترف بسلطة فرنسا على البلاد، حتى عندما وقع معاهدة إنهاء القتال مع الجنرال "لامورسير" بجامع الغزوات.

وفي المقابل نلاحظ رضوخ السلطان المغربي لقوات الإحتلال في أول تهديد لهم، بالرغم من النصائح التي قدمها لهم الأمير، غير أنه فضل الإستسلام على مواصلة القتال والدفاع عن شرف وطنه، وهذا راجع إلى عدم إدراكه للمشروع الفرنسي الإستعماري.

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص316.

2- Berteuil (A), L'Algérie française, Histoire, mœurs, coutumes, industrie, agriculture, D.L.E, paris, pp285,286.

3- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص318.

لقد أراد السلطان المغربي الحفاظ على عرشه وبلاطه، ولم يرغب في مواجهة قوات ضخمة وقوية عدة وعتادا وتجهيزا حضاريا كقوات فرنسا، لذلك فضل الرضوخ لمطالبها على حساب قوات المقاومة الجزائرية.

أما عبد القادر فقد أنهى القتال من دون هزيمة، فقد طلب الأمان على أن يسمح له بالذهاب إلى المشرق، فقد خشي على المستضعفين من الرجال والنساء والشيوخ من الهلاك والإبادة،[1] وأملى شروطا على فرنسا قبلتها دون إعتراض،[2] لأنه كان يشكل خطرا على تحقيق مشروعها التوسعي، وقد إستطاع عبد القادر تحقيق مالم تستطع تحقيقه الدولة العثمانية التي إستسلم دايها في الجزائر بشروط أمليت عليه، ووقع معاهدة الإستسلام في 5 جويلية 1830م، ضمانا لحاشيته ولحياته، وسلم البلاد دون مراعاة حق الشعب الجزائري، هذا ما لم يقع به "الأمير عبد القادر"، بمعنى أن هذا المقاوم المؤمن بالحرب الشعبية لم يكن قابلا للإنهزام، بل أوقف القتال طوعا طالبا للأمان، ووجد ضرورة لإنهاء مشروعه النهضوي خصوصا أنه وجد نفسه وحيدا مع مشروعه، ففي إعتقاده أنه كان يقوم بواجبه الوطني والديني نحو الوطن أثناء مقاومته للإستعمار، ضف إلى ذلك فالأمير مع نفيه إختار دولة عربية إسلامية، وكان دائما صائبا في إختياراته، غير أنه تعرض للخديعة الكبرى قانونيا وأخلاقيا، بعد أن تحولت الباخرة من وجهتها المتفق عليها إلى ميناء طولون، وهناك اعتقل مع أتباعه، ليبدؤوا رحلة جديدة في معتقلات فرنسا. وبعدها رحلة أخرى إلى بلاد المشرق أين أبرز الأمير عبد القادر وطنيته وإحساسه بالوحدة مغاربيا وعربيا وإسلاميا، إضافة إلى إبراز إنسانيته ومسؤولياته أمام أهل الشام، وغيرته تجاه الوطن العربي.

1- ربما الأمير عبد القادر طلب الأمان إقتداءا بقوله عز وجل: قال تعالى :﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. — سورة البقرة: الآية 195.

2- يقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. -سورة العنكبوت: الآية69.

وهاهو عزّ وجل قد هدى عبد القادر إلى الطريق الصحيح، بأن يختار وقف القتال على التضحية بمن معه، وهذه ميزة الحكماء أمثاله.

الفصل الرابع:

المشروع السياسي والإجتماعي للأمير عبد القادر في بلاد الشام ودوره في إخماد الفتنة الطائفية 1852م-1860م.

أ. الإعتقال التعسفي للأمير عبد القادر ومرافقيه ودور نابليون بونابرت في تسريحهم 1848م-1852م.

ب. الأمير عبد القادر في ربوع الشام و موقفه من الفتنة الطائفية 1856م – 1860م.

ج. الأمير عبد القادر ومسؤولياته السياسية والإجتماعية والدينية في بلاد الشام.

د. تقدير العالم للأمير عبد القادر وشواهد تاريخية عالمية.

هـ. الإنتاج العلمي والأدبي للأمير عبد القادر الجزائري.

و. أيام الأمير عبد القادر الأخيرة ووفاته.

إنّ الطرق التي اتبعها عبد القادر لرفع معنويات مؤيديه كانت أمراً صعباً ودقيقاً، ولما كانت المعنويات مسألة إقناع فقد أصبحت مهمته تكوين ذاته ثمّ كسب تأييد مقاتليه لقضيته وملابساته، فقد أدرك أنّ في الحروب أيضا جانبا إنسانيّا له أهمية، ويجب درسه بتأنٍّ وروية، لذلك سعى إلى جعل عناصره تحتفظ برباطة جأشها وقوّتها مهما صعبت المواجهة، كما عمل بإخلاص وإيمان على تقوية التعبئة النفسية بين أفراد شعبه وجيشه، واعتمد على الجهاد لهذه الغاية، إذ كان الطريق الصالح لحماية وجود إمارته أمام تحالف الأعداء وحشد قواته، حتى لا تسود على أرضها سوى عقيدة واحدة يحقق بها الأمن والعدل والرخاء، وهكذا استطاع الحصول على ثقة رجاله الذين أحسّوا أنّ مصالحهم مضمونة بين يديه، وأمسى رصيده ضخما يمكّنه القيام بأعظم الأعمال، خاصة وأنّنا نعرف مقدار تعلقه بالتجديد والإصلاح، وفعلا هذا ما قام به في الجزائر، حيث عمل على تجديد الجيش والإدارة والحياة الصناعية وغيرها، ولكن هذا التجديد اصطدم بحرب ضروس لم تترك له مجالاً لإنجاز مشروعه العظيم، وكانت نتيجته أسيراً في سجون فرنسا، ولكن روح التجديد بقيت متأجّجة في نفسه وبادر في القراءة والتدريس، لكن المنوال الذي يطرح نفسه: هل بقيت روح التجديد والإصلاح متأجّجة في نفسه حتى بعد إطلاق سراحه وإقامته في المشرق؟ سؤال سنحاول الإجابة عنه في فصل لاحق.

أ. الإعتقال التعسفي للأمير عبد القادر ومرافقيه ودور نابليون بونابرت في تسريحهم 1848م-1852م:

بعد رحيل الأمير عبد القادر وأتباعه[1] من أرض الوطن، شاع الخبر عند أهل الجزائر فعظم الخطب عليهم، وأخذت النساء بالبكاء والعويل، وعمد الرجّال إلى التجمعات الصامتة الحزينة.

لاحظ الحاكم تلك الظّواهر وطلب من الجنرال "لامورسير" منع هذه التظاهرات بالقوة. فأجابه: "...دعهم يبكون فإنّ هذا عزّنا. وعزّهم قد ذهب، فإني حضرت من فرنسا ضابطا صغيرا، فترقيت إلى هذه الرتبة بواسطة حروب الأمير، ومثلي كثير، ولولاه لما تحصلت على هذه الرتب والنياشين..."[2].

أما عن فرنسا فقد أحدثت أنباء اعتقال الأمير وأتباعه حماساً كبيرا من الفرح والإنتصار في أواسط فرنسا، وقد نوهت جريدة "المونيتور Le Moniteur " في عددها الثالث من شهر جانفي 1848م، بالخبر السّار الذي اعتبرته حادثا في غاية الأهمية لفرنسا، حيث جاء فيها: "...إن إخضاع عبد القادر هو حادث في غاية الأهمية لفرنسا، إذ يؤكد طمأنينة إحتلالنا، إنّه يسمح لنا أن نخفض في عدد الرّجال والأموال التي كنّا نرسلها إلى إفريقيا منذ سنوات طويلة، وهو ما يساهم في تدعيم قوة فرنسا في أوربا، كما أنها تستطيع اليوم إذا دعت الضرورة أن تنقل المائة ألف جندي التي ستستخدمها في الإحتفاظ بالأهالي المقهورين، تحت نيرها إلى مناطق أخرى"[3].

في يوم 08 جانفي 1848م،وصل "الأمير عبد القادر" وأتباعه إلى ميناء طولون[4]، وأنزلوا في منطقة تسمى "لازارات Lazar"[5] ومعهم المترجم "روسو Rousseau" -لأن الأمير لم يكن يتقن الفرنسية - وبعد إنقضاء عشرة أيام من وجودهم في "لازارا Lazara"، وصلت أوامر من الحكومة بإرسالهم إلى "فورلامالق Fort Lamalgue"[6]، وهناك استقبلهم المسؤول المحلي لمدينة طولون،[7] فكما ذكر إبنه محمد في كتابه تحفة الزائر: "...أنّه عندما أُرسِلَت

1-يذكر الباحث سلطانة عابد في مجلة المواقف، أنه توجد وثيقة محفوظة بالأرشيف الحربي الفرنسي بقصر "فنسان Vincennes" ،وهي محفوظة بقسم المراسلات العامة. وهي المراسلات المتبادلة بين وزارة الحربية الفرنسية، والقيادة العسكرية الفرنسية في الجزائر، وتحمل هذه السلسلة من المحفوظات الرمز أ هـ 1848 Oran 1H، وهذه الوثيقة عبارة عن بيان لوزارة الحربية الفرنسية، وبها أسماء العرب المشكلين لحاشية الحاج عبد القادر والذين حملوا على الفرقاطة البخارية "لاسمودي" في 25 ديسمبر 1847م، ومن خلال هذه الوثائق يمكن التعرف على مرافقي الأمير عبد القادر من آل بيته وحاشيته (عددهم، أسماؤهم، ووظائفهم)، حيث صنفتهم الوثيقة في جداول ومجموعات. للمزيد ينظر: - عابد سلطانة، أضواء جديدة عن مغادرة الأمير عبد القادر الجزائر 1847م، مجلة المواقف، عدد 05، منشورات جامعة معسكر ،ديسمبر 2010، صص307،308.

2- محمد ابن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص5.

3- Le Moniteur, Recueil des débats législatifs et politique des chambres française, France, janvier, 1848, N-03.

4- هو ميناء عسكري كبير بفرنسا على شاطئ البحر المتوسط، يقع في جنوب شرق باريس على بعد 840كم، وهو يشكل قاعدة بحرية وتجارية هي منطقة البحر المتوسط. ينظر: - الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، 192.

5- "لازارات Lazara": هي عبارة عن شبه جزيرة قاحلة تقع في فتحة جنوب ميناء طولون، وهذا المكان كانوا يعزلون فيه الناس المصابين بالأمراض المعدية قديماً.

6-حصن عسكري يتموقع في شرق طولون.

7 - S.H.D, Série, M, sous série M 881, Vie Politique et Militaire D'Abdelkader, conférences faites à la réunion des officiers d'Alger le 28 Mai et 11 Juin 1879 par Moncieur le Capitaine Varigault, F 115

الباخرة إلى مرسى "طولون"، كان ابن الملك قد عين مع الأمير الكولونيل "لورو L’heureux" و الموسيو "روسو Rousseau" ترجماناً، وأخبروه أن البارجة تمر على هذا المرسى. فبينما كان الأمير ينتظر إقلاعها ومسيرها إلى المشرق، دخل عليه حاكم طولون وأخبره أنه مأمور بنزوله في برج "لامالق Lamalgue"، إلى أن يأتي الأمر من باريس، حينئذٍ أحس الأمير بالخديعة ولم يسعه النزول[1]، فاحتجوا له بقولهم أنهم ينتظرون الجواب من الحكومة التركية إذا كانوا سيذهبون إلى عكا، أو الجواب من الحكومة المصرية إذا كانوا سيذهبون إلى الإسكندرية، وعندما يأتي الجواب سيسمح له بالإتجاه نحو وجهته، وأن هذه المفاوضات ستستغرق وقتا طويلا، فما كان على الأمير ورفقائه إلاّ أن يصبروا لقدر الله عزّ وجل؛ هذا ما قاله عبد القادر: "...لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا..."[2].

في اليوم التالي من السجن جاء الجنرال "دوماس Daumas"[3] مكلفا رسميا من ملك الفرنسيين أن يتقدم إلى الأمير بأكثر العروض سخاءا وإغراءا إذا رضي، مقابل أن ينسى الوعد الرسمي الذي أعطاه له الجنرال "لامورسيير،" والدوق "دومال" عندما أنهى القتال، فعرض عليه مكانة مرموقة في فرنسا:" قصرا ملكيا، وحرسا شرفيا، وكل الأبهة والحاشية الجديرة بأمير"، غير أنه رفض كل العروض والإغراءات. و فضّل البقاء في ديار الإسلام على كل كنوز أعدائه وثرواتهم.[4]

1-محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص5.

2-شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص321.

- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص5.

-Du Barail (F.ch), Mes souvenirs 1820-1851, T1, 12éme librairie plan nourrit, Paris, 1897-1898, pp215-220.

3-أوجين دوماس (Eugéne Daumas): 1803-1871، قائد عسكري تخرج من مدرسة الخيالة بصومير برتبة نقيب مساعد في سنة 1827م، وفي سنة 1835 رقي إلى رتبة نقيب مدرب في جيش قناصة إفريقيا، وبعد معاهدة التافنا 1837م، عين قنصلا لفرنسا بمعسكر، خلفا للقنصل الأول "منافيل"، وشغل "دوماس Daumas" هذا المنصب من 15 نوفمبر 1837م حتى 15 أكتوبر 1839م، عشية إستئناف الحرب بين الأمير وقوات الإحتلال، ثم عين مديراً للشؤون العربية بالجزائر سنة 1844م، وهناك أطلق عليه العرب لقباً "ولد الشمس Le fils du soleil"، كما رقي إلى رتبة كولونيل على رأس الصبايحية، وفي سنة 1850م تولى إدارة الشؤون الجزائرية، بوزارة الحرب ومنها عين مستشاراً لمجلس الدولة بفرنسا (1852م)، ثم عضوا بمجلس الشيوخ (1858م)، ولم يشغل بعد ذلك إلاّ منصب ترجمان خلفا للترجمانين "لورو وروسو" وذلك لمعرفته باللّسان العربي، وإطلاعه على العادات والتقاليد الجزائرية، كما ألف كتبا عديدة عن الجزائر، إستغلتها سلطات الإحتلال لبسط هيمنتها على البلاد. ينظر:

- عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، صص194،195.

- Du Barail, op-cit, p219.

4- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص155.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص321،322.

- لم يخضع الأمير عبد القادر للضغوط المادية والمعنوية التي مورست عليه قصد حمله على التنازل عن مطلبه والقبول بالإستقرار في فرنسا، وقد عرضت عليه الحكومة الفرنسية التنقل في باريس والإستقرار بها وعائلته، مثلما قصدها "إبراهيم باشا"، "خديوي مصر"، فكان ردّ فعله معبّرا عن رفضه لوضعية الأسر ولإيمانه بعدالة مطلبه قال: "...إن إبراهيم باشا يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزها له، يمرح فيها كيف يشاء، وأما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلاّ سجنا لي ولمن معي، فلا فرق عندي بين طولون وفرنسا..."، ورغم كل ذلك بقي متفرغا للكتابة والعبادة والتدريس. ينظر:

- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص6.=

كان "عبد القادر" صابراً ومسلِّما أمره لله تعالى، وقد نشر في أتباعه نفس الروح، وكان يقول لهم الكلمة التي إشتهر بها والتي يحبون سماعها: "إن مرجعية أخلاقنا تكمن في سلفنا الذي كان دائما محافظا على كرامته وحرمته رغم الصعوبات"، قال هذه الكلمات وهو متأكد من أنّ فرنسا سوف تتخلى عن إلتزاماتها ووعودها خاصة وأنه أحس بروح المسؤولية إتجاه أتباعه ورفقائه، لذلك وجد نفسه ملزماً بحمايتهم، فهم رعاياه، متوعّدين ألّا يتقرّبوا منه إلاَّ بالتبجيل والإحترام الضروريين للملوك، أما الآن فهم أصحابه، فقد وضع كل وسائله المتواضعة تحت تصرفهم، وكان سيسعد إن استطاع أن يرفع المشقة عنهم أو أن يساهم في تلبية حاجاتهم.[1]

وفي 28 فبراير 1848م، وصلت أخبار الثورة في باريس ضد ملكية "لويس فيليب louis philippe" وإعلان الجمهورية الثانية إلى "الأمير عبد القادر"، وفي الحال رأى الأهمية العظمى لهذا الحادث على مستقبله ومستقبل من معه، وشعر بخطورة الموقف وتأزمه، فليس بينه وبين الحكومة الجديدة أية علاقة، ولم يعد بإستطاعته أن يتكلم باسم المعهادات والشّرف والوفاء بالوعود،[2] لكنه رغم ذلك فقد كتب إلى الحكومة المؤقتة للنظام الجمهوري من سجنه، مندّدا بالغدر الذي لحق به.

كل ما فعلته الحكومة الجمهورية هو نقله إلى قصر (هنري الرابع) في مدينة "بو Pau"،[3] والتي وصلها يوم 21 أفريل 1848م[4]، واستبدل الكولونيل "دوماس Daumas" بالقبطان "بواسوني Boissonnet"، حيث اتصلت السلطات بأخبار مفادها أن عملاء إنجليز كانوا بالقرب من المكان لتسهيل عملية فرار عبد القادر، فوضعت القضبان الحديدية على جميع نوافذ القلعة، وكان الحراس يقعدون تحتها ليلاً ونهاراً، حتى أنهم فصلوه عن عائلته لظروف

=- بوعلام بلقاسمي، رحلة الأمير عبد القادر إلى فرنسا، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين، إكتشاف الذات للآخر، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين، دار السيودي للنشر والتوزيع، دورة الجزائر، 2005، ص471.

- محمد الطاهر عزوي، تصوف الأمير عبد القادر تصوف جهاد في الجزائر والسجن بفرنسا وفي المنفى بالمشرق العربي، الحياة الروحية للأمير عبد القادر، ملتقى الجزائر، 29 يونيو 1998، تلمسان، 2011، ص92.

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص321،322.

- Girardin (E) , Question de mon temps, op-cit, pp450-455.

- عبد الوهاب بلغراس ، الأمير عبد القادر في مواجهة أزمة الأسر، الأزمات في تاريخ المغرب الكبير، أشغال الندوة الدولية المنعقدة بصفاقس، تونس، 25-27 أكتوبر 2007، ص183.

2-شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص323.

3-بو Pau: عاصمة إقليم بيارن (Bearn) في البيرنيه السفلى (Basse pyrnees) ، تقع على نهر الكاف، وهي إلى الجنوب الغربي من باريس، وعلى بعد 760كم منها.

- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص155.

4- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص13.

-جاء في مجلة العلوم السياسية الناطقة بالفرنسية، أن الأمير عبد القادر تقرر إرساله إلى قصر "بو Pau" مع أتباعه وعائلته ومقربيه، لإعتقالهم بموجب قرار الحكومة ومحضر الإجتماع رقم 34 المؤرخ في 26 مارس 1848م، ويكون ذلك ليلاً على الساعة الثامنة. للمزيد ينظر:

-R.S.P, Abdelkader en exil d'après des documents inédit 28em année, janvier- juin, 1913, p236.

أمنية خوفا من هربه، لذلك أقروا له أن يبقى مع عائلته طوال النهار ويعود إلى معتقله ليلا في برج "غاستون فوبوس Gaston Fobos"، ولكن دائما يبقى تحت الحراسة الشديدة ويمنع من تعلم اللغة الفرنسية.[1]

لقد شعر "الأمير عبد القادر" في مثل هذه الظروف بأنه سيبقى أسيراً مدى الحياة، وسلم أمره لقدر الله تعالى، كما وضع رقابة ذاتية تضبط عواطفه التي كانت ثائرة حتى الآن. وهي صراع نفسي جاء بعد قرار عسير إتخذه وهو التوقف عن المقاومة، ثم الصبر على بقائه أسيراً في سجون فرنسا.

لكن كل هذه الظروف القاسية التي كان يتخبط فيها فإنها لم تحبط من عزيمته، فهو مازال يمتلك طاقة عظيمة وإيمان قوي بالقضاء والقدر، الذي تقوى بهما على الوحشة والإنفراد، علاوة على ذلك فقد تزاحم الناس الناس عليه من كل أنحاء فرنسا طارقين أبواب القلعة، كما تنافس عليه مختلف الرجال من الشخصيات السياسة والدبلوماسية والعسكرية من أجل إشباع فضولهم بلقاء هذه الشخصية الفذّة، ومع نكبته في أسره ووجوده خلف القضبان إلاّ أنّه كان مضطرا صبورا للقيام بالإستقبالات الرسمية التي كانت تدوم أحيانا لعدة ساعات.

هذه الأحداث وتلك جعلت منه شخصية عالمية محترمة، كما جعلته أوّل مساهم في الحوار بين الديانات والثقافات للقرن التاسع عشر، ورمزاً للعالمية والقيم الإنسانية، فالأمير جسد المشروع الوطني الروحي الجهادي الإسلامي، عكس الغرب الذين جسدوا المشروع الإستعماري التوسعي، فهو رجل مسامح يعتذر لأعدائه، ورجل قلم وعبادة قبل أن يكون رجل سيف وحرب، وهذا ما أكده الجنرال "دوماس Daumas" في رسالة له وجهها إلى السيد "دوبوش Dupuch" أسقف مدينة الجزائر قائلا: "...إنك ستشاهد سجين قصر بو الشهير أوه ! إنك بالتأكيد لن تندم على زيارتك له، إنك عرفت عبد القادر في أيام عزه، عندما كانت كل الجزائر تقريبا تعترف بحكمه، حسنا إنك ستجده أعظم وأجل في محنته منه في عزه، إنه ما يزال -كما عرف عنه- يسمو إلى أعلى الدرجات...إنك ستجده معتدلا بسيطا جذّابا متواضعا ثابتا لا يشكوا أبدا، معتذرا لأعدائه -حتى أولئك الذين مازال يمكن أن يعاني على أيديهم كثيرا- ولا يسمح أبدا أن يُذْكَروا بسوء في حضرته، رغم أنه قد يشكو عن حق من المسلمين أو المسيحين فإنهم سواء يجدون منه الصفح، فهو يلقي تبعة الأولين على الظروف، وتبعة الآخرين على أمن وشرف الراية التي حاربوا تحتها، إنك في ذهابك لزيارة هذه الشخصية النبيلة السامية ستضيف عملا آخر صالحا إلى أعمالك الأخرى التي أصبحت حياتك متميزة بها".[2]

وهنا تتجلى روح الأمير الدّينية والإنسانية التي سعى جاهداً من أجل ترسيخها لكل الأمم العربية منها والغربية، غير أن القدر حال دون تحقيق ذلك.

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص327.

- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص13.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق،صص328،329.

رغم كل الجهود التي قام بها في شحذ همم أوليائه وتثبيت نفوس أتباعه، إلاّ أنّهم إنساقوا وراء اليأس والقنوط، فهم أبناء الصّحراء الشاسعة الواسعة المتراهية الأطراف، فمنازلهم سهولها غير المحدودة وحدودهم أفقها البعيدة، فقد كانوا يذبلون في مأواهم الجاف الضيقيومت تلو الآخر، إلاّ أنّهم لم يستسلموا للصعاب رغم ذلك، فأبوا ألاّ يفارقوا أميرهم حتى لو جاءهم نبأ إطلاق سراحهم، لأنّهم قرروا عدم الإبتعاد والتخلي عنه خاصة في هاته الظروف الصعبة.

في شهر جوان 1848م عين الجنرال"لامورسير Lamorcier" وزيرا للحربية الفرنسية، وكتب له الأمير مذكراً إياه بوعوده الشخصية، لكن مرت أيام وأسابيع دون جواب، ففكّر أتباعه بالقيام بعمليات إنتحارية للموت من أجل إثارة قضية الأمير، وذلك بالتصدي للحرس المسلح، وخوض الصراع معهم، فلما بلغ الخبر وزير الحربية، قرر نقل الأمير وحاشيته إلى قصر "أمبواز Amboise"[1]، وتم ذلك في 02 نوفمبر 1848م.[2]

وقد جاءهم أمر من "لامورسير Lamorcier"، مفاده أنّه غير مسموح لهم أن يتحدثوا أو يتصلوا بأحد من الخارج، ولاحتى كتابة الرسائل، أو إستقبال الزوار، دون إذن خاص من وزير الحربية، غير أنّ الأمير كعادته واصل حياته في التعبد والصلاة والتأمل، ينتظر فرجاً من عند المولى عزّ وجل.

بعد مضي شهر من وصول الأمير إلى معتقله بقصر "أمبواز Amboise" تم الإعلان عن ميلاد الدستور الجديد المكون من هيئة تشريعية واحدة، ورئيس واحد للجمهورية الثانية، وهو "لويس نابليون Charles louis napoléon"، حيث صعد إلى عرش فرنسا في 10 ديسمبر 1848م. وبعد أربعة وعشرين يوماً من إنتخابه، تم عقد مؤتمر لمناقشة قضية الأمير عبد القادر في يوم 14 جانفي 1849م، حيث وقف نابليون الثالث إلى جانب طلبات الأمير في الإفراج عنه، والتوجه إلى البلد الذي يريده، غير أن هناك بعض المسؤولين والجنرالات عارضوا ذلك، ما عدى البعض مثل: النائب العام "إميل أوليفييه Emile olivier" الذي كان يشفق عليه، و"بواسوني Boissonnet" واللورد "لندنبري Londen Bery"،[3] أما الجنرال "بيجو" فأرسل رسالة له يقترح فيها عليه البقاء

1- قصر "أمبواز Amboise" مدينة في دائرة "تور" مقاطعة إيندرو اللوار ويحيط بالضفة اليمنى النهر "اللوار" يقع جنوب غرب باريس، ولد ومات "شارلي الثامن" فيها، وهو الذي بناها في القرن الخمس عشر ميلادي (ق 15م)، وقد أستخدم قصره لإقامة الأمير عبد القادر (1848-1852). للمزيد من التفاصيل ينظر: - بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص156.

- Loiseleur (J), Les Résidences royales de la loire, P.E.D, Paris, 1863, pp270-280.

-جاء في مجلة العالمين: أنه في 03 ماي جاء نائب رئيس البلدية لزيارة الأمير عبد القادر في سجنه بقصر "بو"، غير أنه أعرض على عدم إرتياحه للفكره، وأكد ضرورة نقله لموضع آخر أكثر أمنا من "بو" التي يسهل عليه الهروب منها، وقد كتب رسالة إلى رئيس البلدية وأعضاء المجلس. للمزيد من التفاصيل ينظر:

-Revue des deux mondes, T16, E.B.D.M, Pris, 1 octobre, 1852, 1852, p430.

2-شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص333.

-Zoumoroff, op-cit, pp, 409, 410.

3-اللورد لندنبري Londen Bery: كان مساندا لقضية تسريح الأمير عبد القادر، وألقى خطابا في مجلس النواب يدعو إلى إطلاق سراحه، غير أنه لم يتلقى ترحيبا من قبل وزراء الحربية، لكنه تمكن من دفع نابليون napoléon للقبول بزيارة الأمير عبد القادر في أمبواز، وكذالك الأمر بالنسبة لبواسوني الذي كان أكثر تفانيا في خدمة الأمير عبد القادر، حيث تمكن الأمير بفضله من مراسلة نابليون napoléon، والذي وعد بزيارة أمبواز للقائه.

في فرنسا واعتبارها وطنا له غير أن الأمير رفض كل هذه المساومات، مفضلا بذلك السجن على مباهج فرنسا وطبيعتها[1]، وبقي يذكّرهم بالإلتزامات والوعود التي صرّحوا بها نحوه.

ظهر أن إقامة الأمير في سجن "أمبواز Amboise" ستكون طويلة، لذلك سلّم أمره لربّه ومضى في عبادته، وفق نظام خطّه لنفسه، فقام بتدريس العلم وأفاده للطلبة من جماعته، فقرأ الصغرى للسنوسي في علم الكلام، ورسالة الإمام محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه، وغيرها من المصنفات المفيدة، ثم سلك أخوه الكبير السيد محمد السّعيد ومصطفى بن التهامي جادته، وأفادوا الطلبة إفادته، واجتمعوا لقراءة البخاري على نية تفريج كربهم، وقراءة كتاب "الشفاه" للقاضي "عياض المالكي"، واستمروا على هذه الحال إلى حين إطلاق سراحهم.[2]

ويذكر أيضا أنه قام بتأليف كتابين، الأول بعنوان "وحدانية الله" والثاني "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، فالأول عبارة عن مقارنة، وفي نفس الوقت إستعراض بارع لكل الحجج التي تؤيد وتوضح ذلك المبدأ الأساسي للدين المحمدي، أما الثاني فهو مقسم إلى ثلاثة أقسام: حيث يتناول القسم الأول فوائد التعليم، بينما يتناول القسم الثاني أمور الدين والأخلاق أمّا القسم الثالث تحدث فيه عن فن الكتابة والعلوم العامة،[3] كما كان الأمير عبد القادر يطلب غالبا من السيد "دوماس Daumas"، أن يؤمّن له بعض الكتب من أجل الإطلاع عليها.

وفيما بعد بدأت قيود الأسر تخف شيئا فشيئا، فقد أصبح بإمكان "الأمير عبد القادر" أن يخرج إلى حديقة المتنزه، بعد أن كان لا يرى سوى جدران السجن -ولكن خروجه كان نادرا- لدرجة سمحت لطبيبه بالتدخل من أجل نصيحته بضرورة الهواء الطلق، وكان الأمير يجيبه ذات الجواب بإستمرار قائلا له: "ما أحتاج إليه هو هواء الحرية، فهو وحده القادر على إحيائي من جديد".[4]

في سنة 1851م وتحت إلحاح وجهاء البلدة المتأثرين لما يعانيه الأسرى التعساء،تمكن الأمير ومن معه بالقيام بنزهة، فقامو بزيارة قصر "شينونسو Chenonceau"[5] مع مرافقه "بواسوني Boissonnet" وطبيبه وبعض

1- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، صص156،157.
- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص336.
2-محمد بلقراد، الجانب الصوفي والثقافي، المرجع السابق، ص73.
3-**أولا**: يذكر أبو القاسم سعد الله أن هنري تشرشل ربما قصد بكتاب "وحدانية الله" هو نفس الكتاب المعنون "المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام في أهل الباطل والإلحاد" لأن إبنه محمد ذكر هذا العنوان في تحفة الزائر، ج2، ص27، وهذا ما أكدته بديعة الحسني. للمزيد ينظر:
- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص337.
- بديعة الحسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، دمشق، 2000، ص78.
ثانيا: ذكر العاقل وتنبيه الغافل: إختلفت الآراء حوله فهناك من يقول بتأليف الأمير عبد القادر له بأمبواز، وهناك من يرجعها لفترة وجوده ببروسة (1853م-1855م)، ولكن الأرجح كتبها بأمبواز وأتمها في بروسة.
4- برونو إتيين، عبد القادر الجزائري، تر: خوري ميشيل، دار عطية للنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص269.
5-القصر كان محل إقامة الكونتيسة "دي فيلنوف" وكانت ترسل بإنتظام الثمار والأزهار للأمير وعائلته، فشكرهم الأمير على ذلك. ينظر:
- المرجع نفسه، ص270.

مساعديه، كما أبدى الأمير عبد القادر إهتمامه بالزراعة المحلية، وعبّر عن إعجابه بالقطار الذي يمرّ في محطة "ليموراي Limeray" وكتب فيما بعد رسالة من القسطنطينية يشكر فيها ناظر محطة أمبواز السيد "بيك باريس Pic-paris".[1]

في هذه الأحيان، وصل "الأمير عبد القادر" خبر من صديقه المحبوب "دوبوش Dupuch"،[2] أن "لويس نابيليون Charles louis napoléon" أصبح سيد نفسه، ويستطيع أن يعمل على تسريحه دون أية معارضة، كما أعلمه بإتمامه للكتاب حول قضيته، وسبق أن أرسله إلى " نابيليون Napoléon"، كما أخبره أن الرئيس في إنتظاره يوم 02 فبراير 1852م، وفيما إذا تمكن من رؤيته فإنه سيذكره بقضيته أمامه، وفعلا فقد قرر الرئيس بعد ذلك إعادة فتح ملف الأمير عبد القادر، رغم تحذيرات بعض الجنرلات أمثال "سانت آرنو Saint Arnaud"، ولكنه اكان قد إتخذ قراره النهائي لإعادة النظر في قضية الشرف الفرنسي ، وحرية الأمير. ومن هنا بدأ يفكر في إطلاق سراح السجين.[3]

في 16 أكتوبر 1852م ولأوّل مرة ومنذ مدّة طويلة، فتحت أبواب القصر عن آخرها، وكأنها تستعد لإستقبال حدث خاص وغير معهود، لم يكن أحد يعرف سر ما يحدث فالكلّ ينفّذ الأوامر الموجهة إليه دون أسئلة، فمنذ أن تلقّى "بواسوني Boissonnet" مدير قصر "أمبواز Amboise"، نبأ زيارة "نابليون" للأمير عبد القادر والتحضيرات الخفية تسير بسرعة كبيرة، لأنه طلب منه أن يكتم السر حتى يعلن هو بنفسه عن المفاجأة للأمير عبد القادر، فهو كان في زيارة تفقدية لمدينتي (بلوا وبوردو)، وهكذا نزل الرئيس "لويس نابيليون napoléon" من القاطرة، وقد كان "بواسوني Boissonnet" في إنتظاره برفقة كتيبة عسكرية صغيرة، في محطة "أمبواز Amboise"، وكان معه ضباطه: الجنرال "سانت آرنو Saint Arnaud" والجنرال "روكي Roquet"، الكلونيل "فلوري Fleury" وضباط آخرون.

لقد تحدث "بواسوني Boissonnet" مع الرئيس طويلا، ثم ركبا السيارة الرئاسية وسارا بإتجاه قصر "أمبواز Amboise"، وكانت علامات الرضا بادية على وجه الرئيس ،لأنه كونه كان مصمّما على ضرورة إنقاذ الشرف القومي الذي طال تلطيخه، بإخلاف الوعد الذي سيطر على عقله وكان فوق جميع الإمتيازات. فهو أراد أن يخلّص

1- برونو إتيين، عبد القادر الجزائري، المرجع السابق ، ص270.

- Louis jean Sureau, Alescis Feul Varc'H L'Emir Abdelkader à Amboise, 1848-1852, F.S.L, France, 2002. pp22,23.

2-لمعرفة علاقات الأمير ب"دوبوش Dupuch" ينظر: -بقبق زهرة، الأمير عبد القادر في الأسر 1848م-1852م، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجستير في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، تحت إشراف د. الصم منور، جامعة وهران السانيا، 2009-2010، صص119-122.

3- المرجع نفسه، ص140.

- الأعرج واسيني، كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، دار الأداب، بيروت، ط2، 2008، صص252،253.

فرنسا من سخرية أوروبا كلّها، أمّا "عبد القادر"، فكان قلقا وسعيدا بهذه الزيارة،[1] وفي الطريق خط " نابيليون" كلمات كان قد فكّر فيها طويلا حتى قبل أن يبدأ زيارته لبوردو ولمدينة بلوا، وبقلم الرصاص في الوثيقة التالية:

" عبد القادر: إنني قادم لأعلن لك حريتك، إنك ستحمل إلى بروسة في منطقة السلطان حالما تنتهي الإجرءات الضرورية، وستخصص لك الحكومة الفرنسية مرتبا يليق بمكانتك القديمة، ومنذ وقت طويل وأسرك يسبب لي ضيقا حقيقيا، إنه دائما يذكّرني أن الحكومة التي سبقت حكومتي لم تنجز الإلتزامات التي تعهدت بها نحو عدو منكوب وأنه لإهانة في نظري لأمة كبيرة عندما تبلغ درجة الشك في قوتها الذاتية فتخلف وعدها، إن السّخاء هو دائما أفضل مستشار، وإنّني على يقين من أن إقامتك في تركيا لن تؤثر بأي شكل على هدوء ممتلكاتي في إفريقيا.

إن دينك وديني أيضا، ينصّان على الإذعان لمشيئة الله، فإذا كانت فرنسا الآن منتصرة في الجزائر فلأن الله أراد ذلك، وأن الأمة لن تتخلى أبدا عن هذا الإحتلال، لقد كنتَ عدوا لفرنسا، ولكني مع ذلك مستعد أن أقوم نحوك بالعدل الكامل لشجاعتك وشخصيتك وصبرك في الشدة، ولذلك فإني أشعر بأن الشرف يقتضيني أن أضع حدا لسجنك وأن أعتمد تمام الإعتماد على كلمتك".[2]

كان الأمير كعادته في الزاوية الإعتيادية في مثل هذا الوقت، يقرأ ويردّ على الرسائل التي كانت تصله يوميا، لم ينتبه للحركة التي غيرت قليلا من نظام القصر على الرغم من إحساسه الدّاخلي بأن شيئا ما بصدد الحدوث، ولم يفكر في زيارة الرئيس له، ولكنه فكر في نقل جديد بإتجاه مكان آخر، هذا ما تعوّد عليه وهو سجين فقد محت سنوات السجن الطويل والوعود الكاذبة كل بصيص أمل في نيله الحرية، والتي كتب له القدر أن يسمعها وبعد طول إنتظار دام خمس سنوات، من قِبَلْ رئيس دولة كانت من أكبر أعدائه.

وبعد أن دخل عليه "بواسوني Boissonnet" أحسّ الأمير عبد القادر بأن لهجته قد تغيرت، وملامحه وعيناه مملوءتين بالسعادة الغامرة إلى أن أدخل عليه الرئيس "لويس نابليون Charles louis napoléon" الذي

1- الأعرج واسيني، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص262.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص338.

- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص45.

- Louise Napoléon Bonaparte, Discours et Messages de Louis Napoléon Bonaparte, Depuis son retour en France jusque au 2 décembre 1852, Paris, T.P.F, 1853, pp 243,244.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص338،339.

- برونو إتيين، المرجع السابق، ص271.

- الأعرج واسيني، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص264.

شرّفه بزيارته، والتي لم يكن يتوقعها وهو في سجنه، ففتح عينيه ليتأكّد مما يراه، فإستقام جيدا وتقدم الرئيس نحوه وقدّم له التّحية وقال له: "Je suis venus vous annancer votre libérte".[1]

لم يفهم "الأمير عبد القادر" سوى كلمة "الحرية" والتي برزت بشكل واضح وقال: "سيدي الكبير، قد يكون السّجن قد قلّل من حساسيتي تجاه الأشياء، ولكن لا يمكنني أن أخطئ في كلمة الحرية، هذه الكلمة أعرفها جيدا في لغتكم"، وأخيرا طلب الرئيس من "بواسوني Boissonnet" أن يقرأ النصّ في لغته الأصلية ويترجمها له.

وبعد قراءتها إلتفت الأمير عبد القادر للرئيس قائلا: "...إني أعدك يا سيدي ألاّ أمسّ هذا البلد بسوء على كل حال، فأنا توقفت منذ زمن بعيد عن كل شيء، ويمكنني حتى أن ألتزم كتابيا..."، واكتفى"نابليون napoléon" بالكلمة فقط. فطلب الأمير من رفاقه الإنحناء للرئيس الذي أنقذهم ففعلوا، وأعدت صفرة الغذاء وكان الغذاء جزائريا، فكما قالها "جون كيسر John Kisser" (وجبة الحرية)، وهو عبارة عن كسكس حضرته نساء القصر، و"لالا الزهراء" بيديها النحيفتين،[2] وبعد الفراغ من الغذاء قام الرئيس، وإستأذن بالإنسحاب على أمل أن يلتقوا في إحتفالات باريس.

لقد غمر قلب الأمير عبد القادربالفرحة العارمة، وبسعادة لا توصف تعبّر عن الصبر الطويل الذي دام خمس سنوات من العذاب والقهر، تنتظر بصيص أمل لنيل الحرية التي كان بأمسّ الحاجة إليها، ليطلق العنان لأفكاره من أجل مواصلة مشاريعه النهضوية -ولكن هذه المرة بقلمه لا بسيفه-

وهكذا عجّل بإعلان النّبأ الطيب لجميع أصدقائه الفرنسيين الذين ساندوه، وإنطلقت الرسائل في الإنتشار، وهنا أدرك "الأمير عبد القادر" في هذه اللحظة أن يقوّي فكرته العميقة والنهائية أنّ من يؤمن بالله لم يضيّع شيئا، وأنّه لن "**تغرنّك الحياة الدّنيا، ولا تلهك أباطيلها عن ذكر الله**".

وبعد ذلك عمل "الأمير" من أجل الحصول على موافقة الرئيس "لويس نابليون napoléon" لزيارة باريس وتم له ذلك يوم 28 أكتوبر 1852م، وكان "بواسوني Boissonnet" مرافقه مع "بن علال وبن قارة محمد"، وانتظم لشرفه إستقبال جدير به ،بأمر من الرئيس، وكانت تظاهرة شعبية في إنتظاره،[3] وقبل إنطلاقه قام بزيارة المقبرة التي دفن فيها أطفاله وزوجته وكل مقربيه، وقرأ عليهم سورة الفاتحة.[4]

1- الأعرج واسيني، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص568.

2-محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص47.

- الأعرج واسيني، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص568.

3-شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص339.

- برونو إتيين، المرجع السابق، ص272.

4-الأعرج واسيني، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص570.

وفي نفس المساء الذي وصل فيه إلى باريس دعي لزيارة الأوبرا (موسى) ب"روسيني Rossini"،[1] كما وجهت له الدعوة بزيارة الرئيس في قصر "سان كلود St cloud" في قصره، حيث سيقدم له الإمبراطور وثيقة عهده لإطلاق سراحه.

وبناءا عليه توجه الأمير عبد القادر في 30 أكتوبر 1852م مرفوقا بمسؤولي خيوله "قارة محمد""وبن علال"، "وسيدي قدور" وكوكبة من الضباط الفرنسيين المعنيين لإصطحابه ،فوصل قبل الموعد المحدد لإستقباله ببضع دقائق، وكانت الساعة تشير إلى توقيت مكة، وكان الوقت بعد صلاة الظهر، وأمام الجميع قام إلى الصلاة.[2]

وبعد قليل قدم الرّئيس الذي كان واقفا محاطا بجميع كبار دولته إلى "الأمير عبد القادر"، وعندما إنتهت حفلة التقديم طلب عبد القادر الإذن منه لإلقاء بعض الكلمات،ليعبر عن نفسه بطريقة لا تخلو من تأثر كبير قائلا: "... أيها الأمير إنني غير معتاد على تقاليدكم، ولعلني على وشك أن أرتكب خطأ، ولكني أرجو أن أعبر عن عواطفي نحوكم، ونحو الشخصيات المرموقة التي أراها حولكم، إن آخرين قد وعدوا بشيء لم ينجزوه، ولكن سموّك قد أنجزت تعهدات لم تلتزم بها، فشكرا على كرمك الذي مكّنني من أذهب للعيش في بلاد إسلامية، إنّ الكلمات تذهب كما تذهب الريح، أما الكتابة فهي خالدة، إنني أقدم إلى سموّك هذه الورقة، إنها تحتوي على وعد مكتوب...".

قدم وثيقة مكتوبة، يلتزم فيها بوعد خطي ألا يعود لحمل السلاح وجاء فيها: "الحمد لله وحده...إنّ الذي يقدم إليك نفسه هو عبد القادر بن محي الدين...إنني إذن قد جئت لأقسم لك بالله العظيم وبكل الأنبياء والرسل ألاّ أفعل شيئا يتنافى مع الثقة التي وضعتها في، وعلى أن ألتزم بهذا القسم إلتزاما دينيّا بأن لا أعود أبدا إلى الجزائر... إنّ ديني وشرفي يأمرانني بالإحتفاظ بقسمي ويستنكران الحنث، إنّني شريف وليس هناك من يتّهمني بالخيانة...".[3]

وقد ردّ "لويس نابيليون Charles louis napoléon" على هذه الوثيقة التي تحمل تعهّدا بعدم العودة إلى الجزائر، فرد على ذلك قائلا: "...إنك قررت أن تسجّل هذه الوثيقة وتضعها بين يدي فأنا أقبلها، وهذا التّعبير التلقائي عن عواطفك يبرهن لي أنني كنت على حق عندما أوليتك ثقة بدون حدود...".[4]

1-كتبت جريدة "الألوستراسيو Illustration" بتاريخ 28 أكتوبر 1952م: "عبد القادر أسد إحتفالاتنا العامة، فنخبة باريس تصفق له، وهو يتلقى ترحيب "لويس نابيليون Charles louis napoléon" في المقصورة الإمبراطورية من الأوبرا معانقا، حيث إستمعا إلى أوبرا (موسى) ب"روسيني Rossini". ينظر: - برونو إتيين، المرجع السابق، ص272.

- وأيضا: - الأعرج واسيني، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص575.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص340.

3- المصدر نفسه، ص340،341.

4-المصدر نفسه، صص340،341.

- للتعرف أكثر على ما جاء في هذا التعهد المكتوب ينظر:

- Bruno (E), pouillon (F), Abdelkader le magnanime, ED: Gallimard, paris, 2003, pp 268-270.

- برونو إتيين، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، صص273-275.

أمضى "الأمير عبد القادر" بعد ذلك أياما في زيارة معالم "باريس، قصر فرساي الأثري، كنيسة المادلين، الأنفاليد Invalides، والمستشفيات"[1]، كما جاء لزيارته الوزراء، ورجال الدين المسيحي، وكبار القادة والضباط الذين كانوا أسرى لديه ثم أطلق سراحهم، وعندما جرى إنتخاب " نابيليون napoléon" إمبراطوراً على فرنسا يوم 21 نوفمبر 1852م، طلب الأمير إعطاءه حق الإنتخاب، فأدلى بصوته، واشترك في إحتفالات التنصيب يوم 2 ديسمبر 1852م في قصر "ألتويلري"، وإلتقى بنابليون، وقدّم له التّهنئة على فوزه في الإنتخابات، ثم عاد إلى "أمبواز Amboise" ليحضّر نفسه وعائلته للرحلة النهائية إلى بروسة.

في 21 ديسمبر 1852م[2] صعد الأمير وحاشيته السفينة "لابرادور Labrador" والتي أقلتهم إلى صقلية، ومنها إلى إسطنبول بقيادة "سان سيمون"، ووصلوا إلى تركيا يوم 7 جانفي 1853م، وأقيمت على شرفه إحتفالات لإستقباله[3] وزاره وزراء الدولة، وأول ما قام به حين وصوله هو ذهابه إلى المسجد ليشكر الله، ثم انتقل بعد ذلك إلى جزيرة بروسة فأقام فيها ثلاثة سنوات،[4] وقسّم حياته فيها بين العبادة والتعلم وتعليم أولاده، كما اهتم بالأعمال الخيرية ومساعدة المحرومين، وحين تعرضت تركيا للزلازل سنة 1855م، وجدها الأمير حجة وفرصة لإظهار رغبته في الإنتقال إلى دمشق حيث وصلها في نهاية نوفمبر 1856م.[5]

ب. الأمير عبد القادر في ربوع الشام و موقفه من الفتنة الطائفية 1856م – 1860م:

ب.1. وصول الأمير عبد القادر الى دمشق واستقراره النهائي فيها:

عزم الأمير عبد القادر على أن يسكن دمشق في سنة 1855م، بعد أن أقام في بروسة ، فارتحل إليها مع عائلته و أتباعه عن طريق بيروت التي وصلها في 24 نوفمبر 1856م[6]، استقبله أهل بيروت برئاسة واليها "نامق باشا"، استقبالا كريما، يليق بمقامه، فاجتمع أمراء تلك المنطقة و مشايخها لملاقاته في جبل لبنان، و رتّبوا جموعهم، و أطلقوا بنادقهم، وساروا عن يمينه وشماله يرتجزون –ينظّمون فيه رجزا وينشدونه إياه–[7].

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص343.

2- في 23 ديسمبر 1852م قامت الدولة العثمانية بالترتيب من أجل إجراء لقاء بين الأمير عبد القادر الجزائري المنتظر قدومه من معتقله بفرنسا وبين السلطان العثماني وإرساله للإقامة في بروسة بعد هذا اللقاء. ينظر:

- Osmanli Arsivi, I.HR,4556.

3- ينظر الملحق رقم 17.

4- قامت الدولة العثمانية بتغطية قيمة إيجار البيت الذي تم إستئجاره للأمير عبد القادر في بروسة وتغطيية نفقات تأثيثه. ينظر:

- Osmanli Arsivi, I.HR, 4620.

5- S.H.D, Série, M, sous série M 881, op-cit, FF 125,126.

- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، صص158،159.

6- لقد استقر الأمير في سوريا عاصمة الأمويين سنة 1855م، ولقد تزامن وصوله هذا إلى منطقة الشرق الأدنى، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في حرب مع روسيا، و هي حرب القرم التي شاركت فيها كل من فرنسا و انجلترا إلى جانب الدولة العثمانية من أجل وقف تهديد روسيا لها و انتهت الحرب بعقد معاهدة باريس 1856م. - للمزيد من التفاصيل ينظر : - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 352.

7- الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف الروحية و الفيوضات السبوحية، المصدر السابق، ص 13.

كان الكولونيل تشرشل الانجليزي[1] قد أعدّ له و لأتباعه ضيافة حافلة في تلك الليلة فنزل عليه ضيفاً كريماً، وبات عنده في محله في الخيل، وطلب منه أمراءُ الدروز أن يقيم عندهم أياماً فاعتذر إليهم وشكر صنيعهم، ثم ودَّعهم وسار في طريقه إلى دمشق، وبعدئذ وصل الخبر إلى واليها "محمد نديم باشا" فخرج هو و"عِزَّتْ باشا" رئيس العسكرية، وغيرهما من ذوي المناصب والمأمورين، وأشراف البلد وعلمائها وأعيانها إلى قرية "دمر"، وهناك استقبله الجميع بالاجلال و الإحترام.

دخل دمشق في حفاوة و تكريم، وتقدمت موكبه كتيبة من الجيش تعزف الموسيقى العسكرية، واستقبله الدّمشقيون أحسن استقبال، و قيل : "...أنه لم يدخل دمشق عربيّ رُحِّب به هذا التّرحيب، منذ صلاح الدّين الأيوبي..."، وقال الأمير في هذه المناسبة :"...لقد استقبلني الدّمشقيون أحسن استقبال وعدُّوا يوم دخولي مدينتهم كيوم عيد، فالرّجال والنساء قد تسابقوا أمامي..."[2].

وإثر دخوله دمشق توجه مباشرة إلى زيارة جامع الشيخ "محي الدين ابن عربي"، ثم اتخذ سكنا بمعرفة والي دمشق، و عُرفت داره بـ "دار السّيد"، و كانت تُعرف بـ "دار عزة باشا".[3]

كما اشترى بها دارين واسعتين بينهما دار صغيرة في زقاق النقيب بالعمارة ،بالمال الذي أنعم به عليه السلطان بحوالي ألف كيس[4]، ثم اشترى سبع دور أخرى، جعل إحداها منزلا لضيوفه، وعدّة دور في محلة العمارة البرانية، جعل بعضها حديقة مقابلة للدور، و كان نهر بردي يمر بين الدور و الحديقة.

كما اشترى مزارع وأراضٍ وطاحونة، وبنى قصرا في وادي دمر لمصيفه، و غيرها،[5] وفي سنة 1857م توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ثم رجع إلى دمشق.[6]

1- هو الكولونيل هنري تشرشل، جاء إلى لبنان سنة 1832م على رأس هيئة أطلق عليها إسم البعثة البريطانية في سوريا، و اشترى قرية بجواره وهي بين عالية و بحمدون و بنى فيها بيتا، و هو ينتسب الى أسرة تشرشل الانجليزية المشهورة. ينظر: -الأمير عبد القادر، المواقف، المصدر السابق، ص 13.

- نزار أباضة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، المرجع السابق، ص 15.

2- المرجع نفسه، المرجع السابق، ص15.

3- أصل هذه الدار تعود إلى القاضي محي الدين بن الزكي، وبنوا الزكي هم الذين نزل بهم الشيخ "محي الدين بن عربي"، حينما قدم دمشق و تزوج منهم، و ساكنهم، في هذه الدار ثم دفن بمقبرتهم في سفح قاسيون. -ينظر : الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، المصدر السابق، ص14.

4- يقول صاحب التحفة أنه أصدرت الدولة العليا أمرها إلى والي الشام أن يتخير للأمير دارا لإقامته ولائقة بمقامه، فوقع اختياره على داري القابقيبي محل إقامة الحكومة، وهما داران متلاصقان بينهما باب من داخلهما، وبعد انتقال الحكومة منها، وإتمام لوازمهما، سكنها الأمير بعائلته، وكانت ضيافتهم في ولايتي بيروت و دمشق جارية من الولايتين بأمر الدولة العلية. ينظر: – محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج2، صص81-100.

5- للمزيد من التفاصيل، ينظر: – المصدر نفسه، ص105.

6- محمد بلقراد، الجانب الصوفي و الثقافي المرجع السابق، ص51.

السؤال المطروح هنا : كيف كان يقضي الأمير المجاهد الذي تعوّد على خوض المعارك، بطل المقاومة الجزائرية و رائد الكفاح، أيامه في هذه المدينة؟ و هل كان مطمح أنظار الطلاب و العلماء؟. ربما الاجابة عن هذه الأسئلة تحتاج إلى بحث مُعمّق، لكننا سنحاول الإجابة عنها دون الإخلال بالقصد.

لقد قضى الأمير عبد القادر سبعة و عشرين سنة في دمشق أي منذ عام 1856م إلى غاية 1883م سنة وفاته، في الكتابة و القراءة و المطالعة، و التأليف، و التأمل، و الرّحلات، إضافة إلى تلقينه الدّروس لطلابه، وإلقائه للمحاضرات، فأصبح بذلك مشهورا.[1]

كما كان مركز اهتمام العلماء و المثقفين أكثر من غيرهم، فهو بألقابه الثّلاث :

- ✓ شريفا من نسل النّبي صلىّ الله عليه و سلّم فهو حسيني الأصل.
- ✓ عالما من العلماء.
- ✓ مجاهدا و زعيما، إذ جاهد في سبيل الله.

أصبح جديرا بتبجيلهم العميق، و كانوا يشعرون أنّهم مرتبطون إليه ليس فقط بمشاعر العاطفة القومية، ولكن بالواجب الدّيني، و تجربتهم السّريعة معه في علمه الغزير جعلتهم يتشوقون إلى الإستفادة من معارفه[2]، فطلب علماء دمشق و فقهاؤها منه، أن يكون أستاذهم، فتكوّنت حلقة درس ديني مُؤلّفة من نيف وستين عالما وطالبا، وكانت تجتمع يوميّا في الجامع الأموي الكبير، وكان "الأمير عبد القادر" يرأسها ولا يتخلّف عن حضورها، وكان يذهب عند آذان الظهر إلى المسجد ،حيث تكون حلقة دراسة انتظمت في انتظار وصوله، فيأخذ مكانه ويفتح الكتاب المعين للمناقشة، ويقرأ بصوت عالٍ، ثم يتوقف عند طلب التوضيحات التي تفتح كنوزه الفكرية المتنوعة، ويذكر أن الدّرس كان يستغرق ثلاث ساعات متواصلة.

أمّا أثناء إقامته في بروسة قام بجمع مكتبته الخاصة بعناية، و كان يختار النّصوص التي يدرس بها من مكتبته، وما زاد من إعجاب طلابه به هو إختياره للنّصوص الفلسفيّة من أعمال أرسطو وأفلاطون أثناء تدريسهم، وهذا ما زادهم تعلّقا به لأنّه نهج على غير الطريقة المعتادة في التفسير والشّرح.[3]

1- Boualem Bessaieh, Abdelkader à Damas, Souvetage de douze mille chrétiens, Majalat Itinéraire N°6, Juin 2003, ANEP, Rouiba, P86.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 351.

3- عبد الرحمن البربير، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص557.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص 352.

كما عدَّل في دمشق المقررات الدراسية في سنوات 1858م – 1859م فلم يعد مهما هنا شرح الألفية، وإنّما: "الإتقان في علوم القرآن" للسّيوطي[1]، وإقراء طلاّبه لكتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز"[2] لإبن المبارك، و"الشّفا بتصريف حقوق المصطفى" للقاضي عيّاض، وأعاد إقراء الجلوس حوله هنا "العقائد النفسية"، ونحوها كذلك "صحيح البخاري و صحيح مسلم"،[3] ويظل "البخاري" أكثر هذه الكتب بسطة في المجالس، كما اشترى في دمشق دارا خصصها له، وسمّاها "دار الحديث"، و افتتحها سنة 1858م، و جلس بها ما بين صلاتي الظهر والعصر، وأتمّه في ثلاثة أشهر وأجاز الحاضرين في ختامه من الشيوخ وأذكياء الطلاب، وهي القراءة التي قال فيها الشيخ يوسف بدر الدين المغربي:[4]

بك استنارت واحيا الله مربعها   **سلما تلوت البخاري وسط ناديها**

تلاوة ما سمعنا من تلاوة بهـــا   **من عهد "يحي النواوي في مغانيهـا**

وهكذا اجتمع حوله عشرات الشّعراء، ليسمع منهم ويسمعهم الشعر ويقوله ويتذوّقه ويسمع بعضهم دروس الحديث، ويحتفل مع الكثير منهم بختام مجلس القراءة.

1- الإتقان في علوم القرآن لـ "جلال الدين السيوطي" (849هـ – 911هـ) (1425 - 1505)، كتاب يبحث في العلوم المتعلقة بالقرآن، من حيث مواطن نزوله، والسند والأداء والألفاظ، و المعاني المتعلقة بالأحكام، بلغت فصول الكتاب ثمانين فصلا، وقسم السيوطي كتابه الى جزئين : ينتهي أولهما بالفصل الثاني والأربعين في القواعد، ويبدأ ثانيهما بالفصل الثالث والأربعين في المحكم و المتشابه.

2- الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز : تأليف العلامة أحمد بن المبارك اللمطي السجلماسي الفاسي السبط، فرغ من تأليفه سنة 1129هـ، طبع الكتاب في مجلد واحد في جزئين.

3- صحيح مسلم : ثاني كتب الحديث قيمة ومنزلة عند السنة، بعد صحيح البخاري و قد جمع فيه مؤلفه أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري اثني عشر ألف حديث، كتبها في خمسة عشرة سنة قضاها سائحا دارسا في الحجاز ومصر والشام والعراق، وتماثل محتويات صحيح مسلم ما في صحيح البخاري من اختلاف الاسانيد، لمعرفة المزيد عن شروحه ومختصراته وطبعاته. ينظر: -كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تح: عبد الحليم النجار-رمضان عبد التواب، مج3، دار المعارف، ط3، مصر، 1974، صص165-179.

4- علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 67، 68.

- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص99.

لقد كانت أماكن تدريسه تختلف بحسب الظروف، فتارة في المدرسة الأشرفية[1] وآونة في المدرسة الجقمقية[2]. وطورا بالجامع الأموي[3]، وفي زاوية أبي النّصر في بيروت، لقد كان الإقبال على دروس الأمير المسجدية كبيرا، لدرجة أنه بعد رجوعه من رحلة الحجاز قام بفتح منزله لطلبة العلم و خصّص لهم وقتا محدّدا يقدّم فيه الدّروس، لقد نالت هذه الدروس شهرة كبيرة في سوريا مما جعل كثيرا من العلماء والطلبة يحضرونها.[4]

كان الأمير مولعاً بالمطالعة وجمع الكتب و اقتنائها، مهما كان ثمنها أو مكان وجودها،ولهذا كانت مطالعته من أهم الأنشطة التي يتفرغ لها بعد أداء الصّلاة والذّكر، وكان يطالع بالدرجة الأولى الكتب ذات الطابع الدّيني وعلى رأسها القرآن الكريم[5]، ثم الحديث النبوي الشريف. فالآية والحديث أو بعضهما أو بعض أحدهما، ولو في إحدى القراءات أو الرّوايات نقطة البدء دائما عنده، والإذن بالإنطلاق في آيات الأنفس والآفاق،

1- المدرسة الأشرفية، المشهورة بدار الحديث النووية، إشتراها الملك الأشرف موسى بن العادل لأنها كانت دار الأمير قايماز ابن عبد الله النجمي وبناها دار حديث في دمشق، ودرس بها جلة من العلماء كابن الصلاح وأبي شامة، والنووي، وابن كثير و غيرهم، رممت ترميما خفيفا بعد حريق 1912م، ينظر : - محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، مكتبة النوري، ط3، دمشق، 1983، ص71، 72.

- كما يذكر محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري فيما يخص المدرسة الأشرفية، أنه كان رجلا من الأورام القاطنين في دمشق اسمه : "يانكو" وهو يهودي الأصل وقد استولى على الدار التابعة لمدرسة دار الحديث الأشرفية، ثم مد يده إلى الزاوية القريبة من المسجد واقتطعها منه، وأعدها لوضع دكان الخمر، فقام عليه العلامة الشيخ يوسف بدر الدين المغربي، ورفع أمره إلى الحكومة المحلية، فلم يسمع دعواه، ثم توجه إلى الإستانة، وبعد الجهد التام أحرز فرمانا سلطانيا في ذلك، ولما قدمه لوالي دمشق طرحه في زوايا الإهمال، و بقي الأمر إلى أن جاء الأمير عبد القادر إلى الأستانة من فرنسا، فاجتمع به الشيخ يوسف وشكا إليه أمره و جاء معه إلى بروسة، ثم توجه إلى الإستانة بقصد الهجرة إلى المدينة المنورة، وحصلت بينه وبين الأمير مكاتبات وأحضر الأمير هذا الرجل واشترى منه تلك الدار بأضعاف ما تدره عليه تجارة الخمور، وأعادها وقفا إسلاميا ومدرسة دينية، وأمر محمد بن عبد الله الخالدي بتدريس الفقه المالكي فيها، كما أمر غيره من العلماء الجزائريين، وقام هو بنفسه بإلقاء درس يومي في هذه المدرسة، أما درسه الأخير فكان يلقيه في منزله ما بين العشائين. ينظر:- محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص92-94.

- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق، دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة منقحة، الجزائر، 2016، ص84.

2- المدرسة الجقمقية : هي من مدارس الحنفية وتقع الجمجقية شمالي الجامع الأموي، أسسها "سنجر الهلالي" وولده "شمس الدين"، وجدد بناءها "سيف الدين جاقماق"، وخص الخانقاه بالصوفية، وأضاف اليها مدرسة للأيتام ودرس بها جماعة، وجعلت في القرن الماضي مدرسة للذكور، وهي اليوم ما يقرب من الخراب، بسبب مدافع الفرنسيين 1941م سنة . ينظر: - محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، المصدر السابق، ص 89.

3- المسجد الأموي : هو المسجد الذي أمر بتشييده "الوليد بن عبد الملك" بدمشق انطلاقا من سنة 705م، ويعد رابع أشهر المساجد الاسلامية بعد حرمي مكة والمدينة والمسجد الأقصى، كما يعد واحدا من أهم المساجد الاسلامية، حيث حشد له الوليد صناعا من الفرس والهنود، دخلها الصليبيون سنة 1260م، بعد احتلالهم لدمشق بتحالف مع المغول، وتمكن المماليك من استرجاع المدينة، وإعادة ترميم المسجد واستعاد مكانته الدينية والعلمية، وكان ابن تيمية يقوم فيه بتدريس القرآن الكريم، و مع سنة 1516م عند سيطرة العثمانيين على المدينة بعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق، صلى فيه "السلطان سليم الأول" صلاة الجمعة. للمزيد ينظر : - القاضي محمد بن أحمد كنعان، تاريخ الدولة الأموية خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، د.ط، بيروت 1997، [صفحة في 51 ترتيب].

4- لقد أصبح بيت الأمير مأوى لعباد الرحمن الذين لا تشغلهم شاغلة عن ذكر الله، ومن بين الوفود ثلاث علماء أفاضل : الشيخ عبد الرزاق البيطار، الشيخ محمد الهاني، والشيخ الطنطاوي، الذين لم ينقطعوا عنه أبدا وكانوا يدونون كل ما يتكلم به في مجالسه.

5- أحمد صلاح، الأمير عبد القادر المتصوف و المصلح، منشورات دار الأديب، د.ط، وهران، 2007، ص 25.

حتى ليمدّ عطاؤه الفكري و مقامه في التجديد في فهم القرآن، حتى أنه تتبّع خطى سابقيه من شيوخ ثقافته أصلا، فكل ما يقولونه إلاّ و له دليل في القرآن و السنة، فهم بحثوا في قاموس القرآن والسنة.[1]

إرادة الأمير الكادحة في التفكير، والسعي للوصول إلى البعيد، هو الذي يجعله يقول بضرورة التجديد في فهم القرآن، لأنّ قابليتهما لهذا التجدّد المستمر وجه من وجوه الإعجاز، رأيه هذا يعود لأسباب قرآنية وتجريبية وإلهامية ولغوية، وهكذا اطمأن له الأتراك وتأكدوا أنه مع حياته التي يمضيها وسط الكتب والصلاة، لن يشكل خطرا عليهم، وأنه ليس هناك ما يخشونه من سلطانه القديم.[2]

يبدو أن" عبد القادر" لم يشعر أن الصّراع الثقافي بين الشرق والغرب يُؤذن بالإنتهاء يوما، فقد ظلّ يقرّر ويكرّر منهجه في تدريس الحديث والتّوحيد للخاصة والعامة طول حياته التعليمية، سواءا في الإمارة أو في المنفى أو في المهجر،[3] فقد ارتبط جلوسه للتأليف وتدريس التوحيد وقراءة البخاري وشرحه، بأزمات الصراع العسكري والثقافي في المشرق والمغرب والأندلس.

ففي المشرق أو كما يسميها عبد القادر "دار الأمان"، فقد تألقت إرادة الاصلاح عنده، فتجلى قيامها على الجمع والتوحيد، فسعى إلى لمّ الشمل وإيقاف النزاع بالحوار أو بالسّيف، كما حدث في فتنة دمشق 1860م بالشّام، والمآخاة بين الطرفين المتعاديين.[4]

هكذا صار شخصية مقصودة لقضاء حوائج النّاس وعامّتهم و خاصّتهم، فقد كان محبوبا في الأوساط الشامية، ومهابا في الوقت نفسه، فقد سلك مع الجزائريين والشّاميين سلوك الملوك الزّهاد، وأشركهم في هذه الثروة التي كانت تأتي إليه كعطايا من السّلطان العثماني وغيره من الملوك، كما أنه أجرى مرتبات شهرية خاصة للعلماء من العنصر العربي الذين همّشتهم الدّولة العثمانية، فجعلهم في بلاطه وحاشيته، كما إلتفّ حوله الأشراف ونقاباتهم، إضافة إلى ذلك ،خصّص يوم الجمعة لإطعام فقراء دمشق، حيث كانوا يهرعون في هذا اليوم إلى بيته في زقاق النقيب بحي العمارة ليصيبوا نصيبهم من مائدته،[5] واستمرت حياته هادئة ومستمرة حتى سنة 1860م.[6]

1- الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، ج1، المصدر السابق، ص 219.

2- S.H.D, Série, M, sous série M 881, op-cit, F 127.

3- لقد كان أبلغ ما شغل الأمير في المهجر أي خلال إقامته في دمشق هو تحقيقه للكتب العلمية والأدبية، ففي سنة 1871م أرسل نسخة من "الفتوحات المكية" مع عالمين جليلين الى قونية (مدينة وسط تركية الآسيوية)، لمقابلتها و تصحيحها طبقا للنسخة الأصلية الموجودة بخط "ابن عربي"، مؤلفها، وبعد تصحيحها بكل إتقان قرأها على بعض الخاصة من العلماء في منزله. - للمزيد من التفاصيل ينظر :

- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، المصدر السابق، ص311.

4- علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص233.

5- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي، المرجع السابق، صص84،85.

6- Boualem Bessaih, Abd-el-Kader à Damas. Op-cit, p 86.

لقد كان "الأمير عبد القادر" ومن خلال علاقاته داخل قصور العثمانيين ، على معرفة بما تخبّؤه الغرف المغلقة للعرب عموما أهل الشام خصوصا ،لذلك وجدناه حين وقعت واقعة "مذبحة الستين" جاهزا للدفاع عن عروبته ودينه،[1] غير أن مساهمته في إنقاذ المسيحيين ،كانت بالنسبة لبعض المؤرخين الأوروبيين غير المعتدلين وسيلة هامة لصياغة العديد من الإتهامات التي تمس شخصه الذي عُرف بالشهامة و الرجولة و الغيرة على دينه وعروبته، حيث اعتبروه عميلا لفرنسا ببلاد الشّام، لذا كان لزاما علينا التّعرف على الهدف الحقيقي من مساهمتة في إنقاذ المسيحيين.

ب.2. الفتنة الطائفية وسعي الأمير عبد القادر من أجل تطويقها 1860م:

ب1.2. ذكر الأسباب التي أدّت إلى مذابح الستين وتأزم الموقف بين الدروز والموارنة:

مجازر الستين في لبنان 1860م، هي صراع شبّ في ربوع سوريا ولبنان، قامت بين الموارنة من جهة والدّروز والمسلمين من جهة أخرى، بدأ هذا الصراع بعد سلسلة من الإضطرابات بين الطائفتين، والتي أدّت فيما بعد إلى ارتكاب مجازر دموية وعنيفة في حق شعوبها، لدرجة أن هذه المجازر استمرت شاخصة في عيون أهالي جبل لبنان[2] على اختلاف مذاهبهم ومناطقهم لسنوات عديدة، فالأحداث الأهلية المذهبية والطائفية عادت بكارثة مأساوية على جميع أبناء الجبل والمناطق اللبنانية الأخرى، ولفهم أفضل لمجريات الأحداث، لا مناص من العودة إلى الوراء.

في فترة حكم "محمد علي باشا" للشام في الأربعينيات من القرن التاسع عشر ميلادي، قام ابنه "إبراهيم باشا"[3] باعتماد أسلوب إداري يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات والشّدة في اتخاذ القوانين، وتقليد

1- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي، المرجع السابق، ص 85.

2- إن مصطلح جبل لبنان كان يطلق أصلاً على المناطق التي يسكنها الموارنة في أقصى الشمال، وهي جبة بشري، وبلاد البترول وجبيل، وكانت منطقة جبل كسروان التي يسكنها الموارنة أيضا، تعتبر جزءاً من جبل لبنان حينا، ومنفصلة عنه حينا آخر، وكانت عبارة (جبل لبنان) يقابلها ما سمي بـ(جبل الدروز) أو (جبل الشوف)، وهي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من كسروان عبر طريق بيروت –دمشق– ولم يكن لهذه المنطقة الدرزية في بادئ الأمر أي علاقة بمناطق الموارنة في الشمال، ولم تشملها عبارة (جبل لبنان) على الأقل في الإستعمال الشائع، قبل القرن السابع عشر، وما جاءت أواخر القرن الثامن عشر، حتى أصبح إستعمال هذه العبارة يشمل الإمارة بكاملها، وذلك بعد أن إستقر عدد كبير من الموارنة في المناطق الدرزية في الجنوب، فلعل الموارنة الذين نزحوا إلى هذه المناطق، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إصطحبوا إسم موطنهم الأصلي، فشمل الشمال والجنوب معاً. للمزيد من المعلومات ينظر: – نقولا زيادة، أبعاد التاريخ اللبناني، المرجع السابق، ص13.

– كما تمتد سلسلة جبل لبنان من الشمال الشرقي في أواسط سورية إلى الجنوب الغربي وطولها 145 كم وعرضها 45 كم، ومساحة الجبل كله تبلغ 6500 كم^2، وأما حدوده فمن الشمال متصرفية طرابلس ومن الشرق أقضية بعلبك وراشيا وحاصبيا، ومن الجنوب قضاء صيدا، ومن الغرب بيروت، وشاطئ البحر. ينظر: – محمد علي باشا، الرحلة الشامية، المصدر السابق، ص66.

– لمعرفة المزيد عن أسباب الفتنة. ينظر: – S.H.D, Série, M, sous série M 881, op-cit, F 115.

3- إبراهيم باشا: من مواليد 1788م/1204هـ، في قوله (ثاني أكبر مدن اليونان الشمالي)، ميناء صغير في جنوب مقدونيا باليونان وهي مسقط رأس "محمد علي باشا"، وهو الإبن الأكبر لوالي مصر "محمد علي باشا"، كانت أهم أعماله العسكرية، حروبه ضد أتباع الدعوة السلفية، وهدم الدعية، كما شارك السلطان العثماني في حروب المورة، إضافة لفتح بلاد الشام، وحروبه ضد السلطان العثماني، وكان يظهر عواطفه نحو العرب في الشام، ويعتبر نفسه عربيا، ويذكر انه جاء مصر صبيّاً، فلونت شمس مصر دمه، وصيّرته عربيا، ويضيف جرجي زيدان أنه كان ميالا منذ صغره للأعمال الحربية، وكان يعرف=

الغرب في كل أمر جوهري، الأمر الذي أخل بالتوازن المتوارث، وأضر بالإمتيازات والمكتسبات الإقتصادية والإجتماعية التي حققتها بعض الفئات على حساب الأخرى،[1] بل وأحدث إضطراباً، وجعل أهالي سورية من المسلمين يتخوفون من إدارة "محمد علي"، ويتحولون بعواطفهم إلى السلطان العثماني، وهذا ما ساعد مناصري السلطان العثماني والمتعاونين مع إنجلترا في بلاد الشام، على إثارة الفتن ضد حكم "إبراهيم باشا"، فكان ذلك تمهيدا لتعاون بعض الطوائف فيما بعد مع الدول الأوربية مباشرة، دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية وسيادتها، وهذا ما سمح للإنجليز بالإتصال بطائفة الدروز وتشجيعها على الثورة ضد " محمد علي"، بينما ساندت فرنسا الطائفة المارونية، وشجعتها على الوقوف ضدّ من يمس بمصالحها،[2] وهذا ما هيّأ الظروف لحدوث إظطرابات وحروب أهلية، بعد انسحاب الإدارة المصرية من الشام سنة 1841م.[3]

لكننا هنا لسنا بصدد التأريخ للحرب الأهلية التي نشبت بين الموارنة والدروز في جبل لبنان قبل 1860م، والتعمق في تفاصيلها، وإنما نكتفي بالإشارة إلى العناصر التي كانت من أهم أسباب نشوب هذه الفتنة الطائفية،

=الفارسية والتركية والعربية، وله إطلاع واسع في تاريخ البلد الشرقية، تولى الإمارة المصرية بعد تنازل أبيه 1848م، وكان "إبراهيم باشا" صارم المعاملة، وصعب المراس، شديد الوطأة، كما وصفه ابن البيطار أنه غشوم ظالم، خاصة بعد أن صارت له الإمرة الجندية، بتوليه قيادة العساكر المصرية، فعوّل على ضم البلاد الشامية إلى الحكومة المصرية بأمر من أبيه، توفي قبل والده في نوفمبر1848م. ينظر:

– رينيه قطاوي وجورج قطاوي، محمد علي وأوربا، نقله عن اللغة الفرنسية: ألفريديلوز، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار المعارف، مصر، 1952، ص72.

– جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، المرجع السابق، صص43،44.

– عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ج1، تح وتع: محمد بهجة البيطار، دار صادر، ط2، بيروت، لبنان، 1993، صص15-29.

– شارل هنري تشرشل ،المصدر السابق،ص322.

1- محمد كرد علي، خطط الشام، المصدر السابق، ص73.

– الحق أن الحكم المصري تمكن في زمن قصير أن يعيد إلى سورية النظام والإستقرار على وجه الإجمال، وكان يمكن أن يظل الحكم المصري المتسامح مصدر خير في سورية لولا نضوب موارد مصر المالية، إثر حروب "محمد علي" مما ألجأ إلى إثقال كواهل الأهلين بالضرائب، ورأى أن يجنّد النصارى والدروز أيضا رغبة منه في إنشاء إدارة مركزية في سورية قائمة على تجميع السلطات في يد الحكومة، والقضاء على العصبيات الإقطاعية، وليبعد الأولين عن تأثير الدول الأوربية، التي تسعى لإثارة الفتن بواسطتهم ويوطد صدقاتهم، ولكن بعد ثماني سنوات من هذه الإدارة الحسنة أي منذ 1831م، إتجهت سياسة "إبراهيم باشا" إلى القمع والشدة، فأصبح مؤيدوه أعداءه، وغدت الأسلحة التي كان قد وزعها على الجبلين الموارنة في 1832م و1838م، لإخماد ثورات الدروز ونابلس والنصيرية موجهة ضده، وكان السخط عاماً والإستياء شاملا جميع طبقات المسلمين والنصارى، وأوساط الفلاحين والسادة المشايخ، وقد عبر السخط عن نفسه بثورة عامة 1840م،لعب فيها عملاء الإنجليز دوراً خطيرا. ينظر: – أحمد طربين، ازمة الحكم في لبنان، المرجع السابق، ص44.

2- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير، المرجع السابق، ص81.

3- للمزيد من التفاصيل حول مشروع محمد علي لغزو الشام ينظر: – أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان، المرجع السابق، صص39-70.

– محمد كرد علي، خطط الشام، المصدر السابق، صص73-75.

– أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز من سنة 1804م إلى 1841م، ج1، مطبعة الجامعة اللبنانية، د.ط، بيروت، 1957.

– ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، منشئاه ملحم خليل عبدو، أندراوس حنا شخاشبرى، طبع بمصر، 1908.

– أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية بيان بوثائق الشام، المجلد الثالث، الصحافة الأمريكية، بيروت، 1942.

أو كما يسميها البعض حوادث الستين في جبل لبنان، بالرغم من وجود بعض الإختلافات في أراء المؤرخين والكتاب المعاصرون ومن تلاهم، أقرّوا باحتمال وجود مؤامرة، أو أطماعا أجنبية أدت إلى نشوب الحرب، وإحداث فتنة بين الطوائف.

فمثلا: يذكر أحمد طربين ملخصا لأسباب الفتنة إلى نقاط منها:

أولاها: الدّسائس الفرنسية الإكليريكية،[1] للإنفراد بحكم الجبل والإستثمار بخيراته وأراضيه، فما كان يهمّ فرنسا هي إحداث القلاقل في جبل لبنان، لتتيح لها فرصة إرسال حملة عسكرية بحجة حماية النصارى، كما يضيف قائلا أن عملاء فرنسا لم يقتصروا على تحريض الكاثوليك للوثوب على الدروز فحسب، بل إنهم أوحوا في الوقت نفسه على بعض أنصارهم من اليزبكيين من آل العماد، وحرّضوهم على العدوان لتحدث في الجبل فتنة تستوجب تدخل فرنسا، فتبسط نفوذها على الجبل وتحقّق أمنيتها[2]، لقد كانت خطة فرنسا هي دعم الموارنة و"محمد علي" لكي تضمن نفوذها في بلاد الشام، خاصة بعد انسحابها من إتفاقية 1840م.[3]

ثانيا: بريطانيا. يذكر أنه ممن شارك في مسؤولية حوادث الستين هم العملاء البريطانيون، الذين رأوا أن مصلحة حكومتهم تعتمد على مساندة الدروز، وقد تحدّث النائب "المستر مونسل Mester Moncel" بأنه وضّح له من التدقيق في تاريخ العشرين سنة الأخيرة أن إنجلترا هي سبب ما جرى في سورية، وذلك بسعيها لإبدال هيئة الحكم في الجبل (الشهابيين)، نكاية بفرنسا ومعارضة لبعض الدول في أوربا.

ثالثا: عجز الأرستقراطية المارونية عن قمع ثورة الفلاحين في كسروان، وخشية الأرستقراطية الدرزية من انتشار وإتساع عدواها من جهة، وتضاؤل سيطرة الأكليروس على مقدرات ثورة كسروان من جهة ثانية، مما جعل هؤلاء يرون أن حقوقهم الإقطاعية القديمة وامتيازاتهم أوشكت على الزوال، فألقوا آخر ورقة بيدهم لإنقاذ مصالحهم المهددة، وأيقضوا نار الفتنة الطائفية بين صفوف الفلاحين.

كما يضيف بعض التحريضات قام بها العملاء والموظفون العثمانيون للقضاء على امتيازات الجبل، التي كادت أن تصبح في يد الإنفرنج، بعد أن استعملوا وسائل المكر والخداع، لأن الناس اشتكوا من ضياع سلطة الدولة الاسلامية العثمانية، وصيرورتها إلى يد الإفرنج.[4]

أما المؤرخة "ليندا شيلشر" فقد عرضت بعض التفسيرات عن أسباب أعمال الشغب كما أسمتها، بالرغم من أنها أكدت أن التسليم بهذه التفسيرات تبقى غير كافية من الناحية التاريخية، لأن التفسيرات التي قدمتها تقول

1- هي مدرسة تعلّم وتفقّه، تربي الفتيان للإرتقاء إلى الكهنوت والإكليروس والرعية كالشمامسة والكهنة والأساقفة.

2- أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان، المرجع السابق، ص123.

3- هذه الإتفاقية تمت بين إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بعد انسحاب فرنسا منها، مع الدولة العثمانية للحد من توسعات محمد علي باشا حاكم مصر، على حساب أراضي الدولة العثمانية، والتي كانت سببا في تقليص صلاحياتها.

4- أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان، المرجع السابق، صص119،120.

باحتمال وجود مؤامرة أدّت إلى نشوب أعمال الشغب، وتؤكد أيضا على أن هذه الشذرات التي جمعتها ستبقى مقبولة على اختلافها، آملة في صقل ما بين يديها من نظريات لتكوّن أخرى جديدة بعد التمحيص والتدقيق في الوثائق والدلائل.

ووصلت إلى أنّ الكثير من الإحتمالات التي يمكن أن تحمل المرء على اعتبار حوادث الستين في دمشق من الحوادث التاريخية المحكمة، لذلك كان لابد من مواصلة البحث على آليات معينة ومركزية التي أطلقت شرارة أعمال الشغب.

وتضيف: "...أنّ ما لدينا هنا هو انفجار إجتماعي وإجتماعي-إقتصادي وإجتماعي-نفسي وسياسي- وليس حرباً طائفية..."، وتستدل بذلك على حقيقتين: أولاهما أن جماعة معينة من المسيحيين فقط قد تعرضت للهجوم، بينما ترك المسيحيون الآخرون في سلام، وثانيهما أن بعض المسلمين فقط قد قاموا بالهجوم، بينما قام المسلمون الآخرون بحماية المسيحيين وتقديم العون لهم[1].

وبهذا أكدت أنها ليست حرباً طائفية، بل نتيجة تراكمات نفسية سياسية، إجتماعية وإقتصادية ساهمت في إشعال أعمال الشغب في دمشق.

أما عن كتاب نوادر الزمان "لأبكريوس"، فيلخص فيه أن كل هذه الحروب والفتن نتاج أطماع أوربية، كانت سابقة منذ العقود الستة من القرن التاسع عشر، والتي أطاحت بالدولة العثمانية .فيذكر قائلا: "...تلك هي صورة العصر السياسي خلال العقود الستة من القرن التاسع عشر، والتي أحاطت بالدولة العثمانية وأعاقت خطى الإطلاع التي سار بها السلطان "محمود الثاني"، وجاء من بعده ولده "عبد المجيد، ثم عبد الحميد الثاني".

ومن خلال تناول الحديث عن سياسة الدولة العثمانية تجاه مجموعة الدول الأوربية وسياسة هذه الدول تجاهها، تبيّن لنا بأن الظروف التي عاشتها الدولة فيما أصابها من حوادث ونوازل،إنما كان نتيجة للأطماع الإستعمارية، ورغبة البعض من دول أوروبا في القضاء على هذه الدولة، ولقد تجسّد هذا الصراع في حرب القرم 1853 م، عندما أقدم نصارى القرم على ذبح المسلمين هناك، وساندت روسيا شعب القرم على التحرر من الدولة العثمانية، فكانت حرب القرم سبباً مباشراً لتحريك مشاعر نصارى الدولة العثمانية على التحرر من الدولة العثمانية والمطالبة بإستقلال ذاتي، كما حصل في اليونان، وبهذا أصبحت حرب القرم التي عرفت فيما بعد بالمسألة الشرقية

1- ليندا شلشير، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تر: عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة، عطاف مارديني، دار الجمهورية بيتموني وشركاه، ط1، دمشق، 1998، ص126.

- لمعرفة الإحتمالات التي ذكرتها شيلشر عن أسباب أعمال الشغب لتصل من خلالها إلى النتائج المذكورة في المتن ينظر: - المرجع نفسه، صص116-126.

من أكبر الكوارث التي عرفتها الدولة العثمانية في العقد الثالث من القرن التاسع عشر للميلاد، الأمر الذي أظهرها بمظهر الضعف العسكري أمام مجموعة دول أوربا ذلك الوقت، مما دفع هذه الدول بأن تطمع في أملاكها.[1]

وتزايدت أزمات الدولة العثمانية في العقد الرابع من هذا القرن بخروج والي "مصر محمد علي باشا " على السلطان العثماني وإحتلاله لبلاد الشام، وبدخوله إليها عمل على إقامة مبدأ التسامح بين الطوائف في البلاد،[2] فقرّب النصارى إلى ديوان حكمه وجعل منهم مستشارين في إدارة البلاد، إضافة إلى مساعدة اليهود في فلسطين على مشروعية التملك والسماح بفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مما أثار عليه بقية سكان بلاد الشام، وكان وجوده سبباً في تكريس الطائفية، فقد حارب الدروز، ووقف النصارى معه في حربه ضدّهم وخصوصاً الموارنة بقيادة "بشير الثاني" أمير لبنان.[3]

وفي العقدين الخامس والسادس صارت الدولة العثمانية وولاياتها فريسة للتدخل الأوروبي المباشر في سياستها، فكانت حوادث جبل لبنان ثمرة طبيعية لهذا التدخل، الذي دفعت شعوب بلاد الشام وأبناء طوائفه دماءهم رخيصة في ظل فتن وحروب لا شأن لهم بها، جرّهم إليها صراع الدول الأوروبية الإستعمارية، فقد كان صراعاً ما بين النصارى أنفسهم "كالكاثوليك والأرثوذكس وْالبروتستانت"، حيث كان صراع هذه الطوائف يمثل صراع الدول وإنتماء هذه الطوائف لها، وحتى الدروز الذين كانوا طرفاً في هذه الفتنة، فقد كانوا موالين لإنجلترا، أما المسلمين السنة فقد ذهبوا ضحية الصراع الدولي وتبين أنهم الوحيدون الذين ليس لهم ولاء لأي دولة من الدول، وهذا ما وجدناه في جدول أعمال اللجنة الدولية في بيروت حيث وقف الروس يدافعون عن النصارى الأرثوذوكس، والفرنسيون يدافعون عن الموارنة والكاثوليك، والإنجليز عن الدروز والبروتستانت واليهود، بينما كان "فؤاد باشا "[4] يحكم السيف في رقاب المسلمين في دمشق الشام، فأعدم منهم حوالي ثلاثمائة وخمسة وسبعين شخصا، ونفى من خيرة علمائهم حوالي ألف

1- اسكندر بن يعقوب أبكريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، صص44-46.

2- S.H.D, Série, M, sous série M 881, op-cit, F 128.

3- اسكندر بن يعقوب أبكريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، صص44-46.

4- فؤاد باشا: ولد في الإستانة 1230هـ ووالده عزت ملابن كيجه زاده أحد الشعراء والعلماء في زمانه، سلك فؤاد باشا في عهد شبيبته المسلك العلمي ثم دخل المكتب الطبي الذي أسسه السلطان محمود الثاني في سراي غلطة،وحصل فيه العلوم الطبية بنسبة زمانه واستعداده وارتقى لرتبة قائمقام، وفي سنة 1253هـ عين مترجما للباب العالي بطلب من مصطفى رشيد باشا الذي كان في نظارة الخارجية ،ثم مترجما أول في الديوان الهميوني، ثم كاتبا أول لسفارة لوندرة التي بقي فيها مدة ثلاث سنوات ثم عزل إلى الأستانة وبقي فيها سنتين معتزلا، ولما تعين رشيد باشا سفيرا في باريس للمرة الخامسة تعين فؤاد باشا سفيرا مؤقتا لإسبانيا والبرتغال مدة سنتين، وبعد عودته للأستانة نال الرتبة الثانية المتمايزة، وتعين ترجمانا للديوان الهمايوني في 1261هـ، وفي 1263هـ أحسن إليه بالرتبة الأولى من الصنف الأول وتعين في ديوان الإستقبال الهمايوني، إضافة إلى أعمال أخرى قام بها خطته نحو مرام الشهرة البعيدة والمجد البالغ وحصل على رضا عبد المجيد وولاه نظارة الخارجية مكافأة له، وفي سنة 1276هـ حدثت الحوادث الشهيرة في بلاد الشام وعلى اثر ذلك إتفقت الدول الأوربية بتكليف الباب العالي بتشكيل لجنة دولية من مندوب عثماني ومندوبيين من سائر الدول العظمى تسير إلى سوريا للبحث عن أسباب الفتنة ومعاقبة مسببيها، وكان فؤاد باشا واحد من هؤلاء الأعضاء. للمزيد من التفاصيل ينظر:

- زيدان جرجي، تراجم مشاهير الشرق، المرجع السابق، صص253-257.

رجل، وجند في الجيش العثماني حوالي ألفين من رجالها، بينما عجز عن إقامة حكم من الأحكام على شخص من أبناء الطوائف التي سبق ذكرها بسبب دفاع أعضاء اللجنة الدولية عن حلفائهم من أبناء هذه الطوائف[1].

كان "الأمير عبد القادر" في قصره عالماً بوقوع هذه الحوادث وأمثالها، وكان يعلم أنها لا تقف عند هذا الحد، فهو يرى رأي العين مدى تغلغل العداوة والبغضاء في بلاد الشام، بين سكانها من المسلمين ورعاياها من المسيحيين، كما يرى ويعلم مدى تأثير الإنجليز على الطائفة الدرزية، ومدى تأثير الفرنسيين على الطائفة المارونية، وكل واحد من الجهتين يسعى لتحقيق أغراضه الإستعمارية المكشوفة بإيقاع الفتنة بين الطائفتين، حتى تسيل الّدماء الغزيرة، وتقع الفوضى، وبذلك تجد الدول الإستعمارية الطامعة مجالاً للتدخل العسكري واحتلال البلاد[2].

لم يبق الأمير صامداً أمام هذه الأوضاع المزرية، وأمام الدسائس الإستعمارية التي واجهها من قبل في بلاد الجزائر، أي أنه أصبح خبير يمثل هذه الأوضاع، ولذا سعى جاهدا من أجل تطويق هذه الفتنة، والتوفيق بين الطوائف، ومحو ما بينها من أحقاد دفينة، ربما رجعت في أصولها إلى الحروب الصليبية القديمة في تلك الأصقاع، لكن القدر شاء أن تعمّ الفوضى، وتزيد من إشعال نار الفتنة التي راح ضحيتها العديد من الناس.

كما قام رجال التعصب المسيحي من المارونية بالإعتداء الشنيع على مواطنيهم الدروز أواخر 1859م، وقتلوا منهم جماعة، وما كان الدروز –وهم أصحاب شدّة وبطش وقوة شديدة– ليسكتوا على ذلك الإعتداء، فتنادوا للأخذ بالثّأر، وقاموا ضدّ خصومهم من هذه الطائفة المسيحية، وربما من غيرها بعمليات إنتقامية حادة، وعمت الفوضى أغلب بلاد الشام سنة 1860م، فكانت المذابح تعمّ مدن طرابلس وزحلة، دير القمر وحاصبيا وغيرها، حتى وصلت إلى العاصمة دمشق.

1- اسكندر بن يعقوب أبكريوس، نوادر الزمان، المصدر السابق، صص44-46.

2- أحمد توفيق المدني، الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سوريا، المرجع السابق، ص7.

ب.2.2. ذكر بعض المذابح التي تزامنت مع وجود الأمير عبد القادر في المشرق:

- **مذبحة حاصبيا التي تلتها مقتلة راشيا 24 ماي/ 4 جوان 1860م:**

كانت حاصبيا[1]، وراشيا[2] ،بلدتان متقاربتان في المكان، وهما قاعدتان لمقاطعة واد التّيم، التابعة لأيالة دمشق الشام[3]، وأعظمها حاصبيا، والتي هي الآن قصبة واد التيم، ومركز الحكومة وهي واقعة على قاعدة جبل الشيخ الغربية، بالقرب منها النهر الحاصباني المنسوب إليها، وحولها الكثير من الحدائق والبساتين ذات الأثمار، والمناظر البهيجة، وعلى شواطئه الكثير من شجر الدفلة والدلب (من الزهريات ،جنس شجر للتزيين) وشجرة الحور(يستعمل لصناعة الاثاث واللوازم الخشبية)، ويكثر فيها الكرم، الزيتون، التين وتوت الحرير، وبالقرب منها معادن الحمّر المشهورة والحديد[4]، كما كان بها جوامع وكنائس، وكان عدد سكانها يقرب من ستة ألاف نسمة، أكثرهم نصارى من طائفة الروم الأرثوذوكس، والباقون دروزا و مسلمون.

أما عن حكام هذه المقاطعة من قديم الزمان كانوا من الأمراء الشهابيين، الذين مازالوا محافظين على الديانة الإسلامية، وقد تصرفوا في كل أيام ولايتهم عليها بالحسنى مع النّصارى وغيرهم، ولذلك كان الناس يحبونهم ماعدا الدروز.[5] وفي خلال ذلك وحسب رواية درزية من شاهد عيان عن حوادث 1860م[6]، حدثت منازعة ما بين بعض الدروز والنّصارى من سكان حاصبيا، أفضت بجميع أبناء الطائفتين المذكورتين إلى إشهار السلاح، وخوض مجال القتال، فكانت الغلبة للدروز، فتقهقر النصارى من وجههم مستجيرين بأمراء "آل شهاب"، ففتح الأمراء لهم بوابتي السراي[7] الضخمة المشهورة التي هي أشبه بحصن حصين، فدخلوها وتفرقوا في جوانبها، وغدوا هم والأمراء يدًا واحدة، وبدؤوا يطلقون الرصاص على الدروز، واتصل نبأ القتال بأهالي مجدل شمس، ومن جاورهم من فلاحي

1- تمثل حاصبيا المنطقة الأخيرة من لبنان الجنوبي، وسطح الأرض هناك هو نقطة إتصال بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية بجبل الشيخ "حرمون" وإسم حاصبيا جاء من معامل الخزف أو الفخارات و"حصبا Hespa" معناها صحفة أو آنية خزفية وترد بالباء "الحصب" ومقلوبها بالعامية اللبنانية "البحص". ينظر:- اسكندر بن يعقوب أبكريوس، المصدر السابق، ص171.

2- تقع راشيا في القسم الشمالي من جبل "حرمون الشيخ"، وهي تتميز بأراضيها غير مستوية، ولامرورية، وذات موارد ضئيلة، وهي إلى الشمال من واد التيم، وكانت جزءًا من البقاع، وتابعة لوالي دمشق، وتمتاز راشيا الوادي عن راشيا الفخار الموجودة في منطقة العرقوب، وإسم راشيا الوادي جاء من رؤساء زعماء مقدمون، والفخار محاولة عربية لترجمة الإسم السرياني "phkara" أي الخزاف. ينظر: - المصدر نفسه، ص171.

3- عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية، المرجع السابق، ص73.

4- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص145.

5- المصدر نفسه، ص146.

6- للمزيد من التفاصيل حول الرواية الدرزية عن حوادث 1860م حسب رواية شاهد العيان (حسين غضبان أبو شقرا) والتي كتبها يوسف خطار أبو شقرا. ينظر: - تاريخ بلاد الشام في القرن 19م، روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، صص 325-377.

7- يوجد في مدينة حاصبيا دور أهمها "السراي" التي جرت بها المذبحة الوحشية، وهي دار متسعة جدًا تحتوي على القاعات الفسيحة والقصور الشاهقة، وبناؤها كان على طرز دور دمشق من حيث الترتيب والإنتظار ينظر: - ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص146.

ويذكر في كتاب ابكريوس أن السراي فارسية الأصل، وتنطبق مع المرادف الإيطالي "Seralio"، وقد أطلق عليها أحيانا دار السعادة، وهي مقر الوالي أو الحاكم ولا يزال اللفظ شائع الإستعمال. ينظر: - اسكندر بن يعقوب أبكريوس، المصدر السابق، ص183.

الدروز، وإقليم البلان، وغيرهم من جماعات دروز "حوران"، وأثاروا الحرب على حاصبيا، وأخذت نيران الحرب تشتعل، ومازالوا على تلك الحال، حتى ضاقت ميادين المجال وسدّت وجوه الأمال، وتزلزلت من ضجيج القوم على أرض واد التيم، وكان الرصاص يتناثر ودخان البارود غطى الأفاق، والدم يبذل، والرجال تقتل[1]، وسقط في هذا اليوم ما يقرب عن أربعين قتيلا من الجانبين[2].

وحاول الدروز أن يعودوا إلى القتال في اليوم الثاني أي 20 ماي 1860م، ولكن "عثمان بك" قائمقام العساكر منعهم، وحاول أن يصلح بين الطرفين ،ما دام القتلى كانوا متساوين عددا لكل من الجانبين، غير أنّ الدروز كانوا ينهبون كل ما يجدونه في بيوت النصارى عموما ويحرقون ما كان باقيا[3].

أرسل "أحمد باشا والي مصر القائمقام العسكري "عثمان بك" ومعه خمسمائة جندي من الأتراك، فتوسط له النصارى وأعطوه هدايا نقدية تقدر بخمسمائة ليرة عثمانية، كي يحفظ أمنهم، ويخلص في حمايتهم، هذا إضافة إلى قدوم "سعيد بك" جنبلاط إلى حاصبيا، وتحدث مع "شمان بك" والآغا التركي الذي أرسل للمحافظة على راشيا ومنع الإعتداء فيها، غير أن الضابط التركي منع الناس من إدخال الطعام إلى النصارى الذين أصبحوا سجناء في السرايا إلاّ الخبز والماء، وبقوا على هذه الحال حسب رواية "أبكريوس" ثمانية أيام من اللّيال.[4]

وصلت الأخبار دمشق، فثار البطاركة والقناصل وأعيان النصارى وبعض أصحاب الأمة من المسلمين، وتوجهوا كلهم إلى الوالي "أحمد باشا"، يسألونه العمل على وقاية النصارى، فوافق بعد تردّد وتعلّل بقلّة العساكر في البلاد على نقل نصارى حاصبيا إلى دمشق الشام، الذين جرّدوا فيها بعد من أسلحتهم، بعد أن هدّد الدروز "عثمان بك" بإقتحام السرايا عنوة ويقتلوهم عن آخرهم، فما كان عليه إلا أن ينفّذ ما طلب منه، وهكذا جرّد النصارى من أسلحتهم وقدمت للدروز.[5]

في اليوم الثامن من بدء هذه الحادثة توفي "كنج أبو صالح زعيم المجادلة "شيخ قرية مجدل شمس" متأثرا بجروحه التي أصيب بها أثناء القتال، فعظم أمر موته على قومه فكانت فرصة لطلب الإنتقام والثأر، ثم وصلت جماعات من فرسان الدروز المسلحين مع "علي بك حمادة "من أعيان دروز لبنان يتبعه دروز عين قنية الشوف،

1- مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، من سنة 1840م إلى سنة 1910م، المجلد الثاني، تعريب فيليب وفريد الخازن، مطبعة الصبر، 1911، ص116.

- اسكندر بن يعقوب أبكريوس، المصدر السابق، ص168.

- تاريخ بلاد الشام في القرن 19م، روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص356.

2- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص149.

3- للمزيد من التفاصيل ينظر: - مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، المصدر السابق، صص 115-124.

4- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص151.

- اسكندر بن يعقوب أبكريوس، المصدر السابق، ص169.

5- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص152.

وعقبه وفد الشيخ "كنج العماد اللبناني" الذي كان محافظا من جانب الحكومة على بقاع العزيزا، بصحبة نحو ستين فارسًا مدججين بالأسلحة،[1] وزاد هياج الدروز المتوافدة على حاصبيا، متجمعة حول السرايا، ورأى النصارى قرب ساعة الخطر، غير أن جماعة المجادلة عمدوا إلى بوابة السرايا الكبرى، فشرعوا في تكسيرها بالفأوس، غير مبالين بما ينقض عليهم من رصاص المدافعين وبارودهم، ولم يزالوا بها حتى حطّموها وفتحوها عنوة، فأعلموا في الأمراء واحدًا تلو الآخر أولهم الأمير "سعد الدين شهاب" وصهره الأمير"جهجاه"، وآخرون من كبار النصارى وأعيانهم[2]، فوسالت الدماء وبدأت المذبحة، التي شبّهها الكتاب والمؤرخون بذبح الغنائم والبهائم لوحشيتها،[3] فكانت مجزرة، وبلغ عدد القتلى سبع مائة وأربع وعشرون من المسيحيين وأربعين من الدروز وجند الأتراك.[4]

- **راشيا الوادي ومذابحها 21ماي / 16جوان 1860م:**

سبق أن تعرفنا على منطقة راشيا، ولكن المجزرة أقيمت في راشيا الوادي الواقعة في واد التيم[5] شمال حاصبيا، والبعد بينهما خمسة عشر كيلو مترا، وهي في الجهة الشمالية الغربية من جبل الشيخ، تبعد نحو اثنا عشر ساعة عن دمشق، وسميت راشيا الوادي نسبة لوادي التيم الذي تقع فيه، وكان عدد سكانها أكثر من أربعة ألاف وخمس مائة نفر، أكثرهم نصارى من طائفة الروم الأرثوذوكس وبعضهم بروتستانت، وكانت أكثر محصولاتها من الحمص والتبغ والقمح والشعير، وهي قليلة الفاكهة والخضر لقلة مياهها.[6]

كان الدروز والنصارى في راشيا الوادي على وفاق ببعضهم البعض، غير أنه في ذات النّهار الذي جرت فيه مذبحة حاصبيا، بعد أن نزع قائد الجنود السلاح من النصارى، تقدم دروز حوران وباغتوا نصارى راشيا الوادي في بيوتهم وفي السّراي وعلى مرأى الجنود التركية وبمساعدتها، أجهزوا على جموعهم وقتلوهم مع أمراء شهاب، ولم ينج منهم سوى أميرين، ثم نهبوا بيوتهم وتركوها خاوية، وتمت هذه المجزرة في 22 ماي، حيث كثر عدد الوفود من الدروز

1- تاريخ بلاد الشام في القرن 19م، روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص152.
- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص356.

2- تاريخ بلاد الشام في القرن 19م، روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص357.

3- للمزيد من التفاصيل ينظر: - اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق صص169،170.

4- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص162.
- تذكر بعض المؤلفات أن عدد القتلى بلغ ستمائة رجل من النصارى هذا حسب رواية الشاهد العيان الدرزي عن حوادث 1860م المسمى " حسين غضبان أبو شقرا" وكتبها يوسف خطار أبو شقرا. ينظر: - تاريخ بلاد الشام في القرن 19م، روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص357.
- أما في مؤلف أبكريوس فيذكر في التهميش أن عدد القتلى حسب مؤلف شاهين مكاريوس أن القتلى النصارى في حاصبيا بلغ سبعمائة وأربعة وعشرون قتيلا، خمسمائة وتسعة وخمسون شاب، ثلاثون شابالم يتجاوزوا الخامسة والعشرين، وعشرة نساء. ينظر: - اسكندر بن يعقوب أبكريوس، المصدر السابق، ص176.

5- واد التيم: هو واد طويل وخصب على السفوح الغربية لجبل الشيخ في جنوب شرق لبنان.

6- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص159.

على هذه البلدة من جميع النواحي والأطراف،[1] وتزايد الضغط على النصارى، مما دفع بقائد الجنود إلى دعوتهم للدخول إلى القلعة حفاظا على أمنهم، وأخذ منهم الأسلحة بحجة حمايتهم، لكنهم أحيطوا بنفر كبير من الجند، فلم يجدوا سبيلا للفرار.

أما الباقون الفارون منهم هاجروا من راشيا نحو زحلة والبعض الآخر إلى دمشق والساحل، وقتل عدد كبير منهم، أمّا الذين إلتجأوا إلى القلعة، فتذكر المصادر أن حالهم لا يمكن أن يتصوّرها القارئ، فقد كانوا يمرون بأسوء حالاتهم، لا مأكل ولا مشرب إلى غاية 29 ماي 1960م، في هذا اليوم قدم وفود من الدروز من جهات مختلفة، فمرّوا براشيا، وكان أكثرهم من دروز حوران إنجلوا على حاصبيا بعد مذبحتها وقصدوا الإنضمام إلى الذين كانوا حول "دير القمر"، من أبناء جنسهم، فلما رآهم الآغا التركي أشار إليهم بالمجيء فجاؤوا، ودخلت الفرقة الأولى منهم من باب القلعة، وكانت حاملة الفؤوس وهي تهلل بالظفر والفوز، ويطلقون البنادق مع الدروز، ثم أطبق باقي الدروز على القلعة والعساكر حافظين منافذها كي لا يفر أحد من أولئك المساكين الذين أضحوا فريسة الذبح والمجزرة.[2]

وهكذا أسفرت حوادث راشيا الوادي عن قتل مئتان وسبعون ذكرا داخل القلعة، ومئتان وواحد وثلاثون خارجها في أماكن مختلفة من البلدة وفي الخارج، فيكون مجموع قتلى راشيا خمسمائة قتيل، هذا غير الذين قتلوا في قرى أخرى من وادي التيم، وحرقت ديارهم ونهبت، كما حرقت راشيا ونهبت، وقد قتل من قرى مرج عيون نحو العشرين والباقون هربوا إلى جهات أخرى.

أبلغ الكونت "بنتيقوليو Comte de pentecolio" القنصل الفرنسي العام في بيروت، وزارة الخارجية الفرنسية، بأحداث راشيا في 17جوان1860م، وصرح بخوفه على امتداد الخطر والفتنة الطائفية بنيرانها إلى دمشق.[3]

- **مذبحة دير القمر1860م:**

دير القمر[4]، بلدة حسنة المنازل والبيوت، موقعها من الجهة الجنوبية من بيروت، وهي تبعد عنها نحو سبع ساعات ونصف، وأهلها نصارى ودروز يبلغون جميعا نحو سبعة آلاف من النّسمات، من مسلمين ونصارى

1- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص162.
- محمد كرد علي، خطط الشام، ج6، المرجع السابق، ص86.

2- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص166.

3- منور صام، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860، من خلال الوثائق الفرنسية، رسالة دكتوراه دولة، وهران، 1971، ص185.

4- قيل سبب تسميتها بدير القمر أنه في بداية ولاية الأمراء المعنيين في الشوف (الشوف من نهر بتدين إلى سطح الجبل، سكانها دروز وموارنة ومشايخها الجنبلاطية عمدة مشايخ الدروز)، وجد النصارى ديرا مهدما في أعلى غابة، هناك فأخذوا يبنونها ليلا في ضوء القمر لئلا تفوتهم اعمال النهار فقيل له دير القمر، وقيل وجود صورة قمر منقوشة على صخر باق الآن في حائط كنيسة التلة، ولوجود الماء هناك بنى الأمراء المعنيون فيها منازل عظيمة ، وانتقلون (بعقلين) إليها فعمرت، واستأصلوا تلك الغابة وجعلوا القرية مقر ولايتهم، ثم انتقلت إلى الأمراء الشهابيين خلفائهم، وهي مدينة الجبل، وفيها حوانيت وحواصل تجار، ولما وقعت العداوة بين أهلها ومشايخها النكديين خرجت من ولاية الدروز وصار واليها تركيا.=

مع بعض اليهود،[1] وكانت هذه البلدة مدينة الجبل العظمى وقصبة الدروز، إشتهرت بمصنوعاتها ونشاط أهلها، ورواج تجارتهم، من عهد الأمراء المعنيين،[2] أما أرزاق دير القمر فأكثرها توت وزيتون وكروم، لها تجارة واسعة مع بيروت وصيدا، والشام ولبنان ووادي التيم، وقد اشتد تمسك النصارى بعروة الأشغال والمدنية والعلم، بعد وضع النظامات الخيرية، لأن الأمنية زادت وقتئذٍ، ووجد نصارى دير القمر بأن تفرغهم للأشغال أفضل لهم مما سواه، وقد أفلحوا بما أتوه، حتى انحصرت تجارة شمالي لبنان وبعض أوساطهم بهم، واشتهر من علمائهم العلامة "ميخائيل ميشاقة"[3] وأخوه "جبران"، وغيرهما من العلماء.

وفيما يخص أهلها ودفعاً لما خشوه من مخاطر الفتنة والخراب والتدمير التي قام بها الدروز في مناطق عدة، فقد أجهدوا النفس في دوام الألفة بينهم وبين الدروز، وسعوا في كل ما يؤيّد السلام والراحة والطمأنينة، أما الدروز فقد كانوا ينظرون إلى تقدم دير القمر وزحلة بعين الحسد، ويطمعون في أموال أهاليها.[4]

يذكر الشاهد العيان الدرزي "حسين غضبان أبو شقرا" عن حوادث دير القمر، أنها حادثة مشؤومة لم يسبق لها نظير في تاريخ لبنان الحديث، ويذكر أن سبب هذه المجزرة يعود إلى رجلان من وجوه عامة الدروز وهما مشهورين بالبطش والفتك في الوقائع والغارات وهما "مصطفى الدويك و سليمان أحمد عبد الصمد"، ويضيف

=للمزيد من التفاصيل ينظر: - طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع مقدمته وزفهارصه: فؤاد افرام البستاني، ج1، المطبعة الكاثوليكية، د.ط، بيروت، 1970، ص25.

1- اسكندر بن يعقوب أبكريوس، المصدر السابق، ص209.

- أما في حسر اللثام، فيذكر أن عدد أهلها يبلغ خمسة آلاف نسمة، بحسب إحصاء 1862م، أي ما يعادل ثمانمائة وسبعة وخمسون مارونيا ومائة وإثنان وسبعون كاثوليكيا وأحد عشر درزيا في خلوات جرنايا فالمجموع حسبه ألف وأربعون ذكرا. ينظر:

- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص169.

2- قيل أنه في سنة 1860م، كان أهلها حوالي ثمانية آلاف نسمة، بين مسلمين، دروز، نصارى ويهود، فلما حدثت المذبحة الكبرى في تلك الثورة قلّ عدد أهلها، بالقتل والمهاجرة، وكانت قبل فتنة 1841م، موطنا للمشايخ النكديين، حكام القطيعة، ولمّا وقعت الفتنة بين الدروز والمسحيين في نفس السنة طردوهم منها، للمزيد ينظر: - المصدر نفسه، ص168.

3- هو ميخائيل مشاقة، بن جرجس بن إبراهيم بن جرجس بن يوسف مشاقة، وهو أوسع أفراد مشاقة شهرة وأعلاهم منزلة ولد في 20 مارس 1799م في قرية رشميا من أعمال جبل لبنان، ولما بلغ السن الذي يؤهله لتلقي علوم زمانه درس على والده القراءة والكتابة، وأتقن بعض المهن، إلاّ أن نفسه كانت أكبر من هذا الحد، درس الفلك وعلوم الطبيعة، وفي 1817م قدم إلى القطر المصري، ودرس علوما حديثة، وفي 1818م فادته أفكاره إلى البحث في العقائد الدينية، مما زاده ثباتا في صحة معتقده، وعاد من سفريته إلى دير القمر، وشرع في تجارة الأقمشة الحريرية، ولكنه لم يزاولها إلاّ مدة قصيرة، وبدأ يركز اهتماماته لدراسة الطب معتمدا على نفسه لعدم وجود معاهد لتدريس الطب في سوريا، وتزوج عام 1833م، بعدما إنتقل إلى دمشق، بإيعاز من الدولة المصرية، الدكتور كلوث بك، ناظرا على المجلس الصحي في دمشق، فكثرت إجتماعاته به إلى أن أصبح صديقه الجميع، فعلمه وأفاده كثيرا فيما يتعلق بأمور الجراحة وغيرها، وقبل حصوله على الشهادة أقامه شريف باشا رئيسا على أطباء دمشق، في مدة إستيلاء المصريين على سوريا، وفي عام 1845م ساعده صديقه الدكتور "كلوث بك" بعد قدومه للديار المصرية على نيل الشهادة، بعدما قدم فحصا للجنة الأطباء قدموا من جامعة باريس إلى القطر المصري لتلك الغاية، وله مؤلفات عديدة. للمزيد من التفاصيل عن حياته ينظر:

- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، صص5-13.

4- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص170،171.

حسب شهادته أنهما أخذا يزينان ذلك للدروز الراجعين من زحلة، وقد ساعدهما فصاحة لسانهما، وعظيم دهائهما وإقتدارهما، ومالهما من المنزلة الرفيعة في أعين القوم، ولاسيما أنّهما من الشيوخ الروحيين المعترف لهما بطول الباع في العلوم الدينية،[1] كما يضيف "ميخائيل" في هذا الصدد أن الدروز قد نفخت في صدورهم الروح السامة للإنتقام، وما عاد ينقصها عن الإنفجار إلاّ سبب طفيف يساعدهما على ذلك، وكان السبب حسبه: أن رجلا ديرانيا (دير قمر) من النصارى ذهب يوماً لصيد الطيور إلى ناحية "بعقلين" المأهولة بالدروز، فتصدى له درزي دفعه عن غرضه، فاعترض عليه واشتدّ الجدال، وأدى بهما إلى الخصام واستخدام السلاح، مما دفع بأهل القرية من دير القمر وبعقلين للتدخل ودار القتال بينهم وبين الدروز، وكان ذلك عام 1841م، وأسفرت هذه الحادثة عن مقتل إثنين وثلاثين قتيلا من الدروز، وأربعة من النصارى، وذكر "مشاقة" أنه تدخل وجمع عدد كبير من مهاجري دير القمر المتواجدين بدمشق، وحذرهم من الدروز، واقترح عليهم أن يحلوا المشكلة بالتي هي أحسن.[2]

مهما كان السبب إلا أن النتيجة واحدة وهي حدوث مجزرة في دير القمر عام 1860م.

ويذكر شاهد العيان الدرزي " حسين غضبان أبو شقرا" و"مشاقة" أنه كانت في قلوب الدروز حزازات تغلي مراجلها إنتقاما من أهالي "الدير" الذين أصبحوا قاتلين عددًا ليس بقليل من الدروز، فبقيت عوامل الحقد والضغينة تتحرك في قلوبهم، إلى أن جاء اليوم المشهود وكان يوم الخميس، يوم الميعاد للزحف إلى دير القمر الذين كانوا يضنون أنهم في مأمن حيث كانوا يذهبون من مكان لآخر دون حذر وهم يشاهدون قدوم الدروز، فتكاثر عددهم من يوم إلى آخر، وهم على ثقة وهمية في إخلاص جيرانهم ومشايخهم، وبينما هم على ذلك وأكثرهم متغيّب عن البلدة في مدن سوريا ونواحيها غير عالمين بما تولده الليالي، إذا هجم عليهم دروز المناصف فأقاموا من رقادهم على صوت البارود والسلاح.[3] فاقتحموا حصونها المنيعة دون مكابرة، فنهبوا وأحرقوا وقتلوا، فالتجأ بعض سكان حارة الدروز إلى مشايخ "نكد" وطلبوا منهم الحماية ومراعات حقوق الجار فلم ينالوا جواباً، لكنهم لاقوا حذفهم من أيدي الذين كانوا يحاربونهم، وكان شأن الدروز عندما ينهبون بيتاً ويستولون على موجوداته يلقون فيه النار، فأحرقوا بيوتا عدة، وكان أكثر النصارى نكبة بيت مشاقة، لما اشتهر عنه أنّ فيه مالا طائلا وموجودات ثمينة، فتردّد إليه الدروز وسلبوا كل ما فيه وأحرقوه.[4]

1- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، صص380،381.
2- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، صص146،147.
3- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص371.
- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص147.
4- المصدر نفسه، ص149.
- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق ص214.

أمّا النساء فكنّ بذلك النهار باكيات نائحات مستجيرات، مستغيثات، ولكن دون جدوى، لكن حسب شاهد العيان، لم تؤذ النساء الديريات في ذلك اليوم.[1]

كما أوقف الدروز قبل الهجوم رجالا على الطرقات، ليقطعوا المواصلة بين أهالي الدير وبين ما تدفعه الحمية لنجدتهم، وقد أفلحوا في ذلك[2]، فكان نصارى الباروك عندما يأتون لنجدة إخوانهم ويشاهدون حامية الدروز محيطة بالمدينة يرجعون على أعقابهم، وبذلك قطعوا كل إتصال بهذه المدينة مع العالم الخارجي، ونهبوا البيوت غير ممتثلين لأمر الحكومة التي تأمر بألاّ يقترب أحد من البيوت التي بظاهرها، وألاّ يخرج أحد من الأهالي خارج البلدة، ومن يخالف الأوامر يعاقب.

دخل البلدة كل من "سليم بك وشاهين بك أبي نكد" مع عدد غفير من الدروز، وتوجّهوا إلى السّراي، وعوض أن يصادفوا الحكومة وضباط العساكر بالصد والمؤاخذة عما اقترفوه، قوبلوا بالبشاشة والترحاب، ودخل جمهور آخر من الدروز وتفرّقوا في البلدة وأخذوا يهينون النصارى، ثم بعد ذلك حضر إلى تلك المدينة كل من "طاهر باشا" كموندان العسكر ببيروت، ومعه أربعمائة جندي منظم و"سعيد بك "جنبلاط، و"علي بك حمادة"، وجمهور غفير من الدروز مسلّحين بالسلاح الكامل، وذكر "طاهر باشا" لرؤساء النصارى أنه تكدر من سلوكهم وعدّهم من الخائنين الذين يعملون على خراب الدولة، وإهاجة الفتن، بغية إدخال الدولة الفرنساوية إلى لبنان، فتذلل لديه القوم وبرهنوا له على طاعتهم وأمانهم فتظاهروا بالإقتناع، وذكر لهم أنه جاء لكي يضمن حياتهم وأموالهم وراحتهم، ثم أحضر إلى "دير القمر" من صيدا خمسمائة عسكري منظم مع مدفعية، وانضم إلى القوة العسكرية الموجودة والتي أصبحت مؤلفة من تسمائة جندي، جزء منهم في بيت الدّين والباقي في دير القمر، وأمر "طاهر باشا" بألاّ يتركوا أي درزي مسلم يدخل المدينة، ويسعوا من أجل ضمان راحة الأهالي.[3]

بعد خروج "طاهر باشا" تاركاً دير القمر عائداً إلى بيروت، بعدما أرسل مناديا إليهم ليتضمّن لهم الأمان ليباشروا عملهم ومهنهم دون خوف أو ارتياب بعدما أعطاهم صكّا مكتوبا، يتضمّن لهم الأمان ما داموا في البلدة إضافة إلى تحصينهم بالعساكر المسلمين، وألقى فيهم خطابا لأجل إتمام الصلح بين الطرفين ورفع الفتنة والمخاصمة إلاّ أن الدروز بقيت محيطة بالبلدة ومنتشرة حولها، مانعة من أن يخرج منها أو يدخل إليها أحد، وكلّما ورد إليها شيء من الزاد ينهبونه، وكلّما استفرد أحد من أهلها في الخارج قتلوه، فتضاعف الخوف بين الناس، إلى أن جاء يوم

1- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص177.

- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص372.

- يذكر اللورد دوفرين، أن النصارى كثيرا ما كانوا يقتلون بعضهم بعض ولا يعفون عن النساء، أما الدروز فلا يقتلون بعضهم بعض ويحترمون النسا. ينظر:

- محمد كرد علي، خطط الشام، المصدر السابق، ص81.

2- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص149.

3- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص157.

- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص215.

20 جوان 1860 م، فدخل الدروز البلدة بحجة أنهم حضروا من قبل مشايخهم للحفاظ على الأمن، وبعدما كثر عددهم، بدأوا في الإعتداءات والهجوم على البيوت والحوانيت، فاجتمع النصارى عند "عبد السلام بك" قائمقام العسكر طالبين منه الأمان لكنه إعتذر.

فصار النصارى يهربون إلى السرايا مع نسائهم وأطفالهم، وبقي عدد الدروز في تزايد مستمر مع التحريض بالقتل والنهب والإنتقام، فتحولت إلى مذبحة حقيقية للمسيحين دون شفقة فقتلوا كل من صادفوه من رجال وأطفال ونساء، ولما انتهوا من البلدة، إتجهوا نحو السراي وبدأت المذبحة فيها، أمام أعين الحاكم والقائمقام والضباط والعساكر[1]، ومنه إتجهوا إلى "بيت الدّين" وذبحوا جميع النصارى الذين لجأوا إليها، مع مائة وتسعة أشخاص آخرين من قرى "بيت الدّين"وحرقوها، وكان لهيبها يتأجّج ويتصاعد حتى حجب الشمس، وتم ذلك أمام أعين قائمقام العساكر الذي لم يحرك ساكنا، فكان منظر السراي بيت الدين مخيفا، ليس هذا فحسب بل فتكوا ونهبوا وأحرقوا القرى المجاورة لها، ثم عادوا إلى دير القمر ليكملوا على من تبقى فيها، ففتكوا بدير الرهبان الذي كان باقيا فيها، وأوقعوا ببيت خليل الجاويش، أحد أعيان النصارى، وقتلوا المعتصمين به، ونهبوا أموالهم، وقد بلغت ضحايا دير القمر وبيت الدّين ما يزيد عن نيف وألف وخمسمائة رجل، علاوة عن النساء والأطفال، وهكذا بقيت جثث القتلى في محل مذابحها مدّة للطيور ووحوش البرية، إذ لم يكن هناك من يدفنها أو يواريها التراب، واهتم أهل الدير بجمع عظام موتاهم بعد الحوادث المذكورة ودفنوها في مكان بالدير، وسميت البعض "عظام الشهداء"[2].

- **مذابح دمشق وتخريبها سنة 1860م:**

تعتبر مدينة دمشق[3] أكبر مدينة في سوريا ولبنان إلى وقت حدوث الفتنة عام 1860م، وكانت دمشق تتناول أواسط البلاد مما يلي الشرق، أي كانت مركز الولاية عند تقسيم بلاد الشام إلى ولايات ،وكان عدد هذه الولايات أربع (دمشق، حلب، صيدا، بيروت)، وكان يتبع ولاية الشام سبعة وعشرون قضاء، وكانت دمشق أعظم مدن الشام وأكبرها، وكان عدد سكانها حوالي مائة وخمسين ألفاً، تسع أعشارهم مسلمين، وللمسيحين منهم حارة

1- للمزيد من التفاصيل ينظر: - اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، صص217-220.
- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص178-184.
2-المصدر نفسه، صص184-188.
- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق صص219-220.
3- يذكر إبن عساكر في إشتقاق تسمية دمشق أنه لما دفع إليه أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي ببغداد كتاب "إشتقاق أسماء البلدان" لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، وعليه خطه فوجد فيه: وأما دمشق فيقال إنها من دمشَقَ، وناقةٌ دمشق أي سريعة، ... ويقال: دَمشَقَ الضرب دَمشقة، إذ ضرب ضرباً سريعاً خفيفاً. للمزيد من التفاصيل ينظر: - ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتح، عمر بن غرامة العمروي، ج1، دار الفكر، د.ط، بيروت، لبنان، 1995، ص19.

خاصة بهم تعرف "بباب توما" أما نسبة اليهود فكانت تمثل 5% في سنة 1840م، ونقصت بعد ذلك حتى وصلت إلى 3.9% في سنة 1876م[1].

كما شهدت دمشق في الفترة الواقعة بين حرب القرم، وبين أحداث الستين مجيء كثير من عناصر الأكراد والحراكة إليها وإقامتهم في ضواحيها، كما شهدت مجيء بعض الجزائريين إليها، والذين حظوا باستقبال الأبطال من قبل العائلات الدمشقية، فأكرموهم وفتحوا لهم بيوتهم، ويعود سبب مجيئم إلى رغبتهم في البقاء قرب "الأمير عبد القادر" بعد إنتهاء المقاومة بالجزائر، كما كان لهم الفضل في إنقاذ أرواح المسيحين والأجانب من الفتنة التي وقعت في دمشق[2]، ويذكر ابن عبده النعمان في كتابه "حسر اللثام"، أن سبب هذه الفتنة يعود إلى أن السلطان العثماني[3] أصدر أمراً يقضي بالمساواة بين رعاياه، وكان ذلك الأمر بمقتضى معاهدة باريس1856م[4]، كما يضيف "ميخائيل مشاقة" أن الدولة العثمانية رضيت بهذا الإتفاق مكرهة، على إثر حرب القرم 1853م، ومفادها المساواة بين جميع رعاياها في الحقوق والواجبات، وإعفاء النصارى من الخدمة العسكرية، وهذا كان الباعث على إنشاء الضغائن والأحقاد لما فيها من الممايزة، إضافة إلى بنود أخرى وإصلاحات قامت بها ووافقت عليها الدولة العثمانية سواءا كانت مكرهة أو دون تمعّن، مما أدى إلى تذمر المسلمين من الدولة، وبلغ من حقد المتعصبين أنهم تآمروا وألّفوا جمعيات سرية يطلبون فيها خلع الدولة التركية، وإبدالها بدولة تعيد مجد الإسلام[5].

1- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص264.
- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص222.
- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص23.

2- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، ص173.
- صام منور، المرجع السابق، ص202.

3- السلطان الغثماني هو عبد المجيد خان ابن السلطان محمود الثاني ولد في 14 شعبان 1237هـ/6ماي1822م، وتولى الخلافة ولم يبلغ الثامنة عشر من عمره، وكانت الحكومة في غاية الإضطراب بسبب إنتصار محمد علي باشا وكانت سنة وفاته يوم 25جوان 1861م.ينظر
- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس، ط1، مجلد1، بيروت، 1981، ص455.
- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص265.

4- معاهدة باريس 25 فبراير 1856م: عقد في باريس من أجل إستتباب الصلح، وصنع السلام ما يقرب من ثلاثة سنوات من حرب القرم، فاجتمع النواب من ممثلي الدول الكبرى في أوربا والتي كانت في ذلك الوقت (فرنسا، بريطانيا، إيرلاندا، سردينيا، روسيا والنمسا)، إضافة إلى الدولة العثمانية، لرغبتهم في إنهاء الحرب، وتوصلوا في هذا المؤتمر إلى شروط نهائية بين 25 فبراير و30 مارس من سنة 1856م، وهكذا وقع الإتفاق بينهم، وأبرزوا ما بأيديهم من المحررات المؤذّنة بتفويضهم ووجدت صحيحة إتفقوا على مجموعة من المواد حوالي أربعة وثلاثون مادة، ومادة ملحقة بما تقدم. للمزيد من التفاصيل ينظر: - محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، المصدر السابق، صص513-525.

5- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص223.
- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، صص169،170.
- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص352.

كما يضيف "محمد كرد علي" مؤيّدا ما ذكره "ميخائيل مشاقة" عن مسألة الأمر السلطاني، الذي كان من أعماله المساواة فيما بين المسلمين وبقية رعايا الدولة من غير المسلمين، أن الدولة العثمانية كانت تريد من وراء هذا، ضرب النصارى بالمسلمين في بلاد الشام، ويضيف أن مسلموا دمشق وسوريا سفهوا من عمل الدولة التركية، التي أجابتهم أنها لم تفعل ذلك -أي قرار التسوية- إلاّ مضطرة.[1]

كما ذهب "أبكريوس" في جعل سبب الفتنة يعود إلى جهل بعض المسلمين وإفراط النصارى في فهمهم للحرية، ويضيف أنه هناك مصادر رسمية، ووثائق أكثرها مراسلات دبلوماسية رسمية ،تؤكد وتثبت أن عملاء الإنجليز والفرنسيين قد إشتركوا في زرع بذور الفتنة، ويؤيده في ذلك "أحمد طربين" إذ يذكر أن الأزمة المصرية العثمانية كانت سببا في قيام شبه وصاية أوربية على الدولة العثمانية، الأمر الذي دفع السلطان "عبد المجيد" إلى إصدار الفرمان السلطاني، وقانون التنظيمات الخيرية، الذي ترتب عليه مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، إضافة إلى مشكل دفع الضرائب والخدمة العسكرية، كلها أسباب زادت التدخل الأوربي في المشرق العربي، ومعلوم أن فرنسا ظلت تدّعي حماية الكاثوليك، وروسيا حماية الأرثوذوكس، وإنجلترا حماية البروتستانت فضلا عن رعايتها للدروز بعد عام 1860م.[2]

لقد كان هياج المسلمين في دمشق يشتد يوما بعد يوم، حتى صار القوم يسمعون أخبار المذابح التي حصلت في راشيا وحاصبيا، دير القمر وزحلة، وكان النصارى يهانون ويشتمون ويرون كلّ بلية، حتى رأووا أن الإلتجاء إلى عدل الحكومة عبث، فلذلك لزم الكثير منهم بيوتهم، وانقطع التجار والمستخدمون منهم عن الخروج إلى أشغالهم، وكان القناصل يرون هذه الأمور ويبعثون بالتقارير إلى دولهم[3]، وإذا زادت المشاكل حدة، يجتمعون في بيت القنصل الإنجليزي بناءاً على طلبه من أجل إيجاد حل لمنع المذابح، كما انتدبوا أحدهم وهو قنصل الدولة اليونانية لمخابرة الوالي في هذا الأمر أي إخماد الهياج كونه يعرف اللغة التركية، ولم يفلح لأن "أحمد باشا" كان يتحجج بقلة العساكر[4]، ثم ذهب القناصل بأنفسهم إلى دار الوالي وألحوا عليه إلحاحاً شديداً بأن يعمل على تحسين الحال، ووعدهم بعمل ذلك، فأرسل إليهم فرقة من العساكر، ليقوموا بحمايتهم، وتعهّد لهم بأنه لا يمسهم أدنى ضرر[5]، ولكن مسلمي المدينة كانوا ينتظرون سنوح الفرصة للإيقاع بالنصارى، لأنهم كانوا ينظرون إليهم نظر الحاسد المنتقم المتعصب، خاصة بعدما

1- محمد كرد علي، خطط الشام، المصدر السابق، صص72،73.

2- للمزيد من التفاصيل ينظر: - اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، صص253-265.

- أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان، المصدر السابق، ص50.

3- معظم هذه التقارير موجودة في مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1900، المجلد الثاني، المصدر السابق.

4- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص224،225.

- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص172.

5- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص254.

- محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص113،114.

بدا من النصارى على إثر شريعة المساواة، ومما زاد الطينة بلة حسبما ذكره "ميخائيل مشاقة،" هو ما كان يأتيه "أحمد باشا" من الأعمال والإستعددات ،وذلك أنه أمر بنصب المدافع على أبواب الجامع الأموي، وأعلن أن غرضه من ذلك هو الإحتراس من غدر النصارى بمن يكون داخله في أوقات الصلاة.

ويضيف "ابن عبده النعمان" أن هذا الوالي أي "أحمد باشا"، كان يصفّ الجنود حول الجامع بدعوى أن النصارى ينوون الهجوم عليه، حتى وصل كره المسلمين من هذه الإشاعات والمفاسد إلى درجة لم يعد من الممكن البقاء على السّلم معها، ثم يضيف أن الوالي نقل عائلته إلى القلعة وحصّنها بالمدافع، ففهم الناس من ذلك أن الوقت قرب، وجعلوا يستعدّون للعمل على ملاشاة النصارى عن بكرة أبيهم من دمشق، وهاجت الجموع، وإزداد الكرب، وبلغ الإستعداد للفتك حدّه، وانقطع كل أمل عند النصارى في النجاة[1]، خاصة مع تكاثر قدوم الدروز إلى المدينة من يوم إلى آخر مما زاد من كثرة إرتباكهم[2]، فقد كان هدف الدروز من الإنتشار في المدينة هو إحراق القرى، ومحاصرة مدينة دمشق وسد عليهم الطرقات، وقطع خط الرجعة وإقفال خط الهروب أمام سكانها، فاضطروا للبقاء تحت الخطر المحدق، وكل هذا من أجل إحداث المذبحة.[3]

فعلا هذا ماحصل، ذلك أنه كان لا يزال بعض المسلمين حاقدين، وواصلوا التمّرد، فتمادوا في التصلب والتشرّد، وهم لا يمتثلون لأوامر كبرائهم، ونصائح عقلائهم، وزواجر علمائهم، حتى صاروا ينحرون الصبيان على تصوير الصلبان في الطرق والجدران، ويعلقون تماثيلها من الأوراق والأخشاب في أعناق الكلاب، ويرمون بالأخرى في المحلات القذرة، كما أهانوا المسيحيين، وقاموا بسبّهم، ولعنتهم موجّهين إليهم كل أنواع الشتائم[4]، كما يضيف "برانت " Brandt قنصل بريطانيا، أن أولاد المسلمين كانوا يرسمون صورة الصليب في الطرقات ويدوسونها، ويهينون المسيحيين المارّين، فقبض عليهم "التفكجي باشي"[5]، وقيّدهم بالسّلاسل وأكرههم على تكنيس الطرق[6]،

1- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، صص171،172.
- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص226،227.

2- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، صص173،174.
3- المصدر نفسه، ص172.
4- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص254.
- محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص114.
- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص228.
- وثيقة 111: خلاصة عريضة مسيحي دمشق إلى القناصل في 20 جويلية. مجموعة المحررات، المصدر السابق، ص180.

5- التفنكجي باشي: هو رئيس الجند، حملة البنادق، وكان بمرتبة آغا، وكان هؤلاء من المشاة، ولهم مكان خاص بهم، يأتمرون بأمر الوالي، وغالبا ما كانوا من أصل محلي، وفي القرن الثامن عشر، استخدم هؤلاء في ولاية الشام، وكان أكثرهم من أصل موصلي، أو بغدادي، وعملوا كشرطة، ولقد كان لكل والي (مائة إلى مائة وخمسون تفنكجي)، وكان راتب التفنكجي باشي خمسين كيساً من القهوة، وله نصيب من الجزاء النقدي الذي يفرضه الباشا على المتاشكين.
ينظر: - اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص69.
6- محمد كرد علي، خطط الشام، المصدر السابق، ص84.=

وذلك بأمر من الوالي الذي أوجب على معاقبة المدنيين، فبيّن له المسلمون غضبهم، فأبى العدول عن أوامره، مع أنه لم يكن يجهل هياج أفكارهم، فإصراره يثبت ما أتّهم به من رغبته في إيجاد سبب للمسلمين يتّخذونه حجة للإيقاع بالمسيحيين،[1] وفعلا إجتمع المسلمون وهاجموا المسيحيين في الشوارع، وكان ذلك عند الظهر، وبعد ساعة بلغ الهياج معظمه، واحتشد جميع المسلمين مسلّحين، وخلّصوا رفاقهم من القيود، ونادوا بالجهاد لقتل المسيحيين، وكان ذلك النّهار بدءاً للمذبحة العظمى، والمصيبة الكبرى والنكبة التي ليس فوقها نكبة، عمّت نصارى المدينة، وكادت تكون القاضية عليهم.

كان النصارى في أثناء بدء المذبحة متخوّفين بالمدينة، ذلك ما زاد في ضعفهم، وعليه بدأ المسلمون بالهجوم عليهم في بيوتهم ومحلاتهم، وأينما عثروا عليهم أعملوا بهم السيف، كما اخترقوا حرمة العرض، فدخلوا البيوت، وقتلوا الرجال، وسبوا العيال، ونهبوا وارتكبوا المناكر، حتى أنهم نهبوا الكنائس وقتلوا الرّهبان في مخادعهم، وألحقوا أضراراً بالقناصل، ولم تنتصف النّهار حتى صارت حارة النصارى كلها ناراً مشتعلة[2]، كما قصدوا المستشفيات وفتكوا

=- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص174.

- هناك العديد من المصادر التي تحدثت عن هذه الحادثة، فيما يخص تقييد المدنيين الذين أهانوا الصليب والمسيحيين، ومعهم المكانس وقيود الحديد، حتى وصلوا سوق "باب البريد" -هو من أجمل أسواق المدينة كلها وأحسنها، وفيه تباع منسوجات البلاد الأوربية الغالية الثمن- إضافة إلى الولدين المسلمين اللّذان أهانا المسيحيين، قيّدا بالأغلال، وعند الساعة الثانية بعد الظهر، أرسلهما "أحمد باشا" لتكنيس الشوارع، وفي هذه الحال عمد المسلمون في أهم الأسواق إلى قفل حوانيتهم دلالة على سبق إتفاق بينهم وبين الوالي، فكبروا وهللوا ولعنوا الكفار، وحرّضوا بعضهم بعضا على التسلح، ومهاجمة المسيحيين. للمزيد من التفاصيل ينظر: - الوثيقة رقم 129: رواية ضابط تركي في دمشق، والحديث عن الصلبان والمعتقلين ومصيرهم.

- الوثيقتين 130، 131: الأولى اللورد دوفرين إلى اللورد روسل عن بيروت في 26 سبتمبر، وتليها مباشرة الوثيقة الثانية عن رواية المستر روبنصن، عن مذبحة دمشق وأسبابها، وعن المدنيين الذين سوقوا إلى شوارع المدينة بمكانسهم من أجل تنظيف الشوارع عقوبة لهم عما ارتكبوه من فضائع في حق النصارى. - مجموعة المحررات، المصدر السابق، صص210-226.

وهذا ما أكده شاهد العيان محمد أبو السعود الحسيبي الدمشقي. ينظر: - تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص299.

1- مجموعة المحررات، المصدر السابق، ص180.

- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة، المصدر السابق، ص255.

- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص174.

2- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص255.

- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص175.

- تذكر ليندة شيلشر أن المؤسسات الأوروبية تعرضت للهجوم،كما هوجمت القنصليات الفرنسية والروسية والنمساوية والبلجيكية والأمريكية، وكذلك مباني البعثات التبشيرية البروتستاينية، والكاثوليكية قرب "باب توما"، وأتت النار على الحي المسيحي في المدينة الداخلية. ينظر:

- ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص111.

- ينظر كذلك للوثيقة 126: البابا بيوس التاسع إلى بطريك الطائفة المارونية وأسقفتها في 29 منه، عن تدنيس الكنائس وحرق القرى، وإضرام النار على الأواني المقدسة ونهبها. – مجموعة المحررات، المصدر السابق، ص201.

بالمرضى، ونهبوا ما وجدوه من المال، وأحرقوا مكانهم،[1] فلم يعد يرى في حارة النصارى غير رأس ينهال عليه الرصاص من بنادق العساكر، فصعد صراخ الأطفال والنساء إلى السماء، وجرت دماء القتلى في الشوارع، فقد قتل في ذلك اليوم ستة ألاف نفس بريئة،[2] بعدما تحمّلت مرارة العذاب التي وصفتها أقلام الكتّاب والمؤرخين بالذبّح والقتل والتعذيب والفتك والفضاعة التي أتاها الحاقدون ومن ساعدهم لإشعال نار الفتنة والتي كانت نتائجها المذبحة والمجزرة كما سماها المستر "كراهام" في رسالة له إلى اللورد دوفرين،[3] والتي لا مثيل لها في التاريخ.

كما تتهم الكثير من المصادر "أحمد باشا"، بتواطئه في إشعال نار الفتنة التي راح ضحيتها الآلاف، إذ يذكر القنصل برانت إلى السيد بولفر أن "أحمد باشا" لم يتخذ الإحتياطات اللازمة لتطويق الفتنة في مهدها، بالرغم من إبلاغه بالأمر قبل وقوعها،[4] حتى أن الأمير عبد القادر إجتمع به مع أعضاء مجلس الشورى، وسألهم مساعدتهم على إطفاء شرارة الثوار، وبيّن لهم براهين أدعمها بآيات قرآنية، تقضي على الحاكم بمقاتلة الثوار، ولو كانوا من أهل الشريعة، وساعده على تثبيت دعواه مفتي الولاية "طاهر أفندي"،[5] فقرّ رأيهم على معاقبة الثائرين ومقاتلتهم إذا ثابروا على ملاحقة الثورة والفتك بالنصارى، وقفل راجعا إلى بيته يعدّ رجاله إلى الغد، ولم يمض على رجوعه عن "أحمد باشا" بضع دقائق حتى ألحقه برسول وعرض له عدوله عن ضرب الثائرين وإرجاعهم للطاعة، عند ذلك حوّل "الأمير عبد القادر" إهتمامه لتخليص من يقدر على خلاصه من العيال والرجال.[6]

بعث برجاله في الليل من كل ناحية من أنحاء دمشق، يفتشون على النصارى فيقودونهم إلى سراي الأمير، أينما وجدوهم، ويردّون عنهم جموع الهائجين، ومرّ الليل والنهار التالي، والأمير يجمع مع رجاله هؤلاء المساكين في بيته، وهو يطعمهم ويسقيهم من ماله، ويعدهم بتحقيق الكرب.[7]

يضيف الموسيو "شارل أوبانل Charles Aubanel"، في رواية له عن مذابح دمشق، أن الأمير عبد القادر إنتشر مع الجزائريين في أنحاء المدينة، يجمعون الفارين وينقذون المحصورين، حيث أنه كان يقود وحده

1- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص256.

2- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص229،230.

3- الوثيقة 100: مقتطفات من رسالة المستر كراهام إلى اللورد دوفرين عن بيروت في 18 منه.

- مجموعة محررات، المصدر السابق، ص163.

4- يضيف القنصل برانت إلى السيد بولفر قائلا: "لمّا قلت لأحمد باشا أنه كان عليه أن يتخذ تحوطات لخنق كل فتنة في مهدها حين إرسال أحداث المسلمين مكبلين بالحديد لتكنيس شوارع المسيحيين أجاب أنه لو فعل لما أجدى هذا التدبير نفعاً لأن المؤامرة كانت مدبرة من قبل، فلو عدم مدبروها هذه الحجة لوجدوا سواها...." للمزيد من التفاصيل ينظر:- الوثيقة 194: القنصل برانت إلى السيد بولفر في 30 منه. مجموعة المحررات، المصدر السابق، ص319.

5- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، صص 175،176.

- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق ، صص156،157.

6- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص176.

7- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، صص 231،232.

أربعين أو خمسين مسيحياً دون أن يجرأ أحد على معارضته نظرا لهيبته، وهكذا نجا الآباء اللّعازريون، وراهبات المحبة، وجمهور من البنات اللّواتي لجأن إليهنّ، كما يذكر أنه عندما كثر عدد الذين أنقذهم من يد السفّاحين في داره، والذين بلغ عددهم أكثر من عشرين ألفا، قام بنقلهم إلى قلعة "أحمد باشا "، فاستقبلهم مرغما، كما أسف الأمير كثيرا من مقتل الآباء الفرنسيين، إذ كان يرسل إليهم ثلاثة مرات رجاله البواسل لإنقاذهم، فأبوا مرافقتهم إليه، ولا يعلم إذا كانوا تمنّعوا.[1]

هكذا يكون "الأمير عبد القادر" ورجاله قد خلّصوا عدداً كثيرا من الرجال والصبيان، والبنات، والنساء، بإحضارهم إلى دياره، وقد اعتنى بهم حقّ العناية، بالرغم من كثرة عددهم، إذ كان الوفود إليه عظيما، ومع ذلك لم تفتر همة رجال الأمير عن التفتيش بالآبار والكهوف عن التائهين وإحضارهم إلى منزله.

لقد كان لهذا القائد الشهم مهابة في القلوب أرجفت أولئك الأنذال الخائنين، الذين لم يستطيعوا تحقيق مآربهم في قتل النصارى، ولم يكن الأمير وحده على مسرح الأحداث، فكثيرون هم من دافعوا أيضا ما استطاعوا عن المسيحيين أمثال "سليم العطار"، الشيخ " أحمد مسلم الكزبري"، و"صالح آغا المهابتي"، و"عمر آغا العابد"، و"الشيخ عبد الغني الميداني"، إضافة إلى "هاشم آغا" متسلم القلعة الذي إجتمع بالأمير عبد القادر مراراً وعاونه على صيانة النفوس البريئة، وكان يجاهر بمقاومة الوالي في فعله، ويقول أنه يطلق الرصاص على كل من يقرب القلعة بسوء ما دام النصارى فيها، وغيرهم من الرجال الأوفياء والمخلصين الذين خلّصوا البلاد والنصارى من مجزرة أكيدة.[2]

كانت النتيجة المباشرة لأعمال الشغب أن غادر دمشق الآلاف من المسيحيين إلى الساحل السوري طلبا للعون والمأوى، أما القوات شبه العسكرية المتمركزة في المدينة، فكانت عاجزة تماماً عن إيقاف أعمال الشغب، أو حماية المعتدى عليهم، وما إن تلقت الحكومة المركزية أنباء الحوادث، حتى وجهت إلى دمشق قوة قوامها ثلاثة ألاف رجل، كانوا متواجدين في سورية لاحتواء الأزمة اللبنانية، وكان على رأس هذه القوات "فؤاد باشا"، وهو أحد القائمين على نهج التنظيمات، وكان يشغل منصب ناظر الخارجية، ومع أن أعمال الشغب قد هدأت قبيل وصوله دمشق في 29 جويلية، إلاّ أنه اتخذ على الفور إجراءات أمنية صارمة، وبدأت بالتحقيق في الحوادث، وقام بعمليات إغاثة.[3]

1- وثيقة 128: رواية الموسيو شارل اوباتل عن مذابح دمشق إلى الجمعية الشرفية في 29 منه، تتحدث عن دور الأمير عبد القادر في إنقاذ المسيحيين، مجموعة المحررات، المصدر السابق، صص 209، 208.

- الوثيقة 131: رواية الموسيو روبنصن عن حادثة دمشق. نفسه، ص224.

- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص115.

2- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص235.

3- للمزيد من التفاصيل ينظر: - ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص112.

- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، صص304،305.

- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص116.

كان عدد الذين قتلوا في دمشق وضواحيها ستة آلاف نفس، والذين قتلوا في بقية الانحاء يقربون من هذا العدد، وكل ذلك حدث في خلال شهر جوان من سنة 1860م، أمّا الذين نكبوا وأصبحوا بلا مأوى ولا مال ولا ملجأ فيزيدون عن مائة وخمسين ألف نفس بشرية، وعدد الذين صاروا في جملة الأرامل والأيتام لايقل عن عشرين ألفا، وعدد البيوت التي أحرقت بالنار وكانت لأبرياء النصارى حوالي سبعة آلاف بيت، وعدد الذين ماتوا في ذلك الشهر من تأثير الرعب والحزن المفرط والقلق الشديد والفقر بعد العز لا يقل عن أربعة عشر ألفا، ومقدار الذين سلب ونهب من المال لايقل عن ثلاثة ملايين جنيه أو يزيد.[1]

ب.3. موقف الأمير عبد القادر من الفتنة ودوره في إخمادها:

جاء في عريضة مسيحي دمشق إلى القناصل في 20 جويلية 1860م، أن مسلمي دمشق أخذوا قبل عيد الأضحى الواقع في 29 جوان 1860م، يعقدون جلسات سرية مكثرين من الاختلاء ببعضهم، وكان "أحمد باشا" مشير فيلق عربستان،[2] واقفا على مجرى هذه الدسائس و المؤامرات، لأن المسلمين كانوا يجهرون بها، منزلين ضروب الإهانات بالمسحيين يوميا، ثم شاع خبر دخول الجيش الروسي "مولدافيا"،[3] فازداد خنق المسلمين تأججا، وفي الوقت ذاته حدثت مجازر لبنان.

كما تذكر العريضة أنه كان في علم الجميع كيف تصرفت الجنود التي أرسلها "أحمد باشا" في " زحلة وحاصبيا"، حتى أن بعض الضباط لاموا رفيقهم " عثمان بك"، لدى رجوعه إلى دمشق على عمله فأجابهم أنه فعل ذلك مؤتمرا بتعليمات " أحمد باشا"،[4] ويضيف " ابن عبده نعمان" في مؤلّفه، أن هياج المسلمين كان يشتد يوما بعد يوم بفعل دسائس " احمد باشا"، حتى صار القوم ييسمعون أخبار المذابح يوميا كالتي حصلت في راشيا وحاصبيا، ودير القمر، وزحلة، التي زادهم الاستيلاء عليها (أي زحلة) هياجا، ويضيف أنه لما جاء للمسلمين أنباء سقوطها وذبح رجالها قاموا بتزيين المدينة، وإقامة الأفراح، بينما النصارى من حولهم ينظرون، ويهانون ويشتمون ويتظلّمون،[5] وبطبيعة الحال زاد خوفهم وتنبئهم بسوء عاقبتهم، وماذا ينتظرهم من أحداث خطيرة.

1- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص236.

وينظر أيضا حول ضحايا مذابح دمشق:- محمد كرد علي، خطط الشام، ج3، المصدر السابق، صص85-87.

2- عربستان: عندما سيطر العثمانيون على معظم الوطن العربي، أطلقوا هذه التسمية على بلاد الشام، الحجاز والأحواز ليميزوها عن أراضيهم، وتعني التسمية حسب أبكريوس أنها مؤلفة من مقطعين، عرب + ستان، ومعنى ستان: أرض أو البلاد وفي جميع الأحوال هي كلمة تثبت عروبة المنطقة، واستعملها الفرس كتسمية رسمية لهذا القطر العربي، والمقصود بها بلاد الشام أو بلاد العرب. ينظر: - اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص223.

3- مولدافيا: دولة في أوربا الشرقية.

4- مجموعة المحررات، المجلد الثاني، المصدر السابق، صص172،173.

5- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص224.

- ميخائيل مشاقة، مشهد عيان، المصدر السابق، صص172،173.

قنط النصارى من النجاة من مخالب الحكومة وحقد المسلمين وقساوة الدروز، وابتلوا بالفاقة والحاجة فقنطوا من الحياة جوعا وتعددت عليهم المصائب وكثر ارتباكهم، ولكن قُدِّرَ لهم أن يكون بين المسلمين شهم يرق لحالهم، ويرثي لمصائبهم، وهذا الشهم هو "الأمير عبد القادر الجزائري"، الذي ذكره الخافقون المادحون، وعم فضله وكرمه نصارى الشام على سواء، وكان لا يترك فرصة تفوته من الدفاع عنهم، فاجتمع بالوالي، وبأعيان المدينة مرات عديدة وحثهم على الاخلاد و الميل إلى السلام والإقلاع عن الثورة. لأنه علم بأن العاقبة وخيمة، وإذا وقع في دمشق نظير ما وقع في لبنان، سيجعله الأجانب لا محالة ذريعة لخراب البلاد، وأفرغ قصارى جهده في إرجاعهم إلى الهدى والصواب، ولم يتركهم حتي استوثق منهم بالوعود بإجابة طلبه، وجعلهم يذعنون لنصائحه.[1]

إن موقف الأمير من الفتنة الطائفية نابع من اكتمال شخصيته، التي أهلته ليكون جندي السلام، حاملا شرف المقاومة ضدّ خصومه، والتي ارتقت به إلى مقام الإنسانية التي ورثها من أجداده الشرفاء من أهل البيت، فهو يمثل المعنى النضالي السامي الذي يرسخ في الذهن البشري، لما له من ارتباط وثيق في تحرير الوطن، وتبقى خالدة فيها فكرا وممارسة، فهي روح البعد الحضاري ومرآته، كونه برز بطلا في ساحات المعارك، ومدركا لماهيات الأمور وحقيقة الإستعمار ونواياه في الوطن العربي، وطبيعة موازين القوى، بفكره العميق، وتجاربه السابقة، فهو كان رافضا ومنكرا لما يجري في الوطن العربي عامة، وفي دمشق خاصة، وحول هذا الإنكار إلى قرار يأخذه بدافع من نفسه، فهو كان لا يرضى كإنسان بأعمال العنف و القتل و الإنتقام في المكان الذي يعيش فيه وهو من دون أن يحرك ساكنا.

لقد دفعته كل هذه العوامل إلى الحركة واتخاذ القرار، لأنه كان مدركا أن هذه الفتنة تهدد بفتح الطريق أمام الدول الأجنبية لتحقيق أهدافها في احتلال الشام، الأمر الذي كان يرفضه، لأنه كان يدرك أن التعبئة ضرورية، وأن موازين القوى هي التي تحدد مواقيت المعارك، فالأمير في دمشق كان يشعر أنه مسؤول عن حياة المواطنين النصارى وغيرهم، فتصرف من موقف عروبة الإنتماء، ووحدة المصير العربي، تصرف وكأن دمشق هي جزء من الجزائر، كما أن الجزائر جزء من الأمة، فلم يكن هناك حالة من إغتراب أو لا إنتماء، هذا هو النمط الذي يجب أن يجابه الظلم الذي نحن فيه.

ومع هذا كان من أمر الأمير كي يحقق مآربه إستقدم رجاله المخلصين الجزائريين، حتى يمنع بهم الفوضى والعنف، إنهم رفقاؤه في الجهاد، واثقين كل الثقة من صدق قائدهم وعدالة مشروعه، وإخلاصه وحكمته، جاهزين لتقديم الغالي والرخيص، حيث كان يبدوا أن مهمة كبيرة ما تزال في انتظار هؤلاء المجاهدين الصادقين، وأن صفحات تاريخهم في المشرق لم يسدل الستار عليه بعد.

1- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص254.

- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص114.

قال الله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾،[1] فكما جاء في عريضة مسيحي دمشق: " ...إذ ذاك إعتزم المتعصبون على إيقاظ الفتنة عاجلا، وضربوا عيد الأضحى موعدا لها على أن الأمير كان يقظا لاتأخذه سنة النوم، فاستقدم إليه جميع الجزائريين المشتغلين بحراثة الأراضي في السهول المجاورة، فاجتمعوا لديه فسلّحهم وقسمهم إلى جماعات، وأمرهم بالطواف في الأحياء، والسّهر على حفظ الراحة العامة...".[2]

لقد كانت للهجرات الجزائرية نحو بلاد الشام أثرها الإيجابي في إخماد نار الفتنة، فقد استند الأمير عبد القادر على رجاله الجزائريين الموجودين في دمشق من أجل ذلك.

ويضيف عمار هلال عن دور الجزائريين المهاجرين في سوريا قائلا: "... بتكاثر المهاجرين الجزائريين في سورية قوي نفوذهم، وأصبح لهم تأثير هام في الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية..."،[3] ويضيف الكسرواني، أن الأمير عبد القادر جمع إليه جميع المغاربة الموجودين في الشام، وفرّق عليهم الأسلحة والمال، ليكونوا جاهزين لأدنى سبب، فيحضروا إليه.[4]

أما عن التسليح فتذكر المصادر أن الأمير كان يفتقر إلى السلاح، وإلى المال اللاّزم لشرائه، وهذا الأمر الذي دفعه إلى الذهاب لمقابلة نائب قنصل فرنسا "لانوس Lanusse" في دمشق، ومفاتحته في الأمر، بعد أن عرض عليه في المقابل حماية أرواح الأوربيين، وبقيت القنصليات، علاوة عن حماية أرواح المسيحيين في دمشق، وبعد المحادثة التي تمت بين "لانوس Lanusse" والوزارة الخارجية في باريس عن الموافقة على طلبات الأمير عبد القادر، و اتخاذ القرار من أجل تسليحه، وإمداده بالنفقات اللاّزمة لهذه المحنة، وعليه بدأ "لانوس Lanusse" في التنفيذ فذكر: "... لذلك إني قد سمحت للأمير بالقيام بكل النفقات التي يعتقد أنها ضرورية، ونصحت في نفس الوقت بالسرية التامة، والحكمة الكاملة، حتى لا يعطي ذلك أي ريبة للسلطات..."، كما وافق وزير الخارجية الفرنسية " توفينيل Toffinéll" على إعطاء المدد اللاّزم للمساكين من المسيحين الفارين من المذابح في قرى الجبل،[5] إضافة إلى طلبه السلاح من الباشا الذي بعث له في اليوم الثاني من الواقعة بما وعده من البنادق والفشك.[6]

1- سورة الأحزاب، الآية 23.

2- مجموعة المحررات، المجلد الثاني، المصدر السابق، صص179،180.

3- عمار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام، 1847- 1918، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2007، ص29.

4- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص389.

5- صام منور، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860، من خلال الوثائق الفرنسية، المرجع السابق، ص213.

- ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص111.

6- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص115.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص357.

لقد قنط الأمير عبد القادر من مساعدة "أحمد باشا" بالمدافعة عن النصارى، إضافة إلى موقف الدولة العثمانية العاجز أمام هذه الأحداث المؤسفة، فأمر رجاله بعد قرار إتخذه بنفسه بالذهاب إلى حيهم، وأمرهم بحماية وتخليص كل من يقدرون إلى تخليصه من مخالب الثائرين،[1] إضافة إلى تحمل مسؤولية تسليح رجاله، والدفاع عن المسيحيين في دمشق، بعد أن اشترى لهم السلاح، ودربهم على إخماد الحرائق، وعلى عمليات الإنقاذ الأولى، كما قاد بنفسه حملة إخماد الفتنة الطائفية، ووزع المهمات على رجاله، وساعده في ذلك علماء مسلمين وشرفاء الناس، وغيرهم من أبناء دمشق المخلصين، كما فتح داره لهم وبذل كامل همته وأمواله ورجاله وسلاحه لإنقاذ ما تيسّر له إنقاذه من مخالب الثائرين، ومرافقتهم إلى برّ الأمان التي خصصها الوالي لحمايتهم بطلب من الأمير عبد القادر في القلعة، بعد أن إمتلأت داره بالضحايا،[2] حتى أن مسلموا الصالحية هبّوا إلى بيته للهجوم عليها، بعد أن بلغهم أنه محتفظ بالنصارى عنده، فتجمهروا أمام داره، لكنه ليس ممن تهوله التهديدات، فخرج إليهم برجاله الأمناء، وتهددهم بصرامة العقاب، وأظهر إستعداده لمقابلتهم بالقوة، ولما شاهدوه أنه على أهبة أن يكيل لهم الكيل، تركوه خوفا من سطوته وشدة بأسه.[3]

لقد ذكرت العديد من المصادر عن دور الأمير عبد القادر في إخماد نار الفتنة في دمشق، ولعلنا نستدل بابنه محمد في ذكر بعض الحقائق، فقد ذكر قائلا: "...لما اتصل الخبر بالأمير قال: هذا ما كنا نحاذره ونحذّر الناس منه قد وقع، إنا لله وإن إليه راجعون، ثم ركب إلى محلة النصارى فوجدها في هرج ومرج، ورأى ألسنة اللهيب ممتدة من المنازل والغوغاء بين ناهب وقاتل ، فجعل ينهي وينصح فلم تسمع له نصيحة، وتمادى الدّعار على ما هم عليه، ولمّا يئس من رجوعهم عن غيّهم أخذ ينقذ من النصارى من يصل إليه ويتمكن من إنقاذه، ثم رجع ببعض قناصل الدول وجم غفير من الأعيان وغيرهم، وصار يبعث المغاربة شرذمة بعد أخرى إلى المحلة وأطراويا، ليأتوا بكل من عثروا عليه بدون إستثناء، وكان الأمير أخبر الباشا أن المغاربة ليس عندهم سلاح كافٍ للمحافظة، فوعده بأن يعطيهم ما يحتاجون إليه عند اللّزوم، فلمّا كان اليوم الثاني من الواقعة بعث إليه فيما وعده به، فأرسل في الحال عدداً وافراً من البنادق والفشك، وإستقصى المغاربة بأمر الأمير في جمع النصارى من الكنائس والأقبية وداخل البيوت الملتهبة بالنار".[4]

1- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص176.

- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص257.

2- المصدر نفسه، ص257.

- الوثيقة رقم 111. خلاصة عريضة مسيحي دمشق إلى القناصل في 20 تموز عن بقاء الأمير طول الليل وهو يتفقد النصارى ويوصلهم إلى داره أو إلى القلعة. ينظر: محررات، المصدر السابق، صص180،181.

3- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، صص175-177.

- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص258.

4- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص114.

وقد تحدث "إستايور شانتوغان D'estailleur-chanteraine" على ما تعقب هذه الأحداث قائلا: "...كان الأمير عبد القادر على رأس فرسانه ينطلق نحو ضواحي المدينة التي كانت بها الإضطربات في أوجها، فيجمع القسّيسين ورجال الدين والأطفال الذين كانوا يمدون إليهم أيديهم، متوسّلين فينجيهم من الموت المحقّق...".[1]

رغم عدائية الدروز المتزايدة لِتدخّل "الأمير عبد القادر" الذي قد يوقف مخططاتهم التي لم يكونوا إلاّ منفذّين لها، فنجده قد تابع على رأس رفقائه الشجعان القيام بعمله الإنساني، بالرغم من مواصلة الدروز التخريب والتنكيل بالنصارى وقتلهم، ومحاولة إحراق منازلهم.[2]

وهنا يضيف صاحب تحفة الزائر قائلا: "... وفي اليوم الثالث إجتمع السّفهاء من البلد والصالحية عند باب الحديد بالعمارة قاصدين الهجوم علينا، فتوجَّه الأمير إليهم وألقى الله الرّعب في قلوبهم عند رؤيته، ورجعوا على أعقابهم، ثّم ذهبوا أفواجاً أفواجاً إلى بيوت بعض الأعيان الذين اقتدوا بالأمير في جمع النصارى عندهم بقصد الهجوم عليهم، وأخذ النصارى منهم قبراً، فبعثوا إلى الأمير يستغيثون به، فأرسل إليهم فرقاً من المغاربة لحمايتهم من الذّعار، ولما غصت دور الأمير بالنصارى مع تعدّدها واتّساعها، أخذ يرسلهم إلى القلعة بإذن الحكومة فاجتمع عنده، وفي القلعة نحو الخمس عشرة ألف نفس، وكان الأمير يقوم بنفقات الجميع، ولما طال الأمر وضاقت نفوسهم، طلبوا من الأمير أن يرسلهم إلى بيروت، فأجابهم إلى ذلك وصار يبعثهم إليها فوجاً بعد آخر بمحافظة المغاربة ،واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة أربعة عشر يوماً كل ذلك والأمير مشتغل بأخذ الوسائل، ليتوصّل إلى إطفائها باذلا جهده في حسم أسبابها، ولم يدخل إلى بيته في أيامها بل كان يجلس على سجادة في دهليزه، لا يهجع من اللّيل إلّا قليلا، والباعث له على حمل تلك المشاق هو تأييد الدولة العلية والدفاع عن حوزتها، إذن لو لم يقف في وجوه الغوغاء، لاستأصلوا النصارى واستلحموهم، وتفاقم الوضع أكثر ممّا وقع...".[3]

لم يتوقف "الأمير عبد القادر" عند هذا فحسب بل واصل عمله الإنساني الذي تمليه عليه معالم الشريعة الإسلامية السمحاء، فقد عمل هو ورجاله الجزائريين المهاجريين على تأمين خطوط المواصلات بين دمشق وبيروت، وتأمين قوافل اللّاجئين علاوة على مساهمتهم إلى حد كبير في المحافظة على حالة الأمن في دمشق، وإغاثة النصارى وتخليصهم من البلاء الذي كاد يودي بحياة الكثيرين منهم.

يذكر "أبكريوس" عند إمتداحه لما فعله الأمير قائلا: "... لو أردنا أن نستوفي بالتّفصيل ما فعله هذا الأمير الجليل، والسّيد الفاضل النبيل، من المعروف والخير الكثير، لاحتجنا إلى مجلّد كبير حفظه الله، وأبقاه، وصانه وحماه...".[4]

1- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص258.
2- المرجع نفسه، ص258.
3- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص115.
4- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص257.

كما يضيف عبد العزيز العظمة في مدحه هو الآخر لما قام به الأمير قائلا:"...فإنه عفا الله عنه فتح داره وصدره إلى المنكوبين، ونال جزاء عمله شكر الدول المعظمة وأوسمتها العالية..."[1].

وبعد هذا قدم إلى بيروت وزير خارجية الدّولة العثمانية "فؤاد باشا"، والذي كان السلطان قد عينه مندوباً ساميا في الشام، ووعده أن يستمر في الإهتمام بدمشق، وأنه قد أرسل إليها قوات جديدة، لأجل حادثة الشام والجبل، كما أرسل رسائل إلى وجهاء الشام جميعا يشكرهم على ما صنعوه هم وبقية الشرفاء، واتخذ على الفور إجراءات أمنية صارمة، وبدأ بالتحقيق في الحوادث، وقام على عمليات الإغاثة،[2] لأنه كان عليه إيجاد حل لمشكلة عويصة من مشاكل الدولة العثمانية.

فكما جاء في بيان أعمال "فؤاد باشا"، أنه أمر جنوده في غد يوم وصوله، باحتلال جميع أحياء المدينة، وألّف لجاناً عسكرية في كل منها، لإلقاء القبض على الثّوار والقتلة والنهابين وغيرهم، فتمكنت هذه اللّجان من إيقاف ثمانمائة شخص تقريبا بعد مرور أربعة أو خمسة أيام، فأحيلت أوراقهم إلى المحكمة، المؤلفة من مأمورين جيئ بهم من الإستانة، واستمرّ إلقاء القبض متواصلاً منذ ذلك اليوم، وحوّل المدرسة العسكرية إلى مستشفى لنساء المسيحيين، وخصّص المستشفى العسكري بالمسيحيين للمرضى والجرحى، وأنشأ لجنة لتوزيع المأكولات والمال والألبسة على المنكوبين.[3]

كما تضيف ليندا شيلشر، أن "فؤاد باشا "الذي يشغل منصب ناظر الخارجية، كان أحد القائمين على نهج التنظيمات، وكان اتخذ إجراءات أمنية صارمة، وبدأ بالتحقيق في الحوادث، وقام على عملية الإغاثة.[4]

أما عن رواية "الحسيبي الدمشقي"، فيذكر أنه حين دخل "فؤاد باشا" دمشق كان معه حوالي أربعة ألاف عسكري مسلحين بالبنادق الحديثة، وجلس بالسراي، ودخل عليه الأعيان وسلّموا عليه، ثم خرجوا من عنده، وفي اليوم الثاني عقد مجلس ألقي فيه القبض على الأعيان، وصاروا يسألون كل واحد منهم عما شاهدوه من الأشياء، مثل الإدلاء بالشهادة، واستمروا بالتحقيق إلى المساء، وكذلك في الأيام الموالية حتى يوم الجمعة، تفرقت العساكر في طلب المتهمين واسترداد المنهوبات من النصارى،[5] ومعاقبة المتهمين كما جاء في البيان الذي يذكر: "... أنه بناءاً

1- عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تح: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987، ص181.

2- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص304.

- ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص112.

- رأينا من الواجب أن نضم هذا الملحق إلى حوادث الستين بالجبل، لما فيها من حقائق راهنة دوّنها الدكتور مشاقة ميخائيل على إثر حدوثها، وهي واحدة من العائلات التي لم تنجوا من المذبحة، والتي أشادت بالدور الكبير الذي قام به الأمير عبد القادر ورجاله. – ينظر: الملحق رقم 18.

3- وثيقة رقم 203: بيان أعمال فؤاد باشا في 8 منه، يتحدث عن تأليف لجان عسكرية ومحاكم من أجل معاقبة أصحاب الفتنة والمذابح.

ينظر: – محررات سياسية، المصدر السابق، ص334.

4- ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص112.

5- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، صص304،305.

على قضاء المحكمة الخارقة العادة، أعدم مائة وإحدى عشر مسلما رميا بالرصاص، وشنق ستة وخمسون، ونفي مائة وخمسة وأربعون، وحكم بالأشغال الشاقة على مائة وستة وثمانون أستخدموا في إنشاء الطرقات، وقضي غيابا بالإعدام على مائة وثلاثة وثمانون، وفي عداد الذين أعدموا ثمانية عشر شخصا من كبار أسرات البلاد، وأناس ذوي وجاهة، وفي 15 أوت أذاع في سكان المدينة وجوارها نشرة ينذرهم بها بوجوب إعادة الرجال والنساء والأولاد الباقين عندهم إلى الحكومة المحلية، حتى ولو اعتنقوا الإسلام، وكل من خالف عدّ مجرماً بالإخفاء ومستحقا الإعدام..."، كما يضيف قائلا: "... أذن لجميع المسيحين الذين اعتنقوا الإسلام طوعاً أو كرهاً وعددهم خمسمائة بالرجوع إلى دين أبائهم، وأخلى ثلاثة أحياء خاصة بالمسلمين وأعدّها لسكنى المسيحيين، ولا يزالون يتنقلون إليها وهيّأ بيتا ليكون معبدا لجميع الطوائف المسيحية، وأمر بتجنيد ألفي رجل من دمشق في الجيش السلطاني...".[1]

لقد كان فؤاد باشا صارماً في قراراته، حتى أنه بدأ يلقي القبض كل يوم على عدة أشخاص، للتجنيد أو للسجن خاصة الذين يتهمهم المسيحيون، ثم إن فؤاد باشا لما إستبانت له شجاعة المغاربة، وما جلبوا عليه من قوة الجأش، وشدة الأقدام، فاوض الأمير عبد القادر في أن يعيّن منهم كتيبة، ليكونوا في خدمة الدولة العلية، فأجابه إلى ذلك واختار منهم أربعمائة فارسا.[2]

لقد إختار فؤاد باشا لخدمة الدولة العلية رجالا أوفياء وأمناء ومخلصين لرئيسهم الأمير عبد القادر وذلك لما أظهروه على أرض الواقع من بسالة وشجاعة وقوة الجأش، وهدوء النفس، وثبات القلب والسيطرة على سلوكهم وتصرفاتهم، إقتداءاً بقائدهم الذي طالما تحمّل مسؤولياته قولا وعملا.

ج. الأمير عبد القادر ومسؤولياته السياسية والإجتماعية والدينية في بلاد الشام:

لقد كانت السابعة والعشرين سنة التي قضاها الأمير عبد القادر بدمشق إبتداءا من 1856م إلى تاريخ وفاته 1883م، فرصة سمحت لشخصيته بالتفتح في وسطها، بالرغم من بعده عن الجزائر، فهي تمثل له إمتداداً لبلاده التي وهبها أعز ما يملك، تاركاً بذلك للأجيال القادمة مثلا حيًّا عن كيفية إعادة بناء الدولة التي كان هو نفسه مشيّدها الأول والأكبر.

لقد كانت الفترة التي قضاها في المشرق فترة جد خصبة في حياته وعطائه الثقافي، إذ أنه بعد الإنتهاء من عمله النضالي كرس وقته إلى ما كان يمارسه حتى إبان فترة كفاحه، ألا وهو الدراسة والتّأمل والعبادة، فقد وجد

1- وثيقة رقم 203: بيان أعمال فؤاد باشا في 8 منه. ينظر: - محررات سياسية، المصدر السابق، صص334،335.

- يذكر الأب شيخو أنه في 22 جويلية أقام "فؤاد باشا" بتوبيخ "أحمد باشا" كما سحب منه السيف ونيشان الشرف، وبعث به إلى الإستانة. ينظر:

-الأب لويس شيخو اليسوعي، نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام 1840-1862 لأحد كهنة الأرض، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1927، ص36.

2- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص117.

نفسه في جو ملائم لذلك في هذه المدينة، التي كانت من ألمع عواصم الحضارة العربية، والتي بقيت رغم التحولات التاريخية مركزاً مشعاً بالعلم، والفكر الذي ساهم الأمير بشخصيته القوية وثقافته الواسعة في إثرائه وتطوره.[1]

وفي اعتقادنا أن وعي "الأمير عبد القادر" في مقاومته لفرنسا، إنما كان يدافع عن العرب أجمعين مغربا ومشرقا، فقد أتيح له أن يلمس أوضاع وطنه العربي في المشرق والمغرب لمس اليد، وأن يلتقي بالنخب في الأقطار التي زارها ويحس بالوحدة مغاربيا وعربيا وإسلاميا، مما أسهمت بتشكيل فكره الديني والسياسي، ولا شك أن هذا الإضطلاع الواسع والمفصّل على حال الأمة العربية لم يحظ به أي قائد أو مثقف عربي في تلك الفترة من القرن التاسع عشر، مما جعله يتميز بالقدرة على تحليل الوقائع، وربما هذه القدرة هي التي جعلت والده يرشحه لقيادة المقاومة،[2] ومهّدت للإستقبال الممتاز الذي خصّصه الشّوام له منذ أن وطأت قدماه بيروت نفسها والتفافهم حوله، وتشكيل علّيتهم بلاطا مشتركا مغربيا ومشرقيا، لأول قائد عربي في العصر الحديث واجه الغزو الإستعماري الأوربي،[3] ثم تنفيذهم لتعليماته من أجل إخماد الفتنة ضد نصارى الشام عام 1860م، والتي جعلته عرضة لاتهامات بعض المؤرخين، على أن فرنسا أعطته الدّور وهيّأت له المجال ليكون رجل إطفاء لتلك الحروب الأهلية، وهذا لما له من سمعة مرموقة في الوسط الشّامي وكلمته مسموعة، هذا بالإضافة إلى اتهامه بحرصه على إقتناء الدور والأراضي الفلاحية والحصول على المال بأي وسيلة كانت.[4]

بالرغم من وجود تقارير رسمية تؤكد أن فرنسا هي التي دعّمت الهجرة الجزائرية إلى دمشق، وقدّمت للأمير عبد القادر إمدادات من الأسلحة من قبل نائب قنصلها الفرنسي بدمشق "لانوس Lanusse" قصد تعضيد ثورة مسلحة في سوريا،[5] إلا أنه – هل يعقل أن يكتب القدر لهذه الشخصية الفذّة التي طالما دافعت عن الشريعة الإسلامية وعن فكرة القومية العربية، وعن الوحدة الشاملة للعرب والتي تخوّف منها الغرب الإستعماري نفسه، أن تصبح يوما ما حليفة قوية لفرنسا وترتبط بسياستها من أجل أن تأمّن مصالحها وأطماعها في بلاد الشام، بعدما كانت من ألّد أعدائه في وقت مضى؟؟؟.

1- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، صص254،255.

2- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، ص359.

3- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي، المرجع السابق، ص83.

4- لمعرفة المزيد من هذه الإتهامات المنسوبة للأمير عبد القادر ينظر:- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، صص262-264.

- سهيل الخالدي، الجزائر وبلاد الشام، المرجع السابق، صص349-351.

5- التقارير الرسمية الفرنسية حسب أحمد طربين موجودة في أرشيف الحكومة العامة في الجزائر- وأرشيف الشؤون الخارجية في باريس.

-Archives du gouvernement général de l'Algérie, Rapp, cité par Martimprey E, 241.21H17.

- Archives des Affaires Etrangères de paris, Damas, 19 juin 1860.

- للمزيد من التفاصيل حول الإتهمات المنسوبة للأمير عبد القادر ينظر: - أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان، المرجع السابق، صص148-155.

إن التدخل الأميري في أحداث الفتنة الطائفية بالشام عام 1860م، كان من تلقاء نفسه، بدافع شعوره بالمسؤولية الروحية والإنسانية، هذا ما أكده نائب قنصل فرنسا بدمشق "لانوس Lanusse" في تقريره الذي كتبه في 19 جوان 1860م -تقرير رقم 86 سياسي- إلى وزير خارجيتها والتي حدد فيها أن "الأمير عبد القادر" هو الذي أخذ موقف الدفاع عن المسيحيين من تلقاء ذاته، فوضع نفسه تحت تصرفه، ويذكر أنه جاء بنفسه لمقابلته وعرض عليه أمر جمع الجزائريين للدفاع عن المسيحيين في دمشق وتسليحهم، وتزويدهم بالمال الكافي من أجل ذلك، ويذكر أنه تردّد أولاً على الموافقة، وبعد تأكده من خطورة ما سيقع غيّر رأيه بالموافقة، دون علم وزارة الخارجية في باريس، إلاّ بعد إبلاغه لهم بمثل هذا الترتيب. وهنا يظهر جليا أن وزارة الخارجية في باريس لم يكن لديها أي علم بما سيقوم به الأمير من ترتيبات، لولا التقرير الذي بعث به "لانوس Lanusse" إليهم، وطلب منهم الموافقة عليه، بعد أن بدأ في تنفيذه بالفعل. وهذا يدل أيضا على عدم مجيء الدافع من السياسة الفرنسية بل على أن هذه القرارات جاءت من أرض الأحداث نفسها، واتخذتها القيادة التي شعرت بمسؤولياتها تجاه ما يحدث والتي تتمثل في الأمير عبد القادر.[1]

صحيح أن الفرنسيين كانوا يرون في الأمير الشخص الذي يمكّنهم أن يتحركوا من خلاله على طاولة الشطرنج، حيث رأوا فيه العنصر المحايد الذي لا تطعن في كماله ومروءته أية جهة في البيئة الشامية، فراهنوا عليه ليكفلوا به إمضاء المخططات، وحاولوا أن يعجموا عوده من خلال محاولة إذكاء مشاعر الطمع في نفسه، كما أوعزوا إلى شركة السّويس[2] الفرنسية بإعطائه أرض تمليك هناك، فأبدى ميلا لملكية تلك الأرض، لكنه سرعان ما أشاح عنها لما جدّ بخصوصها، لاسيما من قبل الدولة الخديوية التي رفضت المشروع، لكن رهان فرنسا كان على الشام، على أنّ وجود عبد القادر في أرضها يعتبر مهمّا بالنسبة للإستراتيجية الفرنسية.[3]

كما يضيف"ناصر الدين سعيدوني" أن الإستراتيجية الفرنسية في المشرق كانت تريد أن تجد موطئ قدم لها بتبني فكرة كيان سياسي لأمة العرب (Nation Arabe)، يكون في شكل مملكة عربية بالمشرق بقيادة "الأمير عبد القادر"، وبذلك تكتمل المخططات الفرنسية الهادفة إلى جعل البحر المتوسط شبه بحيرة فرنسية، بعد أن تعرّف الفرنسيون إلى واقع المنطقة أثناء أحداث فتنة سورية، ونزول القوات الفرنسية بلبنان، وبذلك تحقق فرنسا في الشام ما عجزت عن تحقيقه في مصر مع "محمد علي"، وبالفعل طرحت الفكرة للنقاش في الأوساط السياسية الفرنسية،

1- صام منور، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860، من خلال الوثائق الفرنسية، المرجع السابق، صص212،213.

- برونو إيتيان، عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص318.

2- تم الحصول على الموافقة من أجل تنفيذ المشروع من قبل نائب ملك مصر فأسست (الشركة العالمية لقناة السويس) في 5 جانفي 1856. ينظر:

- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص260.

3- سليمان عشيراتي، الأمير عبد القادر في بلاد المشرق، ملحق بكتاب 10 سنوات في أرض الإسلام للجاسوس ليون روش، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، الجزائر، 2011، صص56-58.

وسمح بتداول إسم" الأمير عبد القادر" على رأس تلك الدولة، وتنصيبه سلطانا على العرب، فتناولتها بعض الصحف وبثها بعض الكتاب،[1] وبدأ الترويج بظهور كتاب (عبد القادر إمبراطور البلاد العربية) بباريس عام 1860م، الذي تضمن أفكارا طموحة حاولت مداعبة الأماني العربية الجياشة في ربوع بلاد الشام، بالترويج لإقامة دولة عربية تكون حليفا موثوقا به لفرنسا وعامل حماية قوي لقناة السّويس، وتوفر الإتصال بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي، وبين البحر الأحمر والخليج العربي، وتمتد من شمال بلاد الشام خاصة وحتى عكا، غير أن تحفّظ الأمير وإحجامه عن اتخاذ موقف قد يضر بوحدة المسلمين، ويضعف الدولة العثمانية، فضلا عن التطورات التي عرفتها المسألة الشرقية فيما بعد، كلها عوامل كشفت هشاشة هذه الفكرة، وأقنعت "نابوليون الثالث" بصرف النظر عنها نهائيا عام 1865م،[2] لكن الأمير المنضبط بروح من الإيمان العميق، كان بعيدا عن أن يتسنم إلى دور تآمري، وينفذه باستسلام وغفلة، فهذه الشخصية مازالت متمسكة بإرث عريض من قيم الجهاد والمكافحة البطولية عن المثل، سواءا كان الموقف إغراءا دنيويا، أم كان موقف إمتحان وابتلاء شاقين.

وهنا يسجل التاريخ للأمير أنه كان من الفطنة والذكاء والحنكة، ماجعله يتعامل مع الموقف في الحدود التي لا تؤثر في مكانته، ولا تضر بمصالح العرب، ولا تحقق الأهداف الأوربية، فهو كما وصفه أعداؤه في الجزائر، ظل ومازال أمل (الوطنية العربية)، ونموذج الزعيم العربي، والقائد المسلم الذي لا تهزه الأحداث الطارئة، ولا تؤثر فيه المخططات الظرفية، لأنه أكبر شخصية موجودة في المشرق وجزء من ذاكرة الأمة العربية الإسلامية، فهو معبّر صادق عن أمالها وطموحاتها، وهذا ما جعل حياته الحافلة بالأحداث الجسام بحق، رجة حضارية حدثت في الجزائر، ووصل أثرها إلى المشرق.

فالأمير كان يشعر بحاجة الناس إليه، وبحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، ليس فقط أمام أتباعه وإنما اتجاه أفراد المجتمع الشامي، فوجوده في دمشق أصبح يشكل ضمانا لمواطنيها ولحفظ الأمن، وأنه إذا غادرها فهذا يعني بدء هجرة جماعية للمسيحيين من سوريا[3]، فمنذ وصوله إليها على رأس جماعة كبيرة من الجزائريين، وفرقة شبه عسكرية كان لها دخل ووقع كبيرين على المدينة[4]، فقد وجد نفسه أمام مسؤولية قومية ودينية، جعلته يتفرّد عن غيره من أبناء الأسرة الدّمشقية السياسية والعلمية، كونه لعب دور رجل الإطفاء بجدارة، وفتح بيوته للاّجئين إليه من المسيحيين

1- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص191.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص49.

2- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، صص191،192.

- يذكر هنري تشرشل أن الأمير عبد القادر لم يرفض فكرة الدعوة التي تجعل منه رأسا للحركة، ولكنه كان يرى أن الوقت لم يحن بعد، وأن الفكرة في حاجة إلى نضج وأنه اتفق مع هؤلاء الزعماء على بث الفكرة والعمل لها وسط الجماهير، ووعدهم شفويا وكتابيا بدراسة الموضوع. للمزيد من المعلومات ينظر:

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص49.

3- هذا حسب ما جاء في البرقيات السرية الموجهة إلى طرابيا (وهي المقر الصيفي لسفير فرنسا على البوسفور). ينظر:

- برونو إيتيان، عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص452.

4- ليندة شيلشر، المرجع السابق، ص252.

في دمشق كخطوة رمزية عملية على احتضانهم، وهي مأثرة لا تزال تذكر له إلى اليوم. فقد بذل كامل همّته في ذلك، وبذل أمواله ورجاله المخلصين للمدافعة على النصارى، حيث قال صاحب حلية البشر في هذا الصدد: "... أن سعادة الأمير المعظم والكبير والمفخّم حضرة الأمير عبد القادر الجزائري قد بذل كامل همّته في ذلك وبذل أمواله ورجاله في خلاص من غدر عليه من المهالك...".[1]

ويضيف الكسرواني قائلا في هذا الصدد: "...أن الأمير أرسل رجاله المغاربة لاستحضار قنصل فرنسا، ليبقيه عنده، كما استحضر رهبان العازرية مع الراهبات، كما أرسل كامل المغاربة الموجودين أفواجا إلى حارة النصارى، وأمرهم أن يستحضروهم تحت الحفظ بدون أذية أو مضرة ما، فكل من حظي بيد المغاربة حفظ حياته، والذي لا يقع يموت...".[2]

ويؤكد مشاقة ذلك حيث يقول: "... وقصدوا دير العازرية الفرنساوي وصدّهم حاميته القوية عن الدخول إليه، بضع ساعات حتى قدم لنجدتهم الأمير عبد القادر الجزائري برجاله، وأفرج عن الرهبان، وحفظ حياتهم، إنما لم يقوى على حفظ الدير من النار والمال الموجود به من السلب، فنهبوه وأحرقوه، ولم يكن هم الأمير إلاّ المدافعة عن الحياة...".[3]

هناك رأي آخر لشاهد إسمه "الأب حجار" حضر إلى الأمكنة بعد وقوع الأحداث بخمسة أشهر، يقول فيها: "... ألجأ الأمير عبد القادر كل من جاء يطرق بابه، بل وقام بجولة في المدينة ميسّراً للأشخاص الهاربين في الشوارع، وبدون ملجأ، إمكانية الانضمام إلى القافلة الصغيرة التي نظمها تحت حراسة جزائرية، وانطلق بها لإنقاذ القناصل والرعايا الفرنسيين المقيمين في دمشق...".[4]

ويضيف "إيتيان"، أن الأمير واصل نشاطه من أجل البؤساء والمحرومين، لإحساسه بالمسؤولية،[5] وحب الإنسانية، كما جاءت في رواية الموسيو "شارل أوبانل Charle Oubanel"،[6] فقد كان الأمير يجمع هؤلاء المساكين في بيته ويطعمهم ويسقيهم من ماله ويواسيهم،[7] ويلطف أحزانهم، ويعدهم بتخفيف الكرب، ويهدئ روعهم، فما سمع الناس بأشرف من هذا السيد العظيم، الذي تفرغ لمتابعة العمل الإنساني الذي كان قد بدأه، وأحسن قيادته فقد أعلن عن طريق أتباعه في كل المدينة أن عبد القادر سيدفع خمسين قرشا لكل من يأتيه بمسيحي

1- عبد الرزاق بيطار، حلية البشر، ج2، المصدر السابق، ص264.

2- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص389.

3- ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، المصدر السابق، ص175.

4- برونو إيتيان، عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص321.

5- المرجع نفسه، ص451.

6- الوثيقة رقم 128: رواية الموسيو أوبانل عن مذابح دمشق إلى الجمعية الشرفية في 29 منه، حول سلوكيات الأمير عبد القادر وإنسانيته، ومكانته المرموقة في التاريخ حيث اعتبره أعظم مشاهير الرجال. ينظر:- المحررات السياسية، المصدر السابق، ص206.

7- أحمد توفيق المدني، الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سوريا المحزنة، المرجع السابق، ص8.

حي، فجلس أمام بابه، محاطا بولديه اللّذين ينفذان أوامره، وراح شخصيا يستقبل المساكين، وإلى جانبه صندوق مال، وعندما يفرغ الصندوق كان يستبدله بآخر، وعندما كان يجتمع عددا كاف من المسيحيين تحت سقفه، كان يطلب من الجزائريين أن يقودوهم إلى القلعة.[1] وهاهو أبكريوس يضيف عن مسؤوليات الأمير الإجتماعية قائلا: "... خلّص الأمير عبد القادر عددا كثيرا، وجمعا غفيرا من الرجال والصبيان، والبنات والنسوان، ودفع عنهم سيوف البغي والعدوان، وأبدل خوفهم بأمان، وأحضرهم إلى داره العامرة، وكان يقدم لهم الأطعمة الفاخرة، ويصرف عليهم المصاريف الجزيلة الوافرة، ويتلطّف بهم غاية التلطيف، ويؤانسهم بالكلام الرقيق اللطيف، ويعزيهم على ما أصابهم، ومادهاهم ونابهم، فأنفق في تلك البرهة مبلغا عظيما، ومقدارا من المال جسيماً، فتضاعفت في الإرتقاء مرتبته، وارتفعت عند الملوك منزلته، وأتاه الشكر من جميع ملوك الدول...".[2]

ضف إلى ذلك يذكر سهيل الخالدي أنه عندما فرضت الإستانة غرامات مالية باهضة جدا عبر الوالي فؤاد باشا، على المسلمين الذين اشتركوا في الفتنة والذين لم يشتركوا، واستثنت الجزائريين المهجرين، لأسباب تدميرية في إقتصاد الشام، والتي لم تخفى عن الأمير عبد القادر حسبه، كما يضيف أن الأمير كان قد شمل برعايته حوالي خمسة عشر ألف مسلم من أهالي دمشق الفقراء واعتبرهم من رجاله، ويبدوا أن هذا الإجراء لم يعجب فؤاد باشا، ولا بعض الضالعين في الحكومة،[3] واستدل بقول الحسيبي: "...استثنى السيد عبد القادر المغربي، حتى أنه صار كلما ذهب إليه إنسان أعطاه ورقة بأنه مغربي، حتى صار عدد الذين ادّعوا أنهم مغاربة خمسة عشر ألفا، أتباع السيد المذكور، وقد أغضب هذا الحكومة، وصدر أمر من فؤاد باشا بعدم إعفاء إلاّ من يثبت أنه حقّا من المغاربة، وجبيت من البقية بالكامل ومن جميع أنحاء الشام...".[4]

لم يتغير موقف الأمير عبد القادر في مساعدة ضحايا الفتنة الطائفية، فقد تمكن من إنقاذ عدد كبير من فقراء دمشق من تلك الغرمات الثقيلة والتي لا يطيقونها، حتى وأنه وبعد الفتنة شفع للمنفيين في قبرص ورودس فقبل السلطان شفاعته وأطلق سراحهم،[5] لقد تابع الأمير جهاده في دمشق علميا وسياسيا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وفضله على بلاد الشام أقر به القريب والبعيد.

1- بوعلام بسايح، عبد القادر في دمشق وإنقاذ إثني عشر ألف مسيحي، الأمير الإنساني العالمي، فعاليات الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر وحقوق الإنسان، منظور الأمس ومنظور اليوم، الجزائر، 2008، ص30.

- ابن عبده نعمان، حسر اللثام، المصدر السابق، ص232.

2- اسكندر بن يعقوب أبكريوس ، المصدر السابق، ص256.

3- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي، المرجع السابق، ص95.

4- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة ، المصدر السابق، ص321.

5- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص719.

- عبد الرزاق بيطار، حلية البشر، ج2، المصدر السابق، صص899،900.

أما موقفه من الأبرياء والعزل من أهل الذّمة، يعتبر موقفا شرعيا، فهو لم يكن متفردا في ذلك، فقد أيّده في موقفه أكابر وأعيان وعلماء دمشق، كالشيخ "محمود الحمزاوي"، والشيخ "مسلم الكزبري"، وغيرهم، كما أيّده في موقفه شيخ المجاهدين "الأمير شامل الداغستاني"[1] رحمه الله، إضافة إلى إعجاب قادة ومفكري الدول الأجنبية بموقفه، فهذا لا يعني ترك الأمر الشرعي، بل استثمر الأمير ذلك من خبرته وحنكته السياسية لمصلحة شعبه ومواطنيه، والتزامه الكبير بالمسؤولية وبأوامر الشريعة الإسلامية، والتي طبقها للمحافظة على تماسك الدولة العثمانية، مبطلا المخطط الأوربي الذي كان يطمع في إقتطاع بلاد الشام من الدولة العثمانية.

لقد حركت القوى الأجنبية لضرب قلب الحركة القومية، ووحدة الأمة العربية، كل بطريقتها ومن منظورها ولأحداثها الفتنة بين الدروز والنصارى في جبل لبنان، كما حركت الأمير عبد القادر الذي بدأ في الشام وكأنه رجل تخلى عن أي طموح سياسي، بعد متابعته دروسه في المسجد الأموي، حيث تحرك ومعه كثير من علماء دمشق، بعد أن طلب من الوالي التصدي لها -أي الفتنة- إذا ما وصلت دمشق فيوافقه على طلبه، وبدأ في مراسلاته مع الدروز في نواحي دمشق يحذرهم من هذا المخطط، لكن الفتنة كانت وصلت في 1860م، والأمير عبد القادر لم يأخذ دور المتفرج بل عزم على تحمل المسؤولية كزعيم، أو كشخصية ميّالة إلى الحركة والنشاط، متطلعا على سرائر الأمور ودقائقها، حيث أنه منذ 1860م كان قد أبلغ أعيان الشام، وخاصة الدروز أن الدول الكبرى تتحيّن الفرصة لابتلاع بلاد الشام، كما يعلم أن الدولة العثمانية إذا فقدت هذه البلاد العربية التي تحكمها، ستتضاءل وتنكمش، كما أنه يعلم أن أجهزة الجوسسة من كل صنف ولون تخترق البلاد، لذلك كان دائما يأخذ الحيطة والسرية.

ولكن بالرغم من ذلك حدثت المذبحة، وتحرّك الأمير الساكت وحمى النصارى، وهكذا أفشل مخططات الدول الكبرى بالإنقضاض على دمشق وعلى بلاد الشام، كما أنه أيقظ المسيحيين العرب بأن لا الدولة العثمانية ولا الدول الكبرى تحميهم، فالذي يحميهم هو موطنهم الذي تتلاحم فيه كل عناصره من مسلمين ونصارى.

وهكذا استطاع بحنكته وبعد نظره، والتزامه الكبير بالمسؤولية وبأوامر الشريعة الإسلامية، أن يحافظ على تماسك الدولة العثمانية، ويبطل المخطط الرامي لاقتطاع بلاد الشام من الدولة العثمانية، ويمنع جيوش فرنسا من دخول الشام ويردّها على أعقابها خائبة، ولمّا بلغت أخبار هذه الواقعة الهائلة حضرة الخليفة العثماني "عبد المجيد خان"، وما صنعه "عبد القادر" في سبيل طاعة الخليفة وأداء واجب خدمته، أظهر له رضاه العالي بفعله وأنعم عليه بالنيشان المجيدي العالي،[2] وتوالت مكاتب الشكر والتهنئة والتقديرات من جميع الدول ومن الأدباء والشعراء والعلماء، والأعيان إقتداءا بالدولة العثمانية.

1- شامل الداغستاني: هو محمد شامل القوقازي الداغستان، كتب هذه الرسالة للأمير عبد القادر يمدحه فيها ويشكره عن موقفه الإنساني الذي قام به في حق المسيحيين، وقد تدخل الأمير لإطلاق سراحه لدى نابليون الثالث وقيصر روسيا فتم ذلك، وذهب الشيخ شامل إلى الحجاز ومات بالمدينة بعد أن تجاوز السبعين. ينظر: - شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص364.

2- ينظر: =- Osmanli Arsivi, I.HR, 12335.

د. تقدير العالم للأمير عبد القادر وشواهد تاريخية عالمية:

إن الجزائر تفخر اليوم بهاته الشخصية، ألا وهو "الأمير عبد القادر بن محي الدين"الجزائري، الذي كان مرابطا ينتمي إلى الأسرة الهاشمية التي تنتسب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فهو مفخرة ليس للجزائر فقط، وإنما للأمة العربية والإسلامية جمعاء، بل وأكثر من ذلك، فهو أحد أخير النّماذج الإنسانية في عصره، حتى قرية القيطنة لم تكن تعرف أنها ستكتسب شهرة ما بعدها شهرة بهذا المولود الجديد، الذي أصبح له شأن عظيم ليس فقط بمسقط رأسه الجزائر بل العالم كله.

لقد كانت له مكانة وسمعة كبيرتان في العالم أجمع، سواء قبل أو بعد ملحمته الجزائرية، كما أبقت له فرنسا بعد اعتقاله على لقبه، وعاملته حكوماتها المتعاقبة كرئيس دولة حتى بعد إنهائه القتال عام 1847م، كذلك كان الحال بالنسبة لملوك العالم أجمع، حيث أنهم رأوا فيه رئيس دولة بارز يقود كفاحا شرعيا، واغتاظوا كثيرا لما آل إليه مصيره وحاشيته بعد وقفهم القتال المشرّف والمشروط، حتى أن إطلاق سراحه قد رفع من شأن "نابليون الثالث" وشأن فرنسا كلها، وعلى هذا فقد حرس الإمبراطور على إبراز هذا الحدث وإعطائه أهمية قصوى، فقد حاول ضمه بإغرائه وكسبه إلى صف فرنسا، كما اعتبره ضيفا عزيزا عليها يتوجب إكرامه،[1] وغداة رحيله أخبره بأنه كان ينوي أن يهدي له سيفا تشريفيا كان صانعوه يعدونه خصيصا له.[2]

عند مغادرته "أمبواز Amboise" يوم 11 ديسمبر 1852م متوجّها إلى المشرق مصحوبا بحاشيته، أقيمت وليمة على شرفه في مدينة ليون من قبل الكونت " دي كاستيان De castellane"، وقد نظّم بهذه المناسبة عرضا عسكريا على شرفه، وعندما وصل إلى الصفوف حيّاه الجند تحية عسكرية إكراما له، وكان عبد القادر مبتهجا بهذا الإحترام غير المتوقع، وشكر الماريشال قائلا: "...إن الإمبراطور قد منحني الحرية ولكنك أنت كللتها بالغاز..."،[3] أي زينتها.

وعند إرتحاله للإستانة في 7 نوفمبر 1853م، قابله السلطان "عبد المجيد خان" فأكرمه وأنعم عليه بدار فخمة في بروسة،[4] واستقبله كرئيس دولة ودوّت لوصوله طلقات المدافع إحتفاءا به، وأقيمت على شرفه العديد من الإحتفالات خاصة من قبل السلطان ذاته.[5] وعند ارتحاله إلى دمشق في 1856م، أيضا حضي باستقبال كبير وحفاوة بالغة من طرف والي بيروت، وعند وصوله دمشق، إستقبله واليها ورئيس العسكرية إستقبالا يليق به كرئيس

=- وينظر الملحق رقم 19.

1- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، صص251،252.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص344.

3-شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص345.

- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص58.

4- الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، المصدر السابق، ص12.

5- عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، صص253،254.

دولة، لدرجة أن المؤرخين قالوا عنه أنه كان إستقبالا فريدا من نوعه، ولم يسبق لأي أمير بأن حظي به منذ زمن "صلاح الدين الأيوبي".

من أبرز الأحداث والمواقف التي زادت من شهرته هي حادثة دمشق 1860م المشؤومة، فبعد قيامه وأتباعه من الجزائريين بإنقاذ أرواح المسيحين والأجانب، وإنقاذ الدولة العثمانية من تقسييم ممتلكاتها من طرف فرنسا وإنجلترا، والتوسع على حسابها في بلاد الشام، أصبح الخبر منتشرا في أقطار العالم، وشاع ما أجراه الأمير وأتباعه من إطفاء لنار الفتنة، فأخذت مكاتيب التشكر من سائر الدول، ونياشينها العالمية الأولية، ترد على حضرته إقتداءا بالدولة العلية،[1] ففؤاد باشا وزير خارجية الدولة العثمانية والمندوب السامي لبلاد الشام، لما رأى شجاعة المغاربة، وما جبلوا عليه من قوة الجأش، وشدّة الإقدام، فاوض الأمير في أن يعيّن منهم كتيبة ليكونوا في خدمة الدولة العلية، فوافق الأمير على طلبه، واختار منهم أربعمائة فارس، وجعل السيد "محمد بن فريحة" رئيسا عليهم، وكان الأمير هو أول شخص يزوره فؤاد باشا عند وصوله إلى دمشق،[2] ولما بلغت أخبار هذه الواقعة الهائلة حضرة الخليفة العثماني "عبد المجيد خان"، وما صنعه الأمير في بسيل طاعة الخليفة وأداء واجب خدمته، أضهر رضاه العالي، وأنعم عليه "بالنيشان المجيدي" العالي الشأن من الرتبة الأولى،[3] وأرفق معه فرمانا وحملهما إلى الأمير الصدر الأعظم "علي باشا".[4]

فسر الأمير بهذا الإنعام السلطاني، ورفع إلى حضرة الخليفة كتابا يشكره فيه ويلخص له ما حدث، وجاء فيه: "... ثم لما وقعت حادثة الشام، وانتهكت محارم الله بلا احتشام وتعين على كل فرد من العباد بذل المجهود في دفع ذلك الفساد، قمت بأداء ما قدرت عليه من هذه الفريضة العينة والنية الصحيحة في ذلك تحصيل رضا الله تعالى ثم طاعة الدولة العلية..."،[5] وتوالت مكاتيب الشكر، وقصائد التهنئة بالورود على الأمير من الدول والأدباء، والشعراء والعلماء والأعيان، إقتداءا بالدولة العثمانية، ومنها رسالة من قائد الثورة في الدغستان والشيشان، بطل القوقاز "شمويل" في منفاه في روسيا، ونصها: "...إلى الذي أصبح معروفا لدى جميع الطبقات العليا والدنيا، والذي يقف متميزا عن جميع الرجال بميزاته العديدة، والذي أطفأ نار الفتنة قبل أن تمتد ألسنتها، والذي اجتث شجرة العداوة التي لم تكن ثمرتها في الواقع سوى رأس الشيطان، والحمد لله الذي كسا خادمه بالقوة والإيمان، ونعني بذلك الصديق المخلص الحقيقي، عبد القادر العادل، السلام عليكم، وجعل الله شجرة الشرف والجدارة دائما مثمرة في شخصكم...إعلموا أنني عندما سمعت بما تمجه الأذان وترفضه الطبيعة الإنسانية –وأنا أشير إلى الحوادث

1– محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص120.

2– منور صام، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860 من خلال الوثائق الفرنسية، المرجع السابق، ص245.

3– شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص336.

– محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص118.

4– المصدر نفسه، ص117.

– منور صام، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860 من خلال الوثائق الفرنسية، المرجع السابق، ص247.

5– الرسالتان مثبتتان في كتاب تحفة الزائر، لمحمد بن الأمير عبد القادر، ج2، المصدر السابق، صص117-119.

التي وقعت أخيرا بين المسلمين والمسحيين حين أظهروا الأولون سلوكا غير جدير بعلماء الإسلام، ولا يمكن أن يؤدي إلا إلى كل فرع من أنواع التطرف -تمدّد أمامي شريط الأحداث الذي صار به وجهي المعروف بالهدوء والإطمئنان مغطى بغشاوة من الحزن، فصرخت في نفسي: بالله إن الشيطان في البر والبحر، نتيجة النثر والضلالة الكائنة في الإنسان، لقد استغربت من عمى المسؤولين الذين انساقوا وراء هذا العمل، ناسين قول رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ويضيف قائلا: "... لكني عندما سمعت أنك حميت أهل الذّمة بجناح العافية والرحمة، وأنك وقفت بنفسك ضد الذين كانوا يعملون عكس ما أمر به الله تعالى، وأنك أحرزت ثمرة النصر في ميدان الفخر – وهو النصر الذي استحققته عن جدارة – أثنيت عليك لأن الله تعالى سيثني عليك يوم لا يغنى مال ولا ولد، حقا لقد أنجزت كلمة أعظم رسول أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ووقفت سدّا ضد أولئك الذين رفضو أن يقلدوا مثاله، حفظنا الله من الذين يتعدّون حدوده، وما دمت لا أطيق صبرا على التعبير لك عن إعجابي بسلوكك، فإني أسرع بتوجيه هذه الرسالة إليك كقطرة مما أكنه لك من عواطف الأخوة والإعجاب...".[1]

– من شمويل في المنفى. حرر سنة 1277هـ –

فرد عليه الأمير عبد القادر برسالة جاء فيها: "... الحمد لله رب العالمين! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى الأنبياء والمرسلين، إن هذه الرسالة من الفقير إلى ربه تعالى، عبد القادر بن محي الدين الحسني، إلى أخيه وصديقه في الله الإمام شمويل، كان الله لنا وله في الضغن والإقامة ! سلام الله عليكم! لقد وصلتنا رسالتك الكريمة، وأثلجت كلماتك الطيبة صدورنا، إن ما سمعته عنا وما أثار إعجابك بنا بخصوص دفاعنا عن المعاهدين والحماية التي وفرناها لهم في أشخاصهم وأملاكهم، طبقا لإمكانياتنا وقدرتنا، كل ذلك كما تعلم لم يكن إلا تنفيذا لمبادئ الشريعة الظاهرة والمقتضيات الإنسانية، حقا إن شريعتنا تأكيد لكل ماهو خير وهي تشتمل على جميع الفضائل إشتمال القلادة على العنق. وإن البغي مذموم لدى كل الأديان، وإن من سمح لنفسه بارتكابه كمن وضع غذاءا مسماما في بطنه،[2] ولكن كما قال الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته　　　حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

1- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص364،365.

- نقلا عن تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص140،141.

2- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، صص365،366.

فإنا لله وإنا إليه راجعون على فقد أهل الدين وقلة الناصر للحق والمعين، حتى صار يظن من لا علم له أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلاءة والجفوة، فصبر جميل والله المستعان"[1]

- حرر في جمادى الأولى 1277هـ-

إنّ النّاظر في كلام الأمير في جوابه للسلطان وللشيخ "شامل"، يرى بوضوح أنه يشرح سبب مواقفه من أحداث الستين على أنه التزام بأوامر الشريعة الإسلامية في دفع الفساد، والعدل مع أهل الذمة ونصرة خليفة المسلمين، وكلامه صحيح ولا يستطيع أحد إنكاره، فالواجب على كل مسلم عاقل أن يعتمد هذا الكلام، فهو كلام ثابت صحيح صرّح به الأمير نفسه وهو موافق للشريعة، وأمّا ماسواه فهو كذب ومفترى وتأباه الشريعة الإسلامية.

والآن ما موقف فرنسا وإنجلترا وباقي دول أوربا الصليبية بما أجراه الأمير من السعي لإطفاء نار الفتنة؟

لم يكن أمام ملوك وحكام أوربا مخرج يخرجهم من ورطتهم -خاصة فرنسا وإنجلترا ذوي النية السيئة في إشعال نار الفتنة -إلا أن ينظموا إلى صفوف المباركين والمهنّئين والشاكرين، والمادحين للأمير عبد القادر، فبدأت كتب الشكر والنياشين والأوسمة والهدايا الإعتبارية، تتوالى عليه من الملوك والقياصرة.[2]

بطبيعة الحال فإن فرنسا وعلى رأسها الإمبراطور كانت أكثر فخرا وتباهيا بهذا العمل الذي قام به "الأمير عبد القادر"، كما عبر القنصل الفرنسي " أوتري Outery" أن هذه الإمتيازات التي منحت له هو جدير بها، ونتيجة للعمل الذي قام به أصدر نابليون الثالث وباقتراح من وزير الخارجية مرسوما في 5 أوت 1860م، بمنح الأمير الوسام الكبير لجوقة الشرف، الذي لم يكن يمنح إلا لرؤساء الدول الأجنبية، وهذا الوسام هو الصليب الأكبر في نظام الإمبراطوري "الليجون دونور المرصع La légion d'honneur"،[3] لكي يظهر وبالطريقة الأكثر وضوحا ذلك التقدير الذي أوحاه إلى جلالته لسلوكه الكريم،[4] وقرر الإمبراطور أن يكون الوسام مرصعا بالألماس، وفي 21 سبتمبر 1860م، ذهب "أوتري" القنصل الفرنسي مع "شيفر Schefer"،[5] وموظفي القنصلية، وسلمه رسميا هذا الوسام الرفيع باسم الإمبراطور، وتسلمه الأمير بانفعال واضح. وقال القنصل كلمة بهذه المناسبة، ورد عليه

1- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص141،142.

2- ينظر الملحق رقم: 20.

3- الليجيون دونور: تعني وسام الشرف.

4- منور صام، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860، من خلال الوثائق الفرنسية، المرجع السابق، ص245.

- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص363.

-أحمد توفيق المدني، الأمير عبد القادر وحوادث سوريا، المرجع السابق، ص8.

5- شيفر: هو السكرتير المترجم للإمبراطور نابليون الثالث الذي أرسله إلى دمشق يوم 20 سبتمبر 1860، حاملا معه الصليب الأكبر من وسام الليجيون دونور للأمير عبد القادر، فأرسل أوتري لمقابلته (أي شيفر) مستشار القنصلية، وأرسل الأمير من جانبه إبنه الأكبر لمقابلته ومعه عشرون فارسا جزائريا. ينظر:- منور صام، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860، من خلال الوثائق الفرنسية، المرجع السابق، ص246.

الأمير بالشكر للإمبراطور، وقال ما معناه: "...إن جلالته أغمرني دائما بإحسان يفوق ما أستحق، لقد تأثرت كثيرا لمعرفة أنه مسرور مما قمت به في دمشق، وكم أكون مسرورا لو منحني الله فرصة لكي أعبّر له عن شكري، وعن إعترافي الكامل لكرمه، الذي حصلت منه على أكثر من دليل...".

لقد اعترف القنصل الفرنسي لوزير الخارجية الفرنسية وأكّد له أن لهجة الأمير وتعبيراته كانت لا تترك مجالا للشك في صدق ما قاله، كما أن الوسام الذي منح له، سيترك أثارا عميقة وثابتة في نفسه اتجاه الإمبراطور.

وجاء نص ماكتبه وزير خارجية فرنسا ما قوله: "...أيها الأمير السامي، إن خبر الحوادث الشامية قد طرق مسامع الدولة الفرنساوية، وإجابة لطاعة مولانا الإمبراطور وإرادته، بادرت الآن بإعلان اعتباره السامي، والتشكر الوافر من طرف جلالته على السعي الذي تكرمتم به على الأهالي المسيحيين والراهبات والمبعوثين الفرنسيين، وجمهور القناصل بتلك الواقعة المحزنة والمزية العظيمة في ذلك هي مشاهدة همتكم العليا التي جعلتكم وقاية لحياة ألوف من المساكين، وجعلت محلكم ملاذا لهم في وقت كان الأشقياء الخارجون عن الطاعة يرتكبون القبائح المخالفة لأوامر الباري تعالى، ولما تقتضيه الإنسانية، أما الإمبراطور نظرا لمعرفته بعلي همتكم وكرم أخلاقكم، فإنه لم يتعجب مما أظهرتموه من الإقدام في ذلك الوقت الضنك، وهو الآن يشعر بداع ذاتي يدعوه إلى أن يخبركم عن فرحه الشديد الذي أثر فيه تأثيرا قويّا بإجراء ما أجريتموه، وأنا أرجوكم قبول التهاني الشخصية مني التي أضيفت أيها الأمير السامي تأكيدات سمو إعتباري لحضرتكم في 31 أغسطس سنة 1860م، ثم حضر رئيس المترجمين في دائرة الوزراء الفرنساوية مبعوثا من لدن الإمبراطور إلى حضرة الأمير، وقدّم إليه نيشان اليجون دونور المرصع من الرتبة الأولى، وبلغه إعتبار الإمبراطور، وسائر الفرنساوية لمقامه العظيم".[1]

كما جاءه من ملك بروسيا "غيوم الأول "(1797م-1888م) وسام صليب النسر الأحمر من الطبقة الأولى ،مع رسالة بالتوقيع الملكي،[2] وهذه صورة المرسوم الممضي بخط ملك بروسيا صحبة النيشان:

"...نحن غليوم بنعمة الله تعالى ملك بروسيا إلى آخر الألقاب قد منحنا الأمير عبد القادر بن محي الدين نيشان صليب النسر الأحمر من الطبقة الأولى ،وقد أعطينا إراداتنا هذه لأجل تملكه الحقيقي لهذا الوسام حاوية توقيعنا وإمضاءنا مع الختم الملوكي من بالسبيرج في الثاني عشر من أكتوبر سنة إحدى وستين وثمانمئة...".[3]

كما أسرعت روسيا إلى منح الأمير وسام النسر الأبيض، وهو أعلى وسام قيصري في روسيا، بحيث جاءته رسالة في شكل مرسوم موقع من "اسكندر الثاني" (1818م/1881م) يقضي بمنح الأمير رتبة أعظم فارس في الامبراطورية، إلى جانب الوسام.[4] وهذه صورة المرسوم الممضي بخط يد قيصر الروس المرسل صحبة النيشان:

1- محمد بن الأمير عبد القادر،تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص120،121.

2- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، المرجع السابق، الجزائر، ص75.

3- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص121.

4- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، المرجع السابق، ص74.

"...نحن إسكندر الثاني إمبراطور وأفطر كراطر جميع الروسيين إلى آخر الألقاب إلى الأمير عبد القادر، اقتضت رغبتنا أن نشهر التفاتنا إليكم بشهامتكم وعملكم بما اقتضته الإنسانية، وإجتهادكم في إنقاذ ألوف من المسيحيين من أهالي دمشق الذين وجدوا في خطر عظيم، اقتضى الحال أننا سميناكم من أعظم فرسان الإمبراطورية الملوكانية المشهورة بالنسر الأبيض، وهذه علامتها وأصله إليكم، ونحن لم نزل باقين على المحبة لنحوكم، بالإعتبار الإمبراطوري الملوكي...". [1]

-حرر في بطرسبورج في يناير سنة 1860م-

وقد بعثت له ايطاليا رسالة بخط وتوقيع "فيكتور ايمانويل الثاني"، (1820م-1878م)، مع الوشاح الكبير، ووسام "موريس والعازر"، أقدم أوسمة الفرسان بواسطة الكونت "دي كاستيلوني، والكادايردي، كاستيلونيو" من مدينة طورين[2].

وهذا نص تحرير ملك إيطاليا: "...إن عظيم تصرفكم في أمر المسيحيين في الحوادث الشامية، قد أثبت أمام أوربا أنكم ممن حاز المزايا الحربية العظيمة، خصوصا في الأحداث الدمشقية التي أنقذتم فيها النفوس الكثيرة، فكان ذلك حلية لنفسكم الكريمة المصطفاة، ثم إنه يوجد بيني وبينك أيها الأمير العزيز مواصلة أفرح بذكرها وهي محبة الحرية التي تجعل تابعيها محافظين على العدالة الحقيقية، وإن كنت في أيامك السابقة لم يمكنك الحصول على النجاح التام على حسب مرغوبك، فهذا لا يكون مانعا لإكتسابك بالنظر لشجاعتك القوية الإحترام والإعتبار من جانب أهل الحرب المعاصرين لك، والذين يقاتلون لصالح إستقلالية الشعوب، ونظرا لشهادتي بهذا الإحترام المخصوص لشخصك الكريم، فأنا مرسل إليك الآن الشريطة الكبرى نيشان موريس والعاذر، وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية، وهو يسلم لك على يد إثنين من ضباطي وهما: الكاواليردي كاستيلونيو، والكونت دي كاستيلونيه القادمين إلى حضرتك لأجل هذا الأمر، وإني أوصي بهما شديد اعتنائك، وأرجوا أن تصادفك السعادة فيما بين يديك أيها الأمير السعيد نظير الندا الذي يقطر من السماء، ليعطي الإقبال إلى الأرض، والمأمول قبول هذا الدعاء مني لأجلك في المستقبل كما أنّي أرجو أن تعتقد تمام محبتي...".[3]

-حرر في مدينة تورين بتاريخ سبتمبر سنة 1860م-

أهدى "أوتون الأول" ملك اليونان وسامين للأمير :الأول في وسطه نسر يعلوه تاج، والثاني في وسطه رسم لرأس الملك اليوناني، حملهما إليه الأمير وزير البلاط مع رسالة من الملك.[4]

1- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص121،122.
2- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، المرجع السابق، ص75.
3- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص122.
4- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، المرجع السابق، ص75

نص ما كتبه ملك اليونان "...نحن أوتون بنعمة الله ملك اليونان، قد أعطينا الأمير عبد القادر النيشان الكبير رتبة أولى من صنف نيشاننا الملوكي المدعو بنيشان المخلص، المؤرخ يوليو سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وألف وأرسلناه إليه، ليحمله ويستعمله بمقتضى أمرنا، وبناءا على ذلك أصدرنا له هذا المرسوم، ممضيّا ما ثم من وزير بلاطنا الملوكي والتعلقات الخارجية..."[1].

-حرر في أثينا بتاريخ سبتمبر 1860م-

الملكة "فيكتوريا "ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا، أهدته بندقية مرصعة بالذهب، نقش عليها إسم "فكتوريا "، وإسم المرسل إليه "الأمير عبد القادر"، مع رسالة تقدير في أوت 1860م، وفي سنة 1872م أهدته وساما في وسطه أسد، بصفتها ملكة لإنجلترا وإمبراطورية الهند.[2]

نص تحرير قنصل دولة إنجلترا في دمشق: "...إلى عظمة الأمير السيد عبد القادر المعروض لسعادتكم، أنني قد أمرت من الحكومة الإنجليزية الفخيمة، أن أبين لكم حاسيتها الفائقة نظرا لما أظهرتموه من حقوق الإنسانية، بتخليص حياة جماعة كبيرة من المسيحيين الذين لولا ذلك لهلكوا بين أيدي أهل القساوة في المذبحة الأخيرة بدمشق، وبسلوك عظمتكم عرفت الحكومة الإنجليزية مقامكم الرفيع للغاية، ثم أعرض أن هذا الشرف الذي صيّرني واسطة لتقديم حاسيات دولة إنجلترا الفخيمة إلى حضرتكم، أعتبره شرفا عظيما لا مزيد عليه، وقد كنت شاهدت إجتهاد عظمتكم في تخليص عدة أناس كانو مضطهدين، حتى إنني حصلت بذلك على حاسيات التعجب، والآن لي الشرف بأن أكون مبلغا لكم ما سطرته، وداعيا لعظمتكم، حرر في الرابع والعشرين من أغسطس سنة ستين وثمانمائة من دولة إنجلترا بدمشق، وبعد هذا بعثت الملكة بندقية هدية للأمير مكتوبا على ظهر صندوقها، من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة بريطانيا العظمى إلى صاحب السمو الأمير عبد القادر تذكارا للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة ستين وثمانمائة.[3]

كما بعث له الرئيس الأمريكي "أبراهام لينكولن" بمسدسين خاصين بالخيالة عام 1860م، وأهدته الدولة السويسرية وساما، وبعث له "الحبر بافي" أسقف الجزائر الذي خلف الأسقف "دوبوش Dupuch" رسالة إلى الأمير عبد القادر في 10 أوت 1860م، يعبّر له فيها عن إعجابه بسموه وموقفه الجريء، وتدخله الشجاع لحماية المسيحيين، قائلا له: "...ما قمتم به من أجل المسيحيين في المشرق بفضل العناية الربانية جعلكم تحتلون من الآن فصاعدا مكانة في الصف الأمامي لكبار رجالات هذا القرن، وكبار المتسامحين والمدافعين عن العدالة وعن الإنسانية..."، كما أهداه "محمد الصادق" باي تونس وساما مكتوبا في وسطه "محمد الصادق".[4]

1- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص122،123.

2- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، المرجع السابق، ص74.

3- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص123.

4- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، المرجع السابق، ص74-76

أما الجمعيات التي بعثت له برسائل مجاملة وتقدير كثيرة نذكر منها:

- ✓ جمعية المصابين في البر والبحر، التي جاءته منها رسالة تقدير وقرار يمنحه عضوية الشرف.[1]
- ✓ الجمعية الأمريكية المشهورة باسم الشرقية.[2]
- ✓ الجمعية الفرماسونية التي بعثت له برسالة تقدير تثني عليه من دون منحه عضوية الشرف.[3]

إذن أول من منح للأمير تقديرا ونيشانا ورسما، هو الخليفة والسلطان العثماني، وبإسم الدولة العثمانية، فهذا يدل أن موقف الأمير من أحداث فتنة النصارى في الشام، كان في جانب الدولة العثمانية وخدمة لمصالحها، ونصرة سلطانها ولذلك إستحق التكريم، وأما النياشين والأوسمة الأوربية فقد قدّموها له عرفانا وتشكرا عمّا قام به في حق النصارى، لأن سكوتهم سيفضح نواياهم أمام نصارى الشرق، ويكثّف إدّعاءاتهم الغيرة على أبناء دينهم، ويكشف مطامعهم الجشعة وأغراضهم الدّنيئة من أجل تقويض دعائم الخلافة الإسلامية، حتى لو راح ضحيتها أبناء دينهم، لذلك لم يكن أمامهم حل سوى المبادرة في تقديم الهدايا والنياشين للأمير عبد القادر وشكره عما فعله.

بالإضافة إلى ما ورد على حضرة الأمير من مكاتيب الدولة ونياشينها فأيضا قدم الشعراء إلى أعتابه من قصائد المدح والتهنئة، وهاهي نازلة من شعراء العالم الناظر الناثر الشيخ إبراهيم الأحدب نائب المحكمة الشرعية في بيروت وهذا مطلعها:[4]

هل تنطفي نار أحشائي بزورتــه وتستكن من الأشواق أشجـــان

كما بهمة عبد القادر إنطفــأت في الشام من حادث الأيام نيران

هذا وهاهو العالم الفاضل السيد أمين الجندي يقول فيه ما مطلعها:[5]

إليك انتهى المجد الرفيع المؤثـــــل وعنك أحاديــث المـكارم تنقــل

تفردت في الأفاق بالسؤدد الــذي على فضله بـين الأنـــام المعـول

ومنهم الأديب إسكندر أغار أباكاريوس البيروني[6] الذي يقول: وبناءا على ما شوهد من حسن خصاله، وجودة أخلاقه، وكثرة أفضاله قلت مادحا مناقبه الفريدة وأوصافه الحميدة بهذه القصيدة:

1- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص137.

2- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، المرجع السابق، ص76.

3- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص123.

4- للمزيد ينظر: - محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص124-128.

5- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص129،130.

6- ألف كتابا سماه "نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان" وقدمه إلى حضرة الأمير، ونص ما كتبه بعد الديباجة وترتيب أبواب الكتاب: "وقد قسمته خدمته إلى أعتاب فخر الموالي، وبهجة الأيام والليالي، وحيد دهره، وفريد عصره، عمدة الأمراء، وتاج الكبراء، من شاعت فضائله في الأفاق، وامتلأت بمدائحه=

لباب مولاي عبد القادر ابتدرت أبيات مدح أصابت أصدق الكلم

هذا الأمير الذي باهى الزمان بـه والطاهر الأصل والإباء الشيـــــم

ليس هذا فحسب فقد إنهالت على الأمير المكافآت، وأغدقوه بوابل من التهاني البليغة، والأشعار المعبرة عن مدى فخرهم واعتزازهم بهذا العربي الأصيل والشريف النسب، كما فتحت صحف العالم أعمدتها لتمجيد عمله والإشادة ببطولته وإقدامه. كجريدة "مندا بلو سنمري" الفرنسية تحت عنوان "عبد القادر أمير معسكر سابقا"، إضافة إلى عدة جرائد التي تحدثت عن أخبار الحادثة الشامية.[1]

وعلى كل حال فإنه من المؤكد أن عمله البطولي والإنساني لصالح المسيحيين لم يرفع مكانته عند الغرب فحسب، ولكن العالم العربي في مجمله قد قدر عمله سواءا من الناحية الإنسانية أو السياسية، ولهذا السبب قبل جميع الهدايا والأوسمة التي قدمت له من حكام الدول، ومن الجمعيات، ولم يعترض على شكلها، ووضعه للأوسمة في المكان اللائق بها مجتمعة كانت هي العادة المعمول بها، فهو لم يحملها للتزيين أو التفاخر، فكما قالت بديعة الحسني في كتابها "أصحاب الميمنة": "...أن هدف الأمير لم يكن للتزيين أو التفاخر، لأنه كان يحمل وساما واحدا يعتزّ به، وهو وسام الجهاد..."، والدليل على ذلك هو عدم ظهوره في أيّة مناسبة رسمية بهذه الأوسمة، حتى أثناء إحتفالات إفتتاح قناة السويس عام 1869م، والذي حضره أعيان العالم كله، وإجتمع بجميع الملوك والوزراء والأعيان،[2] وكانت العادة في ذلك العصر أن الشخصيات المرموقة إذا حضرت مثل تلك الإحتفالات تزيّنت بكل ما تملكه من أوسمة، في حين أن الأمير لم يكن يضعها، وكان مظهره دائما بسيطا وعاديا، كيف لا وهو كلما إزدادت شهرته وتعظيمه بين الناس، إزداد تواضعا وتبسّطا، هذا كان منهجه وطريقته كما وصفه المترجمون له، فهو كان ذائع

=وذكر أوصافه الحسنية بطون الصحف والأوراق، ذو البأس الشديد، والرأي السديد، الذي شمله الله بالنعمة، وخصه بالفراسة والحكمة، ومكارم الأخلاق، وعلو الهمّة ورفعه على أقرانه بالشرف والسيادة، وجعل أيامه السعيدة قرة عين السعادة، الأمير المفهم، والهمام المكرم، والشجاع المقدم، والليث الغشمشم، معدن اللطف والكرم، صاحب البند والعلم، الجامع بين شرفي النسب والقلم، مولانا عبد القادر بن محي الدين الحسني أبقاه الله مدى الدوام، وحرسه من نوائب الليالي والأيام، ما غنى الهزار وناح الحمام، بجاه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام" ينظر:

- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق ، ص135.

- يعود أصل وموطن والد أبركريوس إلى أرمينيا، لذلك عندما يذكر إسم إسكندر أبركريوس في كتب التراجم، يجعلون كلمة الأرمني في ذيل إسمه، للتعريف به وبأصل موطنه، وقصة هجرة والده من أرمينية أشار إليها جرجي زيدان في كتابه، ويعتبر إسكندر مجهول سنة الولادة، أما عن المكان فقد ولد في بيروت، ودرس في المدرسة الوطنية، ثم في الكلية الأمريكية، ونشأ على حب الأدب، واشتغل بالتأليف، وحرر في جريدة الجنان، توفي في بيروت في 13-12-1885م. ينظر: - جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن 19م، المرجع السابق، ص313.

- يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسات الأدبية، الفكر العربي في سير أعلامه، ج3، ص50.

1- للمزيد ينظر: -محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، صص138-140.

2- يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح، المرجع السابق، ص73.

الصيت محترما عند الجميع ومآثره معروفة، فلا حاجة له إلى إظهار الأوسمة أو ماشابهها ليلفت إنتباه الآخرين، بخلاف غيره.[1]

أما عن المسألة التي طرحت عن منحه مملكة سوريا فيذكر "بوطالب" في هذا الصدد عن تنافس صحافة القوتين العظمتين على إبداء وتدعيم هذا الإتجاه، ويعلمنا هابرت بأنه في الوقت الذي كانت الصحيفة الإنجليزية "دايلي نيوز"، تطالب بمنح الأمير "عرش سوريا"، يشير كتيب لا يعرف صاحبه بعنوانٍ: "عبد القادر سلطان الشرق العربي". أما جريدة "الكونتيتوسيونال" القريبة من الحكم قد نشرت مقالا مطولا عنوانه: "المسألة المشرقية الجديدة"، وينادي بدولة فيدرالية توضع تحت سلطة الأمير، طبعا هذا ما لايقبله شخص محنك ومتفطن كشخص الأمير.

وعلى الرّغم من غياب وثائق تحمل عروضا رسمية قدمت للأمير وحتى في حالة وجودها فإنها لا يمكن أن تكون إلا على شكل إقترحات، فإنه يتعين علينا أن نعترف بأن الشهرة والسمعة الكبيرة التي كان الأمير يتمتع بها في العالم العربي وحالة الفوضى المقنعة التي كانت سائدة في المشرق، كانت تستطيع أن تدفع بالحكومات الإنجليزية والفرنسية إلى وضعه على رأس مملكة في المشرق كانت بطبيعة الحال ستكون تحت نفوذهم، وهو الأمر الذي لم يكن الأمير ليتقبله. فهذا إذن سبب آخر، وهو ما يفسر رغبته القوية في التفرغ التام للدراسة والعبادة.

هـ. الإنتاج العلمي والأدبي للأمير عبد القادر الجزائري:

نشأ "الأمير عبد القادر" منذ طفولته نشأة علمية، الذي أخذها عن أهله، واستكمل فنون العلوم واعتنى بالتحصيل عناية شديدة، فقد كان كثير المطالعة للكتب حتى أنه تفوّق بالأدب والفقه، والتوحيد، والحكمة العقلية، وكان يحفظ أكثر صحيح البخاري على ظهر قلب، ويُقْرِئهُ لمريديه، ويجيزهم بقراءته حتى آخر أيام حياته، وكان

1- تجلت أيضا شخصية الأمير عبد القادر العالمية في الرسوم واللوحات الزيتية لكبار الرسامين في العالم، منها ستة لوحات لوجه الأمير عبد القادر (Portrais): – الأولى رسمت له في قلعة لامالق في تولون في جانفي 1848م. الثانية أعدّها "جوفروا" ونشرت في متحف العائلات عام 1848م.
– الثالثة أعدّها "بيارشلومبرغاز" سنة 1848م للمتحف الوطني بقصر بو. – الرابعة أعدّها "تيسي آنج" خلال إقامته في قصر أمبواز عام 1852م.
– الخامسة من إعداد "غوستاف لوغاي" عام 1860م. – السادسة من إعداد "دافيد ماكسيم" عام 1870م.
– ينظر: – الأمير عبد القادر، ملحمة الحكمة، منشورات زكي بوزيد، المرجع السابق ،ص37.
– المرجع نفسه، ص170.

- Azan (P), Bugeaud et l'Algérie, op-cit, p36.

– يذكر بوطالب أنه قامت السلطات الفرنسية بتشييد نصب تذكاري تخليدا للأمير عبد القادر، وكان ذلك في فترة سلطة الحاكم العام "ناجيلان"، ويذكر أنه حضرها أحفاد الأمير، وألقيت الخطب بهذه المناسبة، كما أشاد الحاكم في خطبته بشخصية الأمير ووصفه بأنه "بطل لا يخاف ولا يعاب". ينظر:
– عبد القادر بوطالب، بناء الأمة الجزائرية، المرجع السابق، ص270،271.
– ويذكر أيضا أنه في سنة 1846م، أسست مدينة صغيرة بولاية "إيوا Iowa"، من طرف ثلاث رواد أمريكيين يسمون "جون تومسون، ديفيس تيموثي، تشستر سايج" وسموه "القادر" على شرف الأمير، وهكذا قد أثير كفاحه البطولي حتى في أمريكا، وتعدّت سمعته بكثير مجال نشطاته، ولم يكن من وراء هذا العمل الذي يشرف عليه إلاّ الإعجاب بهذا الرجل العظيم. للمزيد ينظر: – المرجع نفسه، ص279 ،280.

مع ذلك لا يهمل المثاقفة بالسلاح، وركوب الخيل، بحيث نبغ عالماً فاضلاً من جهة، وفارساً ثقفاً من جهة ثانية، فجمع بين السيف والقلم.

لقد تعددت مواهبه بسبب اغتناء شخصيته بالقابليات، التي جعلت منه إنسانا إستثنائيا حرباً وسلماً، إذ أنّ بلاءه في ساحة القتال كان له ما يعادله على صعيد القدرات العقلية والروحية، وذلك ما أتاح له أن يترك لنا تراثاً فكريا وأدبيّا يعد -بالقياس إلى مرحلته – إنجازاً جديراً بالتقدير يستحق الدراسة.

فهو بالإضافة إلى أنّه رجل سياسة ودين، فهو شاعر وكاتب في ذات الوقت، وهذا ماهيّأه لأن ينجز على الصعيدين السياسي والفكري تجربة حياتية فذّة رسمت لنا منعطفاتها آثاره وكتاباته، وها نحن نلمس سعة علمه واهتمامه بالدّليل والأثر في مؤلفاته ورسائله وقصائده وأشعاره، فقد شرح قبل أن يستلم الإمارة حاشية في علم الكلام كتبها جدّه"عبد القادر بن أحمد" المدعو "بن خدة"، الذي عاش في نهاية القرن السادس عشر ميلادي، وبعدها وبحسب الظروف كانت له تآليف وكتب أخرى نذكر منها:

<u>رسالته المعنونة بـ"حسام الدّين لقطع شبه المرتدّين":</u>

وهي عبارة عن رسالة علمية من تأليف الأمير عبد القادر الجزائري، كتبها أيام جهاده ضد المستدمر الفرنسي، في قضية من أهم قضايا فقه الجهاد، وهي قضية الهجرة من البلاد التي يستولي عليها الكفار أو الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وهذه الرسالة تعتبر وثيقة علمية نادرة في بابها ،تبيّن مكانة "الأمير عبد القادر" العلمية، كما أنّها وثيقة تاريخية مهمّة ،تنقل لنا حقائق جد خطيرة عن أسباب تغلب الفرنسيين وإنتصارهم على الجيوش الجزائرية في تلك الحقبة، رغم بعد القواعد الخلفية للعدو واتساع مساحة الجزائر،[1] وذكر أنه إنتهى من كتابتها عام 1848م/1258هـ.

يبدأ الأمير عبد القادر رسالته بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليما، هذا حسام الدّين لقطع شبه المرتدّين، أجوبة أمير المؤمنين، سيد الحاج عبد القادر بن محي الدين،... الحمد لله عمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، اللّهم صلّ وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، اللّهم إني أعوذ بك من معضلات الفتن، ونتضرع إليك يا مقلّب القلوب أن تثبّت قلوبنا على دينك..."، ويضيف قائلا عن سبب كتابته لهذه الرسالة عن المرتدين: "...وبعد يا أخي: فإني رأيتك متعطشا سماع كلام سادتنا من هؤلاء الذين ركنوا إلى الكافر، ودخلوا تحت ذمته، شعوباً وقبائل، أصاغر وأكابر، فأحببت لذلك أن أذكر لك بعض ما هنالك، ولولا رؤيتي لشدّة عطشك وأوامك،[2] ما ذكرته لك إذ ربما تقي في الكلام معهم باقي أيامك، وتعبك في إستصلاحهم تعب في إصلاح الفاسد، وضرب في الحديد البارد، وكلاهم لا تحصل منه على طائل ولو في الزمان المتطاول... إذ

1- عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الجزائري، مخطوطة حسام الدين لقطع شبه المرتدين، معهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو، تحت رقم: 8331، N.O.S 21. - ينظر: الملحق رقم 21.

2- أوامك: تعني حرارة العطش.

الراكن إلى الكفار الداخل تحت ذمة أهل البوار، واحد من رجلين، إمّا رجل كذّب الله في ضمانه لرزقه -نعوذ بالله من كفره وحمقه- وقال: إن هاجرت متّ جوعاً، فازداد بذلك هلوعا، واعتقد أن وطنه هو رازقه، لا موجده وخالقه، وإمّا رجل متكالب على الدنيا أصمّه وأعماه حبّها، يريد الظفر بها، سواء كانت مع الكفر أو مع الإسلام، وكلا هذين لا يرجى صلاحهما ولا يؤمل نجاحهما... وهذه الفتن سنة الله التي قد خلت في عباده وحكمته الجارية في أرضه وبلاده، ليتبيّن الصادق من المدّعي، من ادعى ما ليس فيه، فضحته شواهد الإمتحان،..."[1] إلى نهاية الرسالة.

ما يهمنا في الرسالة هو أنّها رسالة علمية فقهية محكمة، تعكس ثقافة الأمير عبد القادر، خاصة في المجال الديني والفقهي، فهو تحدث فيها عن الحكم الشرعي في المسلمين الذين يرضون بالنزول تحت حكم الكافر، ويخضعون لأحكامه، أو الذين يمدّون جيش المحتل الكافر بالمعونة والمساعدة، ويشاركونهم في أعمالهم، وينفّذون أوامرهم، وقد استدّل بنصوص قرآنية وأحاديث نبويّة شريفة، وفتاوى الأئمة المسلمين من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، محرّرة وفق الفقه المالكي، وتعتبر من أوائل الرسائل العلميه للأمير.

ويمكن من خلالها أن نلاحظ رسالة من الأمير إلى هؤلاء في مسألة حكم الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، فقد طالب هؤلاء الجزائريين النازلين تحت الحكم الفرنسي، أن يهاجروا إلى المقاطعات التابعة لدولته الإسلامية، أحسن من التودّد للكفار والإحتكام لأمرهم وإعانتهم ضدّ إخوانهم المسلمين، فرسالته تنبّه إلى مسألة أساسية، وهي إنكاره على بعض الجزائريين موالاتهم للكفار، وتودّدهم إليهم وتعاونهم معهم ضدّ إخوانهم المسلمين، ورفضهم للإنضمام إلى جماعة المسلمين وإمامهم لمجاهدة الكفار،... " لأنّ أهل هذا الوقت كانوا يتمنّون مجيء النصارى و يطلبونه ليجاهدوا، فلمّا ظهر الجهاد نكصوا على أعقابهم فهم في هذا كبني إسرائيل..."[2] ويستشهد بالقرآن الكريم بقوله عزّ وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾،[3] أي أنّهم كبني إسرائيل الذين تولّوا عن القتال، وأرادوا من سلطانهم أن يجاهد لوحده، ويتكلّف ردّ العدو منهم وحده، إلاّ من تمسّك بعروة الإسلام.

هناك أدلّة وآيات قرآنية يحفظها "عبد القادر"، فيها نصوص في تحريم موالاة الكفار، فقد وصفهم بالمرتدّين، لأنهم رفضوا الإنضمام إليه للجهاد في سبيل الله والوطن، وانضموا لموالاة الكفار، وقد حذّرهم من خطورة هذا الفعل، وما يترتّب عليه من عقوبة في الدنيا والآخرة، لذلك طلب منهم ترك المناطق الخاضعة للإحتلال الفرنسي، والإنضمام

1-عبد القادر الجزائري بن محي الدين، حسام الدين لقطع شبه المرتدين، المصدر السابق، صص1،2.

2- المصدر نفسه، ص2.

3- سورة البقرة، الآية 246.

إلى إخوانهم المسلمين في المناطق الخاضعة لحكمه، وشبّه ذلك بالهجرة من دار الكفر والحرب إلى دار الإسلام، وعليه يمكننا القول أنّ هذه الرسالة تمثل ما هو عليه بمطالبة الأمير للجزائريين بالهجرة إليه مطالبة شرعية لأنه:

- ✓ إستدلّ وإعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وفتاوى الأئمة الصالحين والعلماء.
- ✓ بما أنّه بويع أميراً على الجزائر بعد الإحتلال الفرنسي لها، وكانت هذه البيعة وفق واجب شرعي هو حماية البلاد، والقيام بالجهاد وإقامة شرع الله بين الناس، وحفظ النفوس والأموال، ومنع الفتن ونشر العدل، ويدير شؤون الوطن وفق المصلحة العامة، ويحرص على الحقوق، والإلتزام بالشريعة الإسلامية، كل هذا وذاك وجد من واجبه شرعاً وقانوناً أن يردّهم إلى الصواب، ويستعين بهم على مجاهدة العدو، وهذا مأمور به شرعاً، وعليهم طاعته لأنه إمامهم، وهذا أيضا مطلوب شرعاً، فهو أميرهم وحاكم البلاد.
- ✓ إضافة إلى أنهم مسلمون، وكانوا يقدّمون المساعدات لعدوهم الكافر، طوعاً وكرهاً، وهذا لا يجوز شرعاً، فطلب الأمير الهجرة إليه أمر معقول، لأنه خشي منهم أن يستبرؤوا لدينهم وعرضهم، وهذا أيضا مطلوب شرعاً.

وكل هذا موجود في رسالته، بالأدلّة الشرعية و أقوال الأئمة، وهي كافية لتوضّح للقارئ سبب كتابة هذه الرسالة والدّافع لها.[1]

مذكرات الأمير عبد القادر الجزائري:

هذا الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية كتبها الأمير عبد القادر في سجن "أمبواز Amboise" في فرنسا 1849م،[2] ويعود ذلك إلى كثرة الأسئلة التي وجّهت إليه وتواردت عليه وهو في السّجن، ثم وهو في المشرق، يريد

1- إن بعض القبائل الجزائرية خانت الأمير عبد القادر ولجأت للمستعمر الفرنسي، وقدّمت له الطاعة الكاملة ورضيت به حاكما، وصار رجال هذه القبائل أداة في يده يوجّههم حيث يشاء، وكونهم يعرفون البلاد ومسالكها إستطاعوا أن يتسببوا بالكثير من الأذى لدولة الأمير التي كانت فتية حينها، وكان الأمير يحاربهم، كما ذكرها شكيب أرسلان حيث قال: "...لم يكن قتاله قاصراً على جهاد الفرنسيين فحسب، بل اضطرّ أن يقاتل حسّاده ورقباءه من أهل البلاد أنفسهم، فقام بجميع ذلك أحسن قيام، حتى دانت له عمالة وهران تقريبا..."

- للمزيد ينظر:- شكيب أرسلان، حاضر العالم الاسلامي، مج 1، ج 2، المرجع السابق، ص169.

2- ذكر المحقّقون أن النسخة الأصلية للكتاب ما تزال ضائعة، ولذلك كان اعتمادهم في التحقيق على النسخة المطبوعة تصويراً عام 1983م، وذكر أبو القاسم سعد الله أنّه اطلع على النسخة المخطوطة المهداة إلى المكتبة الوطنية عام 1970م، وذكر أنّه بدون عنوان، وأنّه منسوب إلى مصطفى ابن التهامي، أما يحي بوعزيز فيذكر أنّ هذا المخطوط ظهر أوّل مرة عند السيد القس تيسيه نائب الكاردينال دوفال بوهران في أواخر عقد الستينات، وقدّم له المخطوط، كما قدّمه لأبو القاسم سعد الله، ويذكران أنّه مصور على ورق صقيل، وربما يعود إلى ملك عائلة "شوفالييه" التي كانت تقطن بحي الأبيار بالعاصمة، وأهدوا هذا المخطوط إلى المكتبة الوطنية الجزائريةذ في الذكرى المئوية الأولى للإحتفال بوفاة الأمير عبد القادر عام 1983م، وربما يضيف أبو القاسم سعد الله أن اكتشاف المخطوط يعود إلى سنة 1967م، كما يرويها الدكتور بوعلام بن حمودة، الذي كان وزيراً للمجاهدين أنذاك للناشر، وخلاصتها أنّ أحد أفراد عائلة شوفالييه "جاك"، قد عثر على المخطوط بالصدفة أثناء البحث عن بعض الحطب في قبو المنزل (للتدفئة)، ولمّا اطلع رب العائلة عليه، وتأكّد من أهميته التاريخية البالغة للوطن، إتّصل بوزير المجاهدين، وسلّمه المخطوط، وقد قام الوزير بتسليمه إلى السّيد مدير المكتبة الوطنية في حفل رسمي. -للمزيد من التفاصيل حول قصة وتاريخ هذا المخطوط ينظر: - الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص9.

- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص8،9.=

أصحابها معرفة دراسته، وتكوين أسرته، وبيئته، والمؤثرات فيه وعقائده، حروبه وخصومه، وأصدقائه، وآرائه في الناس والحياة في العرب والأوربيين، وفي الإسلام والمسيحية، ونحو ذلك من الأسئلة التي كان يطرحها كل سائل، فكتب نموذجاً لحياته باختصار، وكان يسلّم نسخة لكل سائل،[1] لكن هنا إختلفت الآراء حول كاتب هذه المخطوطة "السيره الذاتية"، فهناك من يقول بأنها من إملاء الأمير عبد القادر و دوّنها مصطفى ابن التهامي، وهناك من يرجع هذه السيرة إلى أنّها كتبت بالإشتراك مع مصطفى ابن التهامي، أي أن الأمير كتب جزءاً منها، ومصطفى ابن التهامي كتب الجزء الآخر، وهناك من يقول أن مؤلف هذا المخطوط ليس الأمير عبد القادر أصلا، بل التهامي فقط، وكتبها بالإشتراك مع الأمير وآخرون بدليل أن الخط كتب بخط مغربي مضغوط ومتنوع.[2]

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله، المهم ليس هذا ،وإنّما المهم هو أنّ النّموذج كان بموافقة الأمير نفسه وتحت نظره،[3] وأنّ التنازع لا يتمثل فيمن كتب السيرة، بل ما قدّمته لنا من معلومات ذات قيمة عن سيرة الأمير عبد القادر، و التي لا نجدها في غيرها من المؤلّفات، ضف إلى ذلك أنّ هذا النموذج المذكور، بنى عليه عدد من الكتاب مخططاتهم في ترجمتهم لسيرته، ومنهم "الإسكندار بيلمار" في كتابه "عبد القادر حياته السياسية والعسكرية"، فهو كان مترجماً وعلى صلة بحياة الأمير عبد القادر، وقد وضع كتبه متأثّرا بتدخل الأمير في أحداث الشام 1860م، ونشره في باريس عام 1863م. وكذلك شارل هنري تشرشل في كتابه "حياة الأمير عبد القادر" الذي يعتبر كعمل جامع لعدة جوانب إيجابية، هو الآخر بنى على المخطوط المذكور مخططاته لترجمة سيرة الأمير، إضافة إلى "محمد باشا" ابن الأمير عبد القادر صاحب كتاب "تحفة الزائر" الذي يعتبر أكثر إلتصاقا بهذه المعلومات، ولكنّه يبقى من أهمّ المصادر أيضا.

رغم كل ما سبق ذكره، فإنّ الكتاب "سيرة الأمير عبد القادر" يبقى من أهم المصادر التي تناولت حياته، كونها جمعت معلومات هامّة عن مسيرة حياته، وبيئته وعائلته، وتعليمه ومعاركه، ورفقاء دربه، وعن معاناتهم في سجون فرنسا، وعن الخديعة الكبرى التي تعرّض لها، وغيرها من المعلومات التي وردت في المخطوطة، والتي جعلها الباحثون مصدر أبحاثهم في "سيرة عبد القادر"، فكلّ جملة تاريخية في هذه السّيرة لها قيمتها التاريخية، لأنها خطّت بيده مع مصطفى ابن التهامي، اللّذان يعتبران شاهد عيان عاشا الأحداث وصنعاها بأيديهما، وأعطوها تفسيرها من داخل الواقع الذي عايشاه.

كما أنّ هذا الكتاب على ما هو عليه يمثّل في الحقيقه عملين منفصلين:

--- النسخة الأصلية موجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية.راجع: - مصطفى ابن التهامي، حياة الأمير عبد القادر، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم:2592.

1- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص7.

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص180.

2- مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر،المصدر السابق، ص9،10.

3- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص7.

العمل الأول: يمثّل معلومات ذاتية وعائلية، وتاريخية لحياة الأمير عبد القادر.

العمل الثاني: يمثّل معلومات عامّة في تاريخ الإسلام، والأنبياء والعرب والمسلمين والبيزنطيين، وأخلاق هؤلاء وأولئك.[1]

إنّ محتوى المخطوط بالرّغم من أسلوب كتابته ولغته البسيطة والمتواضعة، وإشتماله على عبارات محلية "الدارجة" وأخرى دخيلة غير مفهومة، إلاّ أنّها تعبّر عن الصدق والأمانة وبساطة التعبير، إضافة إلى أنّه يدلّ على سعة إطلاع مؤلفه، وغزارة علومه ومعارفه، خاصة ما يتعلق بعلم الأنساب، والثقافة الفقهية، والأدبية، والفلسفية، كما أنّ إستشهاده بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، يدلّ على تمسّكه بتعاليم الشريعة الإسلامية، والعمل بها وإثبات الرسالة المحمدية، وإستشهاده بالمصادر خاصة الفقهية تدل على عمق ثقافته ومتانتها خاصة في ميدان السّير والأنساب والفقه والحديث.

إنّ مضمون الرسالة، وإن كان يدور حول شخصية الأمير عبد القادر ونسبه، وإنتمائه الشريف إلى أهل البيت، وذكره لمجريات الأحداث التي دارت بينه وبين الجيوش الفرنسية ،إلاّ أنّه كان موجّها منذ البداية إلى الدّفاع عن أفكار خلفية يمكن إرجاعها إلى ثلاثة قضايا جوهرية:[2]

الأولى: إثبات صحّة الرسالة المحمّدية، وبيان إحتوائها على جميع الرسائل السّماوية بما في ذلك المسيحية، وبالتالي رسم آفاقاً واسعة لإمكانية التفاهم بين المسلمين والمسيحيين.

الثانية: الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية، وإبراز أصالتها واجتماعها مع حضارة الروم في إبراهيم،[3] وذكره ما كان بين العرب والنصارى من مخالطة جديرة بأن تبعث اليوم علاقات جديدة للتعاون بين الحضارتين.

الثالثة: عدالة قضيته المتمثلة في المطالبة بتنفيذ الإتفاقية التي أبرمها مع ابن ملك فرنسا لنقله إلى المشرق.

على الرّغم ممّا وقع في مخطوط هذه السّيرة من تصحيف وتحريف وأخطاء مختلفة، وما جلب إليه من عبارات عامّية وتعابير محلية، مراد بها مخاطبة السائل بما يفهمه من الكلام،[4] فإنّها تظل سواءا من حيث المعاني، أو من حيث اللّغة والأسلوب، عملاً فنّياً متميّزاً جديراً بأن يحتلّ مكانته ضمن الأعمال الأدبية لتلك الفترة في بلدنا.

1- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص9.

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص182.

2- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص25.

3- المصدر نفسه، ص284.

4- جاء في مذكرات الأمير في مقدمة محمد الصغير بناني، أنّ نقل هذا المخطوط تداول عليه ما يقل عن ثمانية ناسخين، وأنّها كتبت بالخط الأسود ماعدا بعض الكلمات التي جاءت في الفصل السادس، فكتبت باللّون الأحمر، وفي اعتقاده أنّ الخطوط المتعلقة بالأمير نفسه ،كانت في الصفحات من صفحه 100 إلى غاية صفحة 116، ومن آخر صفحة 141 إلى آخر صفحة 172، وفي اعتقاده أيضاً أنّه ما عدا الأجزاء التي نقلها الأمير بنفسه، فإنّه على ما يبدو أنّ بقية الأجزاء نقلها بعض المتمرسين من أصحابه، فجاءت مشوهة بالأخطاء، وشاع فيها التحريف والسهو، ويضيف أنّ نوعية بعض الأخطاء=

وها هو قد أدّى واجب القلم بعد واجب السّيف اتجاه العربية، بإيصال سلسلة الأدب إلى غايتها الأخيرة في حلقة تحمل الإرهاصات الأولى لآدابنا الحديثة، وتطمح إلى الجمع بين ثورة القول والتنظير مع ثورة العمل والتطبيق.

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

يعتبر مؤلّف "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، من بين أهم مؤلفات الأمير عبد القادر شهرة، لايكاد يختلف المؤرخون والدارسون لحياته، وسيرته في نسبته إليه، أمّا عن الفتره التي ألّف فيها الكتاب، فهناك اختلاف في الآراء حوله، بحيث تذكر بعض المؤلفات أنّه ألّفها في "أمبواز Amboise"،[1] وهناك من يرجع تأليفها إلى بروسة التركية عام 1852م – 1855م،[2] ولكن الإنتهاء من الكتابة مذكورة في نهاية الكتابة، ما قوله: "...إنتهى ما أردناه من هذه العجالة وكان الفراغ من تسويدها في يوم الإثنين 14 من رمضان سنة 1271هـ، والحمد لله أوّلاً وأخيراً وظاهراً وباطناً"،[3] ولكن الكتاب طبع من دون ذكر تاريخ تأليفه.

ولكننا نعود إلى ما ذكره هو بنفسه، عن الفترة التي تزامنت مع تأليفه لهذا الكتاب، حيث قال: "الحمد لله رب العالمين، ورضي الله تعالى عن العالمين، أمّا بعد :فأنّه بلغني أنّ علماء بريز، وفقهم العليم الحكيم العزيز، كتبوا إسمي في دفتر العلماء، ونضّموني في سلك العظماء، فاهتززت لذلك فرحاً...ثم أشار عليّ بعض المحبّين منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم، فكتبت هذه العجالة للتشبّه بالعلماء الأعلام، ورميت سهمي بين السهام، فتشبهوا إن لم تكونوا منهم، إنّ التشبه بالكرام رباح، وسميت هذه الرسالة "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" ورتبتها على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، وفي كل باب فصل وتنبيه، وخاتمة.[4]

لمّا إستقرَّ الأمير عبد القادر في بروسة عام 1852م، أبلغته الجمعية الآسيوية من باريس، أنّها قرّرت قبوله كعضو من أعضائها، وعالم من علمائها، فرأى الأمير أن يؤلّف كتاباً، ويبعث به إلى الجمعية، لتكون عضويته فيها

=تجعل القارئ لا يثبت أمام الشك في إمكانية الدس من أيادي أجنبية، إذا علمنا ما كانت تُقْدِمْ عليه المصالح الفرنسية من تزوير لتضليل الأمير، أو لتدليس الرأي العام، ويضيف أنّ أسباب التشويه في النقل ربما يعود إلى الظروف الصعبة والقاسية العصيبة التي مرّ بها الأمير ورفقاؤه أثناء إعتقالهم، والتي تبدو مسؤولة عن مثل هذه الاضطرابات، أمّا عن دوافع كتابة هذه السيرة فوضعت إستجابة لبعض أساقفة النصارى الذين كانوا يريدون الإطلاع على ما جرى بيننا وبينهم من مكافحات وصدمات. للمزيد ينظر: – الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص19.

1– من بين الذين يرجعون تأليفه إلى أمبواز: الواسيني الأعرج، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص539.

2– أما الذين يرجعون تأليفه إلى بروسه: – الأمير عبد القادر الجزائري، رسالة إلى الفرنسيين، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تح: عمار الطالبي، منشورات ANGP، د.ط، الجزائر، 2005، ص7.

– عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، المرجع السابق، ص195.

– فتحي دردار، الأمير عبد القادر بطل المقاومة الجزائرية 1832-1847، الجزائر، 2001، ص113.

3– الأمير عبد القادر الجزائري الحسني، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، د.ط، د.س، ص132.

4– الأمير عبد القادر الجزائري الحسني، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، المصدر السابق، ص3.

– الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تح: ممدوح حقي، دار اليقضة العربية، د.ط، بيروت، لبنان، 1966، ص15.

قائمة من مساهمة فعليّة في المجال الفكري، وأرسل إليها كتاباً عنوانه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، وقد طبع بدون تاريخ.

بعد أن أرسل مخطوطه إلى رئيس المجمّع العلمي الآسيوي " président de la Société asiatique" السيد "رينو Reinaud"،[1] كتب عن الأمير عبد القادر تقريراً، أدرج ضمن مخطوطات المكتبة الوطنية الملكية في 9 جويلية 1855م، "un rapport inséré dans le Moniteur du 9 juillet 1855". لجعله في متناول الجمهور، هنا إطلع المترجم "غوستاف دوغا Gustave Dugat" على المخطوطة في المكتبة الملكية الفرنسية، ووقف على أهمية العمل من خلال التقرير الذي سجله "رينو Reinaud"، وقد حفزته شهرة الباحث، ومكانته العلمية على القراءة الواعية والمركّزة لكتاب الأمير عبد القادر، ولعلّ ذلك هو السبب الذي دفعه إلى التفكير في وضع ترجمة،[2] إضافه إلى ترجمة رونيه خوام عام 1977م.

قسّم الأمير عبد القادر كتابه هذا إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، وفي كل باب فصل، وتنبيه، وخاتمة.

أماّ المقدمة، فتحدّث فيها عن الحثّ على النظر وذمّ التّقليد، فقد عمل على منهجية البحث عن الحقيقة، فهو ينطلق من فكرة أنّ الحقيقة ليست وقفاً على جماعة معيّنة أو فرد محدّد، إنّما هي ثمرة جهد البشر بمعزل عن إعتقادهم وانتمائهم، فالعالم حسبه لا يهمّه ما إذا كان الحق صادراً عمّن حَسُنَ الإعتقاد بهم أم لا، ذلك أن الحق يعرف بالدليل لا بالتقليد، وفي ضوء هذه الفكرة يقسّم عبد القادر الناس إلى قسمين:

- ✓ قسم عالم مسعد لنفسه، ومسعد لغيره، وهو الذي عرف الحق بالدّليل لا بالتقليد، ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدّليل لا بأن يقلدوه.
- ✓ قسم مهلك لنفسه، ومهلك لغيره، وهو الذي قلّد أباءه وأجداده، فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله، ودعا الناس لتقليده، والأعمى لا يصلح أن يقود العميان.[3]

1- هو رئيس المجمع العلمي الآسيوي، عضو المعهد، وباحث محنك، كتب عن الأمير تقريرا أدرجه ضمن مخطوطات المكتبة الملكية، للمزيد من التفاصيل ينظر:

- L'Emir Abdelkader, le livre d'Abdelkader, traduites par Gustave Dugat, EDIT, Bouslama Tunis, S.D, p X.

2- L'Emir Abdelkader, le livre d'Abdelkader, op-cit, PX.

- جاء في مقدمة الكتاب "ذكرى العاقل" تحقيق عمار الطالبي ،أن "غوستاف دوغا" ترجمها إلى الفرنسية سنة 1858م، وهو قنصل فرنسا بدمشق في ذلك العهد، ثم ترجمها "رونيه خوام René Khowam" سنة 1977م، وعنونها بعنوان آخر وهو رسالة إلى الفرنسيين une lettre en français ويضيف أن النسخة التي أرسلها الأمير إلى الجمعية الآسيوية بباريس مازالت محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2345، وأظيفت إليها ترجمة "دوغا غوستاف" ورمزها "ج"، وهي مكتوبة بخط أحد المغاربة بإشراف الأمير عبد القادر وعنايته، مؤرخة بسنة 1855م ومكتوبة على ورق بها 38 ورقة، في كل صفحة 21 سطراً، وحجمها (17*14.5 سم). ينظر:

- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تح: عمار الطالبي، المصدر السابق، صص7-9.

3- المصدر نفسه، ص13.

إنّ الأمير كان يسعى من أجل إرساخ فكرة النزعة العقلية في مواجهة عصره، وإدراك الحقائق على ما هي عليه، فهو الذي قال: "...أن أقوال العلماء والمتديّنين متضادّة متخالفة في الأكثر، وإختيار واحد منها، وأتباعه بلا دليل باطل، لأنّه ترجيح بلا مرجح، فيكون معارض بمثله، فكل إنسان من حيث هو إنسان فهو مستعد لإدراك الحقائق على ما هي عليه..."، فالأساس إذن عنده في امتلاك الحق هو العقل، الذي لا يرضى بأي مظهر من مظاهره إلاّ بالدليل العقلي، فمعيار الحقيقة حسبه هو العقل. أمّا عن الجهل فيقول: "...القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها صور المعلومات كلها، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة...".[1]

هنا أبرز الأمير عبد القادر أسباباً خمسة لنشأة الجهل، نوردها كالآتي:

- ✓ نقصان في ذات القلب كقلب الصبي، فإنه لا تنجلي له المعلومات لنقصانه، ويقصد هنا "القلب" كدلالة عقلية من حيث هو مكان المعرفة.
- ✓ كدورات الأشغال الدنياوية، والخبث الذي يتراكم على وجه القلب منها، أي أن الإقبال عن طلب كشف حقائق الأشياء هو الذي يجلو القلب ويصقّيه.
- ✓ العدول بالقلب عن جهة الحقيقة المطلوبة.
- ✓ الحجاب ،أي أن يكون العقل محجوباً بإعتقاد مسبق، نشأ وقت الصبا، أو عن طريق التقليد، فهذا الحجاب يحول بين القلب والوصول إلى الحقيقة، فحسبه هو حجاب عظيم حجب أكثر الخلق على الوصول إلى الحقيقة، كونهم محجوبون بإعتقادات تقليدية، رسخت في نفوسهم، وجمّدت عليها قلوبهم.
- ✓ الجهل بالجهة التي يقع فيها العثور على المطلوب.

هذه هي الأسباب الخمسة التي تمنع العقل من معرفة الحقائق، حسب صاحب "ذكرى العاقل ".

أمّا الباب الأول فهو يتضمن الحديث عن العلم وفضله، والعقل وميزته عن الحواس، وانقسام العلوم المحمودة والمذمومة.[2]

وفيه بيّن مكانة العلم، وفضل العلماء العاقلين على غيرهم، وقسّم هذا العلم إلى محمود ومذموم.

وفيه يقول مبيّنا فضل العلم: "...وإنّما شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم، وبها كماله، إذ كمال كل شيء إنما يكون بظهور خاصيته التي إمتاز بها عن غيره، ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية التي امتاز بها الفرس، وهي الحقيقة الفرسية،... وخاصية الإنسان هي معرفة حقائق الأشياء على الوجه الذي هي عليه، بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك، ويبقين حقائقها منكشفة له، وبكمال هذه الخاصية ونقصانها يفضل بعض أفراد الإنسان بعضا إلى أن يعد واحد بألف، كما ورد في هذا الشعر:

1- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تح: عمار الطالبي، المصدر السابق، ص14.

2- عبد الحميد حاجيات، الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، المرجع السابق، ص88.

ولم أرى أمثال الرجال تفاوتت إلى المجد حتى عد ألف بواحد

والناس ألف منهم كواحـــــد وواحد كالألف إن هو أمــر.[1]

واضح أن العقل عنده، هو جملة من الخواص التي يتمتع بها الإنسان والتي فضله الله بها عن سائر خلقه، ولا شيء حسبه أقبح من الإنسان، مع ما فضّله الله به من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم، أن يهمل نفسه ويعرّيها من هذه الفضيلة.

ولم أرى في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على الكمال[2]

كما يضيف قائلاً عن الفضائل التي ينبغي أن توفرها لدى الإنسان الكامل فقال: "...قوة العقل هي إحدى القوى الأربعة، التي إذا اعتدلت في الإنسان يكون إنساناً كاملاً، و هي قوة العقل، وقوة الشجاعة، وقوة العفّة، وقوة العدل... فمن اعتدال هذه القوى الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلّها، فأمّهات الفضائل هي هذه الأربعة: العلم، الشجاعة، والعفّة، والعدل، فمن جمع هذه الأربعة على الكمال، إستحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلّهم إليه ويقتدون به..."[3]

لقد اعتبر الأمير العقل منبع العلم وأساسه ومطلعه، فقوة العقل هي إجتماع القوى الأربعة التي إذا اعتدلت في الإنسان يصبح إنساناً كاملاً، وهي قوة العقل، والشجاعة، والعفّة، والعدل.

كما تحدّث أيضا عن موضوع طرق إدراك الحقائق، مقارنا بين الحسّ والعقل، كما ركّز على التفريق بين العقل النظري والعقل العلمي، الذي من خلاله إستخرجنا موقفه ورأيه في مجال النهضة الصناعية الأوروبية في عصره، وتأثره بها.

ومن هنا يكون قد أبرز أهمية العقل كوسيلة مثلى في الوصول إلى الحقيقة.

أمّا الباب الثاني: فإنه يهدف إلى إثبات العلم الشرعي، ويدور خاصة حول إثبات النبوة، وحاجة الناس إلى العلوم الدينية، فيما يصلحه في حياته الروحية، ومعاملته للناس وغير ذلك.

كما أنه يثبت أن العلوم العقلية لا تنفصل عن العلوم الشرعية، فقد شبّه العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، وأنه من اكتفى بالعلوم العقلية تضرّر بها، كما يتضرّر المريض بالغذاء، ويضيف قائلا: "...وإيّاكم أن تظنّوا أنّ العلوم الشّرعية مناقضة ومنافرة للعلوم العقلية، بل كل شيء جاء عن الأنبياء مما شرّعوه للناس، لا يخالف العقول السليمة...".[4]

1- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل، المصدر السابق، صص13،14.
2- المصدر نفسه، ص13.
3- المصدر نفسه، ص32.
4- المصدر نفسه، ص54.

كما يحاول إثبات النبوة، وإحتياج كافة العقلاء والإنسان إلى العلوم الشرعية والدينية ،والتي لا تتحقق إلاّ عن طريق الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة و السلام، فعقل الإنسان مهما بلغ من درجة الكمال والقدرة على الإستطاعة، فإنّ له حدوداً لا يستطيع تجاوزها ولا حتى الوصول إليها، فثمّة علوم لا يصل إليها، ولا يهتدي إلى الإطلاع عليها إلاّ بتصديق الأنبياء واتباعهم، والإنقياد لهم، بمعنى أن علوم الأنبياء زائدة عن علوم العقل، لذلك يحرص على الدعوة إلى الإيمان والتصديق بما جاء به هؤلاء الرسل من أحكام وشرائع وعلوم، قد لا تدركها العقول والحواس عن طريق العلم العقلي.[1]

وعن هذا فيقول: "...إعلموا وفّقكم الله، أنّ النّبوة هي عبارة عن طور تنفتح فيه عين أخرى، زائدة على طور العقل، ونظره، ينظر بها النبي ما يكون في المستقبل من أمور، العقل معزول عن إدراكها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل الحواس عن مدركات التمييز..."[2]

فحسبه هناك طور آخر وراء العقل، وأمور أخرى العقل معزول عنها، ولا يصل إليها بنفسه بل بغيره، ومن هنا ميّز بين مرتبتين أو درجتين من العلوم، اللذين لابد منهما للإنسان، حتى يستطيع أن يحقق غايته، وتوازنه النفسي والروحي والإجتماعي، ولن يحصل الكمال إلاّ بهما، فالعلوم التي تحل في العقل تنقسم إلى قسمين:

علوم عقلية: نعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع.

علوم شرعية: مأخوذة من الأنبياء، وذلك يحصل بالتعلّم لكتب الله المنزلة، كالتوراة والإنجيل والزابور والفرقان، وفهم معانيها بعد السماع، وهكذا يكمل العقل ويسلم من الأمراض.[3]

وفتح هذا الباب بقوله: "...إنّ المكذّب للأنبياء، المستغني بعقله عمّا جاؤوا به من الأعمال والعبادات، مغرور، وكل ما جاء في فضل العلم و ذم الجهل، فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء على خلاف ماهو عليه، فمهما كان الإنسان يعتقد شيئا يوافق هواه وكان السبب الموجب لاعتقاده دليلاً فاسراً فهو مغرور..."[4]

يؤكد الأمير على ضرورة إثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية، وقد تحدث عن قصور المكذّبين للأنبياء، فقد برهن على أنّ سيّدنا محمد عليه الصلاة و السّلام هو خاتم الأنبياء.

1- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، صص198،199.

2- الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل، المصدر السابق، ص61.

3- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، ص199.

4- الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل، المصدر السابق، ص79.بتصرف

أمّا الباب الثالث والأخير، فقد أشاد فيه بفضل الكتابة، والتي اعتبرها عنصراً مهما في حياة الأمم، فكما قالها "الواسيني لعرج" فهي أشرف وأنفع من الإشارة واللفظ، إذ لولا الكتابة لما استقام للناس دين ولا دنيا.[1]

كما تحدث في هذا الباب ايضا عن أنواع الكتابات عبر العصور، ومنزلة الكتابة العربية منها، وينتهي هذا الباب بخاتمة ينتصر فيها للتجديد والإبداع.

كما عرض في هذا الباب إلى قضايا هامة وأساسية سبق بها عصره، متحدّثا عن التّصانيف والتآليف وأنواعها، حاثّا الإنسان على الإبتكار والإجتهاد، وعدم الإكتفاء بما خلّفه السابقون، والنّظر إليه على أنه الكمال والمثال والنموذج، لأن نتاج الأفكار لا تقف عن حدٍّ، وتصرفات العقول لا حدود لها.

فالأمير هنا ينتصر للإبتكار والتجديد، شرط أن يكون مرتكزاً على قواعد علمية، يستطيع المؤلف من خلاله تصنيفه أن يبلغ كل ما يريده للمتلقّي بلغة وأسلوب ومنهجية تتوافق مع عصره ومجتمعه، ومدركاته واستعداداته، وينبغي أن يكون التصنيف مسوقا حسب إدراك أهل الزمن، وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم.[2]

ثم إنتهى بحديثه بعرض موجز حول نشأة حركة تدوين العلوم في الإسلام، وحركة ترجمة كتب الحضارات القديمة في الدور الأوّل من الخلافة العباسية.

وأخيراً، تعالج خاتمة الكتاب موضوع إنقسام الناس بحسب العلوم، والمعارف، وإختلاف المذاهب، مستعرضا أمم العالم المشهورة بدورها الحضاري، والفكري، مبيّنا التمايز والتباين وإختصاص كل أمّة بميزة تنفرد بها عن غيرها، كالهنود، والفرس، واليونان، والروم، والفرنج، والعرب، والعبرانيين، وتنتهي الخاتمة بنظرية مفادها أن تفاوت الناس في العقول والأخلاق والمعارف راجع إلى اختلاف في تأثرها بحركة الكرة الأرضية حول الشمس.

وخلاصة القول: أثبت الأمير عبد القادر في هذا الكتاب لعلماء أوربا بأنه لا يقل عنهم علماً، ومعرفة، وأنه رجل سبق عصره بهذه الأفكار الموسوعية، التي آلف فيها بين موروثه الذي يعتز به، وبين علوم عصره، التي يلم بها، والتي يدعي أولئك أنهم السباقون إليها.

هذا ينبّئنا عن سعة ثقافته ، وكثرة مطالعته لكتب غيره، وأنّه كان يستعين بما عند غيره ليواصل مسيرته الفكرية إلى أن يتم صوغ نظريته، التي ينشد التعبير عنها، ضف إلى ذلك موقفه من الحضارة الغربية المعاصرة له، ومدى تأثره بما امتازت به هذه الأخيرة من إختراعات وإزدهار صناعي وعلمي.

1- الواسيني الأعرج، مسالك أبواب الحديد، المرجع السابق، ص475.

2- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، ص201.

فالأمير لم يحد عن أصالة الثقافة العربية الإسلامية، وإنما حاول الخروج من التّزمت والتقوقع، والإقدام على التّفتح على ما طرأ من تقدم في الحضارة الإنسانية، بغية الإلتحاق بركب الدول المتقدمة، وبذلك يكون قد فتح باب الإجتهاد في عصره ذكرى للعاقلين وتنبيه للغافلين.

المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام بالباطل والإلحاد:

رسالة المقراض الحاد هي عبارة عن مخطوطة من تأليف الأمير عبد القادر، وهي الآن مطبوعة، ألّفها عندما كان محتجزاً بقلعة "أمبواز Amboise" بفرنسا، بتاريخ 1852م، وقد ترجم إلى الفرنسية في مدينة باريس من نفس العام،[1] وسبب التأليف يعود إلى أنّ بعض الحكام الأوربيين، أو بعض الضباط الأمراء، إنتقصوا من دين الإسلام أمامه، فأسرع لوضع هذا الكتاب من حفظه، يردّ فيه على ذلك المتنقّص، وقد قام فيه بحشد كبير للأحاديث النبوية مع ذكر رواتها، وقدر كبير من فتاوى العلماء، وأقوالهم مع ذكر كتبهم التي أوردوا فيها تلك الفتاوى، فهو يعرفّهم بما ينص عليه الدّين الإسلامي من وفاء للعهود والعدل والمساواة، معتمداً فيها على أسس ومبادئ القرآن الكريم، والجيّد في الأمر أنّه جعل الفرنسيين يهتمون به ويقرؤونه ويترجمونه، فهو يناقض أفكارهم، وإعتقاداتهم عن الإسلام، وعن كيفية الوفاء بالعهود لا الغدر والخديعة، التي تعرض لها ورفاقه أثناء توقيع معاهدة وقف القتال.

يعد هذا الكتاب "المقراض الحاد" من كتب التراث العربي الإسلامي النادرة، فقد تحدث فيه الأمير عن الإيمان والكفر والنفاق، وعن الحياة والموت، والجهل والغرور، وضرب في ذلك أروع الأمثلة كما استهله بالحديث عن العقل، وما يتعلق به، بإعتباره منبع العلم والمعرفة، ووسيلة لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، إضافة إلى ذلك فإن هذا الكتاب جامع بين الدين والعلم والفلسفة، يناقش ويحلل ويأتي بالبراهين اليقينة من الكتاب والسنة، ومن كلام التابعين والخلفاء الراشدين، كما جاء على لسانه في شرحه لمحتويات هذا الكتاب في مقدمته ما نصها: "...عندما طلب منّي شرح معتقداتي الإسلامية أجبتهم بأنّني لا أصلح تلميذاً لعلماء المسلمين، فضلا أن أكون من جملتهم، ولكنني سأبذل الجهد، وأذكر كلام الله، وأحاديث رسوله، وكلام التابعين، والخلفاء الراشدين، لأنها أمور مرتّب بعضها على بعض، وسأجعل لها مقدمة وثلاث أبواب، تشتمل المقدمة للكلام عن العقل وما يتعلق به، والباب الأوّل في إثبات الألوهية، وفيه ثلاثة فصول، الفصل الأوّل: النظر في خلق السماوات، والثاني: في خلق الأرض، والفصل الثالث: في خلق الإنسان، أمّا الباب الثاني فيشتمل على إثبات النبوة، وفيه فصلان، الأوّل: حاجة الإنسان إلى الرسل، والثاني: تاريخ الرسل عليهم السلام، والباب الثالث خصّصه للحديث عن الأخلاق الإسلامية منذ عهد آدم عليه السلام من رحمة، وعدل، وحياء، وعفّة، وتجنّب إثارة الفتن، ووجوب الشّكر لله على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، والتقيّد بمكارم الأخلاق، التي تمت بنزول القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،

1- تذكر دار الحياة للطباعة والنشر في بيروت، ومحرر الدار هو محمد بن عبد الله الخالدي المغربي، بأنها عثرت على المخطوط المذكور، وطبعته عام 1966م تحت رقم 9914، وأن عدد صفحاته 240 صفحة، من الحجم الصغير. للمزيد ينظر:

- بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر، حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص76.

الرسول والنبي الذي جعله الله تعالى متمّما لمكارم الأخلاق، وجعله رحمة أهداها تعالى للعالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين".[1]

إنّ هذا الكتاب يشتمل على مقدمة وثلاثة أبواب، أدرج تحت كل باب مجموعة من العناوين، سعى من خلالها إلى نهج طريقة تبسّط للقارئ فهم مضمون حديثه، والكتاب يقع في أربع وخمسين ومائتي (254) صفحة من الحجم المتوسط (24*7)، وقد حرّره "محمد بن عبد الله الخالدي" المغربي، ونشرته دار مكتبة الحياة في بيروت دون تاريخ.[2]

هذا الكتيّب أشبه برسالة تصدّى فيها الأمير على إدّعاءات الفرنسيين، الذين انتقصوا من دين الإسلام، واعتبروا أن الخديعة والغدر من سمات الإسلام نفسه، بالبيان والدلائل القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة ليثبت بأنّ الإسلام يوجب الوفاء، ويأمر بترك الغدر والنهي عنه، وهو ما ركّز عليه في الباب الثالث، فقد تحدث فيه عن بيان شرع الإسلام، من الوفاء والغدر، وما يلحق ذلك من الصدق والكذب، حيث راح يبرز مآثر الإسلام دين الخلق الفاضل، والشّيم السامية، وأنّ الرسول عليه الصّلاة والسّلام نفسه ما بعث إلاّ متمّما لمكارم الأخلاق،[3] فيذكر أنّ الإسلام:

- ✓ دين صدق ووفاء، وإحسان، وإيثار، واقتصاد في الأمور.
- ✓ إشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس، و الإنصاف من نفسك.
- ✓ إنفاق المال لصيانة العرض.
- ✓ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ✓ إصلاح ذات اليمين، وإماطة الأذى عن الناس.
- ✓ إفشاء السلام، وإكرام الجار، والتواضع، والتعاون على الخير، والصبر.

ويضيف في رسالته أنّه لو تحلّى الناس بهذه الخصال، لما ظهر الفساد في البر والبحر، ولتحقق السّلام والعدل والمحبة في هذا العالم المتصارع.

ويحاول عبد القادر أن يرجع أمهات محاسن الأخلاق إلى أربعة أصول أو مصادر وهي: "الحكمة، الشجاعة، العفّة، العدل، والباقي فروعها..."، ويضيف قائلا: "...فكل من جمع هذه الأخلاق إستحق أن يكون قدوة حسنة، يرجع الخلق كلّهم إليه، ومن إنفكّ عن جملة هذه الأخلاق كلها، واتّصف بأضدادها إستحق غضب الله، لأنّه قد قرب من الشيطان اللعين، ولم يبلغ هذه الدرجة من الكمال إلاّ الأنبياء، والرسل عليهم السلام، وآخرهم خاتم الأنبياء

1- بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص75.

2- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، ص204.

3- المرجع نفسه، صص210،211.

والمرسلين، سيدنا محمد عليه أفضل الصّلوات والتسليم، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ﴾.[1]

وقد ضرب لذلك كثيراً من الأمثال والقصص من تاريخنا العربي الإسلامي المجيد، التي تشهد على ما كان يتحلّى به السّلف الصالح، من أخلاق سجّلها التاريخ لهم، وضمنت لهم الشهرة والذيوع.

كما تحدّث في المطلب الثاني عن الجهاد في الإسلام ووضح أنّه ليس هدفه السيطرة والقتل، حيث يذكر أنّه ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد وتخريب البلاد، أو الرغبة في الأموال، وإنّما المقصود به دفع الضّرر والظلم عن الأمم، ورفع كلمة الإسلام، وأنه إذا أطاع العدو بدفع جزية، فإنه يحرّم قتاله، لأنّه تحقق عدم الضرر منه حينئذٍ،[2] إقتداءا بقوله تعالى:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.[3]

إذن فمعنى الجهاد لا يتوقف عند حمل السّلاح والمواجهة في قضية عادلة فحسب بل كذلك له فلسفته وأبعاده ومعانيه، كباقي العبادات الأخرى، كونه يحتل مكانة هامّة في النظام الكلي للإسلام، فإذا نزع الجهاد منه اختل وضعف وأصبح معرّضا للإنهيار، وعليه فإذا ذهب المسلمون للجهاد، فبهدف إقامة نظام إسلامي متكامل على هذه الأرض يكون مقروناً بعبارة "في سبيل الله"،[4] فالجهاد يتطلب إخلاصاً عميقاً ومتواصلاً لله سبحانه وتعالى، ثم يواصل الحديث عن الوفاء بالعهود والعقود، إستناداً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.[5]

فشرع الإسلام يأمر بالمحافظة على الوفاء بالعهد، وصدق الوعد، وفيه أحكام شديدة في ذلك.

وعليه فإن موضوعات هذا الكتاب من خلال مقدمتها نجد أنها تتحدث عن العقل وتفاوت الإدراك، وترابط أعمال المخلوقات، هذا فيما يخص المقدمة، بل حتى أنّه في مقدمته هذه حدّد الوسيلة التي تمكّن الإنسان من إدراك حقائق الكون، والإهتداء إلى خالقه باستخدام العقل الذي يعتبر أشرف الخواص، التي ميز بها الإنسان عن الحيوان، وأنّه منبع العلم ومطلعه وأساسه، وهذا ما ذكره أيضا في "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" فهنا الأمير يقدّس ملكة العقل.

ثم تحدث في الباب الأوّل عن إثبات الألوهية، وبيان الطريق إلى معرفة الله تعالى، مستدلًا بأحكام والدلائل والبراهين، التي توصل الإنسان العاقل إلى اليقين، إضافة إلى النّظر والتفكير في خلق الله إلانسان، وإثبات رسالة دين الإسلام.

1- بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص125.

2- المرجع نفسه، ص127.

3- سورة البقرة، الآية 190.

4- حامد الجار، الجهاد أبعاده الروحية والسياسية، المرجع السابق، صص2،3.

5- سورة المائدة، الآية 01.

لينتقل إلى الباب الثاني، والذي تحدّث فيه عن النبوة والرسالة، واختص فيها بإثبات الرسالة على العموم التي لن يهتدي إليها إلاّ عن طريق العقل كسبيل الإيمان والإقرار، وركيزته في ذلك العلم، فالعقل لا يهتدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة إلاّ بواسطة الرسل، فحاجة الخلق إلى الرسل كحاجتهم للأطباء حين المرض.[1]

كما تناول رسالة الإسلام، وصاحبها محمد عليه الصلاة والسلام، مستعرضاً سيرته، وصفاته، وعلامات رسالته، باعتباره خاتم الأنبياء والرسل.[2]

يعطينا هذا الكتاب فكرة عن المجهود الذي بذله الأمير عبد القادر في تأليف هذا الكتاب، مستنداً في ذلك على الأدلة الصادقة المستوحاة من القرآن الكريم، ومعتمداً على أسلوب راقٍ وبسيط في نفس الوقت، بالرّغم من مروره بتجربة الغدر والخيانة، ومعاناته من عدم الوفاء التي نبّه إليه في كتاباته، مدة خمس سنوات من إعتقاله في سجون فرنسا، إلا أن هدفه وغرضه واضح في هذه الرسالة، فهو يدافع عن الإسلام الذي شوهه الفرنسيون، الذين اعتبروا الخديعة والغدر من سماته، فوضع هذا الكتاب، ليردّ عليهم ويعرّفهم بما ينص عليه الدين الإسلامي، من عدل، ومساواة، ووفاء للعهود.

من خلال هذا يتجلى أن فكره ومعتقده واضح المعالم، صادق وصريح، نابع من جذور ثقافته، وتربيته وتعليمه، وإيمانه، وتمسّكه بالقرآن الكريم، وبالعبادات وأوامر الشريعة الإسلامية.

المواقف:

يجمع باحثوا ودارسوا حياة الأمير عبد القادر وآثاره، على أنّ كتاب "المواقف" هو أهم مصنف ألّفه، سواء من ناحية الحجم أو الموضوعات التي يبحثها، فهو ثمرة نشاطه التعليمي، وزبدة تجاربه، حيث يبيّن فيه بوضوح مذهبه الروحي، والصوفي، والفلسفي، للوصول إلى الحقيقة التي ينشدها، كما أقدم فيه أيضا على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي، وبثّ فيه أراءه الإصلاحية.[3]

ويذكر أبو القاسم سعد الله أنّ هذا الكتاب من أشهر مؤلفات الأمير، والذي يقع في ثلاث مجلدات، وكان الأمير عبد القادر قد استغرق في التّصوف منذ حجّه، وقد اختلى في غار حراء أثناء مجاورته، وفي دمشق كانت له خلوة يتعبّد فيها، وفي آخر سنواته إزداد تعمّقا في هذا الباب، وكان يطالع أمهات كتب التصوف، ومنها الفتوحات المكية وفصوص الحكم "لإبن العربي"، الذي يعدّه شيخه الأكبر.[4]

1- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، ص208.

2- لمعرفة المزيد حول ما جاء في الفصول، وما جاء فيها، ينظر: - الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تح: محمد بن عبد الله الخالدي المغربي، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ط1، 1970.

3- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، ص223.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، المرجع السابق، صص116،117.

ويضيف قائلا: "...يبدو أنّه قد تأثر به كثيرا في كتابه "المواقف"، إذ بناها على نظريات شيخه، حسب العارفين بهذا الفن...".[1]

أمّا عن الكتاب فهو يقع على ثلاث مجلدات، وتبلغ عدد صفحاته مجتمعة (1416) صفحة، تضم (372) موقفاً، وقد طبع مرتين كانت أولاها في عهد إبنه محمد أي سنة 1329هـ/1911م، وأعيد طبعه ثانية في عام 1362هـ/1966م، عن دار اليقضة العربية للتأليف والترجمة والنشر بدمشق، وهي طبعة منقحة، طبعت بعناية وإشراف حفيده الأمير محمد سعيد بن الأمير علي ابن الأمير عبد القادر.[2]

كما بوّبت ورتّبت بالإستناد إلى النسخة الأم الأصلية، المكتوبة بخط السّيد الأمير عبد القادر، وقد قوبلت على نسخة عالم الشام الكبير الشيخ "عبد الرزاق البيطار"، المحلاة هوامشها بتقييدات وملاحظات هامة بخط الأمير المؤلف، كما قام بمراجعتها والوقوف على أصلها، وتصحيحها لجنة من أكابر وأفاضل علماء دمشق.[3]

كما يذكر "عبد المجيد بن محمد الخاني" عن كتاب المواقف، في مؤلّفه الحدائق الوردية: "... إن أعظم أثار الأمير عبد القادر الدالة على جلالة مقداره كتاب "المواقف العرفانية" الجدير بأن يكتب بالنور على نحور الحور، وهو كتاب جليل من توفيقات توفيقاته الإلهية، وواردات مشاهداته الرّبانية، وتفسير الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية، وأجوبة الأسئلة الإخوانية، التي كانت ترد إليه من كل ذائق، في علم الحقائق...".[4]

ويضيف "عبد المجيد" نقلا عن كلام والده "محمد الخاني" الذي كان ملازماً للأمير عبد القادر مصرحاً "... الوالد الماجد، فإنه كثيرا ما كان يراجعه في بعض المسائل الخفية، ويسأله حل محال من الفصوص و الفتوحات المكية وغيرها، فلكثرة حبه للخير، وبذله مع وفرة موانعه وشغله، كان يقيّد له ما ظهر بالكشف ويوضحه ويرسل به إليه، فكان

من فرط حرصه عليه يلحقه في المواقف بإذنه، كما يشير إلى ذلك قوله في بعضها: سألني بعض الإخوان والتصريح

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، المرجع السابق، ص117.

2- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، ص223.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، المرجع السابق، ص117.

- يذكر محمد بلغراد في مقال له في مجلة التاريخ: أن الأمير عبد القادر ألّف كتابه الكبير "المواقف" بعد عام 1282هـ/1865م، ويضيف أن الأمير ذكر فيه عدة مرات خلوته في المدينة المنورة، وأنّه قضى السنوات الأخيرة من حياته في دمشق، ولم يغادرها إلاّ مرات قليلة إلى الإستانة وباريس ومصر، وأن المرحلة الأخيرة من حياته قضاها في بروسة ودمشق، كما يضيف أن كتاب "المواقف" ألّف خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته (من 1280هـ حتى 1300هـ)/(1863م حتى 1883م). للمزيد ينظر:

- محمد بلغراد، الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر، مجلة التاريخ، المرجع السابق، ص60.

3- عبد الرزاق بن السبع، الأمير وأدبه، المرجع السابق، صص223،224.

4- عبد المجيد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية، المصدر السابق، ص371.

بإسمه في مواقف شرم... وخطبة الفتوحات المكية وغيرها، فمازال يضم كل مسألة إلى أخداتها ويقرنها بأقرانها، حتى اجتمع من ذلك ثلاث مجلدات، وقد ذيل الوالد الماجد بعد وفاته الجزء الثالث بما وجده في كناشه بخطه...".[1]

كما نجد إبنه "محمد" في كتابه "تحفة الزائر" يؤكد في خاتمته أن كتاب المواقف هو من أهم مكتوبات والده فيقول عنه: "... برع في فنون علوم الشريعة والحقيقة، وله تآليف عديدة، وحسبك منها كتاب "المواقف في علم الحقيقة" وهو لعقد تأليفه واسطة النظام، ولمطلع مجده بيت القصيد وحسن الختام...".[2]

أما عن إختيار الأمير لهذا العنوان، فيذكر الدكتور "عبد الباقي مفتاح"، أنه كتبها ليدافع عن الشيخ الأكبر "محي الدين بن عربي"، لأنه في إعتقاده يمثل أعلى مناهل المعرفة الإحسانية في الإسلام، كما كرّس جهده الروحي في الشام لنشر المعارف الأكبرية، وعبّر في المواقف عن عميق إجلاله للشيخ الأكبر، فوصفه أنّه خاتم الورثة المحمديين.

لقد ألّف الأمير عبد القادر كتابه بدمشق، وكان تأليفه حصيلة لثقافته الصوفية،كما جاء إستجابة لطلب بعض جلسائه من العلماء، الذين إلتمسوا منه أن يدوّن لهم ما يلقيه في دروسه، وما يتكلم في مجالسه أمثال: "الشيخ محمد الخاني (1798-1862)م، والشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ عبد الرزاق البيطار (1837-1916)م، وغيرهم. والكتاب خلاصة اعتكاف وانكباب على مدى العقدين الأخيرين من حياته -بداية الستينات من القرن 19 حتى وفاته- على القراءة والتأمل لكتب "الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي" وكان جادّاً في هذه الفترة المقدرة بعشرين سنة في تأليف كتابه الضخم "المواقف"، ويعد أخلص تلامذة الشيخ الأكبر ،وأشهدهم تمسّكا وعملاً بمذهبه ونظرياته.[3]

والمواقف التي كتبها تختلف بإختلاف المسائل المطروحة، ويمكن القول أن الطابع الصوفي يغلب في معظم الأحيان على ما يثبته من شرح وتأويل وتعليق، ويمكن أن نلمس ذلك بالإطلاع على موقف يعالج موضوع الصّبر، في شرح قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾،[4] وقوله تعالى أيضا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5]

ومن الموضوعات الأخرى التي إهتم بها الأمير عبد القادر أيضا، موضوع الجهاد الذي عالجه عندما شرح الحديث النبوي الشريف: ﴿رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر﴾.[6] إضافة إلى موضوع التوكّل في الموقف 165، وغيرها من المواقف الكثيرة، إذ قسم كبير من المواقف عبارة عن تعليقات وشروح على أحاديث نبوية،

1- عبد المجيد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية، المصدر السابق، ص371.

2- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، المصدر السابق، ص376.

3- محمد بلغراد، الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر، مجلة التاريخ، المرجع السابق، ص69.

4- سورة النحل، الآية 127.

5- سورة الكهف، الآية 7.

- للمزيد من مواقفه حول الصبر. ينظر: - الأمير عبد القادر، المواقف، المصدر السابق، ص337، الموقف 189.

6- المصدر نفسه، ص132، الموقف 73.

وتفسيرات لأبيات في التصوف، وأجوبة عن أسئلة وشروح لبعض فصوص الحكم "لمحي الدين بن العربي"، وتوضيح "لرسالة الغيب" للعارف الشيخ "صدر الدين القونوي" ربيب الشيخ الأكبر بن العربي في الموقف 368.[1]

أما بقية المواقف وهي حوالي ثلاثة أرباعها ،فهي شروح وتعليقات على آيات من القرآن الكريم، وخلاصة القول أن هذه المواقف بما تحمل من تراث وأصالة ترنو إلى التجديد، تستحق لوحدها تفرغاً تامّاً واستعداداً كليا لفهمها على الصورة التي يجب أن تفهم بها، وهي بذلك تحتاج إلى ذوي الإختصاص خاصة فيما يخص التصوف.

التراث الشعري للأمير عبد القادر:

إن أهم ميزة لتكوين الأمير عبد القادر العلمي، هوتشبّعه بالجانب الديني، فقد نشأ في بيئة متصوفة، وكان التعليم الديني ينال أوفر نصيب عنده، كونه نشأ في إحدى زوايا الطريقة القادرية، وأبوه كان مقدّما لها، لذلك تظهر في شخصيته الجدّية والحماسة، ضف إلى ذلك طبيعته الفروسية وثقافته الإسلامية التي تعتبر من إحدى الدوافع التي جعلت منه شاعراً، بقدر ما أتاح له تكوينه الثقافي ومحيطه الفكري ذلك، فاستطاع أن يطابق بين موقفين (المجاهد والشاعر).[2]

لذا إستطاع "الأمير عبد القادر" بشعره أن يجمع بين الأصالة والتجديد، بما توفر لديه من ثروة لغوية هائلة مكّنته من إختيار اللفظ القوي للنهوض بالمعنى، فقد كان مجتمعه على موعد مع التجديد و الإنبعاث الجذري في كثير من جوانب حياته، لكن قوة المستعمر حالت دون تحقيق ذلك.[3]

لقد عالج الأمير في أشعاره وأبياته الحكيمة مختلف جوانب حياته، كما عاشها بحلوها ومرّها، ويظهر من خلال أشعاره تأثره العميق بكتاب الله عز وجل، لأن موهبته صقلتها لغة القرآن العربية الأصيلة.

تذكر الدكتورة نور سليمان: "... إن شعر الأمير أمير السيف والقلم، أكثر متانة وعذوبة من شعر معاصريه، وأنه من نوع السّهل الممتنع..."،[4] و يضيف الدكتور زكريا صيام: "...إن الحكمة في أشعار الأمير هي سرّ خلودها، لأنها من قبس القرآن الكريم، ومن لغة الضاد الواسعة، فظهرت لديه من خلالها فحولة الشعراء ورصانة الحكماء، وما أحوجنا إلى أن نغرس في نفوس الشيء الجديد من أبنائنا معاني العزة والشهامة، والإباء والأصالة والشجاعة، التي وردت في حكمه...".

1- محمد بلغراد، الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر، مجلة التاريخ، المرجع السابق، ص61.

2- صالح خرفي، في ذكرى الأمير عبد القادر، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1984، ص31.

3- زكريا صيام، الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد خاص، رقم 75، 1983، ص295.

- سليمان عشيراتي، الأمير عبد القادر الشاعر، مدخل إلى الخطاب الشعري في محطة المابعد، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2009، ص41.

4- بديعة الحسني، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص299.

للأمير عبد القادر ديوان شعر،[1] وهو أكبر أثاره الشعريه، متوسط الحجم متفاوت في الجودة، منبعث من إحساس صادق قوي، معبّر عن الواقع المعاش، مزج فيه كل الفنون الشعرية المعروفة في عهده، كالفخر والغزل، المدح والوصف... إلخ، فضمّنها شعوراً قوياً، وأعرب فيها عن أفكاره وعمّا كان يختلج في فؤاده من الأحاسيس.

فأول قصيدة دوّنت له، كانت في تمجيد شهداء معركة "خنق النطاح" فقال فيها:[2]

ألم ترى في خنق النطاح تطاحنا غداة إلتقينا كم شجاع لهم هوى

وكم هامة، ذاك النهار قددتها بحد حسامي وألقنا طعنه شـوى

وبعد هذه الملاحم البطولية دخل أيضا عالم الشعر وشحذت المعارك قريحته الشابة، وهنا اقتطع عدد من الأبيات أرسلها إلى زوجته أم البنين لالة خيرة بقوله:[3]

تسائلـني أم البنـين وإنّهـا لأعلم من تحت السـماء بأحـوالي

ألم تعلمي يا ربـة الخدر أنـني أجلّي هموم القوم في يـوم تجـوالي

وأبذل يوم الروع نفسا كريمة على أنها في المسلم أغلى من الغالي

لقد أراد الأمير من قصائده غرس معاني العزة، و الكرامة، و الإيمان، و الإباء، والأصالة، والشجاعة، وكل القيم الإسلامية في نفوس الأجيال، وقد تواصلت إبداعاته الشعرية طيلة مدة مقاومته للإحتلال، وكان لكل قصيدة من شعره مناسبة، ولم يتوقف عن كتابة الشعر حتى بعدما أعتقل في فرنسا، وقد نشرت العديد من قصائده الشعرية التي نظّمها في هذا المجال.

فمثلا قصيدته التي نظّمها في السجون الفرنسية، حين ضاقت روحه في الأسر، وطال أسره وعذابه، وشوقه إلى أهله وأصحابه، فما كان عليه إلا أن يرسل توسّلات إلى الله وحده متشفّعا بالرسول الكريم، وهذه واحدة منها:

ماذا على ساداتنا[4] أهل الوفا لو أرسلوا طيف الزيارة في خفا

1- طبع بمصر بعد محاولة قام بها إبنه الأمير محمد، حيث جمع شعر والده في ديوان صغير عنوانه " نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر"، ينظر:

- عبد الحميد حاجيات، الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، المرجع السابق، ص83.

ثم بعد ذلك حققه وضبطه وشرحه الدكتور ممدوح حقي، في ثلاث طبعات.

- الطبعة الأولى: عن دار اليقظة العربية بدمشق، د.ت.- الطبعة الثانية: عن دار اليقضة العربية في بيروت، 1964م.- الطبعة الثالثة: عن دار اليقضة العربية في بيروت، 1965م. -كما قسّم الديوان طبعا لفنونه، فإذا هي خمسة في:" الفخر، الغزل، المساجلات، المناسبات، التصوف". ينظر:

- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الأمير عبد القادر، شرح وتح: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، د.ت، ص11.

2- بديعة الحسني، حقائق ووثائق، المرجع السابق، ص301.

3- المرجع نفسه، ص301.

4- السادات: يقصد بهم رجال الصوفية.

يترصد الرقباء حتى يغفلـــوا ويكون مانع وصلنا ليــلا غفــا

فإذا تمكنت الزيــارة خفيـــة يأتي مواعــد وصلنـــا متطلفـــا

ويكون قبل حلولـه أفرشتــه حذي وطاء النعال و اللحفـــا[1]

وهناك قصائد أخرى نظمها الأمير في الغزل و المدح والفخر والشكر والتهنئة، لا يسعنا أن نذكرها كلها ولكنها تعبّر صدق عواطفه وأحاسيسه ومشاعره، فهي مرآة عاكسة ما عاشه من أفراح وأحزان وهموم وشوق وغير ذلك، فهو لم ينسى تهنئة كاتبه قدور بن رويلة بمناسبة إطلاق سراحه ووصوله إلى المدينة المنورة، ولم ينس مدح رجال العلم والصلاح، واصفا خصالهم ومزاياهم العلمية والدينية، فقد ظل يكتب مساجلات شعرية قيّمة مع شخصية بارزة هو الشاذلي القسنطيني،[2] ومدح الفرسان والجنود الذين قاوموا معه جيش الإحتلال، وحاربوا بكل شجاعة وبسالة، كما أنه لم ينس أم البنين زوجته التي كان يبعث لها بشعره،[3] وبالتالي ما ذُكِر ليس كل ما ألّفه الأمير عبد القادر من تراث شعري وإنما ذكرنا هذه الأمثلة على سبيل الذكر لا الحصر، فللأمير الكثير من القصائد والأشعار، جمعها ولده محمد باشا في كتاب "نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر".

ومن مخلفاته النثرية أيضا رسائله ومراسلاته، وكتاباته إلى محبيه، ومعارفه نذكر منها:

- ✓ مجموعه المراسلات الفقهية بينه وبين علماء عصره، وفيها يظهر مدى عنايته بجمع الفتاوى و آراء العلماء سواء في المغرب أو المشرق العربي، وعدم إكتفائه بما عنده.
- ✓ أجوبة عن أسئلة وجهها إليه علماء معاصرون له، وفيها يظهر مدى سعة إطلاع الأمير، ومدى إستيعابه للعلوم بحيث يستطيع حل مشكلها، إضافة إلى مراسلاته للأسقف الفرنسي "ديبوش Depuche"، وإلى البارون "بواسوني Boissonnet" رفيق أسره بأمبواز،[4] وأجوبته عن أسئلة الجنرال "دوماس" فيما يتعلق بعادات وتقاليد العرب والمسلمين في الزواج، والأسئلة المتعلقة بالمرأة العربية مستعينا بالتوراة والإنجيل، وغيرها من الرسائل التي لو جمعت لبلغت عدة مجلدات.

1- وطاء للنعال واللحفا، يقصد بها أنه يفرش خده للمنتعلين الأحذية والحفاة ليطؤوه ويمشوا عليه، وهو منتهي التذلل للمحبوب.

2- إن الشاذلي القسنطني كان معروفا عند الناس بسي الشاذلي، كان شخصية ذات جوانب متعددة، ولد سنة 1807م في قسنطينة ومات في طولقة قرب بسكرة سنة 1877م، جذوره العائلية من طولقة، انتقلوا إلى قسنطينة وامتلكوا الأراضي ومارسوا العلم عند إحداق الخطر الفرنسي سنة 1836م، اتجهوا إلى نواحي سطيف التي كانت ما تزال بعيدة عن أيدي الفرنسيين، عمل كقاض ثم كرئيس للمكتب العربي بقسنطينة بعد توصيات بواسوني سنة 1844م، وفي سنة 1850م تكلف بشؤون المدرسة لسيدي الكتاني وظل معنيا بها إلى غاية وفاته. ينظر: - أبو القاسم الحفناوي، تاريخ الخلف برجال السلف، ج2، شركة دار الأمة، الجزائر، 1906، ص386.

- Saint CALBER (CH), Constantine et quelques auteurs arabes, op-cit, pp 76-95.

3- للتعرف على شعر الأمير عبد القادر كاملا. ينظر: - الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر، المصدر السابق.

4- للتعرف أكثر على رسائل الأمير للبارون "بواسوني" والمؤرخة في 8 جمادى الثانية 1279هـ/ 1862م. ينظر:

- ملف رسائل الأمير عبد القادر، م.و.ج، رسالة رقم: 26.

إن الإنتاج الفكري للأمير عبد القادر شعرا كان أم نثرا، يتّصل إتصالا وثيقا بتكوينه الثقافي والعلمي، والبيئة الفكرية التي نشأ فيها، وبتأثره بالواقع السياسي والإجتماعي الذي عاشه أثناء مقاومته أو بعدها، لذلك فإن دراسة نتاج الأمير الأدبي تقتضي منّا مراعاة هذه التأثيرات كلها، و التعرف على مدى أهميتها، فهي تطلعنا على نفسيته، وعلى أمور أخرى هامة خفية من شخصيته، فهي مرآة صادقة لثقافته وثقافة العصر الذي عاشه.

فدراسة الأعمال الأدبية للأمير ورسائله وشعره، قد تساعدنا على إيجاد بعض الأجوبة للتساؤلات التي تخطر على بال دارسي حياته وثقافته، فهو لم يكن فارساً وقائداً فحسب، وإنما كان أيضاً عالماً وأديباً.

لقد كان الأمير عبد القادر سيداً عظيماً سواء في الجزائر أم في بلاد المشرق، محترماً من الجميع، له كلمة نافذة وصوت مسموع، وكان بيته مؤلا لرجال الفضل والعلماء ورجال الدين ودعاة الصوفية خاصة في المشرق، فقد التحم مع أهل الشام حتى أصبح منهم، فهو أحسّ بحجم المسؤولية التي كانت على عاتقه اتجاه أتباعه واتجاه أفراد المجتمع الشامي.

إنّ المكانة التي بلغها في العالم أجمع بعد توقف مقاومته، إنما بلغها جرّاء مساهمته في إخماد الفتنة الطائفية المسماة بحوادث الستين وإنقاذ المسيحيين والدولة العثمانية، وبعد هذه الحادثة أصبح وجوده في دمشق يشكل ضمانة للرعايا المسيحيين، ولحفظ الأمن، وإدخاله للإصلاحات في المجال التعليمي والعسكري، وبروز الخديوي إسماعيل في مصر الذي تأثر بالحضارة الغربية وأدخلها إلى مصر، هذا بالإضافة إلى ظهور شخصيات تدعو إلى الإصلاح، ومحاربة التحدي الغربي للشعوب الإسلامية، أمثال رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم فأين الأمير عبد القادر من كل هذا؟

ما يمكننا قوله في هذا المقام أنّ الأمير عبد القادر في هذه الفترة شارك في افتتاح قناة السويس عام 1869م، ويضيف عادل الصلح أنّه كان للأمير صلات بالمشروع القومي العربي الذي ظهر في السبعينات، والذي سعت إليه فرنسا دون جدوى، بإقامة كيان عربي في قلب الدولة العثمانية يتولاه الأمير عبد القادر في الشام، أي يكون سلطاناً على العرب، ولكن الأمير لم يستجب لهذا المشروع بالرّغم من إلحاح بعض الجهات السياسية في المشرق أمثال المناضل "يوسف كرم" والسياسي "أحمد صلح" عليه، فالأمير كان يرى أنّ الفكرة في حاجة إلى نضج، وقد فسّر عادل الصلح في كتابه "سطور من الرسالة" أسباب رفضه للمشروع الذي جمّد فيما بعد، خاصة مع تولّي السلطنة "عبد الحميد الثاني" عام 1876م، ودخول الدولة العثمانية من جديد في حرب مع اليونان ومجيء مؤتمر برلين عام 1878م.

مهما يكن من أحداث فمن المؤكّد أنّ الأمير عبد القادر لم يبقى بعيداً عن مسرح الأحداث التي كانت تحدث في العالم العربي عامة والجزائر خاصة، فحضوره افتتاح قناة السويس عام 1869م وإنقاذه المسيحيين عام 1860م، ودوره في حركة الإستقلال العربي التي ظهرت في السبعينات، وموقفه من إحتلال فرنسا لتونس، إضافة إلى إتصالاته بشخصيات مرموقة في المجتمع أمثال "خير الدين" الباشا التونسي صاحب كتاب "أقوم المسالك"،

وصلته بالسيد" محمد شامل الداغستاني" المصلح القوقازي الكبير، وتبادل الرسائل مع "محمد عبده" الذي يعتقد بعض المؤرخين أنّه جالسه حول مشروع "جمال الدين الأفغاني" الداعي إلى قيام جامعة أو رابطة إسلامية تقف في وجه التحدي الغربي للشعوب الإسلامية.

كل هذه الأحداث وتلك تؤكّد على أنّ الأمير عبد القادر بقي متأثراً بروح التجديد والإصلاح حتى في منفاه في المشرق، هناك من يطرح سؤالا: بماذا تميّزت الأحداث في المشرق بالتزامن مع وجود الأمير عبد القادر فيها؟ وهل كان غائباً أم حاضراً فيها؟

إنّ فترة الخمسينات كانت حرجة في المشرق خاصة فيما يتعلّق بالفكر العربي الإسلامي، وحكم إبراهيم باشا سوريا، وفي هذه الفترة حلّت عشرية الستينات التي افتتحت بأحداث دامية في الشام، إضافة إلى ظهور بعض الجمعيات الأدبية والعلمية المرتبطة بالبعثات التبشيرية والتي تحدثنا عنها سابقا، غير أنّ معظمها كان يخدم التيار الأدبي واللّغوي عن طريق الترجمة، أكثر ما تخدم الإصلاح الإجتماعي والسياسي، أمّا عن السبعينات فقد شهدت تحولات هامة في الدولة العثمانية بتولي السلطان "عبد الحميد" 1876م السلطة وجلوسه على العرش.

و. أيام الأمير عبد القادر الأخيرة ووفاته:

لقد نشأ الأمير في صحة كاملة وعافية شاملة، لم يتغير فيه في أيام شبوبيته وكهولته شيء من قوته، ولا من أحواله، ثم عرضت له أمراض حال شيخوخته فتلقاها بقوة القلب، وحسن الصبر، فكان مع ما يقاسيه من شدة الألم ويعانيه في معالجته لم يظهر ضجراً ولا تأوّها، ولا ترك الصلاة في وقت من الأوقات، و كان قليل الكلام إلا فيما يخص مرضه،[1] فقد خفّ نشاطه وجهده، وأثناء تلك الأيام زاره الأديب التونسي "محمد السنوسي" فأكرمه و أحسن ضيافته، وذكر الأديب جزءاً من سيرته ومرضه بعد ذلك في كتابه الرحلة الحجازية.

في بداية شهر ماي 1883م، كان معتكفاً بمضيق دمر في قصره، يتهجد ويتبتل لربه، إشتد عليه المرض فزاده الضعف إلى أن دعاه مولاه إلى سعة رحمته، ونقله إلى فسيح جنته في الساعة السابعة من ليلة يوم السبت 19 رجب 1300هـ الموافق لـ: 24 ماي 1883م،[2] وقد تولى غسله وتكفينه "عبد الرحمن عليش" أحد علماء الأزهر، حيث صلّو عليه بالجامع الأموي ثم شيّعه أهل دمشق في موكب مهيب، بدموع وبقصائد رثاء سطرت بمداد مضيء.

يذكر عادل الصلح عن تشييع جنازة الأمير عبد القادر قائلا: "...لقد كانت الطرق من أبواب المنزل إلى الجامع الأموي غاصة بالناس على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم، حتى لو ألقي عليها التراب لما مس الأرض، ثم خرجوا به إلى الجامع يتقدمهم مئات من المشايخ والقراء، وأصحاب الطرائق والأشائر مهلّلين مكبرين، ورجال

1- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص305.
2- المصدر نفسه، ص305.

الشرطة، وعدد كثير من العساكر النظامية، ويليه جمع لا يحصى من العلماء الأعلام والأمراء العظام والوجهاء الكرام، رحمه الله عليه...[1]

فساروا بجنازته إلى أن دفن هذا البطل بجوار الشيخ الأكبر "محي الدين بن عربي"،[2] ما أعظمه مفقوداً، وما أكرمه موجوداً.

يذكر عبد المجيد الخاني أنه كان للشعراء في ثنائه موسم عظيم، وفي رثائه مأتم جسيم وأنه كان ممن تطفل على أهل هذا الفن، فنظم بمدحه قصائد عديدة، واصطنع سبع مقامات أعدت للمباركة له بكل سنة جديدة، أسندت روايتها لسعد بن بشير مع ابن حفص المصري وفي ذلك ما قاله من القصائد:[3]

أأسلو ونفسي للمعالي طموحـة ومن ذا الذي يعطي فيأبى المعاليا

وآية حبي للعلا أن يرى الـورى بمـدح أميـر العارفـين إفتخاريـا

أمير وأنّى للملـوك سلـوك مــا تقدس من أخـلاقـه وهي ما هي

جلال ولا كبر وعلـم ولاخفـا وسيف ولا حيف وتقوى ولا ريـا

فكم جاهد الأعداء حق جهاده وكـم صـام أيـاما وأحيا لياليـا

كما رثاه بأبيات كتبت على لوح من رخام ضريحه بالذهب، مشتملة على تاريخ وفاته وإشارة لا تخفى على أهل الأدب فقلت:[4]

لله أفــق صــار مشــرق دارتي قمرين هلا من ديار المغــرب

الشيخ محي الديـن ختـم الأوليـا قمر الفتوحات الفريد المشرب

والأمير عبد القادر الحسني السني قمر المواقف ذا الولي ابن النبي

من نـال مع أعلى رفيـق أرّخـوا أزكى مقامات الشهود الأقرب

ويضيف قائلا:[5]"... أنه آية من آيات الله تعالى في ورده وصدره، وأنه لو كان في الأمم الغابرة لقصّ علينا الله أحسن القصص من خبره، ولولا قلة مجال هذه الشذرة لاقتطفنا من هذه الروضة ألف زهرة حبابه قدس الله سره، وإنا لله وإنا إليه راجعون...".

1- عادل الصلح، سطور من الرسالة، المرجع السابق، ص85.

2- محمد بن الأمير، تحفة الزائر، ج2، المصدر السابق، ص306.

3- عبد المجيد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية، المصدر السابق، ص375.

4- المصدر نفسه، ص377.

5- عبد المجيد بن محمد الخاني، الحدائق الوردية، المصدر السابق، ص377.

خاتمة عامة

خـــاتـــــمة:

من الواجب أن نقول أولا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لبطل خلّده التاريخ. عندما نفكر في قلّة أهل الدّين الحق، وفي ندرة حماة وأبطال الحقيقة، وعندما نرى الجاهلين يعتقدون أن مبدأ الإسلام هو الظلم والقسوة، والبلادة والجفاء، فقد حان الوقت أن نقول ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وبرهاننا بسماحة الإسلام، وحثه على الإخلاص والمعاملة الحسنة، هو ما قام به الأمير عبد القادر، فقد عمل على نشر التّصورات الإسلامية، وطبّق حدود الشريعة، باستنباط الأحكام بمنتهى الذكاء والدقة، فاستحقّ بذلك لقب الإمام والقائد، والمربّي، لأنه كان يلقي الدروس المستقاة من القرآن والسنة، كما دعى إلى نبذ التقليد، وحث على الإجتهاد لهزيمة العدو الظاهري، بالرغم من أنه كان يعتبر الآخر كإنسان معتدي وليس كعدو، والتاريخ يشهد له بمعاملاته الحسنة مع أسرى الحرب، فقد أعطى بهذا إعلانا لأوربا حول رسالة الإسلام الدينية، التي ترسم آفاق التعاون بين المسلمين والشعوب الأخرى.

لقد تناولنا في فصول هذه الدراسة المتواضعة، ملحمة الأمير عبد القادر، من خلال موقفه وعلاقاته، وتفاعله وتجاوبه مع متطلبات عصره وظروفها وحاجات بيئته، وهذا ماحدّد لنا إشكالية مكانته ودوره من خلال ظروف عصره وشروط بيئته.

لقد استطاع إرساء القواعد الأولى لبناء دولة جزائرية حديثة، والتي ارتكزت على مجموعة من المقوّمات والخصوصيات، ومن ضمنها أنها كانت مبنية على:

- ✓ أولا البيعة: التي شاركت فيها كل القبائل التي كانت تمثّل في ذلك الوقت وحدة فاعلة وعملا حاسما، فدولته لم تكن دولة سلطانية بل كانت كآداة وجهاز في يد الأمّة تدافع بها عن نفسها من الإعتداءات الخارجية والداخلية، وكوسيلة تتمثل في حماية الوطن والدفاع عنه، فهي تقوم على إخلاص الحاكم وثقة المحكومين، كما بنى إمارته على قوتين: "قوة رغبة وقوة رهبة"، الأولى كان معوّلا عليها، لذلك فوضت له مسؤولية العمل على إنقاذ البلاد من الفوضى والإحتلال.
- ✓ ثانيا المبدأ الديني الوطني: بحيث استطاع أن يكيّف الدين وأحكامه لمتطلبات العصر، ويفتح بابا واسعاً للإجتهاد في الدين، فدولته كانت متشبعة بروح الدين الإسلامي، وليس بأحكامه الفقهية. مثلا كان يفضّل الجهاد والصلاة على مناسك الدين الأخرى، حتى أنه في جبايته للضرائب، وعمل الجيش والغنائم والعشور، وغيرها مما تستوجبه الشريعة، وتستوجبه حاجة الدولة، كان يستقيها من الشريعة الإسلامية، وبهذا تمكن من تنظيم جيش عصري، ودولة قوية، ويؤمّن لها الإستقرار لبضع سنوات، ويلبي حاجياتها وحاجيات جيشه ودولته.

-حاول الأمير لبناء الدولة والأمة أن يوضـح نظريا وتطبيقيا أنه لا يعمل لنفسـه بل لخدمة الصـالح العام، لذلك كان يؤكد أن الغاية الوحيدة من قبوله منصـب الإمارة، هي أن يكون رعاياه آمنين على أنفسـهم وأغراضـهم وأموالهم، ومطمئنين على بلادهم، ومتمتعين بشعائرهم الدينية، وأنه ينبغي عليه مساعدتهم ماديا ومعنويا.

-بنى دولته على المسـاواة، وعدم التمييز، وكان حريصـا على تطبيق العدالة، فأيّ مخالفة كان يعاقب عليها الجاني بإنصاف.

-يتضـح مما سـبق أن شـخصـية الأمير جمعت بين القيادتين الروحية والدنيوية، وتميزت ببعد الرؤيا في مخططاته، والتي سـاهمت في إنشـائه للدولة الجزائرية الحديثة، وفيما بعد دوره الإيجابي في إنقاذ المسـيحيين من الفتنة الطائفية بدمشق 1860م.

-لقد كان تعبيرا صـادقا للحاكم المأمول، سـواءا في الإخلاص للوطن أو الذّود عن حرمة الإسـلام، أو الإلتزام بصفات التسامح، واحترام المبادئ الإنسانية الرفيعة، التي أبرز بها وجها مشرفا للقائد الكفء المتشبث بقيم حضارته العربية الإسلامية.

-لقد استطاع أن يجمع بين عدّة عوامل من أجل تحقيق مشروعه النهضوي، فقد تلاحمت العوامل الدينية والثقافية والعسكرية في سلوكه وثقافته وحتى في تصرفاته، وبذلك تمكن من تحقيق تكامل القوة العسكرية مع نظرة الإنسان المثقف ومع الدافع الديني، هنا تكمن سر عبقريته التي علمته كيف ينظر ويطبق.

-جامع بين السيف والقلم، متكامل العناصر، إمام صلاة وفتوى، وخطيب القوم وواعظ المجالس، وباعث البعوث العلمية، والسـياسـية والحربية، وكبير لجنة الإختبار الشـخصـي العلمي والعملي، ومانح الرأي في مجالس الشورى العليا الأميرية.

-يمتاز بتعدد المواهب والقدرات، والجمع بين وظائف عدة رجال، فمثلا "ابن زعمون"، صـاحب سـيف وشـجاعة في مقاومة الإحتلال الفرنسـي، و"ابن سـعدي" بفكره وعلمه، وأحمد باي قسـنطينة رجل سـيف وفكر، وفكره جار سيفه، وعبد الحميد بن باديس وخليفته البشير الإبراهيمي يمتازون بفكرهم وإرهاصاتهم الصادقة لتفجير ثورة أول نوفمبر 1954م، أما عبد القادر فقد أختير للإمارة لجمعه كل هذه الخصـال في رجل واحد، وبهذا كان إختياره موفّقا ومناسبا ومؤكّدا ومستمرا.

-سبق بعشرات السنين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ونظرائهم بالمشرق العربي في التحاكك مع الغرب، والحوار بين الحضـارات له بين المشـرق والغرب، بحيث كان ينازع الغرب إحتكار أسـباب المدنية وجذور التقدم، وبالتالي دعوى التفوق الذاتي، فهو سبق عصره إلى منازلة الغربيين حول محور من محاور الصراع بين الشرق والغرب، وهو الأخلاق، وبقي من هذه المحاور إثنان المرأة والدين، وبهذا يكون قد افتتح عصـر المناظرات حول القضـايا الدينية، قبل أن ينسب عند رواد نهضة العصر الحديث.

–فلو أردنا أن نتســاءل حول الجوانب التي يتفرد بها الأمير عن نظرائه من رجال النهضــة العربية الحديثة، لقلنا أنه إمتاز عن غيره من رموز الطليعة العربية ممن تفتحوا على بلاد الغرب وتلقنوا حضـــارته، يكمن في كونه تحاكك مع هذا الغرب في ظروف لم تكن توفر له ما وفرته لأولئك الطلائع من عوامل التكيف وأســباب التقبل والتفاعل الإيجابي، فقد تواصل مع الغرب في ظروف حرب غير متكافئة، وباشرهم جانحا إلى السلم بعد طول تحامل وتماسك.

–لقد كانت حركته الجهادية ومحاولته بناء دولة حديثة، إســتجابة موفّقة لتجاوز العجز الذاتي الذي عاشــه العرب والمســلمون لعدة قرون، بعد أن تحطمت قدراتهم الذاتية، فالمحلل لمعطيات التاريخ الجهادي للأمير يرى أن التجربة كانت موفّقة إلى أقصــى حد، بالرغم من قصـــر مدتها وذلك لتوافر صـــفات ثلاث في الأمير قلّما تجتمع في غيره.

- ✓ الأولى لها بعد عسكري.
- ✓ الثانية لها بعد ثقافي.
- ✓ الثالثة طبيعة دينية.

–لقد كان الأمير عبد القادر صوفيا وصوفيا كبيرا، وشكّلت مواقفه التاريخية والإنسـانية محطّة كبرى، كان يجب أن نتوقّف عندها لتحليلها واســتخلاص العبر منها، والنّظر في منطلقاتها النظرية والعقائدية، واســتنطاق منظومتها القيّمة، المرتبطة دلاليا بالرؤية الصــوفية العرفانية الأكبرية، نســبة إلى الشّــيخ الأكبر محي الدين بن عربي، فالرؤية الصــوفية مثّلت دوما وعبْر التاريخ ذروة الرؤيا الإنســانية المتفتحة والمتســامحة، والمعترفة بحق الكينونة والوجود وحق الإختلاف ووجود الآخر، ويبقى الحديث عن صوفية الأمير لذوي التخصص للتوسع في هذا المجال والبحث فيه وتحليله، لأنه مازالت البحوث الأكاديمية حول هذا الموضــوع قليلة ونادرة، خاصــة فيما يتعلق بالجانب الصــوفي العرفاني لهذا الرجل.

كما لا يفوتنا هنا للإجابة على الفرضيات المطروحة فمنها ما تم تصديق صحتها ومنها ما تم إنكاره:

–لقد إستطاع الأمير عبد القادر أن يؤسّس نظريا وعلميًّا أسس الدولة الجزائرية الحديثة، المتمثلة في البيعة والتي كانت إنتخابا وعقدا بينه وبين الرعية، إضــافة إلى التزامه برأي الجماعة، فوصــوله إلى هرم السـلطة في مجتمعه كان بناءا على إختيار الأغلبية من الأمة له، وهي فكرة ســياســية كانت تطالب بها كل الدعوات التحديثية للدولة في القرن 19م، وهنا يتّضح أن الأمير جسّد أساســا من أســس الدولة الحديثة وهي أن يختار الحاكم من الأمة أو نوابها، وأن تتفاعل الأمة مع حاكمها، كما صبغ دولته بصبغة دينية، تتماشى وأحكام الشريعة الإسلامية، وعلى أساسها قام بإنشاء دولته، والتعامل مع رعيته وكسب ثقتهم، فاستطاع أن يكيف الدين وأحكامه لمتطلبات العصر، ويفتح بابا واســعا للإجتهاد فيه، وهذا ما طبقه في تنظيمه للجيش، وفي تعامله مع القبائل حتى في فكرة التســامح

عنده، فهي تنطلق من الإطار الديني،بل من جوهر الدين،كما أنه أســـس نموذج فكري تيولوجي عابر للتيارات والإديولوجيات، تتصالح فيه كل الديانات وكل المذاهب.

-هذا بالإضافة إلى خريطته الجهادية المتمثلة في بنائه للمصانع، لتذويب الحديد قرب منجم زكار، ومصنع قرب مدينة مليانة، ومصانع أخرى للأسلحة والذخيرة والمدافع وغيرها،كما استغل كافة الفرص لدعم مشروعه النهضوي من أجل تأسيس دولة قوية متماسكة من أجل مواجهة قوات الإحتلال، فقد إعتمد على بعض الأوربيين في الجانب التقني، خاصة بعد معاهدة "التافنا" والتي سهلت عليه تنقّل الأفراد والبضائع والزيارات بكل حرية، ففي نظره أسس الدولة تقوم على إقامة ضروح الصناعة والمخابر العلمية وفي سياقها تتقدم العلوم والآداب، وبهذا يسنّ للشعب الجزائري وقتها مواكبة الحضارة التي بذلت فرنسا كل جهودها من أجل إجهاضها.

-لقد بقيت روح التجديد والإصلاح متأججة في نفس الأمير عبد القادر حتى بعد إطلاق سراحه وإقامته بالمشـــرق. فقد حوّل قلعة أمبواز مركز إقامته الجبرية إلى خلية نحل للدراســـة، وداوم خمس ســـنوات على التدريس والإفاضـــة في البيان والتثبيت لإفادة خاصـــته، وظلت ثقافته أنيس وحشـــيته في معتقله وســـلاح مقاومته، وفي دار الأمان تألقت فيه إرادة الإصلاح ما استطاع وتجلى قيامها على الجمع والتوحيد، فسعى إلى فض النزاع ولم الشمل، بالحوار أو بالسيف كما حدث في فتنة 1860م في بلاد الشام، وحاول نشر المؤاخاة بين المتعادين في كل مكان يصل إليه صوته، ويؤلّف بين أبناء الوطن الواحد أو الدين أو الإنسانية، فالأمير فرض إرادة الإصلاح حتى وهو في المنفى، وتعويض ما فات بما لا يقبل شيئا غير النجاح والصبر.

-قامت السلطات الفرنسية بحبس الأمير ورفاقائه حبسا تعسفيا ولم تراعي فيه بنود الثورة الفرنسية، لقد إنهزم الأمير عبد القادر عسكريا أمام غرب يتوسع، بعدما فقد كل أدوات المقاومة والمجابهة، ولكنه حاول الإنتصار ســياســيا ورمزيا، ليكون جزائريا بدون دولة، ويثمّن إنجازه، ويرسّـــخ نموذجه في الذاكرة على الأقل، ويدعم مكانته كشـخصـية جزائرية طبعت مجريات القرن التاسـع عشـر والتاريخ الجزائري خصـوصـا، خاصـة بعد إدراكه الخديعة الكبرى التي تعرّض لها وحاشيته من طرف الحكومة الفرنسية، والتي ضربت بكل بنود الثورة الفرنسية عرض الحائط بعد أن تحولت الباخرة التي من المفروض أن تتجه إلى عكا أو الإســكندرية، بعد وقف القتال المشــروط بتدعيم من لامورسير والدوق دومال، إلا أن الشرط لم يطبق، وأعتقل الأمير ومن كانوا معه، سنة إعتقال في طولون وبو، وأربعة سنوات في إقامة جبرية في أمبواز، وهذا ما صدمه اتجاه هذا الإجراء وإنتهاك الحرمات لحقوقه وحقوق حاشيته.

- لقد راح الأمير عبد القادر ضحية بعض المؤرخين الذين اختصروا حياته بدمشق، وأعابوا امتلاكه لبعض البيوت، متناسين في ذلك أنه كان مسؤولا عن الجزائريين المهاجرين إلى بلاد الشام بعد إجهاضه دولته،كما لاننسى دوره الإيجابي في نهضة بلاد الشام، ولا ننسى إطفاء فتنة دمشق 1860م، بشهادة المؤرخين الدّمشقيين أمثال: "الشيخ عبد الرزاق البيطار، الدكتور ميخائيل مشاقة، والباحث سهيل زكار، والقاسمي، وملح الصلح والد عادل الصلح، ومحمد الخاني والد عبد المجيد الخاني"، وغيرهم ممّن أطنبوا في الكلام عن دروس الشيخ "عبد القادر الجزائري"

في جامع بني أمية في دمشق وعن أفكاره النهضوية وتجربته الثورية في الجزائر ضد فرنسا، وما قام به لبناء دولة جزائرية حديثة، إضافة إلى تسامحه الديني والفكري، وتنقله المستمر لزيارة أهل بلاد الشام، بكل طوائفهم الدينية والمذهبية من سنة وشيعة وعلويين، ودروز وموارنة، وكاثوليك، زائرا باستمرار قراهم ومدنهم، في دمشق، وحلب، حمص ودرعا واللّاذقية وجبالهم، هذا بالإضافة إلى دعوتهم للتآخي بين أهل الشام والتسامح وتحذيرهم من مؤامرات القناصل الأوربيين خاصة قنصلي بريطانيا وفرنسا، اللّذان يريدان إشعال نار الفتنة بين الإخوة العرب في بلاد الشام، ليسهل عليها تفتيت الخلافة العثمانية واحتلال البلاد العربية، بيد أن حنكة وخبرة الأمير حالت دون تحقيق ذلك.

-مما سبق الاشارة إليه فان جهاد الأمير عبد القادر فرض على فرنسا أن تتعامل مع هوية سياسية وسيادية، وشرعية وإنتصارها عليه كان إنتصارا شكليا، كون أنه انطلق بمشروعه السياسي ليوحد بين القبائل، ويلم كل أبناء الجزائر، ويرسخ في أذهانهم فكرة التضحية بالنفس من أجل حرية الوطن، وبهذا كان قد أسس لمقومات السيادة السياسية. فعند إنهزامه، كان انهزامه عسكريا وكدولة، وليس كقبائل مشتتة، لأن الحرب دامت بعده.

-وفي الأخير ما يمكننا قوله هو أن الأمير بمواقفه وتجاوبه مع حاجات عصره ومتطلبات بيئته قد أسس لسياسة بديلة عن مواجهة الإستعمار بالقوة، وأساسها القبول بالوضع وعدم الدخول في منازلة تنتهي لصالح الأوربيين، وذلك بتربية خلقية قوية، وتعامل نزيه لا يضحي بكرامة الفرد ولا بمصلحة الجماعة، ويأخذ بعين الإعتبار ما يتطلبه تطور المجتمع وتقتضيه مصلحة الأمة، ولذلك حاول التفتح على أوربا والأخذ منها والتعامل معها، فكان بحق في توجهه هذا. بالرغم من أنه لم يذهب بعيدا بمشروعه لأن المخططات الأوربية كانت تعمل على الدوام من أجل إحباط مساعيه في تأسيسه لدولة جزائرية قوية، رائدا في العمل السياسي الهادف إلى التعامل مع الغرب الأوربي في إطار المحافظة على القيم الحضارية للعالم الإسلامي، كما كان زعيما مجاهدا يقارع الأعداء أينما كانوا حتى في المشرق العربي.

-كما أنه يمثل قيمة ثقافية إنسانية نادرة من بقايا القيم الثقافية الإسلامية السامية المقدرة للآخر المختلف، والمحترمة للخصوصيات، والمتفتحة على كل الثقافات وعلى كل الأديان والمذاهب، فبالثقافة تعالج الكثير من الأزمات التنموية والحضارية.

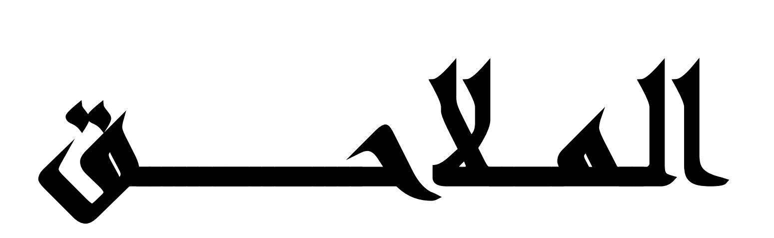
-ويبقى هذا الموضوع بحاجة إلى دراسة أعمق وتحليل أكبر لفهم المشروع النهضوي الأميري بكل أبعاده ومجالاته، فيظهر بوضوح أن هذا الموضوع واسع النطاق، ومتعدد الضمنيات لا يمكن دراسته إلا في إطار التحليل، ونظرا لسعة هذا الموضوع ورغم جهودنا الكبيرة في محاولة الإحاطة بجوانبه المختلفة قدر المستطاع، إلا أننا على يقين أن هذه الدراسة ما تزال قاصرة من حيث مضمونها، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية.

-فمن الناحية النظرية: فهي تفتقر إلى التحليل الصائب للنصوص والوثائق المتبعة في الدراسة، بالمعنى والطريقة المنهجية الصحيحة، التي أخذناها وتعلمناها من طرف أساتذتنا الأفاضل.

-أما من الناحية التطبيقية: فهي تفتقر إلى المادة الأرشـــيفية الكافية التي تغطي كل جوانب الموضـــوع، بما فيها المعلومات المتعلقة بالأمير عبد القادر في فترة إقامته في دمشـــق، وحول حوادث الســـتين التي برز فيها كبطل إنســاني، هذا إلى جانب التركيز أكثر والتحليل الجدي حول إشـكالية مسـاهمة الأمير عبد القادر في النهضـة العربية الحديثة.

-وفي الأخير أملنا أن نكون قد وفقنا ولو نســـبيا فيما اهتدينا إليه، وإن أخطأنا فذاك مبلغا من العلم، وخير ما أختتم به قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم:﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ صدق الله العظيم .


الملاحق

الملحق: 01

عدد سكان سورية المسلمين بحسب الطوائف

سُنّة	٢,٣٤٤,٠٠٠	تركمان	٤٠,٠٠٠
شيعة	١٢٠,٠٠٠	أكراد	٤٠,٠٠٠
جراكسة	٤٠,٠٠٠	فرس	٦,٠٠٠

- **المسيحيون**: يُقدّر عددهم بـ ١,٤٠٠,٠٠٠(*)، يتوزّعون على ثلاث عشرة فرقة بالشكل التالي:

عدد السكان غير المسلمين

١ - المسيحيون الكاثوليك

فرق كاثوليكية (٨٢٠,٠٠٠) موزعة إلى:

موارنة	٤٥٠,٠٠٠	سريان كاثوليك	٣٥,٠٠٠
روم كاثوليك	٢٠٠,٠٠٠	كلدان كاثوليك	٨٠,٠٠٠
أرمن كاثوليك	٢٥٠,٠٠٠	لاتين	٣٠,٠٠٠

٢- المسيحيون غير الكاثوليك

فرق غير كاثوليكية (٥٨٠,٠٠٠) موزعة إلى:

روم أرثوذكس	٢٨٠,٠٠٠
أرمن أرثوذكس	٧٥,٠٠٠
سريان أرثوذكس أو يعاقبة	٧٠,٠٠٠
كلدان أرثوذكس أو نساطرة	١٢٠,٠٠٠
بروتستانت	٤٥,٠٠٠

(*) المجموع الصحيح هو ١,٤١٠,٠٠٠.

٣ - اليهود

فرق يهودية (١٢١,٠٠٠)

إسرائيليون	١٢٠,٠٠٠
سامريون	١,٠٠٠

٤ - الفرق الباطنية

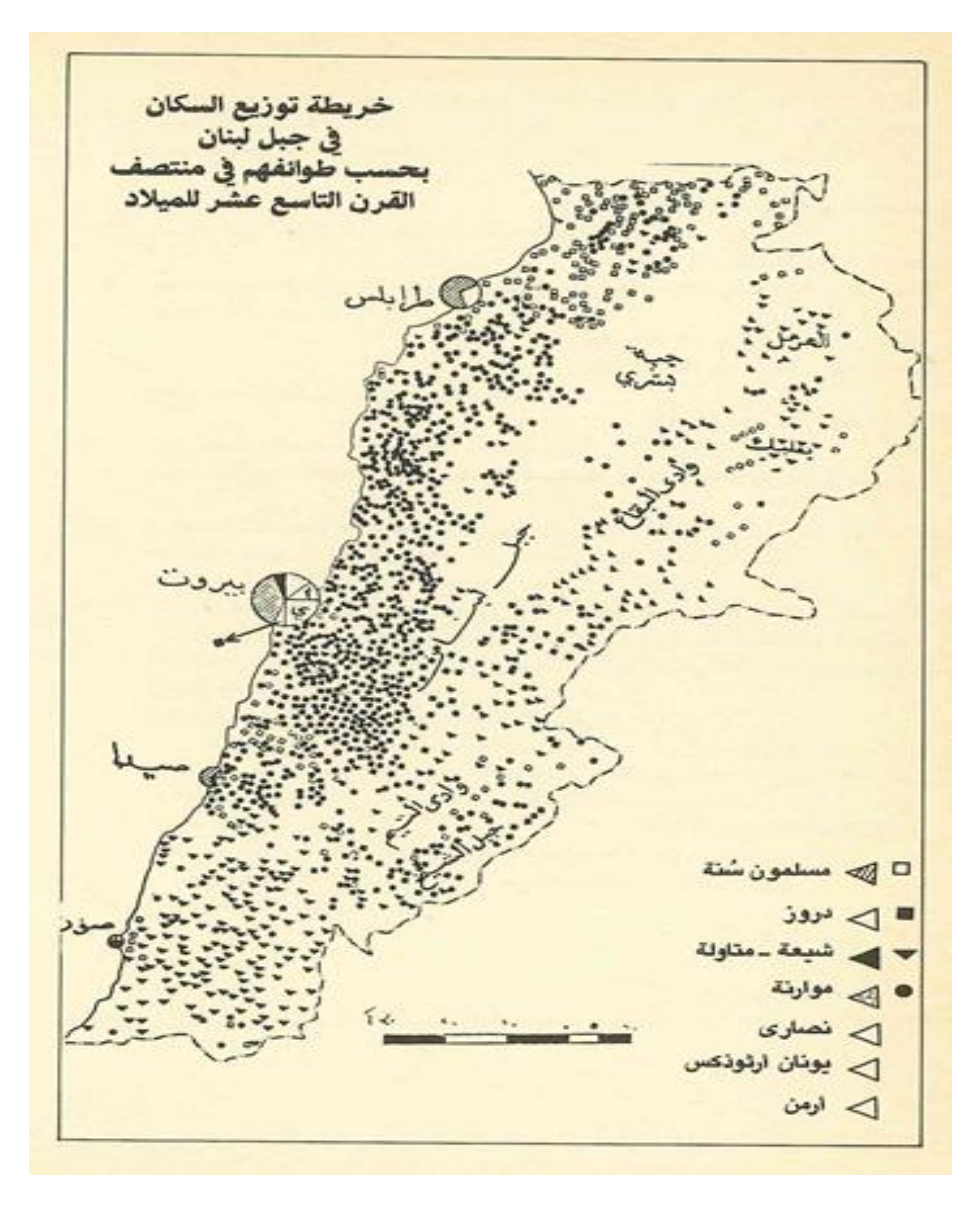
فرق إسلامية (باطنية) (٣٨٠,٠٠٠) موزعة إلى:

دروز	١٧٥,٠٠٠
نصيرية	١٧٠,٠٠٠
إسماعيلية	٢١,٠٠٠
يزيدية	١٠,٠٠٠
بهائية	٥٠٠
المجموع	٤,٣٧٠,٠٠٠(*)

(*) بحسب التقديرات الواردة عند سمنة، يبلغ هذا المجموع ٥,٩٢٠,٠٠٠.

1- وجيه كوثراني، بلاد الشام في مطلع القرن العشريين السكان والإقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني، قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط3، الدوحة، قطر، 2013، صص44،45.

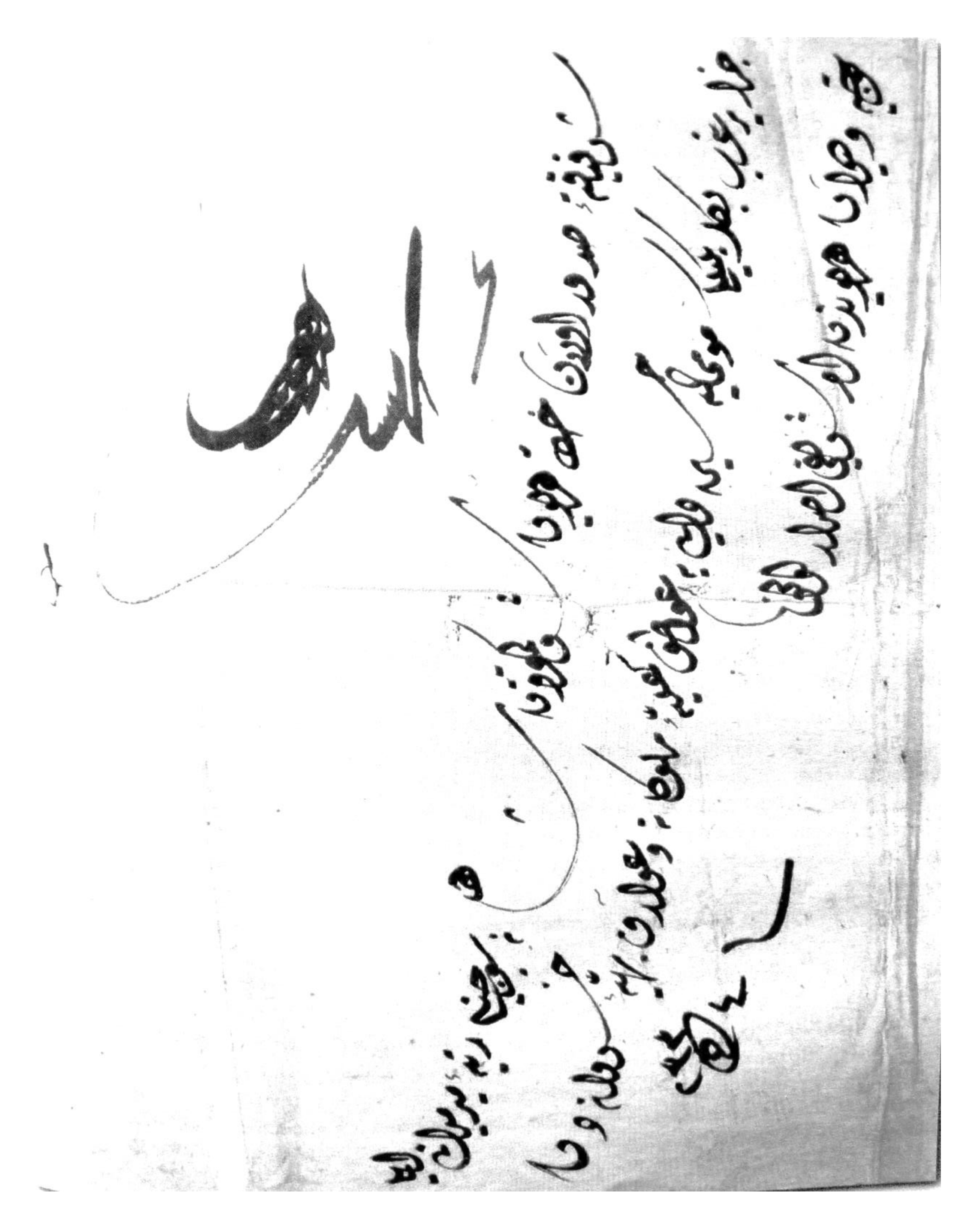
الملحق: 02



2- أبكاريوس اسكندر بن يعقوب، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تح: عبد الكريم إبراهيم السمك، رياض الريس للكتاب والنشر، د.ط، بريطانيا، 1987، ص68.

الملحق: 03

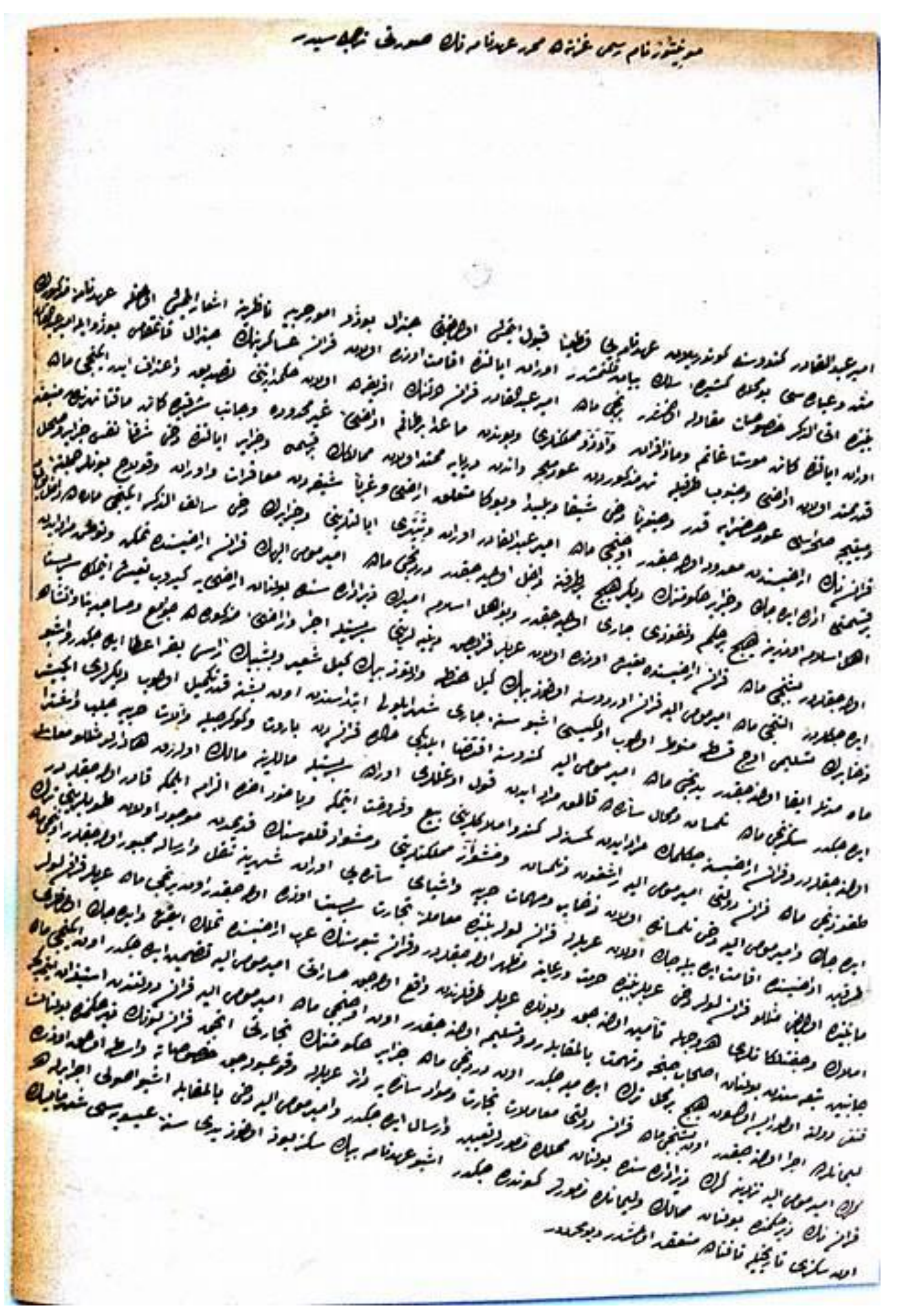
صورة عن وثيقة تتعلق بمنح الداي حسين رتبة مير ميران على الجزائر



3- Osmanli Arsivi, HAT, 29.

الملحق: 04

صورة عن وثيقة تتعلق باتفاقية التافنا المنعقدة بين الأمير عبد القادر والدولة الفرنسية



– Osmanli Arsivi, HAT 46427-C.

الملحق: 05

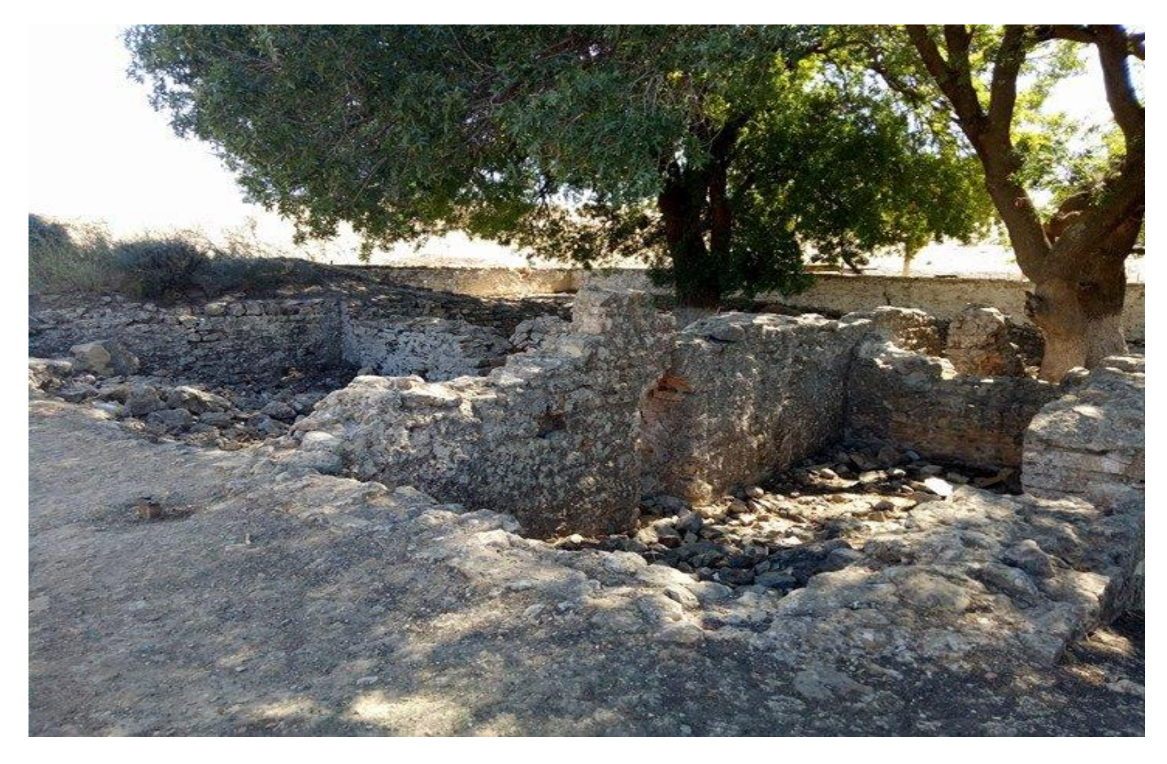
صورة عن وثيقة مجهولة الهوية عثر عليها بإكس-أن-بروفنس، علبة 1H4، تحمل ختم أرشيف أيكس مكونة من أربع صفحات، بعنوان: "لمحة مختصرة عن إدارة الأمير عبد القادر".

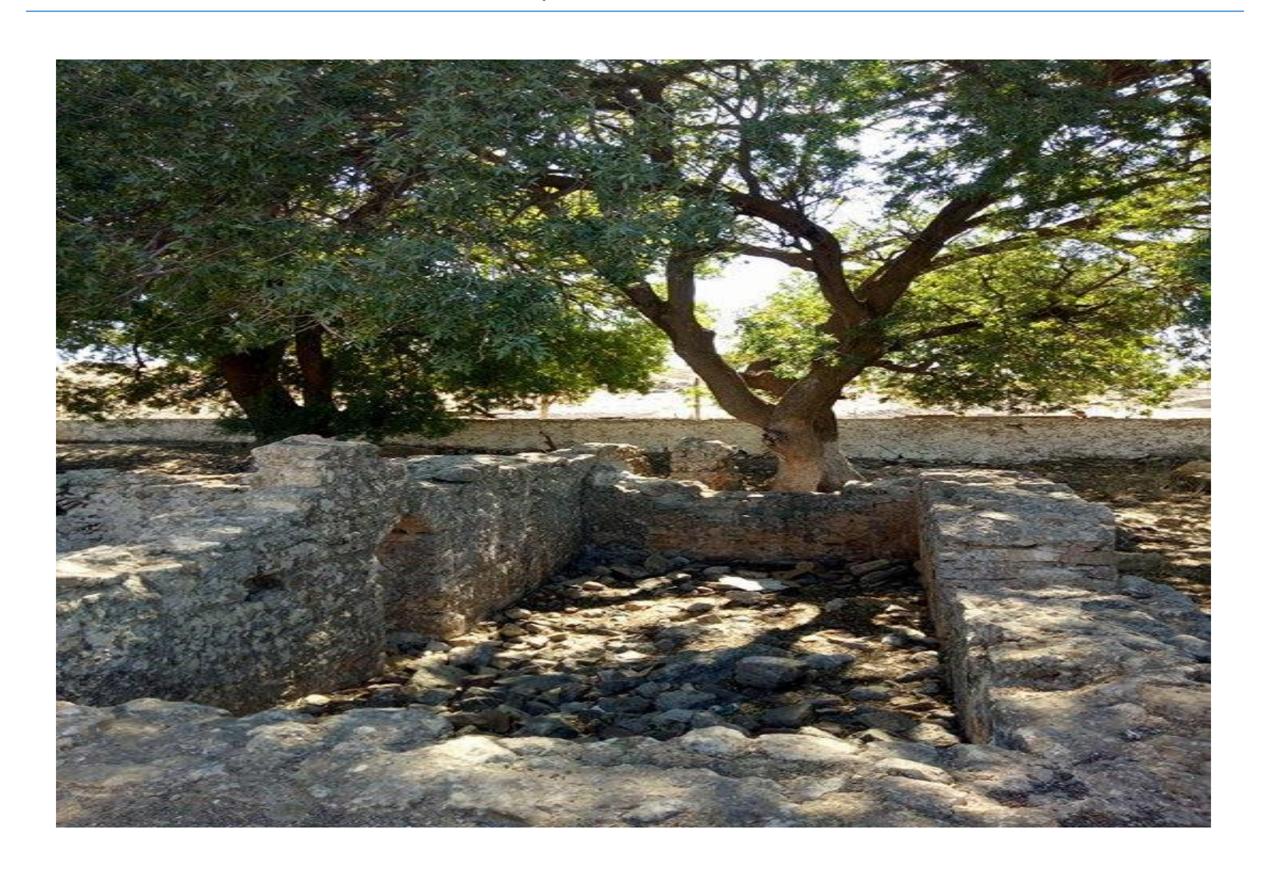
5- فركوس صالح، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للإحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830م-1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، د.ط، عنابة، الجزائر، 2012، ص77.

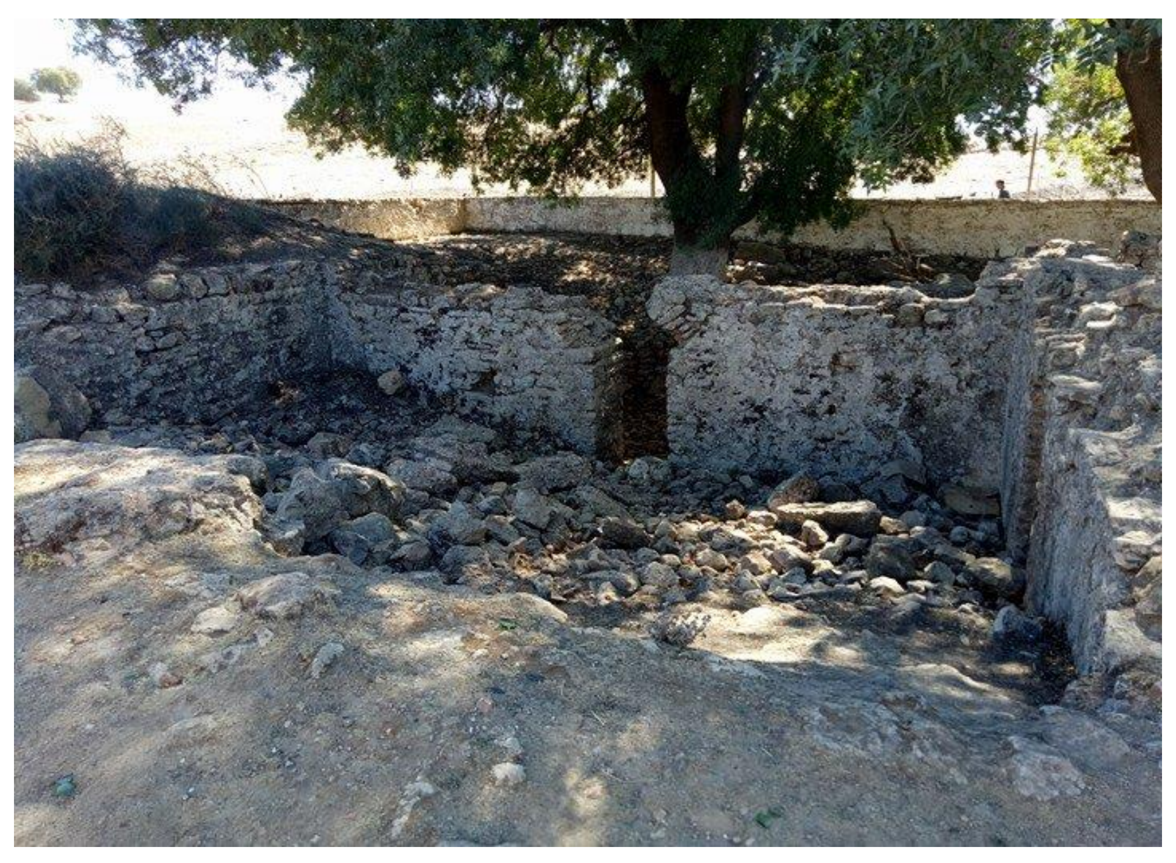
الملحق: 06

مدخل من الجزء المتبقي من الطابق الأرضي من حصن تاقدمت وبقايا الحمامات (بعدسة الباحثة)



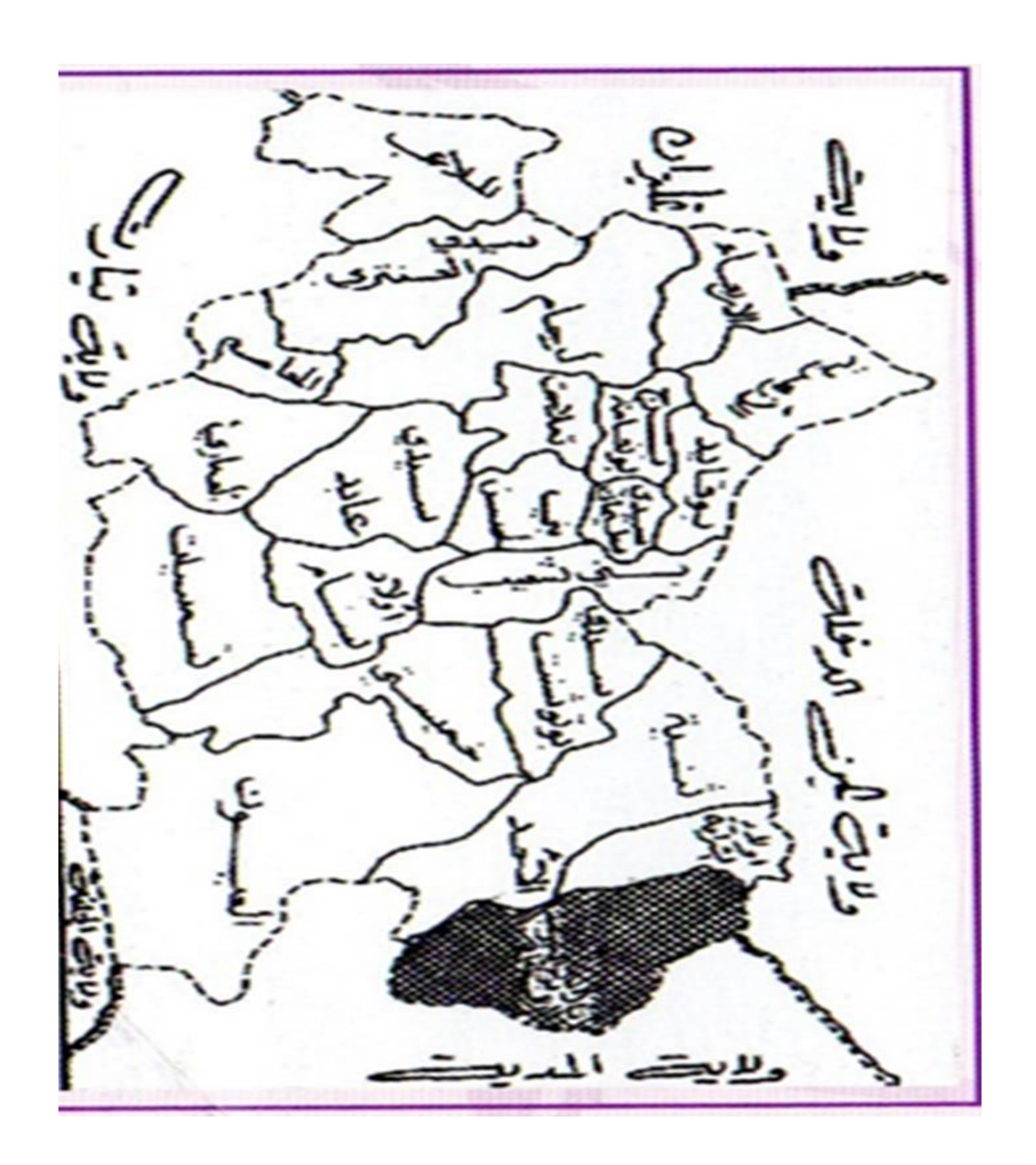






الملحق: 07

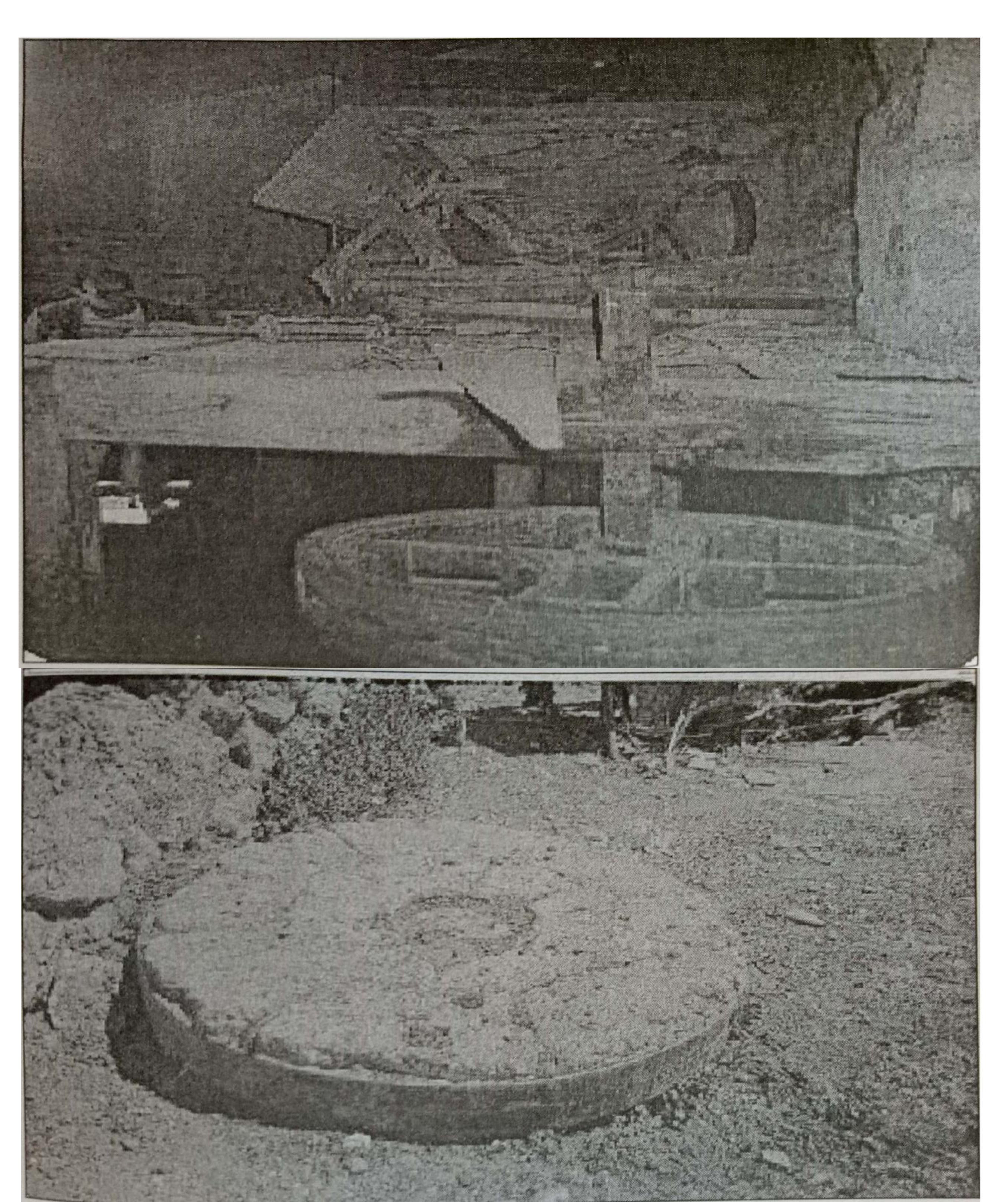
موقع تازة "برج الأمير عبد القادر" من الخريطة الإدارية لولاية تيسمسيلت



6- بويحياوي عزالدين، حصن تازة حدث تاريخي وواقع أثري، مجلة أبحاث، منشورات دار الثقافة لولاية تسمسيلت، 2012، ص44.

الملحق: 08

منظر عام لآلة الطحن بسيدو



7- عبد القادر، إستحكامات الأمير عبد القادر العسكرية 1836م-1842م، دراسة تاريخية أثرية تحليلية، موفم للنشر، د.ط، الجزائر، 2008، صص135،136.

الملحق: 09

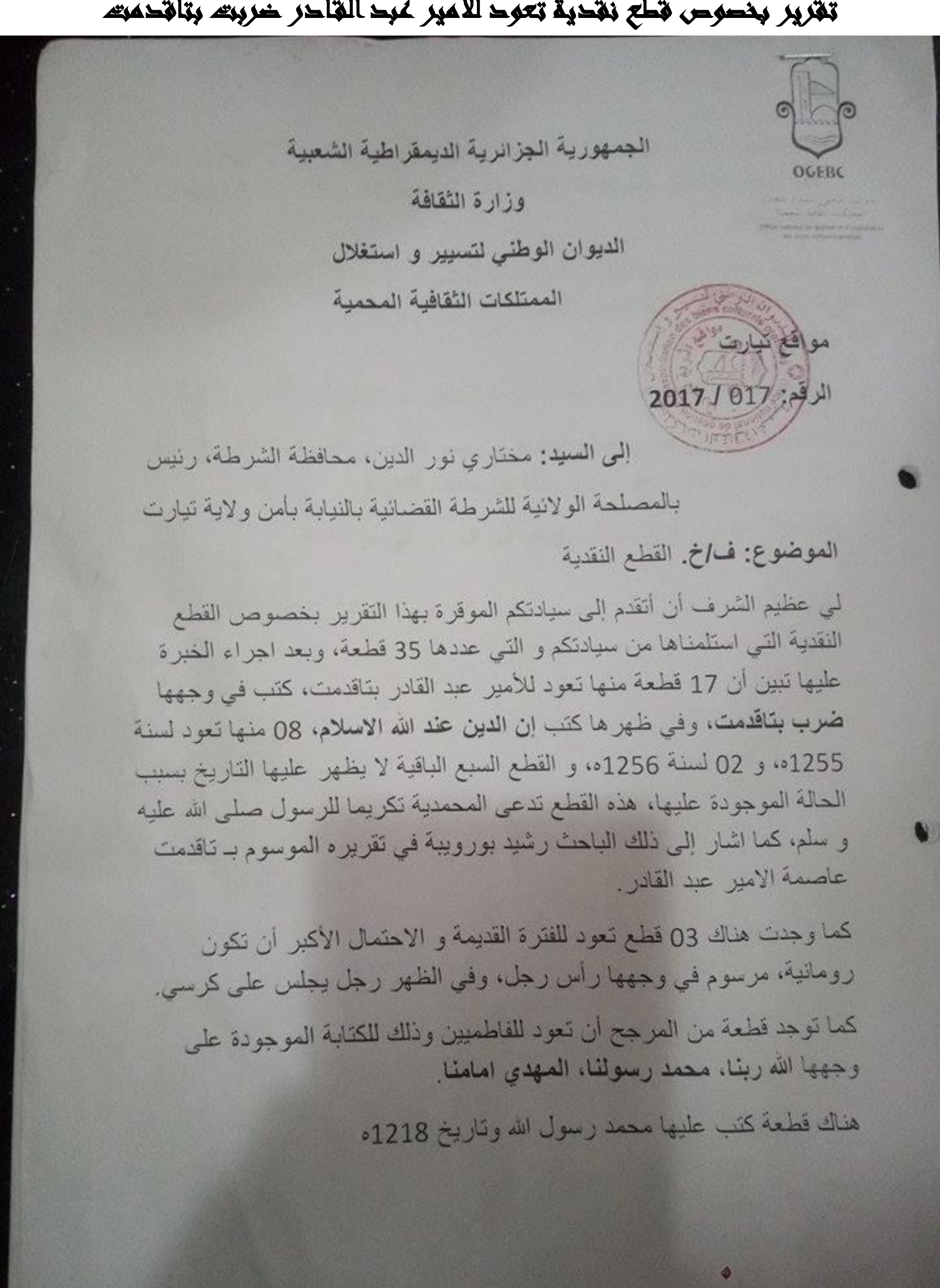
صورة لعجلة طاحونة البارود بالمشور (تلمسان).



8- عبد القادر، إستحكامات الأمير عبد القادر العسكرية 1836م-1842م، دراسة تاريخية أثرية تحليلية، موفم للنشر، د.ط، الجزائر، 2008، ص137.

الملحق رقم: 10

تقرير بخصوص قطع نقدية تعود للأمير عبد القادر ضربت بتاقدمت



OGEBC

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الثقافة

الديوان الوطني لتسيير و استغلال

الممتلكات الثقافية المحمية

مواقع تيارت

الرقم: 017 / 2017

إلى السيد: مختاري نور الدين، محافظة الشرطة، رئيس بالمصلحة الولائية للشرطة القضائية بالنيابة بأمن ولاية تيارت

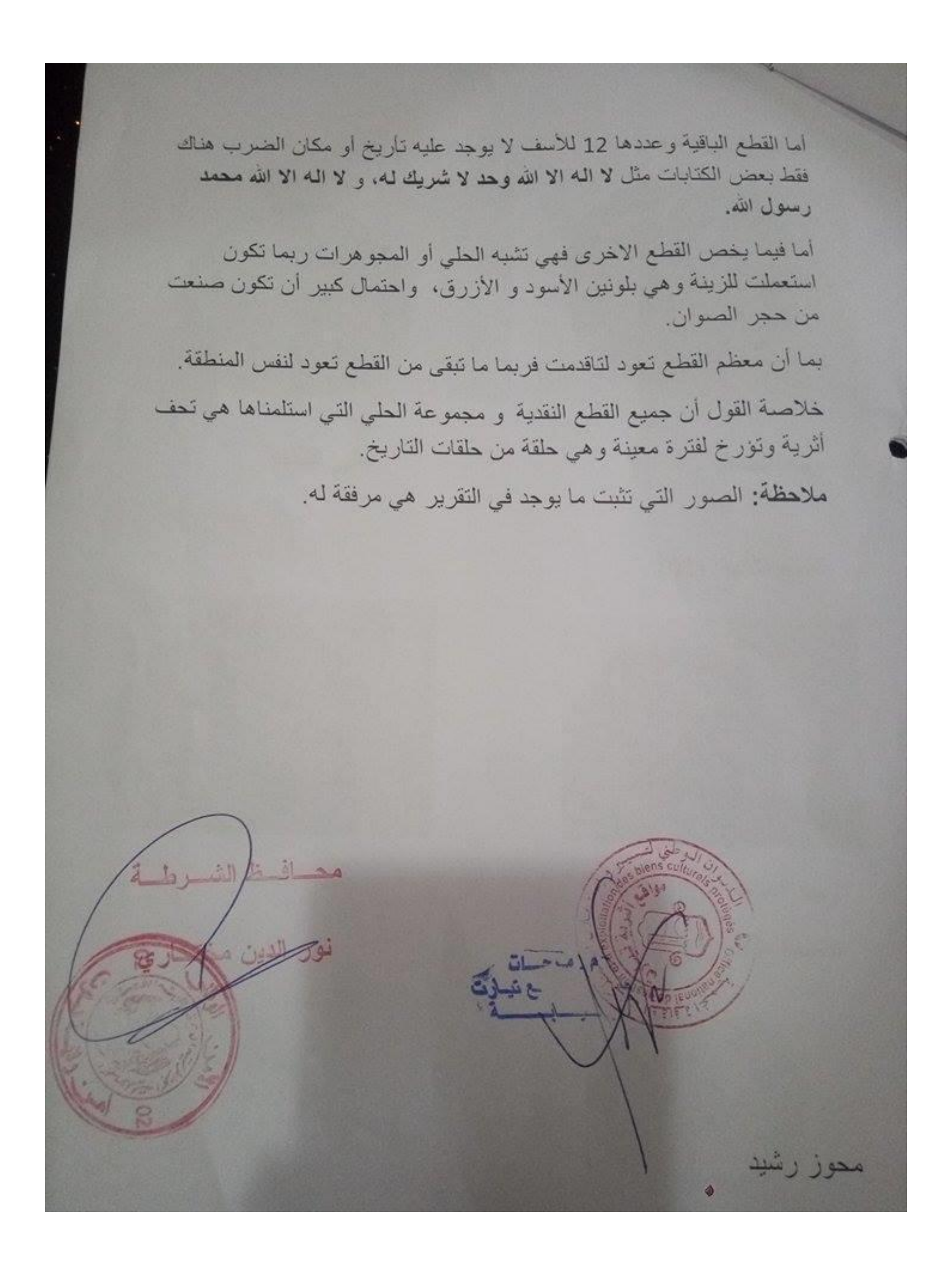
الموضوع: ف/خ. القطع النقدية

لي عظيم الشرف أن أتقدم إلى سيادتكم الموقرة بهذا التقرير بخصوص القطع النقدية التي استلمناها من سيادتكم و التي عددها 35 قطعة، وبعد اجراء الخبرة عليها تبين أن 17 قطعة منها تعود للأمير عبد القادر بتاقدمت، كتب في وجهها **ضرب بتاقدمت**، وفي ظهرها كتب **إن الدين عند الله الاسلام**، 08 منها تعود لسنة 1255ه، و 02 لسنة 1256ه، و القطع السبع الباقية لا يظهر عليها التاريخ بسبب الحالة الموجودة عليها، هذه القطع تدعى المحمدية تكريما للرسول صلى الله عليه و سلم، كما اشار إلى ذلك الباحث رشيد بورويبة في تقريره الموسوم بـ تاقدمت عاصمة الامير عبد القادر.

كما وجدت هناك 03 قطع تعود للفترة القديمة و الاحتمال الأكبر أن تكون رومانية، مرسوم في وجهها رأس رجل، وفي الظهر رجل يجلس على كرسي.

كما توجد قطعة من المرجح أن تعود للفاطميين وذلك للكتابة الموجودة على وجهها الله ربنا، **محمد رسولنا، المهدي امامنا**.

هناك قطعة كتب عليها محمد رسول الله وتاريخ 1218ه


أما القطع الباقية وعددها 12 للأسف لا يوجد عليه تأريخ أو مكان الضرب هناك فقط بعض الكتابات مثل **لا اله الا الله وحد لا شريك له، و لا اله الا الله محمد رسول الله.**

أما فيما يخص القطع الاخرى فهي تشبه الحلي أو المجوهرات ربما تكون استعملت للزينة وهي بلونين الأسود و الأزرق، واحتمال كبير أن تكون صنعت من حجر الصوان.

بما أن معظم القطع تعود لتاقدمت فربما ما تبقى من القطع تعود لنفس المنطقة.

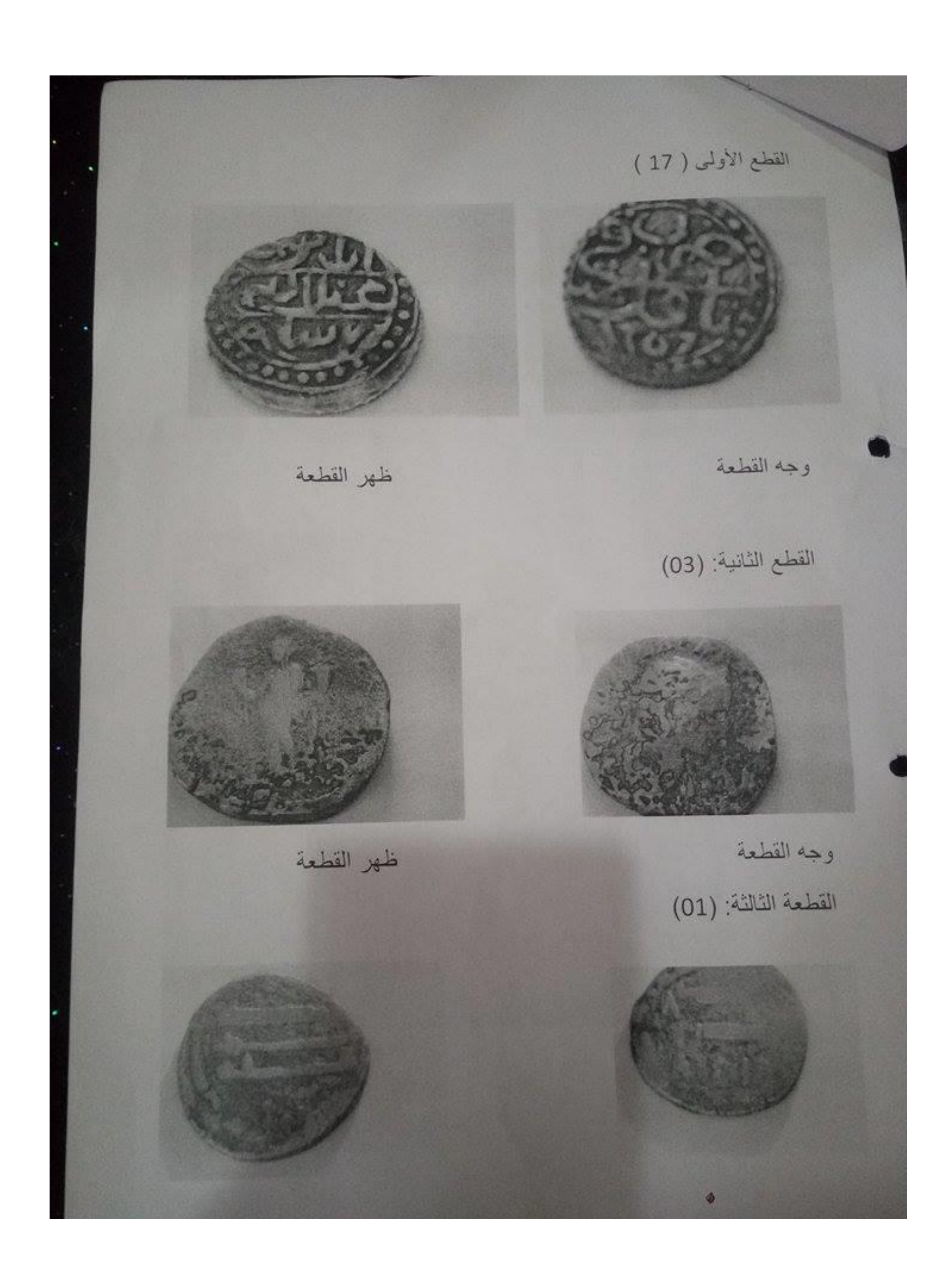
خلاصة القول أن جميع القطع النقدية و مجموعة الحلي التي استلمناها هي تحف أثرية وتؤرخ لفترة معينة وهي حلقة من حلقات التاريخ.

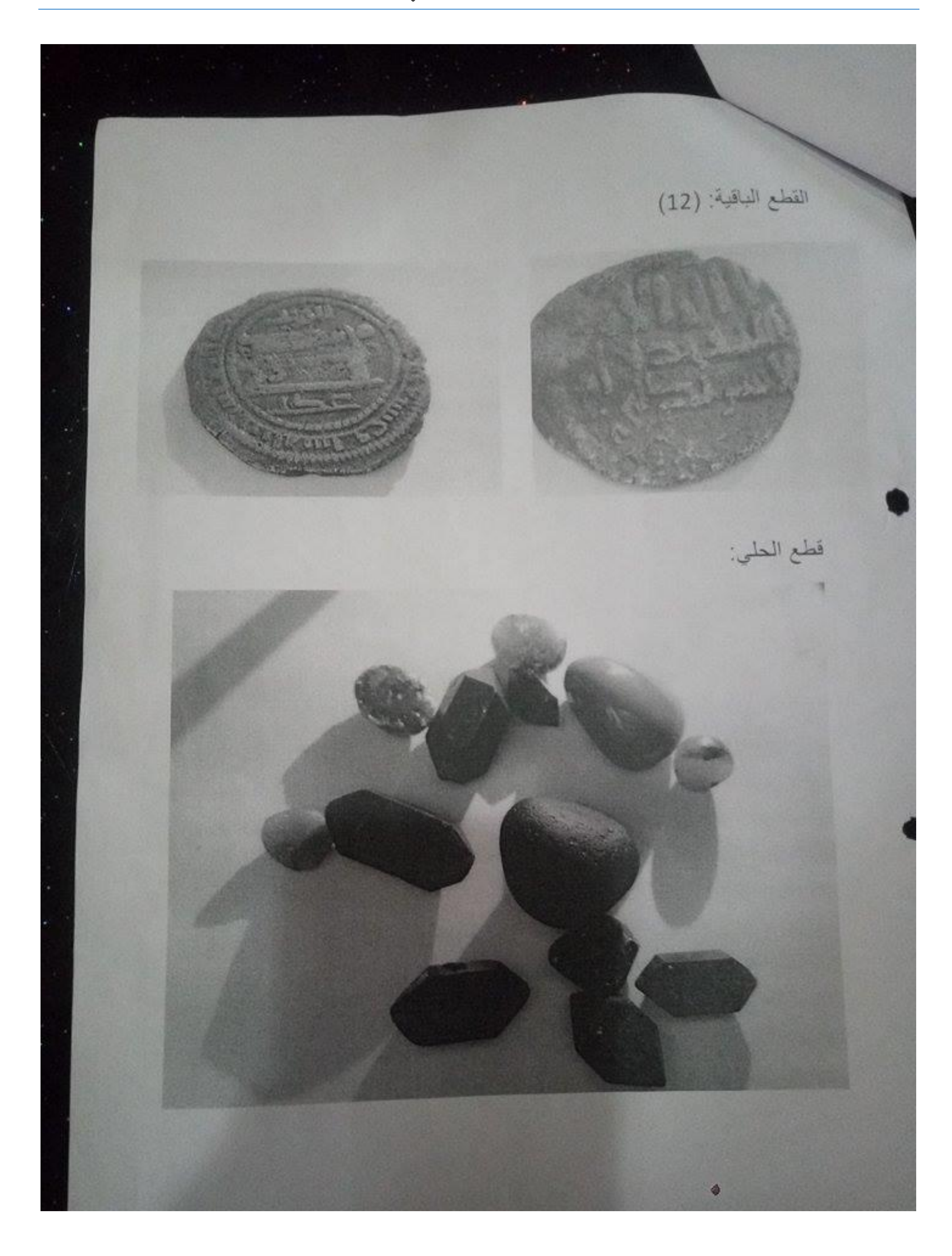
ملاحظة: الصور التي تثبت ما يوجد في التقرير هي مرفقة له.

محافظ الشرطة

نور الدين م...اري

محوز رشيد


القطع الأولى (17)
وجه القطعة
ظهر القطعة
القطع الثانية: (03)
وجه القطعة
ظهر القطعة
القطعة الثالثة: (01)



9- الديوان الوطني لتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية المحمية، مواقع أثرية، ولاية تيارت، تحت رقم: 017/ 2017.

الملحق: 11

صورة عن وثيقة تتضمن مراسالات الأمير عبد القادر إلى رئيس وزراء بريطانيا حول طلب دعمه وتأييده بالأسلحة مقابل منحه ميناء تنس. مؤرخة في 11أفريل 1840م

[أرشيف ما وراء البحار]



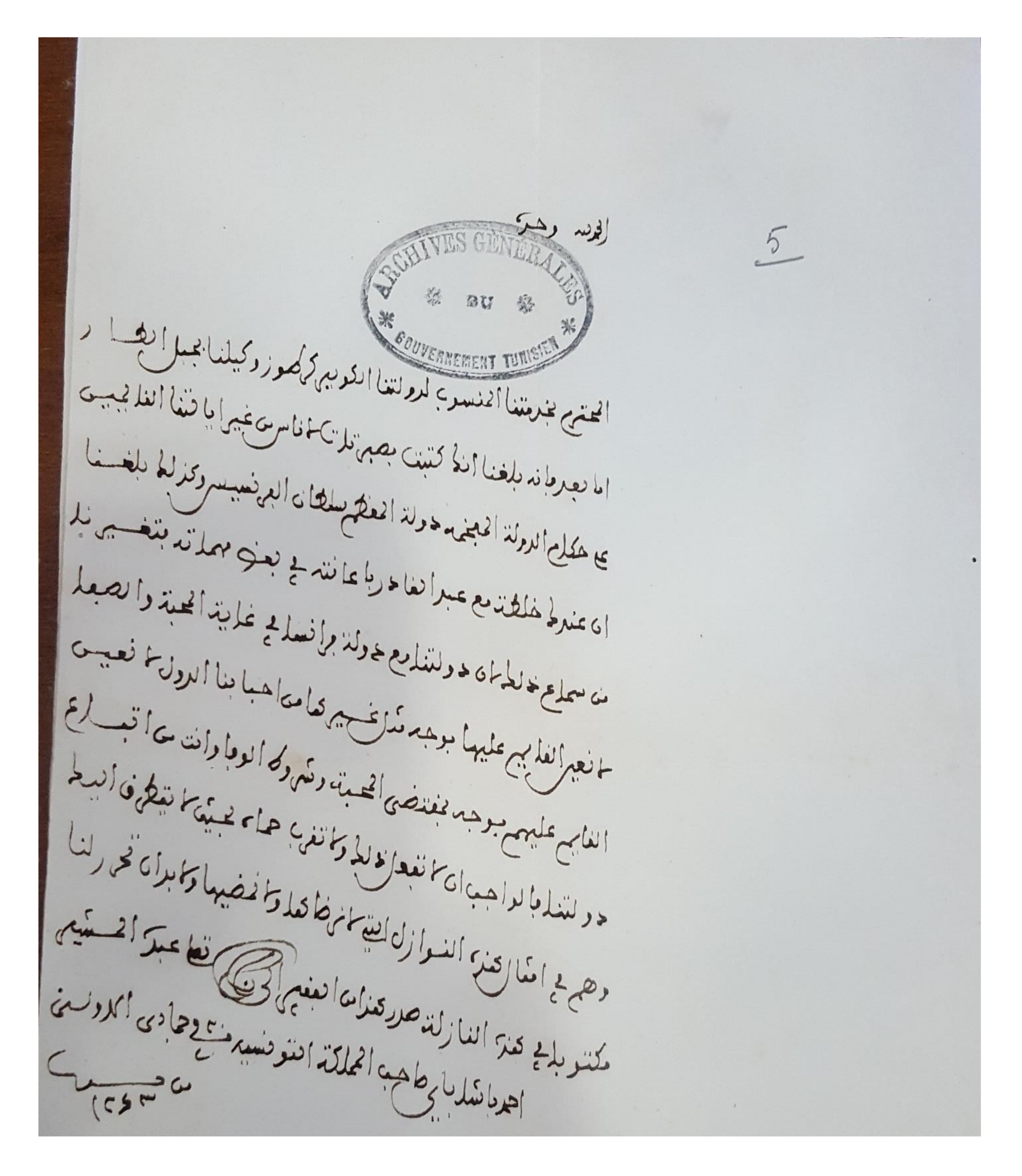
– A.N.O.M, Série F,O; 3/43.

إنه من أمير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين نصره الله وامين إلى المعظم [كذا] دولة الانجليز، لندرة السلام على من اتبع الحق والهدى، وبعد: فانه وقع بيننا وبين دولة الفرنصيص شرط مدة من نحو السنة بشأن مملكة الجزائر، فان سلمنا لهم البعض من الوطن وجعلنا بيننا وبينهم حدودا وحفظنا لبعض المراسي لنا، وكان مرادنا بعد ذلك أن نكاتبكم ونعرف دولتكم ونعطوكم مرسى مثل تنس، أو غيرها مما هو في يدنا تبيعون فيها وتشترون ما تحتاجون من الحب والقمح وغير ذلك ، ونحن نأخذ منكم ما نحتاج إليه، غير أن مدة سنين تأخذون من هذا المرسى ولا نأخذ منكم حقها من مخطاف وغيره، فيما بعد ذلك نتفق معكم على أمر معلوم ولم يتيسر لنا الكتب لعدم وجود من يعرف ارضكم ويخاطبكم في شان من ذكرنا لكم ،حتى وجدنا هذا الحامل المركانطي نصالي مينوتشي ولد قنصل الانجليز ببنزرت من عمالة تونس ،فوجهناه اليكم ليتكلم معكم فإن أردتم أن نجعل بيننا وبينكم متجرا فأخبروا دولتكم بذلك ،وانفصلوا الجميع مع الحامل، فإنكم أهل وفاء وعهد. وأما الفرنصيص فلا وفاء معهم ولا عهد، كما لا يخفى لكم وإن ظهر لكم ما ذكرنا لكم من أمر المرسى فلا نبيع لأحد غيركم من سائر الجنوس، وتأخذون ما تحتاجون بسوم بلادنا كما يتبايعون معشر العرب في بعضهم البعض ولا يزيدون عليكم شيئا في المرة المذكورة.

كتب في 08 صفر 1256هـ

الملحق: 12

صورة لوثيقة تتضمن توبيخ زكي كرطوزو من طرف الحكومة التونسية على مساعدته للأمير عبد القادر والتأكيد على العلاقة الطيبة مع فرنسا



الحمد لله وحده

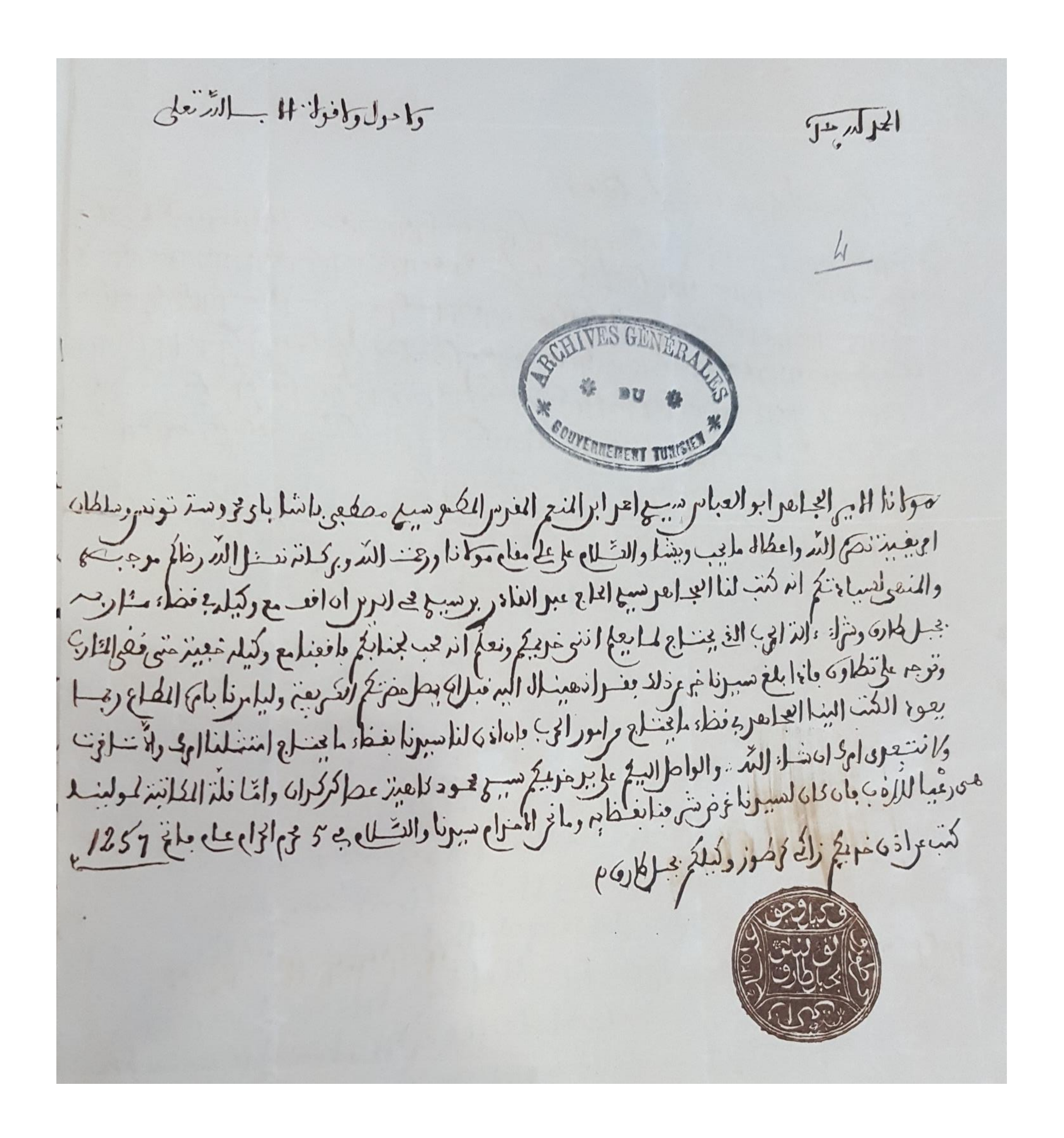
5

المحترم بخدمتنا المنتسب لدولتنا الكوبير كرطوزو وكيلنا بجبل الطار[ق]
لاناس من غير ايالتنا [illegible]
اما بعد فانه بلغنا انك كتبت بصحبة تلاث
في حكام الدولة الجليلة دولة المعظم سلطان الفرنسيس وكذلك بلغنا
ان عندك خلطة مع عبد القادر وربما اعانته في بعض مهماته فتغيرنا
من سماع ذلك لان دولتنا مع دولة فرانسا في غاية المحبة والصلح
لا نعين القايمين عليها بوجه فلن نرضى لمن كان من احبابنا الدول لا نعين
القايمين عليهم بوجه بمقتضى المحبة وشروط الوفا وانت من اتباع
دولتنا فالواجب ان لا تفعل ذلك ولا تقرب حمى هيئة لا تتطرق اليك
وهم في امثال هذه النوازل التي لا نرضاها لك ولا نرضيها ولابد ان تحرر لنا
[illegible] عنك [illegible]
مكتوب في هذه النازلة صدر هذا من الفقير الى [ربه] في جمادى الاولى
احمد باشا باي صاحب المملكة التونسية
من سنة [illegible]

10- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78 ملف 929، وثيقة رقم 05.

الملحق: 13

صورة لوثيقة تتضمن مراسلات زكي كرطوزو مع الحكومة التونسية حول طلب الأمير عبد القادر مساعدته في شراء الأسلحة



الحمد لله وحده

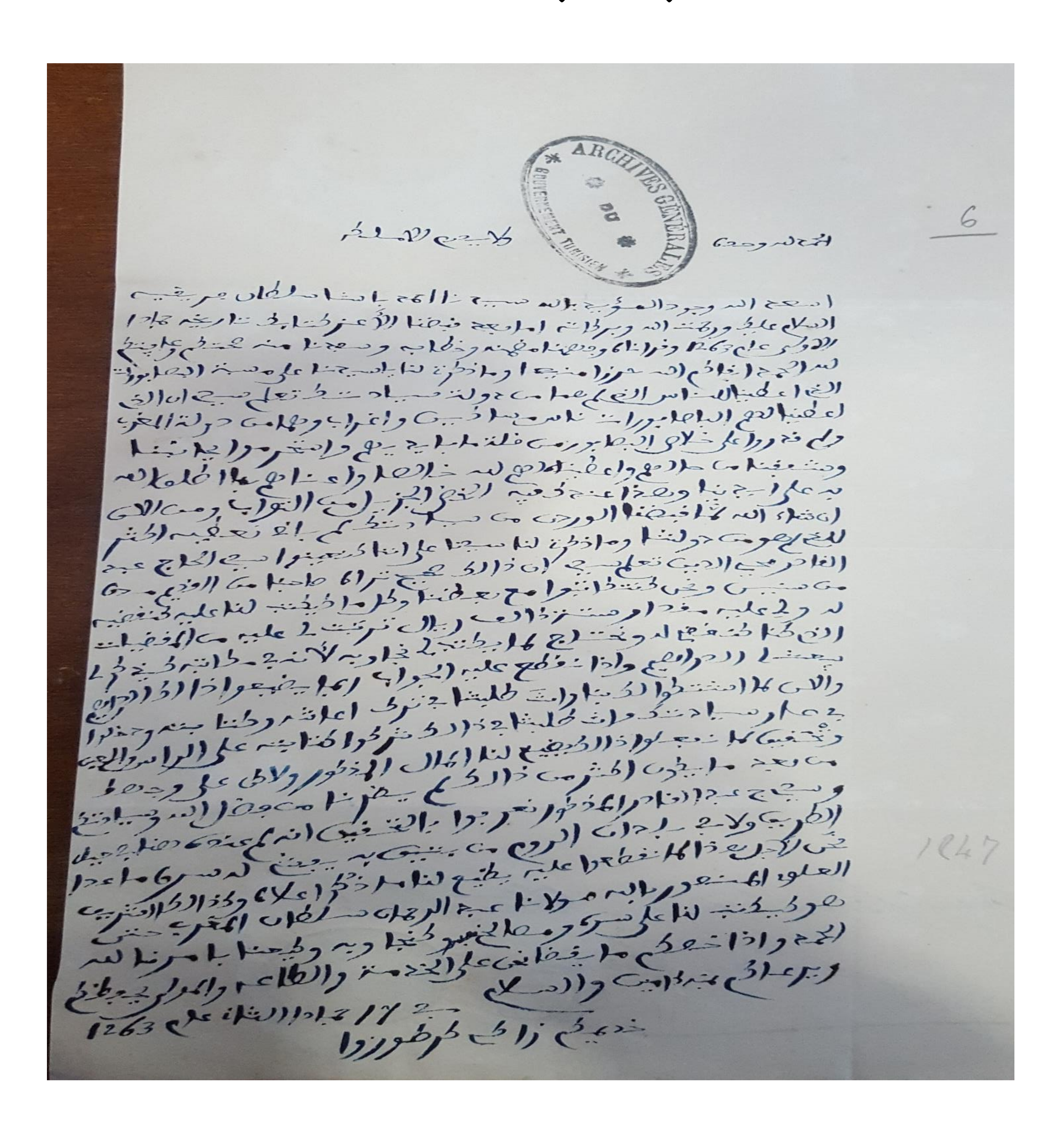
ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى

مولانا الامير المجاهد ابو العباس سيدي احمد ابن المنعم المقدس المكرم سيدي مصطفى باشا باي محروسة تونس وسلطان
افريقية نصره الله واعطاه ما يحب ويرضى والسلام على علي مقام مولانا ورحمة الله وبركاته نسال الله رضاكم موجبه
والمنهي لسيادتكم انه كتب لنا المجاهد سيدي الحاج عبد القادر بن سيدي محي الدين ان اتفق مع وكيله في قضاء مسائله
بجبل طارق وشراء آلة الحرب التي يحتاج لها بعلمه انني خديمكم ونعلم انه محب لجنابكم وقد اتفقنا مع وكيله خديمكم حتى قضى [illegible]
وتوجه على تطاوين واذا بلغ سيدنا خبر ذلك نقدر انه ينال اليه قبل ان يصل حضرتكم [illegible] وليامرنا بما هو المطاع ربما
يعود الكتب الينا المجاهد في قضاء ما يحتاج من امور الحرب وان اذن لنا سيدنا بقضاء ما يحتاج امتثلنا امره والا تركت
ولا نتعدى امره ان شاء الله والواصل اليكم على يد خديمكم سيدي محمود كاهية عسكر كركران وانما قلة المكاتبة لمولانا
هي رغبنا للاذن وان كان لسيدنا غرض فيشير به فنبادر لقضائه ومانح الاحترام سيدنا والسلام
كتب عن اذن خديمكم زاكي كرطوز وكيلكم بجبل طارق في 5 محرم الحرام عام 1257

11- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78 ملف 929، وثيقة رقم 04.

الملحق رقم: 14

صورة لوثيقة تتضمن مراسلات زكي كرطوزو إلى حكومته بتونس يعلن فيها استعداده التام لقطع العلاقة مع الأمير عبد القادر.



13- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78 ملف 929، وثيقة رقم: 06، مؤرخة في 17 جمادى الثانية 1263هـ/ 3 جوان 1847م.

الملحق: 15

إتفاقية طنجة 10 سبتمبر 1844م، الذي أمضاه باسم ملك المغرب بوسلهام بن علي أزطوط، وباسم عامل فرنسا كل من قنصلها العام والقائم بأعمالها لدى ملك المغرب وهذه ترجمة النص الفرنسي.

بنود المعاهدة:

الفصل الأول — إن الجيوش المغربية التي تجمعت بكيفية غير عادية على حدود المملكتين أو بجوار الحدود المذكورة سيتم تسريحها . ويلتزم جلالة ملك المغرب بأن يمنع من الآن فصاعداً كل تجمع من هذا القبيل . ويبقَى تحت قيادة قائد وجدة فقط فرقة لا يمكن أن يتجاوز عددها بكيفية عادية ألفي رجل . غير أنه يمكن الزيادة في هذا العدد إذا دعت الضرورة للمصلحة المشتركة ، وفي ظروف غير عادية ومعترف بها كذلك من لدن الحكومتين .

الفصل الثاني — يعاقب عقاب عبرة كل الرؤساء المغاربة الذين قادوا أو تساهلوا في أعمال عدوانية ارتكبت زمن السلم في التراب الجزائري ضد عساكر جلالة ملك فرنسا . وستطلع الحكومة المغربية ، حكومة فرنسا ، على الاجراءات التي ستتخذ لتطبيق هذا الشرط .

الفصل الثالث — يتعهد جلالة ملك المغرب من جديد ، وبكيفية باتة ومطلقة وكليةً . أن لا يقدم في منطقة حكمه ، ولا يسمح بتقديم مساعدة ولا غوث من مال أو ذخائر أو أي أشياء حربية ، لأي واحد من الرعايا الثائرين أو أي عدو لفرنسا .

الفصل الرابع — يعتبر الحاج عبد القادر خارجاً عن القانون في مجموع تراب المملكة المغربية والتراب الجزائري ، وبناء على ذلك ، يطارده الفرنسيون في الجزائر . والمغاربة في ترابهم الوطني بحد السلاح حتَّى يطرد أو يقع في أيدي هذه الدولة أو تلك . وفي حالة ما إذا وقع عبد القادر في يد الجيش الفرنسي فإن حكومة جلالة ملك فرنسا تتعهد بمعاملته بالاحترام والتكريم ، وإذا وقع في يد الجيش الملكي المغربي فإن جلالة ملك المغرب يتعهد باعتقاله في إحدَى المدن الساحلية غرب مملكته إلى أن تتخذ الحكومتان باتفاق بينهما ، الاجراءات الضرورية حتَّى لا يعود عبد القادر بأية حال لحمل السلاح ويقلق مرة أخرى راحة الجزائر والمغرب .

الفصل الخامس – إن تحديد الحدود بين ممتلكات جلالة عاهل فرنسا وجلالة ملك المغرب يبقَى مقرراً ومتفقا عليه طبقا لما كان معترفا به من لدن الحكومة المغربية في عهد حكم الأتراك بالجزائر . وسيكون التنقيح التام والمنتظم لهذا الشرط موضع اتفاقية خاصة تعقد في عين المكان بين المكلفين المعينين لهذا الغرض من قِبل جلالة عاهل فرنسا وبين مندوب عن الحكومة المغربية ، ويلتزم جلالة ملك المغرب بأن يتخذ بدون تأخير . لهذا الغرض الإجراءات الملائمة ويخبر بها الحكومة الفرنسية .

الفصل السادس – بمجرد إمضاء هذا الاتفاق تتوقف الاعتداءات من الجهتين . وحالما تطبق الفصول الأول والثاني والرابع والخامس تطبيقا يرضي الحكومة الفرنسية . فإن الجيش الفرنسي سينجلي عن جزيرة الصويرة ومدينة وجدة ويوضع على الفور تحت تصرف كل من الدولتين كل الأسرى لديهما .

الفصل السابع – يلتزم الطرفان الساميان المتعاقدان أن يشرعا بتراض منهما وبأسرع ما يمكن . في عقد معاهدة جديدة ترتكز على المعاهدات الجاري بها العمل حالياً ، ويكون الهدف منها تمتين وتتميم المعاهدات السابقة لصالح العلاقات السياسية والتجارية بين المملكتين ، وفي انتظار ذلك فإن المعاهدات السابقة تحترم بدقة ويلتزم بكل شروطها . وتتمتع فرنسا من جميع النواحي . وفي كل مناسبة . بمعاملة الدولة الأكثر تفضيلا .

الفصل الثامن – يصادق على هذا الاتفاق . وتتبادل المصادقة في أجل شهرين أو قبله إن أمكن .

وحرر يومه بـ 10 شتنبر من عام 1844 . الموافق لـ 25 شعبان من السنة الهجرية 1260 [110] . وأمضى هذا الاتفاق ووضع عليه طابعه كل من المندوبين المذكورين أدناه والمعينين من لدن جلالة ملك فرنسا وجلالة ملك المغرب [111] .

الامضاء : دوق دونيون دوقاز
دوق جلوكسبرج
(خاتم المندوب المغربي بوسلهام بن علي ازطوط)

13- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1994، صص204-206.

الملحق: 16

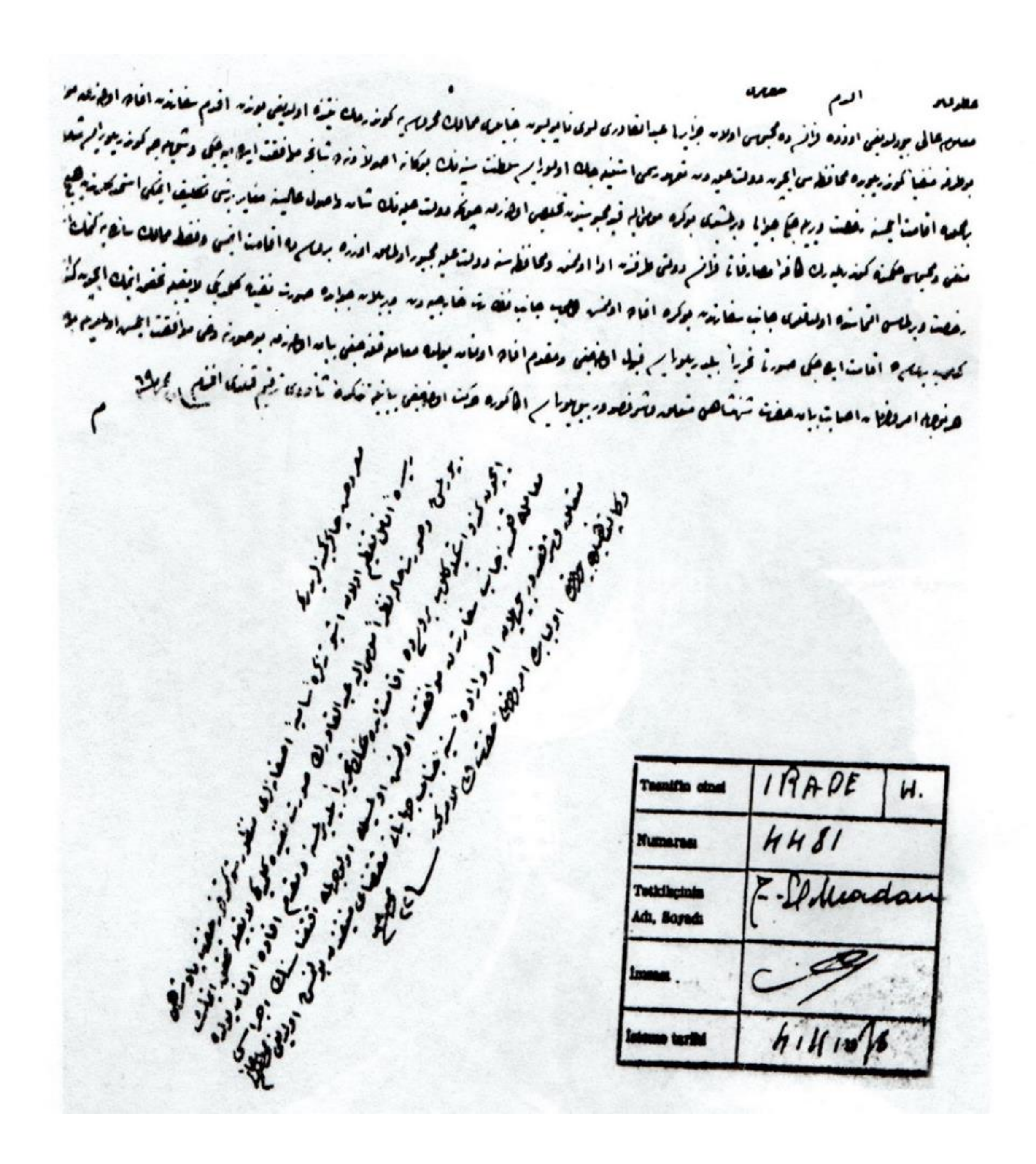
صورة لوثيقة من خطاب بقبول الأمير عبد القادر لعهد الأمان الذي أعطي له عند وقفه للقتال



14- ناصر الدين سعيدوني ، عصر الأميرعبد القادر، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للابداع الشعري، الكويت، 2000، ص360.

الملحق: 17

صورة عن وثيقة تتعلق بالموقف المشرف للدولة العثمانية بخصوص استقبال الأمير عبد القادر في مدينة بروسة بتاريخ 1269هـ/ 1852م-1853م



Tasnifin cinsi	IRADE	H.
Numarası	4481	
Tetkikçinin Adı, Soyadı	[illegible]	
İmzası	[illegible]	
İsteme tarihi	[illegible]	

15- ناصر الدين سعيدوني ، عصر الأميرعبد القادر، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للابداع الشعري، الكويت، 2000، ص361.

الملحق: 18

صورة عن وثيقة تتحدث عن الأضرار التي لحقت بعائلة مشاقة ودور الأمير عبد القادر في إنقاذها

رأينا من الواجب أن نضم هذا الفصل إلى حوادث الكتاب ، لما فيه من الحقائق الراهنة التي دونها الدكتور مشاقة على إثر حدوثها له ، والتي نسأل القارىء أن يتخذها قياساً محسوساً على ما أصاب بقية العائلات من المشاق والأخطار ، ونحن نتوخى أن نبقي نفس كاتبها بها على غاية ما يخولنا المقام ، قال :

« لما كنت متخذاً قيلولة ظهر نهار الاثنين الواقع في تاسع تموز من سنة ١٨٦٠ استيقظت مذعوراً على الصياح ، وإثر قرعة قوية على باب الـدار ، فسألت من هو الطارق ، وسبب الصياح ، فقيل لي إن الاسلام نهضوا لذبح النصارى ، وبدأوا بذلك ، فخرجت خارج البيت إلى باب الدار لأتحقق الأمر بنفسي ، فنظرت القوم تتراكض من كل حدب ، فتأكد عندي حقيقة الخبر ، وقفلت راجعاً إلى البيت أنتظر قدوم قواص القنصل الانكليزي المستر برانت، الذي كان ولدي ناصيف موظفاً عنده ، وفيما على ذلك دخل علي رجلان من أتباع محافظ الحي ، وصحبتهما رجل مسيحي كان التجأ إلى بيت المحافظ فأرسله الي ، وبعد قليل حضر القواص المسلم ، وعند حضوره أرسلته إلى الأمير عبد القادر الجزائري ، وطلبت منه رجالاً ليوصلوني إليه ، فما لبث أن رجع ، وقال : ان الأمير كان غائباً عن البيت ، وحضر في ساعة وصولي ، ودفع إلي ستة من رجاله ، إنما لم يمكنهم الوصول معي لأنهم أعزال ، والطرقات مزدحمة بالثائرين ، فلا يقدرون على المحافظة عليك بدون سلاح .

فلبثت أنتظر قدومهم بعد أن يتسلحون ، وفيما كنت منتظراً هجم علي شرذمة من العصاة ، وقصدوا الايقاع بي ، ولما لم يقدروا على اغتصاب الباب ، جعلوا يضربونه بالبلطات والفؤوس حتى كسروه ، ودخلوا الدار وتقدموا إلى البيت ، وصاروا يطلقون على النوافذ الرصاص ، وعالجوا الباب ليخلعوه .

وعندما ادركت الخطر ، ولم يحضر لنجدتي أحد ، خرجت من الباب الخلفي بعد أن أخذت معي مبلغاً من المال ، ولم استصوب نقل السلاح لئلا يزيد هياج الثوار علي ، وتبعني القواص وولدي ابراهيم وابنتي واتخذت وجهتي دار الأمير وبينما أنا أعدو بمن معي ،قابلني جمهور من الثوار ، هجموا علي مشهرين السلاح ، فرشقتهم بقبضة من المال ، فرجعوا لجمعها ، وابتعدوا عني ، فنجوت منهم وواصلت سيري وقبل أن أبلغ المحل المقصود ، اعترضني جمهور آخر ، ففعلت معهم كما فعلت بالأولين ، وأشغلتهم بالتقاط المال الذي رميتهم به ، وتراجعوا عني قليلاً ، وأصبح الموت ورائي وأمامي ، فدخلت في زقاق ضيق يمكن الوصول منه إلى دار الأمير ، ورجوت عدم وجود أحد على الطريق ظاناً أن أهل جواره ذهبوا للجهاد إلى حي النصارى ، وخاب فألي حيث رجال الزقاق كانت قد عادت من أشغالها لأخذ سلاح من بيوتها ، وتذهب لذبح الكافرين .

فالتقيت بهم ولـم يعد لي منهم منج ، فحاطوني من كـل الجوانب ، وتقدموا إلي يبغون سلبي أولاً ، وقتلي ثانياً ، وكانت ابنتي تصرخ اقتلوني قبل والدي وأبقوا عليه ، أو اقتلونا قبل أن توقعوا به شراً ، فتقدم أحدهم إلى ابنتي وانتهرها بالسكوت ، ولما لم تفعل ضربها فشج رأسها ، وأسال دمها ، ثم أطلقوا علي النار وأخطأوني ، مع أن المسافة بيني وبينهم ستة أقدام فقط .

ثم هجموا علي بالبلطات والنبابيت ، فجرحت بجبهتي وتهشم جانبي الأيمن ووجهي وذراعي من ضرب نبابيتهم ، وكثرة ازدحام أقدامهم حولي ، ولم يعودوا قادرين على اطلاق الرصاص لخوفهم من إصابة أحد منهم .

فخدعتهم بقولي إني كنت ذاهباً إلى البك محافظ المحلة بشغل له ، إنما اجتماع القوم ، وحشد الجماهير أوقفني عن اتمام مهمتي ، فخذوني إليـه وصدف أن جماعة منهم من أخصاء البك المذكور ، فقالوا نحن نأخذك إليه .

فساقوني إليه عقب أن سلبوا مني ما تبقى معي من المال ، حتى لم يتركوا على رأسي طربوشي ، وأخـذوا ساعتي وتبعني جمهور كبير ، وفيما نحـن سائرون بالطريق لحقنا درويش التعصب يزيد بتعصبه على كل أفراد الجمهور،

وكان متعمماً بعمامة خضراء ، وشعوره مدلاة مكحل عيونه ، وبيده عصا طويلة وضع على رأسها منجلاً .

وكان يمد عصاه من فوق رؤوس الرجال المحدقة بي ليقطع رأسي بمنجله ، فما توفق للعمل ، ونجوت منه ومن معي ، ووصلت إلى دار المحافظة بمصلبة باب توما ، فلاقاني المحافظ المذكور وفرق عني الجموع واعتذر إلي آسفاً على ما لحق بي من الإهانة ، ثم وضعني في بيت أحد اتباعه ولا يوجد به سوى امرأة عجوز وهي صاحبة البيت ، واطلعني مع القواص إلى قصر يطل على الطريق ، وكان باقي من النهار ثلاث ساعات ، ولما خلوت بنفسي ضربت أفكاري لعائلتي وما ترى كان أمرها مع المتعصبين ، وماذا جرى لكل فرد منها ، وما إذا كانوا بجوع أم عري ، وفيما إذا أحرق الثوار داري أم أبقوها ، ثم إذا كانوا أحياء ، فعلى أي فراش ينامون ، وبأي غطاء يتغطون ، لأنني ابقيت الثوار يعالجون الباب ، وأنهم سوف لا يبقوا عليه ولا يذروا ، ثم لا علم لي بما وقع لهم أفراداً وإجمالاً ، وخصوصاً ابنتي التي ضربها ذلك الوغد بالبلطة وشج رأسها ، وفيما هل وجد بين أولئك الطغاة من بقلبه حنان كاف ليضمد لها جرحها ، ثم أطلقت تصوراتي نحو زوجتي وطفلها الرضيع ، ووالدتها ، وخالتها اللواتي فارقتهن بالبيت عند خروجي منه ، فماذا حل بهم يا ترى ؟ ...

ثم افتكرت بأولادي الكبار ، وماذا حل بهم ، وهكذا كانت تنازعني الأفكار والهواجس وأنستني ألمي وأوجاعي .

ثم سمعت صوت دوي البنادق ، والنار ببيوت النصارى التي كانت تقصف بالرعد ، وكثر وفود الدروز وإسلام القرى المجاورة للمدينة ، واشتركوا بالجريمة والمذبحة كل ذلك كان من البواعث التي أنستني آلامي فطليت من إحدى نوافذ المقصورة فنظرت المحافظ آتياً لبيته بجملة عيال ورجال ، ففكرت كيف أنه لم يأخذني إلى بيته إذا كان يقصد الذب عني ، وترجح عندي أنه يضمر لي الشر ، ولولا ذلك لما أتى بي إلى هذا المكان المجهول ، فهو ينتظر سدول الظلام ، لبرسل من يقوم بقتلي لأنه لا يتجرأ عليه جهاراً .

ففكرت بعرض أفكاري هذه على القواص لئلا يصيبه شراً بسببي . لأنهم قد يقتلونه معي لإخفاء الجريمة ، فقلت له ما أنا مفكر به ورجوته أن يخبي نفسه ، لأني عازم على النجاة بالهرب بعد سدول الظلام لبيت المحافظ الذي لا يبعد أكثر من ثلثمائة خطوة .

ولا يلزم لي أكثر من دقيقتين فاوصل إليه ، وهناك عنده ما ينيف عن ثلثمائة من الملتجئين ، وهناك أطلب رجالاً من الأمير الجزائري ، فيرسلهم إلى نصرتي .

فاستوصب القواص أفكاري ورأيي ، وقال لي إذا كان المحافظ يريد بك شراً فسوف ينتظر الظلام ليرسل من يفتك بك وإلا فلا ، أما أنا فلا أريد ان أفارقك البتة ، بل أريد أوصلك لبيت المحافظ ، ثم أذهب بخبرك للأمير وإذا خرجت الآن وتركتك أخشى من أن يعاقبوني على الفرار ، وتركك لوحدك فلا أفعل وأنا كذلك منتظر سدول الظلام ، ليقضي ربك أمراً كان مفعولاً .

وبت منتظراً الظلام وأنا على مثل الجمر والطريق مزدحم بالمارة بتواردهم من القرى ، رغبة في القتل والسلب ، وعند سدول الظلام ، ظهرت سبعة رجال شاكين السلاح جاؤوا وطرقوا باب الدار . ففتحت لهم العجوز ، فسألوها اين هو ميخائيل مشاقة ، فدلتهم على المقصورة التي تضمني داخل جدرانها ، حينئذ قنطت من الحياة ولبثت منتظراً تسليم الروح ، فأشرت على القواص بتسليق الجدران والذهاب بخبري لئلا أذهب ضياعاً ، وفيما أنا على ذلك سمعت صوتاً ندهني : يا ميخائيل مشاقة انزل لعندي أنا صديقك السيد محمود السوطري ، جئت برجال الأمير عبد القادر لكي تكون عندي آمناً فلا تخاف فما عليك من بأس .

فنزلت إليهم فألبسوني هدوم المغاربة ، ومشوا جماعة خلفي وأمامي ومعهم ابن شقيق المحافظ ، وكنا ندوس فوق جثث القتلى بالأزقة ، حتى وصلنا

لدار الأمير ، فوجدناها مزدحمة وقد ضاقت [على] رحبها بالعالم الملتجئين إليها دفع عنهم الأمير الأذى وأغاثهم ، وكان هذا الشهم الباسل متقلداً سلاحه ، ومعه رجاله البواسل ، ودام على هذا المنوال ثمانية أيام وثماني ليالي لم ينزع سلاحه ولا حذاءه ، ومثله رجاله ، وإن اعياه النعاس كان ينام قليلاً على حصير بباب داره .

فالتمس السيد محمد سوطري من الأمير أخذي إلى بيته لشدة الازدحام عنده ولكوني مثخناً بالجراح فيلزمني الراحة ، فأجاب الأمير ملتمسه ، وذهبت مع هذا الشهم لبيته وبعد أن استقر بنا القدم ، سألني عن عائلتي وما جرى عليها ، وأين هي ليستحضرها لعندي ،فأجبته بما جرى وأني لا أعلم من أمرها شيئاً سوى أن ولدي كان معي وابنتي ، وعندما ضربوني وضربوا الابنة فرقوني عنهما ولا أدري كيف آل أمرهما ، وزوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها تركتهم بالبيت ، عندما هاجمه المتعصبون ، وأبنائي الكبار أحدهم بقنصلية الانكليز والآخر بمدرسة بطريركية الروم الارثوذكس ، ولا أدري ما اتصلت إليه حالهم ، فقال لي : ان قنصلية الانكليز دون باقي القنصليات لم ينتهك حرمتها الثائرون ، فكن مطمئن على ولدك بها ، أما باقي العائلة أمضي للبحث عنها في هذه الساعة ، وأحضرها إليك إنما أخشى من أنهم لا يعرفوني لعدم سابق معرفتي فيهم ، فأطلب اليك ارسال القواص معي ليطمنهم عنك ، ويخبرهم بأنني لا أريد بهم شراً .

فأجبت فليكون ما تريد أيها الشهم الهمام ، وأصحبت معه القواص ، فذهبا سوية وفتشا عن العائلة وبعد قليلاً رجعا بها إليَّ ، إلا ولدي سليماً فذهب للتفتيش عنه فعاد ولم يقف له على خبر ، فظننا أنه من بين المقتولين ، ثم سألت سوطري آغا عن كيفية معرفته بمحل إقامتي ، أجاب أننا عند بدء المذبحة كنا ظننا أن المسألة جزئية ، وأن الوالي لا يدع الخرق يتسع لهذا الحد .

وعندما خبرنا ما جرى بباب البريد ، وددنا منع أولاد النصارى من الاشتراك مع الثائرين ، فقلعنا باباً من القصب ووضعناه في الزقاق الموصل لحي المسيحيين ، فجاء جمهور من أكراد الصالحية ، وكسروا الباب ، وتقدموا إلى جهة الحي حينئذٍ ترجح لدينا حصول الأذى عليك وعلى بيتك .

فحضرت وفحصت عنك ، فعلمت ما توقع لك ، فذهبت لمحافظ المحلة وطلبتك منه فأنكر وجودك أولاً فذهبت ، وأطلعت الأمير على حقيقة الأمر ، فأرسل معي رجاله للافراج عنك بالقوة ، وجئنا للمحافظ وأرغمناه على الإقرار بمكانك ، فأرسل ولد شقيقه معنا ليدلنا على مكانك ، وكان ما علمت .

وفي ليلة أول المذبحة حضر القنصل الانكليزي ليفتقدني ، فطمني عن ولدي ناصيف ،فبقي ولدي سليم لم أقف على خبره مدة ثلاثة أيام المذبحة الأولية ، ولم يعثر عليه بين القتلى التي ملأت الشوارع والأزقة والآبار والخرائب ، وبعد وقوع التنبيه والتهديد من المتعصبين على المسلمين الذين أغاثوا مسيحياً عندهم ، حضر مسلم تركي إلى قنصل الانكليز ، وأخبره بأنه متزوج بابنة علي آغا خزينة كاتبي في بيتها الذي يسكن به ، ضمن الدار الخارجية المستر رابصون المرسل الانكليزي ، وكان عندها سليم مشاقة مختبئاً ، ونخشى عليهم من فتك الرعاع .

فأرسل ولدي ناصيف فطمني عن شقيقه سليم ، وأن جنداً من المغاربة ذهب ليحضره إلى مركز القنصل ، فتطمنت قليلاً إلا أنني بت أوجس خيفة على دار الأمير عبد القادر ، من سطو رعاع الإسلام عليها ، لأن أوباش هذه الطبقة كانت حانقة على الأمير لإنقاذ النصارى من مخالبهم .

فأرسلت إبراهيم إلى عند اخوته لدار القنصلية المزدحم بها المسيحيون من وطنيين وأجانب ، الذين عندما نظروا احتراقها ، هرعوا للاحتماء بها ، أما القنصل فلم يهمل أمر صيانة داره من الأوباش المتحمسين ، بل أحضر جنداً من رجال الأمير الجزائري ،للذب ونفراً من طرف الوالي .

أما أنا فبت ببيت سوطري آغا منشغلاً بتضميد جروحي ، ومداواة رضوضي التي أحدثها ضرب النبوت . وزاد على مصابي هذا إفلاسي لأنه لم يبق لي ما اشتري به لوازم الحياة ، والطرقات مسدودة ، ولا وصول لي إلى

ما يلزمني ، فأحد العلماء المشهورين افتقدني بثوب من ملابسه ، لأن ثوبي كان مخضباً بالدم ، مع بعض ريالات ظننتها مزدوجة لشدة حاجتي إليها •

فاشتريت بها ما كان لازماً لي ، وهكذا ولدي ناصيف أرسل لي ما كان معه من الدراهم ، وبعد حضور معمر باشا ومناداته بالأمان سلكت الطرقات . وحضر لي دراهم من الخارج اشتريت بها الكسوة التي تلزم لي ولعيالي •

وبقيت شهراً بدار سوطري آغا إلى أن شفيت من جروحي ، أما بيتي فلم يحرقه الثوار لقربه من بيوت المسلمين ، إنما أخذوا أخشابه وبلاطه ، وقطعوا أشجاره وخربوا منه ما أمكنهم تخريبه ، ولما لم يعد يصلح للسكنى ؛ فحضرة الشريف محمود أفندي حمزة ، الذي هو مفتي الشام في تلك الأيام أخلى داره الخارجية ، ودعاني للسكنى عنده ، فقبلت شاكراً وانتقلت لداره فأقمت بها إلى أن قدم فؤاد باشا لدمشق ، فبنوا لي بيتاً للسكنى ؛ بينما يفرغون من تعمير ما تهدم من بيتي ، ومما تعزيت به على مصيبتي هو أني لما كنت مقيماً بدار محمود حمزة ، حضر لعيادتي السيد محمد أمين مفتي بلاد بشارة ، فقال لي : يا صديقي ماذا جرى لكم ؟ أجبته ما تراه : فقال إن دماءكم سفكت ونساءكم سبيت ، وبيوتكم هدمت بيد بعض اسلام دمشق ، فهل جرى عليكم غير ذلك؟ أجبته أفلا يكفي ما حل بنا من النكبات، وما دهمنا من الكروب؟ قال : يجب على العاقل أن يتناسى [مصيبته] في مصيبة غيره ، ألا طالعت تواريخ الاسلام ، أليس الذين قتلوا حفداء النبي وسبوا حريمه ، وهدموا الكعبة المشرفة ، كانوا من اسلام دمشق ؟ قلت : بلى ، قال : إذاً تأسوا بما أصاب المسلمين منهم قبلكم ! •

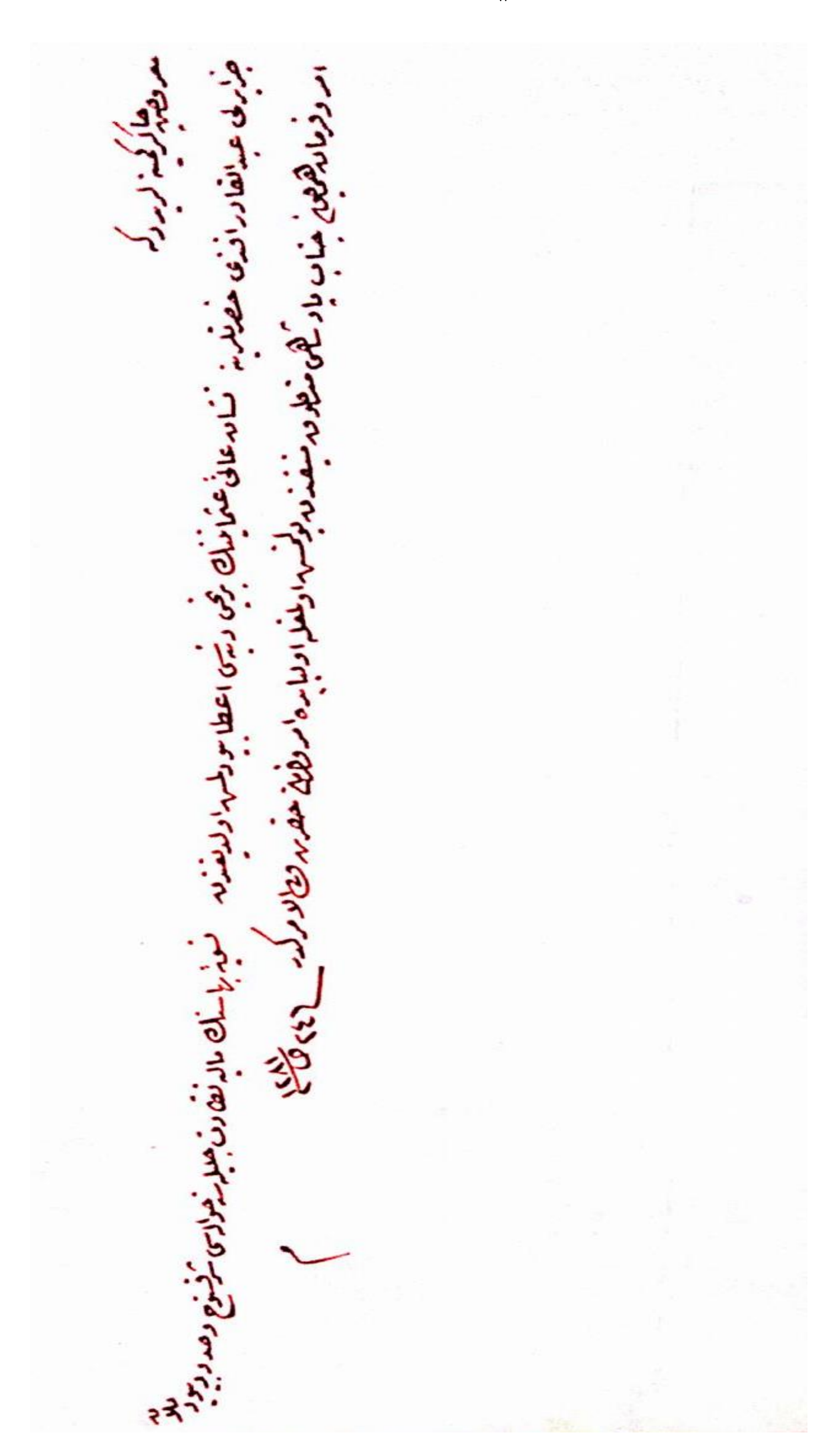
وكان الاسلام يخيرون النصارى ، إما بالاسلام ، وإما بقتلهم ، وقد اقدموا على العجائب » •

هذا الذي لحق الدكتور مشاقة ، مع الوسائط التي له ، وغيره محروم منها ، فقس على ما قصه لنا بما لحق بقية النصارى بذات النكبة ، التي ما بعدها نكبة ، وبلغ عدد قتلى دمشق أكثر من ستة آلاف نفس •

16- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام 1860م ومقدماتها في سوريا ولبنان، دراسة وتح: سهيل زكار، التكوين للدراسات والترجمة والنشر، د.ط، دمشق، 2006، صص 263-269.

الملحق: 19

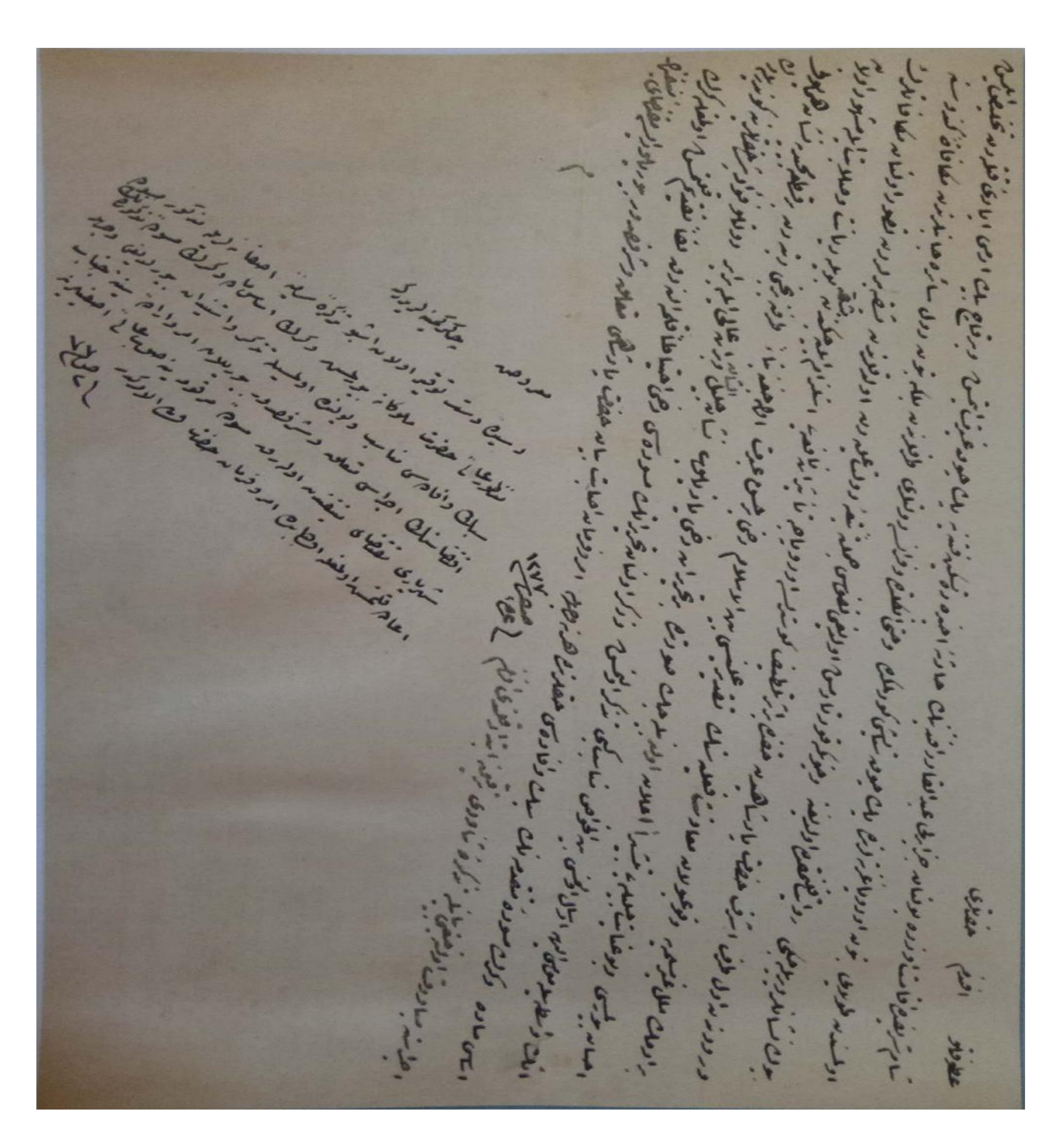
صورة لوثيقة تتعلق بتكريم الأمير عبد القادر من طرف الدولة العثمانية بالنوط العثماني من الدرجة الأولى



17- Osmanli Arsivi, I.HR, 12335.

الملحق: 20

صورة لوثيقة تتعلق باعتزام الدول الأوربية منح الأمير عبد القادر أوسمة تقديرا لجهوده لإخماد فتنة دمشق 1860م. مؤرخة في 20 أوت 1860م.



20- Osmanli Arsivi, I.MMS, 864-1.

الملحق: 21

الصفحة الأولى من مخطوطة حسام الدين لقطع شبه المرتدين للأمير عبد القادر بن محي الدين.

18- عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الجزائري، مخطوطة حسام الدين لقطع شبه المرتدين، معهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو، تحت رقم: 8331، N.O.S 21.

قائمة البيبليوغرافيا

❖ القرآن الكريم:

❖ المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ- الوثائق الرسمية المنشورة:

- مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان، جمع وترجمة فيليب وفريد الخازن، وقد صدرت بثلاثة أجزاء وهي مأخوذة من الكتاب الأزرق الإنجليزي ومن مجموعة دوتستا فيما يخص شؤون سوريا ولبنان بين (1840م-1861م)، وفي المحررات أوراق رسمية أخرى مستقاة من بعض الكتب والنشرات العربية والأجنبية، ومن ضباط البرلمان الفرنسي. طبع في مطبعة الصبر في جونية 1910م-1911م.

- الجزائر في الوثائق العثمانية، المديرية العامة لدور المحفوظات، رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، رقم المنشور 115، سيستام أوف سات، أنقرة، 2010.

- **الأرشيف العثماني بإستنبول** (خط همايوني تحت رقم 29) يتضمن وثيقة بمنح الداي حسين رتبة مير ميران على الجزائر، المؤرخة في 11 أفريل 1818م. [Osmanli Arsivi, HAT, 29].

- // // // (خط همايوني تحت رقم 46427) يتضمن وثيقة حول إتفاقية التافنا المنعقدة بين الأمير عبد القادر والدولة الفرنسية، المؤرخة في 18 ماي 1837م.[Osmanli Arsivi, HAT 46427-C].

- // // // (الإرادة الخارجية) تتضمن وثيقة حول تكريم الأمير عبد القادر بالنوط العثماني من الدرجة الأولى، مؤرخة في 25 أكتوبر 1864.[Osmanli Arsivi, I.HR, 12335].

- // // // (الإرادة الخارجية) تتضمن وثيقة حول إستنجاد الأمير عبد القادر بالدولة العثمانية لدعمه ماديا ومعنويا من أجل القضاء على الإحتلال الفرنسي، المؤرخة في ديسمبر 1841.[Osmanli Arsivi, I.HR, 821].

- // // // (الإرادة الخارجية) تتضمن وثيقة حول إجراء لقاء بين الأمير عبد القادر القادم من سجون فرنسا، وبين السلطان العثماني وإجرءات إرساله إلى بروسة بعد اللقاء، مؤرخة في 24 ديسمبر 1852.
[Osmanli Arsivi, I.HR, 4556].

- // // // (الإرادة الخارجية) تتضمن وثيقة حول تغطية قيمة بيت الأمير في بروسة ونفقات تأثيثه، مؤرخة في فيفري 1853م. [Osmanli Arsivi, I.HR,4620].

- // // // (الإرادة الخارجية) تتضمن وثيقة إعلان الدولة العثمانية عن ولاء الأمير عبد القادر لها، وأن التقارب الذي حدث بينه وبين الفرنسيين أثناء معاهدة التافنا لم يكن إلاّ لغرض سياسي محض، مؤرخة في 1841/1840.
[Osmanli Arsivi, I.HR, 8/386].

- // // // (إرادة المجلس الخاص) تتضمن التبليغ باعتزام الدول الأوربية منح الأمير عبد القادر أوسمة وذلك تقديرا لجهوده في إخماد الفتنة الطائفية بدمشق أثناء إقامته فيها. مؤرخة في 20 أوت 1860م.
[Osmanli Arsivi, I.MMS, 864-1].

ب- الوثائق الأرشيفية:

- **أرشيف الحكومة التونسية:** حافظة 78- ملف 929- عدد الوثائق 94 وثيقة- الفترة الزمنية 1841م-1878م- تتضمن مراسلات صادرة عن الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري الحسني المقيم بالشام خاصة بتقديم تهاني وشكر ومدح لوزراء وقضاة تونسيين، ومطالب متعلقة بتوسيم وإقامة بالبلاد التونسية.
- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78 ملف 929، وثيقة رقم: 05 مؤرخة في 30 جمادى الأولى 1263هـ/17ماي 1847م. تتضمن توبيخ زكي كرطوزو من طرف الحكومة التونسية على مساعدته للأمير عبد القادر والتأكيد على العلاقة الطيبة مع فرنسا.
- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78 ملف 929، وثيقة رقم: 04 مؤرخة سنة 1257هـ/1841م. تتضمن مراسلات زكي كرطوزو مع حكومته حول طلب الأمير المساعدة منه في شراء الأسلحة.
- أرشيف الحكومة التونسية، صندوق 78 ملف 929، وثيقة رقم: 06، مؤرخة في 17 جمادى الثانية 1263هـ/ 3 جوان 1847م. تتضمن مراسلات زكي كرطوزو إلى حكومته بتونس يعلن فيها استعداده التام لقطع العلاقة مع الأمير عبد القادر.

ت- المخطوطـــات:

- الجزائري عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى، مخطوطة حسام الدين لقطع شبه المرتدين، معهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو، تحت رقم: 8331، N.O.S 21.
- الحسني محمد السعيد بن محي الدين، نبذة عن حياة الأمير عبد القادر وأسرته، رقم:0009، خزانة الأمير عبد القادر.
- المشرفي بن عبد القادر العربي، ذخيرة الأواخر، م.خ.ع، الرباط، رقم:ك2659.
- المشرفي بن عبد القادر العربي، ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، م.خ.ع، رقم: 1534د.
- المشرفي بن عبد القادر العربي، نزهة الأبصار لذوي المعرفة والإستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي محمد وولده الحسن، م.خ.ع، الرباط، رقم:5616. وتحت رقم:ك579.
- الجزنائي أبو الحسن علي [ق9هـ]، تاريخ مدينة فاس المسمى بجنا زهرة الاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، مخطوطات الأزهر،رقم:323260.

ث- المصادر المطبوعة:

1- أبكاريوس اسكندر بن يعقوب، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تح: عبد الكريم إبراهيم السمك، رياض الريس للكتاب والنشر، د.ط، بريطانيا، 1987.

2- الأصبحي مالك بن آنس، الموطأ، تح: طه عبد الرؤوف سعد، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2016.

3- بن أرويلة قدور، وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1968.

4- إسكوت الكلونيل، مذكرات عن إقامته في زمالة الأمير(1841)، تر: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.

5- الإدريسي محمد عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، تح: عبد الله الخالدي، ج1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د س.

6- آرجمنت كوران، السياسة العثمانية اتجاه الإحتلال الفرنسي للجزائر، تر: عبد الجليل التميمي، الشركة التونسية لفنون الرسم، د.ط، تونس، 1970.

7- بكار بلهاشمي، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة إبن خلدون، تلمسان، 1961.

8- بيرنت يوهان كارل، الأمير عبد القادر، تر: أبو العيد دودو، دار هوما، الجزائر، 1996.

9- البيطار عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ج1، تح وتع: محمد بهجة البيطار، دار صادر، ط2، بيروت، لبنان، 1993.

10- بيربروجير أدريان، مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة 1837م-1838م، تر وتع: سعد الله أبو القاسم، منشورات المركز الوطني للدرسات والبحث في الحركة الوطنية، الطباعة العصرية، الجزائر، 2006.

11- البيضاوي ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تق: عبد الرحمن،ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.س.

12- بربروس خير الدين، مذكرات خير الدين بربروس، تر وتع: محمد دراج، الأصالة للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2013.

13- إبن التهامي مصطفى، حياة الأمير عبد القادر، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم:2592.

14- بن التهامي مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تح وتق وتع: يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، د.ط، 2009.

15- البدري أبي البقاء عبد الله، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، د.ط، بيروت، لبنان، 1980.

16- بن تيمية أحمد، لمجموع فتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم ساعده ابنه محمد، المجلد 10، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 2004.

17- تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، تر وتع: أبو القاسم سعد الله ، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2011.

18- // // ، حياة الأمير عبد القادر، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسيية للنشر، تونس، 1974.

19- التونسي خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية، ط1، 1868م.

20- التسولي علي بن عبد السلام، رسالة في أجوبة على أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري، تح وتع: محمد البنعيادي، تق: محمد أبياض، مطبعة ووراقة بلال، ط1، فاس، المغرب،2014.

21- التوجيني أبي زيد عبد الرحمان بن عبد الله، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، ط1، المسيلة، الجزائر، 2005.

22- ثورة الأمير عبد القادر من خلال ثلاث مخطوطات، تح: مختار حساين، دار الحكمة، د.ط، الجزائر، 2007.

23- الجزائري الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري 1807م-1883م، شرح وتق: العربي دحو، منشورات تالة، ط3، الجزائر،2007.

24- // // ، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، إعتنى به الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، ج2، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2004.

25- // // ، مذكرات الأمير عبد القادر سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تح: محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمّة، ط7، الجزائر، 2010.

26- // // ، رسالة إلى الفرنسيين، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تح: عمار الطالبي، منشورات ANGP، د.ط، الجزائر، 2005.

27- // // ، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تح: ممدوح حقي، دار اليقضة العربية، د.ط، بيروت، لبنان، 1966.

28- // // ، ديوان الأمير عبد القادر، شرح وتح: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، د.ت.

29- // // ، المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تح: محمد بن عبد الله الخالدي المغربي، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ط1، 1970.

30- الجزائري محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، ج1، ج2، الإسكندرية، 1903.

31- الجزائري محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ط2، بيروت، 1964.

32- الجزائري محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، تح: عثمان محمد السيد، ج1، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2013.

33- الجيلاني عبد القادر، السفينة القادرية، تع: عبد الجليل عبد السلام، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، 2002.

34- // // ، سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تح: خالد محمد عدنان الزرعي، محمد غسان نصوح عزقول، دار السنابل، ط3، بيروت، 1994.

35- الجزائري محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائرالمحمية، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1981.

36- حشلاف عبد الله بن محمد بن الشارف بن علي، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929.

37- الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1982.

38- // // ، تاريخ الخلف برجال السلف، ج2، شركة دار الأمة، الجزائر، 1906.

39- الخاني عبد المجيد بن محمد، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، تصحيح: عبد الرزاق عبد الله، دار آراس للطباعة والنشر، ط2، أربيل، العراق، 2002.

40- ابن خلدون، المقدمة، تح: درويش جويدي، ط2، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 2000.

41- خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تق وتعريب: محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1982.

42- دينيزين، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، تر وتق، أبو العيد زوزو، دار هومة، الدزائر، 2003.

43- داون جورج القومدان، مشروع حملة محمد علي على الجزائر 1829م-1830م من خلال وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، تر: عثمان مصطفى عثمان، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010.

44- الراشدي أحمد بن سحنون، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تح وتق: المهدي البوعبدلي، د.ط، قسنطينة، الجزائر، 1973.

45- ابن زيدان عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تق: عبد الهادي التازي، مطابع أديال، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1990.

46- الزمخشري الخوارزمي أبو القاسم، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تع: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 2009.

47- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح وتق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013.

48- سبنسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتق: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، د.ط، الجزائر، 2006.

49- السنوسي محمد، الرحلة الحجازية، تح: علي السنوسي، الشركة التونسية للتوزيع، 1978.

50- شوفالييه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510م-1541م، تر: جمال حمادنة، د.م.ج ، الجزائر، 1991.

51- الشدياق طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، نظر فيه ووضع مقدمته وزفهارصه: فؤاد افرام البستاني، ج1، المطبعة الكاثوليكية، د.ط، بيروت، 1970.

52- الشقراني أحمد بن عبد الرحمن، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تقديم: ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

53- شالر وليام، مذكرات وليام شالر 1816-1824، تعريب وتق: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1982.

54- الصالحي الدمشقي محمد بن طولون، أعلام الورى بمن ولّي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، ط2، دمشق، 1984.

55- الطيبي شرف الدين، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب وهو حاشية الطيبي على الكشاف، تفسير سورة آل عمران وقسم من سورة النساء، حقق تفسير سورة آل عمران حسن ابن أحمد العمري، حقق التتمة صالح بن ناصر الناصر، إشراف محمد سلطان العلماء، ط1، مصرف أبوظبي الإسلامي، دبي، 2013، ص322.

56- العظمة عبد العزيز، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تح: نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتاب والنشر، د.ط، لندن، 1987.

57- العنتري صالح، مجاعات قسنطينة، تح وتق: رابح بونار، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1974.

58- علي باشا محمد، الرحلة الشامية، سلسلة التواريخ والرحلات 3، دار الرائد العربي، بيروت، د.ط، 1981.

59- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتح، عمر بن غرامة العمروي، ج1، دار الفكر، د.ط، بيروت، لبنان، 1995.

60- الغريسي الطيب بن المختاري، القول الأعم في بيان نسب قبائل الحشم، المطبعة الخلدونية، تلمسان، 1961.

61- كنعان القاضي محمد بن أحمد، تاريخ الدولة الأموية خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، د.ط، بيروت 1997.

62- كرد علي محمد، خطط الشام، ج6، مكتبة النوري، ط3، دمشق، 1983.

63- ابن كثير، تفسير ابن كثير، إختصار وتح: محمد علي الصابوني، مجلد 3، شركة الشهاب، الجزائر، 1990.

64- المازاري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، تح: يحيي بوعزيز، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر،2007.

65- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ج8، د س.

66- المشرفي محمد بن المصطفى، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، مخطوط. خ.ع، الرباط، رقم:1463.

67- // // ، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية 1839م-1916م، تح: إدريس بوهليلة، ج2، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2005.

68- المشرفي بن عبد القادر العربي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، م.خ.ع، الرباط، رقم: 2054. حققه الفرقان حسن وعنونه بـ: أدبيا ت الأوبئة في مغرب القرن التاسع عشر نموذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، منشورات دار التوحيد، ط1، الرباط، المغرب، 2014.

69- // // ، طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار، م.خ.ح، الرباط، رقم:1476. وتحت رقم:6533. ودرسه وحققه، يوسف أخليص، تحت عنوان، طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار وفي عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الأداب ابن المسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب،1999، 2000.

70- مشاقة ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، منشئاه ملحم خليل عبدو، أندراوس حنا شخاشبرى، طبع بمصر، 1908.

71- المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس، ط1، مجلد1، بيروت، 1981.

72- مجهول، غزوات عروج وخير الدّين، تح ونشر: عبد القادر نور الدين، مطبعة رودوسي قدور، د.ط، الجزائر، 1934.

73- المدني أحمد توفيق، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار (نقيب أشراف الجزائر) 1754م-1830م، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1974.

74- الناصري أبو راس الجليلي الراشدي المعسكري الجزائري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، قسم المخطوطات، الرياض، رقم: 3960.

75- الناصري أبو راس الجزائري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تح: بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، د.ط، 2011.

76- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولة العلوية، القسم الثاني، القسم الثالث، ج8، ج9، تح وتع: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، د.ط، الدار البيضاء، المغرب، 1997.

77- نعمان ابن عبده، حسر اللثام عن نكبات الشام، طبع في مصر، ط1، 1895.

78- هانريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر ، 1976.

79- الوزان الفاسي الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

80- تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام 1860م ومقدماتها في سوريا ولبنان، دراسة وتح: سهيل زكار، التكوين للدراسات والترجمة والنشر، د.ط، دمشق، 2006.

81- تاريخ الشام في مطلع العهد العثماني 1520م-1544م، إستنادا إلى مخطوطات نادرة في مكتبة الدولة Staatsbibiothek في برلين وإعادة جمع الصفحات الضائعة من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون الصالحي الدمشقي، دراسة وتح: أحمد إيبش، مكتبة مؤمن قريش، ط1، دمشق، 2010.

ج- المراجع:

1- أنيس محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي 1514م-1914م، دار الجيل للطباعة، د.ط، القاهرة، د.ت.

2- أباضة نزار، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 1994.

3- أندرسون ماتيو، تاريخ القرن الثامن عشر في أوربا، تعريب: نور الدين حاطوم، دار الفكر، د.ط، سوريا، 1988.

4- أمين محمد، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبعة أنفو برانت، د.ط، فاس، 2011.

5- أرسلان شكيب، حاضر العالم الإسلامي، مج1، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1973.

6- أسد ناصر الدين وآخرون، النهوض العربي ومواكبة العصر، مراجعة وتق: صلاح جرّار، ط1، مؤسسة عبد المجيد سومان، عمان، الأردن، 2005.

7- أوصديق فوزي، النظام الدستوري لدولة الأمير عبد القادر، دراسة تحليلية مقارنة، د، م، ج، ط2، الجزائر، 2003.

8- أبو ريّة محمود، جمال الدين الأفغاني، تاريخه ورسالته ومبادئه، إصدار: محمد توفيق عويضة، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية، القاهرة، 1966.

9- إتيين برونو، عبد القادر الجزائري، تر: خوري ميشيل، دار عطية للنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1997.

10- البطريق عبد العزيز عبد الحميد، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، د.ط، لبنان، 1974.

11- بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية ،نقله إلى العربية:نبيه أمين فارس،ونبيه البعلبكي،دار العلم للملايين، ط3،بيروت،1968.

12- بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، تح: عبد الحليم النجار-رمضان عبد التواب، مج3، دار المعارف، ط3، مصر، 1974.

13- بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، د.م.ج، ط2، الجزائر، 2009.

14- // // ، الإستعمار الأوربي في إفريقيا وآسيا والجزائر والمحيطات، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1988.

15- // // ، المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1748م-1780م)، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1993.

16- // // ، موضوعات وقضايا في تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

17- // // ، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 1962.

18- // // ، مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1988.

19- // // ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط2، الجزائر، 1996.

20- // // ، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري ، الدار العربية للكتاب، د.ط، تونس، 1983.

21- بوطرفة سعيد، الأمير عبد القادر حكم زمني وسلطة روحية، رجل، قدر، رسالة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2013.

22- بلاح بشير، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830م إلى 1989م، ج1، دار المعرفة، د.ط، الجزائر، 2006.

23- بوشامة كمال، الأمير عبد القادر ووحدة الأمة الجزائرية، من كتاب الأمير عبد القادر ملحمة الحكمة، زكي بوزيد للنشر، 2007.

24- بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية وإلى غاية، 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997.

25- برينار أندري وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، د.ت.

26- بالعربي خالد، تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، دار الألمعية، ط1، 2010.

27- تقي الفقيه محمد، جبل عامل في التاريخ، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1986.

28- التر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1989.

29- الجزائري بديعة الحسني، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، دمشق، 2000.

30- // // ، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، دار المعرفة، الجزائر، 2008.

31- // // ، ناصر الدين الأمير عبد القادر الجزائري بن محي الدين سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ط2، مطبعة السلام، دمشق، 1992.

32- الجزائري أحمد كمال، المفاخر في معارف الأمير الجزائري والسادة الأولياء الأكابر، راجعه وقدم له فضيلة الإمام محمد زكي إبراهيم، ط1، مطبعة العمرانية الأوفست، الجيزة، 1997.

33- الجيلالي يحي، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، سيطرة أوربا على العالم، ج4، المكتب الجامعي الحديث، د.ط، الإسكندرية، د.س.

34- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج4، د.م.ج، ط7، الجزائر، 1994.

35- // // ، سكة الأمير عبد القادر، وزارة التربية والتعليم، د.ط، الجزائر.

36- الجابري محمد عابد، المشروع النهضوي العربي، مراجعة عامة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، بيروت، لبنان، 2013.

37- الجسر نديم، قصة الإيمان بين الفلسفة والقرآن، دار الأندلس، د.ط، بيروت، لبنان، 1963.

38- جغلول عبد القادر، الأمير عبد القادر1807م-1883م، رئيس دولة مسلم فاعل ومفكر في الحداثة، من كتاب الأمير عبد القادر ملحمة الحكمة، زكي بوزيد للنشر، الجزائر، 2007.

39- حرب أديب، التاريخ الإداري والعسكري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847م، ج1، ج2، دار الرائد للكتاب، ط2، الجزائر، 2004.

40- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج3، دار الرشاد الحديثة، ط2، الدار البيضاء، 1994.

41- حمام محمد زهير، عين طاغين المكان الأخير لنكبة زمالة الأمير عبد القادر 16ماي1843، درا أسامة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.

42- حتي فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد، عبد الكريم رافق، مراجعة وتحرير: جبرائيل جبور، ج1، ج2، د.ط، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

43- حسين مروة وآخرون، دراسات في الإسلام، دار الفارابي، بيروت، ط2، 1981.

44- الخالدي سهيل، الإشعاع المغربي في المشرق، دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة منقحة، الجزائر، 2016.

45- // // ، الجزائر وبلاد الشام، صفحات من النضال المشترك ضد الإحتلال، منشورات الحضارة، ط1، الجزائر، 2013.

46- خرفي صالح، في ذكرى الأمير عبد القادر، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1984.

47- دودو أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830م-1855م، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1975.

48- بن داهة عدة، رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014.

49- دحدوح عبد القادر، إستحكامات الأمير عبد القادر العسكرية 1836م-1842م، دراسة تاريخية أثرية تحليلية، موفم للنشر، د.ط، الجزائر، 2008.

50- // // ، المرشد الأنيس إلى تاريخ وآثار عاصمة الونشريس، دار أبجديات للإتصال والنشر، د.ط، برج بوعريريج، الجزائر، 2012.

51- درويش أحمد، في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للابداع الشعري، الكويت، 2000.

52- دراج محمد، الجزائر في المصادر العثمانية دراسة للمصادر ونصوص نموذجية مترجمة من التركية إلى العربية، دار الوراق للدراسات والنشر، ط1، الجزائر،2017.

53- الراسي جورج، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر... إلى عبد القادر، دار القصبة للنشر، د.ط، الجزائر، 2008.

54- رستم أسد، بشير بين السلطان والعزيز، من سنة 1804م إلى 1841م، ج1، مطبعة الجامعة اللبنانية، د.ط، بيروت، 1957.

55- // // ، المحفوظات الملكية المصرية بيان بوثائق الشام، المجلد الثالث، الصحافة الأمريكية، بيروت، 1942.

56- رضا محمد رشيد، الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، د.ط، مصر، د س.

57- زيادة نقولا، الأعمال الكاملة، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، د.ط، بيروت، 2002.

58- الزبيري محمد العربي، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، د.ط، الجزائر، 1982.

59- // // ، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1972.

60- // // ، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1973.

61- زروال محمد، العلاقات الجزائرية الفرنسية 1791م-1830م، مطبعة دحلب، د.ط، الجزائر، د.ت.

62- السيد فؤاد صالح، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

63- سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الإحتلال، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.

64- // // ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.

65- // // ، السيرة الذاتية للأمير عبد القادر ضمن كتاب أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، د.ط، بيروت، 1996.

66- // // ، تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، معهد البحوث والدراسات العربية، د.ط، مصر، 1970.

67- // // ، الحركة الوطنية 1830م-1900م، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1992.

68- // // ، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر، 1992.

69- // // ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996.

70- سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني 1792م-1830م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

71- // // ، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز آل سعود البابطين للإبداع الشعري، د.ط، الكويت، 2000.

72- // // ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1988.

73- // // ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

74- // // ، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، ط2، الجزائر، 2008.

75- // // ، الحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية، ضمن كتاب ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، د.ط، بيروت، 2000.

76- // // ، الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1984.

77- // // ، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800م-1830م، ش.و.ن.ت، د.ط، الجزائر، 1979.

78- سليمان سيد أحمد، سياسة فرنسا في توطين الأوربيين في الجزائر، 1830-1887، بحث لشهادة الدراسات المعمقة، جامعة وهران، جوان، 1976.

79- شلشير ليندا، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تر: عمرو الملاح، دينا الملاح، مراجعة، عطاف مارديني، دار الجمهورية بيتموني وشركاه، ط1، دمشق، 1998.

80- شريط عبد الله، محمد بن مبارك الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، ط1، قسنطينة، 1965.

81- // // ، // // ، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والإجتماعي، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1985.

82- الشلق أحمد زكريا، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516م-1916م، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2002.

83- شويتام أرزقي، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري السياسي في الفترة العثمانية 1519م-1830م، دار الكتاب العربي، د.ط، الجزائر، 2010.

84- صلاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف و المصلح، منشورات دار الأديب، د.ط، وهران، 2007.

85- الصادق محمد الحاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، د، م، ج، د.ط الجزائر، 1964.

86- صلابي محمد علي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.س.

87- الطيبي محمد، الجزائر عشية الغزو الإحتلالي دراسة في الذهنيات والبنيات والمآلات، إبن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2009.

88- // // ، الرواية المعرفية والتدبير السياسي، قراءة في الإرهاصات الجيو سياسية للفكر الأميري، ضمن كتاب تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، تأليف جماعي، دا رالقدس العربي، ط1، الجزائر، 2000.

89- طربين أحمد، أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية 1842م-1861م دراسة في التاريخ السياسي والإجتماعي، مطبوعات جامعة دمشق، ط1، 1966.

90- طلاس مصطفى، فارس الجزائر الأمير عبد القادر ، دار طلاس، د.ط، دمشق، 1984.

91- طهاري محمد، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، شركة دار الأمّة للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 1999.

92- العقاد عباس محمود، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ والإمام محمد عبده، مكتبة مصر الفجالة، د.ط، مصر، د.ت.

93- عثمان فتحي، الفكر الإسلامي والتطور، دار القلم، القاهرة، د.ط، د.ت.

94- عمورة عمار، الموجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2002.

95- عميراوي احميدة، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 2004.

96- // // ، موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2003.

97- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ج3، المركز الثقافي العربي، د.ط، الدار البيضاء، الرباط، 1999.

98- عياد أحمد توفيق، التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1970.

99- العسلي بسام، الأمير عبد القادر، دار النفاس، ط2، بيروت، 1983.

100- عباد صالح، المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر 1870-1900، د، م، ج، د.ط، الجزائر، 1984.

101- // // ، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830) ، دار هومة للنشر، ط2، الجزائر، 2008.

102- العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ش.و.ن.ت، ط2، الجزائر، 1982.

103- // // ، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، د.م.ج، الجزائر، 1982.

104- // // ، الأمير عبد القادر مؤسس دولة وقائد جيش، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، د.ط، الجزائر، 1984.

105- عشيراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فرادة الرمز والريادة، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط3، وهران، الجزائر، 2009.

106- // // ، الأمير عبد القادر في بلاد المشرق، ملحق بكتاب 10 سنوات في أرض الإسلام للجاسوس ليون روش، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، الجزائر، 2011.

107- // // ، الأمير عبد القادر الشاعر، مدخل إلى الخطاب الشعري في محطة المابعد، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2009.

108- عوض عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864م-1914م، تق: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1969.

109- عفرون محرز، آل روتشيلد وآل بكري وتاليران، الملفات السياسية السّرية في تاريخ الشعوب، تر: مسعود حاج مسعود، دار هومة للطباعة والنشر، د.ط، الجزائر، 2013.

110- فارس محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي، مطابع ألف ياء الأديب، د.ط، دمشق، د.ت.

111- // // ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي، مكتبة دارالشرق بيروت، 1979.

112- فركوس صالح، المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين 814ق م-1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، د.ط، عنابة، الجزائر، 2002.

113- // // ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر1830م-1925م، مديرية النشر لجامعة قالمة، د.ط، 2010.

114- // // ، الحاج أحمد باي قسنطينة 1826م-1850م، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1993.

115- // // ، تاريخ جهاد الأمة الجزائرية للإحتلال الفرنسي المقاومة المسلحة 1830م-1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، د.ط، عنابة، الجزائر، 2012.

116- فرحات عباس، ليل الإستعمار، نقله إلى العربية: أبو بكر الرحال، مطبعة الفضالة، المحمدية، المغرب، د.ت.

117- قطاوي رينيه وقطاوي جورج، محمد علي وأوربا، نقله عن اللغة الفرنسية: ألفريديلوز، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، دار المعارف، مصر، 1952.

118- قاسي فريدة، الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832م 1847م، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2012.

119- القادري أبو بكر، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930م-1940م، ج1، مطبعة النجاح الجديد، ط1، الدار البيضاء، 1992.

120- قنان جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا، م.و.ك، د.ط، الجزائر، 1987.

121- // // ، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، د.ط، الجزائر، د.ت.

122- // // ، نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر، 1830م-1914م، د.م.ج، د.ط، الجزائر، د.ت.

123- // // ، دراسات في المقاومة والإستعمار، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، د، ت.

124- كوثراني وجيه، بلاد الشام في مطلع القرن العشريين السكان والإقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني، قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط3، الدوحة، قطر، 2013.

125- الميلي مبارك بن محمد الهلالي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، د.ط، الجزائر، 1964.

126- مياسي إبراهيم، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، د، م، ج، د.ط، الجزائر، 2007.

127- متولي أحمد فؤاد، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، الزهراء للإعلام العربي، قسم النشر، ط1، مصر، 1995.

128- مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، ج1، مكتبة الإسكندرينا، د.ط، د.س.

129- المنوني محمد، مظاهر يقظة المغرب الحديث، مطبعة الأمنية، د.ط، الرباط، 1973.

130- مفتاح عبد الباقي، بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي، تق: عبد الإله بن عرفة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2011.

131- المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، م.و.ك، ط2، الجزائر،1984.

132- مناصرية يوسف، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832م-1847م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2014.

133- نوار عبد العزيز سليمان، جمال الدين محمود محمد، التاريخ الأوربي الحديث في عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، د.ط، مصر، 1999.

134- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى إنتهاء العهد التركي، دار الحضارة، د.ط، الجزائر، 2006.

135- هلال عمار، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام، 1847- 1918، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 2007.

136- هلايلي حنيفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2008.

137- الهنداوي محمود إحسان، الحوليات الجزائرية، العربي للإعلان والنشر والطباعة والتوزيع، د.ط، دمشق، 1977.

138- واسيني الأعرج، كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، دار الأداب، بيروت، ط2، 2008.

139- وصفي زكريا أحمد، عشائر الشام، قدم له أحمد غسان سبانو، ط2، دار الفكر، دمشق، 1983.

140- وذان بوغوفالة، التاريخ الإقتصادي والإجتماعي لمدينتي المدية ومليانة في العهد العثماني، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2009.

141- وذان بوغوفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية الزمان والمكان، منشورات مخبر البحوث الإجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، جامعة معسكر، الجزائر، 2014.

142- الوزير محمد السيد محمد علي، الأمير عبد القادر الجزائري وثقافته وأثرها في أدبه، الطباعة الشعبية للجيش، د.ط، الجزائر، 2007.

ج- الملتقيـــــات:

1- بوعزيز يحي، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الدولية والوطنية، د.م.ج، د.ط، الجزائر، 1999.

2- بلقاسمي بوعلام، رحلة الأمير عبد القادر إلى فرنسا، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين، إكتشاف الذات للآخر، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين، دار السيودي للنشر والتوزيع، دورة الجزائر، 2005.

3- بسايح بوعلام، عبد القادر في دمشق وإنقاذ إثني عشر ألف مسيحي، الأمير الإنساني العالمي، فعاليات الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر وحقوق الإنسان، منظور الأمس ومنظور اليوم، الجزائر، 2008.

4- عبد الوهاب، الأمير عبد القادر في مواجهة أزمة الأسر، الأزمات في تاريخ المغرب الكبير، أشغال الندوة الدولية المنعقدة بصفاقس، تونس، 25-27 أكتوبر 2007.

5- الجار حامد، الجهاد وأبعاده الروحية والسياسية والاجتماعية في حياة الفرد والمجتمع، ملتقى الفكر الإسلامي العاشر، 10-19 جويلية 1976، عنابة، مج3، قسنطينة، دار البعث، 1980.

6- زروخي إسماعيل، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، الملتقى 26-27 نوفمبر، الجزائر، 1998.

7- عزوي محمد الطاهر، تصوف الأمير عبد القادر تصوف جهاد في الجزائر والسجن بفرنسا وفي المنفى بالمشرق العربي، الحياة الروحية للأمير عبد القادر، ملتقى الجزائر، 29 يونيو 1998، تلمسان، 2011.

8- عزوزي علي، الأمير عبد القادر والأسرى، الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية، عدد خاص، دار الأمة، 2001.

9- فعاليات الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر وحقوق الإنسان، منظور الأمس ومنظور اليوم، قصر زيغود يوسف، الجزائر، 24-25 ماي 2008.

10- القاسمي الحسني عبد المنعم، الأمير عبد القادر من خلال مخطوط نادر لأبو حامد العربي المشرفي، ذخيرة الأواخر والأوائل فيما ينتظم من أخبار الدول، الملتقى الدولي الخاص بالأمير عبد القادر، الجزائر، ماي 2005.

11- مطمر محمد العيد، جوانب من التنظيم العسكري في دولة الأمير عبد القادر، الملتقى الثقافي الوطني، تاقدمت عاصمة للجزائر في عهد الأمير عبد القادر، تيارت، مارس، 1996.

12- بن نبي مالك، مشكلة الحضارة، محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامي، قسنطينة، أوت، 1970.

خ- الدوريـــــات:

1- أمين عثمان، جمال الدين الأفغاني والتجديد الإسلامي، مجلة الأصالة، عدد 52، السنة السادسة، ديسمبر 1977.

2- بن سيفي عز الدين، موقف المغرب من الإحتلال الفرنسي للجزائر، 1830م-1832م، مجلة عصور الجديدة، عدد 24-25، جامعة وهران، 2016.

3- البوعبدلي المهدي، موقف ملك المغرب من الجزائر إثر الإحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، عدد 28 نوفمبر ديسمبر، 1975، قسنطينة، الجزائر.

4- بويحياوي عز الدين، حصن تازة حدث تاريخي وواقع أثري، مجلة أبحاث، منشورات دار الثقافة لولاية تيسمسيلت، 2012.

5- بورويبة رشيد، القلاع والحصون التي أنشأها الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، العدد75، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1983.

6- بلغراد محمد، الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر، مجلة التاريخ، عدد خاص بوفاة الأمير عبد القادر الجزائري، 1883م-1983م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983.

7- بوعزيز يحي، الطريقة القادرية والأمير عبد القادر، مجلة مسالك، عدد 33، تصدر عن مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1998.

8- // // ، مواقف بايات تونس من الأمير عبد القادر وثورته، مجلة الأصالة، عدد 23، الجزائر، جانفي فيفري، 1975.

9- البربير عبد الرحمن خليل، الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الكشافة اللبنانية، المجلد الثاني، ج9، بيروت، 1928.

10- التميمي عبد الجليل، أوّل رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأوّل سنة 1519م، م.ت.م، العدد8، زغوان، تونس، 1976.

11- // // ، مغامرة الحماية التونسية على وهران 1831م، المجلة التاريخية المغربية، عدد 5، جانفي، 1976، تونس.

12- تابلت علي، العلاقات الجزائرية البريطانية 1540م- 1830م، جريدة الشعب، عدد 85833، أفريل، الجزائر، 1991.

13- تركي رابح، من أعلام الجهاد الإسلامي في الجزائر، الأمير عبد القادر وأثر البيئة والتربية التي نشأ فيها في تكوين شخصيته، مجلة الثقافة، العدد88، السنة 15. جويلية. أوت1985.

14- الجزائري محمد بن الأمير عبد القادر، ميلاد دولة وتنظيم المقاومة، مقتبس من مجلة مسالك، عدد6 خاص، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، جوان 2003.

15- جمعة حسين، التجربة النضالية الوطنية للأمير عبد القادر الجزائري، مجلة التراث العربي، عدد 117-118، شهر أذار/ حزيران، سنة 2010.

16- حاجيات عبد الحميد، الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي، مجلة التاريخ، عدد خاص، الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر 1883م-1983م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983.

17- خروبي فتيحة، بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني وتطوره في ما بين (1563م-1792م)، مجلة المرآة للدراسات المغاربية، العدد الأوّل، جانفي 2014، جامعة وهران1 أحمد بن بلة.

18- دودو أبو العيد، جيش الأمير في نظر راسلوف، مجلة الدراسات التاريخية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، عدد 11-12، الجزائر، 2000.

19- الدروبي رانية، المسألة الزراعية في سورية بين عامي 1970-1995، واقعها وآثار تطورها، مجلة جامعة دمشق، المجلد16، العدد الأول، كلية الإقتصاد، جامعة دمشق، 2000.

20- دهاش صادق، الوحدة الوطنية السياسية والعسكرية لدولة الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة البحوث والدراسات العلمية، العدد6، ج2، جامعة يحي فارس، المدية، 2012.

21- الزبيري محمد العربي، مقاومة الجزائر للتكتل الأوربي قبل الإحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، عدد 12، 1973، الجزائر.

22- زروخي إسماعيل، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 14، ديسمبر 2000، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2000.

23- سعيدوني ناصر الدين، ثلاث وثائق تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الإحتلال، مجلة التاريخ، العدد 07، الجزائر، 1979.

24- // // ، النظام الضريبي في دولة الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، عدد75، وزارة الثقافة، ماي، جوان 1983.

25- سلطانة عابد، أضواء جديدة عن مغادرة الأمير عبد القادر الجزائر 1847م، مجلة المواقف، عدد 05، منشورات جامعة معسكر، ديسمبر 2010.

26- السمرائي أحمد محمود علو، محمد حمزة حسين الديلمي، الإنكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826م، مجلة التربية والعلم، المجلد 17، العدد2، السنة 2010، جامعة الموصل، العراق.

27- شويتام أرزقي، التنافس الدولي في البحر المتوسط خلال القرن 18م و19م وموقف الجزائر منه، حولية المؤرخ، العدد 3-4، الجزائر، 2005.

28- شعابنة عبد الحميد، الأمير عبد القادر المجاهد المثقف والسياسي الفارس، مجلة أول نوفمبر، عدد165، الجزائر، 2001.

29- صاري جيلالي، الحكيم بن زرقة، طبيب وجراح جيوش الأمير عبد القادر، مجلة الرؤية، تصدر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، سنة2، عدد03، 1997.

30- صيام زكريا، الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد خاص، رقم 75، 1983.

31- عميراوي احميدة، جيش الإحتلال الفرنسي في الجزائر، مجلة سيرتا، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد 12، السنة 1999.

32- عماري الحسين، الأمير عبد القادر الجزائري، رجل الدولة والقائد العسكري، مجلة عصور الجديدة، العدد 14-15، جامعة وهران، الجزائر، أكتوبر 2014.

33- غطاس عائشة، سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة إنسانيات، عدد3، وهران، 1997.

34- فركوس صالح، الباي محمد الكبير وبحث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، العدد71، سنة12، سبتمبر- أكتوبر، الجزائر، 1982.

35- قلالة سليم، هل تنقلب التكنولوجيا المتقدمة على ثقافتها، مجلة التبيان، العدد03، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، أوت، 2017.

36- قداش محفوظ، جيش الأمير عبد القادر تنظيمه وأهميته، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، العدد75، الجزائر، 1983.

37- قبايلي هواري، العملة الجزائرية في أواخر العهد العثماني ودولة الأمير عبد القادر، مجلة عصور، عدد 12-13/14-15، 2008-2009، جامعة وهران.

38- بن قبي صالح، النظم المدنية والعسكرية لدولة الأمير عبد القادر، مجلة مسالك، مؤسسة الأمير عبد القادر، عدد04، الجزائر، 1999.

39- المدني أحمد توفيق، الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سوريا المحزنة والدولة العثمانية 1860م-1983م، عدد خاص، الجزائر، 1983.

40- مطاطة أحمد، نظام الإدارة والقضاء في عهد الأمير عبد القادر، مجلة الذاكرة، السنة الثالثة، العدد 4، المتحف الوطني للمجاهد، المدية، الجزائر، 1996.

41- ملاح أحمد، الأمير عبد القادر بين الإنسانية والروحانية، مجلة الكلمة، العدد 66-67، السنة 17 شتاء 2010، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث.

د- الموسوعات والمعاجم:

1- بوعزيز يحي، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط1، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1996.

2- جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

3- الحموي البغدادي شهاب الدين، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، ج3، د.ط، لبنان، 1979.

4- الزركلي خير الدين، الأعلام، دارالعلم للملايين، بيروت، 1980.

5- شرفي عاشور، معلمة الجزائر، القاموس الموسوعي، نقله إلى العربية عبد الكريم أوزغلة وآخرون، تنسيق: مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، 2006.

6- صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط3، الرياض، 2000.

7- العربي إسماعيل، معركة سيدي إبراهيم ومصير أسرارها، الموسوعة التاريخية للشباب، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1984.

8- القاسي محمد سعيد وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، حققه وقدم له: ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، ج1، دمشق، 1988.

9- المدني أحمد توفيق، جغرافيا القطر الجزائري للناشئة الإسلامية، سانديكا دينسيانيف، الجزائر، 1948.

10- النويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة النويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1980.

11- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر، ط2، مجلد1، الرياض، 1999.

ذ- الأطروحات والرسائل الجامعية:

1- بقبق زهرة، الأمير عبد القادر في الأسر 1848م-1852م، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجستير في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، تحت إشراف د. الصم منور، جامعة وهران السانيا، 2009-2010.

2- صام منور، الأمير عبد القادر وأحداث الستين 1860، من خلال الوثائق الفرنسية، رسالة دكتوراه دولة، وهران، 1971.

3- معاشي جميلة، الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، إشراف كمال فيلالي، جامعة قسنطينة، 2007/2008.

ر- المواثيق الرسمية:

- **التقارير:**

- أرشيف بلدية برج الأمير عبد القادر "تازة سابقا".

- بويحياوي عز الدين، تقرير حول حفرية أنقاذ موقع تازة (برج الأمير عبد القادر)، أرشيف مؤسسة الأمير عبد القادر، فرع تيسمسيلت، جويلية 2001.

- تقرير الديوان الوطني لتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية المحمية، ولاية تيارت.

❖ قائمة المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

أ- الوثائق الأرشيفية:

1- أرشيف ما وراء البحار: Les Archives d'outre-mer:

- S.H.D, Série, M, sous série M 881, Vie Politique et Militaire D'Abdelkader, conférences faites à la réunion des officiers d'Alger le 28 Mai et 11 Juin 1879 par Moncieur le Capitaine Varigault.
- S.H.D Série. M. Sous série M881, F1, 136pages.
- Fond Privée Marcel Emérit, ANOM159- APOM/1.
- FO3/43.

ب- المصادر (Les Sources) والمراجع (Les ouvrages) :

1. L'Emir Abdelkader, le livre D'Abdelkader, traduit par Gustave Dugat, EDIT, Bouslama Tunis, S.D.
2. Azan (P), Les grands soldats de l'Algérie, publication comité national métropolitaine du centenaire de l'Algérie, paris, 1930.
3. Azan (P), L'émir Abdelkader (1808-1883), du fanatisme musulman au patriotisme français, Hachette, paris, 1925.
4. Achille (F), Histoire de la conquête et de la colonisation de l'Algérie 1830-1860, Arnauld de vresse, paris, 1860.
5. Augustin (B), Histoire des colonies Francaises et L'expansion de la France dans le monde, T2, L'Algérie, éd. Alcan, Paris, 1929.
6. Berjaud (L), Boutin Agent secret de Napoléon 1er et précurseur de l'Algérie Française, Frédéric Chambriand, 1950.
7. Bellemare (A), Abdelkader sa vie politique et militaire, Edition Bouchene, Alger.
8. Bugeaud (T.R), Expose de l'état actuel de la société arabe du gouvernement et de la législation qui la régit, éd, Imprimerie du gouvernement, Alger, 1844.
9. Berteuil (A), L'Algérie française, Histoire, mœurs, coutumes, industrie, agriculture, T1, D.L.E, paris, 1856.
10. Bernard (A), L'Algérie, histoire des colonies de la France dans le monde, éd. Alcan, Paris, 1929.
11. Bruno (E), pouillon (F), Abdelkader le magnanime, ED: Gallimard, paris, 2003.
12. Bouchenaki (M), La monnaie de l'émir Abdelkader, 1836-1841, SNED, Alger, 1976.
13. Benachenhou (A), L'état Algérien en 1830, ses institutions sous l'émir Abdelkader, I.E.P.A, Alger, 1969.
14. Bonnafont, Douze ans en Algérie ,1830- 1842, E.D.E. paris, 1880.

15.Boudicour (L), Histoire de la colonisation de l’Algérie, éd. Le coffre, Paris, 1860.
16.Caillé (J), Une mission Léon roches à rebat en 1845, Casablanca, 1947.
17.Christian (p), L’Afrique française l’empire de Maroc et les déserts de Sahara, conquêtes victoires et découvertes des Français depuis la prise d’Alger jusqu’à nos jours, Robarts, Toronto, paris, 1846.
18.Changarnier (T), Mémoires du général Changarnier, Campagnes d’Afrique 1830-1848, Intra diction, Déstre (H), Édition, Berger, Paris, 1930.
19.Clauzel(B), Correspondance du maréchal Clauzel, gouverneur général des possessions françaises dans le nord de l’Afrique 1835-1837, publié par Esquer(G), éd, Larose, paris, 1948.
20.Churchill (H), La vie d’Abdelkader, M.H, Alger, 1981.
21.Dinesen (A), Abdelkader et les relations entre les Français et les Arabes en Afrique du Nord, A.N.E.P, Alger, 2001.
22.Daumas (E), Correspondances du capitaine Daumas: consul à Mascara, 1837-1839, collection de document inédit par le gouvernement du général d’Algérie, publiée par Yver (G), éd, Jourdan, Geuthenere Paris, 1921.
23.De France(A), Les prisonniers d’Abdelkader ou cinq mois de captivité chez les arabes, éd Desessait, T1, Paris, 1837.
24.Du Barail (F.ch), Mes souvenirs 1820-1851, T1, 12éme librairie plan nourrit, Paris, 1897-1898.
25.De Card (R.E), Les traités entre la France et le Maroc, étude historique et juridique, éd, Durand, paris, 1898.
26.Duby(G), Mandrou (R), Histoire de la civilisation française XVII^{e}-XX^{e} ciécle, librairie Armand colin, Paris,1968.
27.De Martimprey, Souvenirs d’un officier d’état-major histoire de l’établissement de la domination française dans la province d’Oran 1830-1847, éd, Maisons Quantin, Paris, 1886.
28.Emérit (M), L’Algérie à l’époque d’Abdelkader, Edition Larose, Paris, 1951.
29.Emérit(M), La situation économique de la régence d’Alger en 1830, in imploration historique, n’ mars-avril, 1952.
30.Esterhazy(W), Notice historique sur le Maghzen d’Oran, typographie de Berrier, éd, paris, 1849.
31.Esquer (G), Les commencement d’un Empire, La prise d’Alger, 1830, Larose, paris, 1929.
32.Ferdinand de conot, Recueil manuel et pratique de traités de conventions et autres diplomatique, E.B, paris, 1849.
33.Girardin (E), Questions de mon temps 1836-1856, Question politique, S.E, paris,1858.
34. Ideville (HD), Le Maréchal Bugeaud, d’après sa correspondance intime et des documents inédits 1784-1849, T2, L.Didot, paris, 1883.
35.Julien (Ch-A), Histoire de l’Algérie contemporaine. La conquête et les Débuts de la colonisation (1827- 1871), presses universitaires de France, Paris, 1964.

36.Lacoste (Y), André Nouschi, Prenant André L'Algérie passé et présent, Ed sociales, paris, 1960.
37.Loiseleur (J), Les Résidences royales de la loire, P.E.D, Paris, 1863.
38. Lucette (V), Le Maghreb avant la prise d'Alger, Flammarion, paris, 1969.
39.Lapène (M), Tableau historique de la Province d'Oran 1791-1851, éd, Lamort, Metz, 1842.
40.Louise Napoléon Bonaparte, Discours et Messages de Louis Napoléon Bonaparte, Depuis son retour en France jusque au 2 décembre 1852, Paris, T.P.F, 1853.
41.Louis jean Sureau, Alescis Feul Varc'H L'Emir Abdelkader à Amboise, 1848-1852, F.S.L, France, 2002.
42.Lesur (CL), Annuaire historique universel, Histoire politique pour 1847, Rédige par Fouquier (A), Ed Thoisnier Desplaces, paris, 1848.
43.Ladmir(J), les guerres d'Afrique, éd, Renault, Paris, 1858.
44.Lacoste(Y), Et autres, L'Algérie passé et présent, paris, Ed sociales, 1960.
45.Mont Rond, Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830-1847, T2, plée, l'Abdelkader, éd, berba, paris, 1847.
46.Marchand (E), L'Europe et la conquête d'Alger d'après des documents originaux tirés des archives de L'Etat libraires académique Perrin, paris, 1913.
47.Mouilleseaux (L), Histoire de l'Algérie, Imprimerie Oberthur, paris, 1962.
48.Nettement (A), Histoire de la conquête d'Alger écrite sur des documents Inédits et authentiques, librairie jacques le coffre, Paris, 1856.
49.Narcisse Faucon, Le Livre D'or de L'Algérie challamel et Editeurs, paris, 1889.
50.Plantet (E), Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579-1833, Tome II, Elibron classique séries, 2007.
51.Plantet (E), Correspondances des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), Ed intégrale, T2, annoté et inédit, paris, 1889.
52.Prince De Joinville, Vieux Souvenirs (1818-1848), Ed de Grand luxe, paris, 1894.
53.Péllissier (R), Annales Algérienne, T1, Librairie Militaire, Paris, 1854.
54.Patoni (F), L'émir El haj Abed-el-Kader, Règlement militaire avec appendice, Alger, 1889.
55.Rousc(CH), France et Afrique du nord avant 1830. Les persécuteurs de la conquête, Paillard, Paris, 1932.
56.Rousset(C), La conquête d'Alger, Imprimeurs-Editeurs E. Plon et Cie, paris, 1880.
57.Rinn (L), Marabouts et Khouan, étude sure l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan libraire Ed, Alger, 1884.
58.Rozet ET Carette, L'Algérie. F.F.E, paris, 1850.
59.Roches (L), Dix ans à travers l'islam 1834-1844, éd, Didot, T1, paris, 1885.
60.Roches (L), Trente-deux ans à travers l'islam 1832-1864,T1, F, Didot, paris, 1885.

61.Theodore(F.H) Et Lafosse(T), Histoire de la gendarmerie d'Afrique et la colonie d'après les documents de l'Armée 1830-1860, L.A.B.E, 1860.
62.Venture(P), Alger au XVIII émie siècle, Editeur Boushama, Tunis, S.D.
63.Zoumoroff (PH), Et autre, Abdelkader, E.F.A, France, 1994.

ت- الدوريــــات (Les Revues) :

1. Azan (P), Sidi Brahim, Dictionnaire biographique international des écrivains, pare Heury cornoy, E.L.F, paris, 1902.
2. Azan (P), Les débuts D'Abdelkader, in: bulletin de la société de géographie d'Oran, T XII, 1921.
3. Berbrugger (A) et Monnereau, In R.A.N :14,15, 1870,1871.
4. Bourouiba (R), Places fortes et établissements militaires fondés par l'Emir Abdelkader, T2, in R.H, N° spécial à l'occasion du centenaire du décès d'Abdelkader Alger, 1983.
5. Boualem Bessaieh, Abdelkader à Damas, Souvetage de douze mille chrétiens, Majalat Itinéraire N°6, Juin 2003, ANEP, Rouiba.
6. Cour(A), L'occupation Marocaine de Tlemcen Septembre 1830, Janvier 1836, R.A, T52,1908.
7. Chabeau (A), Attaque des batteries algériennes par Lord Ex Mouth en 1816, in R.A, T19, 1875.
8. Delpech(A), Histoire de hadj Abdelkader, passons cousin hasen ben ali talib, tradection partielle, in R.A, T20, 1876.
9. Farid (H), La grande Bretagne et la résistance de l'émir Abdelkader d'après les correspondances du consul général d'Alger 1837-1847, R.H, T11, 1981.
10. Haedo (D), Topographie et histoire générale d'Alger, traduit, de l'espagnol par Yacono Xavier, peut-on évaluer la population de l'Algérie en 1830, R.A, O.P.U, n°95, 1954.
11. Hellal (F), La grande Bretagne et la résistance de l'émir Abdelkader d'après les correspondances du consulat général d'Alger 1837-1847, in R.H, Alger, N°11/1981.
12. Le Moniteur, Recueil des débats législatifs et politique des chambres française, France, janvier, 1848, N-03.
13. Marçais (G) et Lamar(D), Recherches A' archéologie musulmane, Tiherrt, Tagdempt, In R.A, xc, 1946.
14. R.S.P, Abdelkader en exil d'après des documents inédit 28em année, janvier-juin, 1913.
15. Revue des deux mondes, T16, E.B.D.M, Pris, 1 octobre, 1852.

16. Sari (DJ), Le rôle de l’espace dans la stratégie de l’émir Abdelkader, R.H, N° spécial à l’occasion du centenaire du décès d’Abdelkader Alger, 1983.
17. Saint CALBER (CH), Constantine et quelques auteurs arabes constantinois, R.A, T57, 1er trimestre, 1913.
18. Yver (G), Abed El Kader et le Maroc en 1838, in R.A, N’60, 1919.

الفهـــــرس

مــدخــل تاريخي:

الأوضاع العامة في الجزائر وفي بلاد الشام أواخر القرن 18م ومطلع القرن 19م.

الفصل الأول:

الإحتلال الفرنسي للجزائر في ظل موجة الإستعمار الحديث وشرعية الدفاع الوطني.

الفصل الثاني:

جوانب من شخصية الأمير عبد القادر وإرسائه الركائز القاعدية لمشروع بناء الدولة الجزائرية.

الفصل الثالث:

المشروع النهضوي الأميري بالجزائر بين النظري والتطبيقي 1832م-1847م.

الفصل الرابع:

المشروع السياسي والإجتماعي للأمير عبد القادر في بلاد الشام ودوره في إخماد الفتنة الطائفية 1852م-1860م.

الملخص:

إن تاريخ الأمير عبد القادر تاريخ عظيم ومشرف، وهذه حقيقة لا يستطيع إنكارها أو التشكيك فيها، فالمتخصص في تاريخ الأمير يخرج بحقيقة واحدة هي إيمانه بالإنسان وما يمكن أن يقدمه للإنسانية، فهو لم يكن بالرجل العادي، بل كان يفكر بعمق ويطلق العنان لفكره إلى الأعلى، فقد تقدّم فكره التنويري المرحلة التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك، ورسم طريقا لمن يأتي بعده، ووضع الأسس الأولى لدولة جزائرية محدثة ومعاصرة، حيث أنشأ دائرة مهيكلة،وأقام مصانع، وقلاع وحصون محكمة، لكن الذين كانوا يحيطون به لم يستوعبوا نظريته للمستقبل، وحاولوا إجهاض محاولة بنائه للدولة الجزائرية.

عبّر الأمير عبد القادر بصدق عن موقف الشعب الجزائري وهو جزء من أمة العرب الرافض للهيمنة الأجنبية، كما استجاب لتطلعاته في إنشاء دولة حديثة في إطار قيمه العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيئته البار، ونتاج ثقافته الأصيلة ولسان عصره الصادق، وهذا يتطلب في ظروف عصرنا وحاجات مجتمعاتنا من الدارسين لملحمته، والباحثين في تراثه والمهتمين بإنجازاته تجاوز حياته الخاصة وعدم الإكتفاء بتسجيل تقريري ووصفي لأعماله الفردية وبطولاته الجهادية إلى محاولة التعرف إليه بنظرة جديدة، وذلك من خلال رسم ملامح العصر الذي عاشه وتأثر به وأثر فيه بأبعاده الدولية الأوربية منها والعثمانية، وبخصوصيته الجزائرية، وربط كل ذلك بالخصائص التي ميّزت أعماله والصفات التي طبعت شخصيته والتي مكنته من بلورة فكرة التجديد والتغيير الجذري للمجتمع الجزائري ونقله من التخلف إلى النهضة، ومن الهيمنة عليه إلى الحرية، هذا ما جعله جديرا بأن يدرج في عداد رجالات النهضة المبكرين.

الكلمات المفتاحية:

الأمير عبد القادر–النهضة العربية– الجزائر–مشروع–النظري–التطبيقي–بناء دولة–البيعة–الوحدة الوطنية–بلاد الشام.

Résumé :

L'histoire du L’émir Abdelkader est une grande et honorable histoire, et c'est un fait qui ne peut être ni nié ni remis en question. L’expert de l’histoire du L’émir Abdelkader a une vérité: sa foi en l’homme et ce qu’il peut offrir à l’humanité. Il n'était pas l'homme ordinaire, mais il réfléchissait profondément et déchaînait son idée. L'idée des Lumières a avancé le stade dans lequel vivait alors l'Algérie, a tracé la voie pour ceux qui la suivaient et a jeté les bases d'une mise à jour. et état algérien moderne. Il établissait un cercle structuré, des usines établies, des forteresses et des forteresses fortifiées, mais ceux qui l'entouraient ne comprenaient pas sa théorie pour l'avenir. Et a tenté d'interrompre la tentative de construire l'Etat algérien.

L’émir Abdelkader a exprimé sincèrement la position du peuple algérien, qui fait partie de la nation arabe rejetant l'hégémonie étrangère. Il a également répondu à ses aspirations de créer un État moderne dans le cadre de ses valeurs arabes et de ses principes islamiques. Il était le fils de son environnement réel et le produit de sa culture authentique et de la langue de son âge. Nos sociétés sont des érudits de son héritage, des érudits de son patrimoine et de ceux qui s'intéressent à ses réalisations. Il a dépassé sa vie privée et non seulement enregistré mon rapport et les descriptions de ses œuvres individuelles et de ses héroïnes djihadistes pour essayer de l'identifier avec un nouveau look. Endodontique incluant ottoman, algérien et particularité, tout cela était lié aux caractéristiques qui caractérisaient son travail et aux qualités qui caractérisaient son caractère, ce qui lui permettait de cristalliser l’idée de renouveau et de changement radical de la société algérienne et de la transformer en sous-développement. et de son hégémonie à la liberté. Cela le rend digne d’être inclus parmi les hommes de la première renaissance.

Les mots clés : L’émir Abdelkader-Renaissance arabe-Algérie-Projet-Théorique-Pratique-Etat de construction-Allégeance-Unité nationale-Le levant.

الملخص

إن تاريخ الأمير عبد القادر تاريخ عظيم ومشرف، وهذه حقيقة لا يستطيع إنكارها أو التشكيك فيها، فالمتخصص في تاريخ الأمير يخرج بحقيقة واحدة هي إيمانه بالإنسان وما يمكن أن يقدمه للإنسانية، فهو لم يكن بالرجل العادي، بل كان يفكر بعمق ويطلق العنان لفكره إلى الأعلى، فقد تقدّم فكره التنويري المرحلة التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك، ورسم طريقا لمن يأتي بعده،ووضع الأسس الأولى لدولة جزائرية محدثة ومعاصرة، حيث أنشأ دائرة مهيكلة،وأقام مصانع، وقلاع وحصون محكمة، لكن الذين كانوا يحيطون به لم يستوعبوا نظريته للمستقبل، وحاولوا إجهاض محاولة بنائه للدولة الجزائرية. عبّر الأمير عبد القادر بصدق عن موقف الشعب الجزائري وهو جزء من أمة العرب الرافض للهيمنة الأجنبية، كما استجاب لتطلعاته في إنشاء دولة حديثة في إطار قيمه العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيئته البار، ونتاج ثقافته الأصيلة ولسان عصره الصادق، وهذا يتطلب في ظروف عصرنا وحاجات مجتمعاتنا من الدارسين لملحمته، والباحثين في تراثه والمهتمين بإنجازاته تجاوز حياته الخاصة وعدم الإكتفاء بتسجيل تقريري ووصفي لأعماله الفردية وبطولاته الجهادية إلى محاولة التعرف إليه بنظرة جديدة، وذلك من خلال رسم ملامح العصر الذي عاشه وتأثر به وأثر فيه بأبعاده الدولية الأوربية منها والعثمانية، وبخصوصيته الجزائرية، وربط كل ذلك بالخصائص التي ميّزت أعماله والصفات التي طبعت شخصيته والتي مكنته من بلورة فكرة التجديد والتغيير الجذري للمجتمع الجزائري ونقله من التخلف إلى النهضة، ومن الهيمنة عليه إلى الحرية، هذا ما جعله جديرا بأن يدرج في عداد رجالات النهضة المبكرين.

الكلمات المفتاحية:

الأمير عبد القادر؛ النهضة العربية؛ الإحتلال الفرنسي للجزائر؛ مشروع بناء الدولة الجزائرية؛ البيعة؛ الوحدة الوطنية؛ بلاد الشام؛ المشروع النهضوي الأميري؛ الفتنة الطائفية؛ مكانة الأمير عبد القادر .

نوقشت يوم 21 نوفمبر 2018